رحمة للعالمين

(سِفْرٌ نفيسٌ في السِّيرةِ النَّبويّةِ العطرةِ غيرَ مجرى حياةِ المشاهيرِ)

تأليفُ

العلّامةِ المؤرِّخِ النّسابةِ

القاضي محمد سليمان المنصور فوري رحمه الله

(١٢٨٤-١٣٤٩هـ)

تعريبُ

الدكتور مقتدى حسن ياسين الأزهري رحمه الله

قدّم لهُ ونقّحهُ وعلّق عليهِ

صلاحُ الدينِ مقبولُ أحمدُ

الجزءُ الأوّلُ

دار إيلاف الدولية
للنشر والتوزيع

رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ

(سِفْرٌ نَفِيسٌ فِي ٱلسِّيرَةِ ٱلنَّبَوِيَّةِ ٱلعَطِرَةِ غَيْرَ مُجْرَى حَيَاةِ ٱلْمَشَاهِيرِ)

الجُزْءُ ٱلأَوَّلُ

العنـــــوان:	رحمة للعالمين
تـألـــــيف:	القاضي محمد سليمان المنصورفوري رحمه الله
اللغـــــة:	العربية
ترجمـه للعربيـة:	د. مقتدىٰ حسن ياسين الأزهري رحمه الله
طريقـة النشـــر:	كتاب مطبوع
عـدد الصفحـات:	الجزء الأول: ٦٤٠
الترقيـم الدولـي:	978-9933-587-78-9

الطبعة الأولى

١٤٤٥هـ - ٢٠٢٤م

دار إيلاف الدولية

للنشر والتوزيع

الكويت

فرع حولي: شارع المثنى - بجوار مجمع البدري

نقال: ٠٠٥٦٥٠٥٨٨٩ ٩٦٥+ - هاتف: ٢٢٦٤١٧٩٧ ٩٦٥+

(دار وقفية دعوية)

المدير العام: د. فرحان بن عبيد الشمري

falaslmi@gmail.com

رحمة للعالمين

(سفر نفيس في السيرة النبوية العطرة غير مجرى حياة المشاهير)

تأليف

العلامة المؤرخ النسابة

القاضي محمد سليمان المنصور فوري رحمه الله

(١٢٨٤-١٣٤٩هـ)

تعريب

الدكتور مقتدى حسن ياسين الأزهري رحمه الله

قدم له ونقحه وعلق عليه

صلاح الدين مقبول أحمد

الجزء الأول

دار إيلاف الدولية

للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق
لكتاب «رحمة للعالمين»

- المؤلف وكتابه في نظر معاصريه من الأعلام
- بين يدي الكتاب
- ترجمة المؤلف
- كتاب «رحمة للعالمين» خصائصه ومعنوياته

بسم الله الرحمن الرحيم

المؤلّف وكتابه في نظر معاصريه من الأعلام

- **اقترح موحّد الجزيرة الملك عبد العزيز آل سعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ (-١٩٥٣م) على المؤلف أن يجمع كتابًا في «تأريخ نجد» حين التقائه به، وتحققه من اطلاعه الواسع، وعلمه الغزير في هذا الباب،** وذلك في أيام الحج سنة ١٣٤٨هـ = مايو سنة ١٩٣٠م، وزوّده ببعض المصادر في الموضوع أيضًا، **ولكن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ توفي قرب يلملم في أول محرم ١٣٤٩هـ وهو على متن الباخرة المتجهة إلى الهند،** وأوصل زملاؤه في حملة الحج تلك الكتب مع أمتعته الأخرى إلى بيته في «بتياله» (ولاية فنجاب الهندية). (كتاب «القاضي محمد سليمان المنصورفوري» للأستاذ المؤرّخ محمد إسحاق بهتي (ص١١٤)

- **كان مؤلف «رحمة للعالمين»** عالـمًا، عاملًا، متينا، رزينا، مطلعًا على تضاريس الواقع، وكان له ذوق خاص في فن التأريخ الإسلامي...ولايوجد -الآن- حولي من بعده من أقول له: «**اجلس بنا، نؤمن ساعة.**» (العلامة أبو الوفاء ثناء الله الأمرتسري (-١٩٤٨م)

- اجتمعت في المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ نورانية الضمير مع الفكر المستنير، والكيفية الروحية مع الكفاءة العقلية، فكان بعلمه عالمًا، وبقلبه زاهدًا، صفيّا، شغوفا بالدعوة والإرشاد، محبا للصلح والسلام، متواضعًا، لا يحبّ التظاهر بعلمه ومنصبه، وأعلى أوصافه كلها هو حبّه البالغ للنبي ﷺ وتوقيره... **وأفضل مؤلفاته على الإطلاق: «رحمة للعالمين»، الذي يتضمن المقارنة بين الصحف السماوية، والدفاع عن مطاعن أهل الكتاب، والرد عليها، وبيان الخصائص النبوية في الظاهر، ولكنه في الحقيقة يحوي في طيّه صورة رائعة لمحاسن الإسلام، التي لأجلها فاز بخطاب «الدين الكامل»**. (السيد سليمان الندوي (-١٩٥٣م) (صاحب «دائرة معارف في سيرة النبي ﷺ») من تقدمته للجزء الثالث من «رحمة للعالمين»)

- **«وإن ألّفت في موضوع السيرة كتب لا تحصى، ولكن عدّة منها فقط تعتني بصحة وقائعها وأحداثها، وعلى رأس قائمتها: «رحمة للعالمين»**. (الأستاذ أبو الأعلى المودودي (-١٩٧٩م) «رحمة للعالمين» (ص٤٤) مقدمة الشيخ ميان طاهر-مركز الحرمين)

- «...قلّ ما كان لكتاب آخر من التأثير في قلبي وعقلي مثل ما كان لهذا الكتاب، فكان إخلاص المؤلف وإيمانه، وطرازه الخاص في الدعوة والتربية، وبساطة حوادث السيرة وجمالها وتأثيرها، **الذي نفذ منه إلى جسمي وروحي تيّار كهربائيّ.** وأرى أن هذا الكتاب من الكتب التي لها منّة جسيمة عليَّ، **وأنا دائم الترحُّم على المؤلف، والدعاء له بالقبول عند الله تعالى، ورفع**

الدرجات.» (الأستاذ أبو الحسن الندوي: «في مسيرة الحياة»، (٨١-٨٢)

- ولم يهتمّ أصحاب «السيرة» (بالأردية) بتحرّي الدقة فيما ذكروا من روايات أو دراسة وتحقيق ما يكتبون عن السيرة النبوية...، **ويستثنى من هذه المؤلفات: كتاب سليمان المنصور فوري «رحمة للعالمين»**. (الأستاذ يوسف السيّد عامر (قسم اللغة الأردية بجامعة الأزهر) مترجم «دائرة معارف في سيرة النبي ﷺ» للعلامة شبلي، والسيد سليمان الندوي (١/ ١)

- كانت قد ابتدأت كتابة «السيرة النبوية» بالأردية في بداية القرن العشرين الميلادي، وتكلّل القاضي محمد سليمان بأوّليتها بحكم البحث والتحقيق، فكان كتابه (رحمة للعالمين) أول إنجاز في السيرة، وإن كانت طباعة جزئه الأخير بعد وفاته. (الدكتور محمد ياسين مظهر الصديقي «مصادر السيرة النبوية»: ٥٨١)

- وإن طبعت بعض الكتب قبل «رحمة للعالمين» إلا أنه تلقّي بالقبول والاشتهار ما لم يحصل لغيره من الكتب سوى «سيرة النبي ﷺ». (د. محمود خالد «مصادر السيرة»: ص٥٨١)

- في الظاهر يتعذّر اجتماع البصيرة التأريخية النافذة، وندرة البيان الجذّاب، وحلاوة الخطاب الدعوي، واختيار الأسلوب الحكيم في الكتابة والتحرير في شخص واحد، ولكن - بفضل الله تعالى ولطفه وكرمه- كان القاضي محمد سليمان المنصور فوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (مؤلف «رحمة للعالمين») متحلّيا بهذه الكمالات والمحاسن، وبسببها شرّفه الله عزّ وجل بأن تلقى الناس كتبه بالقبول، وهي تتميز في عالم الكتب بكثرة طبعاتها حتى الآن، بعد مضي ثلاثة أرباع القرن أيضًا. (تقديم مركز الحرمين لـ«رحمة للعالمين»: ص٣٩)

- **كثيرا ما يميل إلى ترجيحات المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أحداث السيرة أستاذنا الشيخ صفيّ الرحمن المباركفوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ(-٢٠٠٦م) في كتابه «الرحيق المختوم»، بوصفه المؤلّف بـ:«العلامة المحقق الكبير القاضي محمد سليمان المنصورفوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.»**

هذا، وقد كان مؤلفنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ رجل دين ودولة على سواء، فهو بحكم منصبه في المحكمة العليا للقضاء، كان يجالس رئيس الإمارة وأمراءها، وكبار مسئولي الاحتلال البريطاني أيضا مع كرههم من جانب، ومن جانب آخر كان يُرى أنه يرأس مؤتمرات أهل الحديث في شبه القارّة الهندية، ويشارك في الحفلات الدينية والدعوية الأخرى بكل أريحيّة.

ونظرًا إلى أهميته البالغة في أداء مهامّه بكل جهد وإخلاص، مع تمسّكه بعقيدته ودينه، كان يستثنى مما يخالف ثوابته الإسلامية من تقديم التحيات الرسمية للإمارة وأميرها.

﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٤﴾ [الجمعة: ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بين يدي الكتاب

إنّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمّدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

أما بعد:

فإن الكتاب والسنّة هما المصدران الأساسيّان للإسلام، ولا تستغني الأمّة عنهما في معرفة العقائد، والعبادات، والأحكام والمسائل، والمعاملات والأخلاق، والمعيشة والاقتصاد، والتعليم والتربية، والحكم والاستخلاف وغيرها من أمور المعاش والمعاد.

وهما -أوّلا وقبل كلّ شيء- دستور للحياة الآمنة المطمئنّة المؤمنة بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشرّه.

ولكنّهما أيضًا أوثق مصادر التأريخ في العالم، لأنّهما نُقلا من وقت وجودهما إلى ما بعده من العصور المتلاحقة حتى الآن، بأسانيد الثقات الأثبات من حملتهما الأفاضل الكرام، **وهذه مزيّة كبرى للإسلام، تميّز بها على غيره من أقدم ديانات العالم وأحدثها.**

وقد أرادت حكمة الله تعالى، أن يكون الإسلام آخر الرسالات السماوية إلى هذه الأرض البسيطة، ويكون رسوله خاتم الأنبياء والمرسلين. فقال سبحانه وتعالى ممتنًا

عليهم بإتمام هذه النعمة: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ٣﴾ [المائدة: ٣].

ولما اصطفى الله عزّ وجلّ هذا الرسول الخاتم ﷺ، ليكون آخر حلقة من سلسلة المبشّرين والمنذرين من الأنبياء والرسل، جعله أسوة وقدوة للعالم أجمع في أقواله، وأفعاله، وتقريراته، وحركاته، وسكناته، وأخلاقه وآدابه، وجميع صفاته: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١﴾ [الأحزاب: ٢١].

لماذا لهذه الأسوة المباركة، هذه الأهميّة الكبرى في الإسلام؟

فالإجابة عنها سهلة ميسورة إن السيرة النبويّة العطرة تجسيد حيّ للإسلام، وتنفيذ عمليّ لما في كتاب الله تعالى من تعليمات، لكل ناحية من نواحي الحياة الإنسانية، من مهدها إلى لحدها.

قال بعض الصحابة: «دخلنا على أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فقلنا: **يا أمّ المؤمنين، ما كان خلق رسول الله ﷺ**»؟

قالت: كان خلقه «القرآن». (البخاري في « الأدب المفرد»، وصحّحه الألباني لغيره في«صحيح الأدب». (٢٣٤))

على أسس هذه التربية الربّانية، تربّى رسول الله ﷺ، وصار قدوة للرعيل الأوّل من حملة الإسلام، الذين نقلوه إلى من بعدهم غضًا طريًّا.

كان خلق النبي ﷺ المتجسّد في«القرآن»، الذي كان محفوظًا بحفظه من أيّ تحريف وتبديل: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: ٩].

وأمّا الأحاديث فقيض الله علماء جهابذة، لم يكونوا على غفلة من صونها من أيّ تلاعب بها، فبذلوا أقصى جهودهم لأخذها من الرواة الثقات حتى دوّنت في دواوين الحديث، وكتب السنّة وذخائرها.

ومعلوم أنّ الكتاب والسنّة قد لا يعرضان الجزئيات من الأحداث في العهد النبويّ، فانتبه العلماء لتأليف الكتب المختصة بالسيرة النبويّة، ودلائل النبوّة، وأعلامها، والتواريخ العامّة. ولتكميل الصورة الكاملة لعهد النبي ﷺ وسيرته المباركة يحتاج المؤرخ

إلى كتب أخرى، لا تختص بالسيرة والتأريخ مثل كتب الفقه والأدب والشعر، ودواوين الرجال والتراجم والأنساب والجغرافية ومعاجم اللغة وغيرها.

وغير خافٍ على الباحث، أن هذا النوع من الكتب لم يمحَّص كما مُحِّصت الأحاديث النبويّة الشريفة سندًا، ومتنًا، وجرحًا، وتعديلًا، وتصحيحًا، وتضعيفًا، فدخل في مرويات السيرة النبويّة الشريفة ما لا صلة له بالواقع، ودخل فيه من المبالغات والإطراءات، حتى بعض الشائنات التي تشوّه جمال السيرة العطرة، التي نقطة بدايتها هي شخصيّة النبي ﷺ الزكية الطاهرة.

وانطلاقًا من مبدأ تمحيص مرويات السيرة النبويّة، اتّجه في العصر الحاضر بعض الغيورين من المؤلّفين إلى جمع الأحاديث الصحيحة والآثار الثابتة، ونقد الروايات التأريخيّة المشهورة، التي لم تثبت على منهج المحدّثين، لكي لا تنسب إلى النبي الصادق المصدوق الأمين ﷺ إلا ما صحّ من الأحداث التاريخية في عهده المبارك الميمون.

ولملأ الفجوات التأريخيّة في هذه الحقبة الزمنيّة المباركة، رأى بعض العلماء والمؤرخين «ضرورة المرونة في تطبيق قواعد المحدّثين في نطاق التأريخ الإسلاميّ العام»، ولذلك مالوا إلى أنه يكفي في الفترات اللاحقة التوثّق من عدالة المؤرّخ، وضبطه لقبول ما يسجّله، مع استخدام قواعد النقد الحديثي في الترجيح عند التعارض بين المؤرخين».

وإليكم ذكر بعض الكتب المعاصرة التي تجمع فقط الأحاديث الصحيحة الواردة في السيرة النبويّة الزكيّة، أو تهتم بالاستدلال بها فيها ونقد غيرها حسب ادّعاء جامعيها ومؤلفيها:

- **سيرة المصطفى الصحيحة على منهج المحدّثين**: لشيخنا الدكتور محمّد عبد الله الأعظمي، المعروف بـ«ضياء». (عميد كلية الحديث الشريف والدراسات الإسلامية بالمدينة المنوّرة سابقًا):

لقد جمع المؤلّف الفاضل في كتابه هذا، ألفا وخمس مئة واثنين وثلاثين حديثًا. وقال في طريقة جمعه لهذا الكتاب:

«وفي هذا الجزء اللطيف أحاولُ جمعَ الأحاديث الصحيحة في سيرة المصطفى ﷺ

على منهج المحدّثين بقدر الإمكان، التي هي أصل الكتاب، وأما التفاصيل الأخرى التي لم أجد لها إسنادًا صحيحًا، فأذكرها بعدها، لإكمال التأريخ من المصادر الميسّرة. وبالله التوفيق». (المقدمة: ١/ ١٣)

- **صحيح السيرة النبويّة:** (مؤلّف جامع للسيرة النبويّة المشرّفة، مرتّب حسب الوقائع والأحداث، اقتصر فيه مؤلّفه على الأحاديث الصحيحة، مذيّل بفهارس سهلة) **للشيخ إبراهيم العلي** (دار النفائس ط. ثانيه ١٤١٦هـ=١٩٩٦م).

قال المؤلّف: «إذا لم أجد الحدث التأريخي في مصادر السنة، فإني أبحث عنه في كتب المغازي والسير وأبيّن صحته بناء على قواعد المحدثين.

وفي بعض الأحداث التاريخية التي لا يثبت بها حكم شرعيّ، والتي لم أجد فيها إلا مرسل تابعيّ، كنت أثبت ذلك النصّ المرسل، وأحكم عليه صحة وضعفا إلى التابعي.» (ص١٧)

- **صحيح السيرة النبويّة:** «ما صَحّ من سيرة رسول الله ﷺ وذكر أيّامه، وغزواته، وسراياه، والوفود إليه لابن كثير»، **بقلم محمّد ناصر الدين الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ.** (المكتبة الإسلامية، عمّان الأردن ط. أولى ١٤٢١هـ). ولكن الله توفّى الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قبل أن يكمل مشروعه هذا، وتوقّف عمله عند (فصل الإسراء والمعراج). (مقدمة الناشر)

- **السيرة النبويّة الصحيحة:** (محاولة لتطبيق قواعد المحدّثين في نقد روايات السيرة النبويّة): **للدكتور أكرم ضياء العمري** (مكتبة العلوم والحكم -المدينة المنوّرة ط. خامسة ١٤١٣هـ=١٩٩٣م).

- **«الصحيح المصفّى من سيرة النبيّ المصطفى ﷺ» للدكتور سليم بن عيد الهلالي.**

قال مؤلفه تحت عنوان الكتاب:

«أول كتاب علميّ يعرض وقائع سيرة النبي المصطفى ﷺ وشمائله وخصائصه، ومعجزاته، وشهادات علماء الغرب على صدقه بالدليل الصحيح، في ضوء علم الحديث ومصطلح التاريخ، ويوثق أحداثها الكبرى بالخرائط، والجداول، والصور.»

(مركز السلف الصالح للدراسات الإستراتيجية -عمان- الأردن. ط أولى ١٤٣٧هـ=٢٠١٧م)

• **الصادق الأمين**: «بحث منهجيّ في السيرة النبويّة، موثّق بذكر المصادر والمراجع، وتخريج الأحاديث والآثار، وبيان درجاتها من الصحة، وصلاحها للاحتجاج بها». **للدكتور محمّد لقمان السلفي** (دار الداعي للنشر والتوزيع بالرياض، ط. أولى ١٤٢٧هـ) وهو يحتوي على (٨٣١) صفحة.

• **السيرة النبويّة في ضوء المصادر الأصلية: (دراسة تحليلية) للدكتور مهدي رزق الله أحمد** (الأستاذ المشارك بكلية التربية بجامعة الملك سعود) طبعة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلاميّة بالرياض ١٤١٢هـ=١٩٩٢م) وقال الأمين العام للمركز الدكتور زيد بن عبد المحسن آل حسين في تقديمه للكتاب: «وهدف المؤلّف في هذا العمل أن يكتب السيرة النبويّة معتمدًا على مصادرها الأصليّة المتنوّعة، ومناقشًا ما كان محلّ نقاش، وإن كان مشهورًا بين الناس». (ص: ١٠)

• **صحيح السيرة النبويّة: لأبي إسحاق الحويني.**

• **صحيح «السيرة النبويّة لابن هشام»**: للشيخ مجدي فتحي السيّد (دار الصحابة للتراث بطنطا، للنشر والتحقيق والتوزيع ط. أولى ١٤١٦هـ=١٩٩٥م) وقال في تقديمه: «...**فلما انتهينا من إخراج الكتاب كاملًا محقّقًا، رأينا أنه من الجدير بالعناية كذلك إخراج الصحيح منه على انفراده، ولهذا العمل أهمّيّة عظمية**... وأما بعد تحقيق الكتاب فصار الأمر سهلًا في الوصول إلى الأحداث النبويّة بصحيحها، وتجنّب ضعيفها». (ص: ٥)

• **«ما شاع ولم يثبت في السيرة»: للشيخ محمّد بن عبد الله العوشن.**

• **«صحيح السيرة النبويّة»: للدكتور محمد بن رزق طرهوني** (ثلاثة أجزاء).

• **تخريج «فقه السيرة لمحمد الغزالي»: للعلّامة المحدّث الألباني**، وبعد تعليقه على الكتاب، وتخريج أحاديثه، صار الكتاب مفيدًا للعامّة والخاصّة من الناس.

• **أما «الرحيق المختوم»: لشيخنا الأستاذ صفيّ الرحمن المباركفوري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فلم يهتم بتمحيص الروايات التأريخيّة ولا ادّعاه، بل اكتفى بإحالتها إلى مصادرها، وقال ذلك نفسه **لشيخنا الدكتور عبد المنعم سيّد النجم** (الأستاذ في كلية الحديث الشريف والدراسات الإسلامية بالمدينة المنوّرة سابقًا)، حين زيارته للكلية بعد استلام جائزة

رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة على هذا الكتاب، وكاتب هذه السطور تلميذه كان حاضرا في المجلس. ولما كان هذا الكتاب من أشهر الكتب المعاصرة، وأكثرها تداولًا في السيرة حاليًا، ألّف الشيخ/ **محمود بن محمد الملّاح** للتنصيص على أخطائه، وتخريج مروياته والحكم عليها تصحيحًا وتضعيفًا، كتابًا، أسماه «**التعليق على الرحيق المختوم**» بتقديم فضيلة الشيخ عبد الله بن مانع الروقيّ (طبعة الدار العالميّة للنشر والتوزيع بالإسكندرية ط. أولى ١٤٣١هـ= ٢٠١٠م) (والكتاب يحتوي على (٢٠٨) صفحات.

قال المؤلّف في مقدّمته:

(٤) «وجود كثير من الملحوظات على كتاب «الرحيق المختوم» -وهذا ما ستراه في هذا الكتاب- مما جعلنا نحرص على صفاء السيرة النبويّة، وصحّة ما يذكر فيها، وكذلك بيان الأحاديث الضعيفة التي ذكرها المؤلّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ». (ص: ١٠)

وقال: أيضًا:

(٥) جعلت التعليق مختصرًا ومطوّلًا، حتى يتناسب مع الجميع، من أراد الاختصار، يكفيه الحكم المصدّر به التعليق، من أراد التفصيل فليواصل البيان». (ص: ١١)

- **«رحمة للعالمين» للقاضي محمد سليمان المنصورفوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٨٦٧-١٩٣٠م)**

وهو رائد من الروّاد الأوائل في التأليف في السيرة النبويّة في الهند المتحدة، بل يعتبر كتابه هذا أوّل كتاب موثّق بالمصادر والمراجع في الأرديّة، وقد طبع أوّل مرّة سنة ١٩١٢م، وغيّر حياة المشاهير في شبه القارّة الهنديّة، وقال في تقديمه للكتاب:

«أنا أعلم أن كتابي هذا لا يستطيع أن يلقي الضوء على محامد النبيّ ﷺ، ومحاسنه، ومناقبه، إلا كما تستطيع الذرّة التافهة أن تنير الشمس البازغة في رابعة النهار.

مع هذا، أتجرأ على أن أنشر هذا الكتاب، راجيًا أن يستفيد من محتوياته ولو قارئ واحد من القرّاء.

أما بالنسبة لمحتويات الكتاب، فأرى من الضرورة أن أوضّح بأني حاولت قدر جهدي، أن لا أعرض فيه إلا الروايات الصحيحة.» (مقدّمة الجزء الأوّل من «رحمة للعالمين»)

ولقد نجح المؤلّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ (إلا في حالات نادرة) أيما نجاح في إيفاء شرطه هذا، ولم

يتيسّر له ذلك قبل قرن وربع قرن من الزمان إلا بمحض فضل الله له وتوفيقه سبحانه، وذلك لقلّة المصادر والمراجع المطبوعة حينذاك.

كما أن هذا الكتاب كان أوّل كتاب موثّق لدى العلماء في عصره، وكذلك هو أقدم كتاب تأليفًا ونشرًا في هذا الفهرس أيضًا، الذي ذكرته آنفًا.

ذكر الأستاذ يوسف السيد عامر، أن علماء الهند لم يكونوا يتحرّون الدقة في مؤلّفاتهم في السيرة في تلك الحقبة من التأريخ، **ثمّ قال**: «...**ويستثنى من هذه المؤلّفات: كتاب سليمان المنصورفوري «رحمة للعالمين»**. (دائرة معارف في سيرة النبي ﷺ) (١/ ١)

طالما كانت السيرة النبويّة العطرة، هي الأسوة الكاملة أمام الرعيل الأوّل لتكوين شخصيّتهم الإسلامية عقيدة وإيمانًا، وعبادة ومعاملة، وخلقًا وأدبا، وكانت تجسيدا حيًّا لتعاليم الإسلام، وتنفيذا عمليًّا لشرائعه: بذل مؤلّفو السيرة النبويّة الثقات في العصر الحاضر أيضًا، أقصى جهودهم، لأن يقدّموها أمام الناس غضّة طريّة، بعيدة من شوائب الضعف والوضع، لتكون الاستفادة منها سهلة ميسورة، حتى للعامة من الناس أيضًا، ومن غير حيطة وحذر، وتبقى السيرة النبويّة الشريفة ينبوعًا ثرًّا تستقي منه الأجيال اللاحقة إلى ما شاء الله تعالى، كما استقى منه الرعيل الأوّل من أصحاب النبي ﷺ ومن بعدهم، فجزاهم الله خيرًا.

عملي في هذه الطبعة العربيّة المنقّحة

هذا العمل ينقسم إلى قسمين:

(الأوّل): مقدمّة التحقيق.

وهي تحتوي على ما يلي:

(١) المؤلف وكتابه في نظر معاصريه من الأعلام.

(٢) بين يدي الكتاب.

(٣) ترجمة المؤلّف.

(٤) كتاب «رحمة للعالمين»: خصائصه، ومعنوياته.

(٥) الطبعة العربيّة الأولى للكتاب.

(٦) الترجمة الثانية للكتاب: ما لها وما عليها.

(الثاني): نصّ الكتاب المترجم.

وعملي فيه كما يلي:

- تنقيح الترجمة وتزيينها مع مقارنتها بالنصّ الأرديّ عند الحاجة لتكون أقرب إليه.
- إضافة خرائط الغزوات وغيرها في أصل الكتاب.
- تخريج الآيات وتنزيلها من المصحف الشريف.
- تخريج الأحاديث الواردة في الكتاب، مع نقل حكم العلماء عليها تصحيحًا وتضعيفًا حسب المستطاع.
- تخريج الروايات التأريخيّة مع نقل حكم العلماء عليها حسب الإمكان.
- نقل العناوين الفرعيّة، التي كانت على هوامش النصّ الأرديّ، إلى داخل الكتاب، وإضافة العناوين الأخرى، خاصّة في المواضيع الطويلة، التي كانت خالية منها، لتسهل على القارئ مراجعة ما يريد بأقصر وقت ممكن.

- إضافة التعليقات والحواشي المستقلّة، حسب مقتضى المقام، توضيحًا وتبيينًا، أو نقدًا وتعقيبًا، مستفيدًا ممن كتبوا في السيرة النبوية العطرة، ورمزت لها في آخرها بـ(صلاح) لئلّا تختلط بتعليقات المؤلّف، وما هي بكثيرة.
- الإضافة الحاصلة لتكملة تعليقات المؤلّف، جعلتها بين المعقوفتين [ ] هكذا، من غير ذكر اسمي إلا نادرًا.

هذا،ولا أدعي العصمة من الخلل والزلل، ولكنّي حاولت جهد المستطاع في تعليقاتي وتنقيحاتي على هذا الكتاب أن ترسم عظمة السيرة النبوية الزكية في أذهان المسلمين، ويبدو جمالها الباهر في أعينهم، الذي طالما شوّهه أعداء الإسلام من المستشرقين وأذنابهم من ببغاوات الشرق حقدًا وحسدًا، وبغضًا وعدوانًا.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ٨﴾ [الصف: ٨]

شكر و تقدير:

من نعم الله تعالى عليّ أنه قدّر لي أن أعيش في دولة الكويت المحروسة، منذ أكثر من أربعة عقود من الزمن، وصحبت العلماء الثقات وطلبة العلم في هذه الحقبة الزمنية الطويلة، تحت مظلّة «**جمعية إحياء التراث الإسلامي فرع الجهراء**».

ذات يوم، تجاذبنا الحديث عن السيرة، فوجّهني الأخ النابه الشيخ يوسف أحمد وفقه الله تعالى، إلى مراجعة الطبعة العربية الأولى لكتاب «رحمة للعالمين»، وطبعها من جديد، لأهميتها فبدأت العمل بها. ولله الحمد.

ولا يفوتني أن أذكر بهذه المناسبة أخانا الفاضل/ بدر بن جلوي العتيبي -وفقه الله تعالى- (الذي قام بمراجعة عزوالمؤلف إلى نصوص «الكتاب المقدس» بعهديه: القديم والجديد قدر المستطاع)، وكذلك زملاءه المحبين للعلم والعلماء، الذين شجّعوني على إتمامه، وكذلك أخانا الفاضل الدكتور مشعل محمد الجداري حفظه الله الذي استفدت من توجيهاته كثيرا. وها الآن قد تمّ هذا السّفر الميمون في سيرة النبي ﷺ العطرة. فالحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات.

أشكر الله عزّ وجلّ، ثمّ أشكر هؤلاء الإخوة الأفاضل وغيرهم الذين أعيش معهم في هذه الدولة الحبيبة شكرًا جزيلًا، على ما يقدّمون لي من تسهيلات، فوق ما أستحق.

هذا، والله أسأل أن ينفع المسلمين عامّة، والدعاة إلى الله خاصّة بهذا الكتاب القيم في السيرة النبويّة العطرة، ويجزي مؤلّفه، وناقليه إلى العربية، والمقدّم له والمعلّق عليه، وناشره خير الجزاء، في الدنيا والآخرة. وهو على ذلك قدير وبالإجابة جدير.

وصلّى الله على نبيّنا، وبارك، وسلّم تسليمًا كثيرًا. والحمد لله ربّ العالمين.

شاهين باغ – نيو دلهي

١٣/ ربيع الأوّل ١٤٤٤هـ

١٠/ ١٠/ ٢٠٢٢م

صلاح الدين مقبول أحمد

(دار الثقافة للبحوث والدراسات)

العلامة المؤرّخ النّسابة القاضي محمد سليمان المنصورفوري
(١٢٨٤-١٣٤٩هـ =١٨٦٧-١٩٣٠م)[١]

الحالة السياسيّة والدينية في عصره

الحالة السياسيّة:

غير خافٍ على من له إلمام بتأريخ الهند الإسلامي، أن الاحتلال البريطاني الغاشم نشب براثنه في قلب الحكم المغولي في شبه القارّة الهنديّة، بمكره ودهائه عن طريق التجارة، وقد نشأت ثورة عارمة ضدّ الاحتلال سنة ١٨٥٧م، ولكنّها فشلت، فبسط الاحتلال سيطرته على الهند المتحدة، بعد الاستيلاء على آخر معقل من معاقل الحكم المغولي المسلم في «دهلي».

كانت حكومة الاحتلال بعد إخماد هذه الثورة، في نشوة من الغطرسة والغرور، وبدأ

---

(١) أهم مصادر هذه الترجمة من الكتب الأردية:

- **تذكرة القاضي محمد سليمان المنصورفوري (عصره، أسرته، أساتذته، ومعاصروه)** للعلامة المؤرخ محمد إسحاق بهتي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (جلّ اعتمادي بل كله في كتابة هذه الترجمة على هذا المصدر، لأن الكتب الأخرى في الموضوع غير متوفرة).
- **مصادر السيرة النبوية**: للدكتور محمد ياسين مظهر الصديقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
- **محمد سليمان سلمان**: مقال الأستاذ أمين الله في دائرة المعارف الأردية.
- **الرحلة في الأدب الأردي**: للأستاذ أنور سديد.
- **سيرة سلمان**: للحكيم محمد عبد الله.
- **حياة القاضي محمد سليمان**: للقاضي حسن معزّ الدين (مقال حفيده).
- **مجلة «معارف» (رحلة المرتحلين)**: مقال العلّامة السيد سليمان الندوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
- **مجلة «أهل الحديث» الأسبوعية**: للعلّامة الشيخ ثناء الله الأمرتسري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
- **أهل الحديث في شبه القارّة الهندية وعلاقتهم بالمملكة العربية السعودية وغيرها من الدول العربية**: إعداد: صلاح الدين مقبول أحمد و عارف جاويد المحمدي.

المجتمع الحرّ القديم يتقهقر، ويحلّ محلّه المجتمع المحكوم الصاعد. وقبل ذلك بمدّة، أنشئت ولايات كثيرة، وكان أمراؤها المحلّيون القدامى يحكمونها بكلّ أبّهة وشوكة ونخوة، وبعد استيلاء الإنجليز على دولة الهند، عادت هذه الولايات تحت إشراف الاحتلال.

وهكذا كان سكّان هذه الولايات يعيشون بين مطرقة الاحتلال وسندان الولايات.

الحالة الدينيّة:

إن المناطق التي كانت تباشر حكمها إدارة الاحتلال، كانت تتمتّع بشيء من الحريّة في إنشاء الجمعيات السياسيّة، والإسهام في السياسيّات المحلّية، بالكتابة والخطابة، وكان مسموحًا فيها توجيه الانتقاد إلى حكومة الاحتلال نوعا ما.

ولكن الولايات التي كان يحكمها الأمراء تحت إشراف الإنجليز، لم تكن تسمح بمثل هذه الحرّيات، إلا أنها كانت تجيز إقامة الحفلات الدينيّة، والاجتماعات الدعويّة، ولا تمانع أن تُعقد مجالس المناظرات والمباحثات بين الديانات أيضًا، بل كان أمراؤها يشجّعون عقدها، لإثارة الأحقاد والضغائن بين الديانات، ليكون ذلك الشغل الشاغل لعامّة الشعب في ولاياتهم، ويعيشوا هم أنفسهم في أمن وسلام، على غفلة من أهلها.

طريقتان للدعوة إلى الديانة:

(الأولى): طريقة إيجابيّة، هي: أن يبيّن الداعية محاسن دينه، وفضائل أوامره ونواهيه، من غير أن ينتقد الديانات الأخرى.

(الثانية): طريقة سلبيّة، هي: أن يبيّن الداعية أحقيّة ديانته ومحاسنها، مع انتقاده الديانات الأخرى، وبيان نقائصها.

كانت هاتان الطريقتان للدعوة والتبليغ مسموحًا بها في ولايات الأمراء، مثل ما كانتا في الولايات المحتلّة، سواء كان ولاتها من المسلمين أو من الهنادك أو من السيخ، وكان يقع كلّ هذا تحت شعار «**الحرّية الدينيّة**».

وكان المستفيد الأوّل من هذا النوع من الحرّية هو الاحتلال البريطاني، وذلك لأن الهنادك والمسلمين والسيخ، كانوا على خصومة دائمة فيما بينهم، بسبب هذه المناظرات

والمناقشات في أمور دينهم. وكان الاحتلال هكذا في راحة من معارضة الشعب، تنفيذا لشعاره «فَرِّق تَسُد».

رغبة علماء الديانات في المناظرات والمباحثات:

في هذه الظروف السياسيّة والدينيّة نشأت رغبة صادقة عند علماء مختلف الديانات في الهند، أن يوسّعوا دائرة معارفهم ومعلوماتهم عن الديانات الأخرى أيضًا مع دياناتهم، ليثبتوا بها محاسن دياناتهم، ويبيّنوا نقائص غيرها.

وزد إلى ذلك أن الاحتلال أيضًا جاء معه ببعثات تنصيريّة، بدأ قساوستها يدعون الناس إلى النصرانية، تحت مظلّة الحكومة لتتقوى، ويستتبّ أمرها إلى أطول مدّة من الزمان.

وبما أن الإسلام دين فطريّ خالد، يدعو دائمًا إلى إعمال العقل والفكر في أمور الحياة كلّها، ومصدراه الأساسيّان -كتابا وسنّة- يقدّمان أمام العالم أجمع، أقوم طريق إلى المعرفة بأمور العقائد، والعبادات، والأحكام، والمعاملات، والسياسة والحكم، والتعليم والتربية، والأخلاق والآداب، والمواساة والمساواة، وكل ذلك على أساس قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ۝١٣﴾ [الحجرات: ١٣].

وبهذه الأصول العالمية الفاخرة، والمبادىء الإنسانية المكرّمة، بفضل الله تعالى ثمّ بجهود العلماء المسلمين، المطلعين على مصادر الديانات الأخرى، ساد الإسلام في مثل هذه المناظرات والمناقشات، فكان هو المستفيد الأوّل منها، لأن الشعوب الهندية على اختلاف ديانتها، كانت تعاني من النظام الطبقي الجائر، وتترنّح من وطأته منذ قديم الزمان، فدخل في الإسلام عدد لا يحصى من النصارى والهنادك والمنبوذين منهم خاصّة، وغيرهم، فعاشوا تحت دوحة الإسلام في وحدة واحدة من المجتمع المسلم، وتسبّبوا في نشر الإسلام في محيطاتهم ومجتمعاتهم.

الحركة الإسلامية الأولى في الهند التي سمّيت بالحركة الوهابية:

في خضمّ هذه الظروف السياسيّة والدينيّة الخطيرة، لم يكن المهتمون بأمر المسلمين على غفلة مما كانوا يعانونه من جرّاء الاحتلال الغاشم والإرهاب السيخي من ويلات

وإهانات واضطهادات، فأنشئت حركة تحت قيادة السيدين (السيّد أحمد بن عرفان البريلوي(-١٢٤٦هـ)، والشاه إسماعيل (حفيد ولي الله الدهلوي) (-١٢٤٦ هـ)، وكانت تهدف إلى العودة بالأمّة إلى الكتاب والسنّة، والجهاد ضدّ كل من تسوّل نفسه لإيذاء المسلمين وخاصّة الإنجليز والسيخ، وجعلوا مقرّها في «بنجتار» ثمّ في «ستهانه» خارج حدود المناطق المحتلّة في الشمال، وشكّلوا جيشًا منظّما، كان يقلق الإنجليز والسيخ على سواء، وأقاموا «**الخلافة على منهاج النبوّة**»، وكانت الحروب سجالًا بينهم، حتى وقعت معركة «بالاكوت» سنة (١٢٤٦هـ=١٨٣١م) مع السيخ، استشهد فيها القائدان (السيّد أحمد والشاه إسماعيل) مع كثير من جنودهم، وذلك بمؤامرة من بعض رؤساء القبائل الخونة من المسلمين أنفسهم.

هذا الحادث المحزن المروّع، كان صدمة كبيرة للمجاهدين، ولكن الله عزّ وجل تولّاهم، فأخذ زمام هذه الحركة الأخوان: الشيخ ولايت علي (-١٨٥٢م) وعنايت علي (-١٨٥٨م) (من أسرة «صادق فور» السلفية من ولاية «بهار»)، بكل همة وإرادة، وتنظيم وإدارة، وتفانٍ في سبيل الله، نصرةً للإسلام والمسلمين، وجمعوا شملهم من جديد في مركز المجاهدين من جهة.

ومن أخرى، أرسلوا دعاة إلى الله إلى أغلب مناطق الهند، يدعون إلى التوحيد الخالص والتمسّك بالسنة، وإنشاء الحميّة الدينيّة بين الناس لإعادة الحكم الإسلامي إلى البلاد.

دور السيّد محمد نذير حسين المحدث في تأييد هذه الحركة:

وبدأت الطبائع السليمة تتفاعل معهم من أقصى الهند إلى أدناها، خاصّة في الولايات الشرقية الشمالية (بنغال وبهار ويو- بي) من الهند.

وقد تعرّف المسند المعمّر، العلّامة السيّد محمد نذير حسين المحدّث الدهلوي (١٢٢٠-١٣٢٠هـ=١٨٠٥-١٩٠٣م) على السيد ولايت علي (-١٨٥٢م) منذ صغره في قريته، ثمّ التقى بالقائدين السيّد أحمد والشاه إسماعيل أيضًا في «صادق فور» (بتنه) أيّام دراسته هناك قبل وصوله إلى دهلي، وتأثر بخطاب الشاه إسماعيل الدهلوي تأثرا بالغًا، بقي في حياته إلى أنفاسه الأخيرة.

ثمّ رحل السيّد نذير حسين لطلب العلم من «صادق فور» إلى دلهي، وتتلمذ على الشيخ عبد الخالق الخيري، والشاه إسحاق وتخرّج عليهما، وبدأ يدرّس في مسجد أورنغ آبادي سنة ١٢٤٨هـ، أي بعد حادثة «بالاكوت» الأليمة بسنتين، ولما هاجر شيخه إسحاق إلى مكّة المكرّمة سنة ١٢٥٨هـ، وهو الذي صار مرجع الطلبة في الهند، وبدأوا يتوافدون إليه من كل حدب وصوب، وبعد تضلّعهم من علوم الكتاب والسنّة علما وعملا ومنهجا وسلوكًا، كانوا يرجعون إلى بلادهم من مختلف أنحاء الهند دعاة هداة، ينشرون التوحيد الخالص، والعمل بالسنّة حتى حدثت ثورة ١٨٥٧م ضدّ الإنجليز، وشارك فيها كثير ممن كان لهم صلة بمركز المجاهدين في الحدود الشمالية، وبعد تحقيق الجاسوس البريطاني، (دبليو. دبليو هنتر) الذي قدّم تقريرًا إلى حكومة الاحتلال، أثبت فيه بأن مدرسة في «صادق فور» لها الدور الأكبر في تمويل المجاهدين وتجنيدهم في الحدود الشمالية.

إقامة خمس قضايا في المحاكم ضدّ المجاهدين:

فأقيمت ضدهم خمس قضايا في المحاكم (قضية في «بتياله»، قضيّتان في «بتنه»، وقضية في «راج محل»، وقضية في «مالده»)، واشتهرت هذه القضايا باسم «قضايا الوهابية». وحكموا على المأخوذين فيها بالإعدام، ثمّ خفّف الحكم من الإعدام إلى نفيهم إلى «جزائر أندومان نكوبار» المعروفة بـ«كالا پاني» (أي الماء الأسود). وكان النفي إلى هذه الجزيرة يعني الموت والهلاك، فتوفّي بعضهم هناك، وبعضهم أطلق سراحهم بعد عشرين سنة.

لما تقدّم التحقيق في قضية إثارة ثورة ١٨٥٧م، تبيّن فيه أن السيّد نذير حسين في «دلهي» كان نقطة وصل بين الشرق الشمالي والشمال الغربي، لتسهيل مهمة إيصال التبرعات إلى الحدود، وإيواء المارّين إليهما في بعض الأحيان، فألقي عليه القبض، وأرسلوه إلى سجن «راول بندي-باكستان الآن»، ووضعوه تحت الإقامة الجبرية لمدّة سنة، ولما لم يجدوا من يدلي الشهادة ضده أطلقوا سراحه.

هكذا، وفقه الله تعالى أن ينشر علوم الكتاب والسنة -علمًا وعملًا- لمدّة طويلة، استفاد فيها جم غفير من علماء الهند وخارجها.

بقاء هذه الحركة فعالة إلى استقلال الهند ١٩٤٧م:

- وإن ضعف مركز المجاهدين في «ستهانه» بعد حادثة «بالاكوت» سنة ١٨٣١م، واضطرّوا إلى تغيير مراكزهم من مكان إلى مكان، واستقرّوا أخيرًا في مركز «جمركند».

- وإن زال الحكم المغولي المسلم من الهند المتحدة بعد ثورة ١٨٥٧م، وأصيب أهل الهند وخاصّة المسلمون منهم، لأنهم هم الذين كانوا الهدف الأوّل، بحكم أنهم كانوا حكّام البلاد، بأنواع من تعذيب الاحتلال البريطاني من جهة، من بشاعة الإرهاب السيخي ووحشيّته من أخرى.

ولكن لم تضعف قوّة المسلمين في قلوبهم، ولم تبرد حرارتهم الإيمانية في أبدانهم، ولم تَزُل عاطفة الجهاد الجيّاشة من أذهانهم، فكان علماء الحديث والسنّة والأثر يقومون بواجبهم في مجالات التعليم والتربية، والدعوة والإفتاء، والتصنيف والتأليف، وإنشاء المساجد والمدارس، وإقامة المطابع ودور النشر لتوعية المسلمين من جهة.

ومن جهة أخرى، كان الأثرياء من التجّار والمزارعين من أنحاء الهند، يجمعون تبرّعاتهم، ويرسلونها من طريقة أو أخرى إلى مركز المجاهدين في الحدود الشمالية حتى تحرّرت الهند ١٩٤٧م، من الاحتلال البريطاني الغاشم.

صلة أسرة القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الحركة:

وقد كانت من الأسر السلفية المعروفة بمساعدة مركز المجاهدين أسرةُ القاضي محمد سليمان المنصورفوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا، وقد ثبت لدى الاحتلال أن أباه القاضي أحمد شاه يتردّد إلى مركز المجاهدين، ويساعده بتبرعات سخيّة، وكذلك سلك القاضي أيضًا نهج أبيه في تمويل المجاهدين، فكاد أن يؤخذ به، ولكنّه نجا بتدخّل ملك «بتياله».

في هذه الظروف السياسيّة الصعبة، والأحوال الدينيّة المضطربة ولد القاضي محمد سليمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٨٦٧-١٩٣٠م). وبالنظر إلى هذه الحقبة التأريخية في الهند، يعتبر عصره عصر ازدهار الاحتلال البريطاني في شبه القارّة الهنديّة.

أسرته الكريمة

تثبت بعض الوثائق الرسميّة وغير الرسمية، المحفوظة عند الشيخ عبد الشكور (أحد أقرباء القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، المقيم في «ديره غازي خان باكستان»، أن نسب أسرة القاضي يتّصل بأسرة الشيخ عبد القادر الجيلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤٧٠-٥٦١هـ)، ويقال: يتّصل نسبه بعلي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وكذلك كثير من أجداده في عصورهم تولّوا منصب القضاء في الحكومات المختلفة، وقد منح الملك المغولي «شاه جهان» (١٥٩٢-١٦٦٦م) (مؤسّس «المسجد الجامع»، و«القلعة الحمراء» بدلهي، و«تاج محل» في آغره) القاضي الشيخ محمد غوث رَحِمَهُ ٱللَّهُ -وكان من أجداده- منطقة بلدة «منصورفور» منحة إقطاعية.

وكذلك توجد الوثائق الرسمية باسم القاضي مجيب بن رحمة الله، والقاضي قطب الدين خضر بن أبي القاسم المعروف بالمذكِّر أيضًا، وكان من أساتذة أمراء البلاط بدلهي، ويوجد ختمان اثنان لمنصب القضاء، باسم القاضي كمال الدين عليّ، والقاضي كمال الدين أحمد.

والجدير بالذكر أن بعض الوثائق المتعلقة بعهد الشيخ عبد القادر الجيلانيّ (-٥٦١هـ) أيضًا محفوظة عند الشيخ عبد الشكور.

وكان عنده ختم لمنصب القضاء باسم القاضي بير محمد، وكان ابنه القاضي معزّ الدين أحمد بن بير محمد من المبايعين على يد الشاه غلام علي المجدّدي (-١٢٤٠هـ) في الطريقة النقشبندية، فأمره شيخه هذا بأن ينتقل من «بدهيهال» إلى بلدة «منصورفور»، ويجعلها مركزًا للدعوة والإرشاد، فتوطّن فيها قبل نحو قرنين من الزمان.

وكان ابنه القاضي الباقي بالله بن معز الدين أيضًا، على طريقة والده، وكان متقللا من الدنيا، يكسب بالزراعة، ويدرّس القرآن الكريم، ودعوته بلغت إلى خارج «منصورفور»، وكان مرجعًا للخلائق في التعليم والتربية.

ونسب القاضي محمد سليمان المنصورفوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إلى القاضي بير محمد كما يلي:

«محمد سليمان بن أحمد شاه بن الباقي بالله بن معزّ الدين بن بير محمد رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ».

مولده ونشأته العلميّة:

ولد القاضي محمد سليمان بن أحمد شاه بن معزّ الدين بن بير محمد في بلدة «منصورفور» من إمارة «بتياله» في سنة ١٢٨٤هـ=١٨٦٧م، وهو ينحدر من أسرة علمية محافظة، ذات مناصب عالية في مختلف الحكومات الماضية، من أبوين كريمين:

• **أما أبوه القاضي أحمد شاه** (١٢٥٠-١٣٢٨هـ=١٨٣٤-١٩١٠م)، فكان مؤظفًا كبيرًا في قسم المالية في إمارة «بتياله»، ولعلّه أوّل شخص من أسرته انتقل من «منصورفور» إليها.

وكان مولعًا بأداء مصالح العامة من الناس، متعاونًا مع السير سيد أحمد خان (١٨١٧-١٨٩٨م) في حركته التعليمية، وإقامة مدرسته (سنة ١٨٧٧م)، التي تحوّلت فيما بعد إلى جامعة علي كره الإسلامية سنة ١٩٢٠م، وهي الآن من أرقى الجامعات الهندية، ولما جاء السيّد أحمد خان إلى ولاية فنجاب: توجّه إلى «بتياله»، فكان القاضي أحمد شاه هو الذي استقبله من قبل المسلمين، حين دخوله في حدود إمارة «بتياله».

وزد إلى ذلك أنه كان على صلة قوية بمركز المجاهدين في «جمركند»، يتردّد إليه، ويرسل إليه المساعدات أيضًا.

ومع اهتمامه بالعمل لازدهار المسلمين في مجال الدين، وإعادة الحكم الإسلامي، كان يعدّ في عصره عالمًا عاملًا بعلمه، معروفًا بين الناس بزهده وتقواه، وداعيًا إلى الله، حجّ مرّتين: الأولى: سنة ١٣١٣هـ=١٨٩٦م، والثانية: ١٣٢٤هـ=١٩٠٧م، وكان يحظى بحفاوة بالغة في الأوساط الدينيّة لأوصافه الحميدة وأخلاقه الفاضلة.

• **وأما أمّه «الله جوائي»** (أي محفوظة الله) فكانت من النساء العابدات الصالحات، ومعروف عنها في محيطها، أنها كانت ترضع أولادها في حالة الوضوء دائمًا، وكانت من دعائها في لغتها الفنجابيّة، الذي تتوارثه أسرتها منذ نحو قرنين إلا ربعا، حتى الآن ما معناه:

«اللهم أنت جلّ جلالك، نجّنا من البلايا، وانصرنا في المصائب، يا الله! يا الله!»

تبيّن من هذا العرض السريع من حال أبويه، أنه رضع بلبان العقيدة والدين، والعلم والفضل، والخلق والأدب منذ نعومة أظفاره، وأثرت هذه التربية الصالحة تأثيرا بالغًا في

تكوينه الشخصي، والخلقي، والعلمي، وبقي أثرها في حياته النابضة بالحركة والنشاط في عمله الوظيفي، والدعوي، والتحريري حتى أنفاسه الأخيرة.

من شيوخه: المحدث عبد العزيز الكوموي (تلميذ المحَدث نذير حسين الدهلوي):

تعلّم القرآن الكريم من والده القاضي أحمد شاه، مع بعض الكتب العربيّة الابتدائية، وأخذ العلوم المروّجة في ذلك العصر عن العالم الثرى الزاهد المحدّث عبد العزيز بن علاء الدين الكوموي[1] (وهو من تلامذة العلّامة السيّد محمد نذير حسين المحدّث الدهلوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ).

---

(١) **أخذ الشيخ عبد العزيز** تعليمه الابتدائي عن أبيه، ومن قدر الله تعالى أن أحد شباب حركة المجاهدين زار قريته، ورأى فيه النبوغ والشوق إلى العلم، فأشار على أبيه أن يرسله إلى دلهي لأخذ العلم، **فذهب به أبوه إلى دلهي على الرغم من مخاطر الطريق إليها، لأجل الإرهاب السيخي، فالتحق للتعليم العالي بمدرسة السيّد نذير حسين المحدّث الدهلوي (-١٣٢٠هـ)**، كان له شغف كبير بكتب الأدب أيضًا، فمكث في دلهي، لكونها مركز العلم والأدب، وقضى عدّة سنوات في ديوبند، وسهارنفور، وفرنكي محل لكناؤ أيضا، ثمّ أقام في «بتياله» عاصمة الإمارة السيخيّة، وكان الأمير السيخي يحترمه جدّا، لعلمه وفضله، وأعطاه أرضًا، مساحتها نحو (١٦٠٠٠بيغه) بسعر رخيص. وكان بيته مجمعًا للعلماء والأدباء، وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ داعية سلفيًّا. وأخذ منه مؤلّفنا العلّامة المنصورفوري كتب الحديث والأدب في العربيّة والفارسيّة، (القاضي محمد سليمان للأستاذ بهتي: ٨٢- ٨٣- مقال نديم الكوموي).

أمّا أبوه المجاهد الشيخ علاء الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فهو من كبار شيوخ أهل الحديث، وقد قام بالدعوة والإرشاد في قريته، وما حولها من عشرات القرى، فانتشر فيها التوحيد الخالص، والتمسّك بالسنّة والشريعة، وكان من المنتسبين إلى حركة السيّدين (السيّد أحمد والشاه إسماعيل)، وكان يتردّد إلى مركزها في «ستهانه» ويساعده ماليًا، في حين كان الإنجليز يبذلون أقصى جهودهم للقضاء عليه، وكان المنصّرون ينشطون لنشر النصرانية، وكان الشيخ يناظرهم، ولما تبيّن أن له صلة بمركز المجاهدين، ألقي عليه القبض، فأشار عليه محبّوه أن ينكر الجريمة المنسوبة إليه، ولكن هذا المجاهد رفض مشورتهم.

وأصدروا عليه حكم الإعدام، وبوساطة رئيس المنصّرين في منطقته، الذي كان متأثرًا بخلقه وأدبه ألغي هذا الحكم، هكذا عاش هذا الداعية المجاهد الكبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وتوفّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيّام الحج في مكّة، ودفن في مقبرة المعلاة. (القاضي: ٧٩-٨١).

وكذلك تعلّم اللغة الفارسيّة، وقدّم اختبار «المنشئ الفاضل» من قبل كليّة مهندرا (Mahendra College) في جامعة فنجاب سنة ١٨٤٤م، وكان عمره حينئذ سبع عشرة سنة، ونجح بدرجة الامتياز الأولى في الجامعة كلّها، وهو كان يعتبر أعلى اختبار في الفارسيّة في ذلك الوقت.

من وظائفه الرسميّة:

تأهل القاضي بحكم شهادته للانخراط في السلك الوظيفي، وهو في السابعة العاشرة من عمره، فدخل فيه قبل أن يكمل السنّ القانوني له، وهو ثماني عشرة سنة على الأقلّ.

ومن بداية وظيفته إلى نهايتها حتى التقاعد اشتغل في مجالين:

الأوّل: مجال التعليم والتربية.

والثاني: مجال القضاء.

ههنا أذكر نبذة من أعماله الرائدة أثناء اشتغاله بالوظيفتين، وبالله التوفيق!

في إدارة التعليم والتربية

كان أوّل تعيينه ما بين ١٨٤٤-١٨٨٥م مشرفًا على قسم التعليم والتربية في إمارة «بتياله»، وكان حينئذ مدير القسم «بهائي رام سنغ» من متعصبة الهندوس من فرقه «آريه سماج» (وكان منشئها ومشرفها في «بتياله»). ولم يكن يستسيغ أن يلتفت إلى القاضي سليمان، فضلًا عن أن يتكلّم معه، وقد مضت عدّة شهور، لا هو طلب القاضي، ولا القاضي شعر بالحاجة إلى أن يتّصل به، وكان يداوم، وهو جالس في ركن من القسم في مكتبه.

وفي هذه الأثناء، بدأت إدارة التعليم في الإمارة تفكّر في تشكيلها الجديد للتطوير والتقدّم، وأصدرت قرارًا، طلبت فيه من مديرها تقريرا مفصّلًا عن الإدارة.

فوقع المدير (بهائي رام سنغ) في اضطراب شديد من هذا الطلب المفاجئ، ولم يكن في مكتبه من يقوم بهذا الواجب على أتم وجه، نظرًا لأهميته.

فقال له موظفوه في الإدارة: إن هذا التقرير من الأهميّة بمكان، ولا يستطيع أحد منّا أن يعدّه على المستوى المطلوب غير القاضي، فاستسلم له المدير، وأعدّه القاضي في (٣٢٠) صفحة، خلال ستة أسابيع.

وقد سُرَّ المدير (رام سنغ) جدًا بقراءة هذا التقرير، فتغيّرت نظرته حول القاضي، حتى وصل الأمر إلى أن المدير لم يكن يبتّ في أيّ قضيّة من قضايا التعليم في إدارته من غير مشورته.

وهكذا صار القاضي المستشار الأوّل له، وهو في عنفوان شبابه، وكان المدير في الثانية أو الثالثة والثلاثين من عمره:

ولم يقتصر الأمر على هذا، بل تأثر «رام سنغ» بخلقه وأدبه أيضًا، حتى عرّف أفراد أسرته على القاضي، وبدأوا يحبّونه ويعتقدون به جدًا.

ولم يكن هذا التحول في فكر المدير تجاه القاضي فقط، بل تغيرت نظرته تجاه المسلمين أيضًا.

لما تحرّرت الهند من الاحتلال البريطاني سنة ١٩٤٧م، وانفصلت باكستان عن الهند، فأكثر ما تضرّر من هذا الانفصال هم مسلمو «بتياله»، لكونها على الحدود، فاضطرّوا للهجرة إلى «باكستان»، وحينئذ أصيبوا بخسائر فادحة في الأرواح والأموال، بإشارة الإمارة وأميرها، وفي هذه الفترة العصيبة من الزمن، كانت أسرة (رام سنغ) من الأسر غير المسلمة، التي كانت تواسي المسلمين.

وإضافة إلى ذلك، أن ابنه (آنند سروب سنغ) كان نائب محافظة مديرية «سنام» الحدودية حينذاك، فصار معاونًا للمسلمين، ومساعدًا لهم في خروجهم إلى «باكستان» بهدوء وأمان، وهكذا حافظ على أرواح عدد لا يحصى من المسلمين.

ولكن أركان الإمارة لم تعجبهم مؤاساته هذه مع المسلمين، فأزيل من منصب نائب المحافظ فيما بعد، لارتكابه هذه «الجريمة»: جريمة مساعدة المسلمين!

هكذا، كما ساهم القاضي في تطوير إدارة التعليم في الإمارة، كذلك أثّر في مديرها وغيره من الموظفين تأثيرًا بالغًا، حتى صار سببًا بفضل الله تعالى لإنقاذ كثير من أرواح المسلمين سنة ١٩٤٧م، وذلك بعد وفاته (-١٩٣٠م) بسبع عشرة سنة تقريبًا. فرحمه الله تعالى.

في محكمة القضاء

قضى القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بحكم عمله الجادّ في سلك التعليم نحو خمس عشرة سنة، فصار معروفًا في وسط كبار الأمراء والحكام في الإمارة، وكانوا على علم بما يتمتع به من أنواع المؤهلات والصلاحيات، وهي التي تسبّبت في نقله من إدارة التعليم إلى محكمة القضاء، لسدّ الفراغ الذي كانوا يشعرون به في هذا المجال.

قصّة نقله من إدارة التعليم إلى القضاء:

في أيّام سنة ١٩٠٠م كان قطّاع الطريق يرتكبون الجرائم البشعة في إمارة «بتياله»، ثمّ يهربون منها إلى المديريات الحدودية المتصلة بها، التي كانت تحت سيطرة الاحتلال، وهكذا بالعكس. ولم يكن من صلاحيات الشرطة من الجانبين أن يلقوا القبض عليهم في منطقة أخرى.

وحلّ هذه المشكلة الأمنيّة، أقيمت محكمة مشتركة بين حكّام إمارة «بتياله» وحكّام هذه المديريات المحتلّة، وكان المستر تام كنسن (المفتّش العام للشرطة في فنجاب) رئيسًا لها من قبل الاحتلال، وعيّنت إمارة «بتياله» أحد ضبّاطه من السيخ معاونًا له، ولكن المستر تام بعد العمل معه أربعة أيّام أو خمسة على الأكثر، كتب إلى مسئولي الإمارة، بأن هذا الضابط لا يليق بهذه الخدمة أبدًا، لأنه غير متأهل قطعًا، أن يفهم أيّ شيء من الناحية القانونية، فأرسلوا إليه ضابطًا آخر، ولكنه أيضًا لم يكن على المستوى المطلوب، فرُفض.

وبعد هذا، وقع مسئولو الإمارة في حيرة واضطراب، في البحث عمن تلقى عليه هذه المسئوليّة، حتى تمّ اختيار كبار المسئولين على القاضي، لهذا المنصب لكفاءاته المعهودة، وأصدروا القرار لنقله من إدارة التعليم إلى القضاء، ليكون معاونًا أومستشارا قضائيًّا للمفتّش العام للشرطة. وكان عمره حينئذ نحو ثلاث وثلاثين سنة.

حسب الرواية المصدّقة، أُخبر القاضي يوم الجمعة، بأن يكون أوّل دوامه في المنصب

الجديد يوم الاثنين، فبدأ مطالعة كتاب القانون الجنائي يوم السبت، استعدادًا لما يواجهه من القضايا في المحكمة، وانتهى منه مساء يوم الأحد، وخلال هذين اليومين فقط، كان القانون الجنائي وما يتعلّق به ماثلا أمام عينيه.

تزكية القاضي من قبل المفتش العام للشرطة:

ولمّا بدأ دوامه يوم الاثنين، وضحت على «المستر تام» مواهبه الربّانية، وتأثر بأسلوب فكره وطريقة عمله جدًّا، وأعدّ تقريرًا بهذا الصدد، وأرسله إلى حكومة «فنجاب»، وهو بمثابة شهادة تزكية للقاضي، يشيد فيه بمواهبه، ويوصي الحكومة بأن مثله يستحقّ أن يكون في قسم القضاء في المناطق الإنجليزية، وهو كما يلي:

Qazi Muhammad Suleman is a judicial officer of exception qualities and the Satae is not making good use of his talents. I feel Qazi Sahib would be an ornament to British judiciary. His services be requisitioned.(1)

أي: «القاضي محمد سليمان مسئول قضائي، ذو صفات استثنائية، والإمارة لا تستغلّ مواهبه استغلالًا جيّدا، وأنا أشعر أن حضرة القاضي يكون زينة للقضاء الإنجليزي، فتستغلّ خدماته له».

جدّية القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في القضاء:

جدير بالذكر أن القاضي بعد العمل في «المحكمة المشتركة» ظلّ منسلكًا بقضاء الإمارة، كان مدّة من الزمن قاضي التحقيق بالدرجة الأولى مع الامتياز بالمادّة رقم ٣٠ المتعلّقة بالأقليات، ثمّ كان في منصب القضاء المدني (Civil Judge)، ثمّ تدرّج إلى منصب القاضي الجنائي (Session Judge) حتى تقاعده.

قضى القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ نحو خمس عشرة سنة في القضاء، وعرضت عليه خلال هذه المدّة نحو ألف وخمس مئة قضية، من قضايا القتل، والنهب، وقطع الطريق وغيرها،

(١) بيّن القاضي عبد الباقي (حفيد القاضي محمد سليمان) أن هذه الشهادة محفوظة في سجلات حكومة فنجاب الآن أيضًا، وأنه قرأها بنفسه. (سيرة القاضي للأستاذ بهتي: ص ٩١).

وكان يكتب عند إصدار الحكم في بعضها خمسا وعشرين إلى خمسين صفحة، يبرز فيها النواحي القانونية، ودقائق الحكم فيها، ما رفع شأن الإمارة في المجال القضائي، من حيث النزاهة والشفّافيّه من غير قبول أي ضغط، من أي كبير أوصغير.

نماذج من روعة أساليبه في القضاء:

(١) **كان يسعى إلى الصلح بين المتخاصمين،** مع نصحهم وتذكيرهم، حسب مذهبهم، وكان هذا ديدنه في الأمور المتنازع فيها.

(٢) **وفي قضايا القتل والنهب،** وقطع الطريق كان يأمر المتهمين بالغسل، ثم نظرًا إلى دين المتهم، يلقّنه أن يصدق في إدلاء بيانه، وكثيرًا ما كان ينجح في تقويله الصدق من غير كثير تعب.

وكان يسمع مثل هذه القضايا بكل دقّة ونباهة، وكان يفصل فيها بغاية الحيطة والحذر. فإن استونف الحكم في المحكمة العليا، نادرًا ما كانت تغيّره، بل بالعموم كانت تقرّ حكمه نفسه، نظرًا لدقته في إصداره.

(٣) **مرّ القاضي بابتلاءات وامتحانات** كثيرة أيّام القضاء، ولكنه اجتازها بكل أمانة وثقة ونباهة ونزاهة.

لم يكن غريبًا عند كبار المسئولين وصغارهم في الدول، قديمًا وحديثًا، تملّقهم من قبل المراجعين وتقديم الرشاوي إليهم، لتسليك أمورهم، وقد مني به القاضي أيضًا.

ذات مرّةٍ، دخل عليه أحد معارفه من الهندوس، لشفاعة صديقه المتهم بالقتل.

وقال: إنه بريء قطعًا، فأرجو منك إصدار الحكم ببراءته، وقدّم إليه ظرفًا.

فقال له القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ماذا في هذا الظرف».؟

أجابه بصوت خافت: «هذه حلواك»!.

قال له القاضي: أستغفر الله...تريد أن تؤكّلني حرامًا».

فقال له: «حضرة القاضي: هذه أربعون ألف روبية».

فردّ عليه القاضي بداهة: زيادة مقدار الحرام، لا تحلّل الحرام، بل تزيده كراهة

وحرمة أكثر...اطمئنّ! لا يظلم أحد عندي، وما يكون، يكون حسب مقتضى القانون».

لما سمع ردّ القاضي هذا، لم يحر جوابًا، وارتسمت في قلبه عظمة الإسلام والمسلمين، التي لم يكن يتوقّعها أبدًا.

كانت هذه الواقعة حول سنة ١٩١٠م، ومبلغ أربعين ألف روبية في ذلك الوقت، يساوي الآن عشرة ملايين روبية تقريبًا.

هذا مثال من أمثلة سلوكه العظيم، وأسلوبه الرائع في مواجهة المغريات أيام القضاء.

(٤) **كانت تعرض عليه قضايا الكبار والصغار** حتى الأمراء والأميرات، وأقربائهم ومعارفهم، ولكن القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان يساويهم في القضاء من غير مراعاة أحد، وغير شفاعة أحد. وإذا شعر بشيء من الضغط عليه، كان يرفض سماع تلك القضية، فتحوّل إلى قاضٍ آخر.

ذات مرّةٍ، أبلغت الملكة بواسطة إحدى كبار الشخصيات سلامها إلى القاضي، ورجاءها منه في قبول شفاعتها في أحد أعزّائها.

فقال القاضي: أنا أسمع القضيّة بأكملها حسب القانون المتّبع، ثمّ أصدر الحكم فيها حسبما أفهم صحيحًا، والحكم لا يصدر بشفاعة الملكة.

ولم تكن الملكة تتوقّع مثل هذا الردّ من قبل قاضٍ من قضاة الإمارة، فاشتكته عند زوجها الملك، قائلة: إن القاضي لم يقبل شفاعتها.

قال لها الملك: أنتِ أخطأتِ في شفاعتك عنده، وإني لم أشفعه في أحد أبدًا، وهو يفصل في القضايا حسب القانون، ولا يخرج من دائرته قطعًا. وهذه منقبة له، علينا أن نشجّعه عليها.

(٥) **كما أن القاضي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **كان محتاطا** غاية الحيطة والحذر في إصداره الحكم في القضايا، كذلك كان جريئًا فيه أيضًا، ومتهوّرًا في بعض الأحيان.

ذات مرّة، عُرضت في جلسته قضية القتل وقطع الطريق، وثبتت الجريمتان على

المتهمين بهما (هم اثنان أو ثلاثة) بالوقائع، والقرائن، والشهادات، فعيّن تأريخ إصدار الحكم، وأعلن أنه يتمّ في قرية المتهمين أنفسهم.

كان هذا الإعلان من قبل قاضٍ، يتّسم بالغرابة والانفراد، لأنه كان خلاف المعتاد في محكمة القضاء، فانتشر هذا الخبر في القرية وما حولها من القرى، كالنار في الهشيم، وبدأ الناس يتواردون إليها في الوقت المحدّد له. وجاء القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فبيّن تفاصيل الجريمتين، ودقائق الحكم فيهما، ثم أصدر الحكم عليهم بالإعدام، أمام جمّ غفير من الناس.

(٦) **ذات مرّة، سيطر المسلمون** في قرية من نواحي «بتياله» على أرض لهندوسيّ، وبدأوا ببناء المسجد عليها، فاشتكاهم صاحب الأرض الهندوسيّ عند القاضي في المحكمة، فأصدر حكمه بإيقاف البناء فورًا، وطلب الفريقين لإدلاء بيانهما، وكان يحسب الفريق المسلم، أنه يفصل القضية في حقهم، لأنه قاضٍ مسلم وعالم كذلك.

ولكن القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد سماع أدلّة الفريقين، أصدر الحكم في حقّ صاحب الأرض الهندوسيّ، وكتب في محضر الحكم، أنه لا يجوز بناء المسجد على أرض مغصوبة، أو مأخوذة جبرًا.

لقد حزن الفريق المسلم حزنًا شديدًا على صدور هذا الحكم ضدّه، ولكن أثر هذا الحكم في مالك الأرض الهندوسيّ، تأثيرا بالغًا، حتى أسلم هو مع أفراد أسرته، وتولّى بناء ذلك المسجد في المكان نفسه، وعلى نفقته الخاصّة.

من تأثير قضائه العادل، وأخلاقه الفاضلة:

تمخّضت عن نبوغه وجِدّه في وظائفه في إدارة التعليم ومحكمة القضاء، وحسن أخلاقه، وروعة أسلوبه في الدعوة إلى الكتاب والسنّة نتائج إيجابية وآثار ملموسة، منها:

- **تأثر بإخلاصه في العمل**، مدير التعليم الهندوسيّ المتعصب، حتى دان له هو وأسرته، وسرى أثره البالغ في ابنه سروب سنغ (نائب محافظ سنام)، الذي واسى المسلمين عند انفصال باكستان من الهند، وسهّل لهم الخروج من الجزء الهندي إلى باكستان

في تلك الأيام الصعبة من القتل والنهب والتشريد، رغم أنف الحكومة ومسئوليها بحكم منصبه، حتى عزل من منصبه من جرّائه.

وقد زار لاهور سنة ١٩٥٠م تقريبًا مع وفد رفيع المستوى، ولكنه لم ينس تلك الذكريات القديمة، ولقي القاضي عبد العزيز بن القاضي محمد سليمان في بيته بكل حبّ وكرامة، وكان كل هذا بعد وفاة القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بتسع عشر سنة.

- **وتأثر هندوسيّ بقضائه العادل** في حقّه ضدّ الفريق المسلم تأثرا بالغًا، دفعه إلى دخوله في الإسلام مع أفراد أسرته.
- **أسلم «غازي محمود دهرم بال»** متأثرًا بكتابات القاضي الناصحة على يديه مرّة ثانية، بعد كونه مرتدًا إلى مدّة إحدى عشرة سنة، وذلك في مايو سنة ١٩١٤م، أيّام رئاسة القضاء في «بهتندا»).
- وقد تبيّن من هذا، أنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع أداء مهام وظيفته لم يكن ليغفل عن دعوة الناس إلى الإسلام بخلقه وأدبه، وتذكيره وتحريره.
- **اجتاز القاضي عبد الباقي** (حفيد القاضي سليمان) امتحان المحاماة الأخير سنة ١٩٣٥م، وبقيت عليه مدّة التدريب عند أحد المحامين، وهي ستة أشهر، كشرط لاستلام الشهادة.

ولما اطّلع على طلبه بهذا الصدد «ديوان بندي داس» (رئيس القضاء الأعلى في إمارة «بتياله»)، فاستثناه من هذا الشرط، كاتبًا على طلبه، بأن حفيد حضرة القاضي لا يطبّق عليه هذا القانون احترامًا له وتقديرا رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ذلك بعد وفاته بخمس سنوات تقريبًا، كلّ هذا كان من تأثير حسن خلقه في مكتبه الوظيفي وخارجه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

احترامه وتقديره لدى والي الإمارة، وغيره من الملوك، والأمراء، وكبار المسئولين من الإنجليز وغيرهم

- **مع والي الإمارة (راجا، أي الملك):**

كان القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع منصبه في الإمارة، متواضعًا هيّنًا ليّنًا، مخلصًا في عمله، جادًّا في أدائه، ملتزمًا بعقيدته ودينه، ومتمسكًا به، علما وعملا، ومنهجا وسلوكًا. وكان هذا معروفًا عند العامّة والخاصّة من الناس.

ولم يكن الوالي أيضًا بتجربته على غفلة مما يتمتع به القاضي من المزايا، التي قلّما توجد في غيره، مع حبّه للعمل، والقيام به من دقة وأمانة، فكان يحترمه جدًّا، ويقدّر عواطفه الدينيّة أيضًا، ويراعيها خلاف المعتاد.

(١) **كان الأمراء والحكّام والعاملون** في الإمارة، والموظفون فيها، يحيّون الملك بتحيّة خاصّة، راكعين خاضعين، يلمسون قدمه بأيديهم، ثمّ يمسحون بها جباههم، فكان القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يقف معهم في الطابور متلاصقًا بهم، بل على بعد منهم قليلًا، والملك بعد الفراغ من أخذ التحيّة منهم، يتقدّم إليه بنفسه ويعانقه، لأنه كان يعلم علمًا يقينًا بأن القاضي لا يركع إلا لله تعالى، وهو رجل موحّد لا يتنازل عن عقيدته أبدًا.

وكان بعض محبّي القاضي راقبوه في بعض المناسبات، ليروا كيف يتصرّف فيها مع الملك عند التحيّة له، فرأوا هذا العجب، واندهشوا، وزاد حبّهم له رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٢) **لما أراد القاضي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يخرج للحجّ في مارس ١٩٣٠م، ذهب إلى الوالي ليلقاه، ولكنه كان مشغولًا، فخرج مع القافلة، ووصل إلى محطّة القطار، فجاء الوالي نفسه إلى المحطّة بعد فراغه ليودّعه، مع أنه قد مضت على تقاعده عن الوظيفة في الإمارة ستّ سنوات، وكان الوالي لايستغني عن مشورته حتى في الأمور الخاصّة بالأسرة الحاكمة، وكان يستعين به في شراء الحلي والمجوهرات، والثياب وغيرها من الأشياء

عند المناسبات كالزواج وغيره، لأمانته وديانته، وكذلك كان هو المستشار الأصلي في المعاملات الرسميّة أيضًا حتى آخر حياته.

وبهذا يتبيّن أن هذا الحاكم السيخي المستبدّ، كم كان يوقّره، ويعتمد عليه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٣) **إذا زار أيّ ضيف من الضيوف** الرسميين الكبار مثل نائب الملكة (Viceroy) أيّام الاحتلال، أو المحافظ، كان القاضي هو الذي يرأس القائمين على ضيافتهم.

(٤) **كان المقرّ الصيفي** للإمارة في «چايل» (Shael) قرب «شمله»، فقدّم الوالي الدعوة للورد «كرزن» (نائب الملكة بالهند، وهو أعلى منصب في الدول المحتلّة بعد الملكة) لزيارته هناك. وكان القاضي هو الرئيس للجنة استقبال الضيف.

وبمناسبة مجيئه نظموا مباراة الكريكيت في الملعب وكان اليوم يوم الجمعة. ولما كان القاضي يتواجد في «المقرّ الصيفي» مع الوالي في الأيام الأخرى أيضًا، كان هو الذي يصلّي بالمسلمين صلاة الجمعة والجماعة هناك. فراجعه المسلمون من الموظفين وغيرهم، وقالوا كيف نصلّي اليوم، وأين؟ وقد وصل نائب الملكة، وبدأت المباراة أيضًا.

قال لهم القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بكلّ ثقة وطمأنينة: نصلّي في ناحية من الملعب.

حان وقت الأذان، فأُذّن، وخطب القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وصلّى بهم بكل هدوء وطمأنينة.

وبهذا وجد بعض حسّاده من غير المسلمين فرصة للوشاية به عند الوالي، بأنه لم يبال في هذا الموقف الحرج بأي تنظيم وإدارة، وبحضور نائب الملكة بدأ يخطب ويصلّي بهم.

ولمّا ذكر الوالي ذلك للقاضي، فقال للوالي:

«قد تصل بعض الشكاوي إلى نائب الملكة بأن المسلمين في هذه الإمارة، لايتمتّعون بحرّيتهم الدينيّة، وحكّامها يعرقلون في أداء واجباتهم، فرأيت من المناسب أن أوضّح على نائب الملكة في الهند، بأن المسلمين لهم حرّية كاملة، ويستطيعون أن يؤدّوا واجباتهم الدينيّة في أيّ وقت وفي أيّ مكان.

فسرّ الوالي بهذا الجواب، وقال: لقد أقمت عليه حجّة قويّة، وقدّمتَ مثالًا جيّدًا.

(٥) **ذات مرّة، أرسل الوالي إلى القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ** أن يأتي إلى «قصر موتي باغ»، فوصل إليه، وجلس في غرفة الاستقبال ينتظره ساعة، والوالي مشغول ببعض أموره، حتى أذّن

المؤذّن، فخرج يصلّي في ناحية من حديقة القصر.

وفي هذا الأثناء جاء البوّاب يخبره، ليدخل على الوالي، فرأى يمينًا وشمالًا فلم يجده.

فذهب إلى الوالي وقال له: حضرة القاضي غير موجود.

فقال له الوالي: اذهب، وابحث عنه، تجده يصلّي في مكان ما.

فلما فرغ القاضي من الصلاة، دخل على الوالي، فقال له: «أين ذهبتَ»؟

قال: ذهبت لأحضّر في بلاط «ملك الملوك»!

فقال له الوالي: هذا كان ظنّي بك، طيّب، إنك أدّيت هذا الواجب!

(٦) **كان من عزّه نفسه، ووضعه الخاص،** أنه لم يكن يذهب للقاء الملك من غير طلب منه، فضلًا أن يكون وزيرًا أو ذا منصب أعلى منه.

(٧) **قضى القاضي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ مدّة من الزمن في عهد الوالي «بهوبندر سنغ» (١٩٠٠-١٩٣٨م)، حتى وفاته سنة ١٩٣٠م، وكان الوالي دائمًا يخاطبه بـ«بابا جي» (أي حضرة الكبير)، أو بـ«حضرة القاضي».

وحينما كان يتكلّم مع القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كانت تترشح من أسلوبه عواطف الاحترام والتقدير له.

ولما كان القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يدخل عليه، كان يستقبله قيامًا، ويقدّم له الكرسي للجلوس عليه، وكان إذا خرج، يشيّعه إلى الباب.

كل ذلك كان خلاف المعتاد في بلاط مثل هؤلاء الملوك والأمراء المستكبرين في ذلك العصر.

(٨) **كان الوالي يمنح القاضي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ خلال كل سنتين أو ثلاث خلعة فاخرة، وكان القاضي يقدّمها إلى والده الكريم (القاضي أحمد شاه) بكل أدب واحترام، وقد حجّ حجّتين بعد بيع هذه الخلع الثمينة.

وكان القاضي يحبّ والديه حبّا جمّا، ويقوم بخدمتهما قيامًا يغتبط به.

(٩) **كان كبار المسئولين من غير المسلمين في الإمارة أيضًا،** يحترمونه غاية الاحترام. كان «لاله جرنجي لال» (المحاسب العام في الإمارة) حينما يخرج من قصره الواقع على

بعد أربعة أميال من المدينة، يمرّ يوميًّا ببيت القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ليُركبه معه في عربته التي كانت تجرها الخيل، -وكانت تعتبر في ذلك الوقت مركوبًا أميريا شريفا- ويوصله إلى المحكمة بكل أدب واحترام، ثمّ يتّجه إلى مكتبه بعد تقديم التحيّة له.

وإلى ما كان القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في وظيفته في «بتياله»، هذا كان ديدن «لاله جرنجي» معه** رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(١٠) **عيّن القاضي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ، **لمدّة من الزمان**، السكرتير العام لمكتب رئيس الوزراء، «راجا سرغوردت سنغ»، وكان من كبار الشخصيات في الإمارة، وكان يحترمه جدًّا، وكان يتشاور معه في أهم المعاملات الرسمية، ويعمل بمشورته، ويقدّم رأيه على رأيه، رغم كونه رئيس الوزراء.

(١١) **كان القاضي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ، **من كبار الموظفين** في إمارة سيخيّة متعصبة، ومع هذا كان يساعد كل حركة دينيّة بأسلوب أو آخر، كانت تقوم بالإصلاح الديني بين المسلمين، أو تتعلّق باستخلاص الوطن واستقلاله من براثن الاحتلال البريطاني.

وكان مركز المجاهدين في «جمركند»، التابع للشيخ فضل إلهي الوزيرآبادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (-١٩٥١م)، على خلاف شديد دائم مع حكومة الاحتلال، التي كانت تبذل أقصى جهدها للقضاء عليه كل حين، ولكن القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كان يرسل إليه مساعدات مالية سرّا وباستمرار، بواسطة الشيخ فضل إلهي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

لعلّ هذا هو السبب الذي لأجله تنامت علاقة حميمة بين أخلاف الأسرتين في باكستان، واستمرت بعد استقلال الهند من الاحتلال أيضًا.

(١٢) **ذات مرّة: أصدر والي إمارة «فريدكوت»**، (المتاخمة لإمارة «بتياله»)، التي كان القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يتردّد إليها لأجل خؤولة أولاده، قرارًا لمنع دخوله في حدودها، ويقال: كان هذا لسببين:

(الأوّل): قيل لوالي «فريدكوت»: إن القاضي على علاقة مواساة بمركز المجاهدين بـ«جمركند»، ويساعده مساعدة ماليّة، والمركز على خلاف دائم مع حكومة الاحتلال في الهند، وعلى هذا، يعتبر القاضي أيضًا مخالفًا لها.

(الثاني): كان الملكان على شيء من المضض، وبما أن القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كان من أهم أركان إمارة «بتياله»، فأصدرت إمارة «فريدكوت» قرارًا لمنعه من الدخول فيها.

أيًا كان سبب هذا القرار، وهل زال ما كان بين الملكين من المضض أم لم يزُل، ولكن والي «بتياله» أبدى استياءه ضدّ هذا القرار بشدّة، حتى خيف أن تتدهور علاقة الإمارتين أكثر، وطالب والي «بتياله» من والي «فريد كوت» أن يلغي هذا القرار، فتمّ ما أراد.

ولا ريب أن القاضي وأسرته كانوا على صلة دائمة بمركز المجاهدين في «جمركند»، ولكن كانت هذه العلاقة في السرّية بمكان، لم يكن سهلا لحكومة الاحتلال أن تثبتها (رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ).

(١٣) هذا، وكان الوالي (بهوبندر سنغ) نفسه، يفتخر بوجود القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إمارته،

ويؤكده ما ذكر القاضي حبيب الرحمن (ابن أخي القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ)، فقال:

«قال الوالي (بهوبندر سنغ) لصديق لي من دهلي، مهما كان اعتزاز مسلمي الهند بحضرة القاضي فهو في محلّه، ولكن لا ينسى أنه شخصية زكية كريمة في إمارتنا أيضًا، لم أخاطبه أبدًا باسمه، بل خاطبته دائمًا بـ«حضرة القاضي» أو «حضرة الكبير» (بابا جي)، ووجوده مبعث خير وبركة لنا، نحن في حاجة إلى دعائه، ومن واجبنا أن نعزّه ونكرمه، ونحصل على دعائه.

هكذا كانت أهمية القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ومكانته في نظر والي «بتياله».

ولعل القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ اعترافا بهذا الجميل، كان قد رفض الدعوة للقدوم إلى إمارة حيدرآباد (دكن)، وإلى إمارة «بهاول فور» على رواتب مجزية مغرية، مع المراعات الأخرى ليتسلّم الوظائف العالية هناك، ولكنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يرجح هذه الفوائد المادّية على الإقامة في «بتياله»، وما كان يحصل له من المعاش من وظيفته، يقتنع به. فجزاه الله خيرا.

• زيارة أمير ويلز لإمارة «بتياله»، ودور القاضي في ترتيبها وتنظيمها:

حكم (بلقب جورج الخامس) بريطانية، ومحتلاتها، ولما جاء لزيارة الهند سنة ١٩٢٠م، فقدّم الوالي «بهوبندر سنغ» الدعوة إليه لزيارة «بتياله» أيضًا.

وكان من الأعراف السياسية أن يصاحبه في زيارته نائب الملكة في الهند، والمفوّض السامي لولايات الهند، ومحافظو جميع الولايات، والأمراء والولاة لخمس مئة وخمسين إمارة أيضًا.

كان إعداد المظلّات والخيم، وتجهيز الأثاثات والمفروشات عملًا ضخمًا جدّا، فوقع اختيار الوالي على القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لحمل هذه المسئولية الرسميّة الكبيرة، وذلك لسببين:

الأوّل: لم يكن في نظره في هيئة المسئولين الكبار من يقوم بهذا الواجب بطريقة منظمة وبكفاءة تامّة أحسن قيام من القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والثاني: كان هذا العمل الضخم، يحتاج إلى من يؤدّيه بكل حزم واحتياط، وأمانة وديانة وبأقلّ تكلفة.

فنجح القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أداء هذه المسئولية الكبيرة على المستوى الرفيع المطلوب، لمثل هذا الحدث المشهود في الإمارة، وفاز بثناء الوالي وغيره من الأمراء والحكّام.

• زيارة الأمير حبيب الله خان للهند، وعلاقته بالقاضي:

زار الأمير حبيب الله خان (والي أفغانستان) الهند سنة ١٩٠٧م، فأوصت حكومة الاحتلال والي إمارة «بتياله» بأن لا يألو جهدًا في حراسته، واحترامه، وتقديره في حدود إمارته.

فأرسل الوالي القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لاستقباله إلى «بشاور». وكان من قصده أيضًا، أن يتعرّف القاضي خلال سفره من بشاور إلى لاهور، على عاداته وعوائده، وضرورياته، ومشاغله بالمباشرة، وبواسطة الوفد المرافق له أيضًا، من الأمراء والوزراء، ليُراعى كلّ ذلك في ضيافته عند زيارته لمدينة «سرهند»، التي تقع في إمارة «بتياله»، وفيها قبر الشيخ أحمد السرهندي (٩٧١-١٠٣١هـ) المعروف بمجدّد الألف الثاني، في الهند.

وقد تأثر الأمير حبيب الله خان بالقاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وعلمه وفضله، وحنكته وتجربته، وطلب من الحكومة أن يبقى القاضي معه خلال زيارته للهند، فكان القاضي معه في زيارته «سرهند»، لأنها تقع في إمارة «بتياله»، ولما سافر إلى «كلكته» أيضًا صاحبه القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وذات يوم، سأل الأمير حبيب الله خان إمامَه الذي كان معه عن مسألة، فسكت ولم

يجب، فسأل القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فأجاب عنها في لغتها الفارسيّة، بكل ثقة واعتماد.

فقال له الأمير: من اليوم أنت إمامنا.

في هذه الأيام، قال الأمير في القاضي في مجلس، لم يكن القاضي موجودًا فيه، مثنيا عليه: «**هذا عالم كبير، يستحقّ التكريم**» (آن ملّاے بزرگ است، لائق تكريم است).

قال مير عبد الجليل (المدير العام للبريد في باكستان الغربيّة وفنجاب سابقًا):

«قد تأثر الأمير حبيب الله خان في زيارته للهند، بالقاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وبكلامه وكماله، وعلمه وفضله، وتنظيمه وتنسيقه لزيارته، إلى أن التمس من والي «بتياله»، أن يسمح للقاضي بأن يذهب معه إلى أفغانسان».

هذا، وكان هناك تبادل للرسائل والخطابات بين القاضي والأمير عبد الرحمن بن حبيب الله، يذاكران فيها بما يتعلّق بمهام الأمور في الدولة.

• تحفة قطعة من غلاف الكعبة من قبل حكومة الشريف بمكّة:

«حج القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حجته الأولى سنة ١٩٢١م، في عهد الشريف بمكّة المكرّمة. ولما تعرّف الشريف عليه، وعَلِمَ بفضله ومكانته أتحفه قطعة من كسوة الكعبة، نسجت فيه آيات من القرآن المجيد بالأسلاك الفضّية، كان طولها ياردتان أو ياردة ونصف ياردة، وعرضها أربعون بوصة، وكانت قطعة في غاية الرونق والجمال، أعطاها القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أحد محبيّه (وهو الشيخ غلام صابر)، ليجعلها في داخل الإطار، ولكنه احتفظها لنفسه، ولم يردّها إليه.

• علاقاته بكبار الشخصيات السياسيّة على مستوى الهند:

كان القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتمتع بعلاقات واسعة ببعض كبار الشخصيات السياسيّة على مستوى الهند المتّحدة من المسلمين وغيرهم، حتى بعض كبار المسئولين من حكومة الاحتلال على كرههم، وكانوا متأثرين بأنواع من خصائصه في أداء مهامه، وفي العلم والفضل، والأمانة والتديّن، والوجاهة في شخصيته.

كان ثلاثة من نائبي الملكة في الهند من المقدّرين له، وعارفين بأهميته، وحدود

صلاحتيه وقابليته. وفيما يلي حادثان من هذا النوع:

الأوّل: كان «**لاردْ چيمس فوردْ**» (Lord Chelmsford) احتلّ منصب «نائب الملكة في الهند» (وهو أكبر منصب سياسي لحكومة الاحتلال) ما بين (١٩١٦-١٩٢١م)، وقد زار «بهتندا» بإمارة «بتياله».

وبهذه المناسبة الرسمية الكبيرة، نظّموا احتفالًا كبيرًا لاستقباله وترحيبه، وعرّف الوالي (بهوبندر سنغ) على الضيف، القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقام نائب الملكة خلاف المراسيم المعتادة من مجلسه، وصافح القاضي، وقدّم له الكرسي للجلوس، **ثمّ قال مخاطبًا الملك: «أنا أعرفه»**.

الثاني: ذكر القاضي عبد الباقي (حفيد القاضي محمد سليمان) برواية الشيخ غلام صابر، بأنه قال:

«**ذات مرّة، «اللورد منتو»** (Lord Minto) (نائب الملكة في الهند) زار «چايل» (مصيف إمارة «بتياله»). وكان القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو المسئول عن تنظيم أمور الضيافة وإدارتها. وكان هذا لقاء القاضي الأوّل مع «**اللورد منتو**».

وبعد مدّة من الزمن جاء «اللورد منتو» (Lord Minto) إلى «بتياله» مرّة ثانية، فلم ير القاضي هناك، فسأل عنه، فقيل: «إنه مريض».

فبعث أحد كبار موظفيه (.A.D.E) إلى القاضي لعيادته»

والجدير بالذكر أن « اللورد منتو» (Lord Minto) كان على منصب «نائب الملكة» ما بين (١٩٠٥-١٩١٠م):

• الشهادات التذكاريّة الممنوحة للقاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قد منحت للقاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عدّة شهادات تذكاريّة من قبل أهم الشخصيات السياسيّة على مستوى الهند، اعترافًا بعلمه وفضله، وشرافته ونجابته، وصلاحيته في التنظيم والإدارة وغيرها من الأمور.

من هذه الشخصيات:

* **إحداها من الملوك**: (وهو الأمير حبيب الله خان (والي أفغانستان)، وكانت

شهادته مكتوبة بالحروف الذهبيّة).

* **ثلاثة من نائبي الملكة في عهودهم اللورد كرزن (Lord Curzon)، اللورد منتو (Lord Minto)، اللورد جيمس فورد (Lord Chelmsford)).**

* **واحد من سكرتير نائب الملكة** (وهو: دنلب اسمته(Dunlop Smith)، الذي كان سكرتيرًا سياسيًّا في عهد «**اللورد كرزن**» و«**اللورد منتو**» لعدّة سنوات. وكان «**اللورد كرزن**» على منصبه ما بين (١٨٩٩-١٩٠٥م).

* **إحداها:** المفتّش العام للشرطة في فنجاب (وهو: المستر تام كرزن (Tom Curzon))، وقد تقدّم ذكره، ونصّ شهادته بالإنجليزيّة).

هذا، وقد منحت له شهادات كثيرة أخرى، من قبل الشخصيات المعروفة، ولا ريب أنها في الدنيا بمثابة الاعتراف بالفضل لصاحبه، ولها أهمية في نظر الناس، ولكن القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يكن يهتم بمثل هذه المظاهر، ولم يهتم بحفظ هذه الشهادات أيضًا، وقد ضاعت كلّها بمرور الزمان، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

• القاضي مع الملك عبد العزيز آل سعود رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ:

علاقة الملك بعلماء شبه القارّة الهندية:

يرجع تأريخ علاقة الملك عبد العزيز آل سعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٢٩٧-١٣٧٣هـ) بعلماء أهل الحديث في شبه القارّة الهندية، إلى الربع الأوّل من القرن الثالث عشر الهجري (أي بداية القرن العشرين الميلادي)، حيث كان هو وأبوه الأمير عبد الرحمن آل سعود (١٢٦٨-١٣٤٦هـ) في دولة الكويت ما بين (١٨٩٢-١٩٠٢م)، ويعدّون العدّة لفتح الرياض.

أوّل تعارف بينهم:

في هذه الأثناء وصل الكويت للدعوة والتجارة، مرورًا ببعض المناطق العربية: عالمان من أبناء العلّامة السيّد عبد الله الغزنوي (١٢٣٠-١٢٩٨هـ) (تلميذ المسند المعمّر السيّد محمد نذير حسين المحدّث الدهلوي (١٢٢٠-١٣٢٠هـ) وهما:

- **السيّد عبد الرحيم الغزنوي** (-١٩٢٠م).

- **والسيّد عبد الواحد الغزنوي (- ١٩٣٠م).**

فتعارفوا فيما بينهم في مسجد مساجد الكويت، على أساس وحدة العقيدة والمنهج، وتذاكروا وتدارسوا، وتوطدت العلاقة فيما بينهم، وبعد فتح الرياض سنة ١٩٠٢م، استقدمهما الملك عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى الرياض، فبقيا هناك خمس سنوات، ودرس عليهما بعض آل سعود وآل الشيخ أيضًا.

من فائدة هذا التعارف:

من فائدة هذا التعارف أن هذين الأخوين العالمين رجعا إلى الهند، بكتب ورسائل كثيره لشيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ)، وتلميذه الإمام ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ) وغيرهما من علماء الدعوة، ونشروها فيها أوّل مرّة.

وهكذا تعرّف علماء الهند على دعوة شيخ الإسلام وكتاباته بشيء من التفصيل.

وبدأت هذه العلاقة بين الملك والأسرة الغزنوية السلفية، تتوطد بمرور الزمن، حتى فتح الحجاز سنة ١٩٢٤م. وكان علماء أهل الحديث في شبه القارّة الهندية من أوائل المهنّئين والمؤيدين له في إصلاحاته في الحرمين الشريفين.

تعيين السيّد إسماعيل الغزنوي مندوب الحجّ:

وفي هذه الأثناء جعل الملك عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، السيّد إسماعيل بن عبد الواحد الغزنوي مندوب الحج في شبه القارّة الهندية، وبقي على منصبه هذا لمدّة نحو أكثر من ثلاثين سنة إلى وفاته ١٩٥٩م.

وفي سنة ١٩٢٨م، حين رفضت مصر إرسال كسوة الكعبة لمضض بينها وبين الملك، فوكّل الملك رَحِمَهُ ٱللَّهُ السيّد إسماعيل وابن عمّه داود بن عبد الجبار الغزنوي لإعداد الكسوة بصفة الاستعجال، فجهّزوها على الوقت المحدّد بتعاون من شخصيات أهل الحديث، وقالوا للملك: **نحن نعدّها كل سنة، ولكن الملك رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: أرسلوا لنا العمال لنسج الكسوة، ففعلوا ذلك، وعلى هذا الأساس أقيم «مصنع الكسوة».**

السيد إسماعيل مع القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الحجّ:

خلاصة القول أن القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما حج حجّته الثانية -وهي الأخيرة له- سنة ١٣٤٨هـ=١٩٣٠م، كان السيد إسماعيل الغزنوي معه على متن الباخرة، التي توفّي فيها، وهو الذي قام بتجهيزه وتكفينه والصلاة عليه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

طلب الملك عبد الملك من القاضي تأليف كتاب في تأريخ نجد:

وعلى أساس هذه العلاقة الوطيدة، لقي الملك رَحِمَهُ ٱللَّهُ القاضي سليمان، فتأثر به جدّا لاطلاعه الواسع على مصادر العلم والتأريخ والجغرافية.

وتجاذبا الحديث حول تأريخ نجد أيضًا، فبيّن القاضي نكات دقيقة من تأريخ نجد ما لم يكن الملك مُلمّا به.

وعلى هذا، طلب من القاضي أن يؤلّف كتابًا في تأريخ نجد، ووفّر له أهم المصادر والمراجع العربية حول هذا الموضوع، ليرجع بها إلى الهند، ويبدأ الكتابة فيه. ولكن قدّر الله أن القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ توفّي على متن الباخرة المتهجة إلى الهند، وأوصل رفقاؤه هذه الكتب، مع أمتعته الأخرى، إلى بيته في «بتياله».

كان القاضي مؤرّخا عظيمًا، ماهرًا في استخراج الدروس والعبر من الوقائع والأحداث، لو تيسرت له الكتابة في تأريخ نجد، لكان مأثرة علمية عظيمة في الموضوع، ولكن كان أمر الله قدرًا مقدورًا.

إشارة القاضي على الملك لتسقيف ما بين الصفا والمروة:

كان حجُّ هذا العام (أي عام ١٣٤٨هـ) في الشهر الخامس الشمسي (مايو سنة ١٩٣٠م). وكان الموسم حارًا جدًّا.

جاءه السيد إسماعيل الغزنوي، والكاتب الكبير «غلام رسول مهر» يزورانه فذكراه الحرّ الشديد.

فقال لهما القاضي: نحن نحتمل الحرارة الشديدة في أداء الأعمال الرسميّة، المناطقة بنا، بحكم وظائفنا، ولكن لا نحتمل هذه الحرارة، ونحن في موسم العبادة.

ويُذكر أن بعض الحجّاج الذين حجّوا بعد وفاته بثلاث سنوات، سمعوا من معارفهم، أن القاضي قبل سنوات حجّ، وهو الذي أشار على الملك لتسقيف ما بين الصفا والمروة.

ولا يستبعد مثل هذا الاقتراح على الملك للإصلاحات في الحرمين من قبل علماء الهند، بل ليس بجديد أيضًا، وذلك أن العلامة الشيخ ثناء الله الأمرتسري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (-١٩٤٨م)، الذي شارك في مؤتمر الحجاز سنة ١٩٢٦م، اقترح على الملك رَحِمَهُ ٱللَّهُ لإقامة مصلحة للحج مستقلّة لتنظيم أموره.

وكذلك تقدّم آنفًا، أن الملك رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر علماء أهل الحديث بالهند لإعداد كسوة الكعبة في وقت حرج، فأنقذوا الموقف، وقدموا اقتراحًا على الملك بأنهم مستعدّون أن يجهزوها كلّ سنة. وأقيم «مصنع الكسوة» على أيدي العمال الذين أرسلهم أهل الحديث بالهند.

هذا، وكان الملك رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتدخل شخصيًّا في حلّ النزاعات في جماعة أهل الحديث في الهند.

وكان كل ذلك التعاون فيما بينهم لوحدة المنهج والعقيدة رحمهم الله جميعًا.

في مجال الدعـوة والإرشاد

كان القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يشارك في المؤتمرات الدينيّة، والاجتماعات الدعوية مع كبار علماء الهند المتّحدة، من أقصاها إلى أدناها، وكان يرأس بعضها.

- **خوّله الله تعالى جميع صفات الداعية الناجح**، فكان عالمًا، فاضلًا، عابدًا، زاهدًا، مؤلّفًا، مؤرخًا، مطّلعًا على مصادر الديانات الأخرى، وخطيبًا بارعًا صادق اللهجة، يخاطب القلوب والأذهان.

ومع كل هذا، كان ذا منصب كبير في أكبر إمارة من ولايات «فنجاب»، ولذا كان يراعي وضعه هذا الرسمي في الحلّ والترحال، وكان يسافر للحضور في هذه الاجتماعات والمؤتمرات بتذكرة الدرجة الأولى من القطار، ولكنّه لم يكن يستلم أي مبلغ من أهلها، وكذلك لم يكن يسمح أيّ واحد بأن يأتي إليه بتذكرة القطار وغيرها له مسبقًا.

- **واظب طول حياته على درس القرآن الكريم** بعد صلاة الفجر، وأحيانا بعد المغرب أيّام وظيفته وبعدها كذلك أينما كان، حتى وفاته.

قال حفيده عبد الباقي -وهو يبيّن مواظبته على الدرس، بكلّ عزم وحزم ومن غير ملل وسآمة-:

«إنه أكمل دورة درس القرآن سبع مرّات، حين كان أيام وظيفته قاضيًا في «بهتندا».
(القاضي: ١٣٢-١٣٣).

لم تقتصر مواظبته هو نفسه فحسب، بل كان يحثّ الآخرين أيضًا أن يبدأوا درس القرآن ويستمرّوا فيه.

- يلقي خطبة الجمعة أينما حلّ وارتحل، وكان يصلّي وراءه كل فئة من المجتمع من علماء ومثقفين وحنفية وغيرهم، لأنه لم يكن يتطرّق إلى المسائل الفقهية المختلف فيها بين المذاهب، إلا أنه كان يبيّن كل شيء في ضوء الكتاب والسنّة بأسلوب إيجابيّ سهل، وكان أكثر ما يتناول في خطابه، ما يهمّ الناس في حياتهم اليوميّة من المسائل، حتى يكونوا على بيّنة منها.

هذا، وكان القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين يرأس مثل هذه الاجتماعات والمؤتمرات، كان يلقي كلمة الرئاسة المكتوبة، وكل هذه الخطابات، منشورة الآن تقريبًا، بمشيئة الله تعالى.

وقد رأس مؤتمر «مئو» (١١، ١٢، ١٣، فبراير ١٩٢٧م) ومؤتمر «آغره» (٣٠، ٣١ مارس و ١/ أبريل ١٩٢٨م) وغيرهما من مؤتمرات جمعية أهل الحديث لعموم الهند المتّحدة.

أطول خطاب في محاسن الإسلام، لا مثيل له في تأريخ الهند:

«كان القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يشارك في المؤتمرات السنوية لـ«حماية الإسلام» بلاهور، ويلقي محاضرته فيها.

قال القاضي عبد الباقي (حفيد القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ):

ذات مرّة، كان السير محمد شفيع (المحامي الكبير في المحكمة العليا) يرأس أحد هذه المؤتمرات، وأعلن أنه يتبرّع لـ«حماية الإسلام» بمبلغ ثلاثة آلاف روبية لكل ساعة، يخطبها القاضي محمد سليمان. فتكلم القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حول موضوع «محاسن الإسلام ومحامده» ست ساعات متوالية، بكل فصاحة وبلاغة، ومن غير أن يذكر في الخطاب أيّ قضية سياسيّة في الداخل والخارج، وبدون ذكر فكاهات وحكايات، واستمعه الحاضرون بعناية واهتمام.

وهذا الخطاب له أهمية خاصّة في تأريخ الخطب في الهند، باعتبار أنه كان أطول خطاب في موضوع إسلامي خالص.

فتلقّت «أنجمن حماية الإسلام» مبلغا وقدره ثمانية عشر ألف روبية، تبرّعا من السير محمد شفيع، بدل خطاب القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، (وهو يساوي الآن نحو أربعة ملايين روبية)

وهذا أيضا لا مثيل له بحيث استلم منظمو المؤتمر هذا المبلغ الكبير بدل هذا الخطاب في جلسة واحدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

البحث والمناظرة

كانت المؤتمرات الدعوية والاجتماعات الدينيّة، تعقد في المناطق المختلفة، من قبل الجماعات والجمعيات، والمدارس والمعاهد. وفي عهد الاحتلال البريطاني كانت مثل هذه الاجتماعات تتحوّل أحيانًا إلى مجالس البحث والمناظرة بين أهل الديانات.

فكانت المناظرات تعقد بين أهل الحديث والحنفية، وبين الشيعة والسنّة، وبين المسلمين والقاديانيّة، وبين أهل الإسلام و«آريه سماج» من الهندوس، وبين المسلمين والنصارى، وأحيانًا بين البروتستنت والكاثوليك من النصارى أنفسهم، وكذلك بين «آريه سماج» و«سناتن دهرم» من الهندوس أنفسهم.

ومن فضل الله تعالى على أهل الحديث والسنّة والأثر في شبه القارّة الهنديّة، أنه كانت المناظرات تعقد بين المسلمين وغير المسلمين، فأكثر ما كان ينتخب للمناظرة من قبل أهل الإسلام في ذلك العصر:

- **الشيخ محمد حسين البتالوي (-١٣٣٨هـ)**
- **والشيخ عبد العزيز الرحيم آبادي (-١٣٣٦هـ)**
- **والشيخ ثناء الله الأمرتسري (-١٣٦٧هـ)**

وكان هؤلاء الأفاضل كلّهم من تلامذة السيد نذير حسين المحدّث الدهلوي رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ. (١٢٢٠-١٣٢٠هـ).

وبما أن القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان يتمتع بالاطلاع الواسع على مصادر الديانات الأخرى، كان يدلي بدلوه في كل كتبه وخطبه بما وهبه الله تعالى من العلم بالدفاع عن الكتاب والسنّة، والإسلام ونبيّه ﷺ، ومن إبانة محاسن الإسلام، ومحامد نبيّه ﷺ، ما دفع بعض كبار الهندوس والنصارى، والبوذيّة، ومن ارتدّ عن الإسلام، ومن تأثر بالقاديانية وغيرها من المناهج الباطلة، إلى أن يرجعوا إلى دين الله الواحد القهّار، ويستظلّوا تحت دوحة الإسلام بأمن وسلام في الدنيا، ومغفرة الله ورضوانه في الآخرة.

قال العلامة السيّد سليمان الندوي (-١٩٥٣م) في تقريظه لكتاب «رحمة للعالمين»، اعترافًا بفضل مؤلّفه في هذا المجال:

«وأكبر ميزة لكتاب «**رحمة للعالمين**» أنه مع احتوائه على وقائع السيرة، يتضمّن -حسب ذوق مؤلّفه- الدفاع عن مطاعن الأديان الأخرى، والمقارنة بين الصحف السماوية، وخاصّة إبطال دعاوي اليهود والنصارى.

وبما أن المؤلّف كان له درك كامل في نصوص التوراة والإنجيل، كان خبيرا بأساليب النصارى في الجدل والمناظرة، جاء كتابه هذا -على هذا الأساس- مخزنًا كاملا لهذه المعلومات والمعارف.»[١]

---

(١) مقدّمة الجزء الثالث من كتاب «رحمة للعالمين».

من أساليب القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الدعوة إلى الله

(عذوبة كلامه، وسرعة تأثيره على نحو لا يتصوّر)

رأينا نماذج من تعامل كبار المسئولين على مستوى الهند، وغيرها من البلاد، مع القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لعلمه وفضله، وكلامه وكماله، وكذلك تعامل القاضي الراقي معهم في التنظيم والإدارة، والتفاني في أداء المسئولية على الوجه المطلوب.

والآن نتناول ما كان له في مجال الدعوة من أسلوب رائع حكيم، مع الخاصّة والعامّة من الناس على سواء، مع علمه وفضله، ومنصبه وجاهه.

وفيما يلي من نماذج من أسلوبه الرائع في الدعوة إلى الله:

(١) **قال «صوفي نذير حسين»**: إنه كان موظّفًا في محطّة القطار في «بهتندا» (وكان القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حينئذ قاضي المحكمة فيها)، وكان «صوفي» يعيش في هيئة صوفيّة منحرفة: الشوارب الطويلة، واللحية الملتوية المنتشرة، والأشعار الطويلة، والثوب الأخضر الطويل إلى ما تحت الكعبين، وفي الساعد الأيمن ستة أو سبعة أسورة حديدية، وفي يده عكازة من الحديد، يضرب بها على الأسورة، فيخرج منها صوت مثل سلسلة الجرس.

قال: ذات يوم كنت أتجوّل على رصيف من أرصفة المحطّة، فوقع نظري على شيخ طويل القامة، على رأسه عمامة رسميّة، لحيته جميلة، شواربه مقصوصة، سرواله غير فضفاض مع «شيرواني» (من لباس الشرفاء مثل العباءة المصرية ولكنّه يكون إلى الركبتين)، أبيض اللون، نورانيّ الوجه، رجل في غاية العزّة والوجاهة، معه ملازمه، في يده سجّادة قماشيّة، وإبريق نحاسيّ.

وإني قد رأيت أن كلّ من يمرّ بهذا الشيخ من الصغار والكبار، يسلّم عليه بغاية الأدب والاحترام، وهو يردّ عليه مبتسمًا، فجذبتني هيئته المؤمنة، وصورته المعصومة، وروحانيّته البالغة إليها، وتقدّمت إليه، وسلّمت عليه منحنيًا، فردّ عليّ

السلام في لهجته المشفقة الرحيمة.

فقلت له بغاية الأدب: «من أين أنت»؟

قال: ههنا من «بهتندا».

قلت: «الشيخ ماذا تعمل ههنا».

قال: «ألقي كلّ يوم درس القرآن المجيد بعد المغرب، في أقرب مسجد من هذه المحطّة».

قلت: «إلى أين تسافر الآن»؟

قال: أذهب إلى «بتياله».

قلت: «متى ترجع»؟

قال: «بعد غدٍ إن شاء الله، وألقي درس القرآن بعد المغرب حسب المعتاد،وقال: بكلّ شفقة ورحمة -وهو واضع يده على عاتقي-: فلتحضر أيضًا في الدرس يومًا من الأيّام».

قال صوفي نذير حسين: ذهبت إلى المسجد في اليوم الثالث، لأحضر درسه للقرآن -وأنا في هيئتي هذه الشاذة المنكورة-، فرأيت أن كثيرًا من مسئولينا وزملائنا من إدارة المحطّة يتواجدون هناك، يسمعون درسه، كأن على رؤوسهم الطير، فجلست وراء الناس عند الأحذية.

فرآني الشيخ، وقال لي: «تعال ههنا»! فقمت متردّدًا، وجلست قريبًا منه، امتثالًا لأمره، وخفضت نظري حياء، وكنت أشعر بالندم على هيئتي هذه. وكان أكثر زملائي ينظرون إليّ بنظر شزر.

فلمّا خرجت بعد الدرس، عرفت أنه: «القاضي محمد سليمان المنصورفوري من كبار العلماء والمؤلّفين. وهو القاضي بالدرجة الأولى في المحكمة الجنائية في «بتياله»، وهو يدير جميع الأسواق في إمارة «بيتاله» أيضًا، ومكتبه في «بهتندا»، ويقوم أيضًا بوظيفة القضاء الآن ههنا.

وأوّل عمل عملت بعد ذلك، أني زيّنت شواربي ولحيتي حسب السنّة، وقصصت

شعر رأسي، ورميت عكازتي، وخلعت أسورتي وثيابي. وذهبت للدرس في اليوم الثاني، وكانت هيئتي متغيرة تمامًا.

فنطر إليّ حضرة القاضي بنظر غائر، وأجلسني قريبًا منه.

وقال -وهو يبتسم-: ماذا عن الثوب الأخضر الطويل، والعكازة، وأشعار الرأس؟

قلت: «انتهت تلك السلسلة إلى الأبد».

قال: لو أبقيتَها، لماذا استعجلت هذا الاستعجال، ما دامت هذه الأشياء صارت جزءا من شخصيتك؟!

ما أروعَ هذا الأسلوبَ الإيجابيّ في الدعوة إلى الله تعالى، لم ينتقد القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أي هيئة من هيئاته الشاذة المنكورة، إلا أنه دعاه للحضور في حلقته لدرس القرآن فقط، الذي غيّر أسلوب حياته خلال ساعة فقط، رأسًا على عقب، حتى صار فيما بعد نائب رئيس جمعية أهل الحديث المركزية بباكستان، حينما كان السيّد محمد داود الغزنوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ رئيسًا لها. ولم يكن صوفيًا، بل كانت عائلته من عوائل كشمير، تلقّب بـ«صوفي» فرحمهم الله رحمة واسعة.

(٢) **ذات مرّة نزل في «كوت كبوره»** (إمارة «فريدكوت»)، فعزمه أحد الناس على العشاء.

فقيل له: إنه لا يصلّي. ولكن القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذهب إليه، وبدأ يتعشّى، والضيف واقف على بعد منه لهيبته، فأشركه في العشاء معه، ثمّ أذّن للعشاء، فخرج المضيف أيضًا معه إلى المسجد، وصلّى العشاء، وتمّ تعلّق قلبه بالمسجد، وبدأ يقوم الليل، ويدعو الناس إلى الصلاة، وكم من أناس اهتدوا إلى الحق والصواب بدعوته.

وبهذه الطريقة الحكيمة في الدعوة إلى الله، كم من أناس اهتدوا، حتى من غير المسلمين دخلوا في الإسلام، وصاروا دعاة إلى الله وهداة إليه.

(٣) **ذات مرّة ناظره هندوسيّ** (من فرقة آريه) في موضوع مهمّ عنده، في محضر الناس، وحضرت معه في ذلك المجلس زوجته الهندوسيّة أيضًا، التي كانت مطلعة اطلاعا واسعًا على أمور دينه، وهي تصغي إلى ما يعرضه القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أثناء المباحثة من

محاسن الإسلام، التي يمتاز بها على الديانات الأخرى، وأظهر صدقه وأحقيّته بأسلوب جذّاب، تأثر به الزوجان غاية التأثّر، وأعلنا دخولهما في الإسلام في المجلس نفسه في وقت واحد، ثمّ دعوا القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى مائدة الطعام عندهما، فحضرها بكل تواضع وانكسار.

(٤) **أيّام إقامة القاضي في «بهتندا»**، في وظيفته القضائية، كان هناك «غياني» (أي عالم) من السيخ على صلة به. ذات يوم أبدى القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ رغبته في أن يدرّسه «غياني جي» (أي حضرة العالم) كتابه المقدّس «غرو غرنتهـ».

فرضي «غياني» بذلك فورًا، وقال: وليُسمع «غرو غرنتهـ» بكل احتياط وأدب.

قال القاضي: هكذا يكون.

وقد عُيّن لقراءته وقت، وفي الوقت المعيّن لها، كان «غياني» يحضر، ويدرّس القاضي «غرو غرنتهـ»، وكانا ينظران في مسألة «لتوحيد» إن مرّت بهما بنظر غائر، ثمّ يقارنانها بمواضع بآيات القرآن، التي ذكرت فيها مسألة التوحيد.

فكانت من نتيجة هذه المقارنة بين «القرآن» و«غرو غرنتهـ» في مسألة التوحيد، أنه يوم انتهى السيخي من التدريس، دخل في الوقت نفسه في الإسلام. ولله الحمد!

هكذا أراد القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ الخير لصاحبه هذا السيخي «غياني»، فاختار هذه الطريقة الحكيمة الواعظة لإطلاعه على «التوحيد»، وغيره من محاسن الإسلام، فنجح بكل سهولة في أن يقبل الإسلام بوازع من داخله رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

(٥) **كانت في فرقة الغناء في البلاط** امرأة مغنّية معروفة في فنّها، ومرّ بها وقت تأثرت فيه بنصح القاضي ودعوته، حتى انعزلت عن هذه الفرقة، وتابت توبة نصوحًا. وبعد ذلك بدأ الناس يخاطبونها بـ«مائي صاحبه» (أي: يا أمّاه!)، وكانت تدخل المسجد، تكنسه كل يوم باستمرار، وكذلك كانت تعمل في المجال الديني والخيري من غير انقطاع، وكانت مصابة في رأسها بدمّل، شفاها الله تعالى شفاء كاملا منه بعد توبتها.

قال القاضي عبد الباقي (حفيد القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ): إن أولادها في باكستان الآن يعيشون عيشة هنيئة، بعزّة وكرامة.

(٦) **ذكر القاضي عبد الرحمن المنصورفوري** (أخو القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ) أن «مائي صاحبه» نفسها بعد توبتها جاءت إلى القاضي عبد العزيز بن القاضي محمد سليمان، وسألته عن امرأة، تريد الحجّ، ولكنّ ماله مشتبه به، هل يجوز لها أن تحجّ بهذا المال؟

فأجاب: لا يجوز.

ثمّ تبيّن له أنها مشتاقة جدًا للحجّ، ومضطربة له، وليس عندها مال سواه، فراسل أباه القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يسأله عن دعاء، تحصل به المرأة على سعادة الحج.

فكتب القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إليه، أن تصلّي ثلاث مرّات على النبي ﷺ أوّل الدعاء وآخره، ثمّ تقرأ هذا الدعاء الآتي سبعين مرّة:

«**اللهم اكفني بحلالك عن حرامك، وأغنني بفضلك عمّن سواك**». [رواه الترمذي ٣٥٦٣، عن علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وحسّنه الألباني في صحيحه. ولا مانع من تكرير الدعاء أيّ دعاء، ولكن العدد غير مذكور في هذا الحديث والالتزام بما ورد هو الصحيح].

مضت ثلاثة أسابيع تقريبًا على هذه الواقعة، حتى جاء رجل، وأخبر القاضي عبد العزيز بأن المرأة تزوّجها رجل، وأعطاها في مهرها ثمان مئة روبية، فسافرت تلك المرأة المحظوظة بعد عدّة أيّام من زواجها لحجّ بيت الله الحرام.

(٧) **قال القاضي عبد الباقي**: «كان ظهير الدين أحمد (الجهلمي) مهندسًا في قسم محطّة القطار، وأقام برهة من الزمن في «بتياله» لأداء مهامه في نشر سكّة الحديد في «روبر»، وكان في هيئته متفرنجًا تمامًا، متعوّدًا على الملاهي، ومصابًا بالمجون، ولا يمتّ إلى الإسلام بحكم عمله بصلة.

وكان من محبّي القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ المهندس الكهربائي الشيخ فضل الرحمن، وذات مرّة جاء بالمهندس ظهير الدين إلى القاضي، فتجاذبا الحديث عن بعض الأمور المهمّة في الإسلام، فرآه الناس بعد عدّة أيّام أنه تغيّر تمامًا بصحبته، وتخلّى عن جميع العادات القديمة، وبدأ يصلّي ويصوم، وتعلّق بالقاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعلقًا عجيبًا حتى إنه لما أراد الحجّ سنة ١٩٣٠م، فجاءه من «جهلم» إلى «بتياله» (وبينهما مسافة بعيدة) يودّعه،

وهو في الخامسة والسبعين من عمره، وكان يصلّي وهو جالس على الأريكة، لعدم القدرة على القيام في الصلاة.

(٨) **جاءت امرأة غير سويّة إلى القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في«بتياله»**، بعد اطلاعها على علمه وفضله وصيته في الدين، تسأله عن بعض الأمور المهمّة عندها، فردّ عليها القاضي غاضًّا بصره، ونصحها بأن تتوب إلى الله، وتتزوّج رجلًا شريفًا، فتابت في المجلس نفسه فورًا عن أفعالها الماضية، والتزمت بأداء الصلاة والصيام، وعاشت بعد ذلك ثلاثين سنة، قضتها في الزهد وعبادة الله تعالى.

(٩) **كانت امرأة مريضة بل ممسوسة**، وزوجها عالجها عند الأطباء والحكماء، وراجع في أمرها بعض العاملين في مجال المسّ والجنون، ولكن بدون جدوى.

وأخيرًا جاء إلى القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وطلب منه، أن يكتب لها «تعويذة».

قال له القاضي: أنا لا أعطي تعويذة، ولكن اذهب، وسلّم لي على الجنّ، وقل له: يا عبد الله! إيذاء أحدٍ من المساكين ليس بطيّب، عسى أن يرضى به، ويخرج!

ثمّ رجع الرجل إلى بيته، ورأى الجنّ حاضرًا، وزوجته الممسوسة في شرّ حالة، فخاطبه الرجل فورًا، وقال: سلّم عليك القاضي محمد سليمان، وأرسل إليك أن أقول: يا عبد الله، إيذاء أحد من المساكين ليس بطيّب.

فبمجرّد ما سمع الجنّ هذا القول، وبعد ما تأكّد منه بأنه قول القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، صرخت زوجته صرخة قويّة، وبدأ الجنّ يقول: لو لم تأتني برسالة القاضي هذه، لتابعتها طول حياتها، وأنا أستحيي من رسالته، فأخرج الآن.

وبعد هذا، صارت زوجته صحيحة سليمة، لم تعد تشكو من هذا النوع من المسّ وغيره.

(١٠) **كان في «بتياله» درويش ماجن**، يسمّى «غيندي شاه»، يظلّ دائمًا في حالة السكر، والجهلة من الناس يعتقدون فيه، أن من يُشربه الخمر، تُقضى حاجاته.

وذات مرّة مرّ به القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقام احترامًا له وتقديرًا.

فقال له: يا درويش! الخمر حرام، وتُب إلى الله، وأنت في آخر حياتك. فتاب

«غيندي شاه» على الفور، وسكب الخمر الموجودة عنده، ومن كان يأتي إليه بالخمر بعد ذلك، يرميها.

وبعد هذه الواقعة بأيّام توفّي، ودُفن عند باب «شيران والا» في «بتياله».

(١١) **ذكر صوفي عبد الرحمن (أخو القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ):** ذات مرّة كان القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في جولة لولاية (يو-بي الهند الآن)، فاضطرّ أن ينزل في محطة القطار في مدينة «إله آباد» لهنيهة من الوقت، ودخل في غرفة الانتظار، فرأى درويشًا، ومريدوه يسجدون له، **فحاول القاضي بكل لطف ومتانة،** أن يُفهمه، ويمنعه من هذا الشرك القبيح.

ولكن الدرويش اشتاط به غضبًا.

وقال متطاولا: «إمّا أن ترى منّي شيئًا، أو أرِني أنت شيئًا.»

قال له القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أرِني ما تريد أن ترينيه.»

ثمّ نادى الدرويش مريديه الآخرين أيضًا، الذين كانوا في الخارج، وقال لهم: «اسجدوا لي جيّدًا».

فقال له القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا الذي كنت تريد أن ترينيه».

قال: نعم!

فرفع القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يديه، ليدعو الله سبحانه وتعالى، ففورًا بدأ الدرويش يبكي بكاء مرًّا، ويقول: بس، بس! أنا أتوب إلى الله، ولا أرجع أبدًا إلى أن يسجد لي، وأمر مريديه أيضًا أن لا يسجدوا له أبدًا.

(١٢) **كان البروفيسور محمد ظهور الدين أحمد (ممبائي)** متأثرا جدًّا بالقاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان كثير الاطلاع على المصادر والمراجع في مختلف العلوم والفنون.

ذات مرّة، تاقت نفسه إلى دراسة «البوذيّة»، فقرأ الكتب المتعلّقة بها، حتى وصل الأمر إلى أنه استعدّ للدخول في «البوذيّة».

وفي هذه الأيّام، زار البروفيسور ظهور الدين القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فأثناء الكلام بدأ القاضي يكشف عن حقيقة «البوذيّة»، فتحدّث عنها في ضوء العلم والعقل بأسلوب إقناعيّ، فاطمأنّ به قلبه وزالت به جميع شبهاته في جلسة واحدة، وانتبه لمفاهيمه

الخاطئة التي علقت بذهنه، ولوّثت فكره.

هكذا تنفرّ من «البوذيّة» للأبد، ونجا من الردّة، بفضل الله تعالى، ثمّ بنصح القاضي وإرشاده، رَحِمَهُمُ اللَّهُ!

هذه الوقائع والأحداث، التي ذكرها الثقات من شهود العيان وغيرهم، تدلّ على ما أنعم الله عزّ وجل على القاضي رَحِمَهُ اللَّهُ من عذوبة الكلام، وسرعة تأثيره، ولين الجانب، والعطف على المدعوّين، والصبر عليهم مع العلم والفضل، والزهد والتقى، والمنصب والجاه، ما رفع الله به شأنه بين العامّة والخاصّة من الناس.

وبهذا صار داعية ناجحًا، يتأثر به حتى الجنّ كما قيل، فضلًا عن العصاة العتاة من المثقفين وغيرهم.

ما أحوجنا نحن -الآن- إلى مثل هذا الأسلوب الرائع الحكيم في الدعوة إلى الله تعالى!

من إصلاحاته الاجتماعية

كان القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أينما حلّ وارتحل، يترك وراءه آثارًا طيّبة، لإخلاصه في الدعوة، وعذوبة كلامه، وسرعة تأثيره، ولين جانبه، مع جاهه بين العامّة والخاصّة من الناس.

وفيما يلي ذكر بعض العادات والتقاليد، التي كانت تتحكم في المجتمع، ولم يكن لأحد أن يخرج عليها، في أي حال من الأحوال، منها:

«**راج بوت**» **قبيلة من قبائل الهند**، تنحدر من بعض الملوك، يوجد فيها المسلمون أيضًا مع الهندوس. وكان المسلمون منهم أيضًا يحسبون «نكاح الأرامل» عارًا لهم، تأثرًا بالهندوس، وكانوا يعتبرونه ضدّ أنانيّتهم، ولم يكونوا يرضون أبدًا بنكاح ثانٍ لبنتهم، أو زوجة ابنهم المتوفّى عنها.

ذات مرّة، نزل القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قرية من قرى إمارة «نابهـ»، فدعا بعض معارفه (ومنهم المنشئ محمد جراغ) وغيرهم من وجهاء «راج بوت»، فاجتمع بهم، ورغبهم في نكاح الأرامل، وأوضح ذلك بأسلوب حكيم غاية الإيضاح، ما يمكن أن ينشئ في المجتمع من فواحش وقباحات لعدم نكاح الأرامل الشابّات.

وكان من نتيجة هذا النصح والتلقين بهذا الأسلوب الحكيم، أن ولّت هذه العادة السيئة السائدة فيهم كابرًا عن جدّ، إلى غير رجعة، وبكل سهولة.

نماذج نادرة من محبّي القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ

نرى في زمرة المحبّين له، صدرت من بعضهم وقائع في الزهد والتقى، والتزام الحق، ورعاية حقوق الأخوّة في الله، ما تتحير منه العقول في هذا الزمن المتأخر.

(١) **كان الشيخ عبد الصمد خان** (ريناله -أوكاره) من محبّي القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، المتأثرين به في زهده وتقواه، وتديّنه، وتمسّكه بالكتاب والسنّة عملًا وسلوكًا، والتزامًا بالأكل الحلال، حتى إنه لم يكن يعلف فرسه إلا الحلال من جيبه.

وإليكم بهذا الصدد واقعة عجيبة وغريبة:

عُيّن الشيخ عبد الصمد بوظيفة «مفتّش الشرطة» في المخفر، ذات مرّةٍ، جاء المسئول الإنجليزي يتفقّد المخافر، فمرّ بالمخفر الذي كان فيه الشيخ عبد الصمد، ورأى في حدوده فرسا له، سمينة وجميلة.

فقال للمفتّش عبد الصمد: فرسك صارت سمينة جدّا، بأكل عشب من المستودع الحكومي.

فقال المفتّش عبد الصمد: فرسي لا يمكن أن تأكل من عشب الحكومة، أو أي شيء حكوميّ، أنا أعلفها من جيبي حلالًا طاهرًا، وجرِّب بوضع علف المستودع أمامها، وهي لا تمسّه بفيها، فضلا أن تأكله.

فجَرَّبوا، ووضعوا علف المستودع الحكوميّ، فلم تمسّه، ثمّ جاء بعلف من جيبه، فأكلته.

فتعجّب المسئول الإنجليزي غاية التعجب على هذا الحادث.

وبما أن هذا المسئول كان قد شكّ في أمانة المفتّش عبد الصمد وديانته، وكان هذا فوق ما يُحتمل عنده، فقدّم استقالته من منصبه فورًا، وذهب إلى «حصار» في لاية «هريانه» (بالهند الآن).

كان من حبّه للقاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أنّه علّق في المسجد، الذي كان يصلّي فيه، لوحات كثيرة، مكتوبة فيها مقتطفات من كتابه «رحمة للعالمين».

وكذلك كان يحترم جدًّا كلًّا من أسرة القاضي صغيرًا كان أو كبيرًا.

ذات مرّة، ذهب القاضي عبد الباري (حفيد القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ) لزيارة الشيخ عبد الصمد إلى «حصار»، وفي هذه الأيّام كان «راجا حسن أختر» نائبَ المندوب السامي في تلك المنطقة، فجاء هو وجمع من الناس غيره، يستقبلونه في محطّة القطار.

هكذا عند رجوعه أيضًا، ذهب كثير من الناس إلى المحطّة لتوديعه، مع أنه كان شابًا يستحيي أن يتعامل الكبار معه معاملة الترحيب والاحترام هذه.

وبما أنه كان حفيد القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كانوا يعتبرون هذا من واجبهم.

نماذج من نوادر أموره

لقد بارك الله عزّ وجلّ في وقته وجهده، بحيث أنه كان يقضي وقت الدوام الرسمي في وظيفته الرسميّة، وغيرها من استقبال الوفود، وإدارة الأمور الأخرى المتعلّقة بالبلاط.

وعلى العكس من ذلك، مساءً بعد الدوام يلقي الدروس في المساجد، ويلتقي بالمراجعين، ويردّ على أسئلتهم، ويكتب المقالات، ويؤلّف الكتب.

وخلال أداء هذه الأعمال صدرت منه أمور، تعتبر من العجائب والنوادر، وفيما يلي ذكر نماذج منها:

(١) قال المرزا محمد حسين (-١٩٩٢م):

ألّف القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (وهو في عنفوان شبابه في الثالثة والعشرين من عمره) كتابه «غاية المرام» سنة ١٨٩٣م، في الردّ على المرزا غلام أحمد القادياني المتنبئ الكذّاب (-١٩٠٨م) في كتبه: «فتح الإسلام، وتوضيح المرام، وإزالة الأوهام».

فقيل له: لماذا رددتَ عليه؟

قال: وقع في قلبي ذات يوم بعد صلاة الجمعة، أن يُردّ عليه، وفي حينه ترتبت محتوياته أيضًا في ذهني، بتوفيق الله تعالى، وتيقّنت أيضًا بأن لا يستطيع أحد منهم أن يردّ على كتابي هذا.

ثمّ تحدّى القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «غاية المرام» أيضًا، أن المرزا القادياني لا يُرزق الحج إلى بيت الله الحرام، ويكون هذا دليلًا على كونه متنبّئًا كذّابًا.

لقد عاش القادياني (-١٩٠٨م) بعد هذا، زهاء ست عشرة سنة، ولكنّه ما استطاع أن يردّ على هذا الكتاب، ولا استطاع أن يحجّ.

ومعروف عن القادياني أنه كان فاحشًا متفحّشًا، بذيء اللسان، وكان يردّ على كل من يخالفه، ولو بالسبّ والشتيمة فقط، ولكن الذي حصل مع القاضي حقًّا كان غريبًا.

(٢) كان «**غازي محمود دهرم بال**» (١٨٧٢-١٩٦٠م) في عصره، من الشخصيات المعروفة في شبه القارّة الهندية، وأسماه أبواه «عبد الغفور»، كان ذا ذهن ثاقب، حصل على (الماجستير)، وانخرط بسلك التعليم، وعيّن رئيس هيئة التدريس في إحدى المدارس في «غوجران والا -باكستان»، وكان عارفًا باللغات: العربية، والفارسيّة، والأرديّة، والإنجليزيّة، والسنسكريتيّة، والهنديّة، وكان يتكلّم بها بكل طلاقة ولباقة، وكان مطلعًا على أمور الإسلام، وعلى دقائق النصرانية والهندوسيّة خاصّة.

ومن سوء حظّه أنه ارتدّ عن الإسلام في (١٤/ يونيو ١٩٠٣م)، ودخل في «ديانة آريه سماج» من فرق الهندوس، وغيّر اسمه من «عبد الغفور» إلى «دهرم بال»، واعتُبر داعية لها كبيرًا، وبدأ ينفث سمومه فيهم بكتبه المسيئة إلى الإسلام والمسلمين. وبعد ثماني سنوات من هذا الشقاء زادت عداوته إلى أن بدأ ينشر مقالاته المثيرة ضدّ الإسلام في الجرائد والمجلّات أيضًا، ويلقي خطبه الرنّانة المهيّجة في مختلف أقطار الهند المتحدة.

وقد ردّ عليه العلامة ثناء الله الأمرتسري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٨٦٨-١٩٤٨م) ردًّا مفحمًا في صورة كتاب مستقلّ، ولكن ظلّ يزداد متماديًا في نشر الباطل نهارًا وجهارًا.

وبعد إحدى عشرة سنة من ردّته، هداه الله عز وجل إلى الإسلام مرّة ثانية في (١٤/ مايو ١٩١٤م)، وتاب على يد القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وذلك بعد تأثره بردّه ردا مقنعًا على «الإعلان المنشور» له، الذي كان يحتوي على بعض شبهاته، ومسائله المتعلّقة به. وبعد ما أنعم الله عليه بنعمة الإسلام، نذر نفسه للدعوة إلى الإسلام، والدفاع عنه، وألّف ثلاثة عشر كتابًا في الردّ على «ديانة آريه»، غير المقالات في الجرائد، والخطب في مختلف المحافل والمجالس في شبه القارّة الهندية.

قصّة دخوله في الإسلام متأثرًا بالقاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

كان غازي محمود بعد دخوله في الإسلام، يثني ثناء عاطرًا على القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ. لـمّا ألقى الله عز وجل الإسلام في قلبه، نشأت عنده تساؤلات، وواجهته مشكلات عديدة، فكان يراجع القاضي فيها لحلّها، وكان القاضي يردّ على كل ذلك بالأدلّة الواضحة من

الكتاب والسنّة، بحكم الحال والواقع، منها:

- **كتب «غازي محمود دهرم بال»**، بعد ما بدأ يستأنس بالإسلام مرّة ثانية، فقال تبريرًا لموفقه الجديد: إن «سوامي دياننـد سرسوتي» (مؤسس ديانة آريه) نفسه يؤيّد الإسلام:

«أيّ تقصيرٍ منّي، إن يثبت من تفسير «سوامي دياننـد» لـ«فيدات» الهندوسية نفسها أن الدين الأوّل أو المتين للهند هو «الإسلام».»

وأنا أقول الآن أيضًا: إني قد كنت أنسيتُ الإسلام، ولكن خطبه الفيديّة أعادته إلى ذهني جيّدًا. ولما ذكرت اكتشافي هذا لحضرة القاضي محمد سليمان، فوافقني على ذلك بتأييده وتصديقه».

- **وأيضًا نشأت مشكلة اجتماعيّة كبيرة عند دهرم بال**، حلّها القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهي: «إن امرأة برهمنية اسمها («غيان ديوي» من الطبقة العليا من الهندوس) رغبت في زواجها مع دهرم بال، فتزوّجها على الطريقة الهندوسيّة بحضور أربعة شهود من الناس: اثنين من المسلمين، ونصرانيّ ومدرّس سيخيّ: وهؤلاء الشهود الأربعة كانوا من المثقفين العقلاء.

ولكن اعتبر هذا الزواج غير شرعيّ تمامًا عند الهندوس، لأن امرأة برهمنيّة لا يجوز لها أن تتزوّج غير برهمنيّ من الهندوس، فضلًا عن أن تتزوّج مع رجلٍ كان مسلمًا بالولادة.

وبالتالي يعتبر أولادهما غير شرعيين عندهم، من وجهة نظر الهندوسيّة، فلا يتزوّج أيّ هندوسيّ مع بنتهما، ولا يعطي أحد منهم بنتَه لابنهما.

وهذا الوضع الاجتماعي كان مقلقًا جدًا لدهرم بال وزوجته (غيان ديوي).

وفي هذه الظروف الصعبة نشر «دهرم بال» نشرة، كتب فيها: «أيّ دين يجعل زواجنا هذا شرعيًّا عنده، نحن (الزوجان) ندخل في ذلك الدين».

فردّ عليها القاضي ردًّا مفصّلا، بيّن فيه بالأدلّة أن هذا الزواج عند دخولهما في الإسلام يعتبر صحيحًا وشرعيًّا، وكذلك لا يحتاج إلى تجديد النكاح أيضًا.

لأن الكفّار كانوا يدخلون في الإسلام في عهد النبي ﷺ مع أزواجهم، فما كان

يأمرهم بتجديد نكاحهم.

فلمّا استلم «دهرم بال» ردّ القاضي هذا المفصّل، وتيقّن أن زواجه مع (غيان ديوي) جائز شرعًا، وأخلاقًا، وقانونًا، لأنه تزوّجها بوجود أربعة شهود، وهم عقلاء ومثقّفون.

والآن أخبر دهرم بال زوجتَه (غيان ديوي) بردّ القاضي هذا، وعرّفها عليه بأنه القاضي بالدرجة الأولى في المحكمة الجنائية في «بتياله»، وهذه الرسالة ليست من بشر، بل من ملك، وهي تسمع الرسالة وتبتسم فرحًا بها وابتهاجًا.

وفي اليوم الثالث بعد استلام الرسالة، سافر «دهرم بال» إلى القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ليلتقي به شخصيًّا، ووصل إلى بيته، ولم يكن يعرفه قبل، وجاء القاضي بعده بنصف ساعة من الدوام. يقول دهرم بال:

«جاء رجل طويل القامة، أبيض، ذو لحية كثّة، مبتسم الوجه، رفيع الأنف، وسيع الجبين، جميل العيون، مع سروال غير فضفاض، وعليه عمامة رسميّة، ففور ما رآني عانقني. هذا هو القاضي محمد سليمان (قاضي «بتياله» بالدرجة الأولى»).

قال القاضي: هل قرأتَ مقالي.

قلت: نعم، جئتك ردًّا عليه.

قال: قل لي ماذا تريد؟.

قلت: مدَّ إليّ يدك الشريفة، لأُسْلِمَ عليها.

قال: اذهب أوّلا إلى من له هذا الإسلام!

ففهمت ما ذا يريد. وذهبت إلى مسجد قريب من بيته، وتوضأت، وصلّيت ركعتين، ودعوت الله تعالى دعاء طويلا، ثمّ رجعت إليه.

وقال لي مبتسمًا. «أصَلُحتِ الأمور»؟

قلت: نعم! تمامًا.

ثمّ قال للخادم: «أحضر لنا الطعام»، فأكلنا سويًّا، ثم استأذنت منه للرجوع إلى بلدي، فعانقني بكل حرارة، وودّعني بكل كرامة، ووصلت إلى «الدهيانه».

فقالت لي زوجتي (غيان ديوي): رجعتَ بالسرعة!

قلت: الأمر نفسه كان يتطلب الاستعجال، وذلك لأن الحكم الصادر ضدّنا من محكمة «موغا»، ذهبتُ لأستأنفه في محكمة «بتياله» عند القاضي محمد سليمان، فقبل الاستئناف، وأصدر الحكم في صالحنا.

فأسلم الزوجان، وكان الزوج بدأ يُدعى الآن بـ«غازي محمود دهرم بال»، وزوجته (غيان ديوي) سمّيت بـ«محمود النساء».

- كتب غازي محمود أن القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ورفقاءه، نظّموا لي فيما بعد اجتماعات عامّة، عقدت أوّلها في «بتياله»، بعد إعلاني الدخول في الإسلام.

هكذا بدأ غازي محمود نشاطه في الذود عن الإسلام من «بتياله»، بإشارة من القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقد ردّ بكل قوّة على «شدّهي تحريك» (الحركة الهادفة إلى ردّ المسلمين إلى الهندوسية) سنة ١٩٢٣م، بنصح من القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

هكذا رجع غازي محمود دهرم بال إلى حظيرة الإسلام بعد ردّته بإحدى عشرة سنة، بفضل الله تعالى، ثم بجهد القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

بعض الأعلام المشاهير من معاصري القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ

كان عصر القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٨٦٧-١٩٣٠م) عصر ما بعد انتهاء الحكم المغولي المسلم بعد فشل ثورة ١٨٥٧م ضدّ الاحتلال الإنجليزي. وكان أكثر العلماء شهرة في هذه الفترة الدقيقة من الزمن في مجالات التدريس والإفتاء، والتعليم والتربية، والدعوة والإرشاد على مستوى شبه القارّة الهندية هو: العلّامة السيّد محمد نذير حسين المحدّث الدهلوي (١٢٢٠-١٣٢٠هـ=١٨٠٥-١٩٠٣م)، وكان شيخه الشاه محمد إسحاق (١١٩٧-١٢٦٢هـ)، قد هاجر إلى مكّة المكرّمة سنة ١٢٥٨هـ، قبل الثورة بست سنوات تقريبًا.

أما من علماء الحنفيّة -وعلى رأسهم الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي (١٢٤٤-١٢٩٧هـ)، والشيخ قاسم النانوتوي (١٢٤٨-١٢٩٧هـ) وغيرهما، الذين اشتهروا فيما بعد، فكانت أعمارهم ما بين سنة إلى خمس سنوات، حين تولّى السيّد نذير حسين التعليم والتربية سنة ١٢٤٨هـ، في تلك الفترة العصيبة من التأريخ الإسلامي المحزن.

ونظرة خاطفة على ذلك العصر تنبئنا عن بعض المبرزين من العلماء والأدباء والمؤرّخين، ومن أشهرهم:

- **العلامة شبلي النعماني (١٨٥٧-١٩١٤م):**

كان أديبًا ومؤرّخًا، ألّف كتبًا عديدة، منها:

«الفاروق»، و«المأمون»، و«الغزالي»، و«الكلام»، و«الجزية»، و«سيرة النعمان»، وغيرها، قال فيه السيّد عبد الحي: «كان معجبًا برأيه حتى لو لم يكن عنده دليل مقنع، معتزليًا في الأصول، شديد النكير على الأشاعرة. (نزهة الخواطر: ٨/ ١٤١)

وفي آخر حياته في نحو سنة ١٩١٠م بدأ يؤلّف كتابه «سيرة النبي ﷺ» ولكنّه توفّي سنة ١٩١٤م، بعد إتمام جزء منه وطبع سنة ١٩١٨م، والجزء الثاني كان ناقصًا فرتبه بعض تلامذته، وطبعوه أيضًا. وأكمله فيما بعد في أربعة أجزاء أخرى تلميذه العلّامة

السيّد سليمان الندوي (-١٣٧٣هـ). ونقلت هذه الأجزاء الستة منه إلى العربية باسم «دائرة معارف في سيرة النبي ﷺ».

وقد نال شبلي في «سيرة النعمان» من المحدّثين، وعلى رأسهم أمير المؤمنين في الحديث الإمام محمد بن إسماعيل البخاري (١٩٤-٢٥٦هـ)، ومال إلى تفضيل الدراية على الرواية متأثرا بأصول الحنفيّة، فردّ عليه العلّامة عبد العزيز الرحيم آبادي (١٢٧٠-١٣٣٦هـ)، ردّا علميّا مقنعًا، في كتابه «حسن البيان فيما في سيرة النعمان». وبعد ذلك غيّر وجهته إلى التأريخ والأدب والسيرة. **وكان يقول في آخر حياته:** إنه يسلّم لابن تيمية (-٧٢٨هـ) في كل أمر من أموره، ويستعدّ أن يأخذه بيده للمضي قدما، ولكنّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يعش طويلا. وهذا يدلّ على طبعه المائل إلى البحث والتمحيص واعترافه بالتحقيق والاستدلال.

- **العلّامة الحافظ عبد الله الغازي فوري (-١٩١٨م):**

كان من علماء الحديث الكبار من تلامذة السيّد نذير حسين المحدّث الدهلوي، معروفًا بفضله وكماله في التفسير والحديث مع زهده وتقواه. وكانت حلقة تدريسه أكبر الحلقات حضورًا بعد شيخه الدهلوي.

وانتخب أوّل رئيس لمؤتمر أهل الحديث لعموم الهند بعد إنشائه سنة ١٩٠٦م، ثمّ غُيّر اسمه إلى «جمعية أهل الحديث المركزيّة لعموم الهند»، بعد انقسام الهند بين الدولتين، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

- **العلّامة الشيخ عبد العزيز الرحيم آبادي (١٢٧٠هـ-١٣٣٦هـ):**

نشأ في بيت سلفي عريق، نشأة علميّة محافظة مع الثراء ووفرة المال، وزادت فيه صحبة شيخه المحدّث السيّد نذير حسين حبّ الكتاب والسنّة، والدفاع عنهما، وردّ على العلّامة شبلي في كتابه «سيرة النعمان» وأسماه «حسن البيان فيما في سيرة النعمان»، وقدّم فيه أدلّة واضحة على نقض دعواه بأسلوب علمي طريف، ما اضطرّ شبلي إلى التفكير فيما كتب.

ومن مآثره الخالدة: أنه من مؤسسي جمعية أهل الحديث لعموم الهند سنة ١٩٠٦م، وللتعريف بها طاف شبه القارّة الهندية مع زميليه: العلّامة الشيخ ثناء الله الأمرتسري (١٩٦٨-١٩٤٨م)، والشيخ محمد إبراهيم السيالكوتي (١٢٩٥-١٣٧٦هـ) رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

- **الحكيم السيّد عبد الحيّ الحسني (-١٩٢٣م):**

وهو والد السيّد أبي الحسن علي الندوي، تتلمذ على السيّد نذير حسين المحدّث الدهلوي، وكان من مدراء دار العلوم بندوة العلماء (لكناؤ)، وكان القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أعضائها البارزين.

من تصانيفه المعروفة: «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر» المطبوع الآن باسم «الإعلام بمن في تأريخ الهند من الأعلام». بمراجعة ابنه الأستاذ الندوي وإضافته.

- **الشاه سليمان بن داود الفلواروي (١٨٦٠-١٩٦٥م):**

كان عالمًا، فاضلًا، واعظًا شهيرًا، وخطيبًا ناجحًا، من تلامذة السيّد نذير حسين المحدّث الدهلوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إلا أنه مال إلى بعض البدع السائدة في أسرته التي كانت تدير مركزًا من مراكز التصوف في بلدته «فلواري» من قديم الزمان.

وكان ذا ظرافة وفكاهة. ذات مرّة اجتمع أربعة سلامنة في اجتماع في مدينة لكناؤ، هم: **القاضي محمد سليمان، والسيّد سليمان أشرف، والسيّد سليمان الندوي، فقال السيّد سليمان الفلواروي: أنا سليمان الأصلي، لأني «سليمان بن داود»**.

وقد كان من أصدقاء القاضي محمد سليمان، ويحبّه كثيرًا، ويثني عليه رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ.

- **الأمير السيّد علي حسن بن صديق حسن خان البوفالي (ت ١٣٥٥هـ= ١٩٣٦م):**

كان من أبناء الأمير صديق حسن خان البخاري البوفالي (-١٣٠٧هـ)، ألّف كتابًا في سيرة والده أسماه «مآثر صدّيقي»، وكان مديرًا شرفيًّا لندوة العلماء مدّة من الزمان، يحبّ التصنيف والتأليف أدبًا وشعرًا.

- **الشيخ إن شاء الله خان (-١٩٢٨م):**

كان عالمًا معروفًا، وصحفيًا ناجحًا في عصره، من معاصري القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومحبّيه، هو الذي أشار على الشيخ شبلي (حين أعلن أنه يريد أن يؤلّف كتابًا في السيرة) نشرًا في جريدته «وطن» بأن القاضي محمد سليمان المنصورفوري، ما دام يؤلّف كتابًا في السيرة

النبويّة، فلا يحتاج أن يتعب نفسه في هذا الموضوع، كما ذكره السيّد سليمان الندوي في تقديمه للجزء الثالث من كتاب «رحمة للعالمين».

- **السيّد سليمان أشرف (١٨٧٨-١٩٣٩م):**

كان من أسرة علميّة معروفة، أستاذ مادّة الدين في جامعة علي كره الإسلامية، كانت له مناسبة في مسلكه مع البريلوية، ولكن في علاقته بعلماء المسالك الأخرى كان على الرحب والسعة.

كتب السيّد سليمان الندوي بعد وفاته في مجلة «معارف» (الصادرة من دار المصنفين): «رباعيّة السلامنة الأربعة» صارت مثلّثة بوفاة القاضي محمد سليمان صاحب «رحمة للعالمين»، ثم صارت بوفاة الشاه سليمان الفلواروي بيتًا (أي شطرين من البيت)، وبعد وفاة السيّد سليمان أشرف (أستاذ جامعة علي كره الإسلامية) بقي شطر من البيت (يعني السيّد سليمان الندوي نفسه)، وإلى متى يجري هذا الشطر من البيت على ألسنة الناس؟».

- **العلّامة الأديب الشيخ محمد السورتي (-١٩٤٢م):**

كان له باع طويل في علوم الكتاب والسنّة، والصرف والنحو، واللغة والأدب، وكان يُضرب به المثل في الحفظ والإتقان، يحفظ آلاف الأبيات من الشعر ونصوص الأدب، مع المهارة في الأنساب، كان الناس يتعجبون من كلامه السلس، واطلاعه الواسع على العلوم والفنون.

كان من العاملين بالحديث، والدعاة إليه بكل همة وشجاعة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

- **الشيخ عبد القادر القصوري (-١٩٤٢م):**

كان من قادة أهل الحديث في الهند المتحدة، معروفًا في الأوساط الدينيّة والسياسيّة، له دور بارز في استقلال الهند من الاحتلال البريطاني، كان شجاعًا ذا هيبة ووقار ودين، له مواقف مشرّفة في تأييد الملك عبد العزيز آل سعود، مع علماء الحديث الآخرين، الذين شاركوا في مؤتمر الحجاز بعد استيلائه عليه في سنة ١٩٢٧م، وطلب منه الملك رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يبقى هو أو أحد أبنائه في الحرمين، ولكنه رفض قائلًا: إن الهند في أشد حاجة إلينا.

وكان يحبّ أبا الكلام آزاد (أوّل وزير للتعليم بعد استقلال الهند) مثل أبنائه. وكانت له علاقة وطيدة بالقاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقد كان أولاده (محيي الدين، ومحمد علي، وأحمد علي، ومحمود علي) كلّهم على نهج أبيهم في الدين والدعوة والسياسة. كان محمود علي القصوري وزير القانون في حكومة «ذو الفقار علي بهوتو»، وابنه الأكبر خورشيد علي القصوري كان وزير الخارجية في إحدى الحكومات الماضية في باكستان. وقد كانت هذه العائلة على صلة قويّة بإمام الهند أبي الكلام آزاد رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

- **الحكيم عبد الرءوف الدانافوري (-١٩٤٨م):**

كان عالمًا فاضلًا من الأطباء المعروفين، ذا بصيرة نافذة في السياسة الحاضرة. ألّف كتابًا في السيرة النبويّة، وأسماه «أصحّ السير»، وطبعه سنة ١٩٣٢م، وهو مهمّ في موضوعه بحكم لغته، وأسلوبه ومعلوماته.

- **العلّامة الشيخ ثناء الله الأمرتسري (١٨٦٨-١٩٤٨م):**

الشيخ الأمرتسري رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان من تلامذ السيّد نذير حسين المحدّث الدهلوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وعيّن أوّل أمين عام لجمعية أهل الحديث لعموم الهند، بعد إنشائها في ديسمبر سنة ١٩٠٦م. وأصدر جريدة «أهل الحديث» الأسبوعية في نوفمبر سنة ١٩٠٣هـ، وهي لا تزال تصدر في دلهي في ذكراه. كان خطيبًا مصقعا، ومناظرًا قديرًا، وكاتبًا جريئًا.

وقد ضيّق الخناق على الميرزا غلام أحمد القادياني، فباهله القادياني سنة ١٩٠٧م، بأن يموت الكاذب منهما في حياة الصادق، فمات القادياني في مايو سنة ١٩٠٨م، وعاش الشيخ الأمرتسري رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعده بنحو إحدى وأربعين سنة.

وفي المؤتمر الإسلامي بالحجاز، الذي شارك فيه كمندوب خاص لجمعية أهل الحديث بالهند سنة ١٩٢٨م، قدّم اقتراحًا لإنشاء مصلحة مستقلّة للحجّ، فوافق الحضور على ذلك إجماعًا.

أما دفاعه عن دعوة التوحيد في المملكة وعن مليكها فلا يحتاج إلى بيان، وصفحات

جريدته الأسبوعية «أهل الحديث» أكبر شاهد على ذلك.

ومن الرسائل التي قام بتأليفها في هذا الباب: «نظرة على الحركة الوهابية»، و«نظرة على مسألة الحجاز»، و«التحفة النجدية»، و«موقف عليّ وإخوانه ومؤتمر الخلافة من الملك عبد العزيز»، و«رسالة نجد»، و«إصلاح الإخوان على يد السلطان» وغيرها. فرحمه الله رحمة واسعة.

وقد كان بينه وبين القاضي رَحِمَهُمَاٱللَّهُ تعالى من الحبّ والوداد لوحدة المنهج والعقيدة ما يظهر من بيانه عند وفاته، حيث قال:

«مؤلّف «رحمة للعالمين» كان عالمًا كاملًا، متينًا، رزينًا، مطلعًا على تضاريس الواقع، وكان له ذوق خاصّ في فن التأريخ الإسلامي،...ولا يوجد الآن حولي من بعده من أقول له: «اجلس بنا، نؤمن ساعة».»

- **الشيخ محمد سليمان (من بلدة روري) (١٨٥٥-١٩٤٩م):**

كان من أسرة دينيّة محافظة، وأسلافها كان لهم دور رائد في نشر التوحيد الخالص، وحثّ الناس على التمسك بالسنّة، والردّ على العادات والتقاليد السائدة في المجتمع. وكان هو نفسه أيضًا على نهج آبائه وأجداده. وكانت له صلة قويّة بعلماء عصره البارزين أمثال العلّامة السيّد نذير حسين المحدّث الدهلوي، والإمام عبد الجبّار بن عبد الله الغزنوي رَحِمَهُمُٱللَّهُ.

وقد كان القاضي رَحِمَهُٱللَّهُ على صلة به، وكل منهما يتردّد إلى الآخر، لكون بلدة «روري» على حدود إمارة «بتياله». وكان ابنه عبد الله بن محمد سليمان أيضًا من محبي القاضي رَحِمَهُٱللَّهُ، مثل أبيه.

وهذا العالمان: الشيخ سليمان، والقاضي رَحِمَهُمَاٱللَّهُ. كانت بينهما علاقة حميمة مخلصة، وكلاهما كان على مرتبة عالية من الإخلاص والصلاح، والتقى، والطهارة رَحِمَهُمُٱللَّهُ.

• العلّامة محمد أبو القاسم المعروف بـ«سيف» البنارسي (١٨٩٠-١٩٤٩م):

كان الشيخ البنارسي عالمًا محقّقًا، خطيبًا بارعًا، مناظرًا ناجحًا، قائدًا سياسيًا لا يخاف في الله لومة لائم.

وهو من تلامذة السيّد نذير حسين المحدّث الدهلوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وكان من أعضاء جمعية أهل الحديث البارزين. وقد ساهم في كل الحركات السياسيّة التي قامت لتحرير البلاد من الاحتلال البريطاني، وسجن لذلك عدّة مرّات.

وألّف كتبا مفيدة قيّمة، منها «الدفاع عن البخاري»، وقد كانت له ميزات كثيرة مشتركة بينه وبين القاضي رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ، من دقة في التأليف، وسعة في الاطلاع على علوم الكتاب والسنة، ومعرفة بمصادر الديانات الأخرى رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

• العلّامة السيّد سليمان الندوي (١٨٨٤-١٩٥٣م):

كان هناك أربعة علماء من معاصري القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، اسم كل منهم «سليمان» كما تقدّم ذكرهم آنفًا، وكان السيّد سليمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ آخرهم موتًا. وهو من تلامذة الشيخ شبلي، وألّف كتبا علمية كثيرة، وأكمل كتابه «سيرة النبي ﷺ» بإضافة أربعة أجزاء، فكمل الكتاب في ستة أجزاء. وقد نقل إلى العربيّة باسم «دائرة معارف في سيرة النبي ﷺ».

كانت بينه وبين القاضي علاقة حميمة، وحبّ متبادل مع فارق السن بينهما. وكان يلتقيان في اجتماعات «ندوة العلماء» لكونهما عضوين فيها.

وقد كتب السيّد سليمان مقدّمة حافلة على الجزء الثالث من كتاب «رحمة للعالمين»، وأثنى فيها على القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ثناء عاطرًا، على تأليف هذا الكتاب القيّم النافع في سيرة النبيّ ﷺ، الذي يكون ذخرًا له في الآخرة إن شاء الله.

وسيأتي مقاله الكامل الآخر، الذي كتبه عن القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد ما تلقى نبأ وفاته.

• العلّامة الشيخ محمد إبراهيم السيالكوتي (-١٩٥٦م):

كان من العلماء البارزين في شبه القارّة الهندية، المعروفين بالتصنيف والتأليف

والبحث والتحقيق، والمناظرة والخطابة والتفسير والتدريس، ذا هيبة وجلال ووقار، ألّف ما يقارب أربعة وثمانين كتابًا ما بين صغير وكبير.

وكان من أهم أعضاء جمعية أهل الحديث، وكان أحد الثلاثة الذين طافوا البلاد للتعريف بها وبدعوتها، بعد تشكيلها سنة ١٩٠٦م، مع العلامتين: الأمرتسري والرحيم آبادي، كما تقدّم آنفًا.

وقد كانت بينه وبين القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ صلة قويّة لاشتراكهما في الدعوة إلى الله على منهج السلف الصالح.

هؤلاء بعض المشاهير من علماء الهند، الذين عاصرهم القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان له معهم بعض الصلات العلمية، واللقاءات الدعوية. فرحمهم الله تعالى.

أوقات التصنيف والتأليف

كانت مكتبة القاضي رَحِمَهُ اللَّهُ الخاصّة تحوي في ذلك الوقت الكثير من الكتب النادرة، في التفسير، والحديث، والفقه، والتأريخ، والسيرة، في العربية والفارسية، وكذلك وجدت فيها أيضًا كمية كبيرة من كتب الأدب الأردي، والإنجليزي، وكتب اليهودية، والنصرانية، والهندوسية، وغيرها من الديانات.

برنامجه أيّام وظيفته الرسميّة:

قد وزّع القاضي رَحِمَهُ اللَّهُ أوقاته في الليل والنهار، (مع كثرة أشغاله، خاصّة بحكم وظيفته في القضاء الجنائي، وخطورتها ودقّتها) في مهمات أموره، كما يلي:

- **كان يستيقظ قبل الفجر مبكّرًا،** يصلّي قيام الليل، ثمّ يتلو القرآن الكريم، يراجع الآيات التي يدرّسها بعد صلاة الفجر.
- يرجع من المسجد إلى البيت، يغتسل، ويتناول الفطور، ثمّ ينظر في أوراق القضايا، التي لها دورها في ذلك اليوم في المحكمة، وإن كانت في قضيّة ما أيّ نكتة قانونية دقيقة، كان يراجعها مرّة بعد أخرى، وينظر فيها بنظر غائر.
- ثمّ يغيّر اللباس ويذهب إلى المحكمة. وكان وقت الدوام الرسمي في ذلك الوقت من الساعة العاشرة صباحًا إلى الرابعة مساء.
- يرجع من المحكمة بعد الدوام ويتغدّى، ويقيل قليلا، ثمّ يقوم يشتغل بالتصنيف والتأليف، إلى جزء من الليل.
- بعد العشاء كان يطالع بعض التفاسير، لإلقاء درس القرآن بعد الفجر.

كان هذا برنامجه في الليل والنهار أيّام وظيفته، وكان يقع فيه بعض التغيير والتبديل حسب الفصول والمواسم، والظروف والأحوال.

برنامجه بعد التقاعد عن الوظيفة:

- استمرّ درس القرآن الكريم بعد التقاعد أيضًا حسب المعتاد.
- بعد تناول الفطور كان يجلس للتصنيف والتأليف جلسة طويلة.
- ثمّ كان يردّ على الرسائل والخطابات (الشرعية، والعلميّة، والشخصيّة) الواردة إليه من أقطار مختلفة من الهند.
- وكانت توجّه إليه الدعوة للحضور في المؤتمرات والاجتماعات من أقصى الهند إلى أدناها، فكان يشارك فيها حسب الظروف.

جدير بالذكر: أن القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عمل قاضيًا في المحكمة الجنائية زهاء خمس عشرة سنة، وفصل خلالها في ألف وخمس مئة قضيّة، وكثير منها كانت قضايا القتل والنهب وقطع الطريق وغيرها، وأصدر فيها الحكم المكتوب، وكان بعض الحكم يحتوي على خمس وعشرين إلى خمسين صفحة.

وقد كان مبعث فخرٍ واعتزاز للمحكمة العليا في «بتياله»، أن القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتب نحو أربعة آلاف صفحة، خلال هذه المدّة، عند إصدار الحكم في القضايا المطروحة في المحكمة.

مؤلّفات القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ

من عجائب أمر القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أنه ألّف أكثر مؤلّفاته في زمن وظيفته في المحكمة العليا، مع اشتغاله في المهمات الرسميّة الأخرى من قبل البلاط.

وبفضل الله وتوفيقه، كان يتمتع بالهمة العالية، والإرادة القويّة، والإدارة الناجحة، والتنظيم المغتبط به، والتفاني في العمل، والإخلاص في أدائه على الوجه المطلوب، على كل جبهة، وبكل طاقاته وصلاحياته.

هكذا، أبدى رَحِمَهُ ٱللَّهُ مهارته في التصنيف والتأليف بكل دقة وأمانة، ما يدلّ على اطلاعه الواسع على علوم الكتاب والسنّة، والتأريخ والسير، والشعر والأدب، مع احتواء معرفته بمصادر الديانات العالمية الأخرى من اليهودية، والنصرانية، والهندوسية، والبوذيّة، وثقافتها وتأريخها، ما أكسبه تجربة كافية وممارسة دقيقة للمقارنة بينها وبين الإسلام، ثمّ إبراز محاسنه في كل مناسبة، وفي كل ناحية من نواحي الحياة، وحثّ المجتمع الإنساني على الاستفادة من توجيهاته السليمة في مشارق الأرض ومغاربها.

هكذا تبدو طموحاته في إبراز محاسن الإسلام في كتاباته كمفسّر، ومحدّث، ومؤرّخ، ونسّابة، وأديب، ومطّلع على أصول الديانات الأخرى.

وفيما يلي نبذة عن مؤلّفاته -وهي بالأردية-:

(١) الجمال والكمال:

هو تفسير سورة يوسف، وهو تفسير نادر من نوعه، قانونًا، وفقها، وتأريخا، وجغرافية، أثار فيه بعض النكات المهمة، التي لا توجد في غيره، وأزال بعض الشبهات الناشئة من بعض الآيات، التي تصعب إزالتها على عامّة القراء. وهو تفسير مهمّ قلّما تجد معارفه مجتمعة في مكان واحد.

(٢) المعارف الأسمى شرح أسماء الله الحسنى:

موضوع الكتاب واضح من اسمه، وهو كتاب مهمّ جدًّا.

(٣) مهر النبوّة:

هو مختصر في السيرة النبوية المطهرّة. وكتاب «رحمة للعالمين» كتاب له متوسط في السيرة. أما المبسوط المطوّل الذي خطّط له، فتوفي قبل أن يبدأ فيه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٤) الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ:

هو ترجمة كتاب «جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام». للإمام ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، (-٧٥١هـ).

(٥) سيّد البشر ﷺ:

هو مجموع أربع محاضرات، ألقاها في مدينة «أمرتسر»، حول السيرة النبوية الشريفة، على صاحبها الصلاة والسلام.

(٦) أصحاب بدر:

رسالة مختصرة في أحوال أصحاب بدر من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، ألّفها لتحقيق رغبة والده الكريم القاضي الحاج أحمد شاه (غفر الله له)، الذي كان شغوفًا بمعرفة أحوالهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

(٧) غاية المرام:

ألّفه سنة ١٨٩٣م، في الردّ على القادياني المتنبئ الكذّاب في كتبه الثلاثة: «فتح الإسلام، وتوضيح المرام، وإزالة الأوهام»، وجعله «الجزء الأوّل».

(٨) تأييد الإسلام: جعله القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ الجزء الثاني لكتابه «غاية المرام»، وطبع سنة ١٨٩٨م أي بعد خمس سنوات من نشر كتابه «غاية المرام». وقد تلقاهما الناس بالقبول، بحيث نفدت نسخهما بعد نشرهما بعدّة أشهر.

وقد ادّعى المرزا القادياني النبوّة سنة ١٨٩١م، وأوّل من أصدر فتوى تكفيره: العلّامة الشيخ محمد حسين البتالوي (١٢٥٦-١٣٣٨هـ) بتوقيع شيخه السيّد نذير حسين المحدّث الدهلوي (١٢٢٠-١٣٢٠هـ)، ثمّ أوّل من ردّ عليها الشيخ إسماعيل العلي كري برسالة مستقلّة سنة ١٨٩٢م، وأسماها «إعلام الحقّ الصريح بتكذيب مثل المسيح»، وهي

تحتوي على أربع وأربعين صفحة.

وأما هذان الكتابان فمفصّلان في الردّ على القادياني، وألّفهما القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد ادعائه النبوّة فورًا، فهو يعتبر أصغر من ردّ عليه من العلماء سنًّا.

وهؤلاء الأوائل في الردّ على القادياني من بداية أمره، كلّهم من علماء أهل الحديث بالهند المتحدة.

وقد تنبأ القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «غاية المرام» بعد دراسة أحوال القادياني بأمرين:

الأوّل: إنه لا يستطيع أن يردّ على كتابي هذا. وصدق قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بأنه عاش بعد طبع الكتاب بنحو خمس عشرة سنة، ولكنّه لم يردّ عليه، مع أنه لم يكن يتأخر عن الردّ على مخالفيه ولو باللمز والهمز والسبّ والشتم.

الثاني: إنه لا يُرزق الحجّ إلى بيت الله الحرام، وهذا يكون دليلًا على كذبه.

وهذا الذي حصل حيث لم يحجّ، لا قبل ادعاء نبوّته ولا بعده. فالحمد لله الذي بنعمته ينكشف الباطل.

(٩) خطب سليمان:

كان القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُدعى لإلقاء الخطب والمحاضرات في الاجتماعات والمؤتمرات في مختلف أنحاء البلاد، وكانت بعضها تعقد تحت رئاسته وإشرافه، فكان يلقي فيها محاضرة مكتوبة في بعض الأحيان.

هذا الكتاب هو مجموع عشر محاضرات له، ألقيت في مواضيع مختلفة وفي مدن شتّى.

وبعض هذه المحاضرات مطبوعة على حدة أيضًا، نشرها الناس لاحتوائها على فوائد جمّة.

(١٠) تأريخ المشاهير:

كان التأريخ والسير من أهم المواضيع في نظر القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وهذا الكتاب فيه تراجم المشاهير.

قصة الكتابة في هذا الموضوع ترجع إلى ١٨٩٩م، حين أصدر المنشئ غلام محمد جريدة «وكيل» الأسبوعية من أمرتسر، وكان الناس يتلقّونها بالقبول، ثمّ بدأت تنشر فيها الصور.

فقال القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ للمنشئ غلام محمد: لا تنشر الصور في الجريدة، إن كان هناك نقص في المقالات، فأنا أكتب للجريدة أسبوعيًّا عن شخصية من مشاهير الإسلام، فأعجبه هذا الاقتراح، وبدأ القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يكتب في الجريدة منذ سنة ١٨٩٩م.

هذه المقالات بعد مراجعتها، وكتابة بعض المقالات الجديدة الأخرى التي ضمّت إليها، طبعت في صورة كتاب مستقلّ في ١٩٢٧م.

(١١) المسح على الجوربين:

هذا الكتاب للعلامة جمال الدين القاسمي الدمشقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٢٨٣-١٣٣٢هـ)، نقله القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى الأردية، لتعمّ فائدته في هذه المسألة بين المسلمين.

(١٢) الاستقامة:

قال القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في شهر من شهور ١٩٠٦م، كنت في طريقي إلى المحكمة، فأعطاني ساعي البريد خطابًا، كتب فيه صاحبه: «**إن لم أستلم ردًّا مقنعًا على هذا الخطاب، أدخل في النصرانية**».

بعد قراءة هذه الجملة في الخطاب، رجعت إلى البيت، لأن لا أتأخر في الردّ عليه فرددت على خطابه في نصف ساعة، وألقيته في صندوق البريد، وذهبت إلى المحكمة.

لما وصل هذا الخطاب إليه، اطمأن به قلبه، وصار داعية إلى الله بكل قوّة واستقامة، حتى توفاه الله تعالى.

قال القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كنت سألتُ صاحب الخطاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لماذا مِلتَ إلى النصرانيّة؟

قال: كنت في مكان، فمرضت فيه جدًّا، ولم يَعُدني أحد من المسلمين، وكان هناك قسّيس، لما علم بحالتي، جاءني، وحمل سريري إلى بيته، ولم يألُ جهدًا في علاجي وتمريضي، ومواساتي، فنشأ في قلبي نوع خاص من التقدير له والاحترام. وبعد ما شفيتُ، فكلّما كان يقول شيئًا ضدّ الإسلام، وأنا أسمع، فكان يرسخ في قلبي أيضًا.

في هذا الحادث عبرة لمن يعتبر من المسلمين، وخاصّة الدعاة إلى الله. فليعرفوا أن حسن الخلق كم يعمل عمله في الدعوة والإرشاد؟ فهل من مجيب.!

(١٣) مكاتيب سليمان:

هذا الكتاب مجموع أربعة وثلاثين مكتوبًا وخطابًا، التي وجّهها القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى السائلين مع الردّ على أسئلتهم ردًا علميًّا وبأسلوب مقنع خالص.

وبعض هذه المكتوبات نشرت في رسالة مستقلّة، لأهميتها، منها: «رسالة الاستقامة» التي تقدّم ذكرها آنفًا. والخطاب الموجّه إلى «غازي محمود هرم بال».

إن الجيل المعاصر على غير إلمام بتأريخه العلمي والديني، فلا بدّ من نشر مثل هذه الخطابات والرسائل والمكتوبات ليتصل بها الماضي بالحال، وليطلع عليها الجيل الحاضر، فيعرف كيف كان سلفه يقومون بالدعوة والإرشاد في المجتمع وبوسائل مختلفة وأساليب شتّى.

(١٤) البرهان:

هذا الكتاب عبارة عن مكتوب، أرسله القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى قسّيس من القساوسة، ردًا على بعض تساؤلاته.

(١٥) الرحلة إلى الحجاز (تأريخ الحرمين):

حجّ القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حجته الأولى في سنة ١٩٢١م، مع القافلة التي كانت تحوي أربعة وخمسين شخصًا.

من قديم الزمان، كان من دأب العلماء أنهم يكتبون التفصيل عن رحلتهم إلى الحرمين، ويذكرون فيها ما يحلو لهم أو يعرض لهم من الوقائع والأحداث.

ولكن القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتميّز في كتابه (الرحلة إلى الحرمين)، مع ذكر تفاصيلها، ببيان تأريخ مشاعر الحجّ، وأمكنة المدينة النبوية وجغرافيتها بكل دقّة ومهارة، لما له في مثل هذه الأمور من علم واسع ومعرفة تامّة بفضل الله تعالى.

ولمثل هذه المعرفة التأريخية الدقيقة عرض عليه الملك عبد العزيز آل سعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ،

كتابة «تأريخ نجد» أثناء لقائه في حجته الثانية سنة ١٣٤٨هـ=١٩٣٠م، ووفرّ له المصادر والمراجع المتاحة بالعربية، ولكنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ توفّي عند رجوعه من الحجّ على متن الباخرة المتجهة إلى مومبائي.

(١٦) كتاب «رحمة للعالمين»:

هذا الكتاب في ثلاثة أجزاء، وسيأتي ما له وما عليه في فصل مستقل، إن شاء الله.

هذا. وقد ضاعت مسوّدات بعض كتبه ورسائله، منها:

(١٧) ترجمة كتاب «**حجّة الله البالغة**» للشاه ولي الله الدهلوي (١١١٤-١١٧٦هـ).

(١٨) تفسير سورتي «**الفلق**» و«**الناس**» ملخّصًا من تفسير الإمام الرازي.

ويقدّر، نظرًا إلى كونه مرجعا للخلائق، أن القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتب كثيرًا في مسائل التفسير، والحديث، والفقهيات، ومقارنة الأديان وغيرها من المواضيع التأريخيّة حسب الظروف والأحوال، وذلك لأن الناس دائمًا كانوا يراجعونه في حلّ أمورهم ومشكلاتهم، وكان يردّ عليهم كتابة أيضًا، فأين تلك الأجوبة التحريرية؟

فالظاهر، أنها قد ضاعت، وقد حُرمنا من تلك الثروة العلميّة.

هذا الحادث (أي حادث ضياع المسوّدات) ليس بخاص بالقاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فحسب، بل ضاعت مسوّدات كثيرة من كتب المؤلّفين قديمًا وحديثًا. والله المستعان!

من أخلاقه وآدابه وعوائده

كان القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتحلّى بالأخلاق الكريمة، والآداب الفاضلة، والعوائد الحميدة، وهي كانت تنبع من داخله من غير تكلّف ولا تصنّع، تجاه كل صغير وكبير من موظفي الإمارة وغيرهم، من ضيوفه وزائريه من المعارف وغيرهم على سواء، ما جعله مرجعًا للخلائق حتى لغير المسلمين أيضًا.

وإليكم نبذة من هذه الومضات الإسلامية في شخصه الكريم:

- **كان هيّنًا ليّنًا هشًّا بشًّا**، لم يكن من تعامله مع أحد -موظّفًا كان أو غيره- على طريقة الزجر والتوبيخ، والإرهاب والتخويف، ينفع الناس حتى لو تضرّر هو نفسه، كان صادق اللهجة، قوّالا بالحق، حلو الكلام، ولم يكن يطلب من الحكومة أيّ نوع من التسهيلات، حتى لو كان من مستحقاته، لعزّة نفسه.
- **كان يلتمس العذر للموظّف**، الذي كان يتأخّر أحيانًا عن الدوام، بأنه يمكن عرض له طارئ، ولم يستطع أن يخبر الإدارة بتأخيره.
- **لم يكن متعوّدًا على أن يتسلّف** من أحد، وعلى العكس من ذلك إذا نمّي إليه أن أحدًا من موظفيه في عوز، كان يحاول أن يوفي حاجته.
- **أنعم الله تعالى عليه بنعمة التوازن** والاعتدال في الفكر، فكان يتجسّد فيه الحلم والأناة، والتواضع والانكسار.
- **كان شغوفًا بالأعمال الخيرية**، جادًا في نشر التعليم، وبجهوده أنشئت الكلية الإسلامية في «بتياله»، التي كانت مأثرة تعليمية كبيرة في إمارة سيخية في ذلك العصر، الذي كان من سماته التعصب ضدّ المسلمين.
- **كان يراجعه أهل المذاهب الفقهية الأخرى**، وكان يكرم علماءها، وكذلك كان حاله بالنسبة لغير المسلمين أيضًا.

• **كان نفورًا من النزاع والخصام**، وإن كان النزاع بين الأعزّة والأقارب، يظل يحايد فيه، ويصلح بين المتخاصمين بالنصح والتذكير.

• **كان يتوسّط لكل أحد يأتي إليه**، طلبًا للوظيفة، فإن رآه متأهلًا، يكتب إلى الجهات المختصة بأنه «عزيزي» فيوظّف، ويدعوه الناس بالقاضي، يحسبون أنه من أعزّته وأقربائه، ولم يكن الأمر كذلك.

• **إذا نزل ضيفًا على أحد** من أقربائه أو أصدقائه على غير موعد، وقت الغداء أو العشاء، كان يُصرّ على أن لا يُعدَّ له طعام جديد، بل كان يأكل ما حضر في البيت من الطعام.

• **كان يشجّع طلبة العلم** على الجدّ والاجتهاد في الطلب، ويقول: «من جدّ وجد». هكذا كان أمره مع العلماء والفضلاء أيضًا، إذا خطبوا أو كتبوا ما هو مفيد للمجتمع، فيثني عليهم، ويحثّهم على إقامة حلقة تعليم القرآن الكريم وتحفيظه.

• **كان يتغذّى خفيفًا**، لم يكن متعوّدًا على نوع خاص من الغذاء، بل ما حضر أكل، ولا يعيب طعامًا أبدًا.

• **كان يواسي كل الناس**، وإذا استنصحوا ينصحهم بما هو أصلح لهم في نظره، ولم يكن أبدًا حريصًا على المال، وما كان المال كذلك ذا بال عنده.

• **إذا كانت القضيّة** بين القويّ والضعيف، كان يحاول جهده أن يأخذ للضعيف حقّه من غير ما تعب، ومن غير أن يبخس حق فريق آخر.

• **لم يكن يلتقي بالأمراء والحكّام** من غيرما ضرورة، ولا يزورهم في بيوتهم من غير دعوة منهم.

• **من المعتاد في الإدارات الرسمية** في الدولة أن موظفيها في الأغلب يتوزّعون في حزبين، وكل منهما يحاول أن يثبت عند الرئيس الأعلى، أن حزبه هو الناصح المخلص للدولة، ولكن القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كان يكره هذا النوع من التحزّب أشدّ الكراهية، وكان تعامله مع الجميع بحيث لم يكن أحد يتجرّأ على تحريضه ضدّ آخر، أو يؤثّر عليه ولو شيئًا قليلًا، فهو لا يعطي أحدًا فرصة لمثل هذا التصرّف المنكور.

• **كان يعمل تحته من الموظفين الكبار والصغار من ديانات مختلفة:** كالهندوس والسيخ والمسلمين، وكان يعاملهم بالسويّة، فكما أنه كان يراقبهم في أداء الأمور الرسميّة في مكاتبهم، كذلك كان يطّلع على أحوالهم في البيت أيضًا، فيساهم في أفراحهم وأتراحهم، وإن حصل مضض بين الموظّفين، كان يتدخل للإصلاح بينهم من غير تأخير، ليسود جوّ الأخوّة والمحبّة في أداء أعمال المكاتب والإدارات.

رحمه الله تعالى!

إلى بيت الله الحرام

ووفاته عند رجوعه من الحج على متن الباخرة المتجهة إلى الهند[(١)]

حجّ القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حجّة ثانية -وهي الأخيرة له- سنة ١٣٤٨=١٩٣٠م، وزار مسجد النبي ﷺ قبل الحجّ، ثم رجع إلى مكّة المكرّمة، وزار «دار الكسوة»، وقدّم إليه شراب الليمون، الذي أثّر على فم معدته، فبدأت توجعه، فمرض قليلًا، ثم أفيق، وكان يشعر بالضعف إلا أنه أكمل مشاعر الحجّ بخير وعافية.

وكان عنده في هذا السفر المبارك نسخ من كتابه «المعارف الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى» يوزّعها على معارفه من العلماء.

وأيضًا كانت معه مسوّدة الجزء الثالث من كتاب «**رحمة للعالمين**» يراجعها، ويقرأ بعض المواضع منها، على أهل العلم من زائريه، مع ضعفه، وهم يثنونه على هذا التأليف القيّم.

توديعه الأخير لبيت الله الحرام:

ثمّ ودّع بيت الله الحرام، وتوجّه إلى جدّة للسفر منها إلى الهند بالباخرة، فمرض فيها مرّة أخرى، وضعف كثيرًا، إلا أنه ركب في السفينة الصغيرة الموصلة إلى الباخرة، وتقوّى حتى بعد رسوها جنب الباخرة ركب على متنها بنفسه.

وعظه الأخير داخل الباخرة:

وبعد ذلك، بدأت صحته تتدهور في داخل الباخرة، فجاءه الطبيب، وصرف له دواء، وبعد شرب الدواء، بدأ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعظ الحجّاج، ويحثّهم على الاهتمام بأداء الفرائض،

---

(١) هذا الباب ملخّص ما كتبه الأستاذ غلام رسول مهر (الكاتب الإسلامي الفذّ) في «مذكّرة سفره إلى الحجاز» عما شاهده في الباخرة من حالة القاضي الصحّية إلى وفاته، ونقله الأستاذ محمد إسحاق بهتي في كتابه «القاضي محمد سليمان» (٣٨٩-٣٩٨).

ثم عقد لسانه، وأغمضت عيناه، وغشي عليه قبيل المغرب، وبدأت حالته الصحية تزداد تدهورا، فأُرسلت البرقية إلى ابنه الوحيد القاضي عبد العزيز (مفتّش المدارس في إمارة «بتياله»)، وذلك على طلب من زملائه في السفر، وكان مضمونها:

«حضرة القاضي مريض جدًّا».

اللحظات الأخيرة من حياته:

ثمّ نقل إلى مستشفى الباخرة بمشورة الطبيب، قال له الشيخ إسماعيل الغزنوي[1] -وكان أيضًا في الباخرة نفسها-: **هذا المريض يتميّز في الهند بعلمه وفضله، وهو ثروة قومية لنا عزيزة، فنرجو لفتة كريمة إليه خاصة».**

وبعد فحصه أعطاه الطبيب دواء، وحاول جهده في إنقاذه، لكن جاء أجله المحتوم، فتوفّاه الله تعالى، وهو على متن الباخرة، قرب يلملم، قبالة حدود الحرم، في الساعة الحادية عشرة، قبل صلاة الجمعة (الأوّل من شهر محرّم ١٣٤٩هـ=٣٠ مايو ١٩٣٠م) فرحمه الله تعالى.

تكفينه وتجهيزه:

غسّلوا الميّت في الجزء الأمامي لمستشفى الباخرة، وكفّنوه في أردية إحرامه، وطيّبوه، ونقلوه من الدور التحتي إلى الدور الفوقي من الباخرة، وصلّى عليه الشيخ إسماعيل الغزنوي في جزءها الأخير، بحضور مئات من الحجاج قبل صلاة الجمعة.

---

(١) كان إسماعيل الغزنوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ معتمدا خاصًا لدى الملك عبد العزيز آل سعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وبأمره عمل مثل مندوب الحج في الهند نحو ثلاثين سنة. وهو الذي وكله الملك مع ابن عمّه داود الغزنوي لإعداد كسوة الكعبة سنة ١٩٢٨م، وكانت ترسلها مصر حسب العادة، ولكنّها رفضت إرسالها هذه السنة لأجل المضض بينهما، فأُعدّت الكسوة في هذه السنّة أوّل مرّة، تحت إشرافهما (وهما من الأسرة الغزنوية العلميّة، المعروفة بعلاقتها الوطيدة بالملك عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ)، وتمّ ذلك بالتعاون مع علماء الحديث الآخرين رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

المشهد المحزن لإلقاء الجثمان في البحر:

ثمّ بعد تغسيل الميّت، وتكفينه وتجهيزه، وضع الجثمان على اللوحة القماشية المعدّة لإلقاء الجثمان في الماء بطريقة مناسبة معتادة، ورُبطت به قطعة ثقيلة من الحديد أيضًا، لرسوبه على الفور في قعر الماء.

ثمّ أدليت اللوحة القماشية التي عليها الجثمان إلى الماء، بواسطة الحبلين المربوطين بطرفيها، ثمّ أُرخي الحبلان فانزلق الجثمان من اللوحة في الماء، وقام الحجّاج يشاهدون هذا المنظر المحزن الأليم من شبابيك الباخرة، حتى غاب هذا الكوكب النيّر في سماء العلم والمعرفة والزهد والتقى في أمواج البحر الأحمر في طرفة عين(1)، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

اللّهم اغفر له، وارحمه، وعافه، واعف عنه!

هكذا كان القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

كانت في رحاب قلبه وذهنه خزينة كبيرة مرتّبة من العلوم والفنون، توافرت فيها من مهمات ما يتعلق بالكتاب والسنّة، والفقه والفتاوى، والسير والتأريخ، ما كان يحيّر العقول، مع اليد الطولى في الشعر والأدب والإنشاء.

وكان من الصعب أن يبلغ القلم واللسان شأوه في معرفة الصحف السماوية وغيرها من مصادر الديانات العالمية الأخرى، وقد أودعه الله تعالى من العلم والفضل، والحكمة والحنكة، ما لم يحظ به إلا القليل من أهل العلم في عصره.

لقد عاش العلامة القاضي حياة مترامية الأطراف، متعددة الجوانب، حافلة بالجدّ والاجتهاد فيما أنيط به من الأعمال الوظيفيّة؛ نابضة بالحيوية والنشاط في شتى المجالات

(١) صدق على القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما أنشده لنفسه من بيت إلهاميّ في الأردية، ما معناه:
لا تكون كومة من التراب قبري - بل يكون مرقدي صدور أحبائي.
وقال أيضًا ينشد بيتا آخر، ما معناه:
لا أدري هل قُدّر لي أن أرجع، كأن عمري الذي يجري، كالماء الجاري، الذي لا يرجع إلى الوراء أبدًا، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

من القضاء والسياسة، والاجتماع، والتصنيف والتأليف، والدعوة والإرشاد، والنصح والتذكير، والبحث والمذاكرة، لإبراز محاسن الإسلام، ومحامد نبيّه ﷺ في كلّ المناسبات في ضوء الكتاب والسنّة، وضوء الصحف السماويّة، ومصادر الديانات الأخرى، بكلّ دقة وأمانة، وثقة واعتماد.

وكان كلّ ذلك حبّا لله تعالى وكتابه العظيم، وحبّا للإسلام ورسوله الكريم ﷺ وسنّته الشريفة المشرّفة، وسيرته الزكيّة العطرة، حيث قال:

«كما يذكر مع اسم الجلالة «وحده لا شريك له»، كذلك يذكر مع اسم النبي محمد ﷺ: «عبده ورسوله».

فاللهم إني أيضا أكرّر كلمة الشهادة هذه في هذا الموضع، وأودعها إلى خزائن رحمتك أمانة: «أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمّدًا عبده ورسوله، رضيتُ بالله ربّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمّد ﷺ نبيًّا، وبالقرآن إمامًا». (رحمة للعالمين: المجلد الثالث)

وفاته رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقعت كالصاعقة على أهل الهند

كان وقع نبأ وفاة القاضي (صاحب «رحمة للعالمين») رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كالصاعقة على كل فئات المجتمع في شبه القارة الهندية، من أهله وعائلته، وعلماء الحديث وغيرهم من عامّة الناس وخاصتهم، خصوصًا في إمارة «بتياله» على المستوى: الحكومي والشعبي، لما كان يتمتع به من قبول عام، لا يحصل مثله إلا لقلة قليلة من علماء الأمّة في عصورهم.

ووفاته على متن الباخرة -وهو راجع إلى الهند بعد الحجّ-، ومشهد تجهيزه، وتكفينه، والصلاة عليه، وإلقاء جثمانه إلى «القبر المائي» في البحر الأحمر، على طريقة معهودة في مثل هذه الحالات، زادهم حزنًا على حزن.

ولم تكن وسائل الإعلام السريعة، والاتصالات الفوريّة ميسّرة في ذاك الزمان (أي قبل أكثر من تسعة عقود)، إلا وسيلة إرسال البرقية (Telegram)، وكانت رسالة البرقية، تحتوي على ثلاث كلمات أو جملة واحدة، تفيد الخبر فقط.

فانتشر -أوّلا- نبأ مرضه في الهند خلال أيّام، ثمّ جاء نبأ وفاته على متن الباخرة، ثم وصل التفصيل عنها، وعن مشهد التكفين والتجهيز، وإلقاء جثمانه في البحر، بعد عدّة أسابيع، بنشره في الجرائد والمجلّات، فكما جاءت الأخبار عن وفاته بالأقساط شيئًا فشيئًا، كذلك ازداد الحزن عليه مع كل مرحلة من مراحل أنبائه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

رسائل التعازي والدعاء على مستوى الهند المتّحدة:

بدأت رسائل العزاء والدعاء تتوالى إلى أسرته، وتتبادل بين محبّيه ومعارفه من علماء الحديث وغيرهم.

وقد ذكر العلّامة المؤرخ الشيخ محمد إسحاق بهتي رَحِمَهُ ٱللَّهُ نبذة منها، وهي مأخوذة من جريدة واحدة فقط، وهي «جريدة أهل الحديث» الأسبوعيّة الصادرة من مدينة «أمرتسر»، تحت إدارة العلّامة الشيخ ثناء الله الأمرتسري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (الأمين العام الأوّل

لجمعية أهل الحديث لعموم الهند)، لأن الحصول على غيرها بعد مضيّ هذا الوقت الطويل على وفاته، كان صعبًا جدًّا.

وفيما يلي ذكر أهم هذه التعازي لتكون ذكرى للتأريخ:

(١) **بعد وصول نبأ وفاته إلى «بتياله»**، أوّل وفد رسميّ تحت قيادة رئيس الوزراء «راجا سرغوردت سنغ» (وهو صاحب أكبر منصب في الإمارة)، توجّه إلى بيت القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقدّم عزاءه وعزاء الإمارة إلى ابنه الوحيد القاضي عبد العزيز وعائلته. وكان القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تولّى منصب الأمين العام لمكتبه أيضًا، لمدّة من الوقت.

(٢) **في اليوم نفسه أو بعد اليوم**، عقد أهل «بتياله» اجتماعًا -ويذكر أنه كان من أكبر الاجتماعات التي عقدت في تأريخ «بتياله»- تحت إشراف مدير هيئة التدريس لـ«ثانوية خالصه العامّة» شارك فيه عدد كبير من الموظفين في الإمارة وغيرهم، وحضره رئيس الوزراء «راجا سرغوردت سنغ» أيضًا، وتبرّع لإقامة «صندوق القاضي التذكاري» ألف روبيّة (وكان هذا مبلغًا كبيرًا في ذلك الوقت)، وألقى فيه كبار الشخصيات من كل مسلك وديانة كلمات في بيان محاسن القاضي وفضائله من نواحٍ شتى وفي مجالات مختلفة.

(٣) **كان الملك** «بهو بندر سنغ» في تلك الأيّام في «لندن»، فأبرق إليه رئيس الوزراء، خبر وفاة القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فأرسل برقية العزاء والمواساة، وأصدر بهذه المناسبة قرارين:

(الأوّل): تخصيص معاش لابنة القاضي الوحيدة لطول حياتها.

(الثاني): ترقية ابنه الوحيد القاضي عبد العزيز إلى منصب «المفتّش العام للمدارس» في إمارة «بتياله».

هكذا، راعى الملكُ القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيًّا وميّتًا.

(٤) **كان القاضي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ على صلة قويّة بـ«أنجمن حماية الإسلام» بلاهور، فأهل هذه الجمعية عقدوا اجتماعًا اعترافًا بفضله، شارك فيه كبار الشخصيات من «لاهور»، أمثال الشيخ أحمد عليّ (شيخ أبي الحسن الندوي في التفسير)، والأستاذ ظفر علي خان (مدير مجلّة «زميندار»، التي كانت تؤيّد بكل قوّتها موقف الملك عبد العزيز من

إدخال الإصلاحات في الحرمين)، والدكتور محمد إقبال (الشاعر الإسلامي المعروف)، كلّ ذكر من محاسن القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ما يتعلّق بمآثره في العلم والتأليف، والشعر والأدب، ليطلّع الجيل المعاصر على ما كان يتمتع به من الفضائل والكمالات في مجالات شتّى.

(٥) **عقدت «دار الحديث الرحمانية»** بدهلي في (٤/ يونيو ١٩٣٠م) اجتماعًا تحت رئاسة العلّامة المحدّث المسند أحمد الله القرشيّ الدهلوي (من كبار تلامذة السيّد نذير حسين المحدّث الدهلوي، وشيخ المشايخ في داخل الهند وخارجها)، اقترحوا بهذه المناسبة اقتراحات، أهمها:

«قدّموا اقتراحًا على «جمعية أهل الحديث لعموم الهند»، قالوا فيه: بما أن القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان عضوا معزّزًا للجمعية، ورأس عدّة من اجتماعاتها ومؤتمراتها، وألقى فيها كلمات مكتوبة، تقام «مكتبة عامّة» في أي مدينة مركزية من مدن الهند باسمه تخليدًا لذاكره.

(٦) **كتب العلّامة الشيخ ثناء الله الأمرتسري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ في جريدة «أهل الحديث» الأسبوعيّة (٦/ يونيو ١٩٣٠م) بعنوان:

«آه! غربت شمس العلم والعمل»

«من كان يدري أن مؤلّف «رحمة للعالمين»، ورئيس مؤتمر «جمعية أهل الحديث» المنعقد في «مئو»، و«آغره» يسافر للحجّ أم يسافر ليفارقنا للأبد. توفّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد الحجّ على متن الباخرة، المتجهة إلى الهند. إنا لله وإنا إليه راجعون!

كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ عاملا بعلمه، مطلعًا على تضاريس الحالات الحاضرة، ذا ذوق خاص في فن التأريخ الإسلامي، هادئ الطبع، ذا متانة كاملة، وصحبة مؤثّرة.

آه! كنّا نستأنس بالقاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بعد وفاة العلّامة الحافظ عبد الله الغازي فوري، والعلّامة الشيخ عبد العزيز الرحيم آبادي، (كلاهما من أرشد تلامذة السيّد نذير حسين المحدّث الدهلوي)، واليوم ليس في نظرنا من نقول له: «اجلس بنا، نؤمن ساعة.» (البخاري معلّقًا عن معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ)

ولذا أكتب الآن -والعين تدمع-:

«وا حسرتا! أصدقائي تركوني وحيدًا» (ترجمة شطر بيت في الفارسيّة) وممكن أن هذا الصوت الذي يبلغ إليكم حتى الآن، ينتهي أيضًا بعد أيّام أو لحظات. «اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلّها».

وأرجو من المطلعين على هذا الخبر، أن يصلوا عليه صلاة الغائب، ويستغفروا له.

«اللهم اغفر له وارحمه، وأبدله دارًا خيرا من داره، وأهلا خيرًا من أهله».

وأدعو الله عزّ وجلّ أن يلهم ابنه الوحيد القاضي عبد العزيز وأهله جميعًا الصبر والسلوان، ويمنّ علينا نحن المستفيدين منه، ببديل خير منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.»

(٧) **أعلنت «جمعية أهل الحديث» بلاهور،** في (٢٧/ يونيو ١٩٣٠م) إنشاء مكتبة باسم «المكتبة السليمانيّة» تحت إشراف «مسجد مبارك الجامع» (المتصل بالكلية الإسلامية)، وتوفر فيها الكتب العلمية والأدبية، والتأريخيّة على أنواعها، ليسفيد منها العامّة من الناس على الدوام».

(٨) **أقيمت اجتماعات تحت إشراف كبار علماء المنطقة،** في شتى المدن والبقاع من مختلف ولايات الهند، كـ«أمرتسر» (فنجاب) في (٢٧/ يونيو ١٩٣٠م)، و«دربهنغه» (بهار) في (٢٧/ يونيو ١٩٣٠م)، و«غازي فور» (يو. بي.) في (٤/ يونيو ١٩٣٠م)، و«كوتلي لوهاران» (سيالكوت) في (٤/ يوليو ١٩٣٠م)، و«أجمير» (راجستهان) في (٢٥/ يوليو ١٩٣٠)، و«متهرا» (يو.بي.) في (٢٥/ يوليو ١٩٣٠م)، كلّها صلّت عليه صلاة الغائب. واتفقت هذه الاجتماعات على أن وفاة القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ خسارة فادحة لا تعوّض لمسلمي الهند عمومًا ولجماعة أهل الحديث، على وجه الخصوص.

وكذلك أجمعت أن تقام في مناطقها مع بعد المسافة بينها، «مكتبة»، أو تنشأ فيها «قاعة» باسم القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تخليدًا لذكراه.

(٩) **أصدر سكّان مدينة «بتياله» على وجه الخصوص بيانا، قالوا فيه:**

«وفاة علّامة العصر وفهّامة الزمان حضرة القاضي محمد سليمان المنصورفوري

رَحِمَهُ ٱللَّهُ، جعلتنا نحرم من شخصيّة، يصعب تلافيها، وهي غنيّة عن التعريف بها لدينا، لعلمه وفضله وخلقه، وتعامله مع كل فئات المجتمع، بكلّ حبّ ووداد، ولطافة وظرافة، وكل ذلك مع منصبه في الإمارة، الذي لا يبلغ شأوه بسهولة.

ومن دأب **الأمم المتحضّرة الحيّة**، أنها تقوم بإحياء ذكرى كبارها ببناء معلم من المعالم. وبما أن القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ له فضل كبير علينا جميعا، وقد وافقت الاجتماعات المنعقدة في لاهور، ودلهي، وغيرهما من مدن الهند بهذه المناسبة، تحت إشراف كبار العلماء والفضلاء، على إقامة مكتبة أو إنشاء قاعة باسمه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تخليدا لذكراه، فمدينة «بتياله» أحقّ بأن تقوم بما يجب عليها تجاهه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لكونها موطنًا له.

وكذلك تقع فيها «الكلّية الإسلامية» التي أقامها رَحِمَهُ ٱللَّهُ لرفع المستوى التعليمي بين المسلمين، في إمارة سيخيّة متعصبة، ولم يكن ممكنا هذا لغيره رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فبالنظر إلى هذه الخصائص، ها هي «جمعية خادم الناس» بمدينة «بتياله»، تقدّم اقتراحًا، لإنشاء قاعة باسم «القاعة السليمانيّة»، التي تضمّ مكتبة عظيمة، تتوافر فيها، مع المصادر المهمة في التفسير، والحديث، والفقه، والسيرة، والأخلاق، والتأريخ الإسلامي، ذخيرة كبيرة من كتب الديانات الأخرى أيضًا على المستوى المطلوب، وذلك لأن القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان جامعًا لهذه العلوم والفنون كلّها، (مختصرًا).

(العاجز: محمد شفيع عفا الله عنه (الأمين العام الشرفي للجنة تخليد ذكرى القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «بتياله»)).

وعلّق العلّامة الشيخ الأمرتسري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (١٥/ أغسطس ١٩٣٠م)، على هذا الإعلان، قائلًا:

«إضافة إلى ما ذكرتَ من أوصاف القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كان من أهمها اتصافه بالأمانة، ولأجلها ملك «بتياله» بعد ما أحيل القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى التقاعد أيضًا، كان يعتمد عليه في أداء بعض الأمور الضرورية، حتى المتعلقة بالأسرة الحاكمة، وغيرها من المهمات.

وعلى هذا، يلفت نظر حضرة الملك إلى أن يولي هو بنفسه عنايته بإقامة مَعْلم علميّ على أعلى مستوى في ذكراه رَحِمَهُ ٱللَّهُ».

(١٠) **كتب العلامة السيّد سليمان الندوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مقالًا**، بعد وفاة القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مجلّته «معارف»، الصادرة من «دار المصنفين» أعظم كره، في (يوليو ١٩٣٠م = صفر ١٣٤٩هـ)، بكلّ حبّ وإخلاص، اعترافًا بعلمه وفضله، فقال ما معناه:

«ذلك الفاضل الشرقيّ، الذي نقدّم هذه الكلمات في عزائه، هو القاضي محمد سليمان المنصورفوري (قاضي المحكمة الجنائية في «بتياله» سابقًا، ومؤلّف كتابه الشهير في السيرة: «رحمة للعالمين».

وقد كان جامعًا بين العلم والعمل، والزهد والكمال، والفضل والورع، ونورانيّ القلب، ومتوقد الذهن والفكر، وكان في أفكاره الجديدة والقديمة كلتيهما على حدّ التوازن والاعتدال، وكان عالما ذا بصيرة في اللغة العربية، والعلوم الدينيّة، وكان يتميز بالاطلاع على محتويات التوراة والإنجيل اطلاع عالم ناقد، وكان يتوق إلى مناظرة غير المسلمين إلا أن أسلوب مناظرته معهم، كان يتّسم بالرزانة، والمتانة، والوقار العلمي، وكان من أهل الحديث مسلكًا، يعزّ الأئمّة والمجتهدين بسويداء قلبه، ويقدّر جهودهم وتفانيهم في أمور الدين تقديرًا كاملًا.

«كان من أقدم أعضاء «ندوة العلماء»، وبهذه الواسطة حصل التعارف بيننا، الذي أنشأ فينا الأنس والحبّ المتبادل، وعند اللقاء كنا نتمتّع بما يوافق ذوقنا لوقت طويل، ونتجاذب الحديث عن نواح مختلفة من السيرة، والمناظرات الجديدة، وعلم الكلام، ومحاسن الإسلام، بحيث ننسى كل شيء أمام متعة الجلسة لهنيهة من الوقت.

وقبل عدّة سنوات، تنوّرت «دار المصنفين» أيضًا بفيض قدومه الميمون، كان طويل القامة، جميلًا، وجيها، نفيس اللباس، ذا لحية كثة وعمامة بيضاء.

ومن مؤلّفاته المستقلّة «رحمة للعالمين»، و«الجمال والكمال» (تفسير سورة يوسف)، وتأريخ الحرمين (مذكرات الرحلة إلى بيت الله الحرام) تعتبر مآثر له، وقد خطّ يراعه عشرات الرسائل الصغيرة والكبيرة الأخرى، ولكن أكثرها قبولًا وتلقّيا هو كتابه «**رحمة للعالمين**»، وقد أُدخل في مناهج المدارس الإسلامية، وقرأه الناس بكل لهفة وشوق، تغمّد الله عزّ وجلّ مؤلّف «رحمة للعالمين» برحمته.

وقد حجّ مرّة قبل سبع أو ثماني سنوات، وبعد رجوعه من الحجّ كتب مذكراته لرحلته إلى الحرمين، وسافر للحج هذه السنّة مرّة ثانية، وكتب إليّ صديق لي من مكّة المكرّمة، أن حضرة القاضي ذكرك بكلّ حبّ وكرامة.

وسرور هذه البشرى لم يكن ليكمل إلى الحين، حتى وصلتني رسالة من «صابر منزل-قرول باغ» بدهلي، قضت عليه تمامًا، كان فيها نبأ وفاته، بأنّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ مرض، وعند رجوعه من الحجّ لفظ أنفاسه الأخيرة على متن الباخرة المتجهة إلى الهند.

آه! كم من باخرة غرقت في بحر الحياة هذا، وتغرق [بيت في الفارسيّة ما معناه]:

آلاف من السفن غرقت في بحرالحياة هذا- بحيث لم تظهر أيّ خشبة منها عند الساحل. («معارف» يوليو ١٩٣٠م).

كان هناك أربعة من كبار علماء الهند، اسم كل منهم «سليمان» فكتب السيّد سليمان الندوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ترجمة السيّد «سليمان أشرف» بعد وفاته في مجلّته «معارف»:

«رباعيّة السلامنة الأربعة» صارت مثلّثة بوفاة القاضي محمد سليمان صاحب «رحمة للعالمين»، ثم صارت بوفاة الشاه سليمان الفلواروي بيتًا (أي شطرين من البيت)، وبعد وفاة السيّد سليمان أشرف (أستاذ جامعة علي كره الإسلامية) بقي شطر من البيت (يعني السيّد سليمان الندوي نفسه)، وإلى متى يجري هذا الشطر من البيت على ألسنة الناس؟!».

علّق العلّامة المؤرخ الأستاذ محمد إسحاق بهتي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، على كلام السيّد سليمان الندوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا، بعد وفاته، فقال:

«آه! لحق السيّد سليمان الندوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا بالرفيق الأعلى في (٢٢/ نوفمبر ١٩٥٣م).»

هكذا تمّت الأشطار الأربعة من البيتين بعد وفاة السيّد سليمان الندوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦ – ٢٧].

كتاب «رحمة للعالمين»

وتلقّي العلماء والمثقّفين وغيرهم من فئات المجتمع إيّاه بالقبول

كتاب «رحمة للعالمين» سفر نفيس في السيرة النبوية العطرة، الذي غيّر حياة المشاهير في شبه القارّة الهنديّة، وهو أوّل كتاب معتمد عليه في السيرة (بالأرديّة)، أدخل بعد طبعه في مناهج المدارس الدينية (مثل «ندوة العلماء» بلكناؤ، دار العلوم بديوبند، والكلية الإسلامية، وثانويتها التابعة لحماية الإسلام بلاهور، وكذلك في الجامعات الرسميّة، مثل الجامعة العثمانية «حيدر آباد، دكن»، وجامعة «علي كره» الإسلامية، والجامعة العبّاسيّة (الآن الجامعة الإسلامية) «بهاول فور» (باكستان الآن) والجامعة الملّية «دلهي».

وجدير بالذكر بهذه المناسبة أن هذا الكتاب لم يعلن له في الجرائد والمجلات، ولا اختيرت أيّ وسيلة أخرى لإشهاره، ونشره، وتوزيعه، مع أن الكتاب لم يكن له نظير في بابه.

ومعلوم أنّ مؤلّفه كان ذا صيت واسع، فهو ذو منصب كبير، معروف بزهده وصلاحه، وتأليفه وتصنيفه أيضًا، على مستوى الهند بين العامّة والخاصّة من الناس، لو أشار إلى أيّ ناشر أو تاجر للكتب لطبعه مجرّد إشارة، لوصل إليه أصحاب المكتبات المعروفة لنشره، ولكنّه انتخب شخصًا لا تجربة له في هذا الشأن من «بتياله»، اسمه (خليفة هداية الله ضلع دار).

والأخ خليفة أيضًا، لم يشهر الكتاب، ولا أعلن له في الجرائد والمجلات، ولكنّه ذكر لعدد من معارفه: كم من رسائل استلمتُها، مكتوب فيها نوع واحد من الكلام، هو:

«إنّي لم أر كتابًا اسمه «رحمة للعالمين» حتى الآن، ولكنّي رأيت رسول الله ﷺ في المنام، فقال ﷺ: اكتب إلى «بتياله» على هذا العنوان، واطلب «رحمة للعالمين»، واقرأه».

هذه رؤيا تذكر، وتكتب.

وبالمناسبة أذكر ما ذكره الأستاذ المؤرخ محمد إسحاق بهتّي في كتابه: (القاضي: ١٧٤) فقال:

ذات يوم بين راوٍ ثقة أن القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيّام إقامته في مدينة النبي ﷺ في حجته

الأولى سنة ١٩٢١م، كان يخرج من المسجد -وهو يتكلّم مع إمام من أئمته تعرّف عليه- ولما وصل إلى الباب، وانحنى لأخذ نعوله، فأسرع الإمام ووضعها أمام القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وحاول القاضي أن يمنعه من هذا، قائلًا: ما هذا الذي فعلتَ وأنت تتبوأ مكانة عالية جدًا.

فتدمعت عينا الإمام، وقال: «أنت لا تعلم بأمر من فعلتُ هذا، إنّي سعدت البارحة برؤية النبي ﷺ في المنام، فقال لي: انظر! محمد سليمان ضيفي أنا، فأكرمه من كل وجه».

لا شكّ أن هذه الواقعة من المنامات، ولكن ذكرها الثقات من العلماء في كتبهم، فذكرتها والله أعلم.

هذا، ويقال: «كان القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يؤلّف هذا الكتاب، بعد قيام الليل في حالة الوضوء، متجهًا إلى القبلة». (القاضي: ١٧٣-١٧٥)

إشادة العلماء بالكتاب ومؤلّفه:

ولا ريب أنّ القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ألّف كتابه هذا في السيرة بعاطفة اتباع صاحبها، بغاية من الحبّ والأدب. إن كان القارئ يتمتع بطهارة القلب وصفاء الباطن، ويريد إرادة صادقة أن يستوعبَ نواحي مختلفة من السيرة النبويّة العطرة علمًا وفهمًا، ومنهجًا، وسلوكًا، فيشعر يقينًا بمطالعة هذا الكتاب أن كل كلمة منه تقع موقع القبول في قلبه، وتطير بها روحه فرحًا وسرورًا.

- **وقد أبدى العلّامة السيّد سليمان الندوي (صاحب «دائرة معارف في سيرة النبي ﷺ»)**. إعجابه بكتاب «رحمة للعالمين» في تقديمه للجزء الثالث منه، وهو مطبوع معه الآن، وكل فقرة من فقرات تقديمه تشيد بذكرالكتاب ومؤلّفه إشادة يفوح منها رائحة إعجابه بهما، بكلّ حبّ وإخلاص، منها:[1]

«اجتمعت في المؤلّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ نورانية الضمير مع الفكر المستنير، والكيفية الروحية،

---

(١) كذلك راجع ما تقدّم من مقاله الذي كتبه في مجلّة «معارف» بعد وفاة القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو يعتبر من أهم المقالات، التي كتبت في القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ. بقلم علم جليل مثله، معروف على مستوى شبه القارّة الهنديّة. (صلاح)

مع القابلية العقلية. فكان بعلمه عالمًا، وبقلبه زاهدًا، نظيفًا، شغوفًا بالدعوة والإرشاد، محبّا للصلح والسلام، متواضعا، لا يحبّ التظاهر بالعلم، وأعلى أوصافه كلّها، هو حبّه البالغ للنبي ﷺ، وتعظيمه وتوقيره.

ثمّ قال: بذلك يرى القرّاء كيف استُخدم قلم محبّ للرسول ﷺ، فسطر به في صحوة من الحبّ والاحترام، ويقظة من العلم والعقل، أبدع ما يُسطّر من النكات في السيرة، بكل دقة وبصيرة.

- **وأعرب السيّد أبو الحسن علي الندوي عن انطباعه حول هذا الكتاب، قائلًا:**

«مرّة وقع نظري على اسم كتاب «رحمة للعالمين» في قائمة مكتبة شبلي التجارية في لكناؤ، للقاضي محمّد سليمان المنصورفوري، ووجدت في نفسي فور قراءة اسمه انجذابًا وشوقًا إليه، فطلبت الكتاب بالبريد، وجاء الكتاب، ولم يكن عند والدتي ما تدفع به ثمن الكتاب، فاعتذرت عن تسلُّم الكتاب، فلجأتُ إلى البكاء، وهو ملجأ الأطفال الأخير، والشفيع الذي لاتُردّ شفاعته، وتطوَّع أحد الأقارب الشيوخ فدفع الثمن، حتى تسلَّمت الكتاب، وقرأته في شغف وشوق وانقطاع إليه، وتفانٍ فيه.

«وقلّما كان لكتاب آخر من التأثير في قلبي وعقلي، مثل ما كان لهذا الكتاب، فكان إخلاص المؤلّف وإيمانه، وطرازه الخاصّ في الدعوة والتربية، وبساطة حوادث السيرة وجمالها وتأثرها، الذي نفذ منه إلى جسمي وروحي تيار كهربائي.

وأرى أن هذا الكتاب من الكتب التي لها منَّة جسيمة عليَّ، وأنا دائم الترحُّم على المؤلّف، والدعاء له بالقبول عند الله تعالى، ورفع الدرجات». (في مسيرة الحياة: ٨١-٨٢)

وهو يعتبر هذا الكتاب من أغلى الأشياء عنده، وأقرّ ما وجد في قراءته، من اللذة التي تستغني عن بيانها الكلمات. (شخصيات وكتب: ١٣٩-١٤٥ تحت عنوان «الكتب التي عشت فيها»)

- **وقال الأستاذ أبو الأعلى المودودي:**

«وإن ألّفت في موضوع السيرة كتب لا تحصى، ولكن عدّة منها فقط تعتني بصحة وقائعها وأحداثها، وعلى رأس قائمتها: «رحمة للعالمين». (الأستاذ أبو الأعلى المودودي (-١٩٧٩م) «رحمة للعالمين» (ص: ٤٤) مقدّمة الشيخ ميان طاهر- مركز الحرمين).

- **وقال العلّامة الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري:**

«كان رائدَنا في كلّ وقت، البحثُ عما يستجدّ من علوم القرآن أو السنّة النبويّة، أو سيرة خير البريّة، فاطّلعت على كتاب باللغة الأردية بعنوان «سيرة رحمة للعالمين». «...فاخترت الشيخين، فترجموا لي بعض الصفحات، فألفيته ذا عبارات واضحة، ومعاني شيّقة، فاستخرت الله تعالى في ترجمته للعربيّة».

- **وقال فضيلة الشيخ مختار أحمد الندوي:** (أمير جمعية أهل الحديث لعموم الهند سابقًا) **في كلمة الناشر، عند الطبعة الأولى من الكتاب:**

«إن الكتاب الذي نقدّمه اليوم إليكم مترجمًا إلى العربية، هو أيضًا من آثار كاتب هنديّ، أفنى حياته كلّها، في حبّ الرسول ﷺ، ونقش رسوم حبّه في ثنايا هذا الكتاب، وهو يعتبر مصدرًا هامًّا في السيرة النبوية باللغة الأرديّة».

- **وقال فضيلة الأستاذ الدكتور يوسف عامر:** (قسم اللغة الأردية بجامعة الأزهر، ومترجم «دائرة معارف في سيرة النبي ﷺ):

«...ولم يهتم أصحاب «السيرة» (بالأردية) بتحرّي الدقة فيما ذكروا من روايات أو دراسة وتحقيق ما يكتبون عن السيرة النبوية...، ويستثنى من هذه المؤلّفات: كتاب سليمان المنصور فوري «رحمة للعالمين». (مقدّمة المترجم: ١/ ١)

- **وقال الأستاذ الدكتور مقتدى حسن ياسين الأزهري:** (رئيس الجامعة السلفية، ومدير مجلتها سابقًا) في كلمة المترجم للطبعة الأولى:

«قد تبوأ العلّامة المنصورفوري الصدارة في علوم إسلامية عديدة... وقد مكّنته إحاطته بالعلوم وتبحّره فيها من إثراء المكتبة الإسلامية بمؤلّفات لطيفة

نادرة. ومن أشهر مؤلّفاته وأمتعها: كتاب «رحمة للعالمين» الذي نتشرف اليوم بتقديمه إليكم، مترجمًا إلى العربيّة، في ثلاثة أجزاء.

خلفيّة التأليف في السيرة في القرن العشرين الميلادي:

- « قال مؤرخ شبه القارّة الهندية الأستاذ محمد إسحاق بهتي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«لما قُيّد شبه القارّة الهندية في القرن التاسع عشر الميلادي بسلاسل الاحتلال الإنجليزي، فنشأ من هذا الشرّ جانب الخير»، بحيث اكتظّت كل بقعة من أرضه من أهل العلم، وهم بدأوا يتقدّمون إلى منازل الرقيّ في كل فنّ من الفنون، ونزلت اللغة الأرديّة أيضًا في المعترك بكلّ قوّة ووضوح، واستقبلها الناس برحابة صدر، فخلال مدّة قصيرة امتلأ ذيلها بثروة العلم والأدب، حتى تأهّلت أن تسع مختلف العلوم والفنون، وتؤدّي واجب حلّ مشكلاتها بكلّ وضوح وصراحة على المستوى المطلوب.

ومن عجائب الأمور، أن شبه القارّة الهندية مهد الديانات والحضارات والثقافات المختلفة، وكان هذا القرن عصر المسابقات بينها. فكانت كل ديانة تنتقد الأخرى لإثبات أحقيتها، وكان النصارى و«آريه» (فرقة من الهندوس) على وجه الخصوص يستهدفون الإسلام ونبيّ الإسلام ﷺ، وكم من كتب ألّفت في الأردية والهندية والإنجليزيّة، تحتوي على اعتراضات ركيكة تافهة على النبي ﷺ، وهذا النوع من الجهد المنظّم لتشويه جماله في الصورة والسيرة لا يزال يبذل في اللغات الألمانية، والفرنسيّة والإيطالية والإنجليزيّة حتى الآن.

وفي هذا العصر قام علماء الإسلام بالتأليف في سيرة النبي ﷺ، فأكثروا خاصّة في الأرديّة، وكذلك في الهندية والإنجليزية أيضًا.

إذا ألقينا نظرة على قائمة فهارس هذه الكتب نرى كتاب «رحمة للعالمين» للقاضي محمد سليمان سلمان المنصورفوري لامعًا في رأسها، الذي يعتبر أهم كتاب وقوعًا في القلب لانفراد أسلوبه. (القاضي: ٣٤٣-٣٤٥ مختصرًا)

أوّل كتابٍ معتمد عليه في السيرة في الأرديّة:

- **قال الدكتور محمد ياسين مظهر الصديقي:**

«يبدأ العصر الذهبي للتأليف في السيرة النبويّة في الأرديّة من رأس القرن العشرين، ويتوّج بشرف أوّليّته القاضي محمد سليمان المنصورفوري، بحيث كتابه في السيرة من ذخيرة سعادته كلّها، أوّل كتاب خرج إلى حيز الوجود، ولو أنه كمل فيما بعد.» («مصادر السيرة النبويّة»: ٢/ ٥٨١)

- **وقال الدكتور أنور محمود خالد**، الذي بحث عن بعض الكتب في السيرة في أواخر القرن التاسع عشر، وجدها أقدم منه، وقال من بين هذه الكتب:

«ما تلقّى كتاب «رحمة للعالمين» للقاضي من الاشتهار والقبول، لم يحظ به أي كتاب آخر (باستثناء سيرة النبي لشبلي وسليمان الندوي)»[1].

(مصادر السيرة: ٢/ ٥٨١)

وقال الدكتور الصدّيقي بعد ذكر ما تقدّم:

«وعلى هذا، يعتبر القاضي رَحِمَهُ اللَّهُ حلقة مستحكمة من السلسلة الذهبية لأولئك المؤلّفين الأعلام في السيرة، الذين حاولوا إيفاء ما يقتضيه هذا الفنّ العظيم من الشروط على المستوى المطلوب.

ولم يقتصر على أنه راجع المصادر الأصلية للسيرة النبويّة، بل استفاض من المراجع الأخرى أيضًا، وفتح آفاقًا جديدة في السيرة بتحقيقاته وتعبيراته، وأثراها بإمكانيات ووسائل واسعة لم تكن معهودة من قبل.

كان مجال المؤلّفين في السيرة قبله هو ما يُسْرد في الاحتفال بمولد النبي ﷺ، أو جمع وقائع السيرة بأسلوب عام، إما فيه ردّ على هفوات المستشرقين وثرثرة الناقدين، أو قصد لبيان ما تحتاج إليه عامّة القرّاء، بأسلوب لا يمتّ إلى العلم والتحقيق بصلة.

فمأثرة عظيمة من مآثر القاضي رَحِمَهُ اللَّهُ، أنه اختار في السيرة أسلوبًا علميًّا، سهلا مسهّلا، مع البحث والتمحيص، والتحقيق والتدقيق.

---

(١) **(ملاحظة)**: عبارة مابين القوسين لعلّها من زيادة الصديقي، فوجب التنويه بها.

ومن خصائصه أيضًا، التي جعلته مع تمتعه بالقبول وذياع الصيت، أنه يحتلّ مكانة الأوّلية والأفضليّة في تأليفه في السيرة بأسلوب علميّ ناجح». (مصادر السيرة: ٢/ ٥٨١-٥٨٢)

- **قال الدكتور مشعل محمد الحداري، وهو يبين مميزات «رحمة للعالمين» للمنصورفوري:**

سيلمس القارئ الكريم بعد تجوله في ثنايا هذا الكتاب جملة من المآثر التي امتاز بها المُؤلف ومؤلَّفه، ومنها:

١- الثقافة العالية لمؤلفه، فهو مع انشغاله بأعباء القضاء منذ حداثة سنه إلا أنه برع في علوم الشريعة الإسلامية -لا سيما السيرة النبوية-، والفلك والتقاويم، ومقارنة الأديان، مع الإحاطة التامة بالقانون الوضعي بشقيه الأوربي -وخاصة البريطاني منه- والهندي.

٢- الحس الدعوي سواء الموجه منه لأبناء المسلمين، أو لسائر المدعوين من الملل الأخرى.

٣- الإلمام بمضامين كتب أهل الكتاب، بل وأصحاب الديانات المشهورة، لا سيما ما كان منها في القارة الهندية.

٤- صراحة المؤلفة في الرد على الخصوم، ولو كان هو يتعلق بالحكام الإنجليز أو السيخ، مع التزامه بآداب المناظرة، ورصانة المحاورة، وعمق الطرح.

٥- مهارة المؤلف في علم الفلك وتوظيفه لحل المشكلات والخلافات بين الأقوال المتكافئة في موضوعه.

٦- يمثل الكتاب صورة حية لمرحلة مجهولة من التاريخ الإسلامي في القارة الهندية، والجهود الجليلة التي بذلها علماؤها في مختلف المجالات، وكيف كانوا يرفدون الجهاد بالسنان والبنان.

٧- ضرب المؤلف أروع الأمثلة في الصورة الحية لعلماء الإسلام المخلصين -نحسبه والله حسيب كل مؤمن-، وكيف تكون الاستقامة في الظاهر والباطن رافدًا للإسلام والمسلمين حتى في أضعف وأصعب الظروف، وأنه لا مكان للمتخاذلين في القيام بواجب النصح لله ورسوله.

من خصائص كتاب «رحمة للعالمين»(١)

١- **اسمه مأخوذ من قول الله تعالى** ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وهو اسم يدلّ على مسمّاه صراحة من غير لبس، ويُظهر أن هذا الوصف يوجد في النبي ﷺ على وجه الكمال والتمام.

٢- **اطلع مؤلّف** «رحمة للعالمين» على ما تيسّر له من المصادر والمراجع، مع الإحالة عليها، وهي لم تكن معتادة في وقته، وأخذ منها ما هو صحيح ثابت، أو أقرب إلى الصواب عنده إلا ما ندر.

٣- **لا يخفى على القارئ** أنه كتب فضائل النبي ﷺ ومناقبه ومحامده ومحاسنه بكلّ حبّ واعتقاد.

٤- **الجزء الأوّل من الكتاب** طبع سنة ١٩١٢م، والثاني سنة ١٩١٨م، والثالث وهو الأخير طبع سنة ١٩٣٣م بعد وفاته سنة ١٩٣٠م، في هذه الفترة الدقيقة من الزمن، كان مبلّغو الهندوسية، واليهوديّة، والنصرانية، يشنّون هجمة شعواء متتالية على الإسلام ونبيّ الإسلام، وكانوا يعتبرون نقد التعليمات الإسلامية، والتوجيهات النبويّة أوّل واجب عليهم.

وبما أن المؤلّف الفاضل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان مطلعًا على اعتراضاتهم وشبهاتهم، يردّ عليها في هذا الكتاب بغاية من الرزانة والأدب، وكما أنه يدافع عن النبي ﷺ في ضوء الأدلّة الموجودة في كتبهم أنفسهم، كذلك يورد على ما في كتبهم من مخالفات أيضًا بكل حكمة ومتانة.

---

(١) راجع لهذا المبحث:

كتاب «القاضي محمد سليمان المنصورفورى» للأستاذ محمد إسحاق بهتي (٣٤٦-٣٤٩)، ومصادر السيرة النبوية: «للدكتور محمد ياسين مظهر الصديقي (٢/ ٥٨٨-٥٩٣).

٥- **أثبت في الكتاب بالتفصيل** بالدلائل الواضحة، والبراهين المستحكمة، أن الله سبحانه وتعالى جمع في النبي ﷺ محاسن الأنبياء أجمعين، استدلالًا بقوله تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ [الأنعام: ٩٠].

٦- **التزم المؤلّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بتذييل الوقائع** والأحداث بالمصادر والمراجع الإسلامية من كتب الحديث والسير والتراجم، كذلك أحال على كتب اليهود، والنصارى، والمجوس والهندوس أيضًا، إن أخذ منها شيئًا، ما يدلّ على اطلاعه الواسع على مصادر الديانات الأخرى.

٧- **انفرد المؤلّف في كتابه هذا** بتعين تأريخ ولادة النبي ﷺ، ووقتها، وفصلها - وهوالربيع- بحكم الحساب الفلكي، موافقًا لعام الطوفان، والعام الإبراهيمي، والعبراني، واليهودي، والميلادي، وعام الفيل، والعام النوشيرواني، والبكرمي الشمسي الهندوسي، والسكندري، والبخت نصري، و«جولين بيريد» الإنجليزي، وكل جك الهندوسي.

وعلى هذا عدّ أيّام حياة النبي ﷺ من يوم ولادته السعيدة إلى يوم وفاته ﷺ فبلغت حسب تحقيقه إلى (٢٢٣٣٠) يومًا، وستّ ساعات من اليوم الواحد والثلاثين.

وبلغت أيّام إبلاغ الرسالة والنبوّة إلى (٨٦٥٦) يومًا.

وهذا التحقيق الفلكي لتحديد أيام حياة النبي ﷺ من ولادته المباركة إلى وفاته ﷺ، لا يوجد عند غيره، ولم يقم به أحد قبله من مؤلّفي السيرة قديمًا وحديثًا. فلله درّه، وعليه برّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٨- **ذكر اختلاف أهل السير** في تعيين تأريخ ميلاد النبي ﷺ، ثمّ اختار أن يوم الاثنين يوافق التاسع من ربيع الأوّل من عام الفيل، وأثبت ذلك بالدلائل التقويمية. ورجّحه شيخنا صفي الرحمن المباركفوري في كتابه «الرحيق المختوم»، اتباعًا للقاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهكذا رجّحه العلّامة شبلي النعماني والسيّد سليمان الندوي أيضًا في «دائرة معارف في سيرة النبي ﷺ».

٩- **لغة الكتاب كانت في عصره** تتميّز بالفصاحة والبلاغة، وبالأسلوب الأدبيّ الرائع

المؤثر الأخّاذ، وليست هي الآن، كما كانت قبل قرن وربع قرن من الزمان تقريبًا، وذلك لهبوط المستوى العلميّ العام.

١٠- **هذا أوّل كتاب معتمد عليه في السيرة** (بالأردية)، أدخل بعد طبعه في مناهج المدارس الدينيّة مثل «ندوة العلماء» بلكناؤ، دار العلوم بديوبند، والكلية الإسلامية، وثانويتها التابعة لحماية الإسلام بلاهور، وكذلك في الجامعات الرسميّة، مثل الجامعة العثمانية (حيدر آباد دكن)، وجامعة على كره الإسلامية، والجامعة العبّاسيّة (الآن الجامعة الإسلامية) (بهاول فور) والجامعة الملّية (دلهي)، ودرّسوه الطلبة درسًا درسًا.

١١- **طبع الجزء الأوّل من الكتاب سنة ١٩١٢م**، ولم يعلن له في أي جريدة أو مجلّة، ولكن الأفاضل من العلماء والمثقفين، تلقوه بالقبول، بحيث طبعت طبعات متعددة إلى سنة ١٩١٦م، ما لم يحصل لغيره من الكتاب في ذلك الوقت.

١٢- **اختار المؤلّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الكتاب** كلّه أسلوبًا إيجابيًّا، وقدّم نتيجة بحثه وتحقيقه في ضوء الوقائع والأحداث الثابتة: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤﴾ [الجمعة: ٤].

١٣- نقل هذا الكتاب بعد وفاته مؤلفه بزمن يسير إلى الإنجليزية وغيرها من اللغات العالمية الحيّة، وعلى رأسها اللغة العربية، التي تم نقله إليها قبل نحو ثلث قرن من الآن.

من معنويات كتاب «رحمة للعالمين»

١- **من معنويات** «رحمة للعالمين» إيراد روايات ثابتة، ووقائع صحيحة قدر الإمكان، وإن لم يكن مؤلّفه حاصلًا على شهادة العلوم الدينيّة، بل كان من خريجي الجامعات الرسميّة، مع هذا اختار مصادر كتابه ومراجعه بكل حيطة، وأخذ منها بكل حذر.

٢- **من خصائصه الجلية**، أنه لا يدرس «السيرة النبوية» في ضوء بعض الاتجاهات المشهورة، والزوايا المقبولة، بل يذكر هذه الاتجاهات والزوايا في ضوء الاستدلال والاستشهاد، ويختار في بعض المباحث المهمة أسلوبًا نزيهًا، وطَرَازًا جدّ جديد.

على سبيل المثال:

- يبحث في تأريخ ميلاد النبي ﷺ على الطريقة التقويمية، يبرز أهميّة يوم الاثنين في حياة النبي ﷺ.
- ويرى أن البعثة النبوية، وتنزيل القرآن حادثان مختلفان، فالبعثة بدأت من أوّل نزول جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ في غار حراء ولقائه مع النبي ﷺ.
- وأما نزول القرآن عليه فبدأ بعد مدّة (وهي ستة أشهر)، وكذلك يرى أن لقاء النبي ﷺ مع ورقة بن نوفل كان قبل نزول القرآن. وهذا أقرب إلى الصواب في ضوء الأدلة.

٣- **من كمال** «رحمة للعالمين» أنه لا يعتبر «السيرة النبوية» مجرّد صحيفة، تذكر فيها الأحداث حسب الترتيب الزمني فقط، بل يحاول أن يقدّمها كنموذج للتمدّن والثقافة والحضارة والاجتماع في التأريخ الإسلامي.

٤- **يُرى الكتاب ناجحًا جدًا** في مقابل الكتب الأخرى، في تصوير الزمن ما قبل البعثة، بأن العالم فيه كان يتخبط في ظلام الجهل الحالك، وكان في أمسّ حاجة إلى شمس نيّرة، وقد حلّت السيرة النبوية المطهرة محلّها لإخراج الناس من الظلام إلى نور الإسلام.

٥- **لا يبحث** «رحمة للعالمين» في«**السيرة النبوية**» كأحداث ماضية لترجمة ذاتيّة محضة، بل

يدرسها من وجهة النظر الإسلامية الواسعة، فيذكر مع أحداث السيرة، من المعلومات الأخرى، ما لا صلة له بها في بادئ النظر، ولكنه يشير به إلى أمور مهمة عنده من بيان محاسن الإسلام، والدفاع عن نبيه ﷺ، والردّ على الديانات الأخرى بكل هدوء ورزانة وأمانة.

٦- **إن كان قلب القارئ صافيا، فتنزل عليه كلمات** «رحمة للعالمين» موضع القبول، لما فيها من التأثير البالغ في حبّ النبي ﷺ.

٧- حاول القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ صياغة النظرة القرآنية للتأريخ، وعرض الوقائع والتطبيقات والشواهد التأريخية عليها.

٨- يشير المؤلف إلى السنن والنواميس والقوانين الاجتماعية، التي تحكم حركة التأريخ، لأن القرآن الكريم لفت نظر المسلمين إلى ذلك كلّه بوضوح.

٩- يقف هذا الكتاب وقفات حسب المقام، فيزوّد فيها بإشارات إيمانية معبرة، ولمسات تربويّة هادفة، ويقف عند الآيات والأحاديث والمرويات التأريخية بعد سردها، ليشير إلى فقهها ودرسها.

الردّ على الشبهات المثارة ضدّ الإسلام ونبيّ الإسلام

(١)هل القرآن مجموع أساطير الأوّلين:

• أثبت بالمقارنة بين نصوص القرآن الكريم، ونصوص الأناجيل الموجودة، الواردة في الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، بأن ما يبيّنه القرآن في قصص الأنبياء، مع الثناء عليهم، والاعتبار بجهودهم في الدعوة إلى الله، خلاف ما هو موجود في الأناجيل في أغلب الأحوال مع النيل منهم، ونسبتهم إلى بعض الشائنات، التي لا تليق أبدًا بمكانة النبوّة والرسالة.

هذه المقارنة تردّ على أهل الكتاب وغيرهم، من المستشرقين ومن لفّ لفهم من الملاحدة، وببغاوات الشرق، بأن القرآن مأخوذ من الكتب السابقة، وأن محمدا ﷺ أخذه من أساطير الأوّلين، ثم صاغه صياغة من عند نفسه، وبأسلوبه الخاص، وبدأ يتلوه على مسامع الناس.

وكذلك يقولون: إن النبي ﷺ أخذ العلوم من بحيرا الراهب، وورقة بن نوفل، فردّ عليهم بأن لقاء بحيرا مع النبي ﷺ كان لساعة، إذا أقرّ.

وأما ورقة فمات قبل نزول وحي القرآن الكريم.

(٢)جمع الله تعالى في النبي ﷺ خصائص الأنبياء كلّهم:

• ذكر الله تعالى الأنبياء بخصائصهم وفضائلهم وبما تميزوا به في عصورهم، ثم أمر النبي ﷺ بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]. وقد استدل المؤلّف بهذا على أن النبي ﷺ امتثالا لأمر الله تعالى اقتدى بهديهم، وحاز خصائصهم وفضائلهم جميعًا.

(٣)اعترضوا على الإسلام بأنه دين العجز والكسل ليس دين العمل:

- فذكر بالتفصيل أحكام الميراث، وبين الفروض الستة، وردّ عليهم بأن الدين، الذي لا يعلّم الناس العمل، والتجارة، والزراعة، وكسب الرزق، فلماذا وكيف يعلّمهم هذا التقسيم المالي بين ورثتهم.

- ثمّ ذكر الأثرياء من الصحابة أمثال: عثمان بن عفّان، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوّام رضي الله عنهم، وذكر ما كانوا ينفقونه في سبيل الله بسخاء وطيبة نفس.

(٤)ذكر تعدّد الزوجات:

- فذكر معدّدين من الأنبياء والرسل من أهل الكتاب من اليهود والنصارى وكذلك الهندوس بالتفصيل، فلماذا يستهدف الإسلام ونبيّ الإسلام محمد ﷺ فقط.

- ذكر أن تلك القبائل التي تزوج فيها النبي ﷺ، حظيت بسعادة الإسلام، بعد أن كانت نشيطة في الشرك والكفر.

(٥)ذكر استياء النصارى من زواجه من زينب بنت جحش رضي الله عنها:

هي كانت بنت عمته وزوج متبنّاه: زيد بن حارثة. والسبب أن الإسلام ألغى نظام التبنّي، لأنه خلاف الفطرة، والبنوّة الحقّة لا تثبت إلا بالدم.

- ثمّ بين المؤلّف أن سبب استيائهم من إلغاء التبنّي، أن فيه ردًا بالغا على عقيدتهم

أن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ابن الله، بحيث أن أحدًا ممن خلقه الله الحيّ القيّوم الواحد الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، كيف يكون ابنًا له.

(٦) **لم تكن غزوات الإسلام مجرّد حروب** لإكراه الناس على الدخول في الإسلام، بل الحقيقة أن **جميع الحروب وقعت بين إخوة النبي ﷺ** من أجداده من العرب. لذا لا يقال إنه أشعل نارها لإكراه الناس على اعتناق الإسلام، لأنه لو كان الأمر كذلك لوقعت الحروب -دفاعية أو عدوانية- ضدّ القبائل العربية الأخرى، غير قريش، أو من فوقهم من بني إلياس بن مضر.

بل أقرباء النبي ﷺ هم الذين اضطرّوا المسلمين للهجرة إلى الحبشة مرّتين، ثم إلى المدينة.

وأما الحروب مع اليهود فكان لنقضهم العهود، ومع النصارى فكانت في الظاهر هجومية، ولكن الحق أنها كانت استباقية، لأنهم أعدّوا العدّة من قبل، وتحرّكوا لاستئصال الإسلام من جزيرة العرب.

(٧) **ذكر المؤلّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إيذاء المشركين** ممن أسلموا في أوّل الأمر، إيذاء شديدا، وعلى رأسهم النبي ﷺ، وهذه الإيذاءات الهمجيّة، التي كانت تلقّاها المسلمون لم يحل دون دخول أهل مكّة في الإسلام، في هذه الفترة العصيبة من الزمن أيضًا.

نظرًا إلى هذه الحقيقة مَن من العقلاء يستطيع أن يقول: إن الإسلام انتشر بالسيف؟

من أهم التحقيقات التي قلّما توجد في غيره من الكتب:

طبع الجزء الأوّل منه في سنة ١٩١٢م، فقد تطرّق المؤلّف في كتابه هذا، إلى بعض المواضيع التي لم تكن تذكر في كتب السير و التراجم بهذه الدقّة بحثا وتحقيقا، منها:

- **أثبت المؤلّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بالواقع** بأنه من زمن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى النبي ﷺ لم يأت أحد يدّعي أن اسمه «أحمد»، المبشّر به في الإنجيل. وهذا يدلّ على أن المبشّر به هو نبيّنا ﷺ.
- **أكد على أن أم إسماعيل أبي العرب:** هاجر عَلَيْهَا السَّلَامُ لم تكن أمة، بل كانت بنت الملك الجبّار، الذي أراد سوءا لسارة عَلَيْهَا السَّلَامُ، ولم يقدر عليه، فتيقّن أن هذه العائلة كريمة عند الله تعالى، فأخدم سارة ابنته لخدمتها، لتتربّى في وسط هذه العائلة الفاضلة، وتتزوّج هناك، (وكان أصله أيضًا من بابل مثل إبراهيم).

و أما ما ورد في حديث الصحيحين: «فأخدمها هاجر» (البخاري: ٢٦٣٥، ٣٣٥٨، ومسلم: ٢٣٧١) فالخدمة لا تدلّ على أنها كانت أمة. وكل ذلك بين المؤلّف بالأدلة من التوراة والإنجيل أيضًا.

• **كلّ المؤلّفين أو جلّهم** يذكرون نسب النبي ﷺ إلى عدنان، أو إلى إبراهيم، أو إلى آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وامتاز مؤلّفنا مع ذكر آباء النبي ﷺ إلى آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، بذكر أمهاته الكريمات أيضًا، وآبائهن وأمهاتهن في صورة جداول مفصّلة، وكذلك يوجد جدول نسب أمّه الكريمة آمنة بنت وهب، مع ذكر آبائها وأمهاتها، وذكر فيه الجدّ الذي تلتقى به مع النبي ﷺ.

• **ذكر جدولًا لأمهات المؤمنين**، مع التنصيص على الجدّ، الذي تلتقي به كل منها مع النبي ﷺ، ومتى تزوّجها، وكم كان عمرها عند الزواج ومتى توفيت، وكم عاشت مع النبي ﷺ، وكم كان عمرها عند وفاة النبي ﷺ.

• **ذكر جدولًا للغزوات والسرايا** حسب التسلسل الزمني، يحتوي على إحدى وثمانين غزوة وسرية، مع بيان أمير كل منها، وكم كان قوام الجيش في الجانبين، وكم من رجال قتلوا فيها من الجانبين.

• **ذكر المؤلّف أنّ عدد القتلى** في هذه الغزوات والسرايا كلّها (ألف وثمانية عشر) قتيلا، وعدد الأسرى (٦٥٦٤)، منهم ستة آلاف من غزوة حنين فقط. وغيرهم، إما عفي عنهم، أو أُطلق سراحهم بعد أداء الفدية. ولم يقتل من الأسرى إلا اثنين فقط، وذلك لجرائمهما السابقة.

ثمّ قارن هذا العدد من القتلى والجرحى، بما قتل من الملايين المملينة في الحرب العالمية الأولى خلال أربع سنوات، وعلّق عليه بأن الغزوات والسرايا في الإسلام خلال عشر سنوات كان فيها عدد القتلى (١٠١٨)، **فالشائعة أن الإسلام دين انتشر بالسيف، وأنه دين دمويّ، مجرّد مؤامرة حيكت ضدّ الإسلام والمسلمين.**

• **هذا، وقد عاش المؤلّف** رَحِمَهُ اللَّهُ في زمن الاستعمار البريطاني في شبه القارّة الهندية: فكان بحكم منصبه يجالس كبار المسؤلين من الإنجليز والهنادك والسيخ أيضًا مع كرههم.

وكان دائمًا يعتز بعقيدته، ودينه، ونبيه ﷺ، ووصفه هذا يتجلّى في كتابه «رحمة للعالمين» بحيث لا تفوته مناسبة إلا أنه يذكر محاسن الإسلام في كل مجال من مجالات الحياة الإنسانية، بكل ثقة واعتماد في ضوء السيرة النبويّة المطهّرة، مع مقارنتها بما هو وارد في ذلك المجال في كتب الديانات الأخرى.

- **وبما أنه مطلعٌ على التوراة والإنجيل والزبور**، وكذلك على كتب الديانات الأخرى من الهنادك والبوذية والمجوسية، وغيرها اطلاعًا واسعًا، يقارن بينها وبين نصوص القرآن الكريم والسنة المطهّرة، **ويتحدّى الهيئات القانونية الدولية أن تفصل في القضايا المطروحة، قائلا:**

«إني أرجو جميع المجالس التشريعية، والحكومات المدّعية للأصول والمبادئ في العالم، أن تنظر في هذه الشرائع الثلاث، ثم تقدّم تقاريرها، وتبيّن أيًا منها أكمل وأشمل» (رحمة للعالمين: الجزء الثالث).

من حبّ المؤلّف لله تعالى ولرسوله ﷺ أنه يقول:

«كما يذكر مع اسم الجلالة «وحده لا شريك له»، ومع اسم محمد ﷺ «عبده ورسوله».»

فاللهم إنّي أيضا أكرّر كلمة الشهادة في هذا الموضع، وأودعها إلى خزائن رحمتك أمانة: «أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمّدًا عبده ورسوله، رضيت بالله ربّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمّد ﷺ نبيًّا، وبالقرآن إمامًا.» (رحمة للعالمين: الجزء الثالث).

محتويات «رحمة للعالمين»:

محتويات كتاب «رحمة للعالمين» لا تختلف عن محتويات كتب السيرة الأخرى، إلا أنه يهتمّ غاية الاهتمام عند ذكر أي حادث من أحداث السيرة النبوية العطرة بإبراز محاسن الإسلام، ومحامد نبيّه ﷺ، مستدلّا بآيات القرآن الكريم، ونصوص الحديث الشريف، وبمحتويات التوراة والإنجيل وغيرهما من مصادر الديانات الأخرى أيضًا.

وكل ذلك بأسلوب علمي هادئ، يثلج صدور أهل الإسلام، ويردّ هفوات المستشرفين وغيرهم من ببغاوات الشرق، ضدّ ثوابت الإسلام وشرائعه الموافقة للفطرة الإنسانية. وتقدّم ذلك بشيء من التفصيل بعنوان «خصائص كتاب «رحمة للعالمين» ومعنوياته آنفًا.

وفيما يلي ذكر أبواب الكتاب بالاختصار:

- **الجزء الأوّل:**

المقدّمة:

تحتوي على بيان تأريخ الجزيرة العربيّة ما قبل المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ بألفي سنة، وجغرافيتها، وذكر أحوالها السياسية والخلقيّة والدينيّة، ثم من ولادة النبي ﷺ إلى هجرته إلى المدينة، وما وقع خلال هذه السنوات الثلاث عشرة من الوقائع والأحداث.

الباب الأوّل: معاهدة بين الأمم ومؤامرات قريش وهجماتها، ونقض اليهود للعهد، ونجاح المسلمين، وحرّية الدعوة إلى الإسلام، وتحته فصول عديدة.

الباب الثاني: إرسال الرسل إلى الملوك من أتباع الديانات الأخرى من مختلف البلاد للدعوة إلى الإسلام، ومواقفهم من الدعاة.

الباب الثالث: قدوم وفود القبائل إلى النبي ﷺ.

الباب الرابع: أهم أحداث العهد المدني (وهو عشر سنوات) ووفاة النبي ﷺ.

الباب الخامس: خلق النبي ﷺ.

يعتبر هذا الجزء الأوّل بحكم مضامينه وموّاده في موضوع السيرة أجمع أشمل.

- **الجزء الثاني:**

الباب الأوّل: في نسب النبي ﷺ إلى آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وخاصّة نسب بني هاشم وآل النبي ﷺ.

الباب الثاني: أمّهات المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ، ومنهاج النبوّة في تعدّد الزوجات. (باب مهمّ جدّا).

الباب الثالث: الغزوات والسرايا (باب مهمّ جدّا).

الباب الرابع: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنعام: ٢٥].

الباب الخامس: أفضلية سيّد المرسلين.

الباب السادس: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

الباب السابع: حبّ النبي ﷺ.

الباب الثامن: ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۝٥﴾ [يونس: ٥].

توجد في كل باب من أبواب الجزء الثاني جداول توضّح ما في الباب من المواضيع، ما لا يوجد في غيره من الكتب، وهي من الأهمية بمكان.

- **الجزء الثالث:**

الباب الأوّل: خصائص النبي ﷺ في القرآن والحديث.

الباب الثاني: خصائص القرآن الكريم.

الباب الثالث: خصائص الإسلام.

توجد في ثنايا أبواب هذا الجزء من النكات والاستنباطات ما لا يوجد في غيره.

هذا مجرّد سرد لأبواب الكتاب، وإلّا في كلّ باب يوجد ما يحيّر العقول، ويثلج صدور أهل الإسلام.

كلمة الناشر للطبعة الأولى

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمّد ﷺ، الذي أرسله رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فمن الحقائق الثابتة التي لا يختلف فيها اثنان، أن شخصية الرسول ﷺ هي أكبر وأسعد شخصية في العالم، اعترف بفضلها كل طبقة من طبقات الجنس البشرى، دون تفريق بين الأديان والأوطان والألوان...وقد عبّر كل واحد منهم عن حبه بشتى الصور، بالدموع والدماء، والتضحية والفداء، والسنان والقلم.

هذا الكتاب الذي نقدّمه اليوم إليكم، **هو أيضًا أثر من آثار كاتب هنديّ، أفنى حياته كلّها، في حبّ الرسول ﷺ، ونقش رسوم حبّه في ثنايا هذا الكتاب، وهو يعتبر مصدرًا هامًّا في السيرة النبوية باللغة الأردية.**

ونحن إذ نزوّد القراء بهذا السّفر القيّم، نشكر فضيلة الشيخ العلّامة عبد الله بن إبراهيم الأنصاري حفظه الله وتولّاه، الذي يرجع إليه الفضل في تقديم هذا الكتاب إلى قرّاء العربية، وأشرف عليه وراجعه جماعة من العلماء عنده، فنشكر فضيلته على ذلك، وندعو له بدوام الصحّة والعافية، وندعو الله عزّ وجلّ أن ينفع جميع الناس بهذا الكتاب، ويجعله وسيلة نجاة لمن عمل عليه، ترجمة، وإشرافًا، ونشرًا، ويرزقنا الإخلاص في أعمالنا. «آمين يا ربّ العالمين». (مختصرًا).

١٨/ ١/ ١٤١٠هـ — **مختار أحمد الندوي**

٢١/ ٨/ ١٩٨٩م — **المدير العام للدار السلفية**

بومبائي-الهند

كلمة الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاريّ

(في بيان السبب لنقل كتاب «رحمة للعالمين» إلى العربيّة)

الحمد لله الذي أنار قلوب أحبابه بنور المعرفة، وألهمهم من العلم ما يرشدهم إلى طريق الخير والصواب، فسبحانه خلق الإنسان علّمه البيان، وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، علّم الإنسان ما لم يعلم.

وأشهد أنّ سيّدنا ونبيّنا محمّدًا عبده ورسوله صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه: صفوة الخلق من أمّة سيّد الأوّلين والآخرين، الذين قال فيهم رسول الله:

«... **لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا لم يبلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه**». [البخاري: ٣٦٧٣، مسلم: ٢٥٤٠، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ].

اللهم صلّ على سيّدنا محمّد، وعلى آله، وأصحابه، وسلّم تسليمًا كثيرًا..

وبعد:

فلما كان رائدَنا في كلّ وقت، البحثُ عما يستجدّ من علوم القرآن أو السنة النبوية، أو سيرة خير البريّة، وكنت أبحث عن ذلك إذ أنه كما قيل:

كلّ له غرض يسعى ليدركه
والحرّ يجعل إدراك العلى غرضا

لذلك، فبحثي كان مستمرّا في الحلّ والترحال والإقامة والسفر، وفي البادية والحاضرة عن نوادر الكتب، وبينما كنت في أحد تجولاتي في الهند، وعند لقائي بالأخ الفاضل **الشيخ مختار أحمد الندوي في بومبائي، اطّلعت على كتاب باللغة الأردية بعنوان «سيرة رحمة للعالمين»** لأحد العلماء القدامى، وهو: «**القاضي محمد سليمان سلمان المنصورفوري**»، **فهتف قلبي بالحبّ لمعرفة عباراته**، فاخترت شخصين من العلماء الموجودين لدى الشيخ مختار أحمد الندوي، فترجموا لي بعض الصفحات، فألفيته ذا

عبارات واضحة، ومعاني شيّقة، فاستخرت الله تعالى في ترجمته للعربية.

وفعلا استعنّا بالله، ثمّ بمعلومات الشيخ الفاضل مختار أحمد الندوي، فأحضر لي عالمين جليلين، يقتنع بإدراكهما في اللغة العربية والأردية، وهما:

١ - **الدكتور مقتدى حسن الأزهري**، وكيل الجامعة السلفية في بنارس.

٢ - **الأخ الفاضل عبدالسلام عين الحق السلفي** رئيس قسم الترجمة في الدار السلفية بومبائي.

فقرّرنا معهما ترجمة الكتاب إلى اللغة العربيّة، وفعلا اهتمّ أخونا الفاضل الشيخ مختار في الموضوع، وسرعان ما واجهنا بالجزء الأوّل، مترجما بعد ثلاثة أشهر، فراجعناه وأهبناه، فسلّمنا للطبع للشيخ مختار الندوي، ليقوم بإنجازه.

وما ألطف قصّة ذكرها أخونا الفاضل شيخنا (أبو الحسن علي الندوي) يقول -حفظه الله تعالى- بالاختصار:

«إنّي رأيت هذا الكتاب يحمله صاحب البريد في وقت الطفولة، وأنا ابن اثنتي عشرة سنة تقريبًا، فرأيت العنوان، واشتقت إليه تصفحت بعض صفحاته، فما استطعت أن أترك الكتاب من شوقي إليه، فسألت حامل البريد، فقال: إنه يريد فيه كذا وكذا، وأنا لا أملك آنذاك شيئًا من القيمة المذكورة...حتى هيّأ الله لي شخصا فرّج عني كربتي، فأعانني بقيمة الكتاب. فما أغلى تلك القيمة، وما أفضل إحسان الدافع لي هذا المبلغ اليسير، فكأنني ملكت كلّ ما أصبو إليه من كتب العلم. وكانت -والله- ذخيرتي المطلوبة، حيث شرعت في مطالعتي لهذا الكتاب، ووجدت نعم المشوق، ودعوت الله تعالى لمؤلّفه ولمن يهتمّ بنشره.» [تقدّمت هذه القصّة من رواية الأستاذ أبي الحسن الندوي نفسه]

الحقيقة، أن هذه القصّة أيضًا، هي لها علاقة بتسخير الله لنا في ترجمة وطبع هذا الكتاب.

ونسأل الله تعالى أن يعيننا على إتمام طبعه ونشره، وأن يرزقنا الإخلاص في الأقوال والأعمال، ولا ننسى أن نشكر أخانا الفاضل مرّة أخرى وهو الشيخ مختار الندوي، على إرشادنا لهذا الكتاب، ولأمثاله من كتب العلم النافعة، وعلى قيامه بالطبع والنشر على حسابنا، وحسابه، فلله الحمد والثناء، ومن الله نستمدّ التوفيق والعناية، والله من وراء

القصد، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، سبحان ربّك ربّ العزّة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله ربّ العالمين.

قاله خادم العلم

عبد الله بن إبراهيم الأنصاري

كلمة المترجم (للطبعة العربية الأولى)
حياة العلّامة المنصورفوريّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ

الدكتور مقتدى حسن ياسين الأزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ

هو العلّامة الشيخ القاضي محمّد سليمان سلمان[١] بن القاضي الحاج أحمد شاه المنصورفوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ من سكان مدينة «بتياله» في ولاية بنجاب، من أعلام السلفيين في شبه القارّة الهندية الذين تعتز بهم القارّة بل العالم الإسلامي كلّه، وذلك لما بذل من الجهود الطيّبة في نشر الدعوة الإسلامية وعلوم الكتاب والسنّة، وفي الردّ على أهل الزيغ والضلال من الوثنيين الهنود والنصارى والقاديانيين وأمثالهم، أحسن الله له الجزاء وأسكنه جنّة الفردوس.

وقد تبوّأ العلّامة الصدارة في علوم إسلامية عديدة من التفسير، والحديث، والتأريخ، والفقه، والسياسة، ومقارنة الأديان والمناظرة. وكان بارعا في الكتابة والخطابة وقرض الشعر، وكذا مضطلعا بالثقافة المعاصرة اللازمة. عرف بشغفه بالقرآن الكريم، وتمكّنه من تفسيره تمكنا تامًّا، يلقي دروسه عن القرآن، فيعجب بها المستمعون. وكان عارفًا بدقائق الحديث وغوامضه، محيطا بوقائع التأريخ وأسبابها ومضمراتها.

وقد مكّنته إحاطته بالعلوم وتبحّره فيها من إثراء المكتبة الإسلامية بمؤلّفات لطيفة نادرة، لا تزال موضع إعجاب الناس وتقديرهم، ولا تزال فريدة في بابها، جديدة بمعانيها وأساليبها. ومما يدل على تمكّنه وتفوقه في مجال الكتابة والتأليف أنه قام بتأليف

---

(١) من عادة الشعراء في الفارسيّة والأرديّة، أنهم يختارون لأنفسهم لقبا غير الاسم الحقيقي، يعرفون به في دنيا الشعر، ويوردونه في البيت النهائي من القصيدة في الأغلب...، وهكذا اختار العلّامة المنصورفوري لنفسه، لقب «سلمان» يورده في نهاية قصائده الفارسيّة والأرديّة.

نحو ثمانين (٨٠) كتابًا في موضوعات إسلامية متنوعة سوى الرسائل القضائية التي كان يكتبها أداء لوظيفته في القضاء حيث كان قاضيًا في مدينة «بتياله».

من أشهر مؤلّفاته وأمتعها كتاب «رحمة للعالمين» في السيرة النبوية الذي نتشرف اليوم بتقديمه إليكم مترجمًا إلى العربية في ثلاثة أجزاء.

وكان العلّامة المنصورفوري معروفًا بأعمال الخير، متحليا بالفضائل، ليّنا سمحا، يتملك مشاعر الناس ويجذب قلوبهم بحسن سيرته ونبل خلقه، وكمال نزاهته وتعفّفه. وهذه النزاهة وهذا الوقار هما قد جعلا شخصيته يوقّرها الناس، ويبجّلونها ويتأدّبون نحوها.

وقد أثنى عليه كثير من العلماء المعاصرين له، ونكتفي هنا بما قاله العلّامة السيّد سليمان الندوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شأنه.

«كان العلّامة المنصورفوري جامعًا بين العلم والعمل، والزهد والكمال، والفضل والورع، متمتعًا بتوقد الخاطر ووفور العقل، معتدلا في نظرته إلى القديم والجديد، ذا بصيرة تامّة وإدراك واسع باللغة العربيّة، وعلوم الدين، ومطّلعًا على محتويات العهد القديم والعهد الجديد اطّلاعَ الناقد البصير الخبير، راغبًا في الحوار مع غير المسلمين، ملتزما بالرزانة والوقار في المناظرات مع أصحاب الديانات والفرق. وكان يحترم كثيرًا الأئمّة والمجتهدين ويقدّر جهودهم وأعمالهم العلمية». (ذكرى المرتحلين ص: ١٠٦ بالأرديّة).

والذي يدرس حياته وأعماله دراسة وافية شاملة، هو الذي يتمكّن من إبراز محاسنه وكمالاته على وجه التحقيق والتفصيل رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وأسكنه جنّة الفردوس، إنّه غفور رحيم.

كتبه: د. مقتدى حسن ياسين

الترجمة الثانية لكتاب «رحمة للعالمين»:
ما لها وما عليها
(بيان تلاعب صاحب الترجمة الثانية بالترجمة الأولى وجرأة ناشرها)

قد طبعت ترجمة كتاب «رحمة للعالمين» للعربيّة، سنة ١٤١٠هـ = ١٩٨٩م، في الدار السلفية (بومبائي)، بانتخاب الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، وقام بها العالمان:

- **شيخنا الأستاذ الدكتور مقتدى حسن ياسين الأزهري** (وكان مشتغلا بترجمته من قبل كما صرّح بذلك في مجلّة «صوت الأمة»).
- **الأخ الشيخ عبد السلام عين الحق السلفي** (تلميذ الأزهري، ورئيس قسم الترجمة في الدار السلفية.)

طبع الكتاب ووزّعت نسخه ونفدت.

كلمة ناشرها:

من المضحك المبكي، أنه صدرت ترجمة أخرى لهذا الكتاب (بعد الترجمة الأولى بنحو أكثر من ثماني سنوات)، من مكتبة «دار السلام للنشر والتوزيع» بالرياض سنة ١٤١٨هـ. قام بها د. سمير عبد الحميد إبراهيم، بإيعاز من مديرها المسئول، الذي يقول:

«**هكذا جال بخاطري تقديم ترجمة جيّدة لهذا الكتاب القيّم، فتوكّلت على الله، وناقشت الأمر مع صديقي الدكتور/ سميرعبد الحميد إبراهيم أستاذ اللغة الأردية وآدابها بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الذي رحّب بالفكرة، ووافق على ترجمة الكتاب**». (كلمة الناشر:٦)

كشف حقيقة الترجمة الثانية:

ولكن للأسف على أن صديقه لم ينصف، بل تعدّى على عمل الشيخين، الذي يحتوي على ثلاثة أجزاء في نحو ألف وثلاث مئة صفحة.

إن القارئ المنصف عند المقارنة بين الترجمتين، لا يجد في الترجمة الثانية إلا تقديم بعض الكلمات وتأخير بعضها حينًا، وتحبير بعض العبارات، خاصّة في ترجمة الجزء الأوّل من الكتاب.

وأما في الجزءين الأخيرين، فتجد أحيانًا ينقل عشرات الصفحات من دون أن يغيّر فيها شيئًا يذكر.

وزد إلى ذلك أنه يقع في الأخطاء العلمية والمطبعية نفسها، التي وقعت في الترجمة الأولى، ما يدلّ على أن الثانية منسوخة من الأولى تمامًا من غير تفكير وتدقيق يذكر.

ولا أريد المقارنة بين الترجمتين بالأمثلة، لأن كل صفحة من الترجمة الثانية مليئة بها، وتفوح منها رائحة التعدّي على عمل الشيخين الجليلين.

وجدير بالذكر أن الترجمة الأولى محض الترجمة لكتاب «رحمة للعالمين»، ليس فيها أي تعليق أو تخريج غير تعليقات المؤلّف، إلا أنها جدّدت بعض الإحالات على بعض الكتب فقط، وهي قليلة جدًا.

أما الترجمة الثانية فهي أشدّ التزامًا بإحالات المؤلّف القديمة، من دون أي تخريج أو تعليق، غير أنه أخذ أيضًا من الترجمة الأولى بعض الإحالات الجديدة، المشار إليها.

- **كتب الأستاذ مشتاق عالم الندوي** (الباحث في قسم اللغة العربية وآدابها «في الجامعة الملّية الإسلامية» نيو دلهي) مقالًا حول كتاب «رحمة للعالمين: مؤلّف هام حول سيرة نبيّ الإسلام»، وبعد ما أعرب من إعجابه بهذا الكتاب القيّم ومؤلّفه القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال:

«تتوفّر ترجمتان عربيتان لهذا الكتاب:

أولاهما: قام بها الدكتور مقتدى حسن ياسين الأزهري واشترك معه الأستاذ عبد السلام السلفي.

والأخرى: قام بها الأستاذ الدكتور سمير عبد الحميد إبراهيم (أستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود.)

«ولكن ترجمة الأخير استفادت كثيرًا من ترجمة الدكتور الأزهري حسب مضمون كلامه.» (أي في مقدمة المترجم: ٧-٨)

الآن نترك الكلام للدكتور سمير عبد الحميد نفسه، ليعترف بما اقترف من التعدّي على عمل هذين العالمين بكل حياء وحشمة، ومروءة وشهامة، وعلى حساب «مدير دار السلام» فإنه قال في مقدّمة المترجم بنصّها وفصّها:

«مقدّمة المترجم الثاني»

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيّدنا محمّد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

حين أهداني الأخ العزيز الشيخ عبد المالك مجاهد المدير المسؤول لمكتبة دار السلام بالرياض كتاب العلّامة القاضي محمد سليمان المنصورفوري «رحمة للعالمين» بأجزائه الثلاثة، رحت أتصفّحه بدايةً، ثم غرقت في صفحاته، ولم أتركه لأيّام، وبعدها طلبت منه الأصل بالأرديّة، ورحت أطالعه أيضًا، وبعد تفكير وتدقيق، رأيت أن أبدأ في إعداد ترجمة عربية ثانية لكتاب «رحمة للعالمين»، وحين عرضت الأمر على الشيخ عبد المالك مجاهد، وافق من فوره، وبدأتُ الترجمة التي استغرقت أكثر من سنتين، نظرًا لانشغالي بأعمال البحث في الجامعة، إذ كنت أعكف على ترجمة الكتاب خلال الإجازات والعطلات الدراسيّة والصيفيّة.

وإذا كنت أدين بالشكر هنا للأخ العزيز الشيخ عبد المالك مجاهد الذي أهداني نسختي الكتاب: العربية والأردية:

فإنني أدين بالشكر أيضا إلى الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري الذي اختار هذا الكتاب، ودفع به إلى الأخ مختار أحمد الندوي المدير العام للدار السلفية في بومبائي، وحثّه

على نقله إلى العربية، وقد قام الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري بالإشراف على مراجعة الترجمة والمساهمة في طباعتها، فله فضل تعريف قراء العربية بهذا الكتاب القيّم.

وأدين بالشكر الجزيل للأخوين العزيزين: صديقي الدكتور مقتدى حسن الأزهري، والأخ الفاضل عبد السلام عين الحق السلفي، فقد وضعت ترجمتها القيمة أمامي دائما، وأنا أعدّ ترجمتي للكتاب، فاستفدت من ترجمتها وتخريجها لآيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، وكذلك ما ورد من عبارات أصلية اقتطفاها من مراجعها العربية، ولولا ترجمتها هذه، لما تمكّنت من الانتهاء من الترجمة الحالية بهذه السرعة!!

هذا بالإضافة إلى أنني كنت أرى ترجمتها لبعض العبارات أدقّ من ترجمتي، فرحت أستفيد من أسلوبها أيضا!!.

وقد يتعجّب البعض من إقدامي على ترجمة الكتاب مرّة ثانية، إلا أن الكثير من الكتب الأردية والدينية لكبار الأدباء والعلماء صدرت لها أكثر من ترجمة. وهذا يرجع إلى أهمية الكتاب واهتمام الناس به، ولا مجال هنا للتمثيل أو الإشارة.

ومختصر القول إنني ما قصدت بعملي هذا إلا وجه الله وخدمة الدين وإضافة مصدر من مصادر السيرة والتاريخ الإسلامي، ودراسة الأديان المقارنة إلى المكتبة العربية، بعد أن شعرت بأهمية الكتاب، وقيمته العظيمة للباحثين والدارسين العرب.

والله الموفق وهو الهادي إلى سواء السبيل.

٥شعبان ١٤١٦هـ
٢٨ديسمبر ١٩٩٥م

د. سمير عبد الحميد إبراهيم
«أستاذ اللغة الأرديّة وآدابها بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض».

تساؤلات:

بالنظر إلى هذا التلاعب بأعمال الآخرين العلمية، تنشأ في خاطر كل من له أي صلة بالعلم تساؤلات، منها:

- اعترف الدكتور سمير بكل هذا التلاعب، ثمّ تلومه نفسه، فيقول:

«وقد يتعجب البعض من إقدامي على ترجمة الكتاب مرّة ثانية...».

ثمّ يبرّر ما قام به من التلاعب، «وعذره أقبح من ذنبه»، حيث قال: «...إلا أن الكثير من الكتب...صدرت لها أكثر من ترجمة، وهذا يرجع إلى أهميّة الكتاب، واهتمام الناس به».

ثمّ أنهى مقدّمته بقوله:

«مختصر القول، إنّني ما قصدت بعملي هذا إلا وجه الله...».

هكذا بكل إخلاص أزال اسم المترجين الأوّلين من الغلاف، وأثبت بدلهما اسمه، قاصدًا به وجه الله تعالى.

يا ناعي الإسلام قم فانعه
زال معروف وبدا منكر

- سمعت من أخ ثقة عندي، وهو حيّ يرزق، أن الناشر، لما عرف أن الكتاب مطلوب في سوق العلم، فاستأذن من ناشر الترجمة الأولى لطبعها، فأنكر الأوّل ذلك، بناءً على أن عنده مطبعة ومكتبة تنشرها، **ولكن الأخ التاجر لم يتأخّر فاستأجر مترجمًا آخر، صديقًا له، بأجرة مجزية، ادّعاء «ليقدّم ترجمة جيدة لهذا الكتاب القيّم»**.

- أما كان لهذا الناشر، أن يوكّل أحدًا من العلماء، أن يقارن بين الترجمتين، أو يراجع على الأقلّ «كلمة المترجم» بنفسه، ليعلم مدى تلاعب هذا المترجم الثاني بأعمال الشيخين الجليلين (جزاهما الله خيرًا)، في كتاب هو ثلاثة أجزاء، يحتوي على نحو ألف وثلاث مئة صفحة، فيقول بتعالم واستكبار:

«وهكذا جال بخاطرى...فتوكلت على الله...وناقشت الأمر مع صديقي... ووافق على ترجمة الكتاب»، داعيًا الله تعالى أن يتقبل منه هذا العمل، ويجعله في حسناته يوم القيامة!»

يا لله العجب!

وبما أن المترجم الأوّل الدكتور الحافظ مقتدى حسن ياسين الأزهري رَحِمَهُ اللَّهُ (رئيس

الجامعة السلفية، ورئيس تحرير مجلّتها سابقًا)، شيخنا في العربية، تعلّمت عليه الكتابة والتحرير، كتبت هذا للتأريخ وفاء بحقّه، تنبيهًا لما حصل لعمله هو وتلميذه من التلاعب به وتشويهه، وردًّا للحقّ إلى نصابه، ولله الحمد والمنة.

عود على بدء:

ألّف القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٢٨٤-١٣٤٩هـ) كتابه «رحمة للعالمين» هذا، في حقبة زمنيّة قبل نحو أكثر من قرن وربع قرن، لم يكن الوصول إلى المصادر والمراجع سهلًا فيها، ولكنّه بفضل الله وتوفيقه، ثمّ لهمّته العلميّة العالية، مع اشتغاله بوظيفته الرسميّة في القضاء الأعلى في الإمارة، بدأ يؤلّفه بعد قيام الليل مستقبلًا القبلة، وهو على وضوء، بكلّ حبّ واعتقاد، شهد بذلك المشاهير من أعلام الهند في عصره وما بعده.

مع صيت المؤلّف الذائع في الزهد والتقى، والمنصب والجاه في أنحاء الهند، حظي كتابه أيضًا بالإعجاب والتقدير لدى كلّ فئات المجتمع، وتلقّته المدارس الشعبيّة والجامعات الرسميّه بالقبول، فأدخلته في مناهجها، وهو الكتاب الوحيد في السيرة، الذي لم تتوقف طباعته خلال هذه الحقبة الزمنيّة الطويلة، وبقي أثره فعّالا إلى أيامنا هذه، كما كان قبل قرن من الزمان: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٤﴾ [الجمعة: ٤].

وقد أرادت حكمة الله تعالى أن تعمّ فائدة هذا الكتاب القيّم في السيرة النبويّة العطرة في المجتمعات الأخرى، فتُرجمت إلى اللغة الإنجليزيّة وغيرها من اللغات الحيّة، وعلى رأسها اللغة العربيّة، وقد نقل إليها بعد طبعته الأرديّة بنحو ثمانين سنة في ١٤١٠هـ = ١٩٨٩م، (أي قبل نحو ثلث قرن من الآن)، طبعته الدار السلفية -بومبائي- الهند).

وبعد نقل هذا الكتاب النافع إلى العربية، لم تعد الاستفادة منه حصرًا على الناطقين بالأردية، بل تعدّت إلى العالم العربيّ، فاستفاد منه القرّاء والكتّاب والباحثون العرب، كما يظهر ذلك من المقتطفات والمقتبسات، والإحالات على مصادر هذا الكتاب ومراجعه، التي لم تكن معهودة من قبل.

وبما أن هذه الترجمة العربيّة الأولى طبعت قبل نحو ثلث قرن من الزمان، مع خلوّها من التخريجات والتعليقات وغيرها، قام كاتب هذه السطور، بتنقيحها بمقارنة النصّ الأردي حسب الحاجة، وملأ الفجوة العلميّة والتأريخيّة، والتعليق عليها، والتقديم لها، مع قلّة بضاعته في العلم، رجاء أن يتقبل الله عزّ وجلّ منه جهد المقلّ، وهو على ذلك قدير وبالإجابة جدير.

شاهين باغ – نيو دلهي	**صلاح الدين مقبول أحمد**
١٣/ ربيع الأوّل ١٤٤٤هـ	(دار الثقافة للبحوث والدراسات)
١٠/ ١٠/ ٢٠٢٢م	

رحمة للعالمين

(سِفر نفيس في السيرة النبوية العطرة غيّر مجرى حياة المشاهير)

تأليف

العلامة المؤرّخ النسّابة

القاضي محمّد سليمان المنصورفوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(١٢٨٤-١٣٤٩هـ)

تعريب

الدكتور مقتدى حسن ياسين الأزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ

قدّم له ونقّحه وعلّق عليه

صلاح الدين مقبول أحمد

الجزء الأول

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نبذة عن الكتاب(١)

بقلم المؤلّف

الحمد لله ربّ العالمين، وسلام على المرسلين، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد المصطفى، إمام الأنبياء، وخاتم النبيين، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين -رضوان الله عليهم أجمعين-.

أما بعد:

فكانت أمنيتي، منذ مدّة مديدة، أن أؤلّف في سيرة سيّد ولد آدم محمد النبيّ الأمي ﷺ ثلاثة كتب:

- **الصغير**
- **والأوسط**
- **والكبير**

أما الصغير فألّفته سنة ١٨٩٩م، وأسميته «مهر النبوّة»، وهو مطبوع متداول بين الناس.

وأما الأوسط، فهذا هو الذي سمّيته بـ«**رحمة للعالمين**»، وهو يتمّ في ثلاثة أجزاء، هذا الجزء الذي بين أيديكم الآن، هو الأوّل من الكتاب(٢). وقد طبع الجزء الثاني سنة ١٩٢١م، و يطبع الجزء الثالث أيضًا قريبًا إن شاء الله. ثم يؤلّف الكتاب الكبير في السيرة

(١) هذه النبذة لاتوجد في أيّ من الترجمتين للكتاب. فترجمتها لأنها تحتوي على مشاعر المؤلف رحمه الله تجاه كتابه «**رحمة للعالمين**» هذا. (صلاح)

(٢) طبع الجزء الأوّل من الكتاب الطبعة الأولى سنة ١٩١٢م أي: قبل نحو مئة وعشر سنين من الآن. (صلاح)

النبوية الشريفة، بكل شرح و بسط وتفصيل إن شاء الله تعالى[١].

أنا أعلم أن كتابي هذا، لا يستطيع أن يلقي الضوء على محامد النبيّ ﷺ، ومحاسنه، ومناقبه، إلا كما تستطيع الذرّة التافهة أن تنير الشمس البازغة في رابعة النهار.

مع هذا، أتجرأ على أن أنشر هذا الكتاب، راجيًا أن يستفيد من محتوياته ولو واحد من الناس.

أما بالنسبة لمحتويات الكتاب، فأرى من الضرورة أن أوضّح بأني حاولت قدر جهدي، أن لا أعرض فيه إلا الروايات الصحيحة[٢].

وأدعو الله تبارك وتعالى، بكل تضرّع وابتهال، أن يتقبّل منّي هذا الجهد المتواضع، ويثيب به والدي الماجد الحاجّ الشيخ (قاضي أحمد شاه رَحِمَهُ ٱللَّهُ المتوفّى ٢٨ من شهر محرّم سنة ١٣٢٨هـ)، ويدرجه في صحيفة أعماله: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة: ١٢٧]

المذنب

راجي الشفاعة والغفران — جمادى الأولى

قاضي محمد سليمان -عفا الله عنه-. — ١٣٣٠هـ

(القاضي الخاصّ بالدرجة الأولى)

متوطن «منصور فور- إمارة بتياله».

---

(١) توفّي القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد إكمال كتابه الأوسط «رحمة للعالمين»، سنة ١٩٣٠م، على متن الباخرة، عند عودته من الحج، قرب يلملم داخل حدود الحرم، ولم يحالفه الوقت للبدء في كتابه الكبير في السيرة النبوية العطرة، كما تقدّم في مقدّمة التحقيق، عسى الله الرحمن الرحيم أن يثيبه على نيّته. «إنما الأعمال بالنيات». وما ذلك على الله بعزيز. (صلاح)

(٢) لقد نجح المؤلّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلّا في حالات نادرة جدًا، في إيفاء شرطه هذا في الكتاب، ولم يتيسّر له ذلك قبل قرن من الزمان إلا بمحض فضل الله تعالى وتوفيقه سبحانه، لأجل قلّة المصادر والمراجع المطبوعة حينذاك.

وذكر الأستاذ يوسف السيد عامر (مترجم كتاب «سيرة النبي ﷺ» للعلامتين: شبلي النعماني، وسيد سليمان الندوي، المطبوع الآن باسم «دائرة معارف في سيرة النبي ﷺ» فضل هذا الكتاب على غيره من كتب السيرة في تحري الدقة في إيراد الروايات، وأصحاب السيرة لم يكونوا يتحرّونها في مؤلفاتهم في اللغة الأردية، ثم قال: «... **ويستثنى من هذه المؤلفات، كتاب سليمان منصور فوري: رحمة للعالمين**». (المصدر المذكور: ١/ ١) (صلاح)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة السادسة(١)

الحمد لله الذي لم يتّخذ ولدًا، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له وليّ من الذّل، وكبّره تكبيرًا. فلله الحمد ربّ السماوات وربّ الأرض ربّ العالمين. وله الكبرياءُ في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم.

وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له: كلمة قامت بها الأرض والسماوات، وخلقت لأجلها جميع الموجودات، وبها أرسل الله رسله، وأنزل كتبه، و شرع شرائعه، ولأجلها نصبت الموازين، ووضعت الدّواوين.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، الّذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحلّ لهم الطيّبات، ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، أرسله الله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدّين كلّه، شاهدًا على الخلائق أجمعين، ونذيرًا مبينًا ورحمة للعالمين، ومبشّرا للمؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا.

فصلّى الله تعالى على نبيّه: أمينه على وحيه، وخير من خلقه سيّد المرسلين وخاتم النّبيّين: إمام الخير وقائد الخير، ورسوله الرحمة، المبعوث بالدّين القويم والمنهج المستقيم، وعلى السّابقين الأوّلين من المهاجرين والأنصار، والذين اتّبعوهم بإحسانٍ رضي الله عنهم ورضوا عنه:

أهـــدى إليـــه إلهنـــا متـــواترا ... دار الصـــلوة الزهـــر الغـــرّاء

وإلى معـــاشر صـــحبه العـــالمين ... والآل الكـــرام السّـــادة الكـــبراء

---

(١) هذه المقدّمة أيضًا لا توجد في الطبعة العربية، فأثبتها مع ما يحتاج إليه من نقله إلى العربية. (صلاح)

ما اهتزّت الأرواح من نفس الصبا وتـــنفّس الأرواح بالأضـــواء

أما بعد:

فهذه الطبعة المنقّحة السّادسة للجزء الأوّل من كتاب «**رحمة للعالمين**» بعد سنة ١٩١٢-١٩١٦م.

ومن أوّل ما نشر الكتاب، تلقّاه المحدّثون، والمؤرّخون، والأدباء، والفضلاء الآخرون بكلّ حبّ وحفاوة وإكرام، بحيث تناولوا بنقل مقتطفاته في كتبهم ورسائلهم ومقالاتهم؛ واعتنى به الباحثون من طلبة العلم، والدعاة، والخطباء، فأذاعوا صيته في البلاد من أدناها إلى أقصاها؛ وأبدى فيه الصالحون من الأمّة آراءهم السديدة بتواتر وأريحية، ما لم يكن في حسبان المؤلف قطعًا، بأن جهده هذا المتواضع، يكون متقبّلًا على هذا المستوى. فأشكر الله المالك الحكيم العليم، على أفضاله العظيمة، ونعمه المتكاثرة شكرًا جزيلًا:

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [القصص: ٦٨-٧٠]

أضيفت معلومات وفيرة وفوائد كثيرة في الطبعة السّادسة.

والله ربّ العالمين أسأل أن يوفّق لنشر بقيّة أجزاء الكتاب في أقرب وقت. وما ذلك على الله بعزيز.

محمد سليمان -كان الله له-.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تمهيد المؤلف

مملكة بابل:

يذكر أن مملكة بابل[١] قبل المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بنحو ألفي سنة كانت في أوج مجدها وازدهارها، فكانت حالتها الاقتصادية مستحكمة، وقوتها العسكرية غلّابة، وهذه الوفرة المالية مع سيادة الأمن والسلام، شحنت دماغ الملك بالنخوة والغرور، حتى نصب في معبد الدولة الأعظم تمثالا ذهبيا لشخصه[٢]، وأمر رعيته أن يسجدوا له، ويستغيثوا به، لقضاء حاجاتهم و إسعاف مرامهم.

هجرة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من بابل إلى مصر:

وقد بعث الله جلّ و علا، لهداية هذه الأمة، خليله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ويصل نسبه إلى نبي الله نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بتسع وسائط، ولم تعجب الملك دعوةُ التوحيد، فإنها كانت تعني إنزاله من مكان «الإله» إلى درجة العبودية. وبما أنّ بيت سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، الذي كان على صلة وطيدة بالملك، غضب أيضًا على فتاه.

ولمّا رأى إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هذه المعارضة من قومه ومملكته، هاجر من وطنه؛

---

(١) كانت مدينة «بابل» مركز حضارة بلاد «الرافدين» (أي النهرين: دجلة والفرات) قرابة ألفي سنة، وهي تقع على بعد مئة كيلومتر، جنوب العاصمة العراقية «بغداد». (صلاح)

(٢) هكذا كان الفكر مكبلًا بأغلال الكفر والوثنية والأنانية، ووضعت عليها البراقع السوداء، فلم تعد قادرة على إدراك أن أحجارًا لاتقرّب إلى الله، ولكن الإخلاص والعمل الصالح هو الذي يقرب إليه سبحانه وتعالى. («قراءة جديدة للسيرة النبوية» للدكتور محمد روّاس قلعه جي: ١٢-١٣ بتصرف واختصار) (صلاح)

وصحبته زوجته: سارة، وابن أخيه: لوط بن فاران في هذه الهجرة.

وقد اقتنى إبراهيم الغنم لكسب قوته وعيشه، فبارك الله فيها، حتى نمت وتكاثرت.

ولما تحوّلت المراعي الخصبة، التي كانت ترعى فيها غنمه، إلى صحراء قاحلة، لأجل القحط والجدب؛ رحل عنها حتى وصل إلى مصر.

وكان يحكمها حين ذاك الملك رقيون(١)، وكان أصله من بابل. من الممكن أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حسب عند توجّهه إلى مصر، أن يكون حاكمها سببا للتعارف والتآلف بينهما، لكونه بلديّه.

قصة إبراهيم و سارة مع ملك مصر وذكر حرّية هاجر:

ولما رآهما ملك مصر، استأثر السيدة سارة لنفسه(٢)، على أنها من حرائر بلده، ولكن الله تعالى نبّهه على الفور، على أنها زوجة نبي الله الكريم، فبالغ في تكريم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ و حفاوته.

وحينما أراد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يعود إلى وطنه، وهبه الملك بنته «هاجر»(٣)، كي

---

(١) الخطبات الأحمدية للسيّد أحمد خان (ص:١٠٩) ط. علي كره بالهند. [يأتي التعريف بهذا الكتاب ونبذة عن مؤلفه في الجزء الثاني -الباب الأوّل عند ذكر الفرع الثاني لنسب النبي ﷺ]

وقد كتب د. حسن إبراهيم حسن في كتابه «عمرو بن العاص» (ط. مطبعة السعادة بمصر مجلد ٢) [ص:١٨٢]- أن اسم ذلك الملك كان طوطيس بن ماليا، وكتب أن عاصمة ملكه كانت «منف»، ويفهم مما ذكره في (ص:١٨٣) أن طوطيس لقب للملك، ومن هنا يكون الاسم الأصلي هو رقيون، وطوطيس هو لقبّه.

وكتب هذا المؤرّخ أيضًا، أن هذا الملك قد حفر ترعة تصل النيل بالبحر الأحمر، لإيصال محاصيل مصر إلى السيدة هاجر. وقد جدّد كلّ من قيصر ونيخوس ودارا حفر هذه الترعة، وكانت هذه الترعة هي نفسها التي اكتشفها عمر الفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من جديد وأجراها.

(٢) راجع التفصيل في صحيح البخاري (٣٢٥٨)، ومسلم (٢٣٧١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. (صلاح)

(٣) [ذهب المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في هاجر خلاف رأي النصارى وغيرهم، بأنها كانت أمة، فقال]:

لم يكن لهاجر شرف أنها بنت الملك فحسب، بل تذكر التوراة أن منزلتها كانت عالية عند الله أيضًا، ففي كتاب التكوين (١٦/ ١٧) و(٢١/ ١٧): أن ملائكة الله كانت تأتي أمام هاجر وتبلّغها =

تتربّى تحت رعاية هذه الأسرة الزكية الصالحة؛ ثم تتزوّج في بلده مع أحد من سكانه الأصليين. وقد تزوّجها إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، تحقيقًا لحبّه الصادق لملكه المضياف، الذي أحسن وفادته، ووهبه الله تعالى باكورة أولاده من بطنها، وسُمّي إسماعيل(عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ).

تقسيم إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ البلاد بين ولديه ومدى التعاون بينهما وبين ذرّيتهما:

وولد له ولد آخر، من زوجته سارة، و سمّي إسحاق(عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ).

وقد أخبر الله تعالى خليله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن هذين الولدين يبارك لهما جدًا.[1]

= أمر الله، ولكنّ سارة لم يأتها ملك قطّ. وثبت بكتاب التكوين (١٠/ ١٨) أن الملك بشّر سارة بالابن بواسطة إبراهيم.

[وما ورد في البخاري (٢٦٣٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، من قول سارة لإبراهيم في الملك «أشعرت أن الله كبت الكافر وأخدم وليدة، وقال ابن سيرين عن أبي هريرة عن النبيﷺ: فأخدمها هاجر».

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تأويل هذا الحديث، أن إعطاء الملك بنته هاجر لسارة، لايدلّ على أن هاجر كانت أمة. وقد ذكر الإمام ابن حجر العسقلاني في شرح هذا الحديث، بأنه يقال: إن هاجر كانت بنت ملك من الملوك في مصر. وقال شيخنا صفي الرحمن المباركفوري في «الرحيق المختوم ص: ١٨ تعليقًا»: «المعروف أن هاجر كانت أمة مملوكة ولكن حقّق الكاتب الكبير العلامة القاضي محمد سليمان المنصورفوري، أنها كانت حرّة، وكانت ابنة فرعون».

ويأتي تفصيل ذلك عند ذكر إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في الجزء الثاني من الكتاب. إن شاء الله. (صلاح)

(١) **راجع للتعرف على تساوي إسماعيل وإسحاق عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ في الدرجة والبركة: المواضيع التالية في سفر التكوين:**

أ- سمع الله تضرع هاجر (١٦/ ١١)

سمع الله تضرع سارة (١٨/ ١٤)

ب - سمّى الله ولد هاجر إسماعيل (١٦/ ١١)

سمّى الله ولد سارة إسحاق (١٧/ ١٩)

ج - بارك الله في ولد هاجر إسماعيل (١٧/ ٢٠)

بارك الله في ولد سارة إسحاق (١٧/ ١٩)

د - كان الله عونا لإسماعيل (٢١/ ٢٠)

وتنحدر منهما أمم عظيمة، وتكثر ذريتهما، فلا تأتي تحت الحصر.

ولذا قسم أبوهما البلاد بينهما، مراعيًا في ذلك أمر الله تعالى ورغبة أفراد الأسرة، فأعطى إسحاق بلاد الشام، لأن «بابل» كانت شرقيها، فتأتى لإسحاق أن يكون قريبًا من بني خؤولته.

وأعطى إسماعيل بلاد العرب، لأن «مصر»، كانت تقع غربيّها، فوفِّق إسماعيل أيضًا، أن يكون أقرب ما يمكن إلى أخواله، هكذا سكن الأخوان بحيث لم تفصل بينهما دولة ثالثة، لتتسنى مساعدة أحدهما للآخر وقت الحاجة.(١)

- **تزوّج إسماعيل** ابنة مضاض سيد بني جرهم، وكانت قبيلة عربية حاكمة منذ القدم، وكان مضاض الحاكم الأوحد لمنطقته.(٢)

- **وبينما تزوّج إسحاق** في خؤولته، وهكذا بدأ البعد يزداد بين أبناء بيت واحد، إلا أن الله تعالى كان يقضي عليه حينا لآخر، بلقاء الأمتين والتعاون بينهما.

- **لما فرّ موسى** عَلَيْهِ السَّلَامُ خوفا من فرعون، لجأ إلى العرب أنفسهم، وحينما حرّر بني إسرائيل وأخرجهم من مصر بعد تحريرهم من أسر فرعون، قضى أربعين سنة كاملة في صحراء العرب نفسها.

- **ولما فرّ داود** أيضًا من الملك صموئيل، أقام بين هؤلاء العرب أنفسهم.

=

كان الله عونا لإسحاق (٢٦/ ٢٤)

هـ - سيكون إسماعيل أبا للأمم والملوك (٢٥/ ١٦)

سيكون إسحاق أبا للأمم والملوك (١٧/ ٦)

(١) في سفر التكوين (الباب٢٥، الآية ٩): دُفن إبراهيم، دفنه ابناه: إسحاق وإسماعيل، وهذا يدلّ على أنهما ظلا متعاونين في السّراء والضرّاء.

(٢) خلاصة تأريخ العرب للأستاذ سيديو. (ص:٢٣). [هذا هو الثابت من مصادر التأريخ أن إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ تزوّج بنت مضاض، إلّا أن ذكر مضاض يوجد في طبعة على باشا مبارك (ناظر المعارف العمومية بمصر سابقًا) سنة ١٣٠٩هـ لترجمة كتاب سيديوا، و أما في ترجمة كتاب سيديوا للأستاذ عادل زعيتر باسم «تأريخ العرب العام» (ص: ٥٠) فلم يجزم فيه بالمصاهرة، بل قال: «...فيفترض أن إسماعيل صاهرهم...» (من إفادات الأخ بدر العتيبي)].

- **ولما دمّر بخت نصر بني إسرائيل،** آواهم معد بن عدنان بين العرب بكلّ راحة وأمان وحفاوة وتكريم.

نبذة عن إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ:

وقد أشار أنبياء بني إسحاق فيما أُلهم إليهم، إلى بني إسماعيل إشارات كثيرة.

وأودّ أن أكتب نبذة عن إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ فقط:

كان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قد أسكنه وأمّه هاجر بالأرض التي تقع فيها مكة الآن[١]. وقد بنى الأب الصالح مع ابنه العظيم مسجدًا مكعّبا فيها، ودعا الله سبحانه أن يرزق أهلها، مع جدبها، من الثمرات الطيبة، والفواكه اللذيذة والخضروات الجيدة[٢]، ويبعث فيهم رسولا عظيما أيضًا، يهديهم ويرشدهم.[٣]

---

(١) لما ولد لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ابنه إسماعيل، غارت سارة من هاجر ومولودها، فهاجر بهما من فلسطين إلى أرض الحجاز، وأسكنهما في مكة، وعند رجوعه منها، دعا متوجّها إلى البيت بهؤلاء الكلمات، ورفع يديه، فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ...﴾ [إبراهيم: ٣٧]، راجع القصة بطولها في صحيح البخاري (٣٣٦٤) عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. (صلاح)

(٢) قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٢٦ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧﴾ [البقرة: ١٢٦ — ١٢٧].

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: الذين يزورون مكة يتعجبون من أمرين:

الأول: أنه لا يوجد فيها نبات ولا إنتاج للحبوب والفواكه.

والثاني: أن سوق مكة تمتلئ بالفواكهة الطازجة والخضروات، وهي تباع رخيصة وبكثرة، وهذا يوكّد لنا أن الله تعالى تقبل دعاء خليله إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في هذا الأمر.

وعلى هذا يستدل به على أنه تعالى قد استجاب دعاءه في الجزء الخاص ببعث الرسول ﷺ أيضًا.

وقد ثبت ظهور النبي الموعود من نسل إسماعيل من التوراة (كتاب التثنية ١٩/ ١٧، ١٨، ١٩)، وثبت ظهوره من مكة (فاران) من التثنية (٣٣/ ٢).

(٣) ومن دعاء إبراهيم كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾ [البقرة: ١٢٩]

أولاد إسماعيل و موقع انتشارهم المتميز في البلاد:

وولد لإسماعيل اثنا عشر ابنا[١]، وأنهم قد اقتسموا أرض العرب فيما بينهم. وقد انتشروا بسرعة كبيرة حتى وصلوا غربا إلى مصر حيث أخوالهم. وفي الجنوب بلغت خيامهم إلى اليمن، حيث أسكن الأب إخوانهم بني قطورة[٢]، وفي الشمال اتسعت قراهم إلى الشام، حيث سكن إخوانهم بنو إسحاق.

وهكذا ورث أبناء أب واحد عِلم بابل ومصر القديم، وحضارتها التليدة، وسيطروا على مواني المحيط الهندي والبحر الأحمر، التي بها كانوا يستطيعون أن يبسطوا نفوذهم على تجارة العالم المتمدّن أجمع في ذلك العصر. وخضع لهم وسط الجزيرة العربية أيضًا، الذي ثبت دائما كحصن منيع في وجه الأمم الأخرى.

المبرّزون من أولاد إسماعيل:

- وقد اكتسب من ولد إسماعيل ابنه الثاني قيدار شهرة واسعة، وسكنت ذريته بمكة نفسها، ووفت مثل أبيها دائمًا حقوق هذا المسجد الحرام، الذي كان مدرسة التوحيد

---

(١) كان ليعقوب أيضًا اثنا عشر ابنا؛ ستة من زوجته لياه (رأوبين، شمعون، لاوي، يهوذا، يساكر، زبولون)، ومن زوجته: راحيل اثنان (يوسف، وبنيامين)، ومن زلفه -وكانت جارية لـلياه- اثنان (جد وأشر)، ومن بلهه -وكانت جارية لزوجته راحيل- اثنان (دان، نفتالي)، كما في سفر التكوين (٣٠،٢٩).

ومن ولد هؤلاء الاثنى عشر صارت الأسباط، وقال فيهم يعقوب، وموسى، وداود، والمسيح، ويوحنا أنهم مباركون فيهم. وإذا سلّمنا قول النصارى أن السيدة هاجر كانت أمة للسيدة سارة، التي زوّجتها من زوجها إبراهيم، فعلى هذا أيضا ليس لهم أن يأخذوا على بني إسماعيل، كما لايستطيعون الأخذ على (جاد، وأشير، ودان، ونفتالي وعلى أولادهم) الذين كانوا من أولاد أمتي يعقوب: بلهة وزلفة.

(٢) قطورة: زوجة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ تزوجها بعد وفاته سارة كما في التكوين (٢٥/ ١) وانظر قاموس الكتاب المقدس (ص ٧٣٩).

الأولى للعالم أجمع.

- ولد عدنان الأول بعد الجيل السابع والثلاثين من ولد قيدار، وكان من أولي العزم من الرجال، وقام أخوه الأصغر «عك» أيضًا، بإنشاء دولة في اليمن.

- وبعد عدنان غلبت قبيلة بني جرهم بني إسماعيل، فأخرجوهم من مكة سنة ٢٠٧م. وإن كانوا هم أخوالهم، وذلك لأن بني إسماعيل لم يوافقوهم إلى ذلك الوقت على عبادتهم للأوثان والأصنام.

إقامة حكومة مشتركة في مكة وإنشاء المناصب فيها:

ثمّ سيطر على مكة قصيّ، وهو في الجيل الخامس عشر من ولد عدنان الثاني، فأقام فيها حكومة مشتركة سنة ٤٤٠ م.[١]

وأنشأ المناصب الآتية:

١- **الرفادة.** [هي طعام للحجاج على طريقة الضيافة.]

٢- **السقاية.** [هي أنهم كانوا يملأون للحجاج حياضًا من الماء، فيشرب الناس منها، إذا وردوا مكّة.]

٣- **الحجابة.** [حجابة الكعبة، لايفتح بابها إلا هو، وهو الذي يلي أمر خدمتها وسدانتها.]

٤- **القيادة.** [هي إدارة دفّة الحكم في المنطقة.]

٥- **أنشأ رمزا قوميا أطلق عليها «اللواء».** [كانت لاتعقد راية الحرب إلا بيده.]

٦- **وأيضًا شكّل مجلسا قوميا، أطلق عليه «الندوة»** أو «دار الندوة». [يتشاورون فيها جسام الأمور.]

---

(١) هذا الأمر يذكر بكل عناية واهتمام، لأن الحكم في ذلك الوقت كانت تحتكره جماعة معيّنة من الناس، من غير أن يكون لأحد حق إبداء الرأي في منهج الحاكم أو تصرّفه. فهذا كان على الأقل غنيمة لهم في ذلك العصر.(صلاح)

وقد توارثت بعد قصيّ رئاسة مكة في ابنه عبد مناف[١]، ثم في ابنه هاشم[٢]، ثم في عبد المطلب[٣] (المولود سنة ٤٩٧م)، ثم تولّاها أبو طالب[٤]، وكانوا كلّهم في عصورهم سادة مكرّمين. وكان سيدنا محمد رسول الله ﷺ، الذي يتناول هذا الكتاب المتوسط حياته الزكية العطرة، حفيدا لعبد المطلب.

(١) كان اسمه المغيرة، وذهبوا به بعد الولادة إلى صنم اسمه «مناف»، فعرف باسمه [وأولاده الأربعة: (هاشم، وعبد شمس، والمطلب، ونوفل) سادوا قومهم، وأخذوا الأمان لقريش من ملوك العالم للدخول في بلادهم للتجارة.
قال ابن كثير: «وكانوا قد سادوا قومهم بعد أبيهم، وصارت إليهم الرياسة، وكان يقال لهم المجيرون، وذلك لأنهم أخذوا لقومهم قريش الأمان من ملوك الأقاليم، ليدخلوا في التجارات إلى بلادهم، فكان هاشم قد أخذ أمانا من ملوك الشام والروم وغسّان، وأخذ لهم عبد شمس من النجاشي الأكبر ملك الحبشة، وأخذ لهم نوفل من الأكاسرة، وأخذ لهم المطلب أمانا من ملوك حمير، ولهم يقول الشاعر:

يا أيها الرجل المحول رحله
ألا نزلت بآل عبد مناف

(البداية والنهاية: ٣/ ٣٣٠-٣٣١، وراجع «تاريخ الأنبياء والرسل»: ٥٢٤-٥٢٥) (صلاح)]

(٢) اسمه عمرو، وقد هشم الثريد للفقراء، فلقّب بهاشم. [وساد قريشًا سيادة ممتازة، أخذ لهم أمانًا من ملوك الشام، والروم، وغسّان للدخول في بلادهم للتجارة، وكذلك سنّ لهم رحلتين: رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، كما في قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢﴾ [قريش: ١ – ٢] (تاريخ الأنبياء والرسل: ٥٢٥) (صلاح)]

(٣) كان اسمه «شيبة»، سمّت به أمّه، لأنه لما ولد كان شعره أبيض. وكان «المطلب» عمّه، قد ربّاه في يتمه، فتقديرًا لتربيته عُرف بعبد المطلب.

(٤) ثم أخوه: العباس بن عبد المطلب. (صلاح)

نبذة عن الجزيرة العربية وأهاليها

لقد أدركتم مما سبق من البيان بأنه من كانوا يسكنون الجزيرة العربية، وكيف كانت علاقتهم بدول الجوار؟

والآن أرى من الضرورة أن أذكر نبذة عن هذه البلاد، فأقول:

موقع الجزيرة العربية:

من إلقاء نظرة خاطفة على خريطة البلاد العربية، يتبيّن أنّها شبه جزيرة، يحدّها من جهة الغرب: البحر الأحمر؛ ومن الجنوب: المحيط الهندي؛ و من الشرق: الخليج العربي؛ ومن الشمال بلاد الشام.

وتفصل بينها وبين الشام سلسلة الجبال الممتدة إلى الشمال؛ وبينها وبين مصر قناة السويس، التي كانت تعرف قبل أربعين سنة بـ«يابسة السويس»[1] ويحول بينها وبين الهند: المحيط العربي.

مساحة الجزيرة وخصائص أقطارها:

ومساحة الجزيرة ضعف مساحة فرنسا تقريبا[2].

ويمتاز كل قطر من أقطارها المختلفة بخصائص و ميزات.

---

(١) بدأت «الشركة العالمية لقناة السويس البحرية» حفر القناة في أبريل ١٨٥٩م، وامتد الحفر إلى عشر سنوات، واحتفلوا بالقناة في ١٦/نوفمبر ١٨٦٩م، وعند شروق صباح ١٧/نوفمبر ١٨٦٩م كانت السفن تمر في قناة السويس.
ولعلّ المؤلّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد باليابسة، أنها لم تكن هناك قناة. وطبع كتابه سنة ١٩١٢م، وعلى هذا كان افتتاح قناة السويس قبله بأربعة عقود تقريبًا. (صلاح)

(٢) بل مساحة الجزيرة بنحو خمسة أضعاف مساحة فرنسا، بحيث مساحة فرنسا نحو (٦٤٢٨٠١) كيلومتر مربع. ومساحة الجزيرة تقدّر نحو (٣٠٠٤٠٠٠) كلومتر مربع. والله أعلم. (صلاح)

فوادي اليمن وجبال الطائف في الخصبة بمكان تغتبط به أخصب مناطق الهند. وتخلو بطاح «الحجر»، والصحراء الواسعة القاحلة في وسط الجزيرة العربية[١] من العشب والماء، بحيث تماثل صحراء إفريقيا العظمى.

حالة الجزيرة سياسيّا و اجتماعيّا وخلقيّا عند مولد النبيّ ﷺ

أما عهد نبينا ﷺ، الذي نفتتح به كتابنا هذا، فكانت الحالة السياسيّة والخلقية للجزيرة العربية فيه، خاصة في وقت مولده ﷺ كما يلي:

- **وجدت في جنوب الجزيرة** دولة الأحباش[٢]، وفي شرقها دولة الفرس، وفي قطاعها الشمالي مملكة قسطنطينية: فرع الإمبراطورية الروميّة الشرقية.[٣]
- **أما وسط الجزيرة** فكان حرّا، كما يزعمون، إلا أن كل دولة من الدول المجاورة كانت تسعى للسيطرة عليه.
- **وقد أثر الاستقلال الذاتي** لوسط الجزيرة على سكانه تأثيرا سيئًا في غاية السوء. ونشأت فيهم الأنانية والنخوة لأجله، فاستهدفوا إخوانهم أنفسهم إثباتًا لشجاعتهم وبطولتهم، وأورثت فيهم البطالة والتكاسل عادة الخمر والميسر، فتأصّلت في النفوس فصارت طبيعة لهم.
- **ولا ريب أن لغتهم كانت صافية نقيّة،** وكذلك نسبهم ونسلهم، لأنهم لم يتصلوا مع دول أخرى، ولكنهم استخدموا الفصاحة في أغلب الأحيان للتفاخر بأنفسهم وازدراء الآخرين، أو لإذاعة أعمالهم الغرامية الفاحشة، مع التشهير بعشيقاتهم وخليلاتهم. وأنشأت فيهم حياة العزلة عن الآخرين، كراهية المصاهرة، فكان الأشراف- بزعمهم- يئدون بناتهم علنًا بكل شجاعة واعتزاز وفخر.

---

(١) ويسمّى «الربع الخالي»، وهو أكبر صحراء رملية في العالم، وجزء الربع الخالي في المملكة العربية السعود تقدّر مساحته بنحو (٤٣٠٠٠٠) كلومتر مربع. والله أعلم. (صلاح)

(٢) الأحباش: مصطلح يطلق على مجموعات عرقية سامية جنوبية، تقطن منطقة الحبشة (أثيوبيا حاليا). (صلاح)

(٣) خلاصة تأريخ العرب للأستاذ سيديو (ص٤٠).

• **وبالجهل انتشرت فيهم الوثنية،** فتسلطن على قلوبهم وعقولهم، وجعلهم عبدة للأوهام والخرافات، وبدأوا يظنّون أن قوى الطبيعة ومظاهرها من الحجر، والشجر، والشمس، والقمر، والجبل، والنهر وغيرها آلهة لهم.

وهكذا نسوا عظمة الله تعالى وجلاله، ونسوا كرامة الجنس البشري أيضًا، الذي ينتمون إليه، فلم تكن هناك قاعدة للحفاظ على الحقوق الإنسانية، ولا قانون لتنظيم هذه الحقوق، والعودة بها إلى الأصل الصحيح، فكان القتل والنهب والأسر، والتصرف الخاطئ، والتدخّل الجائر، واختطاف النساء جبرا، أو عن طريق المراودة، ووأد البنات من ثمرات الوثنية، فإنها جعلت الإنسان في نظرهم أتفه شيء في الوجود.

• **والجمود الذي تأصّل فيهم** مدى القرون والأجيال، قد رسّخ في قلوبهم وعقولهم بأنه لايمكن أن تكون هناك حالة أفضل من حالهم، ومدنية أحسن من مدنيتهم، وتدين أحسن من تديّنهم.[١]

• **قد وجدت الأديان المختلفة الأخرى** أيضًا في الجزيرة العربية، لأجل علاقة الدول المجاورة بها وقد ينخدع من يسمع اسم اليهودية[٢]، والنصرانية[٣] والصبئية، ممن ليس له إلمام بها وبأهلها، أن محاسن هذه الأديان، قد كانت توجد فيهم.

ولكن الحق أنهم أفسَدوا هذه الأديان أنفسها، بدل أن يُصلحوا بها نفوسهم. ولو قدّر

---

(١) هكذا كانوا نائمين على ما كانوا عليه من الجهل والأنانية، وسائرين في جنّة السفهاء، لم يكن لهم شريعة ولا قانون، كانوا يعيشون بمجموعة من الأعراف التي كانت تنتقل من قبيلة إلى قبيلة. مع هذا، كانوا على ثقة عمياء بأفضليتهم على الأمم الأخرى. (صلاح)

(٢) وفدت اليهود إلى جزيرة العرب، حينما أخرجهم اليونانيون والسريانيّون، وقد رحّب بهم بنو إسماعيل (أبناء العمومة هؤلاء)، وانتشرت ديانتهم في الحجاز، ونواحي خيبر والمدينة. (خلاصة تأريخ العرب لسيديو (ص:٣٨))

(٣) دخل بنو غسّان في النصرانية في سنة ٢٣٠م، ثم انتشرت في العراق والجزيرة، والبحرين، وصحراء فاران، ودومة الجندل، وشواطئ دجلة والفرات، وقد سعى لنشرها النجاشيّ وقيصر معا. وفي سنتي ٣٩٥م و ٥١٣م بذلت جهود كبيرة، لنشرها فانتشرت الأناجيل بكثرة في اليمن. (المصدر المذكور: ص ٣٩)

أن جاء أنبياءهم موسى وعيسى وشعيب وصالح عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ورأوهم، لما عرفوا أنهم من أتباعهم الذين يتّبعون تعاليمهم.

- **وعامّة النصارى يزعمون المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ ابن الله**، بينما نصارى العرب كانوا يقولون أيضًا: إن مريم زوجة الله، و أن الملائكة بناته.

- **والوثنيون كانوا يقولون**: إن اللّات والعزّى أنثى الله. (فإن اللّات تأنيث الإله، والعزى تأنيث الأعزّ).

- **وعامّة اليهود في ذلك العصر قالوا**: عزير ابن الله، لأنه كتب التوراة عن ظهر قلب.

ولكن يهود العرب قالوا: إن رجالهم هم أبناء الله وأحبّاؤه، ونساؤهم بنات الله وحبيباته.

- **والمجوس في أغلب الأحوال**، كانوا يحبسون بناتهم وأخواتهم في داخل بيوتهم.

ولكن ملحدي العرب كانوا يتّخذون زوجات آبائهم، سوى أمهاتهم، إماءً لهم.

- **ومعظم أمم العرب** (سوى بعض الأشخاص) كانت تجهل الكتابة، ولا تفقه العلوم، ولا تدري الصناعة، ولا تعرف معاني المدنية، والمصالحة، والعفو، والتسامح.

- **ووجد في العرب**: الملحدون والدهريّون، وكانوا يرون الموت والحياة صدفة. وينسبون كل تغير وتطوّر في الدنيا إلى الدهر، وكانوا يتّخذون وجود الله، ونظريّة العقاب والثواب على الأعمال السيئة والصالحة لهوا وسخرية وهزوا.

وهكذا كانت الجزيرة العربية ملتقى جميع الأديان الباطلة، والآراء الفاسدة، لما اجتمعت فيها المساوئ التي سبق ذكرها.

كون الجزيرة في وسط الكرة الأرضيّة، رشّحها لبعثة النبيّ الخاتم فيها:

وإذا نظرنا إلى الجزيرة العربية في خريطة الكرة الأرضيّة، عرفنا من موقعها[1] أن الله

(١) إذا نظرنا إلى الجزء المسكون من الكرة الأرضية، وجدنا أنه يبلغ إلى أربعين درجة من عرض البلد في الجنوب إلى ثمانين درجة، وفي الشمال ومجموعهما ١٢٠ درجة، نصفها ٦٠ درجة، وتصير الستون عشرين، إذا طرحناها من ثمانين درجة شمالا، وكذلك تبقى عشرون درجة إذا طرحنا أربعين درجة من الستين جنوبًا.

=

تعالى قد جعلها وسط قارّات آسيا وأوربا وإفريقيا، وأنها تربط العالم بيمينها وشمالها من طريق البر والبحر كليهما.

وبهذا يفهم جيدًا، وصول جميع أديان العالم إلى هذه البلاد، ثم تشوّهها تحت حكومة الجهل العليا.

وكذلك يمكن أن يفهم أيضًا، أنه إذا تمّ اختيار مكان ما لإنشاء مركز موحّد لهداية العالم أجمع، صلحت له بلاد العرب نفسها، وخاصة إذا نظرنا إلى ذلك العصر، عرفنا أن الأمة العربية كانت على صلة بالدول الكبرى في إفريقيا وأوربا وآسيا. ولذا كانت الوسائل متوافرة جدًا، لإبلاغ صوت الجزيرة إلى هذه القارّات بأسرع وقت ممكن.

ولذا بعث الله تعالى -حسبما أفهم- محمدا ﷺ في العرب، وكلّفه بتبليغ دعوة الهداية إلى أمته، وأهل بلده، وسكان العالم أجمع بالتدريج والترتيب.

=

ولما كانت مكة المكرمة تقع على إحدى وعشرين ونصف درجة، ولذا هي تستحقّ أن تكون وسط الكرة الأرضية كلّها.

ويلاحظ ما يلي:

أ- أن مكة قد سمّيت في كتب اللغة باسم «السرّة»، وهي لا تكون في جسم الإنسان في الوسط، بل تكون قريبا من الوسط الحقيقي. والفرق المقدّر بدرجة ونصف، هو الذي يثبت أن مكّة سرّة الأرض.

ب- وليفهم هكذا: أن بلاد العرب تقع ما بين (١٥) إلى (٣٥) درجة، من بينهما تقيم الأجناس الشهيرة في العالم بالتفصيل الآتي:

الآريا، والمنغول في الشرق، والأحباش والحاميون والهنود الحمر (سكان أمريكا الأصليون) في الغرب، وحين تطرح مسألة نشر الدعوة إلى جميع الأمم، لا يكون مركزها ومقرّها إلا بلاد العرب، ولعلّ الآية الكريمة تشير إلى هذا أيضًا: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ...﴾ [البقرة: ١٤٣]. [لم يجزم المؤلّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذا، بل نظرًا إلى خط طول الأرض وعرضها قال ذلك. وهو يوافق عليه ويخالف. (صلاح)]

كتاب «رحمة للعالمين» ومعرفة مهامّ النبيﷺ بمطالعته

ويتمكّن القراء بعد مطالعتهم لهذا الكتاب، من معرفة صعوبة العمل الذي كلّف به الرسول ﷺ.

وكيف أنه قد بدأ واجبه هذا بأسلوب جميل، وصبر وحلم، واستقامة وتحمل؟

وكيف أنشأ الحضارة والمدنية، ونشر العلم والأخلاق، ووحّد الأمم والدول، ورفع مكانة الإنسان، ونشر التوحيد، وأشعر القلوب بعظمة الله وكبريائه، ثم أثبت أن الكائنات والأسباب كلّها ليست إلا إنها سخّرت لخدمة الإنسان؟

وكيف أن الرسول ﷺ **وحّد** بين بني البشر، ونظمهم في سلك واحد من الدين والعقيدة والعمل، وجعلهم في وحدة واحدة من التفكير والسلوك، بأسلوب حسن، رغم فوارق العنصر، والأصل، وظروف الوطن، والمكان، و خصائص الغنى والفقر، وتفاوت ظروف الفاتح والمفتوح، وامتيازات اللون واللغة وغيرها؟

تحوّل حاخامات الأديان وصناديد الجاهلية إلى الإسلام:

ولما أنجزﷺ هذا العمل العظيم، وقرّب العباد إلى الله، والأمم إلى الأمم، وأحلّ النصر والأخوة محلّ التنافر والعداوة، وسلّط ضوء الصدق والمعرفة على العقول والأذهان، بعد إخراج الظلام والجهل منها: ارتحل من الدنيا فارغ البال، قرير العين، مسرورا، طلق الوجه، هشًّا بشًّا.

وكي يقدّر القارئ العمل الجليل، الذي قام به النبيﷺ، عليه أن ينظر كيف بذر بذور الإسلام في القلوب الزكية الطاهرة، فأثمرت ثمارا طيّبة؟

• **فكان النجاشيّ ملك الحبشة**(١)، وجيفر(٢) ملك عمان، وأكيدر صاحب دومة(٣) الجندل، يفتخرون بالوقوف جنبًا إلى جنب مع جفاة نجد، وأعراب تهامة، وفقراء اليمن.

• **ويعتز عبد الله بن سلام**(٤) **بترك الإمامة في اليهودية**، وورقة بن نوفل بترك النصرانية، وعثمان بن طلحة بترك الإبراهيمية، ويتشرفون بكونهم في عداد خدّام الإسلام.

• **كان سلمان الفارسيّ عبدا مملوكًا لليهود**، ولكنه احتلّ في الإسلام مكانة سامية، يمثّلها قول الرسول ﷺ: «سلمان منّا أهل البيت».(٥)

---

(١) صدّق النجاشي النبيّ ﷺ في حياته، واعتذر ابن عبدالبر عن إخراج ترجمته في الصحابة، ولو كان من هذا سبيله يدخل عنده في الصحابة، ما احتاج إلى اعتذار. (الإصابة لابن حجر: ١/ ٦ المقدّمة) (صلاح)

(٢) جيفر بن الجنلدي، ذكره الحافظ في القسم الثالث، أي أنه أسلم، ولم ير النبي ﷺ. (الإصابة: ١/ ٢٦٤ رقم ١٣٠٨) (صلاح)

(٣) (دومة بين الشام والحجاز) أكيدر بن عبدالملك السكوني، وفي صحبته خلاف، والأكثر أنه قتل كافرًا. قال ابن حجر: «فالذي يظهر أن أكيدر صالح على الجزية، كما قال ابن إسحاق، ويحتمل أنه أسلم بعد ذلك كما قال الواقدي، ثمّ ارتد بعد النبي ﷺ مع من ارتدّ، كما قال البلاذري ومات على ذلك. والله أعلم». (الإصابة: ١/ ٦١ (رقم ٢٤٢، ١٢٥-١٢٧) رقم ٥٤٩ القسم الرابع. (صلاح)

(٤) عبدالله بن سلام ابن الحارث من ذرّية يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ. مات بالمدينة سنة ٤٣ هـ. (الإصابة: ٢/ ٣٢-٣٢١ رقم ٤٧٢٥) (صلاح)

(٥) الحاكم في المستدرك (٣/ ٦٩١) (رقم ٦٥٤١و ٦٧٠٣)، ضعّفه العلّامة الألباني في «ضعيف الجامع الصغير» (٣٢٧٢) عن عمرو بن عوف المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال شعيب الأرنؤوط في تخريج «سير أعلام النبلاء» (١/ ٥٤١، ٣/ ٣٨٨) عن أبي البختري: أتينا عليا ...» رجاله ثقات.

وسلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أبو عبد الله صحابيّ جليل له فضائل كثيرة معروفة، يقال له: سلمان بن الإسلام، وسلمان الخير، أصله من رامهرمز، قيل: من أصبهان. وكان قد سمع بأن النبي ﷺ سيبعث، فخرج في طلب ذلك، فأسر وبيع بالمدينة، فاشتغل بالرّق، حتى كان أول مشاهده الخندق، وشهد بقية المشاهد، وفتوح العراق، وولي المدائن، وفي عمره اختلاف كثير، حتى قال أبوالشيخ في «طبقات الأصبهانيين»: فأما مائتان وخمسون فلا يشكون فيها، ذكر الذهبي هذه الأقوال ثمّ قال: ثم رجعت عن ذلك وظهرلي أنه ما زاد على الثمانين. (راجع للتفصيل: «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر: (٢/ ٦٢ رقم ٣٣٥٧) ط. أولى ١٣٢٨هـ، تصدير دار إحياء التراث العربي بيروت) (صلاح)

• **وبلال الحبشيّ**[١] **العبد المملوك للمشركين**، وبعد إسلامه كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (الذي كانت تخافه كسرى وقيصر بسطوته وهيبته) يقول له: «السيّد، السيّد»، وهكذا ألغى الإسلام امتياز الألوان والألسن، وتفرقة الوطنية، وخصائص الجنسية، حتى عدّ الاعتزاز بكرامة النسب وشرفه دليلًا على الخسّة واللؤم، هكذا أصهرهم في قالب ملة واحدة، فتوحّدت القلوب في العواطف، والطبائع في الاتجاهات، والأذهان في التفكير، والألسن في صوت التوحيد، فكانوا يهتفون بهتاف واحد.

• **انقلب العدوّ صديقًا**، وتحوّل القاتل مدافعًا، فها هو عمرو بن العاص[٢] قد ذهب إلى النجاشي سفيرًا لقريش، حتى يُسلَّم إليه المسلمون كمجرمين، ويعيدهم إلى مكّة. ولمّا أسلم، فذهب هو نفسه إلى ملك عمان، داعيًا إلى الإسلام، ويعود إلى الرسول ﷺ، يبشّره حاملًا البشرى بإسلام آلاف من الناس.

• **ها هو خالد بن الوليد**[٣]، الذي قاد جيش المشركين في غزوة أحد، وكان من أسمى أهداف حياته: القضاء على المسلمين وإبادتهم إبادة تامة، ولكنّه بعد إسلامه، قد هدمَ معابد اللّات والعزّى بيديه، ثّم يقود الجيوش الإسلامية في الغزوات، فيلقّب بـ«سيف الله» ويعرف بالقائد المظفّر.

• **وعروة بن مسعود الثقفي**[٤]، كان قد جاء إلى النبي ﷺ في الحديبية سفيرًا لقريش، يمنعه ﷺ من الدخول في مكّة. وبعد إسلامه يحضر المدينة، ويستأذن الرسول ﷺ لنشر دعوة الإسلام في قومه، وفي هذا السبيل يضحيّ بنفسه.

• **وسهيل بن عمرو**[٥] كان رئيس وفد المشركين في صلح الحديبيّة، وهو الذي عارض أن يكتب «رسول الله» بعد اسم الرسول الكريم « محمد» ﷺ في محضر الاتفاقية.

---

(١) هو: مؤذّن رسول الله ﷺ. (الإصابة: ١/ ١٦٥ رقم ٧٣٦) (صلاح)

(٢) هو: القرشي السهمي، أمير مصر، أسلم قبل الفتح سنة ٨ هـ (الإصابة: ٣/ ٢ رقم ٥٨٨٢).

(٣) خالد بن الوليد المخزومي سيف الله، له مناقب كثيرة. (الإصابة: ١/ ٤١٣ رقم ٢٢٠١) (صلاح)

(٤) عروة، كان أحد الأكابر من قومه، وذهب إليهم يدعوهم إلى الإسلام بعد إسلامه، ورماه رجل من ثقيف بسهم فقتله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. (الإصابة: ٢/ ٤٧٧-٤٧٨ رقم ٥٥٢٦) (صلاح)

(٥) هو: القرشي العامري، خطيب قريش. (الإصابة: ٢/ ٩٣-٩٤ رقم ٣٥٧٣) (صلاح)

ولكنه بعد وفاة النبي ﷺ قد ألقى في بيت الله الحرام خطبة مجلجلة تبيّن صدق الإسلام، وتؤيّد دين الله الحق، فتمتلئ القلوب بها إيمانا و سكينة ووقارا.

- **وعمر بن الخطاب** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]، كان قد خرج من بيته يشهر سيفه، ويريد قتل الرسول ﷺ، ولكن الناس رأوه يوم وفاة النبي ﷺ يشهر سيفه، ويقول: «من قال: إن محمّدا ﷺ مات ضربتُ عنقه».
- **ووحشي الذي قتل حمزة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخرج كبده، وقطّع أعضاءه، ومثّل جُثَّته[٢]، قد أسلم بعد مدة، ويندم على ما فعله قبل إسلامه، فيكفّر عن ذنبه بقتل مسيلمة الكذّاب.
- **وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب**[٣]، ابن عمّ النبي ﷺ كان يستمرّ في هجوه ﷺ، ولكنه وفّق للإسلام، فرآه الناس في غزوة حنين، يمسك وحده ركاب الرسول ﷺ.
- **وأبو سفيان بن حرب**[٤] استمرّ في تأليب الجيوش ضدّ النبي ﷺ سبع سنين، وكان يذكي نار الفساد ضدّ المسلمين. ثم أسلم وأُمّر على نجران، التي كان يسكن فيها النصارى.

---

(١) أمير المؤمنين، وكان عند المبعث شديدًا على المسلمين، ثمّ أسلم فكان إسلامه فتحًا على المسلمين، وفرجًا لهم من الضيق. (الإصابة: ٢/ ٥١٨-٥١٩ رقم ٥٧٣٦)

(٢) ثبت بعد الجمع بين الأحاديث الصحيحة والضعيفة أمران:

(الأول): أن التمثيل بجثة حمزة، ثبت بطرق صحيحة، مما يدلّ على أن قصة بقر بطن حمزة -التي يذكرها أهل المغازي والسير- لها أصل.

(الثاني): أن هندًا بريئة من هذا الفعل المشين، وذلك لضعف جميع الطرق التي جاءت تفيد بأن هندًا هي التي قامت ببقر كبد حمزة، والتمثيل بجثته. («ما شاع ولم يثبت من السيرة» للشيخ محمّد ابن عبد الله العوشن: ١٤٧-١٥٢، وعنه في «التعليق على الرحيق المختوم» للشيخ محمود بن محمد الملّاح: ١٥٢-١٥٣). (صلاح)

(٣) هو: الهاشمي، أخو النبي ﷺ من الرضاعة، أرضعتها حليمة السعدية. (الإصابة: ٤/ ٩٠ رقم ٥٣٨ قسم الكنى)

(٤) هو: أبو سفيان صخر بن حرب، القرشي الأموي، أسلم يوم الفتح. (الإصابة: ٢/ ١٧٨ رقم، ٤٠٤٦)

- **والطفيل الدوسي**[(١)]: كان في مكّة يسدّ أذنيه بالقطن، حتى لايصل إليهما صوت النبي ﷺ، ولكن آل أمره بعد إسلامه، إلى أنه كان يطوف بيتًا بيتًا في وطنه، ويبلّغهم صوت محمد ﷺ.
- **وكان عبد ياليل الثقفي**، قد أرسل الغلمان والعبيد في الطائف يرمونه ﷺ بالحجارة، ثم حضر المدينة، ورجع إلى قومه بجواهر الإيمان واليقين.
- **وبريدة بن الحصيب الأسلمي**[(٢)]، كان قد خرج مع سبعين فارسًا للقبض على النبي ﷺ، حتى يفوز بجائزة قريش، وقدرها مائة من حُمر النعم، وذلك تحوّل إلى أن صار حامل لواء الرسول ﷺ.

وتسجيل هذه الأحداث يحتاج إلى دفاتر وسجلّات.

سبب هذا التحوّل المحيّر للعالم هو تعاليم الإسلام:

وكانت كل هذه المعجزات نتيجة لتلك التعليمات الزكية الطاهرة، التي كانت تأخذ بمجامع القلوب تدريجيًا.

وكثير من الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قد أتوا بمعجزات، فرأى من رأى انقلاب ماهية العصا، والحجر، والحيّة، والبحر، والنّار، أو سلب خاصّتها.

ولكن النبي ﷺ -فداه أبي وأمي- قد أتى بمعجزة أعظم من هذا كلّه، بحيث إنه بدّل القلوب وطهّر النفوس وزكّى الأرواح.

فالفرق الذي يوجد بين الإنسان والعصا، وبين الإنسان والحيّة، وبين الإنسان والحجر، مثل الفرق الذي يوجد بين هذه المعجزة ومعجزات الأنبياء الآخرين.

وهذا هو الأمر الذي يحيّر المفكّرين، الذين يريدون أن يكتبوا أو يتكلّموا عن الرسول ﷺ، رغم اختلافهم في الدين حتى الآن.

---

(١) هو: الطفيل بن عمرو بن طريف الدوسي، أسلم، ورجع إلى بلاد قومه، ثم وافى النبي ﷺ في عمرة القضيّة، وشهد الفتح بمكّة. (الإصابة: ٢/ ٢٢٥ رقم ٤٢٥٤).

(٢) بريدة أسلم حين مرّ به النبي ﷺ مهاجرا بالغميم، وغزا مع النبي ﷺ ست عشرة غزوة. (الإصابة: ١/ ١٤٦ رقم ٦٣٢) (صلاح)

من واجبات المسلمين تجاه هذا الدين:

وليت المسلمين يقدّرون هذا التعليم الطاهر! وليتهم يطّلعون على هدف النبي ﷺ النبيل! وليتهم يرون الحفاظ على الإسلام من واجباتهم! وليتهم يعتبرون بقاء الإسلام أوجب وأهمّ من بقاء أنفسهم، وأبنائهم، وآبائهم، وعظمائهم: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝٢٠﴾ [إبراهيم: ٢٠]

من عجائب ميزات السيرة النبويّة العطرة:

واعلموا أيها القراء! أن سيرة الرسول ﷺ تمتاز بميزة عجيبة، وهي أنها تستطيع أن تهدي كل طبقة من طبقات المجتمع الإنساني.

- جدير بالذكر أن النبي ﷺ ولد يتيمًا، لذا لازمه الفقر والمسكنة.
- وعاش سنواته الأولى عيشا ريفيًّا، فنشأت البساطة، وعدم التكلّف.
- أمضى النبي ﷺ صباه في حين، انشغل فيه قومه بحرب الفجار وغيرها من الحروب، لذا استحكمت أهمية الأمن العام، والرحمة والتعاطف في قلب النبي ﷺ من بداية أمره.
- ولم يتزوّج إلى السنّ الخامسة والعشرين، وعاش حياة التجرّد هذه، بكامل عفافه، وحيائه، وهو في عين عنفوان شبابه، حتى شهد من رآه، أنه ﷺ «كان أشدّ حياء من العذراء في خدرها[١]».
- واختار ﷺ التجارة لكسب قوته وعيشه، وهكذا أرشد أصحاب الهمم العالية، الذين يتصفون بالثبات، والهمة، والاستقلال، وفهم المعاملات والحاجات، والحلم والأناة، إلى أنه ليس هناك كسب أفضل من التجارة.
- وتزوّج زواجه الأوّل من أرملة تكبره بخمس عشرة سنة[٢]، مع اتصافه الكامل بجمال الرجولة، والحسن، وعلوّ الحسب، والنسب، وبذلك قدّم نموذجًا رائعا في غاية

---

(١) البخاري (٦١١٩) عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. (صلاح)

(٢) راجع للخلاف في عمر خديجة عند زواجها مع النبي «السيرة النبوية الصحيحة» للدكتور أكرم ضياء العمري: ١/ ١١١، و«التعليق على الرحيق المختوم» (ص ٥١) (صلاح)

الروعة لضرورة زواج الأرامل وعظمته، وأوضح أيضًا أننا نستطيع أن نتحرّر من قيود الأهواء والتخيلات الشهوانية حتى لو كنّا متأهّلين؟

- وهذه الزوجة كانت ثريّة جدًا، ولكنه ﷺ أثبت استغناءه عن معونتها المالية، وكذلك عن معونة أسرته أيضًا، لأهليته القانعة وسيرته الزاهدة وبذلك أنار طريقًا لأولئك الذين يساعدون أنفسهم بأنفسهم.

- وقد أثر الرسول ﷺ بحياته الصادقة، وسيرته الرحيمة العاطفة، في قلوب العرب الجفاة في مدة قصيرة، ونال منهم المودّة والتكريم. وهكذا قدم نموذجا زاهرًا للصادقين، بحيث أن قوة الخير والصدق كيف تغلب الظلم والجهل.

- إنه ﷺ قد أدرك بركات قوة التعاون والتمدّن، ومهّد السبيل بعقد حلف الفضول، لاستقرار الأمن، والحفاظ على النوع البشريّ، ولقّن الحريصين على نهضة البلاد درس الاستعانة بأبنائها في سياستها، ودرس مبدأ إسهام المواطنين في بناء الوطن.

- وأرشد ﷺ بنصب الحجر الأسود إلى أنّه كيف يتمّ جمع المختلفين في الأهداف على مركز واحد، وبرهن على أن تدعيم السلام، وتجنّب ويلات الحرب، لا يحتاج إلى القوّة الحربية، بل إلى بصيرة نافذة وذهن ثاقب.

محاسن الأنبياء كلّها تتجلّى في نبوته ﷺ:

- وفي نبوته ﷺ تتجلّى محاسن الأنبياء كلّهم، فقد كُذّب مثل المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ وأوذِي، ولكنه ﷺ صبر وشكر.
- وأبلغ إلى القرى والصحاري صوت الله، مثل يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ.
- وأحيى حرمة بيت الله من جديد، مثل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.
- وعاش السنوات الثلاث من حياته في الشّعب صابرًا، مثل أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ مداومًا على شكر الله.
- وأنه ﷺ، مثل نوح بلّغ الدين قومه الأشقياء في السرّ والعلانية، جماعات ووحدانا، وفي الأعياد والاجتماعات، والطرق، والمساكن، والصحاري، والجبال، وحذّرهم مما كانوا فيه من المعاصي وسيئات الأعمال.

- ومثل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ اعتزل قومه، وهاجر من وطنه، يبحث عن أرض خصبة صالحة لشجرة الإسلام الطيبة.
- وفي ليلة الهجرة نجح ﷺ في الإفلات من أيدي الأعداء، مثل داود عَلَيْهِ السَّلَامُ.
- ومكث ثلاثة أيام في غار ثور، ثم رفع كلمة الله في المدينة الطيبة، كما وقع ليونس عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي قضى ثلاثة أيام في بطن الحوت، ثم بلّغ نداءه في «نينوى».
- وكما حرّر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بني إسرائيل من استعباد فرعون مصر، حرّر ﷺ العرب في شمال الجزيرة من سيطرة ملك الروم، وفي شرقها من استعباد كسرى فارس، وفي جنوبها من احتلال ملوك الحبشة.
- ومثل سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ نبي ﷺ في المدينة بيت الله، الذي لايزال معمورًا بذكر الله، ومنوّرًا بنور التوحيد، ومصونا من أيدي العابثين: مثل «بخت نصر» وغيره.
- ومثل يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، استجلب الطعام بواسطة ثمامة بن أثال، لإخوانه المكّيين الذين آذوه، وحينما فتحت مكّة، بشّرهم بأن «**لا تثريب عليكم اليوم**»، وملكهم بالإحسان، فقال: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**».[1]
- وكان ﷺ في وقت واحد، صاحبَ دولة مثل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وصاحبَ إمامة مثل هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ.
- وقد اجتمع في ذاته ﷺ نشاط نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ورقّة إبراهيم، وعفوُ يوسف، وانتصارات داود، وصبر يعقوب، وعزّة سليمان، وتواضع عيسى، وزهد زكريا، وخفة روح إسماعيل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.[2]

---

(١) ذكره ابن هشام، وقال الألباني في «دفاع عن الحديث» (٣٢): «ليس له إسناد ثابت، وهو عند ابن هشام معضل»، وكذا في «التعليقات الرضيّة»: (٣/ ٤٥٧) وقال في تخريج «فقه السيرة» (٣٨٢) ضعيف. (صلاح)

(٢) صنّف الله عز وجل أنبياءه الكرام في أصناف، وأشاد بذكرهم الجميل بمحاسنهم وفضائلهم، ثم خاطب نبيه ﷺ، وقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ...﴾ [الأنعام: ٩٠]. فالنبي ﷺ كان جامعًا لمحاسنهم، باقتدائه إياهم، وهي تتجلّى في نبوته ﷺ.(صلاح)

[وذلك كما قيل في بيت شعر في الفارسية، ما معناه[1]]:

أنت يا من تحتلّ عرش السيادة منذ الأزل
ومحاسن الكرام كلّهم اجتمعت فيك وحدك[2]

وإن كانت شمس الرسالة تتزيّن بجميع الألوان الزاهية المقدّسة، ولكن نور «رحمة للعالمين» كان نورًا، وسع كل الألوان في داخله، فجعل الدنيا كلّها مضيئة بيضاء نقيّة.

وأيّ مجال لذرّة تافهة، أن تساهم في إضاءة الشمس البازغة في رابعة النهار.

وها أنا أذكر سيرته النقيّة العطرة، بإيجاز واختصار.

عفا الله عن زلّاتي، نظرًا لحسن نيّتي، وليُسامحني إخوتي في الإسلام إذا ما قصّرت في الخدمة مراعاة لقلّة بضاعتي.

العاجز

محمد سليمان

---

(١) والبيت بالفارسية كما يلي:

أي كه بر تختِ سيادت زأزل جا داري   آنچه خوبان همه دارند، تو تنها داري

(٢) في كتاب الله تعالى إشارة واضحة إلى هذا، حيث أمر سبحانه نبيّه ﷺ فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ...﴾ [الأنعام: ٩٠] كما تقدم ويأتي أيضًا مزيد بيانه في محله. (صلاح)

باب
محمد بن عبد الله ﷺ
حياته وبعثته

باب
محمد بن عبد الله ﷺ
حياته وبعثته[١]

من أسماء النبي ﷺ:

سيّدنا محمد[٢] بن عبد الله[٣] بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ:

---

(١) ألقى الله تعالى بتدبيره المحكم أضواء كاشفة على شخص محمد بن عبد الله في أيامه الأولى، حتى ليخيل للباحث أنه لم يبق ذو شأن في العرب إلا وقد وصله شيء عن محمد يقول: إن محمدًا هو الرجل الذي يمكن أن تناط به في المستقبل مهمة قيادة هذه الأمة إلى شاطئ الأمان. (قراءة جديدة للسيرة النبوية: ١٥) (صلاح)

(٢) لفظ محمد اسم مفعول من حمد، والمضاعف للمبالغة، وأحمد أيضا من الحمد، واقع على المفعول، وتظهر من اسم محمد: كثرة الحمد وكمّيته، ومن اسم أحمد: صفة الحمد وكيفيته، وقال حسان بن ثابت:

وشقّ له من اسمه ليجلّه ... فذو العرش محمودٌ وهذا محمّدٌ

وليعلم أن للنبي ﷺ نسبة خاصة بالحمد، فاسمه محمد وأحمد، واسم مقام شفاعته محمود، وأمته الحمادون، واسم لوائه لواء الحمد، فالحمد لله على ذلك كثيرا.

(٣) «لما نجا عبد الله بن عبدالمطلب من الذبح، فترعرع وشب، فكان أجمل رجل رئي في قريش، حتى تمنته كثير من نسائها أن يكون لهن الزوج المنتظر، ... ولكنه لم يقبل ذلك، فخطب له أبوه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة، وهي يومئذ سيدة بني زهرة سنًا وشرفًا فزوجه إياها، وكان عمره حين زواجه ثمانية عشر عامًا. (قراءة جديدة للسيرة النبوية: ١٩-٢٠)

وقد صح النقل عن عبد الله بن عباس أنه قال...: كان عبد المطلب بن هاشم نذر إن تَوافى له عشرةُ رهطٍ أن ينحر أحدهم. فلما توافى له عشرة، أقرع بينهم أيهم ينحر، فطارت القرعة على عبد الله بن عبد المطلب، وكان أحبّ الناس إلى عبد المطلب، فقال عبد المطلب :اللهم هو أو مائة من الإبل ثم أقرع بينه وبين الإبل، فطارت القرعة على المائة من الإِبل. والرواية تبدو أنها كانت =

رسولُنا، وقد سمّاه جدّه محمّدا، وسمّته أمّه أحمد[١]، ببشارة ملك في المنام.[٢]

نسبه الشريف من جهة أبيه وأمه:

والنبي ﷺ من ولد إبراهيم[٣] (خليل الرحمن، أبي الأنبياء عَلَيْهِ السَّلَامُ)، وهم من بطن هاجر بنت رقيون ملك مصر. وقد كانت لها مكانة رفيعة عند الله تعالى، بحيث ملائكة الله كانت تأتيها وتبلّغها رسالات الله[٤].

=

متداولة في أوساط العائلة.» (الطبري: تاريخ ٢/ ٢٣٩-٢٤٠، بإسناد صحيح، رجاله ثقات) والحادث يوحي بما خطه القدر الإلهي من ميلاد الرسول ﷺ من أبيه عبد الله بن عبد المطلب، فقد حفظ الله حياة عبد الله بما صرف عبد المطلب عن نحره. («السيرة النبوية الصحيحة»: ١/ ٩٢-٩٣). (صلاح)

(١) الخطبات الأحمدية (ص٤٣)، وفي الحديث: «إن اسمي في الأرض محمد، وفي السماء أحمد». [«إن اسمي في القرآن: محمد، وفي الإنجيل: أحمد، وفي التوراة: أحيد... لأني أحيد عن أمتي نار جهنم...» موضوع، راجع سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني (١٨٦٥) صلاح].
وفي التوراة اسمه المبارك «محمد»، وفي الإنجيل «أحمد». [قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿...وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ...﴾ [الصف: ٦]. [راجع لأسماء النبي ﷺ الهامش الآتي.]

(٢) قد بشّر الملك السيّدة آمنة ببشارة التسمية، كما سمّت السيدة هاجر ابنها إسماعيل ببشارة الملك (التكوين ١٧/ ١١باب) وسمّت مريم ابنها يسوع (لوقا: ١/ ٣١).
[لم تثبت بشارة الملك آمنة بتسمية النبي ﷺ بأحمد، والذي ثبت ما رواه جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: «لي خمسة أسماء، أنا محمد وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب (البخاري (رقم ٣٥٣٢، ومسلم رقم ٢٣٥٤)، وفي صحيح مسلم (٢٣٥٥) عن أبي موسى الأشعري زيادة «... المقفّى، ونبي التوبة، ونبي الرحمة».]

(٣) كان اسم إبراهيم في البداية (إبرام) فسمّاه الله تعالى إبراهيم، ومعناه: أبو الأمم (التكوين: باب١٧ درس٥)، ومن ولده بنو إسماعيل، وبنو إسرائيل، وبنو عيصو، وبنو قيطورة.
فلينظر القساوسة الذين يذكرون بني إسرائيل فقط، في أن إبراهيم كيف يكون أبا الأمم على قولهم [أي: من غير ذكر بني إسماعيل].

(٤) سفر التكوين (١٦/ ٧-١٦).

واسم ولد هاجر: إسماعيل، وهو باكورة أولاد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، أسكنه إبراهيم في الوادي، حيث الآن مكة المكرمة، وقد فجّر الله تعالى لإسماعيل عين زمزم.[١]

وهب الله إسماعيل اثنى عشر ولدا، اشتهر من بينهم قيدار، وقد كثر ذكره في التوراة[٢].

وقد نبه شأن عدنان[٣] من ولد قيدار جدًّا، كما عظم شأن قصيّ من ولد عدنان وقصيّ الجدّ الرابع للنبي ﷺ[٤].

وأمه ﷺ: آمنة بنت وهب رئيس قبيلة بني زهرة، ونسبه يتّصل بفهر الملقب بقريش.

وهكذا كان النبي ﷺ من جهة أبيه و أمّه من خير بطون العرب، ومن أحسن قبائلهم.[٥]

---

(١) سفر زبور (٨٤/ ٤-٦)، والتكوين (٢١/ ١٩)، وصحيح البخاري (٦/ ٣٩٦).

(٢) أشعيا (١/ ١٦)، زبور (١٢٠/ ٥)، أشعيا (٧/ ٦٠)، إرمياه (٤٩/ ٢٨).

(٣) ذكر البخاري (قبل الرقم ٣٨٥١) نسب النبي ﷺ إلى عدنان. قال ابن القيم: «إلى هاهنا معلوم الصحة، متفق عليه بين النسّابين... وما فوق عدنان مختلف فيه. ولا خلاف بينهم أن عدنان من ولد إسماعيل». (زاد المعاد: ١/ ٧١) (صلاح)

(٤) لقد قام أبناء قصي وأحفادهم بأعمال مهمة، أدّت إلى ازدهار مكّة، وبنفس الوقت أبرزت مكانتهم وفضلهم وشرفهم بين الناس، ومكنتهم من سيادتهم، وأمسكوا بزمام وظائفه من بعده من السقاية، والرفادة، والحجابة، واللواء، والندوة. كما تقدّم في تمهيد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ. (صلاح)

(٥) كان ﷺ أشرفهم، كما ورد في حديث واثلة بن الأسقع الليثي عن النبي ﷺ قال:

«إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم». (مسلم: رقم٢٢٧٦).

وقال ﷺ: «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي لم يصبني من سفاح الجاهلية شيء». (حسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٢٢٥) عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، و (رقم ٣٢٢٤) عن عائشة أم المؤمنين مختصرا بلفظ: «خرجت من نكاح غير سفاح».

راجع الأحاديث الواردة في نسب النبي ﷺ ومكانته في قومه في كتاب «صحيح السيرة النبوية» للشيخ إبراهيم العلي (١٩-٢١. ط. ثانية. دار النفائس). (صلاح)

مولد النبي ﷺ:

ولد نبينا ﷺ يوم الاثنين[١] في التاسع من ربيع الأوّل[٢] عام الفيل[٣]، الموافق للثاني والعشرين من أبريل[٤] ٥٧١م (والأوّل جيتهـ سنة ٦٢٨ البكرمية)[٥]، في مكة المكرمة[٦]،

---

(١) ليوم الاثنين ميزة وخصوصية في حياته ﷺ، فإنه فيه وولد، وفيه بعث، وفيه هاجر، وفيه توفّي، وهذا يساعد في تصحيح مختلف التواريخ. [أحمد: ٤/ ١٧٢، قال أحمد شاكر: إسناده صحيح عن أبي قتادة: أن أعرابيا سأل رسول الله ﷺ عن صوم الاثنين، قال: «ذاك يوم ولدت فيه، و أنزل عليّ فيه». (مسلم:١١٦٢) (صلاح)]

(٢) اختلف المؤرخون في تأريخ ولادته، فقال الطبري وابن خلدون: إنه ولد يوم ١٢/ من ربيع الأول، وقال أبو الفداء: ولد يوم ١٠/ منه.
ولكنهم جميعا اتفقوا على أنه ولد يوم الاثنين، وبما أن يوم الاثنين [حسب التحقيق التأريخي] لايوافق في هذا العام إلا اليوم التاسع من ربيع الأول، يرجّح أن مولده ﷺ هو اليوم التاسع.
وقد رجّحه الأستاذ محمد طلعت بك عرب أيضًا في «تأريخ دول العرب والإسلام».
[وكذا رجّحه الفلكي المحقق محمود باشا، كما في «محاضرات الأمم الإسلامية للخضري» (١/ ٦٢)، وأستاذنا الشيخ صفي الرحمن المباركفوري في «الرحيق المختوم» نقلًا عن مؤلفنا نفسه رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص٥٤). وقال: «اختلافهم في تعيين تأريخ أبريل (ما بين العشرين والثاني والعشرين) فرع للاختلاف في التقويمات الميلادية». (صلاح)]

(٣) أي بعد حادث عام الفيل بخمسة وخمسين يوما. [قال خليفة: إنه المجمع عليه» تأريخ خليفة: ص٥٣ (صلاح)]

(٤) ٢٢/ من شهر أبريل، يوافق قاعدة «جرت جرين» (Great Grand) التي ابتدأ بها حساب التقويم الإنجليزي سنة ١٧٥٢م، ولكن اليوم التاسع من ربيع يوافق ١٩ من أبريل وفق القاعدة القديمة لجولين سنة ٢٨٤م، وعدّ جورين أن ١٩ أبريل على الحسب القديم يوافق ٢٢ أبريل.
وبهذا يظهر أن ولادته ﷺ كانت في فصل الربيع، كما ولد فيه يحيى وداود عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ.

(٥) وهي التقويم الهندوسي. (صلاح)

(٦) في شعب بني هاشم. (صلاح)

بعد الفجر الصادق[١] وقبل طلوع الشمس، وكان ﷺ وحيد[٢] أبويه، وقد توفّي والده ﷺ قبل ولادته.[٣]

جدّه عبد المطلب:

وجدّه عبد المطلب أيضًا قد جرّب حياة اليُتم، ولما سمع عن مولده ﷺ فرح بأنه يبقى ذكرى لابنه الحبيب الشابّ عبد الله، الذي توفّي وهو ابن أربع وعشرين سنة، فقدم إلى بيته، وذهب بمولوده إلى الكعبة، ودعا له ثم رجع به إلى البيت.

وفي اليوم السابع قدّم قربانا عنه، ودعا قريشا كلّهم. وبعد الوليمة سألوه عن اسم المولود، فقال: سمّيته «محمدا» فتعجّبوا، وقالوا: لماذا اخترت هذا الاسم، تاركا أسماء أسرتك المعهودة؟

قال: أحبّ أن يكون وليدي هذا جديرًا بثناء العالم أجمع[٤].

---

(١) كان طلوع الفجر الصادق يوم ولادته السعيد في الساعة الرابعة، والدقيقة العشرين (بحساب ساعة الظلّ)، أو في الساعة التاسعة، والخمسين دقيقة (بالحساب المروّج عند العرب)، وكانت الشمس يوم ذاك في برج الحمل (٣١ درجة و ٢٠ دقيقة). ومضت على أوّل شهر «جيتهـ» (حسب التقويم الهندي) ١٣ ساعة، و ١٦ دقيقة.

(٢) [راجع الأحاديث الواردة في أبوي النبي ﷺ في «سيرة المصطفى الصحيحة» (١/ ٣٨-٤٠ رقم ٢٨-٣٠)] في أشعيا (٩/ ٥): إنه وُهبَ لنا ابن، وهذا بشارة بالنبي ﷺ لا بالمسيح، لأن إنجيل متّى يصرّح بأن المسيح لم يكن وحيد مريم، بل كان له إخوة وأخوات غيره.

(٣) كان عبد الله قد ذهب إلى المدينة عند أخواله، وتوفي هناك، وهو ﷺ حمل في بطن أمه على المشهور. وروى أبو أمامة الباهلي، قال النبيﷺ: «رأت أمي كأنه خرج منها نور أضاءت منه قصور الشام». (أحمد رقم ٢٢٣١٥، سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني رقم ١٩٢٥) (صلاح)

(٤) أبو الفداء في كتابه: «المختصر في سيرة سيد البشر» (ص١١٠)، وانظر أيضًا أشعيا (٩/ ٥)، وفيه: «كانت تسميته بهذا الاسم عجبًا».

[قال ابن هشام (١/ ١١١ -مختصر سيرة ابن هشام): وكان جدّه عبد المطلب يكرمه غاية الإكرام، وكان يجلس على فراشه -وهو غلام- فيأخذه أعمامه ليؤخّروه عنه، فيقول عبدالمطلب: دعوا ابني فإن له شأنا، ويسرّه ما يراه يصنع. (ضعيف، سنده منقطع. («ما شاع ولم يثبت»: (ص١٠)، و«التعليق على الرحيق» (ص:٤٩)) (صلاح)]

في أيام الرضاعة:

وكان من عادة أشراف مكة أن يرسلوا أطفالهم بعد اليوم الثامن من الميلاد مع مرضعات إلى خارج مكة، إلى مكان يتمتع بجودة الجوّ، وصفاء الهواء.

واتباعًا لهذه العادة أخذت حليمة السعدية[١] محمّدًا، وذهبت به إلى بيتها، وكانت تأتي به إلى أمّه وأقاربه بعد كلّ ستة شهور ليروه، وكان فطامه ﷺ بعد عامين. فجاءت به حليمة إلى أمّه آمنة، ولكن أمّه أعادته معها إلى البادية، فعلت ذلك حرصا على صحته، لأن جوّ البادية كان موافقًا له جدّا، ولعلّها خشيت عليه من جوّ مكة.[٢]

وفاة أمّه وكفالة جدّه:

ولما كان ﷺ في الرابعة من عمره طلبته أمّه، فكان يعيش معها، ولما بلغ السادسة من العمر، توفّيت أمه[٣] فكفَله جدّه.[٤]

---

(١) وهي ابنة أبي ذؤيب، وهي التي أرضعت النبي ﷺ حتى أكملت رضاعه، وأقام معها خمس سنين، وقد أرضعته ثويبة (قبل حلمية)، عن عروة قال: وثويبة مولاة لأبي لهب، كان أبو لهب أعتقها، فأرضعت النبي ﷺ. (البخاري: ٥١٠١، ومسلم: ١٤٤٩).

وقد ذكروا نسوة أخرى أرضعن رسول الله ﷺ ولكن الصحيح ما ذكر. («سيرة المصطفى الصحيحة على منهج المحدّثين»، لشيخنا الدكتور محمد عبد الله الأعظمي المعروف بالضياء: ١/ ٢٩ ضمن الحديث رقم ١٧).

(٢) هذا الذي كانت تريده حليمة أيضًا، لما رأت من بركة هذا الطفل المبارك في بيتها، ومرعى أنعامها، وكان هذا الخبر مشتهرا في البادية «قالت حليمة: فقدمنا به على أمه، ونحن أحرص شيء على مكثه فينا عندي حتى يغلظ، فإنّي أخشى عليه وباء مكّة، فلم نزل بها حتى ردّته معنا، قالت: فرجعنا به». (مختصر سيرة ابن هشام: (٢/ ١٠٤) (صلاح)

(٣) قال ابن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم، قال: قدمت آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ على أخواله من بني عدي بن النجار بالمدينة، ثمّ رجعت به، حتى إذا كانت بالأبواء هلكت بها. ورسول الله ﷺ ابن ست سنين (الفقرة رقم ٤٦) هذا، مرسل، وهو قول جماهير علماء التأريخ والسير، بأن أمّ النبي ﷺ آمنة كانت بالأبواء في قرية تسمّى «ودّان» وهي من نواحى الفُرع بين المدينة ومكّة». (سيرة المصطفى: ١/ ٣٧-٣٨) (صلاح)

(٤) «الخطبات الأحمدية» للسير سيد أحمد خان. [تكامل يتم رسول الله ﷺ بموت أبويه، ثم بموت =

ولما كان عمره ﷺ ثماني سنوات وشهرين وعشرة أيام، توفي جدّه عبد المطلب عن عمر يناهز اثنتين وثمانين سنة[١].

كفالة أبي طالب:

وهنا تولّى عمّه أبو طالب -شقيق والده: عبد الله- تربيته ﷺ.[٢]

لقاؤه مع بحيرى الراهب:

تذكر كتب السيرة أن النبي ﷺ حينما بلغ الثانية عشرة من عمره[٣]، ذهب إلى الشام مع عمه أبي طالب، الذي كان يسافر إليها للتجارة، وفي بصرى عرف الراهب بحيرى النبي ﷺ بأن هذا الشاب هو النبي الموعود، فقال لأبي طالب: لاتذهب به إلى بلاد اليهود، لئلا يعرفوه فيؤذوه، ولما سمع عمه الشفيق هذا، أعاده من بصرى، خوفا عليه.[٤]

= جدّه، وهذا كان ملفتًا للأنظار لهذا اليتيم، مع ذكائه الوقّاد، وحسن تصرّفه، وكريم أخلاقه، ومظهره الموحي بالعظمة، وقوّته الشخصية].

(١) ويقال: ابن مئة وعشرين سنة. وسئل رسول الله ﷺ: أتذكر موت عبد المطلب؟ قال: نعم! أنا يومئذ ابن ثماني سنين. قالت أم أيمن: رأيت رسول الله ﷺ يومئذ يبكي خلف سرير عبد المطلب» ذكره ابن سعد في الطبقات (١/ ١١٩)، وسيرة المصطفى (١/ ٤٦).

(٢) قال ابن هشام: «كان رسول الله ﷺ بعد عبد المطلب مع عمه أبي طالب... وذلك لأن عبد الله أبا رسول الله ﷺ وأبا طالب أخوان لأب وأمّ، وأمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ المخزومي، فكان أبو طالب هو الذي يلي أمر رسول الله ﷺ بعد جدّه فكان إليه ومعه». (مختصر السيرة النبويّة: ١/ ١١٢) (صلاح)

(٣) عيون الأثر لابن سيّدالناس (٤٠)، وذكر أن النبي كان في التاسعة، أوالعاشرة، أوالثانية عشرة من عمره على اختلاف الرواة. (السيرة النبوية الصحيحة: ١/ ١٠٦)

(٤) وقد علّق القساوسة على مجرّد ذكر لقاء النبي ﷺ مع بحيرى الراهب، بما لا يتحمّله ذلك اللقاء المختصر من أن ما أظهره النبي ﷺ بعد الأربعين عامًا من تعليمات، كان قد تلقّاه من بحيرى.

فأقول: إن كان النبي ﷺ قد أبطل نظرية التثليث، والكفارة، والصلب على أساس توجيه ذلك الراهب، فلماذا لا تقبل النصارى اليوم توجيه كبيرهم ذاك؟ (المؤلف: محمد سليمان).

[**قال الدكتور أكرم العمري:** «وقد حاول بعض المستشرقين، أن يبني على هذه القصة اتهامات =

وورد في الحديث الذي ذكره الترمذي[1] وغيره عن الحادث: أن أبا طالب حينما أراد

= فيها مجازفة علمية، حيث زعموا أن النبي تلقى علم التوراة عن بحيرى إذ كيف يعقل أن يتلقى النبي في السن الثانية عشرة علم التوراة في ساعة الطعام، التي التقى خلالها ببحيرى، وهو أمّي لا يحسن القراءة والكتابة؟! فضلًا عن حاجز اللغة، إذ لم يكن قد وجد في ذلك الوقت توراة ولا إنجيل باللغة العربية. وإذا كان المقصود ردّ أصول الإسلام إلى التوراة، فأين أثر تعاليم التوراة تلك في حياة الرسول ﷺ وما بين لقائه ببحيرى وبعثته ثماني وعشرون سنة!!

زد إلى ذلك أن النبي ﷺ كان في السن الثانية عشرة، والتقاءه مع بحيرى خلال الطعام، وكان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، ولم يكن قد وجدت التوراة والإنجيل في ذلك الوقت في اللغة العربية. وعلى هذا اتهامات المستشرقين فيها مجازفة علمية مكشوفة. (حضارة العرب لغوستاف لوبون: ص١٠٢، و مونتكمري واط في «محمد في مكة»: ص ٧٥، كما في «السيرة النبوية الصحيحة» للدكتور أكرم ضياء العمري: ص١١٠)

«وكذلك حاول البعض استغلال التشابه في مناسك الحج بين الجاهلية والإسلام، وبعض الشعائر التعبدية الأخرى، لإثارة شبهات هي أن تعاليم الإسلام امتداد للعصر الجاهلي مع تغييرات يسيرة في الطقوس.»

وإن مراد القائلين بأن الإسلام امتداد وتطور وانعكاس لبيئة فكرية واجتماعية بمكة، التأكيد على بشرية القرآن وإنكار النبوة والوحي. (المصدر نفسه: ١/ ٨٧) (صلاح)

وقال شيخنا ضياء الأعظمي: «فلا ينبغى الإنكار على هذه القصة من أصلها، خوفًا من أن بعض المستشرقين اتخذوها ذريعة للطعن في نبوّة النبي ﷺ، وقالوا: إنه أخذ شرائع الإسلام من هذا الراهب، بل منهم من قال: إنه أخذ القرآن بكامله منه، وهو قول يدلّ على إفلاس قائله وجهله». (سيرة المصطفى: ١/ ٥٠) (صلاح)

(١) صحيح الترمذي (٣٦٢٠ للألباني، ولكن ذكر «بلال» فيه منكر، كما قيل) تخريج مشكاة المصابيح (٥٨٦١)، و قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.» وحسّنه الأعظمي في «سيرة المصطفى» (١/ ٤٧-٤٨ رقم ٣٦).

وقدّ ردّ الألباني على من أعلّ به في «الرد على الدكتور البوطي» (٦٢-٧٢)، وذكر سبعة من الحفاظ بأنهم سبقوه إلى تصحيحه. (صحيح السيرة النبوية: ٢٩-٣١ مع الهامش)، وحسنه الدكتور محمد عبد الله الأعظمي في «سيرة المصطفى الصحيحة على منهج المحدثين» (١/ ٤٦-٤٧ رقم ٣٦)

أن يعيده، «بعث معه أبو بكر بلالًا».

وقال ابن القيم:

وهو من الغلط الواضح.

أوّلا:

إن بلالا لم يكن إذ ذاك عند أبي طالب، ولا عند أبي بكر.

ثم ثانيًا: يمكن أنه لم يكن موجودا في تلك الأيام البتة(١).

ويثبت من الآية الكريمة:

﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩]

إن اليهود كانوا في انتظار الرسول الموعود، ويحسبون أنهم ينتصرون به على الكفار بعد مجيئه، وكانوا يعتقدون هذا إلى نزول القرآن، وثبت بالآية أيضًا خطأ قول بحيرى الراهب، فإن اليهود لو عرفوا النبي ﷺ في صباه لأكرموه واتّبعوه على أنه بشير انتصارهم

---

(١) زاد المعاد (١/ ٧٦-٧٧).

قال الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلّقًا على مثل هذه الاحتمالات:

«وإعلال الحديث بأن فيه ذكر أبي بكر وبلال، وكان عمر أبي بكر إذ ذاك تسع سنين أو عشر، إنما هي دعوى مبنية على أن عمره ﷺ يومئذ اثنتا عشرة سنة، وهذا غير محفوظ، فإنه إنما ذكره مقيدًا بهذا الواقدي، والواقدي متروك متّهم، فمن الممكن أن تكون القصة وقعت بعد ذلك بسنين، فلا يجوز إعلالها بمثل قول الواقدي المنكر».(«صحيح السيرة النبوية» للألباني: ص ٣١، تعليقًا)

«ولكن أصل القصّة، هو ذهابه إلى الشام مع عمّه ثابت، لم ينكره عليه أحد. أما ذكر بلال وأبي بكر في القصة منكر لاشك فيه، وذكر البزار هذا الحديث في مسنده، ولم يقل: أرسل معه بلالا، ولكن قال: رجلا». (راجع التفصيل في «سيرة المصطفى ﷺ» (١/ ٤٧-٥٠ تحت رقم ٣٦).

وقال الدكتور أكرم ضياء العمري بعد عرض كلام النقاد في هذا الحديث نفيا و إثباتا:

«...وعلى أية حال، فإن وجود النكارة في الفقرة الأخيرة لا يعني ضعف سائر الرواية، ما دام السند صحيحًا.» («السيرة النبوية الصحيحة»: ١/ ١٠٩) (صلاح)

وسيطرتهم. وهذا يدلّ على أن قصة لقاء بحيرى مختلقة غير موثوق بها.(١)

التفكير في التجارة:

لما بلغ النبي ﷺ سنّ الشباب، فكر أوّلًا في التجارة، ولكنه لم يكن يملك لها مالا، وكانت في مكة أرملة من أسرة كريمة تسمّى خديجة تملك مالا كثيرا وتتّجر به. فلمّا سمعت عن محاسن النبي ﷺ وصفاته من الصدق والأمانة، وحسن التصرّف، طلبت منه بنفسها أن يتّجر في مالها، فرضي النبي ﷺ بذلك، وذهب بمالها للتجارة فربحت كثيرا.

خديجة تخطبه لنفسها:

وكان ميسرة غلام خديجة مع النبي ﷺ في هذا السفر، فروى لها بعد ما عاد، ما رأى من كمال شمائله، وتمام محاسنه، وسمّو أخلاقه، وصلاح أعماله. ولما سمعت خديجة بهذا، طلبت منه الزواج وتزوّجت، مع أنها ردّت من قبلُ، طلبَ عظماء قريش وسادتها للزواج منها.(٢)

---

(١) صححه الحاكم في مستدركه، وقال: صحيح على شرط الشيخين وتعقّبه الذهبي قائلا: أظنه موضوعا، فبعضه باطل. (المستدرك وتلخيصه: ٢/ ٦١٥-٦١٦)

ذكرنا تصحيح الألباني والأعظمي هذا الحادث، وعلى هذا، قول الراهب يكون خوفا على حياة النبي ﷺ حسب علمه، فلا تعارض بين الآية والحديث. ولا يردّ حديث صحّ أو حسن إسناده بمثل هذه الاحتمالات والتشكيكات.

وقد تقدّم قول الدكتور العمري الهامش الماضي: «... وعلى أية حال، فإن وجود النكارة في الفقرة الأخيرة، لا يعنى ضعف سائر الرواية، ما دام السند صحيحًا». (السيرة النبويّة الصحيحة: ١/ ١٠٥) (صلاح)

(٢) كانت خديجة يومئذ أشرف نساء قريش نسبا، وأعظمهن شرفا، وأكثرهن مالا، وكان كل رجل من قومها حريصا على الزواج منها لو يقدر عليه.

ولكن خديجة امرأة عاقلة حازمة لبيبة شريفة، فطمحت أن تكون الزوجة المخلصة لذلك الرجل العظيم، الذي فيها بعد تشاطره شرف حمل الرسالة، وتعينه عليها، فاستدعته، وعرضت عليه نفسها.» («قراءة جديدة للسيرة النبوية»: ٣١-٣٢) (صلاح)

ولما تمّ هذا الزواج كان عمر النبي ﷺ خمسة وعشرين عامًا، وعمر خديجة الأربعين. وعاشت مع النبي ﷺ خمسة و عشرين عامًا، وكان النبي ﷺ يذكرها بعد موتها بكل حبّ ووداد، ويحسن إلى صديقاتها ويكرمهن.(١)

وتفرغ الرسول ﷺ تمامًا بعد الزواج لعبادة الله، وفلاح بني آدم، وصلاحهم ونصحهم.

انعقاد حلف الفضول: هو حلف الأمن والسلام ومراعاة الحقوق(٢):

وفي هذه الأيام أهاب النبي ﷺ برؤساء القبائل وعقلاء الناس من انتشار الفساد في

---

(١) يُظهر اهتمام النبي ﷺ بخديجة معاملته مع صديقاتها مما رواه الشيخان عن عائشة أم المؤمنين، قالت:

ما غرتُ على أحد من نساء النبي ﷺ، ما غرت على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة، فيقول «إنها كانت، وكانت، وكان لي منها ولد». (البخاري: ٣٨١٨) و مسلم: ٢٤٣٥) (صلاح)

[**لم يتزوّج رسول الله في حياة خديجة امرأة غيرها لأمرين اثنين:**

(الأول): تقديرا منه صلوات الله وسلامه عليه لجهاد خديجة، ونفثها روح الصمود في نفس رسول الله ﷺ.

(الثاني): لم تكن هناك أية حاجة للدعوة الإسلامية، لأن يعدّد رسول الله الزوجات، فالمرحلة التشريعية التي تقتضي تعليمها للناس، والتي كان قسطًا كبيرًا منها يطبقه رسول الله في بيته، وأحسن مبلّغ لها وناقل، هن الزوجات اللاتي يعشن مع رسول الله في بيته، ويعلمن أحواله، هذه المرحلة لم تبدأ بعد، والعداء بين رسول الله وخصومه محصور في قريش، لم يخرج عنها إلى غيرها من قبائل العرب بعد. (قراءة جديدة للسيرة النبوية: ٣٣) (صلاح)

(٢) كان هذا الحلف في دار عبد الله بن جدعان. وقالوا: كان قبل المبعث بعشرين سنة في شهر ذي القعدة، وكان بعد حرب الفجار بأربعة أشهر، وذلك لأن الفجار كان في شعبان من هذه السنة. وكان حلف الفضول أكرم حلف سُمِع به، وأشرفه في العرب (البداية والنهاية: ٢/ ٢٩١، وسيرة المصطفى: ١/ ٥٤ رقم ٤٢)

البلاد، ومخاطر الطرق، ونهب المسافرين، وظلم الأقوياء الضعفاء، وأكد عليهم ضرورة إصلاح هذه المفاسد، وهكذا انعقد حلف انضمّ إليه بنو هاشم، وبنو المطلب، وبنو أسد، وبنو زهرة وبنو تميم[١]. أعضاء هذا الحلف كانوا قد تعاهدوا على ما يلي:

١- القضاء على فساد البلاد.

٢- وحماية المسافرين والغرباء.

٣- ونصرة المحتاجين.

٤- وردّ مظلمة الأقوياء على الضعفاء.[٢]

---

(١) هكذا في الأصل الأردي. ولكن رواه ابن حبّان (٣٤٧٤)، والبيهقي في الدلائل (٢/ ٣٨) عن أبي هريرة، وفيه: المطيبون هم: هاشم، وأميّة، وزهرة، ومخزوم» حسّنه الأعظمي في «سيرة المصطفى الصحيحة». (١/ ٥٣ رقم ٤٢) (صلاح)

(٢) وكذلك ردّ الفضول على أهلها، وقد سُمّي الحلف بحلف الفضول، إما لأنهم تحالفوا أن تردّ الفضول على أهلها. أو سمّي تشبيهًا بحلف كان بمكّة أيام جرهم، قام به رجال أسماؤهم: فضل، وفضيل، وفضالة، وفضال، فسمّي بالفضول.

وإنّما ورد في الحديث باسم حلف المطيبين (وقد كان بعد وفاة قصيّ)، لأن العشائر التي عقدت حلف المطيبين، هي التي عقدت حلف الفضول.

ومما يدلّ على ذلك، أن النبي ﷺ صرَّح في بعض هذه النصوص بأنه لم يشهد للمشركين سوى حلف واحد. [رواه ابن حبّان (٣٤٨٤) بإسناد حسن، عن أبي هريرة: «ما شهدت من حلف قريش إلا حلف المطيبين»].

ثم إن حلف المطيبين القديم، لا يحمل من معاني الانتصار للعدالة، مثل حلف الفضول، الذي شارك فيه النبي ﷺ، وكان يومذاك في العشرين من عمره.

وكان حلف الفضول منصرفَ قريش من حرب الفجار بأربعة أشهر. (ولم يثبت أن النبي ﷺ شهد الفجار، وذكر المباركفوري في «الرحيق» شهوده فيها، والرواية الواردة في شهوده في سيرة ابن هشام (١/ ١٨٦) بلفظ: «كنت أنبّل على أعمامي» فهي بدون إسناد. (سيرة المصطفى: ١/ ٥٢) (صلاح)

هذا يدلّ على أن العدل قيمة مطلقة، وليست نسبية، وأن الرسول ﷺ يظهر اعتزازه بالمشاركة في تعزيز مبدأ العدل قبل بعثته بعقدين، فالقيم الإيجابية تستحق الإشادة بها، حتى لو صدرت من =

وكان من نتيجة هذا التدبير صون دماء الناس وحماية أرواحهم، وأموالهم إلى حدّ كبير، وكان النبي ﷺ يقول بعد بعثته أيضا: لو دعا أحد اليوم أيضًا بمثل هذا الحلف لمساعدة أحد، فأنا أوّل من يكون جاهزا لمساعدته[١].

لقب الصادق الأمين:

لقد كان لأداء النبي ﷺ لمثل هذه الأعمال الصالحة أثر بالغ في قلوب الناس في ذلك الوقت، بحيث لم يكونوا يدعونه باسمه، بل كانوا ينادونه بـ«الصادق» أو «الأمين».

وكان عمر النبي ﷺ خمسة وثلاثين عامًا، حينما جدّد قريش بناء[٢] الكعبة، بعد حدوث شرخ في جدرانها لأجل السيل وغيره.[٣]

وكان الجميع يساهمون في بناء الكعبة، ولكنهم اختلفوا اختلافًا شديدا في نصب الحجر الأسود[٤] في مكانه، بحيث كان كل واحد منهم، يرغب في أن يضعه هو في مكانه،

=

أهل الجاهلية. («السيرة النبوية الصحيحة للعمري»: ١/ ١١١-١١٢) (صلاح)

وقد أنشئ في إنجلترا (إقرار نائت هد)، الذي كان أعضاؤه يصدرون القرارات في صالح الناس، على غرار هذا الحلف الذي تقدّمها بقرون.

(١) عن عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «شهدت مع عمومتي حلف المطيبين، مما أحبّ أن لي حمر النعم، وإنّي أنكثه». (صحيح رواه أحمد (١٦٧٦)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٦٧)).

(٢) وأوّل بناء الكعبة كان بيد إبراهيم مع ابنه إسماعيل، ثم جدّده بنوجرهم، وبنو العمالقة وقصيّ وقريش، وكانت الحاجة تمس لتجديده لتقادم العهد أو لأثر السيل، ولكن لم يحدث للكعبة أن يستولي عليها أجنبيّ، فيهدم بناءها طيلة خمسة آلاف سنة، مثل ما حدث لهيكل أورشليم، وهذه مزيّة لم تحصل لمعبد قطّ في العالم.

(٣) كانت الكعبة حجارة منضودة من غير ملاط بينها، وكانت العرب تهاب هدمها لإعادة بنائها، وبقيت كذلك إلى أن حدث سيل عظيم أتى فوق الردم الذي صنعوا، فخرّ به، وخافوا أن يدخلها الماء، فعزموا على هدمها، وبنائها من جديد. («قراءة جديدة للسيرة النبوية»: ٣٦) (صلاح)

(٤) كان من عادة إبراهيم وأولاده، أن يضعوا حجرا طويلا غير منحوت مثل عمود، في الموضع الذي يجعلونه معبدا، كما يجعل المسلمون الآن وقت الصلاة، وهو يسمّى سترة.

=

وهذا الخلاف استمرّ أربعة أيام إلى أن اقترح أبو أمية الوليد بن المغيرة، وكان أسنّهم: اجعلوا الحكم فيما بينكم واعملوا بحكمه، فقبلوا هذا الرأي، و قرّروا أن أوّل من يدخل في الحرم يعتبر حكما للجميع. واتفق أن النبي ﷺ كان أوّل من دخله، فلمّا رأوه صاحوا: هذا الأمين[١] رضيناه[٢].

=

ويثبت ذلك واضحا من كتاب التكوين (باب ١٢ درس ٧،٨)، (باب ١٣ درس ١٨)، (باب ٢٦ درس ٢٥)، (باب ٢٨ درس ١٨، ١٩، ٢٢)، وكتاب الخروج (باب ٢٥، ٢٤ درس ٤).

والحجر الأسود أيضًا حجر مثل هذا، وهو شهادة بأن الكعبة على بناء إبراهيم، و بعد نصبه في أحد أركان الكعبة، يعرف منه مبدأ الطواف ومنتهاه. ومنزلته عند المسلمين تبدو من اسمه (الحجر الأسود)، وقال عمر الفاروق مرة يخاطب الحجر حتى يسمعه الناس:

«أما والله إني لأعلم أنك حجر لاتضر ولاتنفع، ولو لا أني رأيت رسول الله قبّلك ما قبلت، ثم دنا فقبّله». كما في صحيح البخاري باب ما ذكر في الحجر الأسود (١٥٩٧، و مسلم (١٢٧٠) عن عابس بن ربيعة.

(١) وفي رواية أحمد (١٥٥٠٤): «...فقالوا: أتاكم «الأمين»، وإسناده حسن (سيرة المصطفى: ١/ ٢١ رقم ٤٤).

(٢) **سبق أن ذكرنا أن العرب كانوا يلقبون النبي ﷺ بالصادق والأمين، قبل بعثته وكذلك لقبوه في هذه المناسبة أيضًا بالأمين. وتصدّق صحف الأنبياء السابقين هذا الاسم، فقد ورد في رؤيا يوحنا في الإنجيل، الدرس التالي:**

«رؤيا يسوع المسيح التي أعطاها الله إياه حتى يُري عباده الأمور التي تقع قريبا».

وهذا يدل على أن هذه الرؤيا، تذكر الأمور التي تقع في الدنيا بعد يوحنا، وينبغي أن يعلم أن القسّ يوحنا حواري المسيح، وأنه رأى هذه الرؤيا بعد ذهاب المسيح من الدنيا.

يقول يوحنا: «ثم رأيت السماء مفتوحة، وانظروا فرسا فضيًّا، وراكبه يسمّى صادقا أمينا، وأنه يعدل بصدق ويقاتل، وعيناه مثل لهيب النار، و على رأسه أكاليل كثيرة، وله اسم مكتوب لم يعلمه أحد غيره، وقد لبس الملابس ملطخة بالدم، واسمه كلام الله، وجنود السماء لبست ملابس الكتان البيضاء النظيفة ركبت الفرس الفضّي، ويخرج من فمه سيف قاطع ليضرب به الأمم، وأنه يحكمهم بالعصا الحديدية، وأنه يعصر في معصر غضب الله وسخطه، وقد كتب في ملابسه وفخذه «ملك الملوك وإله الآلهة» (رؤيا باب ١٩).

=

وإني أحبّ أن أشرح ذلك بإيجاز، فأقول:

١ - ورد ذكر الفرس الفضّي وراكبه في رؤيا (٦-٢) بالألفاظ التالية:

انظروا الفرس الفضّي والذي ركبه حاملا القوس وأعطى إكليلا، إنه خرج فاتحا وللفتح.

وبين في رؤيا (٦-٢) من إماراته، أنه يحمل القوس ويفتح البلاد. وهذا كلّه يصدق على النبيﷺ.

* فقد كان بين مراكبه ﷺ فرس فضّي يسمّى «بحرا». (سفر السعادة)

* وكان ﷺ يحمل بيده قوسا، وربما حمله وهو يخطب، وقد أمر بالرمي فقال:

«ارموا بني إسماعيل! فإن أباكم كان راميا». [البخاري: ٣٥٠٧، عن سلمة بن الأكوع]

* وقد أثبت القرآن الكريم للنبي ﷺ، ومن أعظم الفتوح أنه ﷺ لم يرحل من الدنيا إلا بعد أن بلّغ الرسالة، التي بعثَ لها على وجه الكمال، وحينما نرى أن موسى كليم الله عَلَيْهِ السَّلَامُ رحل من الدنيا قبل أن يذهب بأمته إلى أرض الميعاد، والمسيح روح الله رحل منها قبل بيان كثير من كلامه، والنبي ﷺ رحل منها بعد إعلان الكمال والتمام، وبهذا تبين لنا كونه ﷺ فاتحا صاحب الفتح المبين.

٢- **أما كونه أمينا وصادقا** فكان الناس يدعون النبي ﷺ هكذا أمينا صادقا.

٣- **أما كونه يعدل بصدق**، فقد ورد في أشعيا (باب ١١)

أنه ينصف المساكين بصدق، وينتصف للمستضعفين في الأرض، وقد بين يوحنّا بتكريره لذلك أن عصره يكون بعد المسيح. وقد ورد في القرآن الكريم:

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

٤- **أما كونه يقاتل**، فقد ذكر مع العدالة صفة القتال أيضًا، حتى لايخطئ قسيس فيطبق الرؤيا على المسيح بالنظر إلى صفة العدالة المجردة من القتال، فقد صرّح بأن ذلك الراكب يكون مجاهدا و غازيا.

٥- «**عيناه مثل شعلة من النار**» قد ذكر في الصحف المقدسة ضمن صفات النبي ﷺ الخلقيّة، وجود الحمرة في عينيه ﷺ، وقد كان ذلك، فإن الخطوط الحمراء كانت حول إنسان عينيه ﷺ.

٦- «**على رأسه أكاليل كثيرة**» انظروا إلى جماعة الأنبياء، تجدوا بينهم واعظا (مثل سليمان) ومبشّرا (مثل عيسى)، ومنذرا (مثل نوح)، ومنجيا (مثل موسى)، ومناظرا (مثل إبراهيم)، ومجاهدا (مثل داود)، ولكن جميع هذه الصفات قد اجتمعت في ذات النبي ﷺ بتمامها وكمالها، ولذا ورد في التنزيل:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥ - ٤٦]

وقد تصرّف النبي ﷺ بذكائه وفراسته، وتفهّمه للأمور، تصرّفا أرضى الجميع فقد بسط رداءه، ووضع فيه الحجر بيده، ثم دعا كبير كل قبيلة وأمره بقبض طرفه، ولما انتهوا

=

وهذا هو معنى كون الأكاليل الكثيرة على الرأس.

٧- «**وله اسم مكتوب لم يعلمه أحد سواه**» فلم يسمّ أحد قبل النبي ﷺ بـ«أحمد ومحمّد» ولكن عشرات من الناس قد سمّوا بـ«يسوع المسيح» قبل عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

٨- (**لبس الملابس الملطخة بالدم**)، قد ورد في النبي ﷺ حينما ذهب لتبليغ الدعوة إلى الطائف، ضربوه بالأحجار حتى تلطّخ بالدم، وقد سال الدم وتجمد في نعليه، حتى تعسّر نزعها عند الوضوء، وبما أن النبي ﷺ كان وحيدا في هذا السفر يصدق عليه ﷺ ما ورد في أشعيا (٦٣-٣).

٩- (**كلام الله**) قد بين موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هذه العلامة في آخر موعظته بصفة خاصة، ثم بينها يوحنا الحواري، فعلم من ذلك أن هذه العلامة لم تكن تحققت إلى وقوع رؤيا يوحنّا، ثم قد تم تحققها بنزول القرآن، يقول تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا ٢٣﴾ [الإنسان: ٢٣]

١٠- (**جنود السماء**) قد ورد في القرآن وجود الملائكة والقوى الملكوتية مع النبي ﷺ:

﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤﴾ [التحريم: ٤])، وملابس الملائكة البيضاء اتباع النبي ﷺ فإنه ﷺ كان يحبّ هذا النوع من الملابس، وكانت رايته أيضا أبيض والناس يختارون الراية البيضاء لعقد الصلح والامتناع عن الحرب.

١١- (**يخرج من فمه سيف قاطع**) وهذا هو الجهاد، وقد ورد في نفس الرؤيا ذكر الذين شرع عليهم الجهاد (١٩/ ٥).

١٢- (**يحكم بالعصا الحديدية**) قد ورد ذلك في الزبور (٢-٩) أيضًا. وعلم من ترديد كلمات الزبور في الرؤيا هي أن الذي تصدق عليه هذه الكلمات يأتي بعد يوحنّا، فهو بدون شكّ محمد رسول الله ﷺ، فإنه لم يجتمع لأحد غيره بين الوحي والنبوة، وبين السلطة المحكمة.

١٣- (**يعصر في معصر غضب الله**) فلم يتمّ دمار القبائل المتمردة وعقاب كسرى وقيصر على عصيان النبي ﷺ إلا بسخط من الله.

١٤- (**كتب في ملابسه الخ**) من أسماء النبي ﷺ «إمام الأنبياء»، و «سيّد المرسلين» وإلى هذا تشير كلمات الرؤيا. (المؤلف: محمد سليمان)

[إيراد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيان الإنجيل هذا، وتطبيقه على صفات النبي ﷺ، يدلّ على اطلاعه الواسع على الكتب السابقة، التي فيها التبشير ببعثة النبي ﷺ (صلاح)]

إلى موضع الحجر، أخذه، فوضعه بيده في مكانه في ركن الكعبة، حيث مبدأ الطواف حولها(١).

هكذا قضى النبي ﷺ بهذا التصرف الحكيم على خطورة نشوب حرب دامية(٢)، فقد كانت العرب في تلك الأيام يقاتلون عشرات السنين على أتفه الأمور، مثل سقي البهائم، وسباق الخيل، وتفضيل قوم على آخرين في الشعر وما إلى ذلك.

قرب زمن البعثة، والعبادة في غار حراء:

قبل البعثة بسبع سنوات، كان ﷺ يرى كنور ولمعان، وطالما كان يفرح إذ شعر به، ولم يكن لهذا النور صوت أو صورة، وكلّما قرب زمن البعثة حُبب إليه ﷺ الخلاء، فكان عليه السلام يأخذ معه زاده من الماء والسويق، ويذهب إلى غار مهجور من جبل حراء(٣) يبعد من مكة عدة أميال، طوله أربعة أذرع، وعرضه ذراعان إلا ربع ذراع. فيجلس فيه يعبد الله تعالى، متلبّسًا بتحميده وتقديسه حينًا، ومتدبّرا في القدرة الإلهية(٤) ومتفكّرا فيها حينًا آخر. ولم يكن يرجع إلى مكة إلا بعد انتهاء زاده من الماء والسويق(٥).

---

(١) في مسند أحمد (١٥٥٠٤) والمستدرك للحاكم (١/ ٤٥٨) بإسناد حسن، فوضعه بثوب، ثم دعا بطونهم فأخذوا بنواحيه معه، فوضعه هو ﷺ. (سيرة المصطفى الصحيحة: ١/ ٦١ رقم ٤٤).

(٢) فتوجهت الأنظار إلى محمد، ولهج الناس بذكره، واعتبروا ذلك دليلًا على سعة مداركه وسرعة تصرفه بحكمة في الأزمات، وهو ميدان أولي العقول الراجحة. فكان ذلك رصيدا له يفيده في المستقبل عندما يدعو الناس إلى الله، ويستلم عصا القيادة في دولة الإسلام. («قراءة جديدة للسيرة النبوية»: ٣٨) وكان ذلك قبل البعثة بخمس سنوات. (صلاح)

(٣) و يسمّى اليوم «جبل النور»، وانظر للتفصيل كتاب المؤلف «سفر نامه حجاز»، أي: «الرحلة إلى الحجاز».

[موقعه شمال شرقي مكة، يمكن لخمسة أشخاص فقط، أن يجلسوا فيه في آن واحد. (صلاح)]

(٤) [في البخاري (٣) عن أمّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «ثمّ حبّب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء يتحنّث فيه (وهو التعبد الليالي أولات العدد)]. هكذا في «سفر السعادة» للفيروزابادي (ص ٣٤-٣٥)، جمعًا بين الأقوال.

(٥) رواه الشيخان عن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كان أوّل ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي: =

ثم بدأ يرى الرؤيا، وكانت تقع صادقة بحيث يقع في النهار مايرى في الليل[(١)].

البعثة والنبوّة:

حينما بلغ ﷺ من عمره أربعين عامًا قمريًا[(٢)] وزاد يوما واحدا، جاءه الروح الأمين من الله بأمر النبوّة في غار حراء، وكان ذلك في اليوم التاسع[(٣)] من ربيع الأول عام أحد وأربعين من مولده ﷺ (الموافق ١٢/ فبراير ٦١٠م) يوم الاثنين، فقال: أبشر يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل[(٤)].

ورجع النبي ﷺ بعد هذا الحادث إلى البيت، واستلقى، وطلب من زوجته أن تزمّله، وبعد أن هدأ قليلًا، قال لها: إني أرى أمورا أخاف منها على نفسي[(٥)].

شهادة خديجة على خُلُقه العظيم:

«قالت خديجة: كلّا، والله لايخزيك الله أبدا. إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق».[(٦)]

ثم احتاجت خديجة الكبرى نفسها إلى أن يطمئن قلبها، فانطلقت بالنبي ﷺ إلى ابن

= الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح». (البخاري: ٣، و مسلم: ١٦٠) (صلاح)

(١) رواه الشيخان عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، كما تقدّم الآن.

(٢) صحيح البخاري (رقم: ٣٩٠٢). [عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: بعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة، فمكث بمكّة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، ثمّ أمر بالهجرة، فهاجر عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستين».] وكان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضا أعطي النبوّة بعد أن تمّت له الأربعون من عمره. (كتاب الأعمال من الإنجيل) [أعمال الرسل: ٧/ ٣٠].

(٣) ورد في «زاد المعاد»: (١/ ٦١-٦٢) في اليوم الثامن من الربيع، ولكن «يوم الاثنين» الذي اتّفق عليه الجميع يوافق «التاسع» من ربيع الأوّل.

(٤) سفر السعادة (ص٤ وشرحه (ص: ٣٦))

(٥) أشار به إلى مشكلات النبوّة، التي تواجهه فيما بعد.

(٦) البخاري (رقم ٣)، عن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

عمّها ورقة بن نوفل[١].

وقد سبق أن ذكرنا في مقدّمة الكتاب، أن النصرانية كانت قد انتشرت في البلاد العربية بجهود النجاشي وقيصر، ولذا وجد قرب البعثة النبوية أشخاص أيضًا في الجزيرة العربية، قد استفادوا كثيرا من اليهود والنصارى، وتركوا دين الجاهلية، وكانوا يخبرون الناس أن رسولا سيظهر، ويغلب على إبليس وجنوده، **وكان من أشهرهم: عثمان بن الحويرث، وعبيد الله بن جحش، وزيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل**[٢].

وزيد بن عمرو كان عمّ عمر الفاروق. وهو الذي قام بسفر طويل في البحث عن الرسول الموعود، ولما تيقّن في الأخير بأنه يولد في مكة، جلس ينتظره فيها إلى أن توفّي.

شهادة ورقة على نبوّة النبي ﷺ[٣]:

بطلب من خديجة أخبره النبي ﷺ خبر ما رأى، فقال ورقة: لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، وأنه لنبيّ هذه الأمة، ياليتني فيها جذعا، ليتني أكون حيًا إذ يخرجك قومك.

فقال رسول الله ﷺ: أومخرجيّ هم؟

قال: نعم! لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك، أنصرك نصرا مؤزرا، ثم لم ينشب ورقة أن توفّي، وفتر الوحي.[٤]

---

(١) كان ورقة امرأ تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي، فيكتب الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخا كبيرا قد عَمِي. (البخاري: رقم ٣)

(٢) [راجع أمر هؤلاء في مختصر سيرة ابن هشام (١/ ١٥٦-١٥٩)]، و «خلاصة تأريخ العرب» للبروفيسور سيديو.

(٣) اختار الله عز وجل محمدا للنبوة ﷺ والقيادة، ونشر اسمه وألقى الضوء عليه منذ سنّ الطفولة كشخصية مؤهلة للقيادة. كما تبيّن من الأمور السابقة التي حظي بها النبي ﷺ في حياته قبل النبوة. (صلاح)

(٤) متفق عليه [البخاري رقم ٣، و مسلم ١٦٠، عن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهَا].

وقد توفي ورقة بعد هذا الحادث بعدّة أيام، [قبل تتابع الوحي] وكان ضعيفا جدّا، فاقد البصر، ولعله قرأ ذكر الهجرة في أشعيا (باب ٢٢).

=

بداية نزول القرآن:

ثم بعد أيام جاءه[1] الملك فأقرأ النبي ﷺ، الذي لم يتعلّم القراءة والكتابة بعد، اسم

[قال المستشرقون في القرن العشرين: إن الرسول صلى الله عليه وسلم تعلّم من ورقة بن نوفل. (منهم مونتكمري واط قال في كتابه «محمد في مكة» (ص ٩٣)
«من الأفضل الافتراض بأن محمدا كان قد عقد صلات مستمرة مع ورقة منذ وقت مبكر وتعلم أشياء كثيرة، وقد تأثرت التعاليم الإسلامية اللاحقة كثيرًا بأفكار ورقة، وهذا يعود بنا إلى طرح مشكلة العلاقة بين الوحي الذي نزل على محمد والوحي السابق له» مع العلم أن كتب السيرة لم تثبت سوى لقاء واحد مع ورقة!!. («السيرة النبوية الصحيحة»: ١/ ١٣٠ تعليقًا)

(١) اتفق العلماء على أنه ﷺ ولد في شهر ربيع الأول، وعلى أن الوحي بدأ في بداية العام الواحد والأربعين من عمره، فهذا يدلّ على أن بداية الوحي أيضا كان في شهر ربيع الأوّل، ولكن ثبت بالقرآن أن نزوله كان في شهر رمضان.

فالحاصل أن بداية النزول كانت في شهر رمضان. والمراد بمجيء الملك بعد عدة أيام، هو قدر ستة شهور، فبدأت فيها الرؤيا الصادقة، التي هي الجزء السادس والأربعون من النبوّة (والجزء السادس والأربعون من عهد النبوّة، الممتد إلى ٢٣ سنة: هو ستة شهور). وقد حدّد الطبري تأريخ نزول القرآن بـ(١٧ أو ١٨ من رمضان). ولما كان الثامن عشر من رمضان في السنة الأولى من النبوة، يوم الجمعة، الموافق (١٠ أغسطس ٦١٠ م)، لذا كان نزول القرآن المجيد ليلة الجمعة الثامن عشر من رمضان.

[ورجّح شيخنا صفي الرحمن في «الرحيق المختوم» (ص ٦٦ تعليقًا) نظرًا إلى أن مبعثه ﷺ كان يوم الاثنين، سنة إحدى وأربعين من مولده، فهو يوافق الواحد والعشرين من رمضان.

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقع في تاريخ أحمد بن حنبل عن الشعبي أن مدة فترة الوحي كانت ثلاث سنين، وبه جزم ابن إسحاق، وحكى البيهقي أن مدة الرؤيا كانت ستة أشهر.

وعلى هذا ابتداء النبوة بالرؤيا، وقع من شهر مولده، وهو ربيع الأول، بعد إكماله أربعين سنة، وابتداء وحي اليقظة وقع في رمضان. (الفتح: ١/ ٢٧، ط. دارالسلام بالرياض (صلاح)]

يظهر من تعليق المؤلف، أن نزول ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾ [العلق: ١] كان بعد لقاء النبي ﷺ ورقة بن نوفل. والروايات تدلّ على أن النبي ﷺ جاء إليه بعد نزول ﴿ٱقۡرَأۡ﴾. لما كانت بعثة النبي ﷺ بعد الأربعين سنة في ربيع الأوّل، يكون أوّل النزول أيضًا في ربيع الأوّل، مع أن الله تعالى

الله تعالى وكلامه المبارك، الذي هو مفتاح كل علم، وخزينة كل حقيقة، أقرأه ﷺ هذه الآيات:

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ [العلق: ١ – ٥][(١)]

بداية افتراض الصلاة:

ثم أتى الروح الأمين بالنبي ﷺ إلى سفح الجبل [وهو بأعلى مكّة]، فتوضّأ أمامه، وتوضأ النبيّ ﷺ، وصلّيا معا، وأمّه جبرئيل عَلَيْهِ السَّلَامُ[(٢)].

بداية الدعوة والسابقون الأوّلون إليها:

ولما عاد النبي ﷺ إلى بيته، بدأ الدعوة، فاستجابت لها أول يومها زوجته خديجة،

=

قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١﴾ [القدر: ١]، فتوفيقا بين الأمرين قال ما قال ههنا.

ولكن لا تعارض بينهما، لما روى ابن عباس وغيره: أن الله أنزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا [ليلة القدر]، ثم نزل مفصّلا بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ. (قال ابن كثير في تفسير سورة القدر، و أخرجه الطبري، والنسائي في الكبرى في تفسير الفرقان، والحاكم (٢/ ٣٦٨) ووافقه الذهبي ووافقهما ابن حجر في فتح الباري (٩/ ٤) (تفسير ابن كثير (٥/ -١٢٨، و ٧/ ٦٠٧) تعليقًا طبعة د. حكمت، دار ابن الجوزي، وراجع قول شيخنا في «الرحيق المختوم» (٦٦-٦٧) تعليقًا من كتاب «رحمة للعالمين» (صلاح)]

(١) نلاحظ أن كلام الله، الذي نزل لهداية البشر، يبدأ ببيان حالة الإنسان البدائية، وينادي بادئ ذي بدء بضرورة التعليم للإنسان، ويتبين أن الخالق سبحانه تعالى هو الذي علم نبينا ﷺ، وقوله تعالى: {ما لم يعلم} يدلّ على أن النبي كان أمّيًا.

وفي كتاب أشعيا (٢٩/ ١٢) أعطي الأميّ كتابا حتى يقرأ، ويراجع أشعيا (١٨/ ١٨، ١٧) لمعرفة أن القرآن كلام الله لفظا ومعنى.

(٢) راجع «مختصر سيرة ابن هشام» (١/ ١٨٠)

وابن عمه عليّ (وعمره ثماني سنوات)، وصديقه أبو بكر، ومولاه زيد بن حارثة[١].

إن إيمان هؤلاء الأصحاب بالنبي ﷺ، الذين كانوا مطلعين على كل صغيرة وكبيرة من حياته لأربعين سنة، هو أقوى دليل على صدقه ﷺ وصدق دعواه.

ثم أسلم بلال، وعمرو بن عبسة، وخالد بن سعيد بن العاص أيضًا بعد عدّة أيام.

وكان أبو بكر تاجرًا غنيا، يتّجر بالأقمشة في مكّة، وهكذا كان على صلة وثيقة بالناس، فقد أسلم بدعوته عثمان بن عفان، والزبير بن العوّام، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، ثم أسلم أبو عبيدة عامر بن الجراح (ولقّب بأمين الأمة فيما بعد)، وعبد الأسد بن هلال، وعثمان بن مظعون، وعامر بن فهيرة الأزدي [مولى أبي بكر الصديق]، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، والسائب بن عثمان بن مظعون، والأرقم بن أبي الأرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم.

الصلاة في عقبة الجبل والدعوة سرّا:

وأسلمت من النساء بعد أم المؤمنين خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أم الفضل زوجة العباس (عمّ النبي ﷺ)، وأسماء بنت أبي بكر، و أسماء بنت عميس، وفاطمة (أخت عمر الفاروق)، وكان المسلمون يصلّون في تلك الأيام في عقبة الجبل[٢].

---

(١) اختلف العلماء في من أسلم أوّلًا: عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أم أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟ وقد تغاضيت عن هذا البحث، فإن مكانه سيرتهما الشخصيّة.

[لامنافاة في ذلك، **«فإن إبا بكر أوّل من أسلم من الرجال، وعليّا أوّل من أسلم من الصبيان، و خديجة أوّل من أسلم من النساء، وزيد بن حارثة أوّل من أسلم من الموالي»**.

وهذا قول أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ. (راجع سيرة ابن كثير: ١/ ٤٣٧، والترمذي في مناقب عليّ رقم ٣٧٣٥، وقال: كذا قال بعض أهل العلم. (صحيح السيرة النبوية: ٥٣-٥٥) (صلاح)]

(٢) وفي هذه الفترة كان أصحاب رسول ﷺ: «إذا صلوا، ذهبوا في الشعاب، فاستخفوا بصلاتهم من قومهم، فبينا سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب رسول الله ﷺ في شعب من شعاب مكة، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون، فناكروهم، وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلا من المشركين بلحي بعير، فشجه، فكان أوّل دم أهريق في الإسلام». (مختصر سيرة ابن هشام) (١/ ١٩٤) (صلاح)

وكان النبي ﷺ يدعو الناس سرًا في سنوات الدعوة الثلاث الأولى[(١)]، ويمنعهم من عبادة الأحجار والأشجار والشمس والقمر، ويعلّمهم عبادة الله وحده.

الأمر بالدعوة جهرًا:

وهنا جاءه أمر الله تعالى، ونزلت الآيات الكريمات[(٢)]:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾ [المدثر: ١ – ٧][(٣)]

---

(١) **مرّت الدعوة في العهد الملكي بثلاث مراحل:**

١- السنوات الثلاث الأولى سرًا.

٢- ثم بعد ذلك إلى السنة العاشرة جهرًا.

٣- ومن العاشرة إلى الهجرة جهرًا خارج مكة. (صلاح)

(٢) بعد فترة الوحي نزلت هذه الآيات، ونزل قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٩٤﴾ [الحجر: ٩٤]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ [الشعراء: ٢١٤]. فبدأ الناس يدخلون في الإسلام أرسالًا رجالًا ونساء، حتى فشا ذكره بمكّة، وتُحدِّث به. (سيرة ابن هشام: ١/ ٢٦٢-٢٦٣)، (سيرة المصطفى: ١/ ٨٨-٨٩). (صلاح)

(٣) انقطع الوحي عن النبي ﷺ بعد نزول (اقرأ) لمدة يقال: إنها كانت سنتين و بعض سنة، كما في الروض الأنف للسهيلي: ٢/ ٤٣٣-٤٣٤)، وورد عن ابن عباس: أنها دامت أربعين يومًا. (شرح المواهب اللدنّية: ٢٣٦)

ولا يعلم على وجه التحديد كم دامت مدّة انقطاع الوحي، ثم تتابع و كثر، وكان أوّل ما نزل بعد فتوره ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ إلى ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ (البخاري رقم ٤، و مسلم رقم ١٦١ عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما)

وما ذكره الزهري بلاغًا من حزن النبي ﷺ على فترة الوحي: ...حتى حزن النبي ﷺ، فيما بلغنا، حزنًا غدا منه مرارا كي يتردّى من رءوس شواهق الجبال....(البخاري رقم ٦٩٨٢، عن معمر: قال الزهري فأخبرني عروة عن عائشة رضي الله عنها.

قال الدكتور أكرم ضياء العمري: «...ولولا عبارة (فيما بلغنا) لصار خبر محاولة التردّي من الشواهق صحيحًا، ولكن ابن حجر ذهب إلى أنه بلاغ مرسل [من بلاغات الزهري]، وليس =

أهداف النبوّة ومقاصدها:

قد دلّت هذه الآيات بوضوح على أهداف الرسالة والنبوّة، وهي كما يلي:

١- تحذير العصاة مما هم عليه من المعاصي، وتخويفهم من عاقبتها.

٢- إعلان ألوهية الله تعالى وربوبيته وعظمته وجلاله.

٣- توجيه الناس إلى التخلّي عن الأرجاس الظاهرة والباطنة في العقائد، والأعمال، والأخلاق.

٤- تعليم العفّة، والنزاهة، والنظافة والطهارة.

٥- نشر الدعوة الحقّة بدون مقابل، وعدم المنّ على أحد، وبلا توقّع أي فائدة من آخر على ذلك.

٦- تحمّل جميع المصائب والمتاعب والشدائد التي تعترض في هذا السبيل.

ومن يتدبّر في سيرة الرسول ﷺ الطيبة الطاهرة، يدرك جيّدا كيف أن النبي ﷺ قد نجح في تحقيق جميع هذه الأهداف والمقاصد.

=

موصولًا من رواية عروة عن عائشة (فتح الباري ١٢/ ٤٥٠-٤٥١)، ومراسيل الزهري ضعيفة. [فلا يجوز عزوه إلى البخاري بدون بيان، لأنه ليس على شرطه، وإنما ذكره بلاغًا]

ويذكر الألباني أن هذه الزيادة لها علتان:

الأولى: تفرد معمر بها دون يونس وعقيل فهي شاذّة.

والأخرى: أنها مرسلة معضلة، ولم تأت من طريق موصولة يحتجّ بها ....

وهي زيادة منكرة من حيث المعنى، لأنه لا يليق بالنبي ﷺ المعصوم، أن يحاول قتل نفسه بالتردّي من الجبل، مهما كان الدافع له على ذلك.» (الألباني: دفاع عن الحديث النبوي والسيرة ٤١، وأحال أيضا على سلسلة الأحاديث الضعيفة رقم (٤٨٥٨) (راجع للتفصيل «السيرة النبوية الصحيحة»: ١/ ١٢٦-١٢٧ تعليقًا)

وقد ذكر بلاغ الزهري هذا، صاحب «الرحيق المختوم» (ص: ٦٩)، وصاحب «صحيح السيرة النبوية» إثباتا من غير أن يشير إلى هاتين العلتين في الحديث، فلينتبه. (صلاح)

مراحل الدعوة:

بدأت دائرة دعوة النبي ﷺ تتسع تدريجيًا حسب المراحل التالية:

الأولى: الدعوة في الأقربين، وخاصّة الأصحاب والأصدقاء.

الثانية: الدعوة في قومه وغيرهم من أهل بلده.

الثالثة: الدعوة في مكّة وضواحيها.

الرابعة: الدعوة بين قبائل العرب في أقطار الجزيرة.

الخامسة: الدعوة بين الأمم المتحضّرة والديانات المعروفة في العالم.

وقد ثبت النبي ﷺ في جميع مراحل الدعوة على أهدافه ثباتًا عظيمًا، بغاية استحكامه، وكماله، و تحمّله، وصبره، وبكل طلاقة وجهه، ورباطة جأشه، وأثبت تعليمه بالدلائل البينة والبراهين المحكمة[١].

ونحاول في هذا الكتاب أن نلقي الضوء على جهود النبي ﷺ في تحقيق هذه المراحل الخمس للدعوة.

---

(١) لما أُمر النبي ﷺ بالدعوة في العشيرة: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]، بدأ بها إلى المدعوين الآخرين بالمراحل بتنظيم دقيق، فتجمعت القوى الإيمانية شيئًا فشيئًا، وكوّنت قاعدة إسلامية، أيدت الدعوة، ونافحت عنها في أحرج فترات التأريخ الإسلامي. (صلاح)

العالم وقت البعثة النبويّة

(وحالته المزرية الداعية إلى المنقذ)

علينا أن نتذكر أن الزمن، الذي بعث فيه الرسول ﷺ، كان قد تخيّمت فيه ظلمات الجهل على العالم أجمع، وكانت تسود فيه الوحشية والهمجية، وربما كانت الكرامة الإنسانية، والحضارة والأخلاق كلمات، تشاهد في بطون الكتب والدفاتر، أما القلوب والطبائع فكانت فارغة عنها تمامًا.

(أ) **كان بنو إسرائيل** قد استحقّوا قبل المسيح بأن يُسمّوا حيّات وأولاد حيّات، وبعد مجيء المسيح، ولعنه إياهم، لم يبق فيهم إلا الصورة الظاهرة للإنسان، وأغرب من ذلك، أن الوثنية كانت قد تسرّبت إليهم من الأمم المجاورة لهم.

(ب) **كانت أوربا مسرحا للجهل** والوحشية والبربرية، وكانت تسكن في إنجلترا من الأمم الوحشية أمة البرتون (برتن) والسكسون.

وراجت في «نارتمبر لاند»، و«مدلاند»، و«كونتيز»، و«نارفوك»، و «ساسيكس» (من مديريات إنجلترا) عبادة الأوثان والأصنام، بينما كانت أنواع من الفواحش والمنكرات تمارس بإيماء القساوسة.

وكانت فرنسا في حرب مستمرة مع أمة السكسون على نهر «ألب»، وقد استمرت هذه الحرب إلى عام ٧٨٢م، حيث قتل من سجناء السكسون نحو(٤٥٠٠) شخص في مدينة وردن بوحشية بالغة.

وسيطرت على المجر (هنغاريا) في تلك الأيام، أمم وحشية مستهترة، متنكرة لمعاني الحضارة والمدنية، قد تمّ إدخالها في النصرانية بوسائل الإرهاب والعنف[1].

(ج) **وكانت المزدكيّة مسيطرة على فارس**، وإنها قد نادت إلى الشيوعيّة في المرأة والمال

---

(١) (Civil and Military Gazette, Editorial Note 12 October 1907) الافتتاحية في النشرة المدنية والعسكرية الصادرة في ١٢/ أكتوبر ١٩٠٧م.

والأرض بين الناس، فدمّرت أخلاق الناس، وأوقفت عجلة الرقي والتقدّم في شئون الحياة الإنسانية.

(د) **بدأت في الهند عصر**[1] «فران»، وقد تمّت فيه سيادة طائفة (بام ماركي)، وإنها كانت تدعو الناس إلى مبادئها القذرة، وكانت توضع في المعابد تماثيل الرجال والنساء العارية، وهي التي كانت تعبد، و في جدران المعابد أيضًا كانت تنقش الصور الماجنة بعجرها وبجرها، التي يندى لها جبين الحياء، ويشمئز منها الإنسان المهذب.

(هـ) **وكان سكّان الصين** قد أعرضوا عن الله تعالى، ظنًّا منهم أن بلدهم مملكة ابن السماء، فجعلوا لكل أمر صنما على حدة، فهناك صنم للمطر، وصنم للإنجاب، وصنم للحرب، وصنم للسلم، وكان الملك هو المسئول عن معاقبة هذه الأصنام، ولم يكن كونفوشيوس، الذي يعتبر مصلحا للصين، قد ظهر بعد.

(و) **أما مصر، فسيطرت عليها النصرانية بقوّة**، وكانت تظهر فيها كل يوم معتقدات غريبة، وأفكار جديدة حول التعريف بشخصية المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وابنيّته وتحديدهما، وحول صورة التوحّد والتفرّق، وتنشأ فرق وطوائف جديدة على أساس هذه النقاط. وكانت كل فرقة تكفّر الأخرى، وأحيانا لاتبالي في قتل معارضيها أو تحريقهم.

هذه نبذة مختصرة عن البلاد، التي كانت تخضع لحكومات عظيمة، تتمسك بشرائع معروفة، وكل واحدة منها كانت تدّعي وتفخر بعلمها وحضارتها على الأخرى.

(ز) **قس الجزيرة العربية** على البلاد المذكورة، مع ملاحظة أن الجزيرة لم تخضع منذ قرون لملك من الملوك، ولم تتأثر بأي شريعة وقانون، ولم يصل إليها هادٍ يهديهم إلى الصراط المستقيم.

وأضف إلى حريتهم هذه: البهيمية[2] التي أفسدت حالتهم، وزادتها سوءا إلى سوء،

---

(١) أردو تهذيب وقديم هندوستان (الحضارة الأردية والهند القديمة) للمستر آر. سي. دت (ص: ٣٧).
[فران (Puran) من الكتب الهندوسية المعروفة بعد الفيدات الأربع، وهو يعتبر تفسيرا لها.]

(٢) **الحرية الإنسانية**: هي الحرية التي تحصل لكل فرد تحت الالتزام بالقانون والدين، والحرّية البهيمية هي التي تحصل بإلغاء هذا الالتزام تمامًا.

بسبب الجهل والعزلة عن الأمم المتحضّرة، وعدم الاختلاط بها أيضًا[١].

الوضع المزري في الجزيرة العربية، صار موضع عطف من الله تعالى:

وهذا الوضع المزري، هو الذي وضعهم موضع العطف والرأفة والرحمة، فاختار الله ربّ العالمين أرضهم لتكون منطلق الدعوة لإصلاح العالم أجمع[٢].

وقد بدأ النبي ﷺ أمر الدعوة العامّة حسب التوحيد الربّاني على الطريقة التالية:

الدعوة في عشيرته:

نزل القرآن الكريم بدعوة العشيرة خاصّة، فقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤][٣].

فذات يوم جمع النبي ﷺ نحو أربعين نفرًا من بني هاشم على طعام، ولكنّه لم يتمكّن من التحدّث إليهم بثرثرة أبي لهب[٤]، ثم جمعهم أنفسهم في ليلة تالية، فلما فرغوا من

---

(١) هكذا كانت حال العالم وقت البعثة النبوية: ظلم، واضطهاد، وأنانية على كل المستويات، وبعد عن مقصد الحياة، وانحراف عن العقيدة والدين والشريعة والقانون.

«إن هذا الوضع العالمي كان يصرخ في ضمير الإنسانية مطالبًا بالمنقذ» فبعث الله عزوجل نبيه محمدا ﷺ رحمة للعالمين، من منطقة هي كانت أحوج إلى التوحيد الخالص، ثمّ انطلاقه منها إلى العالم أجمع. (صلاح)

(٢) راجع بعض الأسرار والحكم الأخرى لاختيار الجزيرة العربية ونطلق الدعوة والإصلاح في العالم في كتابي «الإيمان بالرسل ودوره في بناء شخصية المسلم». (صلاح)

(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عز وجل: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]، «يا معشر قريش! اشتروا أنفسكم من الله، لا أغني عنكم من الله شيئا. يا بني عبد المطلب! لا أغني عنكم من الله شيئا. يا عباس بن عبد المطلب! لا أغني عنك من الله شيئا. يا صفية عمة رسول الله! لا أغني عنك من الله شيئا. يا فاطمة بنت رسول الله! سليني بما شئت لاأغني عنك من الله شيئا». (البخاري: ٢٧٥٣، ومسلم: ٢٠٦، سيرة المصطفى ﷺ الصحيحة: (رقم ٧٣) (صلاح)

(٤) قال أبو لهب: تبّا لك يا محمد! ما جمعتنا إلا لهذا؟

=

الأكل وشرب اللبن، قال لهم الرسول ﷺ:

«ما أعلم إنساناً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر؟»

فأحجم القوم جميعًا.

قال عليّ: فقلت: أنا يا نبيّ الله.

قال ﷺ: «**فاسمعوا له وأطيعوا**»، فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك، وتطيع[١].

دعوة أهل مكّة وموعظة جبل الصفا:

صعد الرسول ﷺ يوما جبل الصفا، وجعل ينادي الناس، فلما أقبلوا عليه قال: أخبروني أنا صادق أم كاذب؟ قالوا: أنت عندنا غير متّهم، ما جرّبنا عليك كذبا قطّ، ونحن على يقين أنك صادق وأمين[٢].

قال: إنّي على قمّة الجبل وأنتم بسفحه، أنظر في ناحيتي الجبل، فلو أخبرتكم أن خيلا بسفح الجبل، وأنه سيفاجئكم بالهجوم أكنتم تصدّقون؟

قالوا: نعم، فليس عندنا ما يجعلنا نكذّب صادقا مثلك، لاسيما إذا وقف على مكان عال ينظر إلى الناحيتين[٣].

قال ﷺ: كان ذلك تمثيلا، فاعلموا أن الموت يتربّص بكم، وأنتم موقوفون عند الله، وإني أنظر إلى عالم الآخرة كما تنظرون إلى الدنيا.

=

ثم قام، فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [المسد: ١]. (البخاري رقم ٤٧٧٠، و مسلم رقم ٢٠٨) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. (صلاح)

(١) «المختصر في أخبار البشر» لأبي الفداء (١/ ١١٧) باختصار.

(٢) راجع رؤيا يوحنا (١٩-١١) لورود هذا الوصف فيها للنبي ﷺ.

(٣) راجع الحديث الوارد في هذه الواقعة صحيح البخاري (٤٧٧٠)، و مسلم (٢٠٨) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كما تقدّم. (صلاح)

كان هدف النبي ﷺ من هذه الموعظة البليغة المؤثرة، أن يقدّم مثالا على صدق النبوّة، بحيث إن شخصًا يستطيع أن يرى عالم الآخرة، بينما آلاف الناس لا يستطيعون رؤيته.

نقاط مهمة، دعاهم إليها:

وبعد ذلك بدأ النبي ﷺ الدعوة العامة، فكان يذهب إلى كل ناد و مجتمع وطريق، ويدعو إلى التوحيد، وينهى عن عبادة الأوثان والأحجار والأشجار، وعن قتل الأولاد، والزنا، والميسر، ويطالب الناس بأن يطهّروا أجسامهم من النجاسات، وثيابهم من الأقذار، وألسنتهم من الفحش، وقلوبهم من المعتقدات الباطلة، وبأن يحافظوا على المواعيد، ولا يغشّوا في البيع والشراء، وأن ينزّهوا الله من كل عيب ونقص، وأنه تعالى قد خلق الأرض والسماوات والشمس والقمر والصغير والكبير، وكلّهم فقراء إليه، وهو الذي يسمع الدعاء ويجيب، ويشفي المرضى، ويحقّق الآمال، ويقضي الحوائج، ولن يفعل أحد شيئا إلا بمشيئته وإذنه، حتى إن الأنبياء والملائكة لا يخالفون أوامره و نواهيه.

الدعوة في الأسواق والأعياد:

كانت أسواق عكاظ ومجنّة وذي المجاز[1] معروفة ومشهودة، يفد إليها الناس من أصقاع بعيدة، فكان الرسول ﷺ يَرِدها يدعو الناس إلى الإسلام والتوحيد.

معارضة قريش للدعوة:

ولم تعجب قريشًا دعوة الرسول ﷺ، فإنهم كانوا يتعالون عليها، ويتكبّرون، مثل الحوت في البحر، ولم يعجبهم كلام الرسول ﷺ لأسباب، منها:

١ - **كانوا قاصرين في فهم معنى النبوّة**، فكانوا يستبعدون أن يأتي رسول إلى الناس يهديهم ويرشدهم.

---

(١) كلّها أسواق في الجاهلية، وورد ذكر بعضها في الأحاديث الصحيحة، راجع «سيرة المصطفى الصحيحة» (١/ ١٧٧-١٧٩ رقم ١٤٦، ١٤٧) (صلاح)

٢- **لم يكونوا مؤمنين بجزاء الأعمال** ثوابًا وعقابًا، لذا عقيدة السؤال عن الأعمال بعد الموت والمحاسبة عليها، كانت تثيرهم على التمسخر والاستهزاء بها.

٣- **كانوا مغترين كثيرًا بالنسب**، وكرم البيت والآباء، فكانوا يشعرون بنوع من الحقارة والذلّة في قبول المساواة الإسلامية والأخوّة الدينية.

٤- **كانت معظم قبائلهم** يخالفون بني هاشم، وكانوا يعتبرون عارًا أن يتّبعوا رجلًا من قبيلة عدوّة لها، على تعاليمه.

٥- **اقتنعوا بالوثنية وعبادة الأوثان** والأصنام اقتناعًا تامًّا، فلم يكونوا يتصوّرون أن يكون ثمّة دين خير منها.

٦- **اعتادوا على التحرّر من النظم** والقوانين والوعود، فاعتادوا على الزنا والقمار، والدعارة، والنهب، والقتل، والغدر، والفوضى. فكانوا يرون أن قانون الإسلام يعارض عاداتهم المحببة إليهم.

أساليب إيذاء المسلمين:

وبناء على هذه الأسباب شمّروا عن ساعد الجدّ، لمعارضة دعوة النبي ﷺ، وصمّموا على القضاء على الإسلام، واتبعوا لذلك عدّة أساليب[1]:

أولا: المستضعفون من المسلمين وطرق إيذائهم:

وقد بالغوا فيه، كي يرتدّ من دخل في الإسلام، ولا يدخل فيه أحد من جديد، وقد يتعسر بيان المظالم التي ألحقها الكفار بالمسلمين، ويصعب حصرها في هذا الكتاب، ونذكر هنا بإيجازٍ بعض هذه الأساليب، وأحوال المعذَّبين بها:

(١) كان بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **حبشيا**، وعبدا لأميّة بن خلف، فلما سمع أمية أن بلالا قد

---

(١) كلّما يفلس أهل الباطل من الحجة والبرهان، أمام الحق، يلجأون إلى البطش والإرهاب. وهذا من سنة الله تعالى كما هو ظاهر من تأريخ أفاضل البشر: الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام. ولكن الحق يعلو، ولا يعلى عليه، والعاقبة للمتّقين ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة: ٣٢]. (صلاح)

أسلم، آذاه بصنوف الإيذاء:

١- كان يربط الحبل في عنقه، فيمسك الصبيان هذا الحبل، ويطوفون به شعاب مكة، وكان الحبل يؤثّر في عنقه.

٢- وكان يلقيه على رمل مكة المحرق، ويضع حجرا ساخنا على صدره.

٣- كانوا يشدّون يديه، ثم يضربونه بالعصا.

٤- وكان يوقف في الشمس المحرقة.

٥- ويجاع.

ولكنّ بلالا كان يصبر على هذه الإيذاءات، ويقول: «أحد، أحد»(١). وكان في هذه الحالة، حتى اشتراه أبو بكر وأعتقه لله(٢).

(٢) **أسلم عمار**(٣)، وأبوه ياسر، وأمّه سميّة، فآذاهم أبوجهل بطرق شتى(٤)، وبالغ في إيذائهم، حتى رآهم النبي ﷺ وهم يُعذّبون، فقال ﷺ: «اصبروا يا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة»، وطعن أبو جهل سميّة بحربة في فرجها، فقتلها(٥).

(٣) **وكان أبوفكيهة** (قيل: اسمه أفلح بن يسار) تربط رجله بالحبال، يجرّ في أرض صخرية(٦).

(٤) **وكان خبّاب بن الأرت**، ينتفون شعر رأسه، ويلوون عنقه، ويكوون جسده

---

(١) رواه ابن ماجة (١٥٠) وغيره، عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فما منهم إنسان إلا وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلالا، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأعطوه الولدان، وأخذوا يطوفون به شعاب مكة، وهو يقول: «أحد، أحد». إسناده حسن. (سيرة المصطفى ﷺ الصحيحة: رقم ٧٧)

(٢) توفي في دمشق سنة ٢٠هـ، وعمره ثلاثة وستون عامًا. [راجع ترجمته في الإصابة: ١/ ١٦٥ رقم ٧٣٦]

(٣) استشهد في صفين وعمره (٩١ أو ٩٢) عامًا. [الإصابة: ٢/ ٥١٢ رقم ٥٧٠٤]

(٤) فقد كان يخرج بهم إلى رمضاء مكة، ويعرضون على النار.

(٥) مدارج النبوة (٢/ ٥٠) [فتح الباري: ٧/ ٢٤].

(٦) إعجاز التنزيل (ص٥٣). [الإصابة: ٤/ ١٥٦ رقم ٩٠٧ قسم الكنى]

بالأحجار الملتهبة(١).

(٥) وكانت يعينة، وزنيرة(٢)، ونهدية(٣)، وأم عبيس(٤)، من المسكينات الجواري، فكنّ يعذّبن بأيدي مواليهن بطريقة وحشية(٥).

ولم تكن معاملة قريش هذه القاسية مع العبيد والضعاف فقط، بل كانوا يعذّبون أبناءهم وأقاربهم من المسلمين أيضا، بهذه القسوة والهمجية(٦).

(٦) ولما بلغ خبر إسلام عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **عمّه**، كان هذا التعيس يلفّه في الحصير، ويجمّر من تحته.

(٧) أسلم مصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأخرجته أمّه من البيت، وطردته لجريمة إسلامه(٧).

(٨) وكانت قريش تلفّ بعض الصحابة في جلود البقر والإبل، وترميهم في أشعّة الشمس الحارقة. كما كانت تلبس بعضهم درعا من الحديد، ثم تلقيهم على الأحجار الحامية.

وجملة القول: أنهم كانوا يسومونهم عذابا وحشيًا، لايستطيع أن يواجهه إلّا صدق

---

(١) توفي في المدينة سنة ١٩هـ، وعمره ثلاث وستون سنة. [الإصابة: ١/ ٤١٦ رقم ٢٢١٠]

(٢) زنّيرة: كانت من السابقات إلى الإسلام، ممن يعذّب في الله، وكان أبو جهل يعذبها، وهي مذكورة في السبعة الذين اشتراهم أبو بكر الصديق، فأنقذهم من التعذيب: (الإصابة: ٤/ ٣١١ رقم ٤٦٥ قسم النساء)

(٣) لم يذكرها في الإصابة وفيه «نهديّة أم ولد عمر» الإصابة: (٤/ ٣٩٩ رقم ٩٥١).

(٤) «هي أحد من كان يعذبه المشركون ممن سبق إلى الإسلام». (الإصابة: ٤/ ٤٧٥ رقم ١٤٠٧)

(٥) وقد ذهب بصر «زنّيرة» من كثرة ما نالها من الضرب على رأسها.

وكانت جارية بني المؤمل التي تولّى تعذيبها عمر بن الخطاب قبل إسلامه، حتى إذا تعب من تعذيبها، قال لها مستهزئًا: إني أعتذر إليكِ، إني لم أترك تعذيبك إلا ملالة». (قراءة جديدة: ٧٤). (صلاح)

(٦) إعجاز التنزيل (ص٥٣).

(٧) استشهد في غزوة أحد. [الإصابة: ٣/ ٤٢١ رقم ٨٠٠]

الإسلام[١]. ولا غرو فإن الأمم السابقة، قد حبست أنبياءها، وقتلتهم بمقابل الدراهم المزيفة[٢].

ثانيا: إساءتهم إلى النبي ﷺ[٣]:

ربما كانوا يطرحون الأشواك على طريق النبي ﷺ حتى تجرح قدميه في ظلمة الليل، وترمى القاذورات ترمى عند بابه حتى يتأذى بها صحيًّا، ويضطرب خاطره، ولم يكن يزيد ﷺ على أن يقول: يا بني عبد مناف، أي جوارٍ هذا؟[٤].

ويروي عبد الله بن عمرو بن العاص ما شاهد بعينه، قال: بينا النبي ﷺ يصلّي في حجر الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فوضع ثوبه في عنقه، فخنقه خنقا شديدا، فأقبل أبوبكر حتى أخذ بمنكبه، ودفعه عن النبي ﷺ، قال:

﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [غافر: ٢٨][٥]

وفي رواية البزّار: فتركوه، وأقبلوا على أبي بكر[٦]، وأوسعوه ضربًا.

---

(١) رضي الله عن هؤلاء القوم، الذين تحملوا هذا التعذيب الوحشي، ليبقى لهم إيمانهم في صدورهم، ليبلّغوه إلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. (صلاح)

(٢) زاد المعاد (١/ ٢٤، ٢٩٧).

(٣) من أخبث المسيئين إلى النبي ﷺ: أبو لهب، وزوجته، وأمية بن خلف، وأبوجهل، والأخنس بن شريق، وعقبة بن أبي معيط، وأبي بن خلف، والحكم بن أبي العاص، وعديّ بن حمراء الثقفيّ، وابن الأصداء الهذلي وغيرهم، وأغلبهم قتلوا في غزوة بدر الكبرى في السنة الثانية من الهجرة. ولله في خلقه شئون! (صلاح)

(٤) الطبري (٢/ ٢٢٩) [والطبقات لابن سعد (١/ ٢٠١)، موضوع، ذكره الألباني في «السلسلة الضعيفة» (رقم ٤١٥١)]

(٥) البخاري في المناقب (٣٦٧٨).

وفيه قول عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «فإن ذلك لأشدّ ما رأيت قريشًا بلغت منه».

وقال صاحب «صحيح السيرة النبوية» (ص٥٩) تعليقًا على هذا القول: «لا يعني أن النبي ﷺ لم يؤذ أشدّ من ذلك، ولكن قال ذلك لما رأى هو، وليس لما رأى غيره». وكذلك أطراف هذا الحديث في البخاري (٣٨٥٦-٤٨١٥) (صلاح)

(٦) فتح الباري (٧/ ١٦٩)

ومرة أخرى:

كان النبي ﷺ يصلّي في ظلّ الكعبة، فقال أبو جهل وناس من قريش: نحرت جزور بناحية مكة، فأرسلوا، فجاءوا من سلاها، وطرحوه عليه، فجاءت فاطمة فألقته عنه(١).

ثالثًا: لجان الإيذاء:

واستقلّت قريش مكة كلّ ما كان النبيّ والمسلمون يلقون من الأذى والظلم على أيدي أفراد من الناس، فالتجأوا إلى جهود جماعية، وكوّنوا لجانا عديدة، تتولى مهمة إيذاء الرسول والمسلمين بأساليب شتى.

جماعة المستهزئين:

فتكونت لجنة، رأسها أبو لهب وأعضاؤها خمسة وعشرين نفرًا من رؤساء مكة(٢).

والسؤال المطروح أمام اللجنة: هو ماحكاه ابن هشام: ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا سنّ فيهم، وقد حضر الموسم، فقال لهم:

يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيا واحدا، ولا تختلفوا فيكذّب بعضكم بعضا، ويردّ قولكم بعضه بعضا.

قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس، فقل، وأقم لنا رأيا نقول به.

قال: بل أنتم فقولوا، أسمع.

قالوا: نقول: كاهن، قال: لا، والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهّان، فما هو بزمزمة الكاهن، ولا سجعه (ينبغي أن لا نقول ما يجعل قبائل العرب يظنون فينا الكذب).

---

(١) البخاري في الجهاد والسير (٣/ ٢٣٤) [رقم ٢٩٣٤، عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

(٢) كان هذا التصرّف من كفار مكة في حق النبي ﷺ وأصحابه شبه حرب نفسية، ليصدّوه ﷺ من الدعوة إلى الله في موسم الحج، فكانوا يجلسون في الطرقات، يحذّرون الحجاج منه، ومن دعوته، وبهم خرج أمر رسول الله ﷺ خارج مكة، وانتشر في الجزيرة كلّها، وخاصة بين الأوس والخزرج في المدينة، التي كانت مرشّحة من قبل الله تعالى أن تكون دار هجرة نبيه ﷺ. (صلاح)

قالوا: فنقول: مجنون، قال: ما هو بمجنون؟ لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه، ولا تخالجه، ولا وسوسته.

قالوا: فنقول: شاعر.

قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كلّه: رجزه وهزجه وقريضه، ومقبوضه، ومبسوطه، فما هو بالشعر.

قالوا: فنقول: الساحر، قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحّار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم -فأين هو من أوضاعهم النحسة وعاداتهم القذرة؟.

عجزهم عن البحث عن قالة سوء في النبيﷺ.

قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس!.

قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق،وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل. وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر، جاء بقول هو سحر، يفرّق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته[١].

اتفاقهم على إيذاء النبي ﷺ هو وأصحابه من غير ما جريرة سوى الإسلام:

فتفرّقوا عنه، وهم متفقون على الأمور التالية:

- **أن يضايقوا محمدًا ﷺ.**
- **ويسخروا منه.**
- **ويؤذوه بالاستخفاف والاستهزاء.**
- **ويؤذوا من آمن به، وصدّقه غاية الإيذاء.**

(١) ابن هشام (١/ ٨٨)، والشفا للقاضي عياض (ص:١٢٩).

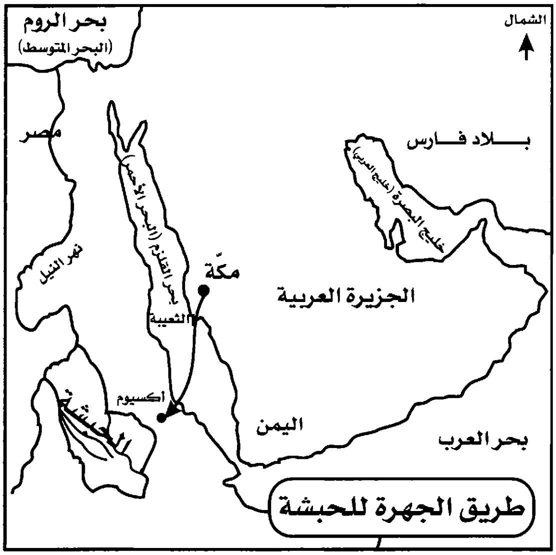

الهجرة إلى الحبشة[١]

الهجرة الأولى:

لما كثر المسلمون وخاف منهم الكفار، اشتدّ أذاهم لهم، وفتنتهم إياهم، فأذن لهم رسول الله ﷺ في الهجرة إلى الحبشة[٢]، وقال: «إن بها ملكا لا يظلم الناس عنده»[٣]، فهاجر من المسلمين اثنا عشر رجلا وأربع نسوة، خرجوا ليلا وركبوا في السفينة من ميناء

---

(١) لما أخفق الإغراء والإرهاب في تعويق الدعوة أدركت قريش أن ما تصبو إليه بعيد المنال، فعادت سيرتها الأولى، تصبّ جام غضبها على المؤمنين، وتبذل آخر ما في وسعها للتنكيل بهم، ومحاولة فتنتهم عن دينهم.
وحزن الرسول الكريم ﷺ للمآسي التي تقع لأصحابه، وهو عاجز عن كفّها، فاتخذ تدبيرًا عاجلًا لتجنب بطشهم بهم، فأمرهم بالهجرة إلى الحبشة (وكان تسلّلا في الحفاظ خوفًا منهم)، فإن بها ملكًا لايظلم، ولهذا كانت فائدتان كبيرتان:
(الأولى): إنقاذ للدعوة من أن تجهض في أيامها الأولى.
(الثانية): انطلاق صوت الإسلام إلى خارج الجزيرة العربية، وهذا كسب لايستهان به. («فقه السيرة» للغزالي: ١١٠، و«قراءة جديدة»: ٧٥-٧٦) (صلاح)

(٢) فيه: جواز لجوء المسلم إلى الكافر العادل، إذا لم يكن على حساب دينه وعقيدته.(صلاح)

(٣) لايوجد قوله ﷺ هذا في سياق أحمد والبيهقي عن ابن اسحاق كما سيأتي تعليقًا.(صلاح)

جدّة إلى الحبشة.(١)

فضل عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وكان منهم عثمان بن عفّان، ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وعثمان هو رئيس الركب. وقد قال له النبي ﷺ: عثمان أوّل من هاجر في سبيل الله بعد لوط وإبراهيم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ(٢).

الهجرة الثانية:

قريش تتعاقب المسلمين إلى الحبشة:

وبعد ذلك هاجر إلى الحبشة(٣) ثلاثة وثمانون رجلًا، وثماني عشرة امرأة، وفيهم ابن

---

(١) «من الثابت أن المسلمين هاجروا إلى الحبشة مرتين، وكانت الهجرة الأولى في شهر رجب من سنة خمس من النبوة، وهم أحد عشر رجلًا وأربع نسوة خرجوا مشاة إلى البحر، فاستأجروا سفينة بنصف دينار». (فتح الباري ٧/ ١٨٧-١٨٨)، (وهو قول الواقدي، وإن لم يصرح الحافظ باسمه كما في طبقات ابن سعد (١/ ٢٠٤)، ويذكر ابن إسحاق أنهم عشرة رجال وأربع نسوة، وسرد أسماءهم. (سيرة ابن هشام (١/ ٣٤٤)، كما في «السيرة النبوية الصحيحة» (١/ ١٦٩-١٧٠)، و «سيرة المصطفى الصحيحة»: (١/ ١٢١-١٢٢). (صلاح)

(٢) الحديث الوارد في هذا المعنى ضعيف. (راجع «ميزان الاعتدال» للذهبي. (٢/ ٦٥٧)، «والفاضلة في الأحاديث الضعيفة والباطلة لأبي إسحاق الحويني: (رقم ٣٣) قال فيه: منكر، والتعليق على الرحيق (ص ٦٦). (صلاح)

(٣) هذه هي الهجرة الثانية إلى الحبشة، وسرد ابن إسحاق أسماء أهل الهجرة الثانية وهم زيادة عن ثمانين رجلًا. وقال ابن جرير: كانوا اثنين وثمانين رجلًا سوى نسائهم وأبنائهم ... وقيل: إن عدة نسائهم كانت ثماني عشرة امرأة ». (فتح الباري: ٧/ ١٨٩، وراجع الأحاديث الواردة في الهجرة الثانية إلى الحبشة في «سيرة المصطفى»: ١/ ١٢٢-١٣٢ رقم ١٠٥-١٠٨)

من دوافع هذه الهجرة أن بلغ المسلمين بأرض الحبشة، أن أهل مكة أسلموا، فرجع ناس، منهم: عثمان بن مظعون إلى مكة، فلم يجدوا ما أخبروا به صحيحا، فرجعوا، وسار معهم جماعة إلى الحبشة، وذلك لاشتداد البلاء عليهم في مكة. (السيرة النبوية الصحيحة: ١/ ١٧٢) (صلاح)

عمّ رسول الله ﷺ جعفر بن أبي طالب، وقد تعاقبتهم قريش إلى البحر، ولكنهم قد مضوا قبل وصولها.

وكان ملك الحبشة نصرانيًا، فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد أمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة، وأنهم قد أصابوا بها دارا وقرارًا، ائتمروا أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش جلدين إلى النجاشي، فيردّ عليهم ليفتنوهم في دينهم، ويخرجوهم من دارهم، التي اطمأنوا بها وأمنوا فيها، فبعثوا عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص بن وائل، وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقته، ثم بعثوهما إليه فيهم.

وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته، قبل أن تكلّما النجاشي فيهم، فخرجا حتى قدما على النجاشي، وقالا له:

أيها الملك! إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه لانعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم، لتردّهم إليهم، وهم أعلى بهم عينا[1]، وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه.

النجاشي يتأكّد من المسلمين:

ولكن النجاشي أبى أن يفعل ذلك، حتى يسمع ما يقولون، وبعث في طلبهم، فلما جاءوا، سألهم: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به في ديني ولا دين أحد من هذه الملل؟

خطبة جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند النجاشي:

فردّ على النجاشي ابن عمّ رسول الله ﷺ جعفر، وقال[2]:

---

(١) أي: أبصر بهم. (صلاح)

(٢) وردت هذه الخطبة عن أم سلمة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في رواية أحمد (١٧٤٠، ٢٢٤٩٨)، والبيهقي في الدلائل (٢/ ٣٠١-٣٠٦)، وكلاهما عن محمد ابن إسحاق، وإسناده حسن لأجله، وليس في سياقهم قوله ﷺ: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكًا لا يُظلم أحد عنده». (سيرة المصطفى: ١/ ١٢٧). (صلاح)

أيها الملك! كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيئ الجوار، ويأكل القويّ منا الضعيف.

فكنّا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منّا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبده نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان.

وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم، والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات.

وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، فصدّقناه و آمنّا به، واتّبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئا، وحرّمنا ما حرّم علينا، وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومنا، فعذّبونا وفتنونا عن ديننا، ليردّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحلّ ما كنّا نستحلّ من الخبائث، فلما قهرونا وضيّقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك[١].

فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟

قال جعفر: نعم.

فقال له النجاشي: فاقرأ عليّ.

فقرأ عليه جعفر صدرا من سورة مريم، فبكى النجاشي حتى اخضلّت لحيته، وبكت أساقفته، حتى اخضلّوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلي عليهم.

ثم قال لهم النجاشي: إنّ هذا والذي جاء به عيسى، ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما.

ثم قال: محمد ﷺ هو الرسول الذي بشّر به عيسى، وإنّي أحمد الله على أن وجدتُ زمنه[٢].

---

(١) ابن هشام (١/ ٣٥٩-٣٦٠).

(٢) راجع للتفصيل «صحيح السيرة النبوية» للألباني (١٧١-١٨١)، و«السيرة النبوية الصحيحة» للعمري (١/ ١٧٢-١٧٦)، و«صحيح السيرة النبوية» لإبراهيم العلي (٧٢-٧٨)، =

مفاوضة عتبة مع النبي ﷺ بعد خيبة سفارة قريش إلى النجاشي:

ولما رأى كفار مكة أن سفارتهم إلى النجاشي، لم تعد إليهم بفائدة، التجأوا إلى وسيلة الإغراء والاستمالة، والتهديد والترهيب.

يقول ابن هشام: عن محمد بن كعب القرظي قال: حُدّثت أن عتبة بن ربيعة -وكان سيّدا- قال يوما، وهو جالس نادى قريشًا، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده:

يامعشر قريش! ألا أقوم إلى محمّد، فأكلّمه وأعرض عليه أمورًا، لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء، ويكفّ عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله يزيدون ويكثرون.

فقالوا: بلى يا أبا الوليد، قم إليه فكلّمه؛ فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال:

يا ابن أخي! إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا.

وإن كنت تريد شرفا سوّدناك علينا، حتى لا نقطع أمرا دونك.

وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا.

وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًّا، تراه لاتستطيع ردّه عن نفسك، طلبنا لك الطبّ، وبذلنا فيه يداوي منه.

حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال:

أقد فرغت يا أبا الوليد؟

قال: نعم!

قال: فاسمع منّي.

=

و«سيرة المطفى ﷺ الصحيحة» للأعظمي: (١/ ١٢١-١٢٣).

هذا التفصيل يدلّ على أن مهاجرة الحبشة لم يتوانوا عن شرح مبادئ الإسلام، بما تسمح لهم به ظروفهم، مما جعل أهل الحبشة يرسلون وفدًا للتأكد مما يقول هؤلاء. (قراءة جديدة: ٨٢). (صلاح)

قال: افعل، فقال:

﴿حمٓ ١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣ بَشِيرٗا
وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ
بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ٥ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ
فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ
٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٨﴾ [فصلت: ١-٨]

ثم مضى رسول الله ﷺ فيها، يقرؤها عليه. فلما سمعها منه عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره، معتمدا عليها يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك.

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم، قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟

قال: ورائي أني قد سمعت قولا، والله ما سمعت مثله قطّ، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة.

يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكوننّ لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب، فملكه ملككم، وعزّه عزّكم، وكنتم أسعد الناس به.

قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه.

قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم(١).

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣١٣).

[قالوا لعتبة: هل أجابك، قال: نعم، قال: والذي نصبها بنية ما فهمت شيئًا مما قال، غير أنه قال: أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، قالوا: ويلك! يكلمك بالعربية، فلا تدري ما قال. قال :لا والله، ما فهمت مما قال، غير ذكر الصاعقة. (مسند أبي يعلى: ١٨١٨، والبيهقي في الدلائل: ١/ ٢٣٠-٢٣١، مستدرك حاكم: ٢/ ٢٥٣. صححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وفيه الأجلح الكندي، اختلف في توثيقه، ورضيه ابن عديّ، فهو حسن الحديث، وبقية رجاله ثقات.) (راجع «صحيح السيرة النبوية» للعلي (٦٣-٦٤) (صلاح)]

مفاوضة صناديد قريش مع عمّه أبي طالب:

ولما فشلت حيلة الإغراء والتحريض هذه، اجتمع رؤساء القبائل، وجاءوا إلى أبي طالب، وقالوا:

يا أبا طالب! إن لك سنّا وشرفًا ومنزلةً فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنّا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفّه عنّا، أو ننازله وإياك في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين.

فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يطب نفسًا بإسلام رسول الله ﷺ ولا خذلانه، فبعث إلى رسول الله ﷺ، فقال له:

يا ابن أخي، إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا، فأبق عليّ وعلى نفسك، ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق.

قال: فظنّ رسول الله ﷺ أنه قد بدأ لعمّه بداء، أنه خاذله ومسلمه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه[(١)].

قال: فقال رسول الله ﷺ: يا عمّ! والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركته[(٢)].

---

(١) ولكن قال لهم أبو طالب فيما تحقق من ابن أخيه: «والله! ما كذب ابن أخي قط، فارجعوا راشدين». (المطالب العالية: ٤٢٧٨، ورواه أبو يعلى (٦٨٠٤)، وإسناده صحيح، كما في مجمع الزوائد للهيثمي (٦/ ١٥) راجع «صحيح السيرة النبوية» للعلي (٦٣-٦٤)، وللألباني (١٤٤). (صلاح)

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٨٤).

[قال العلامة الألباني : ... قد أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٥٧٧) ...وإسناده حسن، كما بينته في «الصحيحة» (٩٢).

وأما حديث: «**يا عمّ! لو وضعوا الشمس في يميني...**» فلم أورده هنا لضعفه على شهرته، وقد بينت ذلك في «الضعيفة». («صحيح السيرة النبوية» للألباني (١٤٣-١٤٤)] (صلاح)

جهود مستمرّة للوصول إلى الحلّ، بعد فشل المفاوضات أيضًا:

وبعد فشل عتبة في مفاوضته مع النبي ﷺ تشاورت قريش مكة، يقول ابن هشام:

«اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلّموك، فأتهم، فجاءهم رسول الله ﷺ سريعًا، وهو يظنّ أن قد بدا لهم فيما كلّمهم فيه بداء، وكان عليهم حريصا يحبّ رشدهم، ويعزّ عليه عنتهم، حتى جلس إليهم، فقالوا له:

يا محمد! إنا قد بعثنا إليك لنكلّمك، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة، وسفّهت الأحلام، وفرّقت الجماعة، فما بقي أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك.

فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا.

وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا، فنحن نسوّدك علينا.

وإن كنت تريد به ملكا، ملكناك علينا.

وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا، تراه قد غلب عليك، فربما كان ذلك، بذلنا لك أموالنا في طلب الطبّ لك، حتى نبرئك منه، أو نعذر فيك.

فقال لهم رسول الله ﷺ:

ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولا، وأنزل عليّ كتابا، وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلّغتكم رسالات ربّي، ونصحتُ لكم، فإن تقبلوا منّي ما جئتكم به، فهو حظّكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم[1].»

---

(١) تقدّم تخريجه في الهامش السابق بألفاظ متقاربة، لقصّة واحدة.

مطالبة قريش من النبي ﷺ بالآيات لإثبات نبوّته[١]:

قالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابلٍ منا شيئا مما عرضناه عليك فإنك قد علمتَ أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدًا، ولا أقل ماءً، ولا أشدّ عيشًا منّا، فسل لنا ربّك الذي بعثك بما بعثك به، فليسير عنّا هذه الجبال، التي قد ضيّقت علينا[٢]، وليبسط لنا بلادنا،

---

(١) لقد ذكرالله سبحانه وتعالى أهم مطالباتهم في سورة الإسراء، فقال عز من قائل: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٣﴾ [الإسراء: ٩٠ – ٩٣]

رحمة النبي ﷺ بهم تجلّى في عدم طلبه من الله تعالى لإظهار مثل هذه الآيات:

وقد جرت سنة الله تعالى أن من لم يؤمن بعد الآيات، فإنه يعذبهم عذابا لا يعذبهم أحدا من العالمين، كما قال حاكيًا عن طلب حواري المسيح المائدة من السماء:

﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ۝١١٥﴾ [المائدة: ١١٥]

وكذلك قال حاكيًا عن ثمود حين سألها خروج ناقة عن صخرة عينوها، فلما خرجت:

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ۝٦٥﴾ [هود: ٦٥]

وقد بين رحمة النبي ﷺ بهم ما رواه ابن عباس قال:

«سأل أهل مكة النبي ﷺ، أن يجعل لهم الصفا ذهبا، وأن ينحي الجبال عنهم، فيزرعوا، فقيل له: إن شئت أن تستأني بهم، وإن شئت أن نؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا أهلكوا كما أهلكت من قبلهم، قال: «لا، بل أستأني بهم» فأنزل الله عز وجل هذه الآية:

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ۝٥٩﴾ [الإسراء: ٥٩]». (رواه أحمد (٢٣٣٣) بإسناد صحيح)

وفي رواية أخرى عند أحمد (٢١٦٦، ٣٢٢٣) بإسناد صحيح:

«وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة، قال: بل باب التوبة والرحمة». (سيرة المصطفى ﷺ: ١/ ٩٧-١٠٠، رقم ٨٦-٨٩) (صلاح)

(٢) كان مشركو مكة يريدون تسيير الجبال فقط ليتوسع فناء دارهم، أما أهل الإيمان فلم يحل بينهم لا جبل طارق ولا جبل القوقاز، وأصبحت الأرض البسيطة كلها فناء دارهم.

وليفجر لنا فيها أنهارًا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي[١] بن كلاب، فإنه كان شيخ صدق، فنسألهم عما تقول: أحقّ هو أم باطل؟ فإن صدّقوك وصنعت ما سألناك صدّقناك، وعرفنا به منزلتك من الله، وأنه بعثك رسولا كما تقول.

فقال ﷺ لهم: ما بهذا بعثت إليكم، إنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله تعالى، حتى يحكم الله بيني وبينكم.

قالوا: فإذا لم تفعل هذا لنا، فخذ لنفسك، سل ربّك أن يبعث معك ملكًا يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنك، وسله فليجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم، وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم[٢].

فقال لهم رسول الله ﷺ: ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربّه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم.

قالوا: فأسقط السماء علينا كسفا كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل[٣].

قال رسول الله ﷺ: «ذلك إلى الله، إن شاء أن يفعله بكم فعل».

---

(١) قصيّ: اسم والد عبد مناف جدّ النبي ﷺ، وهو الذي أخرج بني جرهم من مكة، وجمع قبائل قريش، وأسكنهم في مكة مرة أخرى، ووزع الوفادة، والسقاية، واللواء، والسفارة، والحجابة، والأزلام في مختلف البطون، وهكذا أرسى نظام مكة على أصول الشورى.

(٢) إن الثروة، والإمارة الدنيوية، والقصور والجنان، التي اعتبرها أهل مكة إمارة للصدق، قد أتمها الله تعالى لأهل الإيمان، وعلم الناس أن رسالة محمد ﷺ كانت مصدر خير الدنيا أيضًا، كما كانت تضمن بالتأكيد سعادة الآخرة.

(٣) والعذاب الذي طلبوه قد نزل بهم يوم بدر، فلم ينج أحد من المنكرين والمستهزئين.

قالوا: يا محمد! أفما علم ربك أنا سنجلس معك، ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيتقدم إليك فيعلّمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا، إذ لم نقبل منك ما جئتنا به.

إنه قد بلغنا أنك إنما يعلّمك هذا رجل باليمامة، يقال له: الرحمن[1]، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبدًا، فقد أعذرنا إليك يا محمد!، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك، أو تهلكنا!

وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة، وهي بنات الله.

وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا.

عناد عبد الله[2] بن أبي أميّة في مفاوضته مع النبي ﷺ:

فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ، قام عنهم، وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، وهو ابن عمّته: عاتكة بنت عبد المطلب، **فقال له**:

يا محمد! عرض عليك قومك ما عرضوا، فلم تقبله منهم.

ثم سألوك لأنفسهم أمورا، ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول، ويصدّقوك ويتّبعوك فلم تفعل.

ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم، ومنزلتك من الله، فلم تفعل.

ثم سألوك أن تعجل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب، فلم تفعل.

فو الله لا أؤمن بك أبدا حتى تتّخذ إلى السماء سلّما، ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتي معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنّك كما تقول، وأيم الله، لوفعلت

---

(١) «الرحمن» من أسماء الله الحسنى التي وردت في القرآن، والعرب لم يعرفوا هذا الاسم، ولذا كانوا يكرهونه ويغضبون منه أشدّ الغضب، ويقولون: إنه اسم رجل مجهول، و«الرحمن» صيغة المبالغة من «الرحمة».

(٢) عبد الله بن أبي أميّة: هو صهر النبي ﷺ، أخو أم سلمة زوج النبي ﷺ.

ذلك، ما ظننت أني أصدّقك، ثم انصرف عن رسول الله ﷺ[(١)].

دعوة الأنبياء نفسها تصديق لدعواهم من غير ارتكان إلى المعجزات:

واستمر النبي ﷺ، بعد هذا الرفض والإنكار أيضًا، في دعوة قريش إلى الإسلام، وكان ﷺ يقول: لكم كلّ شيء في هذه الدعوة، وأولو الألباب الذين آمنوا وعملوا بما جاء به الرسول ﷺ لاستفادوا أكثر مما سأله الكفار من الفوائد والمعارف.

ونتذكر هنا من «الإنجيل» ما ورد فيه، أن الشيطان قد وجّه عدة أسئلة اختبارًا للمسيح، والمسيح قد أجاب عنها جميعا بالنفي[(٢)].

والحق أن رسل الله تعالى الكرام يقدّمون تعاليمهم تصديقا لدعاويهم، ولا يرتكنون إلى المعجزات والخوارق، فإن مزية الإيمان بالغيب لا تبقى بعدها، مع أن المعجزات تظهر منهم بكثرة في المناسبات الأخرى حسب الحاجة.

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٣١٥-٣١٨)، [راجع ترجمته عبد الله بن أبي أميّة في (الإصابة: ٢/ ٢٧٧ رقم ٤٥٤٣)]

[قيل: أرادوا مسليمة] ونعرف بهذا الخبر مدى عداء عبد الله، ابن عمة رسول الله، للإسلام، ولكن لم تمض سنوات إلا أنه أسلم قبل فتح مكة، بتوفيق الله جلّ وعلا. وأهل البصيرة يدركون جيدا أن قبول مثل هذا الشخص للإسلام أقوى وأكبر معجزة للنبيﷺ من الرقي إلى السماء بالسلّم، ومن الإتيان بالكتاب، ومن شهادة الملائكة، فإن ذلك من الأمور التي لم يكن يريد عبد الله الإيمان بها بعد رؤيتها أيضًا.

(٢) إنجيل متى: الأصحاح الرابع (١-١١)

الإسلام يشقّ طريقه إلى قلوب الكبار في أحرج أوقاته

إسلام حمزة بن عبد المطلب قوّة ومنعة للنبي ﷺ:

يذكر أنه في السنة السادسة من البعثة، كان النبي ﷺ جالسا على الصفا، فمرّ به أبو جهل، وآذاه وشتمه، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره، فلم يكلمه رسول الله ﷺ، فرماه بحجر في رأسه حتى جرى منها الدم، فبلغ ذلك عمّه ﷺ: حمزة ولم يسلم بعد، فمشى إلى أبي جهل حتى إذا قام على رأسه رفع القوس، فضربه بها فشجّه شجّة منكرة.

ثم قال: أتشتمه وأنا على دينه، أقول ما يقول، فردّ ذلك عليّ إن استطعتَ؟

ثم ذهب حمزة إلى النبي ﷺ، وقال له: يسرك أني قد انتصرتُ لك من أبي جهل.

قال النبي ﷺ: إني لا أفرح بمثل هذا، نعم، يسرّني أن تسلم، فأسلم حمزة، وعرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عزّ وامتنع(١).

إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعزّة المسلمين:

وبعد إسلام حمزة رضي الله عنه بثلاثة أيام، أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان رجلا ذا شكيمة لايرام ما وراء ظهره، وكان سفير قريش إلى خارج البلاد.

ومن خبر إسلامه: أنه خرج يوما متوشّحا سيفه، يريد قتل الرسول الله ﷺ، فلقيه نعيم بن عبد الله، فقال له: أين تريد ياعمر؟

---

(١) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٥٤٦٠-١٥٤٦١) عن محمد بن كعب القرظي، وقال: رواه الطبراني مرسلًا، والمرسل من أنواع الضعيف، ولذا قال الدكتور العمري (١/ ١٤٦): «ولكن تفاصيل قصة إسلامه لم تثبت من طرق صحيحة»، راجع «التعليق على الرحيق» للملاح (ص٧١-٧٢). (صلاح)

ظاهر من هذا، أن إسلام حمزة كان أول الأمر أنفة ونخوة، ولكن أبى الله إلا أن جعلها له سبحانه وتعالى، فشرح صدره، فاستمسك بالعروة الوثقى، واعتزّ به المسلمون أيما اعتزاز. (صلاح)

فقال: أريد محمدا هذا الصابئ، الذي فرّق أمر قريش، وسفّه أحلامها، وعاب دينها، وسبّ آلهتها فأقتله.

فقال له نعيم: أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتُقيم أمرهم؟

قال: وأيّ أهل بيتي؟

قال: ختنك وابن عمك: سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك: فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما، وتابعا محمّدًا على دينه، فعليك بهما[1].

فرجع عمر عامدًا إلى أخته وختنه، فضربهما حتى شجّهما.

وقالت أخته: اسمع ما آمنا به، فإن لم يعجبك فاقتلنا، فأعطته صحيفة فيها [طه] فقرأها، فلما قرأ منها صدرًا، **قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه.**

ثم سأل عن النبي ﷺ، فذهب إليه، و أعلن عن[2] إسلامه.[3]

وسبحان الله! كان عمر، خرج يريد قتل رسول الله ﷺ، ولكن ما لبث أن دخل في

الإسلام، واعتزّ بفداء نفسه في سبيل هذا الدين. وبعد إسلام عمر بدأ المسلمون يصلّون في الكعبة.[1]

وسمّى رسول الله ﷺ عمر «الفاروق[2]»، فأغضب ذلك الكفّار، وبالغوا في إيذاء الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم.

---

(١) **ومن حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال:**
«ما زلنا أعزّة منذ أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه». (البخاري: ٣٦٨٤)
وقال أيضًا: «لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلّي بالبيت حتى أسلم عمر، فلمّا أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا نصلّي». (طبقات ابن سعد ٣/ ٢٧٠ بإسناد صحيح)
وقال: «إن إسلامه كان نصرًا». (المعجم الكبير للطبراني: ٩/ ١٨١ بإسناد حسن). (راجع «السيرة النبوية الصحيحة» للعمري (١/ ١٧٨)).

(٢) الأحاديث الواردة في «الفاروق» ضعيفة، منها: عن أيوب بن موسى: إن الله جعل الحقّ على لسان عمر قلبه، وهو الفاروق، فرّق الله به بين الحق والباطل. (ضعفه الألباني في «الضعيفة» (٣٠٦٢) وضعيف الجامع (١٥٨٦).
وأمّا ما ورد من قول عبد الله بن عمر، قال: «يكون في هذه الأمّة اثنا عشر خليفة، ثمّ ذكر أبا بكر، وقال: عمر الفاروق قرن من حديد أصبتم اسمه...» فقال فيه الألباني في تخريج كتاب السنّة (١١٥٤): إسناده صحيح.) (صلاح)

مقاطعة قريش ولجوء النبي ﷺ مع عشيرته في شعب أبي طالب[(١)]

ولمّا رأى الكفار أن محمدا ما زال ثابتًا في دعوته، مواصلًا نشاطه بشجاعة نادرة وعزيمة بالغة[(٢)]، أجمعوا في شهر محرم من السنة السابعة من البعثة النبوية، على أن يقاطعوا بني هاشم أن لا يبايعوهم، ولا يناكحوهم، ولا يكلّموهم، ولا يجالسوهم حتى يسلموا إليهم رسول الله[(٣)]. وكتبوا بذلك صحيفة[(٤)] وعلّقوها في جوف الكعبة.

وحُبِس رسول الله ﷺ ومن معه في شعب أبي طالب ليلة هلال محرم سنة سبع من

---

(١) و«الشعب» هو الفرجة بين الجبلين. و«شعب أبي طالب» بين جبل أبي قبيس والخندمة. (صلاح)

(٢) ولما رأى الكفار أن المسلمين اطمأنوا في الحبشة نوعًا ما، وباءت مساعيهم بالخيبة في إرجاعهم إلى مكة، وأسلم عمر و حمزة وبدأ ينتشر الإسلام في القبائل. ولم يستطيعوا كذلك إمعان الأذى برسول الله ﷺ بسبب حماية أهله من بني هاشم وبني المطلب، فرسموا خطة جديدة أقسى وأحكم، وأجمعوا على مقاطعتهم، حتى يسلموا إليهم النبي ﷺ فلجأوا -سوى أبي لهب ابن عبد المطلب-، في شعب أبي طالب، دفاعًا عن النبي ﷺ. (صلاح)

(٣) زاد المعاد (٣/ ٣٠)

[من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قال لنا رسول الله ﷺ ونحن بمنى (نحن نازلون غدًا بخيف بني كنانة، حيث تقاسموا على الكفر)، وذلك إن قريشًا وبني كنانة تحالفت على بني هاشم وبني المطلب، أن لا يناكحوهم، ولا يبايعوهم حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ، يعني بذلك المحصب». (البخاري: ١٥٨٩، ١٥٩٠، ومسلم: ١٣١٤) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال الحافظ في الفتح (٧ / ١٩٣): لما لم يثبت عند البخاري شيء من هذه القصّة، أكتفى بإيراد حديث أبي هريرة، لأن فيه دلالة على أصل القصّة، لأن الذي أورده أهل المغازي من ذلك كالشرح لقوله في الحديث (تقاسموا على الكفر). («صحيح السيرة النبوية» للعلي: ص ٨٢) (صلاح)]

(٤) **كان كاتب هذه الصحيفة:** منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف. [مختصر سيرة ابن هشام: ١/ ٢٨١]

البعثة، وبقوا محبوسين ومحصورين، مضيقا عليهم جدًا، مقطوعا عنهم الميرة والمادة نحو ثلاث سنين[١]، حتى بلغهم الجهد، وسمعت لأجله أصوات صبيانهم بالبكاء من وراء الشعب[٢].

تحيّن النبي موسم الحج للدعوة أيام المقاطعة:

عاش النبي ﷺ وعشيرته نحو ثلاث سنين في هذا الجوّ الخانق، وعاش المسلمون الآخرون أيضًا محبوسين في بيوتهم.

وفي موسم الحجّ حيث كان الكفار يحرمون القتال، كان الرسول ﷺ يخرج من الشعب، ويدعو الناس إلى الإيمان بالله، وكان الشقيّ أبو لهب يتبعه من الصباح إلى المساء، ويقول:

أيّها الناس! هذا مجنون، لا تسمعوا له، ومن يسمع له يهلك[٣].

ثم أطلع الله رسوله على أمر صحيفتهم، وأنه أرسل عليها أرضة فأكلت جميع ما فيها من جور وقطيعة وظلم، إلا ذكر الله عزّ وجلّ، وبلغ ذلك قريشًا فأنزلوا الصحيفة، فوجدوها كما أخبر الرسول ﷺ.[٤]

---

(١) قال ابن هشام: فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثًا حتى جهدوا، لا يصل إليهم شيئ، إلا سرّا مستخفيًا به من أراد صلتهم من قريش. (مختصر سيرة ابن هشام: ١/ ٢٨٣) (صلاح)

(٢) زاد المعاد (٣/ ٣٠)

[هذا الضيق الحاصل من جرّاء هذه المقاطعة الظالمة، حرّك ضمائر بعض المتعاطفين لنصرة المظلومين، مع أنها لم تكن تؤمن بالله ورسوله ﷺ، فكان هشام بن عمرو بن الحارث يأتي بالبعير، قد أوقره طعامًا أو غيره مما يحتاجه الذين فرض عليهم الحصار فيدفعه إليهم. («قراءة جديدة»: ص ٨٣)

وهشام هذا قد أدّى دورًا فعالًا بدهائه في نقض هذه الصحيفة مع الآخرين. ستأتي قريبًا أسماؤهم تعليقًا. (صلاح)

(٣) راجع ما ورد في هذا المعنى من الصحاح والحسان من الأحاديث في «سيرة المصطفى الصحيحة»: (١/ ١٧٨-١٨١ رقم ١٤٧-١٥٠) (صلاح)

(٤) [راجع للتفصيل في «مختصر سيرة ابن هشام»: ١١/ ٣٠٩-٣١٣]. ذكر أصحاب السير: أن هشام ابن عمرو بن الحارث بحيلته ودهائه اتصل بزهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدي، وزمعة بن =

وبعد ذلك خرج الرسول الله ﷺ ومن معه من الشعب، وبدأ يدعو الناس إلى دين الله.

مناقرة بين عتبة وأبي جهل في أمر النبي ﷺ:

دخل الرسول ﷺ يومًا المسجد الحرام، والمشركون عند الكعبة، فلمّا رآه أبو جهل.

قال استهزاء: هذا نبيّكم يا بني عبد مناف!

قال عتبة بن ربيعة: وما تنكر أن يكون منا نبيّ أو ملك؟

فأخبر بذلك النبي ﷺ أو سمعه، فأتاهم، فقال:

أما أنت يا عتبة بن ربيعة! فوالله ما حميتَ لله ولا لرسوله، ولكن حميتَ لأنفك!

- **وأما أنت يا أبا جهل بن هشام!** فوالله لا يأتي عليك غير هنيهة من الدهر حتى تضحك قليلا، وتبكي كثيرًا.
- **وأما أنتم يا معشر الملأ من قريش!:** فوالله لا يأتي عليكم غير كبير من الدهر حتى تدخلوا فيما تنكرون وأنتم كارهون[1].

وسوف يرى القراء في هذا الكتاب، كيف تحقّق هذا التنبؤ فيما بعد.

=

الأسود، وأبي البختري بن هشام بن الحارث، الذين تربطهم صلات رحم ببني هاشم وعبدالمطلب، فقاموا بنقض الصحيفة. [المصدر المذكور: ١/ ٣١٠-٣١١، وقال ابن حجر في التلخيص الحبير: (٣/ ١٠٩٥): «مشهور في السير والمغازي»].

صحيح أن هذه المقاطعة ألحقت أذى كبيرًا برسول الله ﷺ وعشيرته، ولكنها جلبت للدعوة خيرا كثيرًا.

* فهي منعت ذوي الأغراض الدنيئة من الانتساب لهذا الدين.
* وإن كثيرًا من المشركين تعاطفوا مع المظلومين، حتى أدّى ذلك إلى نقض الصحيفة.
* وبذلك وجدت خلخلة في صفوف المشركين.

هذه هي النتائج التي تمخضت عنها المقاطعة فتأمل. (قراءة جديدة: ٨٥-٨٦، سيرة المصطفى ﷺ: ١/ ١٣٥-١٣٦) (صلاح)

(١) تأريخ الطبري (٢/ ٢٣١). [وقد ذكر أن ذلك وقع بعد انصراف رسول الله ﷺ من الطائف. (المترجم)].

عام الحزن(١)

وفاة أبي طالب:

وفي السنة العاشرة من البعثة النبوية(٢)، توفّي أبو طالب عمّ رسول الله ﷺ، وهو الذي كان ربّى الرسول ﷺ في صغره، وأيّده وحماه، حينما بدأ ﷺ دعوة الناس إلى التوحيد، ولذا حزن ﷺ على وفاته حزنا شديدا.(٣)

---

(١) «انطلق المسلمون من الشعب، يستأنفون نشاطهم القديم، بعد ما قطع الإسلام في مكة قرابة عشرة أعوام مليئة بالأحداث الضخمة، وما إن تنفس المسلمون من الشدة التي لاقوها، حتى أصيب الرسول ﷺ بوفاة عمّه أبي طالب، ثم بوفاة زوجته خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.
أي أنه نكب في حياته الخاصة والعامة معًا». وسمّي هذا العام عام الحزن. («فقه السيرة» للغزالي: ١٢٢) (صلاح)

(٢) توفي أبو طالب في آخر السنة العاشرة من النبوة، بعد خروج بني هاشم من شعب أبي طالب. («السيرة النبوية الصحيحة» للعمري: ١/ ١٨٣)

(٣) مع كل هذا مات أبوطالب على الكفر، لأنه لم يقل «لا إله إلا الله» بعد محاولة النبي ﷺ بكل حبّ وتودّد، فقال تعالى لرسول الله فيه:
﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾ [القصص: ٥٦].
(البخاري: ٤٧٧٢، ومسلم: ٢٤، عن المسيب بن حزن)
وعن العباس بن عبد المطلب، أنه قال للنبي ﷺ: «ما أغنيت عن عمك، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟» قال: «هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار».
(البخاري: ٣٨٨٣، ومسلم: ٢٠٩).
هذا، ومن يثبت إيمان أبي طالب، يثبته بالقرائن، والوقائع الدالّة على حبّه للنبي ﷺ ووقوفه معه ضد قريش. وهذا، لا شكّ فيه، ولكن أمر إيمانه لا يثبت بالقرائن والوقائع ضدّ الحديث الصحيح الوارد عن النبي ﷺ. (صلاح)

وفاة خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا[١]:

وتوفّيت بعد أبي طالب بثلاثة أيام، زوجة الرسول ﷺ الطاهرة: خديجة الكبرى، الزوجة التي وقفت مع النبي ﷺ بنفسها ومالها، تؤازر زوجها، وتضحّي له في سبيل الله بكل ما تملك، وهي التي لبّت دعوة الإسلام قبل الآخرين، وكان الملائكة يبلغونها السلام من الله، وهذه الفاجعة قد تركت أثرًا مُرّا في نفس الرسول ﷺ.[٢]

زيادة إيذاء قريش للنبي ﷺ بعد وفاتها:

وهنا زادت قريش في إيذاء الرسول ﷺ، حتى نالت منه بعد موت أبي طالب، ما لم تكن تطمع به في حياته، حتى اعترضه سفيه من سفهائها فنثر على رأسه ترابًا[٣]، فقامت إليه إحدى بناته تنفض عنه التراب، وهي تبكي. ورسول الله ﷺ يقول لها: يا بنية! لا تبكي فإن الله مانع أباك.[٤]

---

(١) عن هشام بن عروة عن أبيه، قال: «توفيت خديجة قبل مخرج النبي ﷺ إلى المدينة بثلاث سنين، فلبث سنتين أو قريبًا من ذلك، ونكح عائشة، وهي بنت ست سنين، ثمّ بنى بها وهي بنت تسع سنين». (البخاري رقم: ٣٨٩٦). (صلاح)

(٢) لم يكن للنبيّ ﷺ أن ينسى خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أبدًا. قالت عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ، ما غرتُ على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة، فيقول «إنها كانت، وكانت، وكان لي منها ولد». (البخاري: ٣٨١٨، ومسلم: ٢٤٣٥) (صلاح)

(٣) سيرة ابن هشام:١/ ٤٦١، وسيرة المصطفى ﷺ: ١/ ١٣٦). (صلاح)

(٤) مرسل، عن عروة بن الزبير، وذكره الألباني في «دفاع عن السنة» (١٩). (صلاح)

خروج الرسول ﷺ إلى دعوة القبائل

على الرغم من أن الرسول ﷺ فَقَدَ بوفاة عمّه ناصرًا له، وبوفاة زوجته مواسية له، مشاركة في أحزانه في مصائبه وأزماته، استمرّ في الدعوة إلى الله بحماس أكثر ونشاط أكبر مما كان عليه من قبل، فخرج بعد وفاتها بأيام قليلة من مكة، يريد القبائل التي تجاورها، وكان معه زيد بن حارثة مولاه، عرض الرسول ﷺ الدعوة على القبائل، التي كانت تسكن بين مكة والطائف، حتى وصل إلى الطائف، مشيا على قدميه، وكانت تسكن فيها «ثقيف»، وقد حملها خصب البلاد وجباها على الكبر والغرور، الذي تعدّى الحدود.

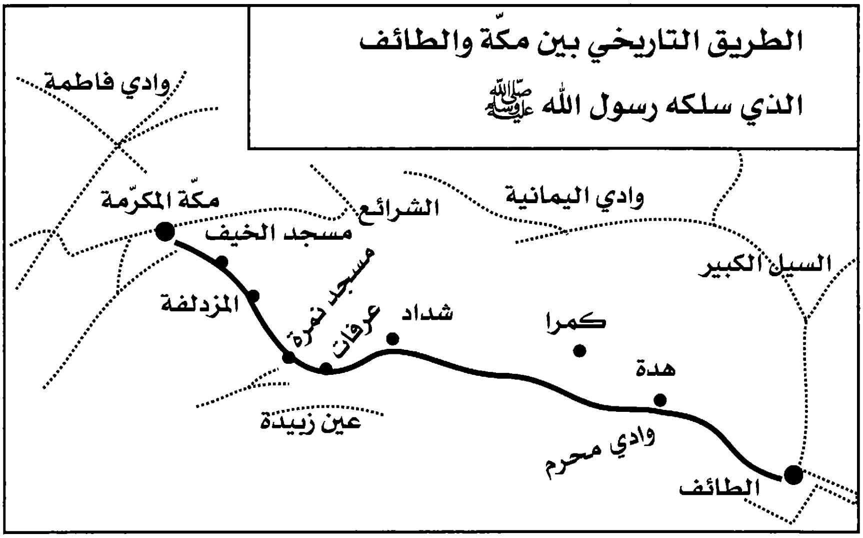

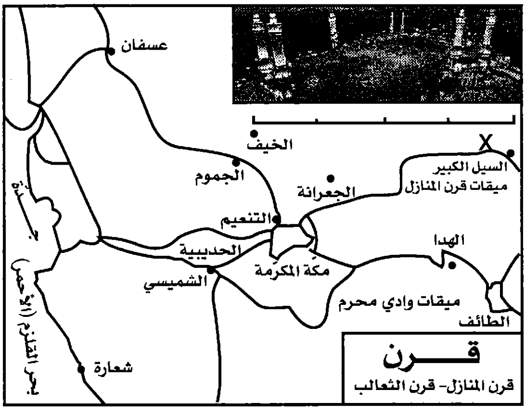

رحلة النبي ﷺ إلى الطائف[1] وإيذاء سفهاء ثقيف له:

يقول الطبري: لما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف، هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم، وهم إخوة ثلاثة: عبد ياليل بن عمرو بن عمير، وأخواه مسعود وحبيب، فجلس إليهم، فدعاهم إلى الله، وكلّمهم بما جاءهم به من نصرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه.

فقال أحدهم: هو يمرط[2] أمام الكعبة، إن كان الله أرسلك.

وقال الآخر: ما وجد الله أحدا يرسله غيرك؟

وقال الثالث: والله لا أكلّمك كلمة أبدا، لئن كنت رسولا من الله كما تقول، لأنت أعظم خطرا من أن أردّ عليك الكلام؛ ولئن كنت تكذب على الله، ما ينبغي لي أن أكلّمك.

فقام رسول الله ﷺ من عندهم، وقد يئس من خير ثقيف، وقد قال لهم: إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عليّ، وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومهم عنه، فيذئرهم[3] ذلك عليه.

فلم يفعلوا وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبّونه، ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظلّ فجلس فيه، وابنا ربيعة ينظران إليه، ويريان ما لقي من سفهاء ثقيف.

---

(١) كانت رحلة النبي ﷺ إلى الطائف على إثر اشتداد مقاومة قريش للدعوة عقب وفاة أبي طالب، فسعى رسول الله ﷺ لإيجاد مركز جديد للدعوة، وطلب النصرة من «ثقيف»، ولكنّها لم تستجب له، وأغرت به صبيانها فرشقوه بالحجارة.

وأرّخ الواقدي الرحلة من شوال سنة عشر من المبعث، بعد موت أبي طالب وخديجة، وذكر أن مدّة إقامته بالطائف كانت عشرة أيام، كما ورد في طبقات ابن سعد (١/ ٢٢١)، والواقدي متروك الحديث. («السيرة النبوية الصحيحة» للعمري: ١/ ١٨٥) (صلاح)

(٢) يمرط: أي ينتف شعره وريشه.

(٣) يذئرهم: أي يجرئهم ويثيرهم عليه.

تحركت رحم عتبة وشيبة أنفة للنبي ﷺ:

وهنا تحركت له رحمهما، فدعوا له غلاما لهما نصرانيًّا، يقال له عدّاس، فقالا له: خذ قطفا من هذا العنب، وضعه في ذلك الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له يأكل منه، ففعل عدّاس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ، فلما وضع رسول الله ﷺ يده، قال: بسم الله، ثم أكل.

غلامهما عدّاس في حوار مع النبي ﷺ:

فنظر عدّاس إلى وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة.

قال له رسول الله ﷺ: ومن أي أهل البلاد أنت يا عدّاس، وما دينك؟

قال: أنا نصرانيّ، وأنا رجل من أهل «نينوى».(١)

فقال له رسول الله ﷺ: أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟

قال له: وما يدريك ما يونس بن متى؟

قال رسول الله ﷺ: ذاك أخي، كان نبيًّا وأنا نبيّ.

فأكبّ عدّاس على رسول الله ﷺ يقبّل رأسه ويديه ورجليه.

قال: يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاءهما عدّاس قالا له:

ويلك يا عدّاس! ما لك تقبّل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟

قال: يا سيّدي! ما في هذه الأرض خير من هذا الرجل، لقد خبّرني بأمر، لا يعلمه إلا نبيّ.

فقالا: ويحك يا عدّاس! لا يصرفنّك عن دينك، فإن دينك خير من دينه(٢).

وقد توالت على الرسول ﷺ ضربات في هذه البلدة -وهو يعظ الناس- حتى أغمي عليه، فحمله زيد على ظهره، وذهب به خارج البلدة، ورشّ عليه الماء فأفاق.

---

(١) نينوى: قرية بالموصل، من العراق.

(٢) تأريخ الطبري (٢/ ٢٢٩). [مختصر سيرة ابن هشام: ١/ ٣٥٤].

التوجّه إلى الله بالشكوى[1]:

على الرغم من أن الرسول ﷺ لقي أذى كثيرا في هذه الرحلة، وتألم من أن لم يجبه أحد من الذين دعاهم إلى الحق، ولكن قلبه كان مليئًا بحب الله، مؤمنًا بقدرته وعظمته، وكان يدعو الله تعالى بهذه الكلمات:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلّة حيلتي، وهواني على النّاس، يا أرحم الراحمين، أنت ربّ المستضعفين وأنت ربّي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد[2] يتجهّمني أو إلى عدوّ ملّكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكنّ عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحلّ عليّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك»[3].

---

(١) التوجه إلى الله بالشكوى ليس من عدم التوكل عليه سبحانه وتعالى، كما ورد على لسان يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [يوسف: ٨٦]. (صلاح)

(٢) تأريخ الطبري (٢/ ٢٣٠)، وجاء فيه لفظ «بعيد» يعني «الغريب».

(٣) تأريخ الطبري (٢/ ٢٣٠).

[وأخرج القصّة بطولها ابن هشام: (١/ ٤١٩-٤٢٠)، والطبراني في الكبير (١٤/ ١٣٩-١٤٠)، وفي «الدعاء» (٢/ ١٢٨)، وعنه الضياء في المختارة (٩/ ١٨١) كلّهم من طريق ابن إسحاق عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله عن جعفر طالب، قال فذكره.

وذكره الهيثمي، في «مجمع الزوائد»: (٦/ ٣٥)، بسند صحيح، عن ابن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي مرسلًا، ومضافًا إليها قصّة عدّاس، وانكبابه على يدي الرسول بدون الدعاء، فقد جاء بغير سند، والبيهقي في الدلائل: (٢/ ٤١٥) من مرسل الزهري، فيتقوى به. («صحيح السيرة النبوية» (٩٨-٩٩)، **وضعفه الألباني في «الضعيفة»: ٢٩٣٤)**.

وقال الدكتور أكرم ضياء العمري:

«وأما دعاؤه على ثقيف... ولقاؤه بعدّاس فلم يثبت من طريق صحيحة».

والمرسل من أنواع الضعيف لا يحتج به إلا مع قرائن. وقال شيخنا الدكتور ضياء الأعظمي في إسناد الطبراني: إسناده حسن من أجل محمد بن إسحاق، وهو وإن لم يصرّح بالتحديث، فإن =

وقال ﷺ عند رجوعه من الطائف:

«لماذا أدعو عليهم، بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا[١]»؟

=

الأئمة قبلوه في المغازي والسير، ما لم يقبلوا منه في الأحكام.

ولذا تلقى أهل العلم هذا الدعاء المسمّى بدعاء الطائف، بدون إنكار على ابن اسحاق، **فقد ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في عدة مواضع في مجموعة فتاواه مستدلا به بأن الشكوى إلى الخالق لا تنافي الصبر الجميل.** انظر (١٠/ ١٨٤-٦٦٦).

وقال تلميذه الحافظ ابن القيم في زاده (٣/ ٣١): «فانصرف راجعا من الطائف إلى مكة محزونا، وفي مرجعه ذلك دعا بالدعاء المشهور دعاء الطائف، ثم ذكر الدعاء بدون أن يعلق عليه بشيء.» (سيرة المصطفى الصحيحة: ١/ ١٤٤ رقم ١٦٧)

وأما ما رواه البخاري (٣٢٣١)، و مسلم (١٧٩٥)، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، في كتاب الجهاد والسير/ باب ما لقي النبي وأصحابه من أذى المشركين والمنافقين... فيكفي لإثبات الحادث من حيث وقوع الرحلة. («السيرة النبوية الصحيحة» ١/ ١٨٦) كما ورد في الصحيحين، ويأتي. (صلاح)]

(١) البخاري (رقم ٣٢٣١)، و مسلم (رقم ١٧٩٥) عن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وفيه: بعد سماع الله تعالى دعاء النبي ﷺ ذكر ملك الجبال: «فناداني ملك الجبال فسلّم عليّ، ثم قال: يا محمّد! فقال: ذلك فيما شئت. إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال النبي ﷺ: «بل أرجو...» [الأخشبين: جبلان بمكّة، أبو قبيس والذى يقابله] (صلاح)

[إيمان جنّ أهل نصيبين]:

[عندما انصرف النبي ﷺ من الطائف راجعًا إلى مكّة، آمن به جنّ أهل نصيبين في وادي نخلة، وقد قصّ الله خبرهم في القرآن حيث قال سبحانه: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣١] [راجع مختصر سيرة ابن هشام: ١/ ٣٥٥].

من حكمة الله سبحانه وتعالى أن لم يؤمن بما جاء به النبي ﷺ أحد من أهل الطائف في هذه الرحلة، ولكن وفّق الجنّ في وادي النخلة أن يؤمنوا بما جاء به. ولله في خلقه شئون، وهو الموفق سبحانه وتعالى. (صلاح)

عرض النبي ﷺ نفسه على القبائل خارج مكّة طلبًا لنصرتهم[(١)]:

ولما رجع رسول الله ﷺ إلى مكة[(٢)] بدأ يذهب إلى مساكن القبائل، خارج مكة، ويلتقي بالركبان، ويدعوهم إلى الإيمان بالله تعالى وعبادته سبحانه.

- **وقد أتى ﷺ كندة في منازلهم**، وفيهم سيّد، يقال له مليح، فدعاهم إلى الله عزّ وجل، وعرض عليهم نفسه، فأبوا عليه[(٣)].
- **وأتى إلى بني كلب**، يقال لهم بنو عبد الله، فدعاهم إلى الله عزّ وجل، وعرض عليهم نفسه، حتى إنه ليقول لهم: يا بني عبد الله! إن الله قد أحسن اسم أبيكم، فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم[(٤)].
- **وأتى بني حنيفة في منازلهم**، فدعاهم إلى الله عزّوجل، وعرض عليهم نفسه، فلم يكن أحد من العرب أقبح ردّا عليه منهم[(٥)].
- **وأتى بني عامر بن صعصعة**، فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم نفسه، فقال رجل

---

(١) راجع نبذة من رحلة النبي ﷺ إلى هذه القبائل في «مختصر سيرة ابن هشام (١/ ٣٥٦-٣٥٩)، تقدّم أن النبي ﷺ [في ذي القعدة من السنة العاشرة من البعثة، في أواخر يوليو سنة ٦١٩ م] بعد وفاة عمه: أبي طالب، ووفاة زوجته: خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بأيام قليلة، خرج لعرض الإسلام على القبائل.
وقد قال شيخنا صفي الرحمن المباركفوري في هذا المقام في «الرحيق المختوم » (ص ١٣٠) «...نعم هناك قبائل قد جزم العلّامة المنصور فوري [أي صاحب «رحمة للعالمين»] أن عرض الإسلام عليهم كان في موسم السنة العاشرة». ثم ذكر هذه القبائل. (صلاح)

(٢) «قبل دخوله في مكة [بعد رجوعه من الطائف]، فكر ﷺ أن زبانيتها له بالمرصاد، بعد أن علموا من نشاطه الجديد في الطائف، وما لقي فيها من الأذى، فحصل على حماية المطعم بن عديّ، فدخل فيها، وطاف بالكعبة وصلى عندها، ثم انصرف إلى منزله، لايجرؤ أحد أن ينال منه». (قراءة جديدة: ٩٩، ومختصر سيرة ابن هشام: ١/ ٣٥٥ تعليقًا)

(٣) تأريخ الطبري (٢/ ٢٣٢). [مختصر سيرة ابن هشام: ١/ ٣٥٧]

(٤) تأريخ الطبري (٢/ ٢٣٢). [مختصر سيرة ابن هشام: ١/ ٣٥٧]

(٥) تأريخ الطبري (٢/ ٢٣٢). [مختصر سيرة ابن هشام: ١/ ٣٥٧]

منهم، يقال له «بيحرة بن فراس»: والله لو أنّي أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب.

ثم قال له: أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟

قال: الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء.

قال: فقال له: أفتهدف نحورنا للعرب دونك؟ فإذا ظهرت كان الأمر لغيرنا! لا حاجة لنا بأمرك(١) فأبوا عليه(٢).

وكان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رفيقه في هذه الرحلة، في دعوة القبائل.

---

(١) هذا يدلّ على أن النبي ﷺ كان عازمًا من بداية أمره بأنه لايقبل بين صفوف الدعوة إلى الله انتهازيًا، ولا نفعيًّا مهما كانت الظروف والأحوال. (صلاح)

(٢) تأريخ الطبري (٢/ ٢٣٢). [ومختصر سيرة ابن هشام: ١/ ٣٥٧-٣٥٨، والطبقات (١/ ٢١٦)]، قال الأرنؤوط في تعليقه على «زاد المعاد» (٣/ ٤٣)، أخرجه ابن سعد في الطبقات من طريق الواقدي وهو مجمع على ضعفه.]

بعض المشاهير الذين آمنوا من غير أهل مكة في هذه الفترة الدقيقة من تأريخ الإسلام[(١)]

(١) إيمان سويد بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وفي هذه الإيام التقى النبي ﷺ بسويد بن الصامت[(٢)]، وكان قومه يسمّونه «الكامل[(٣)]»، فدعاه إلى الله وإلى الإسلام.

فقال له سويد: فلعل الذي معك مثل الذي معي.

فقال له رسول الله ﷺ: وما الذي معك؟

قال: مجلة لقمان، يعني حكمة لقمان.

فقال ﷺ له: اعرضها عليّ، فعرضها عليه.

فقال: إن هذا الكلام حسن، ومعي أفضل من هذا، قرآن أنزله الله عليّ، هدى ونور، فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن، ودعاه إلى الإسلام، فلم يبعد منه.

وقال: إن هذا لقول حسن، ثم انصرف عنه، وقدم على قومه المدينة، فلم يلبث أن قتلته الخزرج قبل يوم[(٤)] بعاث[(٥)].

---

(١) ذكر مؤلفنا المنصورفوري رَحِمَهُ اللَّهُ خمسة منهم في هذا المقام، وذكر صاحب «الرحيق» (١٣١-١٣٤) أيضًا هؤلاء الخمسة، بشيء من التقديم والتأخير. (صلاح)

(٢) وقد قدم مكّة حاجًّا أو معتمرًا. (مختصر ابن هشام: ١/ ٣٦٠) (صلاح)

(٣) وذلك لجلوه، وشعره، وشرفه، ونسبه. (المصدر المذكور: ١/ ٣٦٠) (صلاح)

(٤) بعاث: هو المكان الذي وقعت فيه الحرب بين الأوس والخزرج. وكان النصر فيه أوّلا للخزرج، ثمّ للأوس. وكان ذلك قبل مقدم النبي ﷺ المدينة بخمس سنين، فجمعهم الله تعالى تحت راية الإسلام، كما في رواية البخاري (٣٧٧٧) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «...فقدم رسول الله ﷺ، وقد افترق ملؤهم، وقتلت سرواتهم وجرّحوا، فقدمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم في الإسلام.» (صلاح)

(٥) تأريخ الطبري (٢/ ٢٣٣) ومختصر سيرة ابن هشام: (١/ ٣٦٠-٣٦١) وكان سويد شاعرًا لبيبًا، ولقيه النبي ﷺ في أوائل سنة إحدى عشرة من النبوة. [وأحال المباركفوري في «الرحيق» =

(٢) هداية إياس بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

ولما قدم أبو الحيسر أنس بن رافع مكة، ومعه فتية من بني عبد الأشهل، فيهم إياس ابن معاذ، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول الله ﷺ، فأتاهم فجلس إليهم.

فقال لهم: هل لكم إلى خير مما جئتم له؟

قالوا: وما ذاك؟

قال: أنا رسول الله، بعثني إلى العباد، أدعوهم إلى الله أن يعبدوا الله، ولا يشركوا به شيئا، وأنزل عليّ الكتاب.

ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.

فقال إياس بن معاذ -وكان غلاما حدثا من يثرب-: أي قوم، هذا والله خير مما جئتم له.

فأخذ أبوالحيسر أنس بن رافع حفنة من البطحاء، فضرب بها وجه إياس بن معاذ.

وقال: دعنا منك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا.

قال: فصمت إياس، وقام رسول الله ﷺ عنهم، وانصرفوا إلى المدينة، فكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج.

قال: ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك.

=

(ص١٣٢) إلى كتابنا (رحمة للعالمين) هذا.

وقال: «دعاه إلى الإسلام، فأسلم»، ولكن عند الطبري وابن هشام وكذا في كتابنا هذا «فلم يبعد منه»، وليس فيه: «فأسلم». وعند ابن هشام (١/ ٣٦١) «...فإن كان رجال من قومه ليقولون: إنا لنراه قد قتل وهو مسلم».

مع هذا كلّه، يوجد خلاف في صحبة سويد والله أعلم.

قال ابن حجر في «الإصابة في تمييز الصحابة» (٣/ ٣٠٥- ط. دار الجيل، بيروت)

«سويد بن الصامت بن خالد بن عقبة الأوسي، ذكره ابن شاهين وقال: شكّ في إسلامه. وقال أبو عمر: أنا أشك فيه كما شك غيري. ذكره بعضهم معتمدًا على ما روى ابن إسحاق... قلت (ابن حجر): فإن صحّ ما قالوا، لم يعدّ في الصحابة، لأنه لم يلق النبي ﷺ مؤمنًا به. («التعليق على الرحيق» للملّاح ص: ٩١). (صلاح)

قال محمود بن لبيد: فأخبرني من حضره من قومي عند موته، أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلّل الله ويكبّره، ويحمده، ويسبّحه، حتى مات، فما كانوا يشكون في أن قد مات مسلما، لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس، حين سمع من رسول الله ﷺ ما سمع[(١)].

(٣) إسلام ضماد الأزدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أهل اليمن:

وفي هذه الأيام قدم ضماد مكة، وكان من أزد شنوءة، وكان يرقي من هذه الريح، فسمع سفهاءَ من أهل مكة، يقولون: إن محمدا مجنون.

فقال: لو أني رأيت هذا الرجل، لعل الله يشفيه على يديّ، قال فلقيه، فقال: يا محمدّ إني أرقي من هذه الريح، وإن الله يشفي على يديّ من شاء، فهل لك؟

فقال رسول الله ﷺ: «إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، أما بعد».

قال: فقال: أعد عليّ كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ، ثلاث مرات.

قال: فقال: لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن ناعوس البحر[(٢)].

---

(١) تأريخ الطبري (٢/ ٢٣٣).

[رواه أحمد (٥/ ٤٢٧، رقم ٢٣٦١٩)] وابن هشام في السيرة (١/ ٤٢٧)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٣٦)، رواه أحمد، ورجاله ثقات وسنده حسن، والطبراني في التأريخ [والكبير: ١/ ٢٥١، والحاكم: ٣/ ١٨٠-١٨١، والبيهقي في الدلائل: ٢/ ٤٢٠]، جميعا من طريق ابن إسحاق، وقد صرّح بالتحديث. **وقال ابن حجر في** «الإصابة» (١/ ١٠٢): عن ابن إسحاق هكذا، وهو صحيح من حديثه. (صحيح السيرة النبوية: ص١٠٣)، وقال الذهبي: مرسل (يعني أن محمود بن لبيد عن صغار الصحابة، ومراسيل الصحابة مقبولة) (سيرة المصطفى الصحيحة: ١/ ١٨٢، رقم ١٥٢) (صلاح)

(٢) **ناعوس البحر:** أي عمقه ولجته، وهو يكون بعيدا عن السواحل، معناه: أن هذه الكلمات لها تأثير بالغ عميق. (تعليق الشيخ صالح العثيمين على صحيح مسلم: رقم٨٦٨). (صلاح)

قال: فقال: هات يدك أبايعك على الإسلام[(١)].

(٤) إسلام طفيل بن عمرو الدوسيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وفي هذه الأيام قدم الطفيل بن عمرو الدوسي مكة، وكان رئيسًا وسيّدا مطاعًا في قومه، وأسرته عرفت في ناحية اليمن بالحكم والرئاسة، وكان الطفيل رجلا شريفا شاعرًا لبيبا، استقبله أهل مكة خارجها، وبالغوا في إكرامه.

وقالوا له: قدمت بلادنا، وإن هذا الرجل الذي خرج فينا، فرّق جماعتنا، وشتّت أمرنا، و إنما قوله كالسحر يفرّق بين المرء وابنه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد حلّ علينا، فلا تكلمه ولا تسمع منه.

قال: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئا، **ولا أكلمه حتى حشوت في أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفا، فرقا من أن يبلغني شيء من قوله.**

قال: فغدوتُ إلى المسجد، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلّي عند الكعبة، فقمتُ قريبًا منه، فأبى الله إلا أن يُسمعني بعض قوله، فسمعتُ كلامًا حسنًا فقلتُ في نفسي: وا ثكل أمّياه، والله إني لرجل لبيب شاعر، ما يخفى عليّ الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؟ فإن كان ما يقول حسنًا قبلتُ، وإن كان قبيحا تركتُ.

قال: فمكثتُ حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته، فتبعته حتى إذا دخل بيته، دخلت عليه، فقلت: يا محمد! إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا، فو الله ما برحوا يخوّفوني من أمرك حتى سددتُ أذنيّ بكرسف، لئلّا أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يسمعنيه، فسمعت قولا حسنا، فاعرض عليّ أمرك، فعرض عليّ رسول الله ﷺ الإسلام، وتلا عليّ القرآن، فلا والله ما سمعت قولا قطّ أحسن منه، ولا أمرًا أعدلَ منه، فأسلمتُ وشهدتُ شهادة الحق[(٢)].

---

(١) صحيح مسلم (رقم ٨٦٨) عن عبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) زاد المعاد (٣/ ٦٢٤) ملخّصا. [والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٣/ ٢٨٦-٢٨٨، والبداية والنهاية (٣/ ٩٧-١٠٠ المعارف)، وقال: ذكره ابن إسحاق مرسلة، بلا إسناد، ولخبره شاهد في «الحديث الصحيح».

وأما قدومه على النبي ﷺ فهو في صحيح البخاري (٤٣٩٢)، ومسلم (٢٥٢٤) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. (صلاح)]

وهكذا أسلم طفيل الذي وصفته قريش بالمخدوم والمطاع، ولكنه لم يلبث أن صار خادما ومطيعا لمحمّد ﷺ. وقد شقّ إسلام طفيل على قريش كثيرًا.

(٥) إسلام أبي ذرّ رضي الله عنه:

كان أبو ذر[١] يسكن في يثرب، فلما بلغه مبعث النبي ﷺ، قال لأخيه: اركب إلى هذا الوادي فاعلم لي علم هذا الرجل، الذي يزعم أنه نبي، يأتيه الخبر من السماء، واسمع من قوله ثم ائتني، فانطلق الأخ حتى قدمه، وسمع من قوله، ثم رجع إلى أبي ذر فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، وكلاما ما هو بالشعر.

فقال: ما شفيتني مما أردت، فتزوّد وحمل شنة له فيها ماء، حتى قدم مكة، فأتى المسجد فالتمس النبي ﷺ ولا يعرفه، وكره أن يسأل عنه، حتى أدركه بعض الليل، فرآه عليّ فعرف أنه غريب، فلما رآه تبعه، فلم يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء حتى أصبح، ثم احتمل قِربته وزاده إلى المسجد، وظلّ ذلك اليوم ولا يراه النبي ﷺ حتى أمسى، فعاد إلى مضجعه.

فمرّ به عليّ فقال: أما آن للرجل أن يعلم منزله؟ فأقامه فذهب به معه، لايسأل واحد منهما صاحبه عن شيء، حتى إذا كان اليوم الثالث، فعاد علي على مثل ذلك، فأقام معه ثم قال: ألا تحدّثني ما الذي أقدمك؟

قال: إن أعطيتني عهدا وميثاقًا لترشدني فعلتُ، ففعل فأخبره.

قال: فإنه حق، وهو رسول الله ﷺ، فإذا أصبحت فاتبعني، فإني إن رأيت شيئا أخاف عليك قمت كأني أريق الماء، فإن مضيت فاتبعني حتى تدخل مدخلي ففعل، فانطلق يقفوه، حتى دخل على النبي ﷺ، ودخل معه، فسمع من قوله وأسلم مكانه.

فقال له النبي ﷺ: «ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري».

قال: والذي نفسي بيده، لأصرخنّ بها بين ظهرانيهم، فخرج حتى أتى المسجد،

---

(١) أبو ذر هو: جندب بن جنادة على المشهور، الصحابي الصادق اللهجة. (راجع «الإصابة»: ٧/ ٦٠-٦٣) (صلاح)

فنادى بأعلى صوته: **أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله**، ثم قام القوم فضربوه حتى أضجعوه، وأتى العباس فأكبّ عليه، قال: ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار، وأن طريق تجاركم إلى الشام؟.

فأنقذه منهم، ثم عاد من الغد لمثلها، فضربوه وثاروا إليه، فأكبّ العباس عليه[1].

(١) البخاري (٤/ ٤١، ٢٤٢، رقم ٣٥٢٢)، (كتاب المناقب ومدارج النبوة) أن أبا ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عاش على ماء زمزم نحو شهر واحد، وقد كفاه هذا الماء حتى تعكّن بطنه. (مسلم: ٢٤٧٤). (تعكّن: أي تثنّى من لحم البطن سمنا).

الإسراء والمعراج(١)

أسري برسول الله ﷺ في السابع والعشرين من شهر رجب، في العاشر من

(١) إن الإسراء والمعراج في سيرة النبي ﷺ لها أهمية بالغة ورسالة سامية تتلخص في أمور، منها:

- **إن حادث الإسراء والمعراج ثابت بالكتاب والسنة:**

أما الكتاب، فقال سبحانه وتعالى:
﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ①﴾ [الإسراء: ١]
أما السنة فقد وردت تفاصيل الإسراء والمعراج في الصحيحين وغيرهما من مصادر السنة ودواوين الحديث.

- **كانت رحلة الإسراء والمعراج بجسده** ﷺ من المسجد الحرام إلى بيت المقدس، راكبًا على البراق، صحبة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وما رآه ﷺ من المناظر في هذه الرحلة، لم يكن رؤيا منامية، بل كان رؤيا عين، كما ورد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ...﴾ [الإسراء: ٦٠]. قال: «هي رؤيا عين، أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به إلى بيت المقدس...» (البخاري، رقم ٣٨٨٨)

- **إن حادثة الإسراء والمعراج كانت معجزة،** تعني تعطل القوانين الكونيّة بقدرة القادر على كل شيء، وعندها تحترق كل الأسئلة والاستفسارات:

كيف استطاع رسول الله ﷺ أن يقطع تلك المسافة الشاسعة بين مكّة وبيت المقدس في وقف قصير؟ وكيف استطاع العروج إلى السماء بلا واسطة من غير أجهزة واقية، ومعدّات مساعدة؟

كيف .... وكيف... وألف كيف ...لأن هذه الأسئلة، كلّها تردّ، لو أن الأمر قد تمّ على سنن القوانين الكونيّة، ولكنه تمّ خارج أطر هذه القوانين، فتذوب هذه الأسئلة كلها في غمرة الإيمان بالله القادر على كل شيء. (قراءة جديدة للسيرة النبوية: ١٠٠-١٠١)

- **خلاصة القول أن الإسراء والمعراج** في رأي جمهور العلماء كان يقظة بروحه وجسده، مرّة واحدة، وكانا في ليلة واحدة. («السيرة النبوية الصحيحة»: ١/ ١٩٢) =

البعثة[1]، وأراه الله تعالى ملكوت السماوات والأرض[2]، فذهب أوّلا من المسجد الحرام

=

- لقد كان الإسراء والمعراج فرقانًا بين مصدّقي النبي ﷺ ومكذّبيه، فمنهم من صدّقوا، وآمنوا به وهم كثيرون، ومنهم من كذّبوه وارتدوا عن الإسلام.
لما قالوا لأبي بكر هل تصدّق صاحبك، أنه يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس:
قال: نعم! إني لأصدّقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدّقه بخبر السماء في غدوة أو روحة، فلذلك سمّي أبو بكر الصديق. (مستدرك الحاكم: ٣/ ٦٢، عن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وصحّحه ووافقه الذهبي، وذكره الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١/ ٥٥٢) والأعظمي في «سيرة المصطفى» رقم ١٣٩، وقال: حسن)
- لقد محّص حادث الإسراء والمعراج المؤمنين بالله ورسوله، فبقي معه الخلّص منهم. وبعد الهجرة قامت الدولة الإسلامية في المدينة، كانت أعباؤها على أكتافهم.
- لاريب أن الخوارق والمعجزات في سير الأنبياء، قصد بها قهر الأمم على الاقتناع بصدق النبوة، وقد اقترح المشركون على النبي ﷺ أن يرقى في السماء، فجاء الجواب من عند الله:
﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٣﴾ [الإسراء: ٩٣]
ولما رقي في السماء، لم يذكر قطّ أن ذلك ردّ على التحدي، أو إجابة على الاقتراح السابق، بل كان الأمر محض تكريم، ومزيد إعلام من الله تعالى لعبده ﷺ. («فقه السيرة» للغزالي: ١٣٤)

راجع لمعرفة دقائق هذه الرحلة، الواردة في كتب الأحاديث ودواوين السنة: كتاب «سيرة المصطفى ﷺ الصحيحة على منهج المحدثين» لشيخنا الدكتور محمد عبد الله الأعظمي (١/ ١٤٥-١٧٥، برقم ١١٨-١٤٣)، و «صحيح السيرة النبوية» لإبراهيم العلي (٩٤-٩٧)، و«السيرة النبوية الصحيحة» للدكتور أكرم ضياء العمري (١/ ١٨٨-١٩٢) (صلاح)

(١) ذكر المباركفوري في «الرحيق» (ص١٣٦) أن هذا القول من اختيار العلامة المنصور فوري (أي مؤلف كتابنا «رحمة للعالمين» هذا) من بين الأقوال. (صلاح)

(٢) بعد رحلة الطائف الأليمة، وقع حادث الإسراء والمعراج، فكان مواساة لرسول الله ﷺ. وقد أرّخ الزهري ذلك قبل خروجه إلى المدينة بسنة ، وأرّخه ابن إسحاق بعد البعثة بنحو عشر سنين، قبل وفاة أبي طالب وخديجة. (دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٣٥٤)، وتأريخ الإسلام للذهبي (١/ ١٤١)، وسيرة ابن هشام (١/ ٣٩٦)، والبداية والنهاية لابن كثير (٣/ ١٠٧).
وأما إسماعيل السدّي فذكر أن الإسراء قبل مهاجره بستة عشر شهرًا.
وأما البخاري فقد ذكر الإسراء بعد موت أبي طالب. (فتح الباري: ٧/ ١٩٦. وأما حادث الإسراء والمعراج فثابت بنص القرآن الكريم. (راجع «السيرة النبوية الصحيحة» للعمري: ١/ ١٨٨). (صلاح)

إلى بيت المقدس، وصلى بالأنبياء إمامًا، ثم عُرِج به إلى السماوات والتقى الأنبياء، ووصل إلى سدرة المنتهى والبيت المعمور، ثم عُرج به إلى الجبار جلّ جلاله، فأوحى إلى عبده ما أوحى.(١)

يقول الشاه ولي الله الدهلوي(٢):

«وأسري به إلى المسجد الأقصى، ثم إلى سدرة المنتهى، وإلى ما شاء الله، وكل ذلك

---

(١) **يقول العلامة ابن القيم،** وقد نسبه إلى ابن إسحاق: «عن عائشة ومعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنهما قالا: إنما كان الإسراء بروحه، ولم يفقد جسده، ونقل عن الحسن البصري نحو ذلك.

ولكن ينبغي أن يعلم الفرق بين أن يقال: كان الإسراء مناما، وبين أن يقال كان بروحه دون جسده، وبينهما فرق عظيم. فالمراد بالإسراء الروحي أن الروح المباركة قد عرج بها إلى تلك الأماكن. وذلك لا يكون في المنام، بل إنها منزلة أتمّ و أكمل و أشرف وأعلى.

وقالت طائفة من العلماء: إن الإسراء كان بروحه وبدنه». (زاد المعاد ٣/ ٤٠)

وإنكار العروج الجسدي بناء على الفلسفة المعاصرة الجافّة لغو، فإن الخالق القدير الذي أمسك الأجرام السماوية الثقيلة في الفضاء لقادر على أن يعرج بجسم الإنسان الصغير إلى الفضاء. وتطير اليوم الطائرات بركّابها بقوة الأوكسيجين، فكيف يستبعد أن يعرج الله بنبيه ليريه ملكوت السماوات والأرض بالبراق الذي قد اشتقّ من البرق، وفيه إشارة إلى قوّة الكهرباء. وأنا أؤمن بأن المعراج كان بجسده ﷺ. (المؤلف: محمد سليمان)

[وقد تأوّل البعض حادث الإسراء والمعراج، فزعم أنه رؤيا مناميّة، ومنهم من زعم أنه بالروح وليس بالجسد، والصواب كما ثبت عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنه رؤيا عين بالروح والجسد. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠].

(صحيح البخاري مع الفتح (٧/ ٢٠٢-٢٠٣)، والطبري (١٥/ ١١٠) حول نفي سفيان بن عيينة أن تكون رؤيا بالمنام).

هذا هو رأي جمهور العلماء، أن الإسراء كان يقظة بروحه وجسده، مرة واحدة، وأن الإسراء والمعراج كانا في ليلة واحدة». (تفسير الطبري: ١٥/ ١٣-١٤، وزاد المعاد: ١/ ٩٩، ٣/ ٤٠، ٣٤، وفتح الباري: ٧/ ١٩٧. راجع «السيرة النبوية الصحيحة» للعمري: ١/ ١٨٨). (صلاح)]

(٢) «حجة الله البالغة» للشاه أحمد بن عبد الرحيم المعروف بوليّ الله الدهلوي (ص: ٣٨٧) [جدير بالملاحظة أنه في كلام الدهلوي الآتي، توجد بعض التعبيرات غيرالمفهومة في ذكر أسرار رحلة الإسراء والمعراج وحكمها، بل هي أقرب إلى تعبيرات فلسفية محضة، فلينتبه لها. (صلاح)]

بجسده ﷺ في اليقظة، ولكنّ ذلك كان في موطن هو برزخ بين المثال والشهادة، جامع لأحكامهما، فظهر على الجسد أحكام الروح، وتمثل الروح والمعاني الروحية أجسادا، ولذلك بأن لكل واقعة من تلك الوقائع تعبيرًا».

١ - **أما شقّ الصدر** وملؤه إيمانا، فحقيقته غلبة أنوار الملكيّة، وإنطفاء لهب الطبيعة وخضوعها، لما يفيض عليها من حظيرة القدس.

٢- **وأما ركوبه على البراق،** فحقيقته استواء نفسه النطقية على نسمته التي هي الكمال الحيواني، فاستوى راكبا على البراق، كما غلبت أحكام نفسه النطقية على البهيمية وتسلّطت عليها.

٣- **وأما إسراؤه إلى المسجد الأقصى،** فلأنه محلّ ظهور شعائر الله، ومتعلّق همم الملأ الأعلى، ومطمح أنظار الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فكأنّه كوّة إلى الملكوت.

٤- **وأما ملاقاته مع الأنبياء** صلوات الله عليهم، ومفاخرته معهم، فحقيقتها اجتماعهم من حيث ارتباطهم بحظيرة القدس، وظهور ما اختص به من بينهم من وجوه الكمال.

٥- **وأما رقيه إلى السماوات** سماء بعد سماء، فحقيقته الانسلاخ إلى مستوى الرحمن منزلة بعد منزلة، ومعرفة حال الملائكة الموكلة بها، ومن لحق بهم من أفاضل البشر، والتدبير الذي أوحاه الله فيها، والاختصام الذي يحصل في ملإها.

٦- **وأما بكاء موسى** فليس بجسد، ولكنه مثال لفقده عموم الدعوة، وبقاء كمال لم يحصل مما هو في وجهه.

٧- **وأما سدرة المنتهى،** فشجرة الكون، وترتّب بعضها على بعض، وانجماعها في تدبير واحد، كانجماع الشجر في الغاذية والنامية ونحوهما، ولم تتمثل حيوانًا، لأن التدبير الجملي الإجمالي الشبيه للسياسة الكلي أفراده، وإنما أشبه الأشياء به الشجرة دون الحيوان، فإن الحيوان فيه قوى تفصيلية، والإرادة فيه أصرح من سنن الطبيعة.

٨- **وأما الأنهار** ففي أصلها رحمة فائضة في الملكوت حذو الشهادة، وحياة وإنماء، فلذلك تعين هنالك بعض الأمور النافعة في الشهادة كالنيل والفرات.

٩- **وأما الأنوار** التي غشيتها فتدلّيات إلهية، وتدبيرات رحمانية، تلعلعت في الشهادة

حيثما استعدّت لها.

١٠- **وأما البيت المعمور** فحقيقته التجلّي الإلهي، الذي يتوجّه إليه سجدات البشر، وتضرعاتها، يتمثل بيتا على حذو ما عندهم من الكعبة وبيت المقدس.

١١- **ثم أتي بإناء من لبن وإناء من خمر**، فاختار اللبن، فقال جبريل: هُديتَ للفطرة، ولو أخذت الخمر لغوتْ أمتك. فكان هو ﷺ جامع أمته ومنشأ ظهورهم، وكان اللبن: اختيارهم الفطرة، والخمر: اختيارهم لذّات الدنيا.

١٢- **وأمر بخمس صلوات بلسان التجوّز**، لأنها خمسون باعتبار الثواب، ثم أوضح الله مراده تدريجا، ليعلم أنّ الحرج مرفوع وأن النعمة كاملة.

وتمثّل هذا المعنى مستندا إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنه أكثر الأنبياء معالجة للأمة، ومعرفة بسياستها(١).

---

(١) ذكر أكثر المؤلفين أن المعراج كان بعد العودة من الطائف، ولكنّ الإمام الطبري ذكر في كتابه «تأريخ الأمم والملوك»: **أن المعراج وقع في اليوم الثاني بعد البعثة**، ويؤيّده بأن الصلاة فرضت ليلة المعراج، وكان النبي ﷺ والمسلمون يصلّون منذ ذلك الوقت، فكيف يتأخّر حكم فرضية الصلاة إلى أحد عشر عاما؟.

ولكن لو صحّ ما قاله شاه عبد الحق المحدّث الدهلوي (-١٠٥١هـ) في «شرح سفر السعادة» (ص:٣٦): من أن صلاة الفجر والعصر فرضتا أوّلا، وفرضت الصلوات الخمس في ليلة المعراج، فإنه يزول به هذا الإشكال.

أسباب الهجرة

الأوائل الستة الذين تشرّفوا بالإسلام من أهل يثرب:

وفي موسم الحج في العام الحادي عشر من البعثة، سمع النبي ﷺ في ظلام الليل على بعد من مكة عند العقبة[١] ناسا يتكلّمون فوصل إليهم[٢]، وكانوا ستة[٣] قد قدموا من يثرب[٤]، فذكر لهم رسول الله ﷺ عظمة الله وجلاله، وأيقظ قلوبهم، ونفّرهم من الأوثان، وعلّمهم الخير والعفاف، ومنعهم من المنكرات، ونوّر قلوبهم بآيات من

---

(١) العقبة: مكان بين حراء ومنى.

(٢) أحال شيخنا المباركفوري هنا في «الرحيق المختوم» (١٣٥) إلى كتابنا «رحمة للعالمين» هذا. (صلاح)

(٣) **وهم**: أبو أمامة أسعد بن زرارة (من بني النجار)، وعوف بن الحارث ابن عفراء (من بني النجار)، ورافع بن مالك بن العجلان (من بني زريق)، وقطبة بن عامر بن حديدة (من بني سلمة)، وعقبة بن عامر بن نابي (من بني حرام بن كعب)، وسعد بن الربيع. (الاستيعاب) [سيرة ابن هشام: ١/ ٤٢٩، وزاد المعاد: ٢/ ٥٠، وفيهما: جابر بن عبد الله بن رئاب (من بني عبيد بن غنم) بدل «سعد بن الربيع»]

(٤) **كان تركيز النبي ﷺ على يثرب وأهلها لأسباب، منها:**

١- **أن أهل المدينة يعيشون بجوار اليهود**، واليهودية دين سماويّ فلا بد من أن يكون عندهم من التفتح الفكري بتأثير الجوار، ما يجعلهم أكثر من غيرهم قبولًا للإسلام، لأن أصول الأديان واحدة.

٢- **أن المدينة أصلح أرض للدعوة**، لأن فيها طائفتين من الناس: العرب الوثنيون، واليهود الكتابيون، وبينهما نزاع وتطلع إلى السيادة، فإذا استطاع رسول الله ﷺ أن يجذب إليه إحدى الطائفتين، أمكنته السيطرة على الموقف، وقدّر ﷺ أن العرب سيكونون أعون له من اليهود، لأن الحقد القومي لهم سيمنعهم من الانضواء تحت راية رجل من العرب.

ولذلك فإنه ﷺ ما أن سمع بأن نفرًا من أهل المدينة -الخزرج- ينزلون عند العقبة حتى أسرع إليهم، وعرض عليهم الإسلام. (قراءة جديدة: ١١٦-١١٧) (صلاح)

القرآن الكريم[١].

ورغم وثنيتهم كانوا يسمعون من حلفائهم من يهود المدينة، أن نبيًا من الأنبياء مبعوث في هذان الزمان[٢]، ولذا أسلموا بدعوة النبي ﷺ، ورجعوا إلى المدينة دعاةً مخلصين.

ذلك النبي:

إنهم كانوا يبشّرون كل الناس بأن ذلك النبي[٣] الذي كان ينتظره الجميع قد ظهر، وقد سمعنا كلامه بأسماعنا، ورأينا وجهه بعيوننا، وأنه قد هدانا إلى الحيّ القيّوم، بحيث لم تبق لدينا الآن أيّ قيمة للحياة والموت.

بيعة العقبة الأولى:

ثم إنهم حين قدموا المدينة، ذكروا لهم رسول الله ﷺ، ودعوهم إلى الإسلام. حتى

---

(١) فلما قدموا المدينة إلى قومهم، ذكروا لهم رسول الله ﷺ، ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم. فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ. (مختصر سيرة ابن هشام: ١/ ٣٦٥-٣٦٦). (صلاح)

(٢) زاد المعاد (٣/ ٤٤). [قال بعضهم لبعضٍ: يا قوم! تعلموا والله إنه للنبيّ الذي تواعدكم به يهود فلا يسبقنّكم. (مختصر سيرة ابن هشام: ١/ ٣٦٤-٣٦٥).

(٣) وليرجع القراء لفهم معنى «ذلك النبي» إلى إنجيل يوحنّا (الأصحاح الأول: ١٩-٢٨) فقد اعترف فيه يوحنا (يحيى) بأنه لست أنا المسيح (٢١) فسألوه: إذا ماذا، إيليسا (إلياس) أنت؟ فقال: لستُ أنا، النبي أنت؟ فأجاب: لا.

وهذا يدُلّ على أن علماء اليهود في ذلك العصر كانوا ينتظرون مجيء ثلاثة أنبياء:

الأول: «إلياس».

والثاني: «المسيح».

والثالث: «النبي». وقد ثبت بالإنجيل أن يوحنّا وصف يسوع بالمسيح، وقال المسيح ليوحنّا إلياس.

فيبقى الآن ظهور «الثالث»، الذي ورد ذكره في الكتب السابقة بـ«ذلك النبي»، ووصفه المسلمون بذلك حضرة النبي.

فإن لم يكن «محمد» ﷺ ذلك النبي، فليبين علماء النصارى من هو «ذلك النبي»؟.

فشا فيهم، فلم تبق دار من دور الأنصار، إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ حتى إذا كان العام المقبل (أي الثاني عشر من النبوة[١]) حضر في الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا[٢] فتشرّفوا بالإيمان على يد النبي ﷺ، وبايعوه على ما يأتي[٣]:

بنود البيعة:

١- أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئًا.

٢- ولا نسرق ولا نزني.

٣- ولا نقتل أولادنا.

٤- ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا.

٥- ولا نعصيه في معروف.[٤]

---

(١) الموافق يوليو سنة ٦٢١م. (الرحيق المختوم: ١٤٣)

(٢) **من هؤلاء النفوس الزكية: خمسة من الأوائل من المسلمين من المدينة، مع زيادة سبعة آخرين.**
وهم: أسعد بن زراره، وعوف بن الحارث، ومعاذ بن الحارث، ورافع بن مالك، وذكوان بن عبد قيس، وعبادة بن الصامت، ويزيد بن ثعلبة، وعباس بن عبادة، وعقبة بن عامر، وقطبة بن عامر، وأبو الهيثم بن التيهان، وعويم بن ساعدة. (الطبري: ٢/ ٢٣٥).
الأخيران من الأوس، والبقية كلّهم من الخزرج.
هذا، وقد أحال شيخنا صفي الرحمن في «الرحيق المختوم» (ص ١٤٣ تعليقًا) إلى كتابنا هذا (أي رحمة للعالمين) لهذه المعلومة. (صلاح)

(٣) كانت بيعة العقبة الأولى على التوحيد، والاستقامة في السلوك، وليس فيه ذكر للقتال دفاعًا عن رسول الله ﷺ، ولا عن دينه. (صلاح)

(٤) راجع البخاري (٣٨٩٣)، ومسلم (١٧٠٩)، عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنّا اثنى عشر رجلا، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء».
يعني «بيعة النساء» التي ورد ذكرها في [سورة الممتحنة: الآية ١٢]. (صلاح)

مصعب بن عمير: سفير النبي ﷺ إلى المدينة(١):

فلما انصرف القوم، بعث معهم رسول الله ﷺ مصعب بن عمير العبدري، وكان من بيت ثريّ تربّى في نعمة، وكان يركب الفرس مع غلمان، وعليه ملابس غالية فاخرة، ولكنه لما ذاق حلاوة الإيمان، تخلّى عن الراحة والدعة، فحينما كان يدعو في المدينة إلى الإسلام، كان يكتفي بقطعة من كساء، يعلّقها على كتفه بشوك.

بيعة العقبة الثانية:

نزل مصعب في المدينة على أسعد بن زرارة، وكان يسمّى المقرئ(٢)، وقد اجتمع مصعب وأسعد يوما على بئر مرق، ومعهما رجال ممن أسلم، يفكّرون في نشر الإسلام في بني عبد الأشهل وبني ظفر.

وكان سعد بن معاذ وأسيد بن حضير(٣) سيّدي قومهما، وكلاهما مشرك، فلمّا عرفا ذلك، قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير:

لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارنا ليُسَفّها ضعفاءنا، فازجرهما أن يأتيا ديارنا، فإنه لو لا أن أسعد بن زرارة منّي حيث قد علمت، كفيتك ذلك، هو ابن خالتي، ولا أجد عليه مقدما.

فأخذ أسيد بن حضير حرّبته، ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة، قال لمصعب:

---

(١) راجع ترجمته في الإصابة (٦/ ١٠١). هو: أحد السابقين إلى الإسلام، ويكنى أبا عبدالله.
اختار النبي ﷺ مصعب بن عمير سفير الإسلام في المدينة، ليقوم بتعريف الإسلام، الذي جاء به النبي ﷺ، وقد بذل ما عنده من الأهلية والصلاحية في الدعوة إلى الله، ونجح نجاحا باهرًا خلال مدّة يسيرة.
وكذلك لا ينسى أنه كان يقدّر الظروف ويمهّدها لهجرة النبي ﷺ إلى المدينة، ولاريب أن طلائع الهجرة بدأت تتوافد إليها قبل هجرة النبي ﷺ، لما رأوا في المدينة ما يؤمّن عقيدتهم ودينهم. (صلاح)

(٢) الطبري (٢/ ٢٣٦). [كان يسمّى «المقرئ»، لأنه كان يُقرءهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين بأمر النبي ﷺ. وكذلك كان يصلّي بهم، وذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم البعض أن يؤمّهم. (مختصر سيرة ابن هشام: ١/ ٣٦٩)]

(٣) راجع قصّة إسلامهما في «مختصر سيرة ابن هشام» (١/ ٣٧١-٣٧٤) (صلاح)

هذا سيّد قومه قد جاءك، فاصدق الله فيه!.

قال مصعب: إن يجلس أكلّمه، قال: فوقفت عليهما متشتّمًا فقال:

ما جاء بكما إلينا تسفّهان ضعفاءنا، اعتزِلَا نا! إن كانت لكما في أنفسكما حاجة؟

إسلام أسيد بن حضير بدعوة مصعب بن عمير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا:

فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمرا قبلتَه، وإن كرهته، أكفّ عنك ما تكره؟

قال: أنصفت، ثم ركز حربته، وجلس إليهما، فكلّمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فاستمع له أسيد.

ثم قال: ما أحسن هذا وأجمله، كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟

قالا له: تغتسل، فتطهّر ثياب، ثم تشهّد شهادة الحق، ثم تصلّي ركعتين.

قال: فقام فاغتسل، وطهّر ثيابه، وشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين.

ثم قال لهما: إن ورائي رجلًا، إن اتّبعكما، لم يتخلّف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، ثم أخذ حربته وانصرف.

فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلًا، قال: أحلف بالله، لقد جاءكم أسيد بن حضير بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادي، قال له سعد: ما فعلتَ؟

قال: كلّمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأسا، وقد نهيتهما، فقالا: نفعل ما أحببت.

وقد حدثت أن بني حارثة، قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليخفروك.

قال: فقام سعد مغضبًا مبادرا، تخوّفا للذي ذكر له من بني حارثة، فأخذ الحربة من يده، ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئا، ثم خرج إليهما، فلمّا رآهما مطمئنين، عرف أن أسيدا إنما أراد أن يُسمَع منهما، فوقف عليهما متشتّما، ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة، لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني، تغشانا في دارنا بما نكره.

إسلام سعد بن معاذ وقبيلته عن بكرة أبيها في يوم واحد:

وقد قال أسعد لمصعب: أي مصعب جاءك، والله سيّد من وراءه من قومه، إن

يتبعك، لم يخالف عليك منهم اثنان.

فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع؟

فإن رضيت أمرًا ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره؟

قال سعد: أنصفت؟ ثم ركز الحربة، فجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن.

قالا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلّم به، في إشراقه وتسهله.

ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم، ودخلتم في هذا الدين؟

قالا: تغتسل فتطهر ثيابك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلّي ركعتين.

قال: فقام فاغتسل وطهّر ثوبيه، وشهد شهادة الحق، وركع ركعتين، ثم أخذ حربته، فأقبل عامدًا إلى نادي قومه، ومعه أسيد بن حضير، فلما وقف عليهم، قال:

يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟

قالوا: سيّدنا وأفضلنا رأيا، وأيمننا نقيبة.

قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله.

قال: فوالله ما أمسى في دار عبد الأشهل رجلٌ ولا امرأة إلا مسلمًا أو مسلمة.[1]

ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة، فأقام عنده يدعو الناس إلى

---

(١) سبب تقبل المدينة الإسلام بهذه السرعة ثلاثة أمور:

(الأوّل): وضوح عقيدته، واتفاقها مع الفطرة، وخلوّها من التعقيد، وهذا ما جعلها تحتل القلوب عند ما خلت من الأغراض الدنيئة.

(الثاني): إن أهل المدينة بحكم معايشتهم مع اليهود، اطلعوا على ملامح الدين السماوي، ورأوا الفرق بينه وبين وثنيتهم... فلما وصلتهم مبادئ الإسلام، وجدوها البديل الذي يفوق الوثنية واليهودية معًا، فلم يتأخروا عن الإيمان به.

(الثالث): إن المدينة كانت تعيش في بحر من الدم، يعود تأريخه إلى ما قبل مائة وخمسين عامًا، ويسمّى «حرب بُعاث»، التي أطاحت برؤوس أكثر زعماء المدينة من أوس وخزرج. فلما جاءت دعوة محمد ﷺ نظر الفريقان إليه على أنه المخلّص الذي أرسله الله تعالى لتخليص المدينة من هذه الخلافات الدامية. (قراءة جديدة: ١١٨)

هكذا جمعهم الله تعالى تحت راية الإسلام، كما تقدّم ما رواه البخاري (٣٧٧٧) عن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. (صلاح)

الإسلام حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون[١].

وفد المدينة إلى العقبة:

كان من ثمرة دعوة مصعب في المدينة، أنه في العام الثالث عشر من البعثة، قدم مكة ثلاثة وسبعون رجلا وست نساء[٢]، بعثهم مسلمو يثرب ليدعوا الرسول ﷺ إلى مدينتهم، ويحصلوا على موافقته على ذلك، فوصل هؤلاء الصادقون في ظلام الليل، إلى المكان الذي كان يجتمع فيه أهل الإيمان والإخلاص من يثرب منذ سنتين.

تنبيه العباس بن عبد المطلب على خطورة بيعة العقبة:

ووصل رسول الله ﷺ مع عمّه العباس إلى العقبة.

فقال العباس -وهو يومئذ على دين قومه[٣]-: يا معشر الخزرج، إن محمدًا منّا حيث علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا، وهو في عزّ من قومه ومنعة في بلده، فإنه قد أبى إلا الانقطاع إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما يدعوكم إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحمّلتم من ذلك.

وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه، واعلموا أنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس[٤].

---

(١) الطبري (٢/ ٣٥٧).

[سيرة ابن هشام: ١/ ٤٣٥، ومجمع الزوائد: ٦/ ٤٠-٤١، من طريق عروة بن الزبير، وقال الهيثمي: رواه الطبراني مرسلًا، وفيه ابن لهيعة، وفيه ضعف، وهو حسن الحديث، وبقية رجاله ثقات، والبيهقي في الدلائل: ٢/ ٤٣٨-٤٤٠، من طريق موسى بن عقبة مرسلًا فيكون الحديث بمجموع هذه الطرق حسنًا. (راجع «صحيح السيرة النبوية» للعلي: ١٠٥-١٠٧) مع التعليق. (صلاح)]

(٢) في «مختصر سيرة ابن هشام» (١/ ٣٧٧-٣٧٨): «ومعنا امرأتان من نسائنا: نسيبة بنت كعب أمّ عمارة: إحدى نساء بني مازن بن النجار، وأسماء بنت عمرو بن عدي: إحدى نساء بني كلة. (صلاح)

(٣) إلا أنه أحبّ أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له. (مختصر ابن هشام: ١/ ٣٧٨).

(٤) المراد به الحرب الطاحنة الهوجاء.

وعظ الرسول ﷺ في العقبة الثانية:

فقالوا: قد سمعنا ما قلت، فتكلّم يا رسول الله، وخذ لنفسك وربّك ما أحببتَ.

قال: فتكلّم رسول الله ﷺ فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغّبهم في الإسلام.

ثم أبدى الجميع رغبتهم في أن يقدم إليهم رسول الله ﷺ حتى ينتفعوا به.

فقال رسول الله ﷺ: هل تنصرونني في نشر دين الإسلام؟ وتمنعونني مما تمنعون منه أنفسكم، وأزواجكم، وأبناءكم، ولكم الجنّة؟(١)

قال المؤمنون: فهل تتركنا يا رسول الله؟

قال: محياي ومماتي معكم.

ولما سمع هؤلاء الصادقون المخلصون هذا القول، قاموا إليه رجلا رجلًا، يبايعونه، وهو يبشّرهم عليه بالجنة(٢). وكان أوّل من بايعه ليلتئذ البراء بن معرور(٣).

شيطان ينبّه قريشًا على هذه البيعة:

ورأى شيطان هذا المشهد من العقبة، فصرخ قائلا: يا أهل الجباجب(٤) -المنازل-

---

(١) كانت بيعة العقبة الثانية على النصرة والحماية، والدفاع عن رسول الله ﷺ ودينه وعقيدته. (صلاح)

(٢) وقد تمّت كلمة: «إن النور يلمع في الظلام» إنجيل يوحنا (١/ ٥)

[عن أنس عن ثابت عن قيس رضي الله عنه: خطب مقدم النبي ﷺ، فقال :إنا نمنعك مما نمنع منه أنفسنا، وأولادنا: فما لنا يا رسول الله؟

قال: لكم الجنة. **قالوا:** رضينا. (أبو يعلى: ٣٧٧٢، قال الهيثمي في المجمع: ٦/ ٤٨، رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح، ورواه الحاكم في المستدرك: ٤/ ٢٣٤، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.) («صحيح السيرة النبوية» للعلي (١١٣ مع التعليق). (صلاح)]

(٣) هكذا قال كعب بن مالك. وقال ابن إسحاق: بنو عبد الأشهل يقولون: بل أبو الهيثم بن التيهان. (ابن هشام: ١/ ٤٤٧ [ومختصر ابن هشام: ١/ ٣٧٥-٣٨٣]).

قال أستاذنا الشيخ صفي الرحمن المباركفوري: لعلّهم حسبوا ما دار بينهما وبين الرسول ﷺ وقت البيعة، وإلا فأحرى الناس بالتقديم إذ ذاك، هو أسعد بن زرارة. والله أعلم. (الرحيق المختوم: ١٥١). (صلاح)

(٤) جبال مكّة حرسها الله تعالى، أو أسواقها، أو منحر بمعنى، كان يلقى به الكدوش» (القاموس المحيط: جبجب)

هل لكم في مذمّم والصباة معه، قد اجتمعوا على حربكم؟!

فقال رسول الله ﷺ: لا تبالوا به.

وقال العباس بن عبادة بن نضلة: لو أذنتَ لنا، لأعملنا سيوفنا في أهل مكة(١).

وقال رسول الله ﷺ: لم يؤذن لي في الحرب(٢).

نقباء النبي ﷺ:

ثم اختار النبي ﷺ منهم تلك الليلة اثني عشر نقيبا، وقال: كما أن عيسى ابن مريم اتخذ لنفسه اثنى عشر نقيبا، أختاركم أنا، حتى تنشروا الإسلام في أهل يثرب بعد العودة إليهم، وأما أهل مكة فأنشره فيهم أنا.(٣)

وتسعة من النقباء كانوا من الخزرج، وهم:

- أسعد بن زرارة [نقيب بني النجار].
- ورافع بن مالك [نقيب بني زريق].

---

(١) في مختصر ابن هشام (١/ ٣٨٧): «والذي بعثك بالحقّ لنميلنّ على أهل منى بأسيافنا. فقال ﷺ: لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم...» (صلاح)

(٢) راجع للتفصيل في واقعة العقبة الثانية حديث كعب بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، لأنه أطول سياقًا، وأكثر تفصيلًا، وكان ممن شهد العقبة، وبايع رسول الله ﷺ، الذي أخرجه أحمد: ٣/ ٤٦٠-٤٦٢، الطيالسي: ٢/ ٩٠-٩٤، رقم الحديث: ٢٣٣٣، من طريق ابن إسحاق، السيرة النبوية ابن هشام: ١/ ٤٤٠- ٤٤٨، ابن جرير في التاريخ: ٢/ ٩٠-٩٣، بسند صحيح، وصححه ابن حبان كما في الفتح: ٥/ ٤٢٥، الموارد ص: ٤٠٨، السيرة النبوية (ابن كثير: ٢/ ١٩٢-١٩٤، السيرة النبوية للذهبي: ٢٠٣-٢٠٦، وقال الهيثمي في المجمع: ٦/ ٤٢-٤٥: رواه أحمد والطبراني بنحوه. ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق، وقد صرّح بالسماع. ورواه البيهقي في الدلائل: ٥/ ٤٤٥-٤٤٩، وفي السنن: ٩/٩، والحاكم في المستدرك: ٢/ ٦٢٤-٦٢٥، وقال حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وقال الذهبي صحيح. («صحيح السيرة النبوية» للعلي: ص١١٢، تخريج حديث كعب بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ). (صلاح)

(٣) وأما ما ذكر في آخر البيعة من قول النبي ﷺ: «أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين بعيسى ابن مريم، وأنا كفيل على قومي، -يعني: المسلمين- قالوا: نعم.» فهو مرسل ضعيف عن عبد الله بن أبي بكر. قاله الألباني في تخريج «فقه السيرة للغزالي» (ص١٥٠). (صلاح)

- وعبادة بن الصامت [نقيب بني عوف الخزرج] (وكانوا في العقبة الأولى أيضًا).
- وسعد بن الربيع [نقيب بني الحارث بن الخزرج].
- وثعلبة بن كعب[١] [نقيب بني ساعدة]
- وعبد الله بن رواحة [نقيب بني الحارث بن الخزرج].
- والبراء بن معرور [نقيب بني سلمة].
- وعبد الله بن عمرو بن حرام [نقيب بني سلمة].
- وسعد بن عبادة [نقيب بني ساعدة].

ومن الأوس ثلاثة، وهم:

- أسيد بن حضير [نقيب بني عبد الأشهل].
- وسعد بن خيثمة [نقيب بني عمرو بن عوف].
- ورفاعة بن عبد المنذر [نقيب بني عبدالأشهل][٢]

مطاردة قريش للمبايعين وسعد بن عبادة في قبضتها:

ولما أصبحت قريش، عرفت ذلك، وخرجت في طلب أهل يثرب، ولكنّ ركبهم كان قد بكّر، فأدركوا سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو، فأما المنذر فأعجز القومَ، وأما سعد فأخذوه، وربطوا يديه إلى عنقه بنسع[٣] رحله، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكّة، يضربونه ويجذبونه بجمّته، وكان ذا شعر كثير.

فقال سعد: فوالله إني لفي أيديهم، إذ طلع عليّ نفر من قريش، فيهم رجل أبيض وضيء شعشاع حلو من الرجال. قال: قلت: إن يكن عند أحد من القوم خير، فعند هذا، فلما دنا مني رفع يديه،، فلطمني لطمة شديدة.

---

(١) وفي زاد المعاد وابن هشام: «منذر بن عمرو» بدل «ثعلبة».
[وقيل: أبو الهيثم بن التيهان، بدل رفاعة]

(٢) زاد الطبراني كما في المجمع (٦/ ٤٢-٤٥) في رواية كعب بن مالك المتقدّمة، أسماء النقباء من الأنصار مع ذكر فخوذهم. (صحيح السيرة النبوية: ص١١٣، ومختصر سيرة ابن هشام: ١/ ٣٧٩) (صلاح)

(٣) نِسع: بالكسر: سير ينسج عريضا على هيئة أعنّة النعال، يشدّ به المرحل، والقطعة منه نسعة، وسمّي نسعًا لطوله. ج: نسع بالضمّ. (القاموس المحيط: ٧٦٦) (صلاح)

قال: قلت في نفسي: والله ما عندهم بعد هذا خير.

نجاة سعد بتدخّل حلفائه في مكّة:

قال: فوالله إني لفي أيديهم يسحبونني، إذ أوى[١] إليّ رجل منهم ممن معهم، فقال: ويحك! أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد؟

قال: قلت: بلى والله، لقد كنت أجير لجبير بن مطعم بن عدي تجّاره، وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادي، وللحارث بن أمية بن عبد شمس.

قال: ويحك! فاهتف باسم الرجلين.

قال: ففعلتُ، وخرج ذلك الرجل إليهما، فوجدهما في المسجد عند الكعبة، فقال لهما: إن رجلا من الخزرج الآن يضرب بالأبطح، وإنه ليهتف بكما.

قالا: ومن هو؟

قال: سعد بن عبادة.

قالا: صدق -والله- إن كان ليجير تجّارنا، فجاءا فخلّصا سعدا من أيديهم وانطلق[٢].

---

(١) في أحدى الروايتين عند ابن هشام (أو مأ إليّ) هذا الرجل هو: أبو البختري بن هشام. والذي لكمه: سهيل بن عمرو. (مختصر سيرة ابن هشام: ١/ ٣٨٧-٣٨٨)

(٢) تأريخ الطبري (٢/ ٢٤١). [مختصر سيرة ابن هشام: ١/ ٣٨٧-٣٨٨]

وحال سعد هذه تتضمن درسًا بليغا بأن الابتلاء يبدأ من الله بعد الإسلام، فيبتلى المؤمنون بالجوع والظمأ، وبالعداء من القوم والوطن، وبالنقص في الجسم والمال هكذا. والذي يصبر على هذه البلايا يستحقّ ذلك الوعد السرمدي، الذي ورد ذكره في «التوراة» و«الإنجيل» و «القرآن» في شأن المؤمنين بأن الله يصلح لهم الدنيا والآخرة.

فالذين اعتصموا بالإسلام في مثل هذه الشدائد، هل يستطيع أحد أن يقول فيهم: إنهم أسلموا بقوّة السيف؟

أو يستطيع أن يقول في أمثال هؤلاء الأبرار: إنهم كانوا يُكرِهون الآخرين على الدخول في الإسلام؟ [هذه لفتة عجيبة من المؤلّف رَحِمَهُ اللَّهُ إلى واقع الأمر للرّد على المعترضين على الإسلام بأنه انتشر بالسيف. فلله درّه.]

تباشير الهجرة إلى المدينة(١)

وبعد العقبة الثانية أذن النبي ﷺ للمسلمين (الذين كانوا بمكة يفتنون في دينهم، ويعذّبون بصنوف الأذى حتى تحوّل وطنهم جحيما)، في الهجرة إلى يثرب، واللحوق بإخوانهم هناك، ولم يحزن هؤلاء المؤمنون شيئًا على فراق الوطن والأهل والإخوة، بل استبشروا بأنهم يعبدون الله تعالى وحده لاشريك له، في يثرب بحرية تامة.

متاعب الهجرة ومصاعبها:

وكان المهاجرون عند هجرتهم يلقون أذى كثيرا ومقاومةً شديدة من قريش مكة:

(١) ربح صهيب بالتخلّي عن ماله عند هجرته:

فقد روي عن أبي عثمان النهدي أنه قال: بلغني أن صهيبا حين أراد الهجرة، قال له كفار قريش: أتيتَنا صعلوكا حقيرا، فكثر مالك عندنا، وبلغتَ الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك، والله لا يكون ذلك.

فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلتُ لكم مالي، أتخلّون سبيلي؟

قالوا: نعم!

---

(١) اختار الله عز وجل المدينة للنبي ﷺ دار الهجرة والسنة، كما في رواية البخاري (٢٢٩٧) عن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ -وهو يومئذ بمكة- للمسلمين: «قد أريت دار هجرتكم، رأيت سبخة ذات نخل بين لابتين، وهما الحرّتان، فهاجر من هاجر قبل المدينة، حين ذكر ذلك رسول الله ﷺ، ورجع إلى المدينة بعض من كان هاجر إلى أرض الحبشة.»

وفي البخاري (٣٩٢٥) عن البراء بن عازب، قال: «أوّل من قدم علينا مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم، وكانا يقرئان الناس، فقدم بلال، وسعد، وعمار بن ياسر، ثم قدم عمر بن الخطاب في عشرين من أصحاب النبي ﷺ.»

هكذا بدأ يتوافد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إلى المدينة قبل هجرة النبي ﷺ بعد ما عرفوا نيّته لهجرته إليها، تاركين أقاربهم وبيوتهم وأموالهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.(صلاح)

قال: فإني جعلتُ لكم مالي. قال: فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: ربح صهيب، ربح صهيب[١].

(٢) أصاب آل أبي سلمة عند الهجرة مالم يصبْ أهل بيت في الإسلام:

وتقول أم سلمة: لما أجمع أبوسلمة الخروج إلى المدينة، رحل لي بعيره ثم حملني عليه، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، ثم خرج بي يقود بي بعيره، فلما رأته رجال بني المغيرة، قاموا إليه، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتك هذه، علام نتركك تسير بها في البلاد؟

قالت: فنزعوا خطام البعير من يده، فأخذوني منه، وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد، رهط أبي سلمة، فقالوا: لا، والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا.

قالت: فتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة.

قالت: فكنت أخرج كل غداة، فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي حتى أمسي سنة أو قريبًا منها، حتى مرّ بي رجل من بني عمّي، فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة؟

قالت: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئتِ.

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ١٢١)، مات صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالمدينة في شوال سنة ثمان و ثلاثين وهو ابن ثلاث وسبعين سنة.

[يقال: صهيب الرومي، وهو عربيّ، ولكن الروم سبته صغيرًا، فصار ألكن، ثم اشتراه رجل من كلب، فباعه بمكّة، فاشتراه عبد الله بن جدعان التميميّ فأعتقه.

أما حديث: «صهيب سابق الروم» عن أبي أمامة الباهلي والحسن، فقال الذهبي فيه: «مرسل صحيح»، وقال مرّة: «إسناده جيد». وقال شعيب الأرنؤط في تخريج «سير أعلام النبلاء » للذهبي: إسناده ضعيف لإرساله.

كان صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من المستضعفين ممن يعذّب في الله. راجع ترجمته في «الإصابة»: (٣/ ٢٥٤-٢٥٥)، وفيه: توفي وهو ابن سبعين. (صلاح)]

قالت: فارتحلتُ بعيري، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة. وما معي أحد من خلق الله[١].

وأصيب بمثل هذه المصائب كل من هاجر من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(٣) افتتان عياش وهشام بن العاصي عند الهجرة ونجاة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:

ويقول عمر بن الخطاب: اتعدتُ -لما أردنا الهجرة إلى المدينة- أنا وعياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاصي بن وائل السهمي التناضب: من ميضاة بني غفار، وقلنا: أينا لم يصبح عندها فقد حبس، فليمض صاحباه. قال: فأصبحت أنا وعياش ابن أبي ربيعة عند التناضب، وحبس عنّا هشام، وفُتِنَ فافتتن.

فلما قدمنا المدينة، نزلنا في بني عمرو بن عوف بقباء، وخرج أبو جهل بن هشام، والحارث بن هشام إلى عياش بن أبي ربيعة -وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما- حتى قدما علينا المدينة، وقالا:

«إن أمّك قد نذرت أن لا يمسّ رأسها مشط حتى تراك، ولا تستظلّ من شمس حتى تراك، فرَقّ لها».

فقلت له: يا عيّاش، إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم، فو الله! لو قد آذى أمّك القمل لامتشطت، ولو قد اشتدّ عليها حرّ مكة لاستظلّت.

قال: فقال: أبرّ قسمَ أمّي، ولي هنالك مال فآخذه.

قال: فقلت: والله إنك لتعلم أنّي لمن أكثر قريش مالًا، فلك نصف مالي ولاتذهب معهما.

---

(١) قالت: ...حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، أخا بني عبد الدار، وملخص القول: أن عثمان بن طلحة أوصلها إلى أبي سلمة بكل عزّ واحتياط وكرامة، ثم انصرف راجعا إلى مكة.

[«**فكانت تقول أم سلمة:** والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحبًا قط، كان أكرم من عثمان بن طلحة.» (سيرة ابن هشام (٢-١١٢-١١٣)) من طريق ابن إسحاق، وقد صرّح بالسماع، وسند رجاله ثقات.(صحيح السيرة النبوية: ١١٧) (صلاح)]

قال: فأبى عليّ إلا أن يخرج معهما.

قال: قلت له: فخذ ناقتي هذه، فإنها ناقة نجيبة ذلول، فالزَم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب، فانجُ عليها.

فخرج عليها معهما، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال له أبو جهل: يا ابن أخي، والله لقد استغلظت بعيري هذا، أفلا تعقبني على ناقتك هذه؟

قال: بلى!

قال: فأناخ، وأناخا ليتحوّل عليها، فلما استووا بالأرض عدَوَا عليه، فأوثقاه وربطاه، ثم دخلا به مكّة، وفتناه فافتتن.

ثم قالا مفتخرين: يا أهل مكة، هكذا فافعلوا بسفهائكم، كما فعلنا بسفيهنا هذا.

ولما قدم رسول الله ﷺ بالمدينة، قال: من لي بعياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاصي؟

فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة: أنا لك يا رسول الله بهما، فخرج إلى مكة، وأخرجهما من محبسهما، ثم قدم بهما على رسول الله ﷺ المدينة[(١)].

وتكفي للقراء الكرام هذه القصص الثلاث للدلالة على أن المسلمين كم كانوا يحتاجون إلى الهمّة والإرادة والعزم والحزم للتغلّب على مشكلات الهجرة ومتاعبها. ولم يكن من السهل أبدا أن يهجر الإنسان داره وبلده أيضًا، من غير جهد وجدّ، وبلاء وامتحان على وجه الخصوص[(٢)].

---

(١) سيرة ابن هشام (٦-١١٨). [قال الهيثمي في المجمع: ٦/ ٦١، رواه البزار ورجاله ثقات، وابن هشام في السيرة: : ١/ ٤٧٤ - ٤٧٥، بسند رجاله ثقات، صرّح فيه ابن إسحاق بالتحديث فقال حدثني نافع مولى ابن عمر عن عبد الله بن عمر بن الخطاب، والبيهقي في الدلائل: ٢/ ٤٦١-٤٦٢، وفي السنن: ٩ / ١٣-١٤، من طريق ابن إسحاق. فالحديث صحيح. (صحيح السيرة النبوية: ١١٨) وحسّنه الأعظمي في «سيرة المصطفى ﷺ» (١/ ٢٠١-٢٠٢) لأجل محمد بن إسحاق. (صلاح)]

(٢) تظهر صعوبة الامتحان في الهجرة مما قاله ﷺ، وهو واقف بالحزوّرة في سوق مكّة: «**والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله عز وجل، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت**». (ذكره الألباني في صحيح الترمذي: ٣٩٢٥) عن عبد الله بن عديّ بن الحمراء. (صلاح)

الهجرة إلى المدينة الطيّبة[١]

تشاور قريش «في دار الندوة» لاغتيال النبيﷺ:

ولما لم يبق في مكة إلا عدد قليل من كبار أصحاب النبي ﷺ، منهم: أبو بكر وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، زعمت قريش أن ذلك فرصة مناسبة لتصفية محمد ﷺ.

فاجتمعوا له في «دارالندوة»، وهي دار قصيّ بن كلاب، التي كانت بمثابة «البرلمان[٢] لقريش»، يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ، فاعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل.

أسماء المجتمعين في دار الندوة:

وقد اجتمع فيها صناديد قريش من عشائرها المختلفة، كما يلي:

(١) من بني عبد شمس: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب.

(٢) ومن بني نوفل بن عبد مناف: طعيمة بن عدي، وجبير بن المطعم، والحارث

---

(١) تدل النصوص الصحيحة على أن اختيار المدينة مهاجرًا لرسول الله ﷺ كان بوحي إلهي، كما في الحديث: «رأيتُ في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وهلي إلى أنها اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة: يثرب». (البخاري: ٧٠٣٥، عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)
والحديث: «إني أريتُ دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين». (البخاري: ٢٢٩٧، عن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا)
و«كأن النبي أُريَ دار الهجرة بصفة تجمع المدينة وغيرها، ثم أريَ الصفة المختصة بالمدينة فتعيَّنت». (فتح الباري: ٧/ ٢٣٤، نقلاً عن ابن التين، وهو أحد شرّاح صحيح البخاري. راجع «السيرة النبوية الصحيحة» للعمري: ١/ ٢٠١. ولاريب أن المدينة دار الهجرة والسنّة.) (البخاري، رقم ٣٩٢٨) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.) (صلاح)

(٢) كلمة أجنبيّة معروفة، استعملت ههنا لتقريب الفهم. وإلا «دار الندوة» أفصح وأشمل. وفيها غنى عن «البرلمان». (صلاح)

بن عامر.

(٣) ومن بني عبد الدار بن قصيّ: النضر بن حارث بن كلدة.

(٤) ومن بني أسد بن عبد العزى: أبو البختري بن هشام، وزمعة بن الأسود، وحكيم بن حزام.

(٥) ومن بني مخزوم: أبو جهل بن هشام.

(٦) ومن بني سهم: نبيه ومنبه ابنا الحجّاج.

(٧) ومن بني جُمح: أمية بن خلف[1].

السؤال المطروح هو: ماذا يفعل بمحمد ﷺ للحدّ من نشاطه:

وكان السؤال المطروح في هذا المجلس: ما ذا يفعل به؟

- **قال قائل منهم:** احبسوه مقيّدا بالحديد، وأغلقوا عليه بابا، ثم تربّصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء، الذين كانوا قبله، زهيرا والنابغة، ومن مضى منهم من هذا الموت، حتى يصيبه ما أصابهم.

فقال شيخ من نجد: لا والله، ما هذا لكم برأي، والله لئن حبستموه ليخرجنّ أمره من وراء الباب، الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم، فينزعوه من أيديكم، ثم يكاثروكم به، حتى يغلبوكم على أمركم.

- **ثم قال قائل منهم:** نخرجه من بين أظهرنا، فننفيه من بلادنا، فإذا أخرج عنّا، فوالله ما نبالي أين ذهب، ولا حيث وقع، إذا غاب عنّا وفرغنا منه، فأصلحنا أمرنا.

فقال الشيخ النجدي: لا والله، ما هذا لكم برأي، ألم تروا حسن حديثه، وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به؟

والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحلّ على حي من العرب، فيغلب عليهم بذلك من

---

(١) قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ۝﴾ [الطارق: ١٥-١٧]. **وفي ضوء هذه الآية الكريمة، ينبغي أن نفكّر في عاقبة هؤلاء الرؤساء الأربعة عشر، فقد قتل منهم أحد عشر شخصًا يوم بدر، ونجا أبو سفيان، وجبير، وحكيم من القتل، فمنّ الله عليهم، فأسلموا في النهاية.**

قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم في بلادكم فيأخذ أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد.[1]

مؤامرة عجيبة في اختيار من يقومون باغتياله ﷺ:

ثم اقترح أبو جهل خطة لقتله، وافق عليها المجتمعون إجماعًا، وهي كما يلي:

(١) أن نأخذ من كل قبيلة معروفة فتى شابا جليدا نسيبا وسيطا فينا، ثم نعطي كلّ فتى منهم سيفا صارما.

(٢) أن يحيط هؤلاء الشجعان ببيت محمد ﷺ في ظلام الليل.

(٣) أن يعمدوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، حين خروجه من البيت إلى صلاة الفجر، فيقتلوه فنستريح منه.

فإنهم إذا فعلوا ذلك، تفرّق دمه في كلّ القبائل، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا، فرضوا منّا بالعقل فعقلنا[2] لهم، فتفرّق القوم على ذلك، وهم مجمعون له.

التدبير الربّاني في مواجهة التدبير الإنساني (تخطيط دقيق للهجرة):

وهنا يأتي دور التدبير الإلهي والحماية الربّانية، وذلك أن الناس حينما أحاطوا ببيت النبي ﷺ أتى جبريل رسول الله ﷺ وأخبره بذلك، وأمره أن لا ينام: في مضجعه تلك الليلة[3].

---

(١) أخرج هذه القصة أبونعيم في «دلائل النبوة» (٦٣-٦٤)، والطبري في تفسيره (٦/ ٢٥١-٢٥٢ رقم ١٥٩٧٩)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٤٦٦-٤٦٧)، وابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٠٩). القصة واهية، وأسانيدها لا تصحّ، تزداد بها وهنًا على وهن. وراجع الكلام على هذه القصة مفصلا في «التعليق على الرحيق المختوم» للملّاح (٩٦-١٠٤). (صلاح)

(٢) بالعقل: أي بالدية.

(٣) دلائل النبوّة للبيهقي (٢/ ٤٦٥-٤٦٨)، زاد المعاد (٣/ ٤٦)، قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: «رجاله ثقات غير شيخ ابن إسحاق، فإنه لا يعرف». وقال العلّامة الألباني في «دفاع عن الحديث (٢٣): روي من رواية الواقدي، وهو كذّاب، وفي إسناد ابن هشام من لم يسمّ».

وأحاله الدكتور محمد لقمان السلفي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «الصادق الأمين» (ص: ٢٦٤) على البخاري (٣٩٥٠) فأخطأ. (صلاح)

قال: فلما كانت عتمة الليل، ورأى رسول الله ﷺ مكانهم، قال لعلي بن أبي طالب: نَمْ على فراشي، وتسجّ ببردي هذا الحضرميّ الأخضر فنم فيه، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم.

نوم عليّ في فراش النبي ﷺ ليلة الهجرة:

فنام عليّ نوما هادئا تحت ظلال السيوف، وخرج رسول الله ﷺ، فأخذ حفنة من من تراب في يده، وأخذ الله تعالى على أبصارهم منه فلا يرونه[١]، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم -وهو يتلو آيات من سورة يسٓ-، ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابا[٢].

ثم انصرف إلى حيث أراد، وكان ذلك يوم الخميس السابع والعشرين من صفر عام ثلاثة عشر من النبوة، (الموافق للثاني عشر من سبتمبر ٦٢٢م.)[٣]

---

(١) وهنا ينبغي أن ندرك الشبه بين صفيّ الله داود وبين محمد ﷺ، فقد ورد في العهد القديم: فأنزلتْ ميكالُ داودَ من الكوّة، فذهب هاربا ونجا، فأخذت ميكال الترافيم ووضعته في الفراش، ووضعت لُبدة المعزى تحت رأسه وغطّته بثوب، وأرسل شاول رسلا لأخذ داود، فقالت: هو مريض... إلخ. (صموئيل الأول ١٩/ ١٢-١٤).

(٢) راجع ابن هشام (١/ ٤٨٣).

(٣) «أحال صاحب «الرحيق» (١٦٤) في هذا المكان إلى كتابنا «رحمة للعالمين» هذا.» (صلاح)

آل أبي بكر في إعداد العدّة للهجرة

خروج النبي ﷺ من بيته إلى أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

ثم أتى النبي ﷺ أبا بكر، تقول عائشة:

حتى إذا كان اليوم الذي فيه لرسول الله ﷺ الهجرة، أتانا رسول الله ﷺ بالهاجرة في ساعة كان لايأتي فيها، فلما رآه أبوبكر قال: ما جاء رسول الله ﷺ هذه الساعة إلا لأمر حدث.

فلما دخل تأخّر له أبو بكر عن سريره، فجلس رسول الله ﷺ وقال:

إن الله قد أذن لي في الخروج: الهجرة.

فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله!

قال: قال: الصحبة.

من دارأبي بكر إلى غار ثور[١]:

فتجهّز أبو بكر مسرعا، وحلّت بنته أسماء نطاقها[٢]، فجعلته عصاما للسفرة، ثم ركبا، وانطلقا في ظلام الليل حتى أتيا غار ثور، وهو جبل بأسفل مكّة على بعد من بيت الله[٣]، وكان طريق الجبل وعرا، فأدمى قدمي رسول الله ﷺ، فحمله أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على

---

(١) راجع البخاري (٣٩٠٥) في حديث طويل، روته أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وفيه بيان علاقة النبي ﷺ بأبي بكر وآله، وكيف خرج من دار أبي بكر إلى غار ثور، وكيف رتّب آل أبي بكر ما ساهم في إنجاح الهجرة من إعداد العدة وغيرها. (صلاح)

(٢) عن أسماء قالت: «صنعت سفرة للنبي ﷺ وأبي بكر، حين أرادا المدينة، فقلت لأبي: ما أجد شيئا أربطه إلا نطاقي، قال: فشقيه ففعلت، فسمّيت ذات النطاقين.» (البخاري: ٣٩٠٧) (صلاح)

(٣) يقع غار ثور في الجهة الجنوبية من المسجد الحرام، على بُعد ما يقارب أربع كيلو متراتٍ من مكة المكرمة، ويرتفع عن سطح البحر ما يقارب سبع مئة وثمانية وأربعين مترًا.

وغار ثورٍ في الحقيقة يُعدّ صخرةً مجوّفةً في أعلى جبل ثور، يقدّر ارتفاعها بمترٍ وربع، وإنّ للغار =

كتفه، فانتهيا إلى الغار، فدخل أبوبكر فيه، فنظّفه وسدّ الجحور بمخاريق ثيابه، ثم طلب رسول الله ﷺ أن يدخل[١].

فلما أصبحوا، وقام عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن الفراش، سألته قريش عن محمّد.

فقال: ما أدري أو رقيبا كنتُ عليه؟ أمرتموه بالخروج، فخرج.

فانتهروه، وضربوه، وأخرجوه إلى المسجد، فحبسوه ساعة ثم تركوه[٢].

قالت أسماء بنت أبي بكر: لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر، أتانا نفر من قريش، فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجتُ إليهم.

فقالوا: أين أبوك يا ابنة أبي بكر؟

قلت: لا أدري والله أين أبي[٣]، قالت: فرفع أبو جهل يده وكان فاحشا خبيثا فلطم خدّي لطمة طرح منها قرطي[٤].

فتحتين، واحدةٌ في الشرق، والأخرى في الغرب، والفتحة الغربية؛ هي الفتحة التي دخل منها النبي ﷺ مع صاحبه أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. (من الشبكة العنكبوتية) (صلاح)

(١) أحال صاحب «الرحيق» (١٦٤) في هذا الموضع إلى كتابنا هذا. (صلاح)

(٢) تأريخ الطبري (٢/ ٢٤٥). [أحال صاحب «الرحيق» (١٦٥) في هذا المقام إلى كتابنا هذا.] (صلاح)

(٣) فيه: عدم دراية بنت أبي بكر بمكان رسول الله ﷺ، مع أنهم كانوا يعرفون بمكانه، ويقومون بالإمداد والتمويه والإخبار». فجملة «لا أدري» منكرة. (التعليق على الرحيق: ١١٢).

(٤) تأريخ الطبري (٢/ ٢٤٥)، وسيرة ابن هشام (٢/ ١٣١). [رقم ٥١٣، وذكره أن ابن إسحاق قال: «فحدّثت عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت: لما خرج رسول الله ﷺ...» القصة. قال الملّاح: «سند القصة منقطع، يشهد لذلك صيغة الراوية. (التعليق على الرحيق: ١٠٨-١٠٩)]

[رجال إسناده ثقات وهو مرسل حسن، وأبو نعيم في الدلائل، وقد صرّح ابن إسحاق بالتحديث. (صحيح السيرة النبوية: ١٢١ تعليقا). وقال الملّاح في «التعليق على الرحيق» (١٠٨-١١٢) ما ملخصه: إن قصة لطم أبي جهل أسماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا غير صحيحة. (صلاح)]

القوّة الإيمانية العجيبة لابنة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

أودّ الإشارة إلى حادث صغير وقع عند الهجرة:

قالت أسماء بنت أبي بكر: لما خرج رسول الله ﷺ، وخرج أبو بكر معه، احتمل أبو بكر ماله كلّه، ومعه خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف، فانطلق بها معه.

قالت: فدخل علينا جدّي أبو قحافة[١]، وقد ذهب بصره، فقال: والله إني لا أراه قد فجعكم بماله مع نفسه.

قالت: قلت: كلّا يا أبت، إنه قد ترك لنا خيرًا كثيرًا.

قالت: فأخذتُ أحجارا فوضعتها في كوّة في البيت، التي كان أبي يضع ماله فيها، ثم وضعت عليها ثوبا، ثم أخذت بيده، فقلتُ:

يا أبتِ، ضع يدك على هذا المال.

قالت: فوضع يده عليه، فقال: لابأس، إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن، وفي هذا بلاغ لكم.

ولا، والله ما ترك لنا شيئا، ولكنّي أردتُّ أن أسكن الشيخ بذلك.[٢]

إذ هما في الغار:

وبقي هذان: الشمس والقمر في الغار ثلاثا[٣].

وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست، بما يصلحهما.

وكان عبد الله بن أبي بكر يستمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره، ثم يأتيهما إذا أمسى، بما يكون في ذلك اليوم من الخبر[٤].

---

(١) لم يكن أبو قحافة قد أسلم بعد، بل أسلم يوم فتح مكة، وتمتاز أسرة أبي بكر بين جميع الصحابة بأن أربعة أجيال منها تشرفت بصحبة النبي ﷺ إيمانا وإسلامًا.

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ١٣٣).

(٣) قال يوناثان لداود: وفي اليوم الثالث تنزل سريعا تأتي إلى الموضع الذي اختبأت فيه يوم العمل (صموئيل الأول ٢٠/ ١٨-١٩).

(٤) البخاري: المغازي باب الهجرة [رقم ٦٠٧٩]، سيرة ابن هشام (٢/ ١٣٠)، تأريخ الطبري (٢/ ٢٤٧).

وعامر بن فهيرة وهو مولى عبدالله، يرعى غنمه نهاره، ثم يريحها عليهما، فيحتلبان، وكان عامر يعفي آثار القادمين بالغنم[١].

وقد أثاب الله أبا بكر بصدقه وإخلاصه[٢] أن ضمّه إلى النبي ﷺ بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].[٣]

الخروج من الغار:

حتى إذا مضت الثلاث، وسكن عنهما الناس، أتاهما صاحبهما الذي استأجراه ببعيريهما وبعير له[٤]، فلما قرب أبو بكر الراحلتين إلى رسول الله ﷺ قدّم أفضلهما، ثم قال: اركب فداك أبي وأمي.

فركبا وانطلقا، وأردف أبوبكر عامر بن فهيرة مولاه خلفه ليخدمهما في الطريق.

ثم توجّهوا إلى المدينة في غرّة ربيع الأول، يوم الاثنين (الموافق للسادس عشر من سبتمبر ٦٢٢ م).

تحقق النصر الإلهي للنبي ﷺ بعد الهجرة أسوة بالأنبياء السابقين:

وكانت هجرة النبي ﷺ اقتداء بسنة الأنبياء السابقين، فقد ذكر التوراة وقائع هجرة إبراهيم خليل الله، وموسى، وداود عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، وقد تحقّق نصر الله تعالى لمحمد ﷺ بعد الهجرة، كما وقع للأنبياء السابقين.

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ١٣٠)، تأريخ الطبري (٢/ ٢٤٨)، والبخاري في المغازي [رقم ٦٠٧٩]، عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

(٢) لقد كان أبوبكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وآل بيته كلّهم عونًا في إنجاح سفر الهجرة إلى المدينة، بسرّية تامّة وفي أحرج الأوقات، فاستحق بذلك أبوبكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ثناء ومدحا من الله تعالى ومن رسوله ﷺ. (صلاح)

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذه المعية خاصة، مقيدة بالنبي ﷺ وأبي بكر، وتقتضي مع الإحاطة التي هي المعية العامّة: النصر والتأييد. ولهذا وقفت قريش على الغار، ولم يبصروهما! أعمى الله أبصارهم.» (شرح العقيدة الواسطية، وعنه في «سيرة المصطفى الصحيحة»: ١/ ٢١٩). (صلاح)

(٤) هو الخريت: عبد الله بن أريقط الليثي. (تهذيب سيرة ابن هشام: ص١٠٤) (صلاح)

طريق الهجرة[١]:

وأخذ بهم الدليل طريق السواحل، وحين كان النبي ﷺ يمر بأرض ما بين الرابغ وساحل البحر، خرج سراقة في طلبه، يقول عبد الرحمن بن مالك المدلجي -وهو ابن أخي سراقة-:

سراقة في طلب النبي ﷺ[٢]:

بينما سراقة يجري بفرسه لابسا البيضة، آخذا بالرمح مدجّجا بالسلاح، إذ أبصر بالنبي ﷺ، فظنّ أنه قد نجح، فإذا به قد عثرت فرسه فخرّ عنها، فقام فركب فرسه وجرى، والنبي ﷺ يسير وهو يتلو القرآن، ويرجو ربّه الخير، فأخبره أصحابه بإدراك عدوّهم إياهم، فقال: اللهم فقنا شرّه! وما خرجت كلماته من فمه إلا وساخت يدا فرس سراقة في الأرض، فخرّ عنها سراقة، وعلم أنه لا قبل له بالنبي ﷺ وأصحابه، فنادى بالأمان، فأمّنه رسول الله ﷺ، ثم تقدّم سراقة، وقال: إني أمنع عنك كل طالب يطلبك، ثم سأله أن يكتب له كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة، فكتب في رقعة من أديم[٣].

مرور هذا الركب الميمون بخيمة أم معبد:

وبعد الخروج من الغار مرّ هذا الركب الميمون في أول يومه بخيمة أم معبد الخزاعية،

---

(١) راجع «سيرة المصطفى الصحيحة» للأعظمي (رقم ١٨٩) لمعرفة «طريق الهجرة من مكة إلى المدينة» مفصّلا. (صلاح)

(٢) راجع قصّة سراقة في البخاري (٣٩٠٦) بطولها. (صلاح)

(٣) البخاري (٤/ ٢٥٦-٢٥٧) [رقم ٣٩٠٦ عن سراقة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

وسراقة مشهور بسراقة بن جعشم، نسبة إلى جده جعشم، وهو سراقة بن مالك بن جعشم، كانت قبيلته مستولية على رابغ، و [قال ابن عبد البر] في الاستيعاب [٢/ ١٤٨-١٤٩]، لما رجع سراقة قال له النبي ﷺ: «كيف بك إذا لبست سواري كسرى؟» وأسلم سراقة بعد غزوة أحد. ولما فتحت مدائن في خلافة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأتي عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسواري كسرى ومنطقته وتاجه، دعا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسراقة، وألبسها إياهما، وقال له: ارفع يديك، فقال عمر: «الله أكبر» الحمد لله الذي سلبها من كسرى ألبس سراقة: وهو أعرابي رجل من بني مدلج».

وكانت امرأة برزة جلدة تحتبي بفناء الخيمة، ثم تطعم وتسقي من مرّ بها، وكان المارّون يستريحون لديها. فسألها النبي ﷺ هل عندها شيء؟

فقالت: والله لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى، والشاة عازب، وكانت سنة شهباء، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة.

فقال: ما هذه الشاة يا أم معبد؟

قالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم.

فقال: هل بها من لبن؟

قالت: هي أجهد من ذلك.

فقال: أتأذنين لي أن أحلبها؟

قالت: نعم، بأبي وأمي، إن رأيت بها حلبا فاحلبها.

فمسح رسول الله ﷺ بيده على ضرعها، وسمّى الله ودعا، فتفاجت عليه ودرّت، فدعا بإناء لها يربض الرهط، فحلب فيه حتى علته الرغوة، فسقاها فشربت حتى ملأ الإناء، ثم غادره عندها فارتحلوا.

أم معبد تصف رسول الله ﷺ لزوجها:

فقلّما لبث أن جاء زوجها أبو معبد، يسوق أعنزا عجافا يتساوكن هزالا لا نقيّ بهن، فلما رأى اللبن عجب.

فقال: من أين لكِ هذا، والشاة عازب، ولا حلوبة في البيت؟

فقالت: لا والله، إلا أنه مرّ بنا رجل مبارك، كان من حديثه كيت وكيت، ومن حاله كذا وكذا.

قال: والله إني لأراه صاحب قريش، الذي تطلبه، صِفِيْه لي يا أم معبد!

قالت: ظاهر الوضاءة، أبلج الوجه، حسن الخلق، لم تعبه ثجلة، ولم تزريه صعلة، وسيم قسيم، في عينيه دعج، وفي أشفاره وطف، وفي صوته صحل، وفي عنقه سطع، أحور، أكحل، أزجّ، أقرن، شديد سواد الشعر، إذا صمت علاه الوقار، وإن تكلّم علاه البهاء، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد، وأحسنهم وأحلاهم من قريب، حلو المنطق،

فصل، لا نزر ولا هذر، كأن منطقه خرزات نظم يتحدّرن، ربعة، لا تقحمه عين من قصر، ولا تشنؤه من طول، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظرا، وأحسنهم قدرا، له رفقاء يحفّون به، إذا قال استمعوا لقوله، وإذا أمر تبادروا إلى أمره، محفود محشود، لا عابس ولا مفند[١].

فقال أبو معبد: والله هذا صاحب قريش، الذي ذكروا من أمره ما ذكروا، لقد هممتُ أن أصحبه، ولأفعلنّ إن وجدتُ إلى ذلك سبيلا[٢].

---

(١) **شرح الألفاظ الغريبة في هذا الحديث:**

ويربض الرهط: يرويهم حتى يثقلوا فيربضوا، والرهط من الثلاثة إلى العشرة.

والثج: السيل.

والبهاء: وبيص رغوة اللبن، فشربوا حتى أراضوا، أي رووا. كذا جاء في بعض طرقه.

وتساوكن: تمايلن من الضعف، ويروى: تشاركن: أي عمهن الهزال.

والشاة عازب: بعيد في المرعى.

وأبلج الوجه: مشرق الوجه مضيئه.

والثجلة: عظم البطن مع استرخاء أسفله.

والصعلة: صغر الرأس، ويروى (صقلة) وهي الدقة والضمرة، والصقل: منقطع الأضلاع من الخاصرة.

والوسيم: المشهور بالحسن، كأنه صار الحسن له سمة.

والقسيم: الحسن قسمة الوجه.

والوطف: الطول.

والصحل: شبه البحة.

والسطح: طول العنق.

لاتقتحمه عين من قصير: أي لاتزدريه لقصره فتجاوز إلى غيره، بل تهابه وتقبله.

والمحفود: المخدوم.

والمحشود: الذي يجتمع الناس حوله. («سيرة المصطفى ﷺ الصحيحة»: ١-٢٣٣-٢٣٤). (صلاح)

(٢) زاد المعاد (٣/ ٥٥)، كان الناس من القبائل غير المسلمة: البدوية خارج مكة، يسمّون النبي ﷺ «صاحب قريش».

=

=

[وهذا الخبر فيه معجزة حسيَّة للرسول ﷺ. شاهدها أبو معبد فأسلم. رواه البزار (كشف الأستار:٢/ ٣٠١)، **بإسناد حسن**. قال الهيثمي في المجمع (٦/ ٥٨)، رواه البزار، رجاله رجال الصحيح. **قال ابن كثير** في «البداية والنهاية» (٣/ ١٩٠): «**وقصّتها مشهورة مروية من طرق يشدّ بعضها بعضًا**. وقال الحافظ ابن حجر: «أخرجها الطبراني من حديث قيس بن النعمان بسند صحيح وسياق أتم». (الإصابة ٥/ ٥٠٦).

وقال الألباني في تخريج «**فقه السيرة**»: «فالحديث بهذه الطرق لاينزل عن درجة الحسن»، **وحسنه الأرنؤوط** في «زاد المعاد» (٣/ ٧٥). (راجع «السيرة النبوية الصحيحة» للعمري: ٢١٢-٢١٥)، و«التعليق على الرحيق» للملّاح (١١٢-١١٣). (صلاح)]

ثلاث عشرة سنة للنبوّة في مكة(١)

مكانة السابقين الأولين من المهاجرين:

استعرضنا باختصار، أحوال السنوات الثلاث عشرة، التي أمضاها النبي ﷺ بمكّة، والجدير بالذكر أن عدد المسلمين وإن لم يتجاوز في هذه الفترة عدّة مئات، ولكن كان من النجاح الباهر فيها أيضًا، أن وجد في هؤلاء المؤمنين من العظماء:

(١) **عليّ وأبو بكر وعثمان وعمر** رضي الله عنهم، الذين عرفوا بفضلهم العلمي، وقوتهم العمليّة، ويقظة الضمير، وسمو الكفاءة، وعدّوا بها قادة العالم وهداته أجمع.

(٢) **ومصعب بن عمير، وجعفر بن أبي طالب**، وأبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم، الذين امتازوا بالكفاءة العالية، بحيث أسلم على أيديهم أهل الحبشة، ويثرب، ونجران بدعوتهم.

(٣) **وعبد الله بن مسعود**، وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما، ممن عرفوا برواياتهم العلمية، التي تحتوي على مئات اللطائف العلمية.

(٤) **والزبير، وطلحة**، وعمار بن ياسر رضي الله عنهم، ممن لم يعرف التأريخ نظراءهم في الفداء وحبّ الحق.

(٥) **وبلال، وسميّة، وياسر**، وكعب رضي الله عنهم، ممن أنهكوا الظالمين الفراعنة بثباتهم واستقامتهم على الحق.

(٦) والسكران، وشماس، وأم حبيبة، وخنيس رضي الله عنهم، الذين آثروا الإقامة في الحبشة، تاركين مسقط رأسهم، ولم يبالوا بالأهل وذوي القربى والوطن في سبيل الدين.

(٧) **ولبيد، وسويد بن الصامت** الملقب بالكامل، وأنيس: شقيق أبي ذر رضي الله عنهم، من فصحاء العرب، الذين كانوا يتملكون قلوب القبائل بقصيدة واحدة أو خطاب

---

(١) **عن ابن عباس** رضي الله عنهما، **قال**: «بعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة، فمكث بمكّة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، ثم أُمر بالهجرة، فهاجر عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستين». (البخاري: ٣٩٠٢). (صلاح)

واحد، ولم يكونوا يعترفون لأحد في الدنيا في مقابلهم بمعرفة الحقائق، وفهم المعاني، والاطلاع على سرائر الطبائع الإنسانية.

وفي هذه الأيام كان الإسلام قد انتشر خارج مكّة أيضًا، وفيما يلي بعض الأمثلة:

١- أسلم الطفيل بن عمرو الدوسيّ في مكة، وكان حاكما على منطقته باليمن، وبإسلامه انتشر الإسلام في بلده.

٢- أسلم أبو ذر، وأخوه أنيس، وأمّهما، ونصف قبيلة غفار.

٣- وأسلم عشرون شخصا من نصارى نجران.

٤- وأسلم ضماد الأزدي.

٥- وقبيلة بني عبد الأشهل.

٦- وأسلم تميم ونعيم وعديد من سكّان الشام.

٧- وكثير من أهل الحبشة، وهكذا غيرهم.

إسلام بريدة مع سبعين نفرًا من قومه:

ولما كان رسول الله ﷺ متوجّها إلى يثرب، لقيه في الطريق بريدة بن الحصيب الأسلمي، وكان رئيس قومه، وكان قد خرج في طلب النبي ﷺ ابتغاء لجائزة قريش، وهي مائة إبل، ولما قابل النبيّ ﷺ، وتكلّم معه، أسلم، وأسلم معه زهاء سبعين من قومه، ثم خلع عمامته، فجعلها راية على رمحه، ترفرف ببيانها، وتبشر بقدوم ملك الأمن، وحامي السلام، وناشر العدل.(١)

يكسو الزبير النبيّ ﷺ وهو في طريقه إلى المدينة:

ولقي رسول الله ﷺ في الطريق، الزبير بن العوام في ركب من المسلمين، كانوا تجارًا

---

(١) راجع ترجمته في «الإصابة» (١/ ١٤٦، رقم ٦٣٢). وما يذكر من قصة لقائه مع النبي ﷺ في سفر هجرته إلى المدينة، فقال له: ممن أنت؟ قال: من أسلم، فقال لأبي بكر: سلمنا، فقال: «من بني من»، قال: «من بني سهم». قال: «خرج سهمك» فهو ضعيف جدًا. («السلسلة الضعيفة» للألباني، رقم ٥٤٥٠) (صلاح).

قافلين من الشام، فكسا الزبيرُ رسول الله ﷺ وأبا بكر ثيابًا بيضًا[(١)].

وصول النبي ﷺ إلى قباء:

وصل النبي ﷺ إلى قباء يوم الاثنين[(٢)]، الثامن من ربيع الأول[(٣)] عام ثلاثة عشر[(٤)] من النبوّة، والأولى من الهجرة (الموافق للثالث عشرين من سبتمبر ٦٢٢م) [والموافق ١٠ تشري سنة ٤٣٨٣ يهودية].

تصوير حيّ لانتظار أهل يثرب قدومه ﷺ الميمون:

وكان الناس في يثرب -كما ذكره ابن هشام عن الصحابة- قالوا: لما سمعنا بمخرج رسول الله ﷺ من مكّة، وتوكّفنا[(٥)] قدومه، كنا نخرج إذا صلّينا الصبح إلى ظاهر حرّتنا، ننتظر رسول الله ﷺ، فو الله ما نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال، فإذا لم نجد ظلّا، دخلنا بيوتنا، وذلك في أيام حارّة، حتى إذا كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ، جلسنا، كما كنا نجلس، حتى إذا لم يبق ظلّ دخلنا بيوتنا.

صرخة يهوديّ: يا بني قيلة! هذا جدّكم قد جاء:

وقدم رسول الله ﷺ حين دخلنا البيوت، فكان أوّل من رآه رجل من اليهود، وقد رأى ما كنّا نصنع، وأنا ننتظر قدوم رسول الله ﷺ علينا، فصرخ بأعلى صوته:

يا بني قيلة[(٦)]! هذا جدّكم[(٧)] قد جاء.

---

(١) البخاري (٤/ ٢٥٧ [رقم ٣٩٠٦، عن عروة بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ])

(٢) المصدر المذكور [رقم ٣٩٠٦]

(٣) سرور المحزون للشاه ولي الله المتوفى سنة ١١٧٤ هـ.

(٤) قال في «الرحيق المختوم» (ص ١٧٠ طبعة إحياء التراث) سنة ١٤، نقلًا عن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو خطأ. (صلاح)

(٥) توكّفنا: تعهدناه، وانتظرنا وصوله.

(٦) بني قيلة: هم الأوس والخزرج. وقيلة: اسم جدّتهم. (صلاح)

(٧) جدّكم: أي حظّكم. (صلاح)

فخرجنا إلى رسول الله ﷺ -وهو في ظل نخلة- ومعه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مثل سنّه، وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله ﷺ قبل ذلك، وركبه الناس وما يعرفونه من أبي بكر، حتى زال الظلّ عن رسول الله ﷺ، فقام أبو بكر فأظلّه بردائه، فعرفناه[1] عند ذلك[2].

بناء مسجد قباء[3]:

وقد مكث رسول الله ﷺ في قباء إلى يوم الخميس، وأوّل عمل أنجزه أثناء إقامته فيها في هذه الأيام الثلاثة[4] أن بنى مسجدًا لعبادة الله تعالى وحده لا شريك له[5].

---

(١) أصل هذا البيان في «صحيح البخاري» (٣٩٠٦). (صلاح)

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ١٣٧)، وقد زاد في الهامش «كان قدم رسول الله ﷺ المدينة يوم الاثنين لاثني عشرة من ربيع الأول، كما قيل: إن خروجه من الغار كان يوم الاثنين أول يوم من ربيع الأول.» وسيأتي ترجيح المؤلف قريبا. (المترجم) [سيرة ابن هشام (٢/ ١٣٩)، وتأريخ الطبري (٢/ ٢٤٩)]

(٣) والذي نلاحظه أن رسول الله، ما أن نزل قباء حتى بنى بها مسجدًا، ولما قدم المدينة كان أول عمل قام به هو بناء المسجد، فلماذا هذا الإصرار من رسول الله على بناء المسجد أينما حلّ؟ ألّا إن المسجد هو المكان الذي ترفع فيه الأيدي إلى السماء، تستمطر الرحمات، أم لأنه المكان الذي تربّى فيه النفوس على تقوى الله وطاعته، أم لأنه المكان الذي يلتقي فيه المسلمون فيتعارفون ويتآلفون، أم لأنه المدرسة، أم لأنه مقرّ القيادة، أم لأنه المكان الذي ينطلق منه المجتمع الجديد، وترسم فيه معالم الحضارة الجديدة.

الحقيقة إنه لهذا كله كان الرسول ﷺ مصرًا على بناء المسجد أينما حلّ، ولهذا أيضًا شارك فيه الرسول بنفسه، ومشاركه فيه مشاركة فعالة في بناء المجتمع الجديد، الذي يعمل رسول الله جاهدًا على إقامته. (قراءة جديدة: ١٣٩-١٤٠) (صلاح)

(٤) [غير يوم الدخول أو الخروج] تفسير أبي السعود (٨/ ١٥٢)، وقد ورد [عن عروة بن الزبير عن أبيه] في صحيح البخاري [رقم ٣٩٠٦] «بضع عشرة ليلة». [ورجّح المؤلف ههنا نظرًا إلى التاريخ والأيام، ما رواه ابن اسحاق كما في سيرة ابن هشام (١/ ٤٩٤) (الرحيق: ١٧٢، مع التعليق). (صلاح)]

(٥) لقد نزل فيه قوله تعالى: ﴿... لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ ...﴾ [التوبة: ١٠٨]. (صلاح)

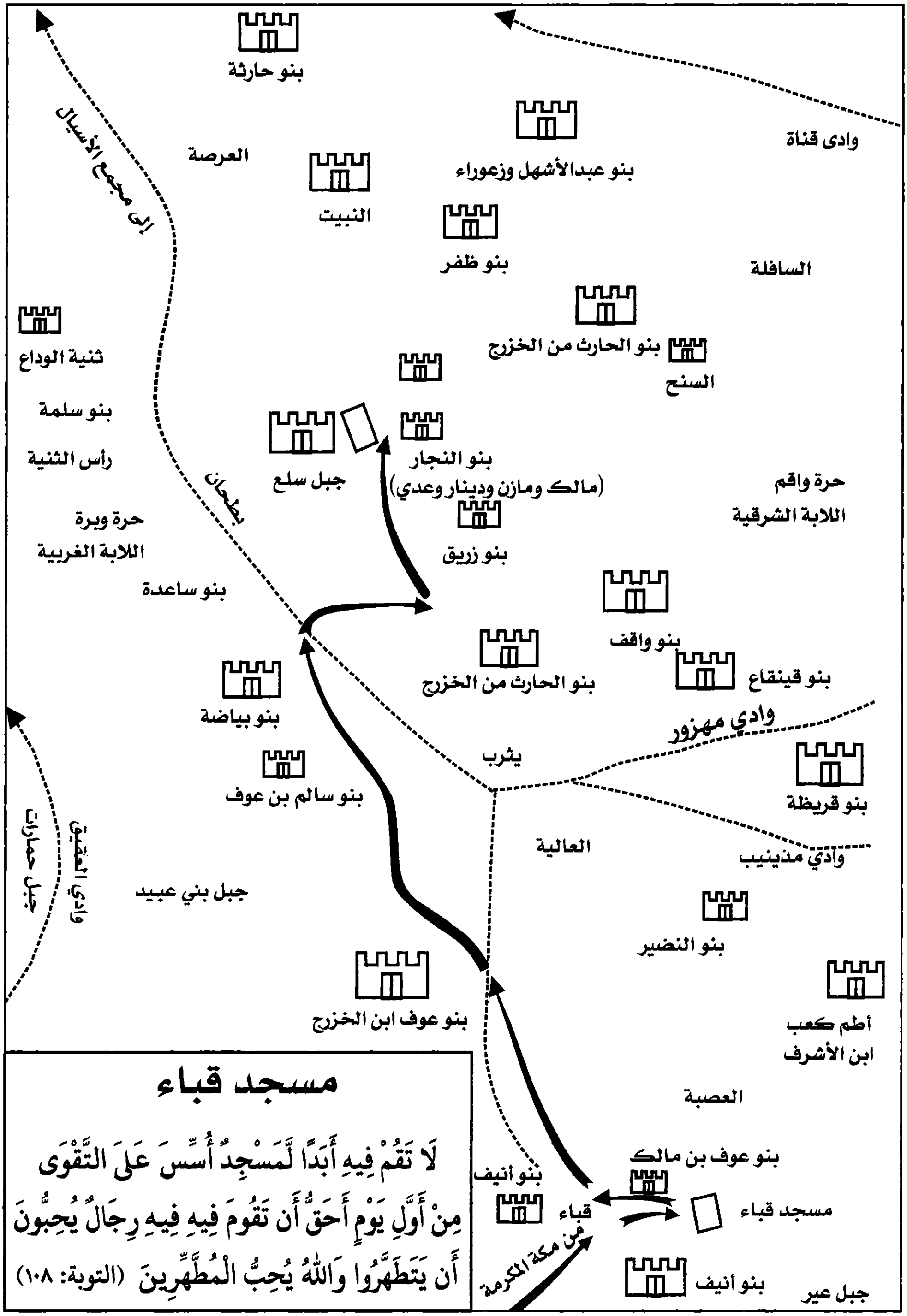
بنو حارثة
بنو عبدالأشهل وزعوراء
وادى قناة
إلى مجمع الأسيال
العرصة
النبيت
بنو ظفر
السافلة
ثنية الوداع
بنو الحارث من الخزرج
السنح
بنو سلمة
رأس الثنية
جبل سلع
بنو النجار
(مالك ومازن ودينار وعدي)
حرة واقم
اللابة الشرقية
بطحان
حرة وبرة
اللابة الغربية
بنو زريق
بنو ساعدة
بنو واقف
بنو الحارث من الخزرج
بنو قينقاع
وادي مهزور
بنو بياضة
يثرب
بنو قريظة
بنو سالم بن عوف
العالية
وادي مذينيب
وادي العقيق
جبل حمارات
جبل بني عبيد
بنو النضير
بنو عوف ابن الخزرج
أطم كعب
ابن الأشرف
العصبة
مسجد قباء
لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى
مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ
أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (التوبة: ١٠٨)
بنو عوف بن مالك
بنو أنيف
قباء
مسجد قباء
من مكة المكرمة
بنو أنيف
جبل عير

وصول عليّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى النبي ﷺ:

وأقام علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بمكة ثلاث ليال وأيامها، فأدّى عن رسول الله ﷺ الودائع، التي كانت عنده للناس، حتى إذا فرغ منها، لحق برسول الله ﷺ في هذا المكان، فنزل معه على كلثوم بن هدم[1].

خطبة رسول الله ﷺ في أوّل جمعة جمّعها بالمدينة:

وفي الثاني عشر[2] من ربيع الأول يوم الجمعة، ركب النبي ﷺ من قباء، فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف، فصلّاها في المسجد، الذي في بطن الوادي، مع مائة شخص، فكانت أوّل جمعة، صلّاها بالمدينة.

قال ﷺ في هذه الخطبة[3]:

الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأستغفره وأستهديه، وأؤمن به ولا أكفره، وأعادي من يكفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالهدى والنور والموعظة، على فترة من الرسل، وقلّة من العلم، وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان، ودنوّ من الساعة، وقرب من الأجل، من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى وفرط، وضل ضلالا بعيدا.

وأوصيكم بتقوى الله، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم، أن يحضّه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله، فاحذروا ما حذّركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة،

---

(١) كلثوم: أخو بني عمرو بن عوف. (صلاح)

(٢) الموافق للسابع والعشرين من سبتمبر ٦٢٢م، وفي «زاد المعاد»: إن الثاني عشر هو يوم الاثنين، وهو خطأ.

(٣) قال الإمام أبوجعفر بن جرير الطبري (-٣١٠هـ) حدثني يونس بن عبد الأعلى، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: حدثني سعيد بن عبد الرحمن الجمحي، أنه بلغه عن خطبة رسول الله ﷺ في أوّل جمعة، صلّاها بالمدينة في بني سالم بن عوف: «الحمد لله ...» وهو مرسل، يأتي تخريجه في آخر الحديث. (صلاح)

ولا أفضل من ذلك ذكرا، وإن تقوى الله لمن عمل به على وجل ومخافة من ربه: عون صدق على ما تبغون من أمر الآخرة.

ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمره في السرّ والعلانية، لا ينوي بذلك إلا وجه الله، يكن له ذكرا في عاجل أمره، وذخرا فيما بعد الموت، حين يفتقر المرء إلى ما قدّم. وما كان من سوى ذلك يودّ لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا، ويحذركم الله نفسه، والله رءوف بالعباد.

والذي صدق قوله، وأنجز وعده، لا خلف لذلك، فإنه يقول عز وجل:

﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ٢٩﴾ [ق: ٢٩]

فاتّقوا الله في عاجل أمركم وآجله في السر والعلانية، فإنه من يتق الله يكفّر عنه سيّئاته، ويعظم له أجرا، ومن يتق الله فقد فاز فوزا عظيما، وإن تقوى الله يوقي مقته، ويوقي عقوبته، ويوقي سخطه، وإن تقوى الله يبيض الوجوه، ويرضي الربّ، ويرفع الدرجة.

خذوا بحظّكم، ولا تُفرطوا في جنب الله، قد علّمكم الله كتابه، ونهج لكم سبيله، ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه، وجاهدوا في الله حقّ جهاده، هو اجتباكم وسمّاكم المسلمين، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة، ولا قوّة إلا بالله.

فأكثروا ذكر الله، واعملوا لما بعد اليوم، فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس، ذلك بأن الله يقضي على الناس، ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه، الله أكبر، ولا قوة إلا بالله العظيم(١).

---

(١) تأرخ الطبري (٢/ ٣٥٥).

[هذا إسناد مرسل صحيح إلى مرسله، قال ابن كثير: هكذا ورد في رواية ابن جرير، وفي السند إرسال. (البداية والنهاية: ٢/ ٢١١)، وقد أخرجه البيهقي في الدلائل (٣/ ٥٢٤) عن سلمة بن عبد الرحمن بن عوف. قال فيه ابن كثير: هذه الطريق أيضًا مرسلة إلا أنها مقوية لما مثلها، وإن اختلفت الألفاظ. (البداية والنهاية: ٣/ ٢١٢) راجع «صحيح تأريخ الطبري»: ٢/ ٧٢، دار ابن كثير).

وقال شيخنا الأعظمي في «سيرة المصطفى» (١/ ٢٣٨-٢٣٩): «في ألفاظها -أي الطبري والبيهقي- بعض الاختلاف، كما أن الطريقين مرسلتان، يقوي بعضها بعضًا.» (صلاح)]

استقبال حافل للنبي ﷺ عند دخوله المدينة:

وبعد صلاة الجمعة، دخل النبي ﷺ في يثرب من جنوبها، ومنذ ذلك اليوم سميت يثرب «مدينة النبي» ويطلق عليها «المدينة» اختصارًا.

وكان لدخوله ﷺ شأن رفيع[١]. فكانت السكك والأحياء ترتجّ بصوت التحميد والتسبيح، كانت الرجال والنساء شبابا وشيبانا، يرنون بعيونهم إلى نور الله، وقد فهم أهل الكتاب حين رأوا شأن مقدم رسول الله ﷺ أن ذلك معنى ما ورد في كتاب النبيّ حبقوق:

«الله جاء من تيمان والقدوس، من جبل فاران[٢]، جلاله غطّى السموات، والأرض امتلأت من تسبيحه».

---

(١) «ولما عزم رسول الله ﷺ أن يدخل المدينة أرسل إلى زعماء بني النجار فجاءوا متقلدين سيوفهم.» (البخاري مع الفتح ٧/ ٢٦٥)

وقد سجلت رواية أن عدد الذين استقبلوه خمس مائة من الأنصار.(فتح الباري ٧/ ٢٥١)، فأحاطوا بالرسول وبأبي بكر، وهما راكبان، ومضى المركب داخل المدينة، «وقيل في المدينة: جاء نبي الله جاء نبي الله ﷺ.» (البخاري مع الفتح: ٧/ ٢٥٠). وقد صعد الرجال والنساء فوق البيوت، وتفرّق الغلمان في الطرق ينادون :يا محمد يا رسول الله، يا محمد يا رسول الله. (مسلم ٤/ ٢٣٠٩-٢٣١١، رقم ٢٠٠٩)

قال الصحابي البراء بن عازب -وهو شاهد عيان: «ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ». (البخاري مع الفتح ٧/ ٢٦٠) («السيرة النبيوية الصحيحة» للعمري: ١/ ٢١٨-٢١٩)

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: فما رأيت يومًا قط أنور ولا أحسن من يوم دخل رسول الله ﷺ وأبو بكر المدينة، وشهدت وفاته فما رأيت يومًا قط أظلم ولا أقبح من اليوم الذي توفي رسول الله ﷺ فيه».

(أحمد: ٣/ ١٢٢، والدارمي في المقدمة: ١/ ٤١، وإسناده صحيح. (راجع «صحيح السيرة النبوية» للعلي ص١٣٣). (صلاح)

(٢) أطلق في جميع كتاب الإنجيل على مكة اسم «فاران». فإن فاران بن عوف بن حمير، كان قد سيطر على هذا المكان، وجاء في سفر التكوين (٢١/ ٢١): أن إسماعيل سكن في برية «فاران»، وقد ثبت بالقرآن أن إبراهيم وإسماعيل قد بنيا في هذه البرية مسجدا، يعرف الآن بالكعبة، فالتوراة والقرآن يصدق بعضهما بعضا، في أن اسم «مكة» فاران. وقد ورد ذكر «فاران» في التوراة، في العدد (١٠/ ١٢)، والتثنية (٣٣/ ٣) وبهذه المصادر كلها تثبت صراحة، أن «فاران» اسم لمكّة.

وكانت بنات الأنصار يغنين بالأبيات التالية[١]:

طلع[٢] البدر علينا من ثنيات[٣] الوداع

---

(١) **ورد في كتاب أشعيا** (٤٢/ ١١-١٢): «لتترنم سكان «سالع». واسم المدينة في كتب الأنبياء السابقين «سلع». وثبت بقول المؤرّخ الطبري، أن المكان الذي حفر فيه المسلمون الخندق في غزوة الأحزاب، فيه جبل، يعرف عند أهل المدينة باسم «سلع». [أما في «قاموس الكتاب المقدّس» (٤٤٥-٤٤٦) ففيه: «سكّان الصخرة»، وهي المقصودة بـ«سالع» أو «سلع»].

[**نقل أستاذنا الشيخ صفي الرحمن في** «الرحيق المختوم» (١٧٢) ترجيح المؤلف لهذه الأبيات بأنها كانت عند مقدم النبيّ المدينة، وذكره البيهقي وابن الجوزي وابن كثير كما في «التعليق على الرحيق» للملّاح: ص١١٧]، وقال المباركفوري:

«**ذكر ابن القيم أن إنشاد هذه الأشعار كان عند مرجعه ﷺ من تبوك، ووهّم من يقول: إنما كان ذلك عند مقدمه المدينة.** (زاد المعاد: ٣/ ١٠).

ولكن ابن القيّم، لم يأتِ على هذا التوهيم بدليل يشفي، وقد رجّح العلامة المنصور فوري [أي مؤلّفنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ] أن ذلك كان عند مقدمه المدينة، ومعه دلائل، لا يمكن ردّها انظر «رحمة للعالمين»(١/ ١٠٦) (الرحيق المختوم: ١٧٢)

وليس الأمر كذلك، بل قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهو وهم ظاهر، لأن «ثنيات الوداع» إنما هي ناحية الشام، لايراها القادم من مكة إلى المدينة، ولا يمرّ بها إلا إذا توجّه إلى الشام.»

ومع هذا، فلا يزال الناس يرون خلاف هذا التحقيق، على أن القصة برمتها غير ثابتة. [كما ستأتي] («التعليق على الرحيق» للملّاح: ١١٧. (صلاح)]

(٢) في الأصل: أشرق والصحيح ما أثبتناه. (صلاح)

(٣) **الثنيات**: جمع ثنية، وهي طريق العقبة، وقد مرّ النبي ﷺ في سفر الهجرة بثنية البول، وثنية الغائر، وثنية مروان. و «ثنية الوداع»: تلّ قرب المدينة، وكان أهل المدينة يأتون إليها لتوديع الأحبّة، فسمّيت بهذا الاسم.

وقد ورد ذكر هذه الثنيات في سفر أشعياء (٤٢/ ١١-١٢) «لتترنم سكان سلع من رؤوس الجبال ليهتفوا.» [راجع طريق هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة في «سيرة ابن هشام» (١/ ٤٩١-٤٩٢)، ومن طريقه الحاكم (٣/ ٨)، وقال: صحيح على شرط مسلم، وصححه الحافظ في الفتح (٧/ ٢٣٨)، والأعظمي في «سيرة المصطفى» (١/ ٢٣٤-٢٣٥، رقم ١٨٩).

ويظهر من خارطة الطريق أن عبد الله بن أريقط سلك طريقًا بمشورة النبي ﷺ، غير الطريق الذي يسلكه الناس عادة، حتى يكون الطريق آمنًا. (صلاح)]

وجـــب الشـــكر علينـــا مـــــا دعــــا لله داع
أيّهـــا المبعـــوث فينـــا جئـــت بـــالأمر[١] المطـــاع

واللاتي يغنين بهذه الأبيات، هنّ اللواتي ذهبن إلى مكة في عام١١، ١٢، ١٣ من النبوّة، وبايعن النبي ﷺ، أو هنّ اللواتي أسلمن في المدينة بدعوة مصعب بن عمير أو ابن مكتوم رضي الله عنهما.[٢]

ولم يكن الأنصار[٣] الكرام على حظّ وافر من المال والثروة، وما كانوا إقطاعيين، ولكنّهم كانوا يتمتّعون بغنى القلب، وبالحرص على الإسلام، والتضحية في سبيله، عونًا لإخوانهم المسلمين، بحيث أن المهاجر حينما كان يلتجئ إلى المدينة بعد النجاة من السيوف المسلولة[٤]، والقوس المشدودة في مكة، كان يرغب كل أنصاريّ في أن يقيم هو

---

(١) **قال الدكتور أكرم ضياء العمري**: «أما تلك الروايات التي تفيد استقباله بنشيد (طلع البدر علينا من ثنيات الوداع) فلم ترد بها رواية صحيحة». (كما في الفتح: ٧/ ٢٦١. وزاد المعاد لابن القيم: ٣/ ٥٥١، وشرح المواهب اللدنية للزرقاني: ١/ ٣٥٩، راجع «السيرة النبوية الصحيحة» للعمري (١/ ٢١٩ مع التعليق).

أما مؤلّفنا رحمه الله فذهب إلى ترجيح ورود هذه الأبيات عند مقدم النبي ﷺ المدينة،استيناسًا بما ورد في «التوراة» و«الإنجيل» من النصوص. (صلاح)

(٢) وهما قدما المدينة قبل هجرة النبي ﷺ، لدعوة أهلها إلى الإسلام، ولتمهيد الظروف لهجرة النبيﷺ إليها أيضًا. (صلاح).

(٣) **معنى الأنصار من يقوم بالنصر**، وقد لقّب أهل المدينة بهذا اللقب في الإسلام، والمهاجر معناه من ترك بلده ووطنه، وقد لقّب بذلك أهل مكة في الإسلام، الذين هاجروا مع النبيﷺ إلى المدينة.

(٤) ورد ذكر الهجرة في كتاب أشعيا (٢١)، وننقل هنا بعض دروسه، ثم نشرح بعض كلماته، يقول:

١٣ – وحي من جهة بلاد العرب، في الوعر في بلاد العرب تبيتين يا قوافل الدوانيين.

١٤ – هاتوا ماء لملاقاة العطشان يا سكّان أرض تيماء وافوا الهارب بخبزه.

١٥ – فإنهم من أمام السيوف قد هربوا، من أمام السيف السلول ومن أمام القوس المشدودة ومن أمام شدة الحرب.

١٦ – فإنه هكذا قال لي السيد في مدة سنة كسنة الأجير يفنى كل مجد قيدار له.

١٧ – وبقية عدد قسي أبطال بني قيدار تقل لأن الرب إله إسرائيل قد تكلّم.

=

عنده، حتى إنهم كانوا يستهمون على ذلك، فمن خرج سهمه، ذهب بأخيه المهاجر معه، وإنه كان يتقاسم معه في اليوم نفسه، كل ما يملكه من البيت والأرض والمال والضيعة والماشية، وبعد إعطائه إياه نصف ممتلكاته، كان يستعدّ أيضًا لخدمة المهاجر في كل حين، ويشكر الله تعالى على أنه جعل أخاه في الدين قسيمًا له فيما يملك[1].

=

فالآية الخامسة عشرة من هذه الآيات تتضمن ذكر المهاجرين الذين هربوا بأنفسهم وإيمانهم خوفا من قريش إلى المدينة.

والآية (١٣) و(١٤) تأمران الدوانيين باستقبالهم، ويضيفوهم بالخبز والماء. وليعلم أن «دوان» اسم حفيد إبراهيم وولد ينسان وأخي سبا. وذرية دوان سكنت في اليمن، ثم تفرقت هذه البطون بسيل العرم، فبطون الأوس والخزرج، التي تسمّى الأنصار تعدّ منهم، وقد صرّح بذلك المؤرخ ابن خلدون.

وهذه الآية تذكر أن الهجرة تقع بسبب سيوف قريش وقسيهم، وكذلك أن أنصارهم من ذرية دوان. و«تيما» اسم ولد إسماعيل الثامن، وذريته سكنت في عقب المدينة.

وبعد أمر أهل المدينة وحواليها بالنصر والتأييد، تبين الآيتان (١٦، ١٧) مصير الظالمين، أي قريش، وقالتا عن قريش أنهم أهل قيدار، وذلك أن قيدار اسم ولد إسماعيل الثاني، ومنه قريش. وقد ذكر أن عدد أبطال قيدار، يقلّ بعد حادث الهجرة، وتقل عظمتهم، فقد وقعت غزوة بدر بعد الهجرة بعام، وقتل فيها رءوساء قريش، ونقصت هيبتهم وجاههم، وقلت عزتهم ومنعتهم. فهذه الآيات تنبئ عن ذلك بذكر الأسماء بوضوح تامّ.

(١) راجع الأحاديث الواردة في المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار في «سيرة المصطفى الصحيحة» (١/ ٢٤٧-٢٥٣، رقم: ٢٠٣-٢١٦)، وسيأتي عن هذه المؤاخاة التي أذابت عصبيات الجاهلية، وأسقطت فوارق النسب واللون والوطن، مفصلًا في هذا الكتاب إن شاء الله.

هذا، وبعد ما قدم النبي ﷺ المدينة بنى مسجده فيها. (راجع عن شراء أرضه، وبنائه «البخاري» (٣٩٣٢)، ومسلم (٥٢٣) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **ويأتي ذكر بناء «المسجد النبوي» في «الباب الرابع» من هذا الجزء ضمن «أهم الأحداث في العهد المدني.» إن شاء الله.** (صلاح)

مقارنة بين أحوال مكة والمدينة

كانت السيادة في مكة لقبيلة واحدة، وهي قريش وكان أغلبها على الوثنية[١].

ولكنّ المدينة كانت ملتقى لعدة قبائل وديانات، فقد وجدت فيها الوثنية، واليهودية، والنصرانية مع قلّتها.

فمن قبائل اليهود القويّة: بنو النضير، وبنو قينقاع، وبنو قريظة[٢]، وكانت تسكن في حصون منفصلة خاصة بها، وعرفت بوفرة المال، لعملهم بالتجارة والتعامل بالربا[٣].

---

(١) **عاشت مكّة في بحبوحة من الحياة أمدًا طويلًا، وذلك لعاملين:**

١- مهارة أهلها التجارية.

٢- ومكانة الحرم الدينية.

ولما جاء الإسلام، ملكها العناد من أوّل يوم، خوفًا من أن مركزها الوثني سيزول، إن هي استمعت إلى هذا الدين الجديد: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾ [القصص: ٥٧]

من هنا اشتبك سادة مكة في حرب مع الإسلام، واعتبروها دفاعا عن كيانهم المادّي، ووضعهم الاقتصادي، إلى جانب ما هنالك من عوامل أخرى.

أما الأمر في «يثرب»، فكان على النقيض، إنّ الشحناء المتأصّلة بين أهاليها استنزفت دماءهم، حتى أوصلتهم الحروب الدائمة إلى درك، أسف له العقلاء، وتمنّوا الإنقاذ منه. وكان «الأوس» و«الخزرج» -وهم في الأصل قرابة واحدة- يعانون في «يثرب» آصار هذا الخصام العنيف، ويورثونه أبناءهم؛ حتى يشبوا -وهم في مهادهم- أعداء! والذي وضع جرثومة هذا الشقاق هم اليهود. («فقه السيرة» للغزالي: ١٤٣-١٤٤) (صلاح)

(٢) قد ارتاد يهود بني النضير وبني قريظة منطقة يثرب، واستقروا فيها لخصبها، وأهمية موقعها التجاري، على طرق القوافل إلى الشام. («السيرة النبوية الصحيحة» للعمري: ١/ ٢٢٨) (صلاح)

(٣) **وبالطبع كان على رأس الأعمال الاقتصادية:** التعامل بالربا الذي يتقنه اليهود في كل مكان. وإن كان الربا معروفًا في مجتمع مكة التجاري أيضًا. («السيرة النبوية الصحيحة» للعمري: ١/ ٢٢٩) (صلاح)

يهود المدينة في انتظار النبيّ الموعود:

ومنذ أن بشّر[1] نبيّ الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ اليهود في وعظه، بأن الله تعالى يخلق من إخوة موسى نبيًّا مثل موسى، كانت اليهود تطمع في أن هذا النبي يكون منهم، وأقاموا

---

(١) في كتاب التثنية (الأصحاح ١٨/ ١٥): يقيم لك الرّب إلهك نبيًا من وسطك من إخوتك مثلي. وفي نفس الإصحاح توضيح أكثر: «أقيم لهم نبيًّا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلّمهم بكلّ ما أوصيه به. ويكون أن الإنسان الذي لايسمع لكلامي الذي يتكلّم به باسمي أنا أطالبه».

وتمسكا بهذه الآيات، يستدل المسلمون على ما يأتي:

- بنو إسماعيل إخوة بني إسرائيل. راجع كتاب التكوين (الإصحاح ٢٥/ ١٦)
- لم يكن في بني إسرائيل نبيّ مثل موسى. (كتاب التثنية)

وهذا التنبؤ ظاهر بالنظر إلى النبي ﷺ، فقد ورد في وصفه ﷺ، أن الله تعالى يجعل كلامه في فمه، وهذا الوصف خاص بالنبي ﷺ، فليس هناك كتاب (حتى التوراة والإنجيل)، حفظت فيه كلمات كلام الله، ووصل وحيه لفظا ومعنى. وقد اعترفت اليهود والنصارى بأنه ليس هناك عبارة من التوراة حفظت بألفاظ الله تعالى سوى الأحكام العشرة. وفي صحف الأنبياء، غير موسى، وخاصة في الإنجيل، لم تحفظ ألفاظ الله تعالى التي نزلت من السماء.

وهناك مماثلة قويّة بارزة بين نبينا وبين موسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في شؤون كثيرة، مثل كونهما صاحبي الهجرة، وصاحبي الجهاد، وكلاهما قد أوحي إليه في بداية الحادية والأربعين من عمره.

وهذه الأمور لم توجد مجتمعة بعد موسى في نبيّ من أنبياء بني إسرائيل، وهي توجد في نبيناﷺ، ولكن ينبغي أن نتدبر هنا في المماثلة التي بينها كتاب التثنية بنفسه، والقرآن الكريم يصدّقه فيقول:

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣ – ٤]

وانظروا جميع كتب العهد القديم والجديد، فإن أحدا منها لم يحل على هذه الصفة، ولم يستدلّ بها سوى القرآن الكريم، ولا شكّ أن هذه الصفة مختصة بالنبي ﷺ كل الاختصاص.

وليعلم أن كلمة: «من وسطك» في كتاب التثنية (الأصحاح ١٨/ ١٥) منتحلة.

وقد قامت على ذلك ثلاثة أدلة واضحة:

فأولا: لا توجد هذه الكلمة في التوراة اليونانية.

وثانيا: أن نفس الإصحاح (١٨/ ١٩) أعاد هذا التنبؤ بكامله ولم توجد فيه هذه الكلمة.

وثالثا: أن بولس المقدّس قد ذكر نفس الآية في رسالته، ولكنه لم ترد فيها كلمة «من وسطك».

في المدينة على أمل أن نبيّ بني إسماعيل يزيل الذلّ القومي لليهود، ويعيد لهم مجدهم، وبأسهم، وحكمهم، وعزّتهم، ومنذ أن طردت اليهود من الشام[١]، وضربت عليهم والعبودية، كانت تنتظر هذا النبي الموعود.

والآن فرحت اليهود كثيرا، إذ سمعوا مقدم نبيّ إسماعيليّ، ولكنهم حينما رأوا أنه يصدّق المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويوافق على تعاليمه، ويجعل الإيمان بالمسيح جزءًا لا ينفكّ عن الإيمان بالإسلام، ويخطّئ اليهود بحقّ وإنصاف بتمجيده إياه[٢]، عندئذ صاروا كلّهم أعداء[٣] لنبينا ﷺ[٤].

---

(١) «تختلف النظريات حول أصل يهود المدينة المنورة -والحجاز عامة- والمكان الذي هاجروا منه، والزمان الذي قدموا فيه، ولكن أقواها يميل إلى أن بداية نزوحهم من الشام في القرنين: الأول والثاني بعد الميلاد بعد أن نجح الرومان في السيطرة على سورية ومصر في القرن الأول. ق. م، وعلى اليهود ودولة الأنباط في القرن الثاني بعد الميلاد، مما أدى باليهود إلى الهجرة إلى شبه جزيرة العرب، التي كانت بعيدة عن سيطرة الرومان الذين أفزعوهم.

غير أن هجرة اليهود إلى الحجاز، اشتدّت بعد فشل التمرّد اليهودي ضد الرومان، الذي أخمده -الأمبراطور تيتوس في- عام ٧٠م، وقد وصل بعض هؤلاء اليهود المهاجرين إلى يثرب، كما وصلت مجموعة أخرى من اليهود إلى يثرب بعد فشل ثورة أخرى، قاموا بها في زمن الإمبراطور هادريان بين عامي ١٣٢ - ١٣٥ م.

وشكّل هؤلاء اليهود الجالية اليهودية في المدينة والحجاز.» («السيرة النبوية الصحيحة» للعمري: ١/ ٢٢٧-٢٨، نقلا عن «المفصل في تأريخ العرب قبل الإسلام»: ٦/ ٥١٣ -٥١٤). (صلاح)

(٢) «ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطيّة وعلى برّ وعلى دينونة(٨).

«ذاك يمجدني فهو يرشدكم إلى جميع الحق».

أما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق... ذلك يمجدني... لأنه يأخذ مما لي ويخبركم [١٢/ ١٤]. (إنجيل يوحنّا، الإصحاح السادس عشر ص ١٧٨)

(٣) وما روي عن أم المؤمنين صفية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا من أن أباها وعمها أبا ياسر بن أخطب لما تأكدا أن محمدا ﷺ هو النبي المبعوث، وقال عمها لأبيها:

أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم، فما في نفسك منه؟

قال: عداوته -والله- ما بقيت. هو ضعيف منقطع، ذكره ابن هشام في السيرة (١/ ٥١٨-٥١٩)، راجع «التعليق على الرحيق» للملّاح (١٢٢). (صلاح)

(٤) إن اليهود الذين استقرّوا في المدينة وأرباضها هبطوا صحراء الجزيرة فارّين بدينهم من =

نصارى المدينة في انتظار النبيّ الموعود:

منذ أن بشّر عيسى المسيح في آخر موعظته بمجيء نبيّ آخر، يبقى مع الدنيا دائما، ويعلّم كلّ شيء، وأوصى أتباعه بأمره، كان النصارى أيضًا في انتظار ذلك النبيّ الذي يقتصّ لهم من اليهود، ويمنحهم الجلال، ويظهر صدق المسيح، ولكنّهم لما رأوا أن هذا النبيّ يردّ على النصارى في أمورهم المصطنعة[1]. مثل الابنيّة، والتثليث، والكفّارة،

= الاضطهاد الصليبي الذي عمل -من قديم- على تنصيرهم أو إفنائهم؛ ذلك لأنّ رأي اليهود في عيسى وأمه شنيع.

والنصارى يعتقدون أنّ اليهود هم قتلة عيسى، والموعزون بصلبه.!! («فقه السيرة»: ١٤٤) (صلاح)

(١) **كتب الدكتور** (دريبر) في كتابه المسمى «الدين والعلم» الذي ترجمه إلى الأردية المولوي ظفر علي خان (بي، إي) ما يأتي: «إن الدين النصراني كان يقوم بتلقين ثلاثة مبادئ في بدايته لمدة سنوات عديدة.

أولها: حق الله، أي يجب على الإنسان أن يعظّم، ويمجّد الله تبارك وتعالى.

وثانيها: حقّ الذات، أي يجب على الإنسان أن يكون خيرا بنفسه.

وثالثها: حقّ العباد، أي يجب عليه أن يحسن إلى أبناء جنسه.

وبعد ذلك يقول الدكتور: ينبغي أن نقرأ ما كتبه تريلتين (سنة ٢٠٠م)، حتى نطلع على التغييرات والتعديلات التي طرأت على النصرانية من جرّاء العناصر الخارجية، ولا تزال موجودة فيها.

وكان تريلتين كتب ذلك في روما في عهد قيصر: سيويرس الذي تعرض فيه النصارى لأنواع من الاضطهاد، ولم يرد ذكر التثليث في هذه الكتابة.

أما الكفارة فإنها تردّ عليها، وتقول: إن الله تعالى وضع الثواب والعقاب حسب الحسنة والسيئة، فإنه ينعم باللذة السرمدية على الصالحين، ويدخل في النار الأبدية الفاجرين.

ثم قال الدكتور: إن الوثنية دخلت النصرانية في عهد الملك قسطنطين، وتأسس المجلس الأول للأساقفة تحت رئاسته عام ٣٢٥م، ثم جرت العادة بانعقاد المجالس، وبدأ كل مجلس يدخل تغييرا وإصلاحا جديدين في الدين والعقيدة.

وعلى هذا يصحّ تعبيرنا لأمورهم بالأمور المصطنعة. وينبغي أن نتذكر أن الإصلاح الذي قام به النبي ﷺ لمسائل النصارى، قد قبلته فرق النصارى المختلفة تدريجًا و جزئيًّا، وجعلته جزاءا لديانتها، ومع ذلك لايشكرون إلى الآن محسنهم الصادق محمدا رسول الله ﷺ، فمثلا فرقة يونيترين لاتقول بكون المسيح ابن الله، وفرقة البروتستانت نشأت بعد الإسلام، وهي ترفض الرهبانية، والسلطة الإلهية للأسقف رفضا باتا.»

والرهبانيّة، وسلطة البابا، صاروا أيضًا من أعدائه ﷺ.

نبذة عن عبد الله بن أبيّ بن سلول رأس المنافقين:

وللإطلاع على أحوال المدينة، ينبغي أن نلقي نظرة خاطفة على حالة عبد الله بن أبيّ ابن سلول، فإنه كان، سوى اليهود، رجلًا بارزا، ذا تأثير بالغ في المدينة، كانت ترعبه الأوس والخزرج، وكان يرجو أنه ليصبح صاحب أكبر سلطة بالمدينة، بمساعدة هاتين القبيلتين القويتين، ولما رأى الأوس والخزرج، بدأتا تدخلان في الإسلام، تظاهر هو أيضًا بالإسلام، بعد غزوة بدر.

ولما رأى أن اليهود خالفوا النبي ﷺ، أراد أن يبقى ما كان له من أثر سابق في مجتمع اليهود، وكذلك تبقى القبائل المسلمة أيضًا تحت سيطرته.

ولتحقيق هذا الهدف اتخذ طريق التودّد إلى المسلمين إذا كان معهم، وكان يدّعي أمام غيرهم أنه معهم.

وبما أنه كان يرى الإسلام أنه خيّب آماله، فقد كان يتحيّن الفرص ضدّه، لا يبالي فيها في إيذاء المسلمين أيضًا. وقد سمّى المسلمون هذه الطائفة بـ«المنافقين».

وظروف المدينة هذه، توضّح لنا مدى الصعوبات والعراقيل، التي واجهت الدعوة إلى الإسلام، وحالت دون نشر رسالته. والإنسان الذي في جنبه قلب واع منصف، يستطيع أن يحكم على أن مقاومة هذه العراقيل والموانع، والتغلب عليها لمن أبرز الأدلّة على صدق الإسلام.

و إن النجاح الذي تحقّق للنبي ﷺ في نشر الإسلام في المدينة المنورة، بالنسبة إلى مكة المكرمة، قد تنبأ به القرآن سابقًا، حيث قال سبحانه وتعالى:

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤﴾ [الضحى: ٤].(١)

---

(١) بين الله عز وجل في سورة الضحى من بدايتها حال الرسول ﷺ الماضية والحاضرة أكمل حال وأتمّها. وأما حاله المستقبلة فقال: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤﴾ [الضحى: ٤]. أي: كلّ حال متأخّرة من أحوالك فإن لها الفضل على الحالة السابقة. (تفسير السعدي) (صلاح)

الباب الأول

معاهدة بين الأمم لاستتباب الأمن، ومؤامؤمرات قريش وهجماتهم، ونقض اليهود للعهد، ونجاح المسلمين في الانطلاق للتبشير والإنذار، وانتشار الإسلام، وقيام الأمن والسلام

الباب الأول

معاهدة بين الأمم لاستتباب الأمن، ومؤامرات قريش وهجماتهم، ونقض اليهود للعهد، ونجاح المسلمين في الانطلاق للتبشير والإنذار، وانتشار الإسلام، وقيام الأمن والسلام.

سبق أن ذكرنا أن المدينة كانت مسكنا لمختلف الأجناس. وكانت دياناتهم أيضًا مختلفة. ومختلف قبائل اليهود -بالأخصّ- كانت قوية جدًّا، وكانوا يسكنون في حصونهم المنفصلة الخاصّة.

المعاهدة بين أهل المدينة(١):

وحين وصل النبي ﷺ المدينة، رأى في السنة الأولى من الهجرة عقد معاهدة بين سائر الأقوام على أصول شمولية عالمية(٢)، لتقوم وحدة قوميّة، رغم اختلاف في الأجناس

---

(١) «إن هذه المعاهدة تدل على أن الإسلام لم يتّجه إلى رسم سياسة للإبعاد والمصادرة والخصام، بل قبل -عن طيب خاطر- وجود اليهود والوثنية، وعرض على الفريقين أن يعاهدهم معاهدة الند للند، على أن لهم دينهم وله دينه.» («فقه السيرة»: ١٣)
والمعاهدة أو الوثيقة وثيقتان، ثم جمع المؤرخون بينهما.
إحداهما: تتناول موادعة الرسول ﷺ لليهود قبل موقعة بدر الكبرى، وهي الآتية.
والثانية: توضّح التزامات المسلمين من المهاجرين والأنصار وحقوقهم وواجباتهم، وكانت بعد غزوة بدر. («السيرة النبوية الصحيحة» : ١/ ٢٧٦) (صلاح)

(٢) وكان ذلك لإيجاد الأمن والاستقرار في الداخل، ليتفرّغ النبي ﷺ ومن حوله من المسلمين لبناء دولة الإسلام، وكان في المدينة الأنصار الذين أكلتهم الخلافات التي استحكمت بين أوسهم وخزرجهم وكان فيها اليهود، وهم فئة غير مأمونة الجانب...وكان فيها المهاجرون الذين قدموا من مكة المكرمة فرارًا بدينهم إلى الله.

=

والأديان، ويتحقق التعاون والتكاتف في تبادل الحضارة والمدنية فيما بينهم.

بنود المعاهدة:

وفيما يلي أهم فقرات هذه المعاهدة(١).

١- هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم.

٢- إنهم أمة واحدة من دون الناس.

٣- وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين [لليهود دينهم وللمسلمين دينهم].

٤- وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.

٥- وإن بينهم النصح والنّصيحة والبرّ دون الإثم.

٦- وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٧- وإن بطانة يهود كأنفسهم.

٨- وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه.

٩- وإن النصر للمظلوم.

١٠- وإن يثرب حرام جرفها لأهل هذه الصحيفة.

١١- وإن الجار كالنفس غير مضارّ ولا آثم.

١٢- وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مردّه إلى الله عزّ وجل وإلى محمد رسول الله ﷺ(٢).

=

وقد استطاع عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلَامُ بهذه المعاهدة السياسية، ونظره الثاقب، وحسن تدبيره للأمور أن يضبط الأمور، ويحبك أطرافها حبكًا جعلها طوع يديه.» (قراءة جديدة: ١٤٣-١٤٤) (صلاح)

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ١٤٧) [رواه ابن اسحاق بدون إسناد، كما سيأتي في آخر فقرات المعاهدة].

(٢) روى هذه الوثيقة ابن إسحاق (٢/ ١٦-١٨) بدون إسناد، **قاله الألباني في تخريج** «فقه السيرة» للغزالي (ص ١٨٥).

وقال الدكتور أكرم ضياء العمري: «إن أقدم من أورد نصّ الوثيقة كاملًا، هو محمد بن إسحاق (ت١٥١هـ)، ولكنه أوردها دون إسناد. (السيرة النبوية لابن هشام: ١/ ٥٠١-٥٠٤).

=

إدخال قبائل ضواحي المدينة في المعاهدة:

ولما وقّع على هذه المعاهدة أقوام المدينة كلّها، أراد النبي ﷺ أن يوسّعها إلى القبائل المجاورة أيضًا، فتتحقق بذلك فائدتان:

(الأولى) أن تنقضي بها الحرب الأهلية، التي تدور بين القبائل دائما، وتلطّخ أرض الله تعالى بدماء عباده سبحانه.

(الثانية) أن قريش مكّة لا يتمكنون من تحريض «المعاهدين» ضد المسلمين.

رحلاته ﷺ لتفعيل هذه المعاهدة:

أ- وقد سافر النبي ﷺ لتحقيق هذا الهدف المبارك الآمن في أوّل عام من الهجرة إلى ودّان (وهي ما بين مكّة والمدينة)، فوادع بني ضمرة بن بكر بن عبد مناف، ووقّع على هذه الموادعة مخشي بن عمرو الضمري(١).

ب- وفي ربيع الأوّل عام ٢هـ، سار رسول الله ﷺ لأجل هذا الهدف حتى وصل إلى جبل بواط من ناحية رضوى، ووادع أهلها.

ج- ثم خرج رسول الله ﷺ في جمادى الآخرة من هذا العام، فبلغ ذا العشيرة وهي بناحية «ينبع»، فوادع بني مدلج وحلفائهم من بني ضمرة، ثم رجع إلى المدينة.

=

ثم ذكر ورودها في المصادر الأخرى فقال: «**وبذلك يتبين أن الحكم بوضع الوثيقة مجازفة، ولكن الوثيقة، لا ترقى بمجموعها إلى مرتبة الأحاديث الصحيحة**...، ولكن نصوصًا من الوثيقة وردت في كتب الأحاديث بأسانيد متصلة، وبعضها أوردها البخاري ومسلم...، وإذا كانت الوثيقة بمجموعها لا تصلح للاحتجاج بها في أحكام الشريعة، سوى ما ورد منها في كتب الحديث الصحيحة، **فإنها تصلح أساسًا للدراسة التأريخية، التي لا تتطلب درجة الصحة، التي تقتضيها الأحكام الشرعية، خاصة أن الوثيقة وردت من طرق عديدة تتضافر في إكسابها القوة**...، ثم إن أهم كتب السيرة ومصادر التأريخ ذكرت موادعة النبي ﷺ لليهود، وكتابته بينه وبينهم كتابًا، كما ذكرت كتابته كتابًا بين المهاجرين والأنصار أيضًا. (راجع للتفصيل «السيرة النبوية الصحيحة»: ١/ ٢٧٢-٢٩٨ باختصار). (صلاح)

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٤٨، ٢٤١)، زاد المعاد (٣/ ١٦٤-١٦٦).

ولو سنحت له فرصة كافية لتحقيق هذا الهدف الميمون، لرأى العالم أن رسول الرحمة لم يأت إلى الدنيا لاستخدام السيف، بل جاء رحمة للعالمين، بإقرار الأمن والسلام، ونشر الصلح بينهم[١].

(١) قال المسيح: «لا تظنّوا أني جئت لألقي سلاما على الأرض، ما جئت لألقي سلاما بل سيفًا.» (إنجيل متّى ١٠/ ٣٤).

[عجيب أمر من يتهمون الإسلام بأنه انتشر بالسيف، مع أنه دين آمن مؤمّن، وينسون أو يتناسون مثل هذا النصّ في الإنجيل، الذي يصرخ بوضع السيف في المخالفين بكل تأكيد. (صلاح)]

مؤامرات قريش ضدّ المسلمين(١) وما تمخّض عنها من حروب

١- مؤامرة قريش الأولى

كان عداء قريش مكة للنبي ﷺ والمؤمنين شديدا، بحيث أنهم حين هاجروا إلى المدينة على بعد نحو ثلاث مئة ميل، أيضًا لم يقرّ لقريش قرار. وقد سبق أنهم حاولوا أيضًا استرداد المهاجرين إلى الحبشة، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك، لعدل حاكمها، وكان البحر بينهم وبينها، فلم يستطيعوا القيام بأي إجراء آخر أكثر من هذا، ولكن المسلمين حينما هاجروا إلى يثرب عقدوا العزم على مهاجمة المدينة، وحينئذ كتبت قريش مكة إلى عبد الله ابن أبيّ وحلفائه ممن كانوا على عبادة الأوثان من الأوس والخزرج حتى الآن، ما يلي:

---

(١) بعد ما تمّ الإصلاح الداخلي بالمعاهدة، ولمس النبي ﷺ الاستقرار في المدينة، اضطرّ إلى تقدير الموقف من الصديق والعدوّ.

فالصديق كان في حكم المعدوم إلا النجاشي، فصداقته لاتعدو أن تكون صداقة شخصية لاتجدي فتيلا.

وأما العدوّ، فهم:

أ- اليهود.

ب- المشركون.

ج- أفراد يعملون خلف الكواليس.

د- فارس والروم.

فبدأ النبي ﷺ بتصفية كيانات الأعداء السياسية تدريجيًّا، حتى صفا الجو لدولة الإسلام. (صلاح)

تهديد قريش بالهجوم على المدينة

إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لنقاتلنّه أو لتُخرجنّه، أو لنسيرنّ إليكم بأجمعنا، حتى نقتل مقاتلكم، ونستبيح نساءكم.

فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبيّ ومن كان معه من عبدة الأوثان، تجمّعوا لقتال رسول الله ﷺ.

فلما بلغ ذلك النبي ﷺ، لقيهم، فقال:

«لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم. فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرّقوا[(١)].

(١) سنن أبي داود (٣/ ٤٠٤) [وصحيح أبي داود للألباني] (رقم٣٠٠٤) عن عبد الرحمن بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ/ باب في خبر النفير.

٢- مؤامرة قريش الثانية

ثم تآمرت قريش سرّا مع يهود يثرب، ولما تمكّنوا من ضمّهم إليهم خفية، أرسلوا إلى المسلمين يبلغونهم: لايغرّنكم فراركم من مكة إلى المدينة، فإننا نقدر على أن نقضي عليكم في يثرب.

(١) هجوم قريش الأوّل على المسلمين بتحريض من أبي جهل:

وبعد هذا البلاغ بدأوا مناوشاتهم، فقد وصل كرز بن جابر الفهري: أحد رؤساء قريش في ربيع الأول من العام الثاني للهجرة إلى المدينة، وأغار على سرحها، فخرج رسول الله ﷺ في طلبه ولكنّه فاته. وكأنه أبرز نوعا من قوته، بحيث إنه تمكّن من الإغارة على المدينة وسوق مواشيها، بعد قطع نحو ثلاث مائة ميل من المسافة، دون أن يتعرض له أحد.

وفي رمضان من نفس العام أشاع أبوجهل في مكّة، أن المسلمين يريدون نهب العير حاملة الأموال المقبلة من الشام. وكان هدف هذه الإشاعة أن يجتمع على حرب المسلمين كل من شارك بماله في العير، ومن له أقرباء فيها، ومن له كراهية للمسلمين، وقد تحقّق له ذلك.

عدد جيش قريش والتأكّد من اتجاهه وإرادته:

خرج أبو جهل بجيش تكوّن من سبع مائة بعير وثلاث مائة فرس. وكله متعطش لدماء المسلمين. والعير التي تجمّع لحفظها هذا الجيش، كانت قد وصلت إلى مكة سالمة. ولكن واصل أبوجهل مسيرته نحو المدينة، وهنا تأكد للمسلمين أن قريشا لاتريد إلا حربهم.

استشارة النبي مع أصحابه في أمر القتال:

ولما بلغ رسول الله ﷺ خروجُ قريش، استشار أصحابه، فتكلم المهاجرون فأحسنوا، ثم استشارهم ثانيًا، فتكلم المهاجرون فأحسنوا، ثم استشارهم ثالثا، ففهمت الأنصار أنه يعنيهم، فبادر سعد بن معاذ، فقال: يارسول الله، كأنك تعرض بنا؟

وكان إنما يعنيهم، لأنهم بايعوه على أن يمنعوه من الأحمر والأسود في ديارهم.

فقال له سعد: لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقًّا عليها أن لا ينصروك إلا في ديارها، وأني أقول عن الأنصار، وأجيب عنهم: فاظعن حيث شئتَ، وصل حبل من شئتَ، واقطع حبل من شئتَ، وخذ من أموالنا ما شئتَ، وأعطنا ما شئتَ، وما أخذتَ منا كان أحبَّ إلينا مما تركتَ، وما أمرتَ فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك، فوالله لئن سرتَ حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرنَّ معك، ووالله لئن استعرضت بنا هذا البحر، خضناه معك.

وقال المقداد: لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ۝٢٤﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك ومن بين يديك، ومن خلفك[١].

ولم يكن المسلمون بداية على استعداد للقتال، وقد بلغ عدد المقاتلين منهم ثلاث مئة وثلاثة عشر نفرا.

عدم الإذن للمسلمين بالقتال:

لم يكن السماح للمسلمين بالقتال حتى الآن، فإن الإسلام ليست له أيّ صلة بالحرب، فمادّة كلمة الإسلام: «سلم»، وهي تعني الصلح والسلام، والدين الذي جاء إلى العالم برسالة السلام، والذي أمر أتباعه المؤمنين بالتواضع واللين، كيف له أن يأمر أتباعه بممارسة القتال؟

وبهذا السبب تخلّى المسلمون الأولون عن بيوتهم وأموالهم في مكة، وهاجروا إلى الحبشة والمدينة.

---

(١) [زاد: فأشرق وجه رسول الله ﷺ، وسرّ بما سمع من أصحابه، وقال: «سيروا وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، وإني قد رأيت مصارع القوم».] سيرة ابن هشام (١/ ٦١٥) [بدون سند، وأخرجه الطبري في تأريخه (١١/ ٢٢٠)، وابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ٢٦١) وقال: له شواهد]، وزاد المعاد (٣/ ١٧٣)، وأصله في البخاري (٥/ ٤ رقم ٤٦٠٩ عن عبد الله بن مسعود)، [ومسلم(١٧٧٩، ٢٨٧٤) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

[نظرًا إلى بعض الرواة وأقوالهم يتبيّن أن النبي ﷺ استشار أصحابه مرّتين: مرّة قبل الخروج إلى بدر، كما في رواية مسلم. وثانيةً بعد الخروج، كما في رواية البخاري، كما قاله الحافظ جمعا بين الروايتين. راجع «زاد المعاد»: (٣/ ١٥٥ تعليقًا، ط. الرسالة] (صلاح)

ضرورة الإذن بالجهاد:

ولكن الوضع قد تغيّر الآن، وصارت الحرب لا مفرّ منها، فلو جلس المسلمون الآن واضعين يدا على أخرى، لكانت النتيجة الحتمية الحاسمة أن يُذبحوا ذبح الخراف، وكانت الخسارة الكبرى أنه لا يبقى من يؤمن بالتوحيد في العالم، ويدعو إليه.

والأمر الذي ألجأ المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد دعوته لمدة ثلاث سنوات إلا ربعًا، إلى أن يأمر حواريّه بأن يتسلّحوا بشراء الأسلحة، بدل الثياب والنقود. (لوقا: ٢٢/ ٣٦).

ولهذه الضرورة نفسها قد رحم الله المسلمين، وأذن لهم بالدفاع عن أموالهم وأنفسهم، ضد أولئك الأعداء المهاجمين عليهم، بعد أن صبروا وذاقوا أسوء العذاب على أيديهم لأربع عشرة سنة.

إذن الجهاد الأوّل:

إن الله تعالى أذن المسلمين بالجهاد، لأوّل مرة، بقوله[1]:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج: ٣٩ - ٤٠]

وهذا الإذن يتضمّن سببين لإذن المسلمين بالقتال، وهو يصرّح بأن الحرب هجوميّة أو دفاعيّة.

أوّلها: كون المدافعين مظلومين، والمهاجمين ظالمين، وهذا هو السبب، الذي يجيزه قانون الهند الجنائي المعمول به الآن أيضًا، باسم الحفاظ على النفس.

ثانيها: إخراجهم من الوطن وتجريدهم من الممتلكات، وذلك لمجرّد الاختلاف في

---

(١) قال الزهري: أوّل آية نزلت في القتال، كما أخبرني عروة عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج: ٣٩] (فتح الباري: ٧/ ٢٨٠)، وقال أخرجه النسائي في الكبرى (رقم ١١٣٤٦)، وإسناده صحيح. (صلاح)

العقيدة والدين.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ الملك المعظم (إدوارد السابع) كان قد وجّه إلى شعبه بمناسبة الاحتفال بمرور خمسين عاما على الحكومة الهنديّة رسالة، افتخر فيها بحق بأن مدة الخمسين عامًا لم يحدث فيها -ولو مرة- أن يؤذى أحد بمجرّد الاختلاف في العقيدة.

ولكن هؤلاء المسلمين كلّهم أوذوا وشرّدوا لمجرّد الإيمان بتوحيد الله، والدعوة إليه.

والسبب الثالث: سبب عام، يثبت أن المسلمين لم يؤذن لهم بالجهاد تحقيقا لمصالحهم الشخصية والقوميّة والدينيّة فحسب، بل لأنّ المسلمين كانوا قد عقدوا مع اليهود والنصارى وغيرهم عقودا ومعاهدات قريبًا، ومنحوا جميع الأمم حرّية دينية تامّة بكل أريحيّة وسماحة، والحفاظ على هذه العقود والمعاهدات وبتضحية أرواحهم كان من أوجب الواجبات، ولو حصل تقصير في ذلك، فإنه قد يقضي على حرّية الأديان جميعا، ويهدم البيع والصوامع، فإن لم تكن هناك أمة تحافظ على المعاهدات، فكيف يمكن العمل بها؟

وهذه الأسباب الضرورية قد حتّمت على المسلمين مع قلّة عددهم وعُددهم، أن يحاولوا صدّ المهاجمين على بُعد من المدينة[1].

(١) ومثل هذا النوع من القتال ظلّ يقلق المسلمين لعدة سنوات، وحُملَ السيف دائما ضدّهم، واستمرت جهود القضاء على الإسلام بقوّة السيف، ولكنّ الإسلام استمر في الانتشار. وأنا في هذا الكتاب أذكر أشهر غزوات الرسول ﷺ بإيجاز.

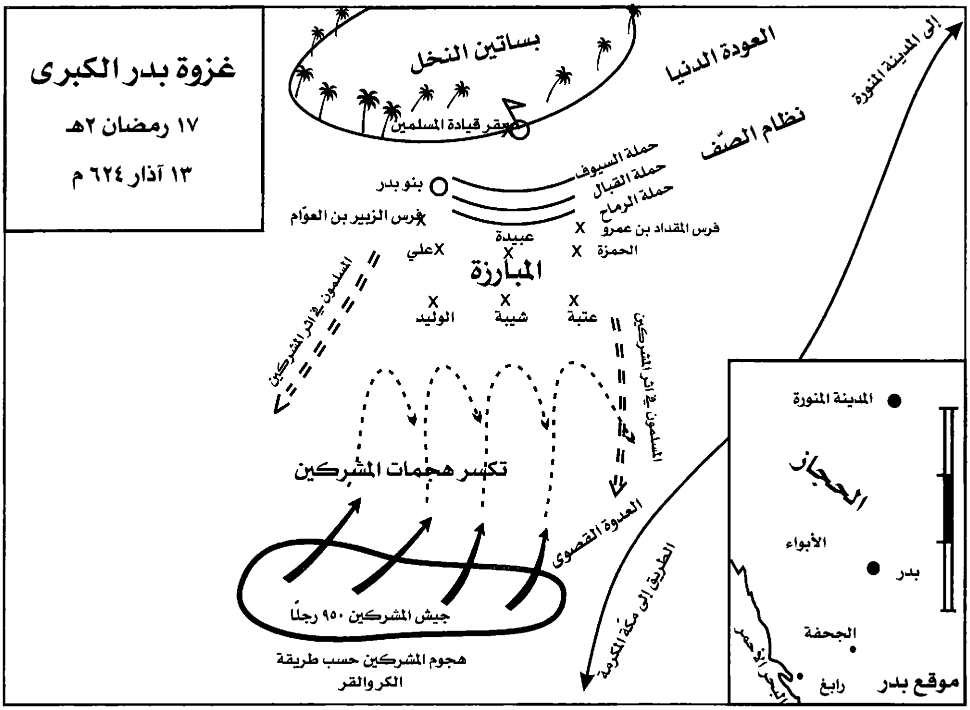
غزوة بدر الكبرى
١٧ رمضان ٢هـ
١٣ آذار ٦٢٤ م
بساتين النخل
مقر قيادة المسلمين
العودة الدنيا
نظام الصفّ
إلى المدينة المنورة
حملة السيوف
حملة النبال
حملة الرماح
بنو بدر
فرس الزبير بن العوّام
فرس المقداد بن عمرو
عبيدة
علي
الحمزة
المبارزة
عتبة
شيبة
الوليد
المسلمون في إثر المشركين
المسلمون في إثر المشركين
تكسّر هجمات المشركين
العدوة القصوى
الطريق إلى مكة المكرمة
جيش المشركين ٩٥٠ رجلاً
هجوم المشركين حسب طريقة
الكر والفر
المدينة المنورة
الحجاز
الأبواء
بدر
الجحفة
رابغ
البحر الأحمر
موقع بدر

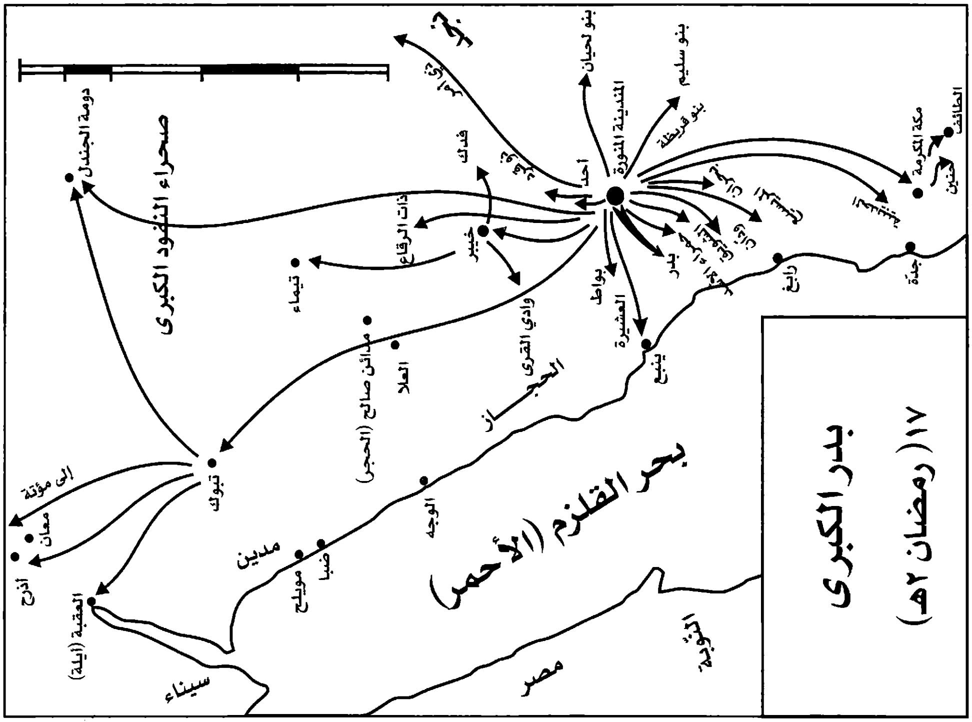
صحراء النفود الكبرى
دومة الجندل
فدك
أحد
المدينة المنورة
بنو لحيان
بنو سليم
بنو قريظة
مكة المكرمة
الطائف
حنين
ذات الرقاع
خيبر
تيماء
وادي القرى
بواط
العشيرة
بدر
رابغ
جدة
ينبع
مدائن صالح (الحجر)
العلا
الحجاز
تبوك
إلى مؤتة
معان
أذرح
العقبة (أيلة)
مدين
ضبا
مويلح
الوجه
بحر القلزم (الأحمر)
سيناء
مصر
النوبة
بدر الكبرى
١٧ (رمضان ٢هـ)

(٢) هجوم قريش الثاني على المسلمين أو «غزوة بدر الكبرى»[(١)]

وفي رمضان عام اثنين من الهجرة خرج رسول الله ﷺ مع (٣١٣) [(٢)]، (ستون منهم من المهاجرين، و ٢٤٠ من الأنصار[(٣)])، ويعرف مدى استعداد هذا الجيش بأنه جميعا كان يملك فرسين، وستّين بعيرا[(٤)].

عدد أهل بدر يساوي جيش طالوت:

ومن المصادفة العجيبة أن عدد أهل بدر، كان يساوي جيش طالوت، حينما خرج لمواجهة جالوت[(٥)].

ولما وصلوا بدرا، وجدوا جيش مكة نازلا هناك من قبل، وهو ثلاثة أضعاف

---

(١) بدأت قريش تحيك المؤامرات ضدّ الإسلام بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، بكل ما عندها من وسائل، حتى وصل الأمر إلى الحروب.
ومن هنا بدأت تعبئة النبي ﷺ المسلمين لصدّ عدوانهم على دولة الإسلام، ثم تصفية كيانات المشركين ومن عاونهم من اليهود، ثم النصارى، ليصفو للإسلام جوّ دعوة التوحيد، واستتباب الأمن والسلام، وهذه هي رسالة غزوات النبي ﷺ كما لا يخفى. (صلاح)

(٢) البخاري رقم (٣٩٥٨) بضعة عشر وثلاث مئة، فيه: «عدة أصحاب بدر على عدّة أصحاب طالوت.»(صلاح)

(٣) من حديث البراء بن عازب ...: «كان المهاجرون يوم بدر نيفًا على ستين، والأنصار نيفًا وأربعين ومائتين.» (البخاري رقم: ٣٩٥٦، باب عدّة أصحاب بدر) (صلاح).

(٤) وفي حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «...وما كان فينا فارس إلا المقداد.» (الفتح الرباني: ٢١/ ٣٦، والطيالسي: ٢٣٤٢)، وأبو يعلى والحديث سنده صحيح. («صحيح السيرة النبوية» للعلي: ص١٦٠). وهذا يدلّ على قلّة المراكب من الجمال والخيول. (صلاح)

(٥) كما تقدم في حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (البخاري رقم ٣٩٥٨).

المسلمين في العدد، وألف ضعف في العدّة.

تحديد مصارع القوم:

وقبل الحرب بيوم استعرض النبي ﷺ ساحة الحرب، وأنبأ بأن الله تعالى يهلك غدا فلانًا هنا، وفلانًا هنا إن شاء الله، فما تعدّى أحد منهم موضع إشارته[١].

ووقعت المعركة يوم الجمعة: السابع عشر من رمضان سنة اثنتين من الهجرة[٢].

وقبل الحرب دعا النبي ﷺ الله تعالى بتضرّع وخشوع، وقال: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد.» وكذلك تضرّع المسلمون إلى الله تعالى.

وانهزم أهل مكّة، بعون الله تعالى، فقتل من شجعانهم سبعون، وأسر سبعون، وقد قتل أبوجهل، الذي حرّض الناس على المسلمين وجمعهم ههنا، وكذلك قتل أحد عشر رجلا من رؤساء مكة الأربعة عشر، الذين كانوا قد اجتمعوا في «دار الندوة» متشاورين في قتل الرسول ﷺ، والثلاثة الذين بقوا[٣]، أسلموا فيما بعد[٤].

---

(١) قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فو الذي بعثه بالحق! ما أخطئوا الحدود التي حدّ رسول الله ﷺ.(مسلم رقم ٢٨٧٣) (صلاح)

(٢) قال ابن حجر العسقلاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «أما غزوة بدر فمتفق عليه بين أهل السير: ابن إسحاق وموسى ابن عقبة، وأبو الأسود وغيرهم، واتفقوا على أنها كانت في رمضان، قال ابن عساكر: والمحفوظ أنها كانت في يوم الجمعة، وروي أنها كانت في يوم الاثنين وهو شاذّ. ثم الجمهور على أنها كانت سابع عشرة، وقيل ثاني عشرة، وجمع بينهما بأن الثاني ابتداء الخروج والسابع عشر يوم الوقعة». (التلخيص الحبير: ٤/ ٨٩ رقم ١٨٢٦)

قال إبراهيم العلي: «وخلاصة الأمر كما جاء في قول ابن حجر، أن الخروج كان في الثاني عشر، والسابع عشر يوم الوقعة، والتاسع عشر كما في قول ابن مسعود الثاني، هو انتهاء الغزوة، وخاصة أن الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يقيم في عرصة أي قوم يغزوهم ثلاثًا، وكذا فعل في بدر كما في البخاري ٣٩٧٦. («صحيح السيرة النبوية» للعلي: ص١٥٨) (صلاح)

(٣) راجع أسماء المجتمعين الأربعة عشر في دار الندوة تحت عنوان «الهجرة إلى المدينة الطيبة». المتقدّم، والثلاثة منهم الذين نجوا من القتل وأسلموا وهم: أبو سفيان، وجبير بن المطعم، وحكيم بن حزام. (صلاح)

(٤) صحيح البخاري (٥/ ٥) في كتاب المغازي، وتأريخ الطبري (٢/ ٢٧٣).

تعامل النبي ﷺ مع أسرى بدر خلاف ما كان يتوقّع في مثل هذه الحالات:

وكان يقتضي:

أ- تنفيذ قانون الحرب المتّبع حينذاك.

ب- وتحمّس المسلمين المظلومين في الانتقام من الأعداء.

ج- وضرورة إلقاء رعب الحرب في قلوب القبائل، أن يقتل الأسرى الذين أسروا في الحرب،.

ولكن نبيّ الله الرحيم، فقد أفرج عن جميعهم بعد الفدية[1].

تكليف من لم يجد فداء بتعليم أبناء المسلمين:

وفدية العلماء منهم، كانت عبارة عن تعليمهم أولاد المسلمين الكتابة والقراءة[2].

وهذا الحادث يوضّح التنبؤ، الذي ورد في كتاب أشعيا (٢١/ ١٦-١٧) يقول:

«في مدة سنة كسنة الأجير، يفنى كل مجد قيدار، وبقية عدد قسي أبطال بني قيدار تقل.»

وظهر كذلك التنبؤ، الذي ورد ذكره أثناء إذن المسلمين للقتال بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ۝٣٩﴾ [الحج: ٣٩].

ولذلك سمّى الله تعالى هذه الحرب بيوم الفرقان، فإن أهل الكتاب وأهل الإسلام قد وجدوا في هذه التنبؤات دليلا رائعا على صدق الإسلام، وقد ذكر الله تعالى هذا الحادث بقوله:

﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝١٢٣﴾ [آل عمران: ١٢٣].

---

(١) سيأتي في نهاية هذا الباب الأوّل، بعد ذكر غزوة تبوك، فصل في «تعامل الإسلام الحضاري مع أسرى الحرب». (صلاح)

(٢) أحمد في المسند (٤/ ٤٧)، قال أحمد شاكر: إسناده صحيح. (صلاح)

٣- مؤامرة قريش الثالثة ومحاولة قتل النبي ﷺ

روى الطبري عن عروة بن الزبير، قال:

جلس عمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أمية -وقد قتل أبوه في بدر- بعد مصاب أهل بدر من قريش بيسير في الحجر، وكان عمير بن وهب شيطانا من شياطين قريش، وكان ممن يؤذي رسول الله ﷺ وأصحابه، ويلقون منه عناء وهمّا بمكة، وكان ابنه وهب بن عمير في أسارى بدر-، فذكر أصحاب القليب ومصابهم.

فقال صفوان: والله إن في العيش خير بعدهم.

فقال عمير: صدقتَ والله! أما والله لولا دين عليّ، ليس له عندي قضاء، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي، لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لي قبلهم علّة، ابني أسير في أيديهم.

فاغتنمها صفوان بن أمية، فقال: عليّ دينك، أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا، لا يسعني شيء ويعجز عنهم.

قال عمير: فاكتم عليّ شأني وشأنك.

قال: أفعل.

قال: ثم إن عميرا أمر بسيفه فشُحذ له وسمّ، ثم انطلق حتى قدم المدينة، فبينا عمر ابن الخطاب في نفر من المسلمين في المسجد، يتحدّثون عن يوم بدر، ويذكرون ما أكرمهم الله عز وجل به، وما أراهم في عدوّهم، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين أناخ بعيره على باب المسجد، متوشّحا السيف.

فقال: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب، ما جاء إلا لشرّ! وهو الذي حرّش بيننا، وحزرنا للقوم يوم بدر.

ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ، فقال: يا نبي الله، هذا عدوّ الله عمير بن وهب، قد جاء متوشّحًا سيفه، قال: فأدخله عليّ.

قال: فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه، فلببه[1] بها، وقال لرجال ممن كان معه من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده، واحذروا هذا الخبيث عليه، فإنه غير مأمون، ثم دخل به على رسول الله ﷺ.

فلما رآه رسول الله ﷺ وعمر آخذ بحمالة سيفه، قال: أرسله يا عمر، ادن يا عمير، فدنا ثم قال: أنعموا صباحا، وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم.

فقال رسول الله ﷺ: قد أكرمنا الله بتحيّة خير من تحيتك يا عمير، بالسلام: تحية أهل الجنة.

قال: ما جاء بك يا عمير؟

قال: جئت لهذا الأسير، الذي في أيديكم، فأحسنوا فيه.

قال: فما بال السيف في عنقك؟!

قال: قبّحها الله من سيوف، وهل أغنت شيئا؟

قال: اصدقني، ما الذي جئتَ له؟

قال: ما جئت إلا لذلك.

فقال: بل، قعدتَ أنت وصفوان بن أمية في الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دين عليّ وعيالي لخرجت حتى أقتل محمدا، فتحمل لك صفوان بدَينك وعيالك، على أن تقتلني له، والله عز وجل حائل بيني وبينك.

إسلام عمير بن وهب:

فقال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنّا يا رسول الله نكذّبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلّا أنا وصفوان، فو الله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق ثم تشهّد شهادة الحق.

فقال رسول الله ﷺ: فقّهوا أخاكم في دينه، وأقرؤوه وعلّموه القرآن، وأطلقوا له أسيره.

---

(١) لبّبه: أي لفّه بها حول عنقه.

قال: ففعلوا.

ثم قال: يا رسول الله! إني كنت جاهدًا في إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان على دين الله، وإني أحبّ أن تأذن لي فأقدم مكّة، فأدعوهم إلى الله وإلى الإسلام، لعل الله أن يهديهم، وإلا آذيتهم في دينهم، كما كنت أوذي أصحابك في دينهم.

قال: فأذن له رسول الله ﷺ، فلحق بمكّة.

وكان صفوان حين خرج عمير بن وهب، يقول لقريش: أبشروا بوقعة تأتيكم الآن في أيام، تنسيكم وقعة بدر، وكان صفوان يسأل عنه الركبان، حتى قدم راكب، فأخبره بإسلامه، فحلف ألا يكلّمه أبدا، ولا ينفعه بنفع أبدا[١].

فلما قدم عمير مكة، أقام بها يدعو إلى الإسلام، ويؤذي من خالفه أذى شديدا، فأسلم على يديه أناس كثير[٢].

فلما انقضى أمر بدر، أنزل الله عزوجل فيه من القرآن سورة (الأنفال) بأسرها[٣].

---

(١) وقد أسلم صفوان أيضا بعد عام ٨ من الهجرة، وكان عدوّا لدودًا لرسول الله ﷺ، ورئيسا معروفا بمكة. [الإصابة: ٣/ ٢٤٦-٢٤٧، رقم ٤٠٦٨) وفيه: مات قبل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقيل عاش إلى زمن عليّ. (صلاح)]

(٢) تأريخ الطبري (٢/ ٢٩٣). [مجمع الزوائد (٨/ ٢٨٧)، وقال: مرسل، إسناده جيد من طريق ابن إسحاق، وأخرجه الطبراني في مسند عليّ(١٣٦)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (٤١٣)، والإصابة (٣/ ٢٤٦-٢٤٧). قال شيخنا الأعظمي: «قلت: لقد رويت قصة عمر هذه من طرق أخرى، بعضها مرسلة، أخرجها الطبراني، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٣/ ٤٧٠)، وهي تقوي بعضها بعضًا لاختلاف مخارجها، وثقة رواتها، وقد أقرّ بوصلها الحافظ في «الإصابة» بعد أن ساق مراسيلها.» («سيرة المصطفى الصحيحة» (١/ ٣٤٥).

وقال الملّاح في «التعليق على الرحيق» (١٣٨-١٤٠): «مرسل جيد عن عروة رواه الطبراني في الكبير (١٣٥٨٧) عن عروة بن الزبير، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٤٠٦٣): رواه الطبراني مرسلًا، وإسناده جيد. («السيرة النبوية الصحيحة» للعمري (٢/ ٣٧٣)، (صلاح)]

(٣) تأريخ الطبري (٢/ ٢٩٩).

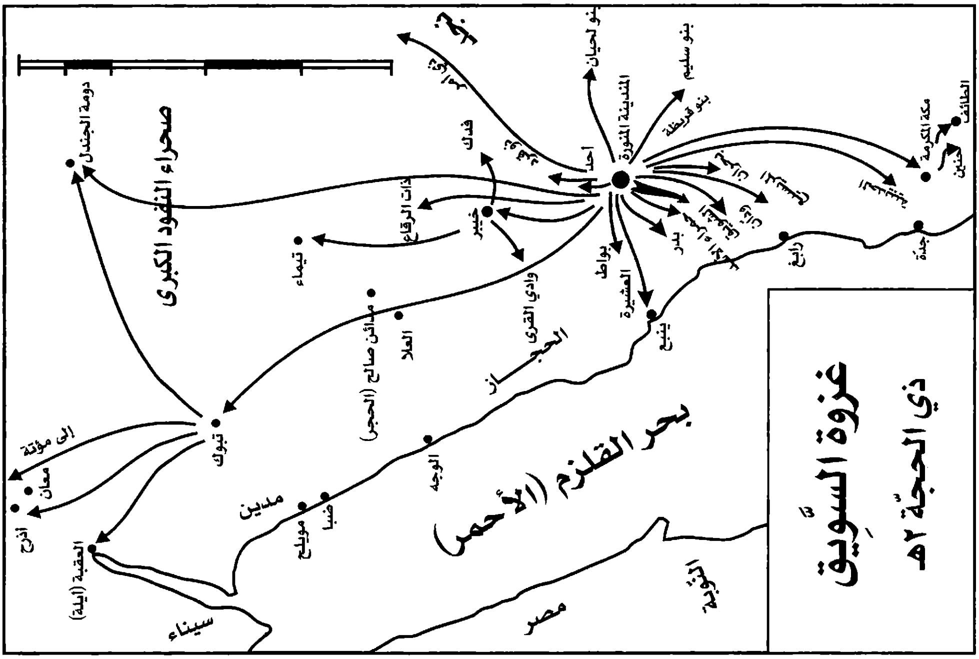
غزوة السويق
ذي الحجة ٢هـ
صحراء النفود الكبرى
دومة الجندل
بحر القلزم (الأحمر)
المدينة المنورة
أحد
بنو لحيان
بنو سليم
بنو قريظة
مكة المكرمة
الطائف
حنين
جدة
رابغ
ينبع
العشيرة
بواط
بدر
خيبر
فدك
ذات الرقاع
تيماء
وادي القرى
مدائن صالح (الحجر)
العلا
الحجاز
تبوك
إلى مؤتة
معان
أذرح
العقبة (أيلة)
مدين
مويلح
ضبا
الوجه
سيناء
مصر
النوبة

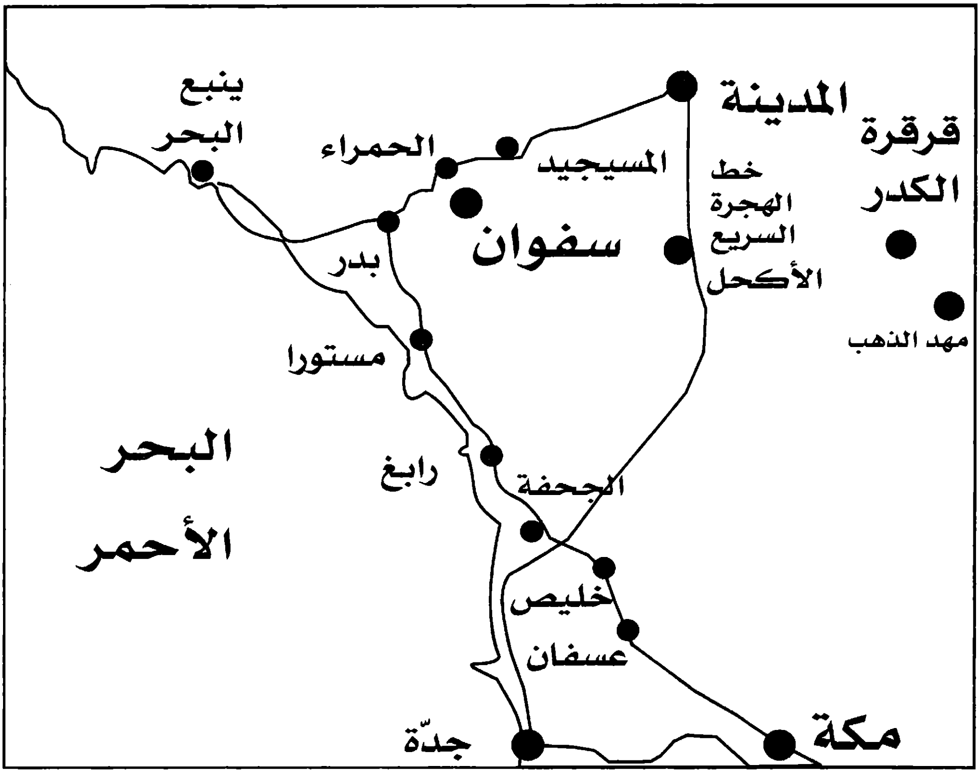
ينبع
البحر
الحمراء
المسيجيد
المدينة
قرقرة
الكدر
خط
الهجرة
السريع
الأكحل
مهد الذهب
سفوان
بدر
مستورا
البحر
الأحمر
رابغ
الجحفة
خليص
عسفان
جدّة
مكة

(٣) هجوم قريش الثالث

غزوة السويق أو قرقرة الكدر[١] (يوم السبت السابع من شوال سنة ثلاث من الهجرة[٢]):

كان أبو سفيان بن حرب حين رجع إلى مكة، ورجع فلول قريش أيضًا من بدر، نذر ألا يمسّ رأسه ماء من جنابة، حتى يغزو محمّدا، فخرج في مائتي راكب من قريش، ليبرّ يمينه، فسلك النجدية حتى نزل بصدور قناة إلى جبل، يقال له تيت، من المدينة على بريد أو نحوه، ثم خرج من الليل حتى أتى بني النضير تحت الليل. فأتى حيي بن أخطب، فضرب عليه بابه، فأبى أن يفتح له وخافه.

فانصرف إلى سلام بن مشكم، وكان سيّد النضير في زمانه ذلك، وصاحب كنزهم، فاستأذن عليه، فأذن له، فقراه وسقاه، وبطن له خبر الناس[٣]، ثم خرج في عقب ليلته، حتى جاء أصحابه، فبعث رجالا من قريش إلى المدينة، فأتوا ناحية منها، يقال لها العُرَيض[٤]، فحرقوا في أصوار من نخل لها، ووجدوا رجلا من الأنصار وحليفا له في

---

(١) «قرقرة»: بالفتح وتكرير القاف والراء. وسمّيت غزوة «السويق»، لأن الكفار ألقوا عند هروبهم شيئًا كثيرا من السويق (وهو مطحون القمح أو الشعير المحمصان).
أما موقعها، ففي «المعالم الأثيرة في السنّة والسيرة»: «هي بالتحديد إذا صرت من المدينة فكنت بين «الصويدرة»، «والحناكية» تؤمّ القصيم، فهي على يمينك في ذلك الفضاء الواسع، الذي يمتدّ إلى معدن بني سليم «مهد الذهب» اليوم، غير أن الاسم غير معروف اليوم.» (سيرة المصطفى الصحيحة: ١/ ٣٥٠). (صلاح)

(٢) قالوا: كانت في ذي الحجة من السنة الثانية للهجرة، وهذا هو الصحيح. (صلاح)

(٣) وأخبره من أخبار رسول الله ﷺ.

(٤) العريض: بالتصغير، وادٍ يقع في طرف المدينة الشمالي الشرقي، على نحو من ثلاثة أميال، وبه مسجد سمّي به. (صلاح)

حرث لهما، فقتلوهما، ثم انصرفوا راجعين[١]، فندب النبي ﷺ أصحابه، فخرج في طلبهم، حتى بلغ قرقرة الكدر، ثم انصرف راجعا[٢]، وقد فاته أبو سفيان وأصحابه.

وقد رأوا من مزاود القوم، قد طرحوه في الحرث، يتخففون منه للنجاة، ولذلك سمّيت غزوة «السويق».[٣]

(١) رأى أبو سفيان بذلك أن يمينه قد حلّت، ثمّ ولّى هاربًا. (سيرة ابن هشام: ٢/ ٤٤).

(٢) أي: إلى المدينة، وكان ﷺ قد غاب خمسة أيام (سيرة ابن هشام: ٢/ ٤٤). (صلاح)

(٣) ابن هشام (٢/ ٤٤)، تأريخ الطبري (٣/ ١٥). [وطبقات ابن سعد: ٢/ ٣٠، وذكر ابن إسحاق غزوة بني سليم بالكدر، وقال: فلما قدم رسول الله ﷺ لم يقم بها إلا سبع ليالٍ حتى غزا بنفسه يريد بني سليم، وذلك في منتصف محرم رأس ثلاثة وعشرين شهرًا. (سيرة ابن هشام: ٢/ ٤٤ وما بعدها)

وفي الطبقات (٢/ ٣١): «علم النبي ﷺ تجمع سليم وغطفان، فسار إليهم، وأقام عليه ثلاث ليال، وفرّ المقاتلون تاركين إبلهم وعددهم خمس مئة، فأخرج خمسه، وقسم أربعة أخماس على المسلمين، فأصاب كل رجل منهم بعيران، وكانوا مئتي رجل». «راجع سيرة المصطفى الصحيحة على منهج المحديثن» لشيخنا الأعظمي: ١/ ٣٥٠) (صلاح)]

(٤) هجوم قريش الرابع:

(أي غزوة أحد سنة ٣ هـ)

وفي العام القادم هجمت قريش على المدينة مرة أخرى، وكانوا قد جمعوا الأموال لهذه الحرب من الجميع، وكان الشاعر أبو عزّة الجمحي[1] قد خرج يسير في تهامة، ويدعو بني كنانة إلى نصرة قريش. وقد ضُمَّ إلى هذا المال خمسون مثقالا من الذهب وألف بعير من تجارة الشام، التي لم يتمّ تقسيمه إلى الآن.

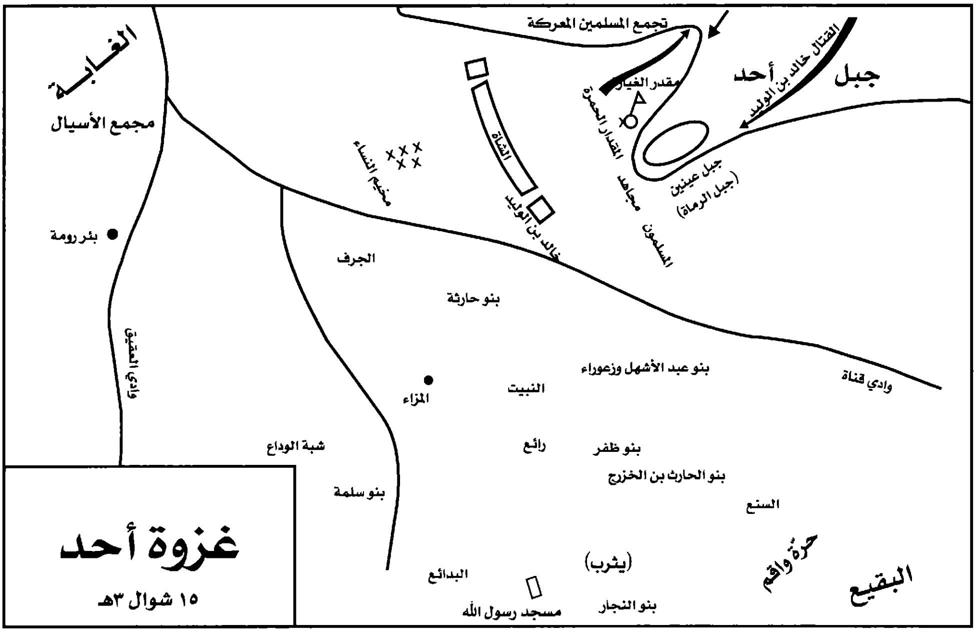

---

(١) أبو عَزَّة: هو الذي أسر يوم بدر، فمنّ عليه رسول الله ﷺ لفقره وكثرة بناته، على ألا يظاهر عليه أحدًا، ولكنه نكث وغدر، وحرّض الناس بشعره على النبي ﷺ، فأخذ بعد أحد، وقتل. أما الحديث الوارد فيه فضعيف. («التعليق على الرحيق» للملّاح: ص١٥٦). (صلاح)

وهكذا تقدّم إلى المدينة جيش مكوّن من خمسة آلاف[١] مقاتل، منهم ثلاثة آلاف على البعير، ومئتان على الفرس، وسبع مئة مقاتل لبسوا الدروع وهم مشاة، وكان رسول الله ﷺ يرى ألا يخرجوا من المدينة، وأن يتحصّنوا بها، ورأى أغلب الناس الخروج، وألحّوا عليه بذلك.

فخرج رسول الله ﷺ في ألف من الصحابة، فلما صار بالشوط بين المدينة و أحد، انخذل عبدالله بن أبيّ[٢] بنحو ثلث العسكر[٣]، وهكذا كانت المقاومة بين خمسة آلاف امتلأوا حقدا وحنقا، وبين سبع مئة لا يملكون شيئًا.

ومضى رسول الله ﷺ حتى نزل بالشعب من أحد، ولما بدأ القتال، انهزم الكفار بأيدي المسلمين، وقتل اثنا عشر رجلا من حاملي رايتهم، ثمانية بيد عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولكن رماة المسلمين تركوا مركزهم، الذي أمرهم رسول الله بحفظه، فكرّ فرسان المشركين فوجدوا الثغر خاليا من الرماة، فجازوا منه وتمكّنوا، حتى أقبل آخرهم فأحاطوا بالمسلمين، فأكرم الله تعالى من أكرم من المسلمين بالشهادة، وهم سبعون، وأنفل جمعهم.

---

(١) انظر: «ناسخ التواريخ». وفي المراجع الأخرى: ثلاثة آلاف.

(٢) تقدّم آنفًا أنه كان رئيس المنافقين، وكان يرغب في سيادة الأوس والخزرج مع اليهود، ولكن خاب أمله بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، ودخول أهلها في الإسلام، فأظهر الإسلام تحت ضغط الظروف، مع بقائه على موالاة اليهود، ففضح الله عز وجل أمره بين الناس. (صلاح)

(٣) قال الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ...﴾ [آل عمران: ١٧٩]. قال مجاهد: ميز بينهم يوم أحد.

وقال الله تعالى:

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ [آل عمران: ١٦٧]

وهم أصحاب عبد الله بن أبي بن سلول، رجعوا في أثناء الطريق.» (سيرة المصطفى الصحيحة: ١/ ٣٦٦). (صلاح)

وكان قد بقي مع النبي ﷺ اثنا عشر صحابيا فقط[١]، منهم:

أبو بكر، وعمر، وعلي، وعبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وأبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم.

ولم يبق في ساحة القتال إلا سبعون صحابيا، وأعداء الله رموا رسوله بالحجارة، حتى وقع لشقه، وسقط في حفرة، فأخذ عليّ بيده، واحتضنه طلحة بن عبيد الله.

دور النساء في ميدان المعركة:

وكان الذي تولّى أذاه عمرو بن قمئة في جبهته، وعتبة بن أبي وقاص في رباعيته، وعبد الله بن شهاب في عضده، وصرخ الشيطان بأعلى صوته: إن محمدا قد قتل، وأقبلت النساء مسرعة من المدينة، وفيهن: فاطمة بنت النبي ﷺ، وقد غسلت جرح النبي ﷺ، ولما رأت أن الماء لايزيد الدم إلا كثرة، أخذت قطعة من حصير، فأحرقتها فألصقتها، فاستمسك الدم.

وكان عليّ يأتي بالماء، وحملت عائشة وأم سليم القربة، تسقيان الجرحى[٢]، واستشهد في الحرب سبعون صحابيا[٣].

---

(١) البخاري في المغازي (٥/ ٣٨)، ابن هشام (٢/ ٨٣) [سنده حسن، وهو مرسل].

(٢) مسلم في الجهاد (١٤١٦ عن أنس رضي الله عنه) [البخاري ٤٠٧٥، ومسلم ١٧٩٠ عن سهل بن سعد الساعدي، وكذلك عن عمر بن الخطاب كما في البخاري (٤٠٧١)، **فيه ذكر أم سليم** رضي الله عنها.
وأخرج الطبراني (٢٤/ ٢١٦ رقم ٥٤٩) عن أبي أحمد بن جحش: رأيت بعينيّ حمنة بنت جحش يوم أحد تسقى العطشى، وتداوي الجرحي». قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٢٦٥): «إسناده حسن».
وحمنة بنت جحش: «زوجة مصعب بن عمير رضي الله عنها سفير رسول الله ﷺ إلى المدينة قبل هجرته إليها».] (صلاح)

(٣) البخاري في المغازي (٥/ ٣٨ رقم ٤٠٧٥) عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

من أعظم خسائر الحرب

شهادة مصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

ومن أعظم خسائر الحرب، شهادة مصعب بن عمير[١]، الذي جاء إلى المدينة داعية، وأسلمت بدعوته قبيلتا الأوس والخزرج. وكانت زوجته حمنة بنت جحش، قد استشهد أخوها وخالها في هذه الحرب، فاسترجعت واستغفرت لهما.

تمكّن حبّه في قلب زوجته حمنة:

ثم نُعِيَ لها زوجُها مصعب بن عمير، فصاحت وولولت! فقال رسول الله ﷺ: «إن زوج المرأة منها بمكان»[٢]، لما رأى من تثبّتها عند أخيها وخالها، وصياحها على زوجها.[٣]

شهادة حمزة بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وفي هذه الغزوة استشهد حمزة بن عبد المطلب، وقد مثّل[٤] به الأعداء، وأقبلت

(١) عاش عنفوان شبابه في نعمة ورفاهية قبل إسلامه، ولكن عند شهادته في سبيل الله، ما كان ترك إلا ثوبا واحدا، فكان إذا غطّوا رأسه خرجت رجلاه، وإذا غطّوا رجليه خرج رأسه، فقال رسول الله ﷺ: اجعلوا على رجليه شيئا من الإذخر. (الاستيعاب) [راجع «البخاري» (٦٤٤٨) عن خباب بن الأرت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

(٢) ضعيف، ذكره الألباني في «ضعيف ابن ماجة» (رقم٣٤٧)، والضعيفة (رقم٣٢٣٣)، ولفظ ابن ماجة: «إن للزوج من المرأة لشعبة، ما هي لشيء»، (شعبة: أي قطعة من الشيء، والمراد: النوع من المحبّة والتعلّق) («التعليق على الرحيق»: ص١٥٤-١٥٥). (صلاح)

(٣) سيرة ابن هشام (٣/ ١٥٤)، تأريخ الطبري (٣/ ٢٧). [أخو حمنة: عبد الله بن جحش، وخالها: حمزة بن عبد المطلب من شهداء غزوة أحد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم.]

(٤) سيأتي شيء من التفصيل عما لتمثيل جثته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وما عليه، إن شاء الله، فقد ثبت تمثيل جثّته بطرق صحيحة إلا أن هندًا بريئة منه، لضعف الوارد فيه وسيأتي ذكره في فتح مكّة، وعفو النبي ﷺ عن الناس. (صلاح)

صفية بنت عبدالمطلب تنظر إلى حمزة، فقال رسول الله ﷺ لابنها: الزبير بن العوام: القها، فأرجعها، لاترى ما بأخيها، فلقيها الزبير ومنعها.

فقالت: قد بلغني أنه مثّل بأخي، وذلك في الله قليل، لأحتسبنّ، ولأصبرنّ إن شاء الله.

ثمّ أذن لها رسول الله ﷺ، فأتت ونظرت إليه، وصلّت عليه، واسترجعت، واستغفرت له، ثم رجعت[١].

تضحية أنس بن النضر وشجاعته:

ومن شهداء هذه الغزوة: أنس بن النضر، وكان قد انتهى إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار. قد ألقوا بأيديهم.

فقال: ما يُجلسكم؟

قالوا: قتل محمد رسول الله.

قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا كراما، على ما مات عليه رسول الله ﷺ، ثم استقبل القوم، فقاتل حتى قتل[٢].

وقال أنس بن مالك: لقد وجدنا بأنس بن النضر يومئذ سبعين ضربة وطعنة، فما عرفه إلا أخته، عرفته بحسن بنانه[٣].

وصيّة سعد بن الربيع للمسلمين عند وفاته:

واستشهد في هذه الغزوة: سعد بن الربيع، وقد قال رسول الله ﷺ بعد انتهاء القتال: من رجل[٤] ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع؟ أفي الأحياء هو أم في الأموات؟

---

(١) تأريخ الطبري (٣/ ٣٥)، ابن هشام (٢/ ٩٧).

(٢) ابن هشام في السيرة (٢/ ٨٣)، وصرّح ابن اسحاق بالتحديث. (صلاح)

(٣) تأريخ الطبري (٣/ ١٩)، زاد المعاد (٣/ ٢٠٩)، ابن هشام (٣/ ٨٨) [البخاري رقم ٤٠٤٨، ومسلم ١٩٠٣].

(٤) هو زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال بعثني رسول الله ﷺ يوم أحد لطلب سعد بن الربيع كما في المستدرك. (٣/ ٢٠١). (صلاح)

فذهب رجل من الأنصار، فوجده جريحا في القتلى، به رمق.

قال: فقلت له: إن رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر لك.

قال: أنا في الأموات، أبلغ رسول الله ﷺ عنّي السلام، وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنّا خير ما جُزِيَ نبيّ عن أمته، وأبلغ عنّي قومك السلام.

وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله، إن خلص إلى نبيكم ﷺ، ومنكم عين تطرف، ولما رجعت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته خبره[(١)].

وعن رجل من الصحابة: أنه دخل على أبي بكر الصديق، وبنت لسعد بن الربيع جارية صغيرة على صدره، يرشفها ويقبّلها.

فقال له الرجل: من هذه؟

فقال: هذه بنت رجل خير منّي -سعد بن الربيع- كان من النقباء يوم العقبة، واستشهد يوم أحد[(٢)].

استلذاذ عمارة بن زياد الموت:

واستشهد فيها عمارة بن زياد، وهو الذي مات، وخدّه على قدم رسول الله ﷺ[(٣)].

وقد نظم هذا الحادث شاعر في اللغة لأرديّة ما معناه[(٤)]:

(رأسي تحت قدمه وقت الذبح، الله أكبر، ما أسعد هذا الحظّ! إنه من المغتنمات).

شجاعة بالغة من الأصحاب الباسلين:

وقد برزت وقائع عظيمة لشجاعة أبي دجانة، وحنظلة، وطلحة، وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ،

---

(١) تأريخ الطبري (٣/ ٢٤)، ابن هشام (٢/ ٩٥) [الحاكم في المستدرك(٣/ ٢٠١ عن زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) وقال صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي من غير طريق ابن إسحاق. راجع «صحيح السيرة النبوية» للعلي (٢١٨ مع التعليق) (صلاح)].

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٩٥).

(٣) الطبري (٣/ ١٨).

(٤) والبيت هكذا: سر بوقت ذبح أپنا اس كے زير پائے هے
يه نصيب الله أكبر! لوٹنے كى جائے هے

واستماتتهم في سبيل الإسلام، فقد ترّس أبو دجانة دون رسول الله ﷺ، وحماه ﷺ طلحةُ، فرُمي بسهم في يده فيبست يده.

قوّة إيمان صحابيّةٍ في قولها: «كل مصيبة بعدك جلل»:

مرّ رسول الله ﷺ بامرأة[(١)] من بني دينار، وقد أصيب زوجها وأخوها وابنها مع رسول الله ﷺ بأحد، فلما نعوا لها.

قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟

قالوا: خيرًا يا أم فلان: هو بحمد الله كما تحبين.

قالت: أرونيه حتى أنظر إليه؟

قال: فأشير لها إليه، حتى إذا رأته.

قالت: كل مصيبة بعدك جلل[(٢)].

رحمته للعالمين وعفوه:

لما كسرت رباعيته، وشجّ وجهه في هذه الغزوة، شقّ ذلك على أصحابه شقّا شديدا، وقالوا: لو دعوتَ عليهم.

فقال: «إني لم أبعث لعّانا، ولكن بعثتُ داعيا ورحمة[(٣)]، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون»[(٤)].

---

(١) تأتى تسمية هذه المرأة (وهي هند بنت عمرو بن حرام) وأخيها وزوجها وابنها بتحقيق المؤلّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذكر شهداء غزوة أحد (٥٨ تعليقًا) في الجزء الثاني من هذا الكتاب. (صلاح)

(٢) الطبري (٣/ ٢٧)، ابن هشام: (٢/ ٩٩). [والبيهقي في الدلائل (٣/ ٣٠٢)، بسند ابن إسحاق إلى سعد بن أبي وقاص، وسنده حسن، وقد صرّح بالتحديث، فزالت شبهة تدليسه، كما في «صحيح السيرة النبوية» للعلي (٢٣٥) (صلاح)].

(٣) مسلم في البر والصلة (٣/ ٢٠٠٧ رقم ٢٥٩٩) عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٤) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (١/ ٦١)، ومسلم في الجهاد (٢/ ١١١٧) [وفي البخاري ٣٤٧٧، ومسلم ١٧٢٩ عن عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ].

٤- مؤامرة قريش الرابعة وقتل عشرة دعاة من أصحاب النبي ﷺ

قد اتخذ الأعداء بعد غزوة أحد عدّة سبل لإنزال الخسائر بالمسلمين وتدميرهم، سنة أربع من الهجرة:

ففي العام الرابع من الهجرة، قدم على رسول الله ﷺ رهط من عضل والقارة.

فقالوا له: يا رسول الله! إن فينا إسلاما وخيرا، فابعث معنا نفرا من أصحابك، يفقّهوننا في الدين، ويقرؤوننا القرآن، ويعلّموننا شرائع الاسلام.

«فبعث رسول الله ﷺ عشرة[1] رهطٍ سريةً عينا، وأمّر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري[2]»، فانطلقوا، حتى إذا كانوا بالهدأة، وهو بين عسفان ومكة، ذكروا لحيّ من هذيل، يقال لهم بنو لحيان، فنفروا لهم قريبا من مائتي رجل كلّهم رامٍ، فاقتصّوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم تمرا، تزوّدوه من المدينة.

فقالوا: هذا تمر يثرب فاقتصّوا آثارهم، فلما رآهم عاصم وأصحابه، لجئوا إلى فَدفَدٍ، وأحاط بهم القوم.

فقالوا لهم: انزلوا وأعطونا بأيديكم، ولكم العهد والميثاق، ولا نقتل منكم أحدا.

قتل عاصم، ووقوع خبيب وزيد في الأسر:

فقال عاصم بن ثابت أمير السريّة:

أمّا أنا فو الله لا أنزل اليوم في ذمّة كافر، اللهم أخبر عنا نبيّك، فرموهم بالنبل، فقتلوا

(١) البخاري (٤/ ٢٨-٢٩ رقم ٣٠٤٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه، الطبري (٣/ ٢٩)، ابن هشام (٢/ ١٧٢).

(٢) عاصم بن ثابت: هذا جدّ عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأمّه، فقد قيل: إن عمر بن الخطاب تزوّج جميلة بنت عاصم بن ثابت الأنصاري، فولدت له عاصم بن عمر بن الخطاب. (سيرة المصطفى الصحيحة: ١/ ٤١٨).

عاصمًا[١] في سبعة.

فنزل إليهم ثلاثة رهط بالعهد والميثاق، منهم: خبيب الأنصاري، وابن دثنة، ورجل آخر، فلما استمكنوا منهم، أطلقوا أوتار قسيّهم فأوثقوهم.

فقال الرجل الثالث: هذا أوّل الغدر، والله لا أصحبكم، إنّ لي في هؤلاء لأسوة - يريد القتلى - فجرروه، وعالجوه على أن يصحبهم فأبى، فقتلوه.

فانطلقوا بخبيب بن عدي، وزيد بن الدثنة حتى باعوهما بمكة بعد وقعة بدر، فابتاع خبيبًا بنو الحارث ابن عامر بن نوفل، وكان خبيب هو قتل الحارث بن عامر يوم بدر، فلبث خبيب عندهم أسيرا.

خبيب أثبت أن الغدر ليس من شيمة المسلمين:

فأخبرني عبيد الله بن عياض، أنّ بنت الحارث أخبرته: أنهم حين اجتمعوا استعار منها موسى يستحدّ بها، فأعارته، فأخذ ابنا لي وأنا غافلة حين أتاه، قالت: فوجدته مُجلسه على فخذه، والموسى بيده، ففزعت فزعة، عرفها خبيب في وجهي.

فقال: تخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك، والله ما رأيت أسيرًا قطّ خيرا من خبيب، والله لقد وجدته يوما يأكل من قطف عنبٍ في يده، وإنه لموثق في الحديد، وما بمكّة من ثمر.

وكانت تقول: إنه لرزق من الله، رزقه خبيبًا، فلما خرجوا من الحرم، ليقتلوه في الحلّ، **قال لهم خبيب:** ذروني أركع ركعتين، ثم قال: لولا أن تظنّوا أن ما بي جزعٌ لطوّلتها[٢].

والظالمون صلبوا الأسيرين[٣]، وأمروا الطاعنين بطعنها في كل عضو من أعضائها.

---

(١) أما عاصم، فبعثت قريش إلى عاصم، ليؤتوا بشيء من جسده يعرفونه، وكان عاصم قتل عظيمًا من عظمائهم يوم بدر، فبعث الله عليه مثل الظلّة من الدبر، فحمته من رسلهم، فلم يقدروا منه على شيء. (البخاري: ٤٠٨٦ عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ). (صلاح)

(٢) البخاري (٤/ ٢٨-٢٩ رقم ٣٠٤٥، ٤٠٨٦) عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. وفيه: **فكان أوّل من سنّ الركعتين عند القتل هو، ثمّ قال: اللهم احصهم عددًا.** (وابن هشام: ٢/ ١٧٢)

(٣) أما زيد بن الدثنة الأنصاري البياضي، فقتلته قريش بالتنعيم. (الإصابة: ١/ ٥٦٥-٥١٦ رقم ٢٨٩٨).

والله أكبر! ما أثبت قلوبهم على الإسلام!

وما أكثر استقامتهم على دين الحق!

وما أقوى إيمانهم بالنجاة الأبدية، وبرضا الله تعالى، قد تحمّلوا هذه الآلام والجروح من غير تأوّهٍ وتأفّف!

مقارنة بين حبّ النفس وحبّ الرسول ﷺ:

ولما أتي بخبيب ليقتل قال له أبو سفيان:

أنشدك الله يا خبيب، أتحبّ أن محمدا عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه، وأنك في أهلك!

قال: والله ما أحبّ أن محمدا الآن في مكانه، الذي هو فيه، تصيبه شوكة تؤذيه، وإني جالس في أهلي[١].

أما خبيب: عبد الله الصالح هذا وفتى الفتيان، فقد أنشد في المقتل أبياتًا، تحت الصليب ارتجالًا، حيث تجمّعت جموع المتفرّجين، وهي تصوّر ذلك المشهد العظيم، وتبين مدى صدق خبيب في الإيمان بالله وحبّه للإسلام، يقول:

لقد[٢] جمع الأحزاب حولي وألّبوا	١	قبائلهم واستجمعوا كل مجمع
وكلّهم مبدي العداوة جاهد	٢	عليّ لأني في وثاق بمصيع
وقد جمعوا أبناءهم ونساءهم	٣	وقربت من جذع طويل ممنع

(١) الطبري (٢/ ٥٤٣)، ابن هشام (٢/ ١٧٢)، زادالمعاد (٣/ ٢٤٥).

(٢) ابن هشام (٢/ ١٧٣)، زاد المعاد (٣/ ٢٤٥)، ويوجد اختلاف في الكلمات في المصدرين، وقد ورد في الصحيحين: البيت التاسع والسادس. [البخاري: ٣٩٨٩، ٤٠٨٦، ٧٤٠٢ وغيرها من المواضع] مع اختلاف في بعض الكلمات، ولم يرد البيتان: الثاني والخامس في زاد المعاد. وينبغي أن يكون هذا النموذج للاستقامة والصدق أمام المسلمين. والبيت الرابع يتضمن درسا للتواضع واللين والخشية والإنابة إلى الله تعالى في أشدّ الأوقات وأحرجها. [**وفي مثل هذه الأحداث: تأكيد لما كان عليه أصحاب النبي ﷺ من صدق حبهم لله تعالى، ولرسوله ﷺ، ورغبتهم في الشهادة في سبيل الله عز وجل.** (صلاح)].

إلى الله أشكو غربتي ثم كربتي ٤ وما أرصد الأحزاب لي عند مصرعي
فذا العرش صبّرني على ما يراد بي ٥ فقد بضعوا لحمي وقد يئس مطمعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ٦ يبارك على أوصال شلو ممزّع
وقدخيّروني الكفر والموت دونه ٧ وقد هملت عيناي من غير مجزع
وما بي حذر الموت إني لميّت ٨ ولكن حذاري جحم نار ملفّع
ولست أبالي حين أقتل مسلمًا ٩ على أي شقّ كان في الله مصرعي
فلست بمبدٍ للعدوّ تخشّعا ١٠ ولا جزعا إني إلى الله مرجعي

وآخر كلام خبيب كان هذا الدعاء: اللهم إنا قد بلّغنا رسالة رسولك، فبلّغه الغداة ما يصنع بنا.[(١)]

مدى وقعة قتل خبيب بهذه الصورة البشعة على سعيد الجمحي:

وكان عمر بن الخطاب، قد استعمل سعيد بن عامر الجمحي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على بعض الشام، فكانت تصيبه غشية، وهو بين ظهري القوم، فذُكر ذلك لعمر بن الخطاب، وقيل: إن الرجل مصاب، فسأله عمر.

فقال: يا سعيد، ما هذا الذي يصيبك؟

فقال: والله يا أمير المؤمنين! ما بي من بأس، ولكنّي كنت فيمن حضر خبيب بن عدي حين قتل، وسمعت دعوته، فوالله ما خطرت على قلبي وأنا في مجلس قط، إلا غُشي عليّ، فزادته عند عمر خيرا[(٢)].

---

(١) وقد وقع كما دعا خبيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ففي «البخاري» (٧٤٠٢) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فأخبر النبي ﷺ أصحابه خبرهم يوم أصيبوا.»
هذا، وقد قتل خبيبا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عقبة بن الحارث وكنيته أبو سروعة، كما ذكره البخاري (٣٩٨٩)، وقد أسلم بعد ذلك، وله حديث في الرضاع. (سيرة المصطفى الصحيحة: ١/ ٤١٨)

(٢) راجع ترجمته في الإصابة: ٢/ ٤٨-٤٩ رقم ٣٢٧٠) كان من كبار الصحابة وفضلائهم، ولّاه عمر حمص، وكان مشهورًا بالخير والزهد. (صلاح)

مؤامرة أخرى واستشهاد سبعين من قرّاء النبي ﷺ في بئر معونة سنة أربع من الهجرة

ومثل ذلك خداع أبي براء عامر بن مالك ملاعب الأسنّة، وإنه قدم على رسول الله ﷺ المدينة، فقال: يا رسول الله، لو بعثتَ أصحابك إلى أهل نجد، يدعونهم إلى دينك، لرجوت أن يجيبوهم. وكان ابن أخيه رئيس نجد، فأكّد عامر أنا جار لهم.

فبعث معه أربعين[1] رجلًا، وأمّر عليهم المنذر بن عمرو، وكانوا من خيار المسلمين وفضلائهم وساداتهم وقرائهم، فساروا حتى نزلوا بئر معونة، وهي بين أرض بني عامر، فنزلوا هناك، ثم بعثوا حرام بن ملحان أخا أم سليم[2]، بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدوّ الله عامر بن الطفيل، فلم ينظر فيه، وأمر رجلا، فطعنه بالحربة من خلفه، فلما أنفذها فيه، ورأى الدم قال: «**فزت وربّ الكعبة**».[3]

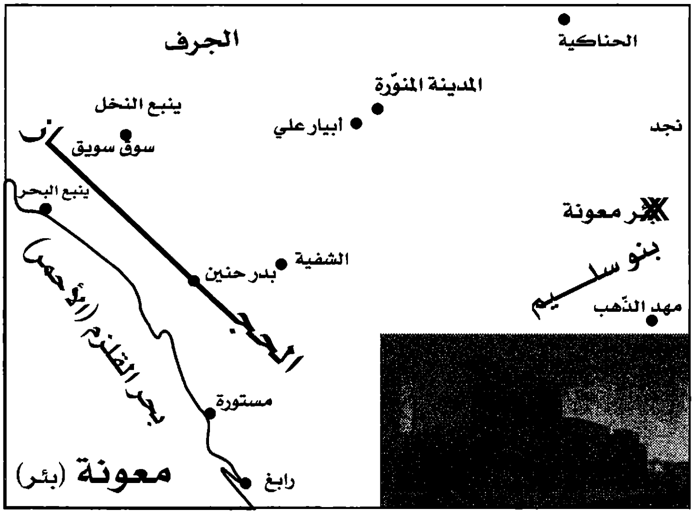

(١) هو قول ابن إسحاق وهو وهم، والصحيح: وهم سبعون، هو في الصحيحين. (البخاري ٤٠٨٠، ومسلم ٦٧٧) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. (صلاح)

(٢) هو: خال أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(٣) [البخاري (٤١٩١) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]. وزاد المعاد (٣/ ٢٤٦).

وقع هذا الكلام في نفس القاتل موقعا، حتى جاء إلى النبي ﷺ وأسلم.

وأمر رئيسُهم بقتلهم جميعا، فجاء كعب بن زيد[1]، الذي كان قد بقي حيًّا، إلى النبي ﷺ يخبره بهذا الأمر[2].

(١) قتلوا من عند آخرهم، إلا كعب بن زيد، فإنهم تركوه وبه رمق، فارتث من بين القتلى، فعاش حتى قتل يوم الخندق شهيدًا بسهم غريب. (ترجمته في الإصابة: ١/ ٢٩٦-٢٩٧) (صلاح)

(٢) لما جاء خبر قتلهم، دعا النبي ﷺ على رعل وذكوان «شهرًا» في صلاة الغداة، وذلك بدأ القنوت، وما كنا نقنت: (البخاري ٤٠٨٨) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. (صلاح)

(٥)هجوم قريش الخامس ونقض العهد أو فتح مكة(١)

وفي العام الثامن من الهجرة، اضطر المسلمون لغزو مكة، وذلك أن صلح الحديبية كان بين رسول الله ﷺ وبين قريش سنة ست من الهجرة، وكان في البند الأوّل من هذا الصلح:

«أن توضع الحرب عشر سنين. وأن من أحبّ أن يدخل في عهد رسول الله ﷺ وعقده دخل فيه، ومن أحبّ أن يدخل في عهد قريش وعقدهم دخل فيه، وبناء على هذا دخلت بنو بكر في عقد قريش، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ.»

ولم تمض سنتان على الهدنة إلا هاجمت بنو بكر على خزاعة، وقاتل معهم من قريش من قاتل بالليل مستخفيا، (وهم: صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، وسهيل هو الذي وقّع صلح الحديبية) حتى حاذوا خزاعة إلى الحرم، فلما انتهوا إليه، قالت بنو بكر: إنا قد دخلنا الحرم، إلهك، إلهك.

فقيل: لا إله اليوم(٢)، يا بني بكر أصيبوا ثأركم.

خروج عمرو بن سالم الخزاعي إلى النبيﷺ ومسيره لفتح مكّة:

فلما دخلت خزاعة مكة، لجأوا إلى دار بديل بن ورقة الخزاعي، فلما تظاهرت قريش على خزاعة، وأصابوا منهم ما أصابوا، ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد والميثاق بما استحلّوا من خزاعة، خرج عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين نفرا من خزاعة ممن سلموا من الحرب، حتى قدموا على رسول الله ﷺ في المدينة، وكان ذلك مما

(١) بفتح مكة وما بعده، من أحداث حنين، والطائف، والجعرانة، تمت تصفية كيان المشركين، وعادت سيادة هذه المناطق لدولة الإسلام. (صلاح)

(٢) ابن هشام (٢/ ٣٩٠).

هاج فتح مكة، وقد قصّ عمرو بن سالم على رسول الله ﷺ قصة الدمار، الذي لحقهم بهجوم بني بكر وقريش، في أبيات قالها عن هذا الحادث، منها:

إن قريشـــا أخلفـــوك الموعـــدا ... ونقضـــوا ميثاقـــك المؤكّـــدا

وجعلـــوا لي في كـــداءٍ رُصّـــدا ... وزعمـــوا أن لســـت أدعـــو أحـــدا

وهـــم أذلّ وأقـــلّ عـــددا ... هـــم بيتونـــا بـــالوتير[1] هجّـــدا

فقتلونا ركّعا وسجّدا[2]

ولما سمع ذلك رسول الله ﷺ قال: نُصرت يا عمرو بن سالم[3].

وحفاظا على الصلح، وانتصارًا للمظلوم، وتأمينا للقبائل المسالمة خرج رسول الله ﷺ إلى مكة في عشرة آلاف من المسلمين[4].

---

(١) ابن هشام (٢/ ٣٩٢). الوتير: اسم ماء بأسفل مكة لخزاعة. (معجم البلدان ٥/ ٣٦٠).

(٢) وردت هذه الأبيات في المصادر مع تقديم وتأخير وزيادة وحذف، والشعر الأخير يدل على أن من خزاعة من أسلم، ولكن اتفق المؤرّخون على أن رسول الله ساعد خزاعة قبل إسلامهم. [راجع لترتيب الأبيات «السيرة النبوية» لابن هشام: (ص٥٤٠، ط. دار ابن حزم)، وفتح الباري (٧/ ٥٢٠) والإصابة: (٢/ ٥٣٦-٥٣٧ رقم ٥٨٣٥ ترجمة عمرو بن سالم الخزاعي) (صلاح)]

(٣) [سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٩٠] أخرجه ابن إسحاق في المغازي، ورجاله ثقات، وصرّح فيه بالتحديث. (الإصابة: ٢/ ٥٢٩، ترجمه عمرو بن سالم رقم (٥٨٣٧)، راجع للتفصيل فتح الباري (٧/ ٥١٩-٥٢٠) «صحيح السيرة النبوية» للعلي (٤٠١-٤٠٢ مع التعليق) وسيرة المصطفى ﷺ للأعظمي (١/ ٦٧٥، ٦٧٦ رقم ٦٥٣)، وقال: حسن، ورواه البيهقي في الدلائل (٥/ ٦-٧) من حديث يونس بن بكير عن ابن إسحاق، قال: حدثني الزهري عن عروة بن الزبير عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة فذكراه. وإسناده حسن من أجل محمد بن إسحاق، فإنه صرّح بالتحديث، وهو في سيرة ابن هشام (٢/ ٣٩٠) من هذا الوجه نحوه. **وذكر تضعيفه الألباني في فقه السيرة (ص٣٧٣)، والملّاح في «التعليق على الرحيق (ص ١٧٠) من حديث أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.»** (صلاح)

(٤) ابن هشام (٢/ ٤٠٠)، الطبري (٣/ ١١٠)، البخاري في كتاب المغازي (رقم ٤٢٧٦، ٤٧٧٩، ١٩٤٤، ١٩٤٨)، ومسلم (رقم ١١١٣)، عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وهنا نقرأ الإصحاح (٥/ ١٠) من نشيد الإنشاد (ص:٩٨٩) «حبيبي أبيض وأحمر معلم بين =

وبعد أن ساروا مرحلتين(١) لقيهم أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب(٢) وعبد الله ابن أبي أمية(٣) بنيق العقاب، [فيما بين مكّة والمدينة] وكان من الذين بالغوا في إيذاء النبي ﷺ، والقضاء على الإسلام، فالتمسا الدخول عليه، ولكنه ﷺ أعرض عنهما، بعد أن

ربوة»، ويقول فقر الآية (١٦) من الأصحاح: كله مشتبهات هذا حبيبي وهذا خليلي يا بنات أورشليم.

وقد اتفق القساوسة على أن الهيكل في نشيد الإنشاد، قد هتف بهذا الهتاف في حبّ صالح موعود، ثم يحدّدونه بالمسيح.

ولكن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو مؤلف النشيد، بنفسه قد أظهر اسم «محمد»، كما جاء في التوراة التي بالعبرانية «خلو محمديم» **وقال: إنه يدخل الهيكل مع عشرة آلاف رجل، وهذا لايترك شكًّا في تحديد المراد بما ذكر.**

ولعل قائلا يقول: إن قدوم محمد ﷺ مع عشرة آلاف رجل، لايثبت بهذا الإخبار، ولذا نحيله إلى مصدر آخر، وهو كتاب التثنية (الأصحاح ٣٣، الدرس ١، ٢) فقد ورد فيه: وهذه هي البركة التي بارك بها موسى رجل الله بني إسرائيل قبل موته، فقال: جاء الربّ من «سيناء» وأشرق لهم من «سعير» وتلألأ من جبل «فاران»، وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم.

والمراد بالمجيء من «سيناء»، هو موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبمجيء الربّ من «سعير» هو عيسى، وبقية الأخبار عن النبي ﷺ الذي ظهر مع عشرة آلاف من الصحابة من جبل «فاران» لأهله، والمراد بشريعة نار هو الشريعة النورية والسماويّة، فإن موسى سمع كلام الربّ من النار، والمراد بـ«لهم» أن أهل مكة أسلموا وقت فتحتها.

(١) المرحلتان: تثنية المرحلة: وهي وحدة قياس لمسافات عربيّة قديمة، تساوي نحو (أربعين كيلًا وثلاث مئة وعشرين مترا). (صلاح)

(٢) **أبو سفيان:** ابن عم النبي ﷺ وأخوه من الرضاعة، أرضعتهما حليمة. إنه عامل النبي ﷺ بمعاملات قبيحة، هجاه غير مرة، حتى أجابه حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقصيدته التي يقول فيها:

هجوت محمدا فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء

(رواه الحاكم ٣/ ٤٣-٤٤، وذكره الأعظمي في سيرة المصطفى الصحيحة: ١/ ٧٠٠)، وهو مخرّج في مسلم: ٢٤٩٠، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا). (صلاح)

(٣) عبدالله بن أبي أميّة المخزومي: صهر النبي ﷺ وأخو أم سلمة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وابن عمّته: عاتكة بنت عبدالمطلب. (الإصابة: ٢/ ٢٧٧ رقم ٤٥٤٣). (صلاح)

رآهما، فكلّمته أم سلمة فيهما، فقالت: يا رسول الله! هذا ابن عمّك، وابن عمتك وصهرك.

قال: لا حاجة لي بهما.

وقال عليّ لأبي سفيان -فيما حكاه أبوعمر- ائت رسول الله ﷺ من قبل وجهه، فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ٩١﴾ [يوسف: ٩١]. ففعل ذلك أبو سفيان، فقال له رسول الله ﷺ: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٩٢﴾ [يوسف: ٩٢].

ولما سمع أبو سفيان ذلك، أنشد بكل حماس ونشاط ونشوة قصيدة(١)، منها:

لعمـرك إني حـين أحمـل رايـة ... لتغلب خيلَ اللّات خيلُ محمـد

لكالمدلج الحيران أظلـم ليلـة ... فهـذا أواني حين أهـدَى فأهتـدي

هـدانيَ هـادٍ غير نفسـي ودلّنـي ... عـلى الله مـن طـردّتُ كـلّ مُطَـرَّد

فضرب رسول الله ﷺ صدره، وقال: أنت طرّدتني كل مطرّد(٢).

مباغتة النبي ﷺ أهل مكة:

كان النبي ﷺ يحبّ أن يباغت أهل مكة(٣)، فكان كذلك، فإن أهل مكة لم يعلموا

---

(١) في سيرة ابن هشام (٥٤٣-٥٤٤) قصيدة في إسلامه تحتوي على تسعة أبيات، وفيها اعتذار منه إلى النبي ﷺ مما كان مضى منه في إيذائه ﷺ. (صلاح)

(٢) زاد المعاد (٣/ ٤٠٠)، ابن هشام (٢/ ٤٠١). [قال ابن اسحاق: زعموا أنه حين أنشد... قال ﷺ: أنت طردتني كل مطرّد. **قال العلامة الألباني:** حديث حسن، أخرجه ابن جرير الطبري: ٢/ ٢٢٩، والحاكم في المستدرك: ٣/ ٤٣،٤٤، من حديث ابن عباس وقال: «صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وإنما هو حسن فقط». (تعليقه على «فقه السيرة» للغزالي: ٣٧٦، دارالقلم، دمشق) (صلاح)]

(٣) فتوح البلدان للبلاذري (٤٥)، ابن هشام (٤/ ٣٩)، ابن سعد (٢/ ١٣٤).

[والطبراني، ورجاله رجال الصحيح، كما في مجمع الزوائد: ٦-١٦٤-١٦٧، والمطالب العالية رقم ٤٣٦٢، قال ابن حجر: هذا حديث صحيح، وأخرج البخاري من مرسل عروة في المغازي رقم ٤٢٨٠]

=

قدومه ﷺ، إلا بعد ما نزل خارج مكة وأمر بإيقاد النار إعلامًا منه بوصوله هناك.

توجيهات نبوية صادرة للجيش عند دخوله في مكّة:

وفي اليوم الثاني أمر رسول الله ﷺ بدخول الجيش في مكّة من طرق مختلفة، وبأن يلتزم بالأحكام الآتية:

١- أن لا يُقتل من ألقى السلاح.

= ثم اقرؤوا كتاب النبي ملاخي (الإصحاح ٣/ ١-٢) «**ها أنذا أرسل ملاك فيهيء الطريق أمامي، ويأتي بغتة إلى هيكله، السيّد الذي تطلبونه، وملاك العهد الذي تسرّون به هو ذا يأتي قال ربّ الجنود. ومن يحتمل يوم مجيئه، ومن يثبت عند ظهوره؟**»

وهذه العبارة تدلّ على أن كل شخص كان يتطلع إلى الرسول الموعود وإلى معرفة علاماته، وكان الأنبياء السابقون يرون واجبا عليهم أن يبينوا علاماته. وكتاب النبي ملاخي آخر كتب العهد القديم، فمصداق هذا التنبؤ هوالمسيح أو محمد ﷺ كما هو مدّعانا. ولكن المسيح ليس مصداقا لهذه التنبؤ للأمور الأتية:

١- إن متّى لم يجعل هذا التنبؤ للمسيح، مع أنه جمع أخبار المسيح في الإنجيل.

٢- ولم يذكر أحد من المؤلفين النصارى الأفاضل هذا الإخبار في حقّ المسيح.

٣- والنصارى يقولون للمسيح ابن الله، لا أنه رسول.

٤- ولم ينغلب الأعداء أمامه في الهيكل، بل إنهم غلبوه.

أما محمد ﷺ فيصدق عليه هذا الإخبار لما يأتي:

١- أن كلمة الهيكل تدلّ على أنه يأتي إلى المكان الذي جعله هو هيكلا، والنبي ﷺ هو الذي جعل الكعبة قبلة، وذلك قبل فتح مكة بسبع سنوات.

٢- إن قوله «يأتي بغتة» نقارن به دعاء النبي ﷺ: «اللهم اضرب على آذانهم حتى نبغتهم بغتة» وهكذا كان.

٣- ولفظ «ربّ الجنود» براعة استهلال، على أنه يدخل مع الجيش.

٤- لم يصمد أحد من أهل مكة في مقاومة النبي ﷺ.

٥- و«ملاك العهد» يدلّ على نفس المعنى، الذي دلّ عليه قول يحيى المعمّد «النبي»، وأنكر المسيح أنه ليس «النبي». (يوحنا، الإصحاح ١، الدرس٢١).

٢- أن لا يُقتل من دخل الكعبة.

٣- أن لا يُقتل من حبس نفسه في بيته.

٤- أن لا يُقتل من دخل دار أبي سفيان.(١)

٥- أن لا يُقتل من دخل دار حكيم بن حزام.(٢)

٦- أن لا يُعقب الهارب.

٧- أن لا يُقتل الجريح.

٨- أن لا يُقتل الأسير.

ولم تحصل مقاومة للفِرَق التي دخلت في مكّة، إلا لفرقة خالد بن الوليد، فالمشركون قاوموها قليلا ثم انتهى الأمر بفرار المقاومين، وقد قتل في هذه المقاومة اثنان من المسلمين(٣)، وثمانية وعشرون من غيرهم.

دخول النبي ﷺ في مكّة مطرقًا رأسه، متوجّها إلى الكعبة:

ودخل(٤) رسول الله ﷺ مكة في العشرين من رمضان، خاشعا مطرق

---

(١) لما جمع النبي ﷺ الأنصار على الصفا، جاء أبو سفيان، فقال: يا رسول الله! أبيدت خضراء قريش، لا قريش بعد اليوم. قال رسول الله ﷺ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن». (مسلم: ١٧٨٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
وروى أبوداود كذلك أن العباس جاء بأبي سفيان إلى النبي ﷺ بمرّ الظهران فأسلم قبل يوم الفتح، فقال العباس للنبي ﷺ: يا رسول الله! إن أبا سفيان يحبّ هذا الفخر فلو جعلت له شيئًا، قال: نعم! من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن. (حسنه الألباني في صحيح أبي داود، رقم ٣٠٢١) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.(صلاح)

(٢) خرج مع أبي سفيان يلتمس الخبر عن رسول الله ﷺ قبل الفتح حتى أتوا مرّ الظهران، وأخذوا هناك. (صلاح)

(٣) وهما: حبيش الأشعر الخزاعي، (ويقال بن الأشعر وهو أخو أم معبد) وكرز بن جابر الفهري رضي الله عنهما. (البخاري رقم ٤٢٨٠) والإصابة (١/ ٣١٠ رقم ١٦٠٧) (صلاح)

(٤) دخل ﷺ من كداء، التي بأعلى مكة. (البخاري ٤٢٩٠، ومسلم ١٢٥٨ عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها) (صلاح)

الرأس[١]. يتلو سورة الفتح متوجها إلى بيت الله على ناقته[٢]، وقد أردف معه أسامة بن زيد مولاه.

تحطيم النبي ﷺ الأصنام داخل الكعبة:

ولما وصل ﷺ هناك طهّر أوّلا بيت الله من الأصنام التي بلغ عددها ثلاثمائة وستون صنما، فكان ﷺ يوقع صنما صنما بقضيب في يده، ويقرأ:

﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١][٣]

وقوله تعالى: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ [سبأ: ٤٩][٤]

صاحب مفتاح الكعبة عثمان بن أبي طلحة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:

ولما انتهى ﷺ من ذلك، دعا عثمان بن أبي طلحة، وأخذ منه مفتاح الكعبة، فأمر بها، ففتحت.

---

(١) [هكذا دخل النبي ﷺ في مكة بعد فتحها، وعليه عمامة سوداء من غير إحرام مسلم ١٣٥٨ عن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ]، وحين يدخل أهل الحكومات بلادًا مفتوحة بمثل هذه المناسبات يدخلونها بكل أبهة وعظمة. [وهذا من الفروق بين نبيّ مرسل وحاكم مسلّط.]

(٢) [البخاري (رقم ٢٨١)، مسلم (٧٩٤)، عن عبد الله بن مغفل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال فيه: «قرأ النبي ﷺ يوم فتح مكة سورة الفتح فرجّع فيها...» (رقم ٧٥٤٠) أي في القراءة. (صلاح)]

أمور مشابهة بين المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والنبي ﷺ:

واقرؤوا الآن كتاب أشعيا (٢١/ ٧)، الذي ورد فيه ذكر راكب حمار وراكب جمل كتنبؤ، فراكب الحمار هو المسيح، وراكب الجمل هو محمد ﷺ، وقارنوا بين أحوالهما، فالمسيح ذهب إلى بيت المقدس راكبا على الحمار وأخرج منه أصحاب الدكاكين وباعة الحمام، وطهّر بيت الله. وذهب محمد ﷺ إلى الكعبة راكبا على الجمل، وأخرج منها الأوثان، فكلاهما صدّق تنبؤ النبي أشعياء.

(٣) راجع البخاري (٢٤٧٨) ومسلم (١٧٨١) عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. (صلاح)

(٤) البخاري (٥/ ٩٢) [رقم٤٢٨٧، ومسلم ١٧٨١] عن عبدالله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. أبطل الله الوثنية في الآيتين (الأولى والثانية)، وأخبر بأن الأصنام لاتوضع أبدا في هذا البيت، قد مرّ على هذا الأمر أربعة عشر قرنا ويظهر صدق هذا التنبؤ الذي تنبأ به النبي ﷺ بإعلام الله إياه، هل يستطيع أحد أن يشك في كونه نبيّا مختارًا وصادقا فيما يقول؟!

قال ابن سعد: عن عثمان بن أبي طلحة، قال: كنا نفتح الكعبة في الجاهلية يوم الاثنين والخميس، فأقبل رسول الله ﷺ يوما، يريد أن يدخل الكعبة مع الناس، فأغلظت له ونلتُ منه، فحلم عنّي.

ثم قال: «يا عثمان لعلّك سترى هذا المفتاح يوما بيدي، أضعه حيث شئتُ.

فقلت: لقد هلكت قريش يومئذ وذلّت؟

فقال: بل عمرت وعزّت يومئذ[1].

تجمّع صناديد مكة وعظمائها عند دخول النبي ﷺ الكعبة:

ولما دخل رسول الله ﷺ الكعبة، كبّر في نواحيه، ووحّد الله، وصلّى، وسجد لله جلّ وعلا في غاية التضرّع والإنابة.

وتجمّع أثناء ذلك رؤساء مكّة وكبارها من الذين:

١- قتلوا عشرات من المسلمين.

٢- وآذوا منهم مئات وأخرجوهم من بيوتهم.

٣- وسافروا إلى الحبشة والشام ونجد واليمن للقضاء على الإسلام.

٤- وهاجموا على المدينة مرّات، فعكّروا على المسلمين حياتهم، بعد أن اضطروهم لترك الوطن والتخلّي عن المال والأهل.

إنهم قد بذلوا قصارى جهدهم بالمال والسلطة والحيلة والأسلحة والكيد والتزوير، لاستئصال المسلمين، واستمروا في ذلك لإحدى وعشرين سنة.

اليوم يوم برّ ووفاء، هاك مفتاحك يا عثمان:

إن رسول الله ﷺ الذي بعثه الله رحمة للعالمين، قد جلس بعد الصلاة خارج الكعبة،

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/ ١٣٦) [أخرجه ابن هشام: ٢/ ٤١١-٤١٢، وسنده قويّ، وصرّح ابن إسحاق بالتحديث، فزالت شبهة التدليس، وحسنه الحافظ في الفتح: ٨/ ١٥، وأخرجه أبو داود رقم ١٨٧٨، وحسنه المزيّ. («صحيح السيرة النبوية» ص٤٢، رقم ٦٧٠، مع التعليق، وسيرة المصطفى الصحيحة: ١/ ٧٠٩، رقم ٦٨٢) (صلاح)]

فتطاول العباس لأخذ المفتاح في رجال من بني هاشم، فردّه رسول الله ﷺ إلى عثمان بن أبي طلحة، وقال: هاك متفاحك يا عثمان، اليوم يوم برّ ووفاء، لاينزعها منكم إلّا ظالم[١].

خطبة النبي ﷺ أمام المفتوحين والأعداء[٢]:

ثم توجّه رسول الله ﷺ إلى الجماعة، التي استوجبت القتال، **فقال:**

«لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء. الناس من آدم، وآدم من تراب. ثم تلا هذه الآية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣]

ثم قال: يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟

قالوا: خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم.

قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء[٣].

بيعة الرجال وبنودها:

ثم اجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله ﷺ على الإسلام، فجلس لهم على الصفا،

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٤١٢، وفيه: ذكر علي بن أبي طالب، بدل العباس رضي الله عنهما] وطبقات ابن سعد (٢/ ١٣٧) [بإسناده عن الزهري، عن بعض آل عمر بن الخطاب ففيه شيخ الزهري مبهم. ذكره العلّامة أحمد شاكر في «عمدة التفسير»: ١/ ٥٢٧، وأشار في مقدمته إلى صحته. (صلاح)]

(٢) ذكر شيخنا الأعظمي رحمه الله أربعا من خطب النبي ﷺ يوم الفتح في «سيرة المصطفى الصحيحة» (١/ ٧١١، أرقام ٦٩١-٦٩٩). (صلاح)

(٣) الطبري (٣/ ٦١) [وراجع «ضعيف تأريخ الطبري (٦/ ٢٠٤-٢٠٥ رقم ٣١٠، مع التعليق، **وقال الألباني تعليقًا** على «فقه السيرة» للغزالي (ص٣٨٢): «ضعيف»، رواه ابن إسحاق معضلًا، كما في ابن هشام (٢/ ٢٧٤)، القصة بالرغم من شهرتها في كتب السيرة، لم تثبت بإسناد صحيح، ذكره الألباني في الضعيفة (١١٦٣). أما قوله ﷺ «الطلقاء» في أهل مكّة فقد ورد في بعض الأحاديث الصحيحة راجع «سيرة المصطفى الصحيحة»: ١/ ٧٠٩ رقم ٦٨٧، ٦٨٨). (صلاح)]

وعمر بن الخطاب تحت رسول الله ﷺ أسفل من مجلسه يأخذ على الناس، فبايع رسول الله ﷺ على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا.(١)

وكانت البيعة قد تضمنت الأمور الآتية:

١- إني لا أشرك أحدًا بالله في ذاته وصفاته، واستحقاقه للعبادة والاستعانة.

٢- إني لا أسرق ولا أزني ولا أقتل نفسا بغير حق، ولا أقتل البنات ولا آتي ببهتان.

بيعة النساء:

فلما فرغ رسول الله ﷺ من بيعة الرجال بايعَ النساءَ(٢)، واجتمعت إليه نساء من قريش، فبايعهن على ما بايع عليه الرجال، وزاد:

أن لا يخمشن الوجوه حدادا على أحد، ولا يلطمنّها، ولايثرن الرءوس، ولايشقّقن الجيوب، ولا يلبسن السواد، ولا يجلسن على القبور حزنا.

---

(١) مزج المؤلّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا المقام بين البيعتين: البيعة على الإسلام، والبيعة على السمع والطاعة.

أما البيعة على الإسلام فرواها أحمد (٣/ ٤١٥؛ ٤/ ١٦٨) من حديث الأسود بن خلف وإسناده حسن.

وأما البيعة على السمع والطاعة، فرواها ابن جرير (٢/ ٣٢٧) بدون إسناد، أو من حديث قتادة مرسلًا، والطريق إليه ضعيف. (تخريج «فقه السيرة» للألباني: ٣٨٦، و«التعليق على الرحيق» للملّاح: ١٧٥) (صلاح)

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٣٦٥) من حديث عائشة بنت قدامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، وإسناده حسن، وانظر «الإصابة»(٤/ ٣٥١، رقم ٨١١) كما في «صحيح السيرة» (ص٤٢٠). (صلاح)

(ملاحظة): قارنوا بين ألفاظ هذه البيعة، التي أخذها رسول الله ﷺ من الناس وقت فتحه وانتصاره، وبين ألفاظ بيعة العقبة الأولى، التي أخذها من أهل المدينة في غاشية الليل خارج المدينة [أي: في مكّة]، لاتجدوا بينها فرقا في شيء، هذا هو «المعيار»، وهو يدلّ على عظم شأن الرسول ﷺ. [أي: كلتاهما كانت مشابهة في إيجاب التوحيد، والاجتناب من الشرك، وتعليم الأخلاق الفاضلة.]

طريقة البيعة:

كان النبي ﷺ إذا بايع النساء وضع بين يديه ﷺ إناء فيه ماء، فإذا أخذ عليهن، غمس يده في الإناء، ثم أخرجها، فغمس النساء أيديهن فيه، ثم كان بعد ذلك يأخذ عليهن، فإذا أعطيه ماشرط عليهن قال: اذهبن، فقد بايعتكن، لايزيد على ذلك.

فضالة يريد قتل النبيّ ﷺ في اليوم الثاني من الفتح:

ومما حدث في اليوم الثاني من الفتح، أن فضالة بن عمير الملوح[١]، أراد قتل النبي ﷺ، وهو يطوف في البيت بعد الفتح، فلما دنا منه، قال رسول الله ﷺ: أفضالة؟

قال: نعم، فضالة يا رسول الله!

قال: ماذا كنتَ تحدّث به نفسك؟

قال: لا شيء، كنتُ أذكر الله.

فضحك النبي ﷺ ثم قال: استغفر الله، ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه.

فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري، حتى ما من خلق الله شيء أحبّ إلي منه.

قال فضالة: فرجعتُ إلى أهلي، فمررت بامرأة كنت أتحدّث إليها.

فقالت: هلمّ إلى الحديث!

فقلت: لا، يأبى الله والإسلام ذلك[٢].

عفوه ﷺ يوم الفتح عن الناس إلا ....:

وبيان سيرة الرسول ﷺ يعدّ ناقصا، لولم يذكر عفوه ﷺ عن الإساءات التي تعرّض لها في مكّة، ومن الواضح أنه ﷺ أمر جيشه قبل دخول مكة بأن لايهاجموا أحدًا، ولكنه ﷺ أمر بقتل أربعة من الرجال واثنتين من النساء، لما لهم من الجرائم السابقة، التي

---

(١) راجع لترجمته «الإصابة» (٥/ ٢١٠-٢١١، رقم ٦٩٨٨).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٤١٢). [ضعفه الألباني في «تخريج فقه السيرة» (ص٣٨٣)، وقال: رواه ابن هشام (٢/ ٢٧٦) بإسناده معضل.]

أوجبت عليهم القصاص.

وقتل من هؤلاء الأربعة ابن خطل فقط، وعفا عن عكرمة بن أبي جهل، وهبار بن الأسود، وعبد الله بن أبي سرح.

(١) وإنما أمر بقتل عبدالعزى بن خطل لأنه كان مسلما، فبعثه رسول الله ﷺ مصدّقا، وبعث معه رجلا من الأنصار، وكان معه مولى له يخدمه، وكان مسلما، فنزل منزلا، وأمر المولى أن يذبح له تيسا، فيصنع له طعاما، فنام، فاستيقظ ولم يصنع له شيئا، فعدا عليه فقتله، ثم ارتدّ مشركا.[١]

(٢) **وأما عكرمة فكان ابنا لأبي جهل،** ثم قاتل المسلمين مرارا، وكان له دور في إلحاق الأضرار ببني خزاعة حلفاء المسلمين.

(٣) **وأما هبار،** فهو الذي عرض لزينب بنت رسول الله ﷺ، حين هاجرت، فنخس بها حتى سقطت على صخرة، وأسقطت جنينها، ففرّ، ثم أسلم وحسن إسلامه.

(٤) **وأما عبد الله بن أبي سرح،** فكان يزعم أن الوحي يأتيه، وأن رسول الله ﷺ يتلقّى منه، ثم يملي عليه.[٢]

وما أرحم نبيّ الرحمة، يعفو عن هؤلاء المجرمين!

أما المرأتان:

فقُتلت من بين المرأتين واحدة، لأنّها ارتكبت جريمة قتل العمد.

وممن عفا ﷺ من النساء: هند زوجة أبي سفيان، وهي التي مضغت كبد حمزة: عمّ النبي ﷺ، وجدعت أنفه، وأذنه، فجعلت منها عقدا.[٣]

---

(١) سنن أبي داود [عن أنس بن مالك رقم ٢٦٨٥، وكذا البخاري ١٨٤٦، ومسلم ١٣٥٧. (صلاح)]

(٢) راجع أسماء بعض المشركين الآخرين أيضًا، الذين أهدر النبي ﷺ دماءهم يوم الفتح، في «فتح الباري» (٨/ ١١ جمعها ابن حجر من مفرقات الأخبار) و كتاب «صحيح السيرة النبوية» للعلي (٤١٣-٤١٤). (صلاح)

(٣) تقدم عند ذكر شهاده حمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في غزوة أحد أن قصة تمثيل هند بنت عتبة لجسد حمزة لا تصحّ. فقد ثبت التمثيل بجثته بطرق صحيحة، إلا أن هندًا بريئة من هذا الفعل المشين، وذلك =

وعفا عن وحشيّ، الذي هو قاتل حمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومثّل جسده.

فتح مكة كان عنوة أم صلحًا؟:

ويبدو بإمعان النظر في الظروف والأحوال، أن مكة لم تفتح عنوة بل صلحا[1]، والنبي ﷺ فتح قلوب أهل مكة بخلقه وعفوه ورحمته.

ولذا لم يتمّ الاستيلاء على أموال الكفّار وممتلكاتهم مثل الغنائم.

ودور المسلمين المهاجرين، كانت بأيدي الذين أخرجوهم، فلم يردّها رسول الله ﷺ إلى المهاجرين، ولا ردّ عليهم ممتلكاتهم، وكأنه ﷺ أراد أن الشيء الذي تخلّوا عنه في سبيل الله،

=

لضعف جميع الطرق التي تفيد تمثيل هند لجثته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وقال الشيخ عبد الله بن مانع: «وأيضًا عادة النساء الضعف والقصور عن مثل هذا، فلا السند صحيح، ولا القدرة صالحة، ولم يكن من عادة العرب فعل هذا في التشفي، ولم يكن موتورهم يفعل ذلك، فكيف بنسائهم.» («التعليق على الرحيق» للملّاح: ١٥٢-١٥٣) (صلاح)

(١) **اختلف العلماء في فتح مكة، عنوة كان أم صلحا:**

[في الحديث الذي فيه التصريح بعموم التأمين، فكان هذا أمانا منه، لكل من لم يقاتل من أهل مكة، **فمن ثَمّ قال الشافعي**: لم يكن فتح مكة عنوة، والأمان كالصلح، وأما الذين تعرّضوا للقتال، أو الذين استثنوا من الأمان، وأمر أن يقتلوا، ولو تعلّقوا بأستار الكعبة، فلا يستلزم ذلك أنها فتحت عنوة.

ويمكن الجمع بين حديث أبي هريرة في أمره ﷺ بالقتال، وبين حديث تأمينه لهم، بأن يكون التأمين علّق بشرط، وهو ترك قريش المجاهرة بالقتال... لم يستلزم أن أوباشهم الذين لم يقبلوا ذلك، وقاتلوا خالد بن الوليد ومن معه، فقاتلهم حتى قتلهم وهزمهم، أن تكون البلدة فتحت عنوة، لأن العبرة بالأصول، لا بالأتباع، وبالأكثر، لا بالأقلّ.

ولا خلاف مع ذلك أنه لم يجر فيها قسم غنيمة، ولا سبيُ من أهلها ممن باشر القتال، وهو مما يؤيّد قول من قال، لم يكن فتحها عنوة.

الحق، أن صورة فتحها كانت عنوة، ومعاملة أهلها كانت معاملة من دخلت بأمان. (راجع للتفصيل «فتح الباري» (٨/ ١٢-١٣)، ومعالم السنن للخطابي (٢/ ٤١٦-٤٢٠) و «السيرة النبوية في فتح الباري «للشنقيطي» (٣/ ١١٤-١١٥) (صلاح)]

لاينبغي أن يستردّ إليهم.[1]

تشابه بين يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ونبينا ﷺ في نبوءات سابقة:

وقبل أن أنتهي من ذكر فتح مكّة، أودّ أن ألفت أنظار القرّاء إلى نبوّة عظيمة أخرى، وهي: أن سورة يوسف، نزلت بمكّة، قال الله تعالى في نهايتها:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ [يوسف: ١٠٢].

وينبغي الآن، أن نقارن بين أحوال يوسف الملقّب بالكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، وأحوال الرسول ﷺ، كي نعرف مدى التشابه بينهما[2]:

١- **إن إخوة يوسف** حسدوه لكمالاته الروحيّة، وكذلك إخوة الرسول ﷺ حسوده لنفس السبب.

٢- **مكث يوسف في البئر** وقتًا ما، وكذلك أقام رسول الله ﷺ في الغار مدّة.

٣- **قضى يوسف أعوامًا** في السجن، وكذلك حصر النبي ﷺ عدة سنين في شعب أبي طالب.

٤- **حظي يوسف بالعزّة** والكرامة بعد خروجه من الوطن إلى مصر، وهكذا وقع للنبي ﷺ، بعد ما خرج من مكّة إلى المدينة.

٥- **ذهب إخوة يوسف** يطلبون منه الميرة أيام القحط، وكذلك إخوة الرسول ﷺ طلبوا منه مثل ذلك، فقد ورد في صحيح البخاري[3] أن أهل مكة أصيبوا بقحطٍ شديد، فجاء أبو سفيان إلى الرسول ﷺ، وقال له: يا محمد جئت تأمرنا بصلة الرحم، ونحن نموت قحطا، فادع الله لنا، فدعا لهم فرفع عنهم.

٦- **أرسل يوسف الطعام** من مصر لإخوته في كنعان، وكذلك أمر رسول الله ﷺ

---

(١) عن وهب بن منبّه قال: «سألت جابرًا، هل غنموا يوم الفتح شيئًا؟ قال: لا.» (رواه أبو داود، وذكر الألباني في «صحيح أبي داود» (٣٠٢٣). (صلاح)

(٢) زاد المعاد (٣/ ٤٠٧).

(٣) البخاري رقم (١٠٢٠) عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. (صلاح)

ثمامة بن أثال، فأتى بالطعام من نجد إلى مكة.

٧- **إن إخوة يوسف سلّموا له عظمته عاقبة الأمر،** وكذلك اضطرّ إخوة رسول الله ﷺ للاعتراف بمكانته السامية، ومنزلته الرفيعة.

٨- **دعا يوسف** عَلَيْهِ السَّلَامُ لمن آذوه من إخوته بقوله: «يغفر الله لكم.» وكذلك دعا رسول الله ﷺ لابن عمّه أبي سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب، وعبد الله بن أمية بمثل ذلك، مع أنّهما كانا من المبالغين في إيذائه ﷺ.

٩- **إن يعقوب** عَلَيْهِ السَّلَامُ بيّن علو منزلة يوسف، وكذلك آمن بالرسول عمّه العباس ابن عبد المطلب، والعمّ صنو أبيه.[1]

١٠- **عفا يوسف عن إخوته** بقوله: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢]، وكذلك فرّج رسول الله ﷺ بهذه الكلمة الطيبة عن إخوته، الذين بالغوا في إيذائه.

وبما أن الرسول ﷺ أخبر بجميع هذه الأحوال في مكّة، وهي كلّها وقعت، وتحقّقت إلى زمن فتح مكّة، تمّ إعلان سورة يوسف في مكّة بين المنكرين، لذا ترتبط هذه السورة بفتح مكة ارتباطا خاصا، وهي بأسرها نبوءة للنبي ﷺ.

من نتائج الفتح: دخول الناس في دين الله أفواجا:

وبعد فتح مكّة، (الذي هو خير ألف مرة من الصلح والعفو)، ازداد عدد الداخلين في الإسلام كثيرا، وكان ذلك لأسباب تالية:

١- **امتنعت كثير من القبائل عن الإسلام،** لأنّها عاهدت قريشًا، فرأوا الدخول في الإسلام خروجا على العهد.

٢- **امتنعت كثير من القبائل** عن الإسلام لكونها ضعيفة بالنسبة لقريش، وكانت لها صلة أو قرابة في قريش، فزعموا أن الإسلام يقضي على هذه الصلة، وأنهم سوف يتعرضون لسخط قريش وغضبهم.

---

(١) راجع «صحيح مسلم» (٩٨٣) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. (صلاح)

٣ - **وكثير من القبائل رأت أن السيطرة على مكّة**، هي إمارة الصدق ورضا الله تعالى، فقد اعتقدوا منذ مئات السنين، أن مكّة لايمكن أن تقع تحت سيطرة من لاينال تأييد رب العالمين ونصره. فيقولون: اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبيّ صادق(١).

٤ - **كان لايزال عشرات من الشيوخ** في عدة قبائل، قد رأوا جيوش أبرهة: فاتح اليمن، التي بلغت أربعين ألفا(٢)، تهاجم على مكة، وكان فيها فيلة، وكان فيل أبرهة من نسل محمود(٣).

وقبل الفتح بستين سنة(٤)، رأى هؤلاء الشيوخ بعيونهم الحبشة، يهاجمون على مكة، ورأو أيضًا أن أهل مكة صعدوا إلى الجبال خوفا منهم، حتى لم يبق في

---

(١) البخاري في كتاب المغازي (٥/ ٩٥) بطريق عمرو بن سلمة [رقم ٤٣٠٢، وفيه: فلما كانت وقعة أهل الفتح، بادر كل قوم بإسلامهم].

(٢) ذكر الأستاذ سيديو الفرنسي في كتابه «خلاصة تأريخ العرب» أن عدد جيش الحبشة كان أربعين ألفا، وقال: إن القائد أبرهة الأشرم (وهو نائب النجاشي في اليمن) كان قد بنى في صنعاء صومعة غريبة البناء، وكان يريد أن تتوجه إليها بلاد العرب كلها للحج كل سنة، كما يتوجّه الناس إلى الكعبة للحج، فلما لم ينجح في حيله، جاء لهدم الكعبة المشرفة، يقول الشاعر القديم عبد الله بن الزبعري في قصيدته عن هذه الحادث:

واسئل أمير الجيش عنّا ما أرى ... ولسوف ينبي الجاهلين عليمها

ستّون ألفا لم يؤوبوا دارهم ... بل لم يعش بعد الإياب سقيمها

وبما أن الأستاذ سيديو كتب أن القائد أرياط (Aryat) كان قد جاء بسبعين ألفًا، من الجيش في عام ٥٢٥ ق. م. فلا يستبعد أن يكون قول الشاعر العربيّ فيما يتعلق بعدد الجيش صحيحا، وأن يكون الأشرم نائب أرياط وقاتله، ترك في اليمن عشرة آلاف، وجاء بستين ألفا إلى مكة.

(٣) كان نوعا من الأفيال عظيم الجثة، وهو معدوم الآن في العالم، يسمّى هذا النسل في اللغة الإنجليزية (Mamat)، فعرّبه العرب، فجعلوه «محمود» (راجع «تأريخ دول العرب»).

(٤) في زماننا (سنة ١٩١٢ م) أيضا، لايزال يوجد بعض الجنود الذين شهدوا فتح دهلي ومحاصرة لكناؤ [سنة ١٨٥٧م] وحتى الذين عاشوا حرب كريميا.

مكة من يقاوم المهاجمين، ولكن مع ذلك أصيب المهاجمون بالهلاك والدمار، وهرب القائد تاركًا الجيش والفيلة، بل كانت جثثهم تخيس وتنتن خارج مكة، على بعد أربعة أميال.

وكان هؤلاء الأشياخ يتذكرون ما دار من الكلام بين عبد المطلب وأبرهة حين نزل جيش أبرهة في حدود مكّة، وبعث أبرهة رجلا من الحبشة، يقال له الأسود بن مقصود على خيل له، حتى انتهى إلى مكة، فساق إليه أموال أهل تهامة، وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم، وهو يومئذ كبير قريش وسيّدها.

وبعث أبرهة حناكة الحميري، وقال له: سل عن سيّد أهل هذا البلد وشريفها، ثم قل له: إن الملك يقول لك: إني لم آت لحربكم، إنما جئت لهدم هذا البيت.

فلما دخل حناكة مكة جاء عبد المطلب، فقال له ما أمره به أبرهة، وانطلق معه إلى الملك، واستأذن له أنيس سائس الفيل، فقال له:

هذا سيّد قريش ببابك يستأذن عليك، قال: فأذن له أبرهة.

قال: وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم، فلما رآه أبرهة، أجلّه وأعظمه وأكرمه عن أن يجلسه تحته، وكرّمه أن تراه الحبشة، يجلس على بساطه.

ثم قال لترجمانه: قل له حاجتك؟

فقال: حاجتي أن يردّ عليّ الملك مائتي بعير، أصابها لي.

قال أبرهة: قد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدتُ فيك حين كلّمتني، أتكلّمني في مائتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتا هو دينك، و دين آبائك، قد جئتُ لهدمه لاتكلّمني فيه؟

قال له عبد المطلب: إني أنا ربّ الإبل، وإن للبيت ربّا سيمنعه.

قال: ما كان ليمتنع مني، قال: أنت وذاك[1].

---

(١) سياق هذه القصّة (قصة هجوم أبرهة على مكة) فيه اختلاف، وتقديم وتأخير ونقص وزيادة.
=

والحاصل: أن السيطرة على مكّة لما تمّت للمسلمين بهذا اليسر والنجاح، زال عائق العهود من الراغبين في الإسلام، وكذلك ذهب ضغط قريش وخوفهم، فإنهم قد رأوا أن المسلمين يتمتعون بحبّ الله وتأييده حسب مقياسهم، وهكذا ازداد عدد المسلمين.

٥- **والسبب الخامس والأخير:** أنه لم يعد مانع للدعاة إلى الله في سبيل شرح مبادئ الإسلام، وتوضيح حقائقه، فكان الدعاة يدعون الناس إلى الإسلام، ويوجّهونهم إلى الخير بحرّية تامّة، وكان المدعوون يصغون لهم بهدوء وطمأنينة، وهكذا بدأت قوّة جاذبية الإسلام الكاملة، تعمل عملها بين الناس لجذبهم إليها بنفسها.

=

راجع «ضعيف تأريخ الطبري» (٦/ ٤٥٧-٤٦٦، رقم ٨٢٨-٤٣٠)، والخبر في سيرة ابن هشام (١/ ٤٢)، وأخرجه البيهقي في «دلائل النبوّة» (١/ ١١٥) والله أعلم (٦/ ٤٦٤ تعليقا) وفتح الباري (٨/ ٧٢٩) (صلاح)

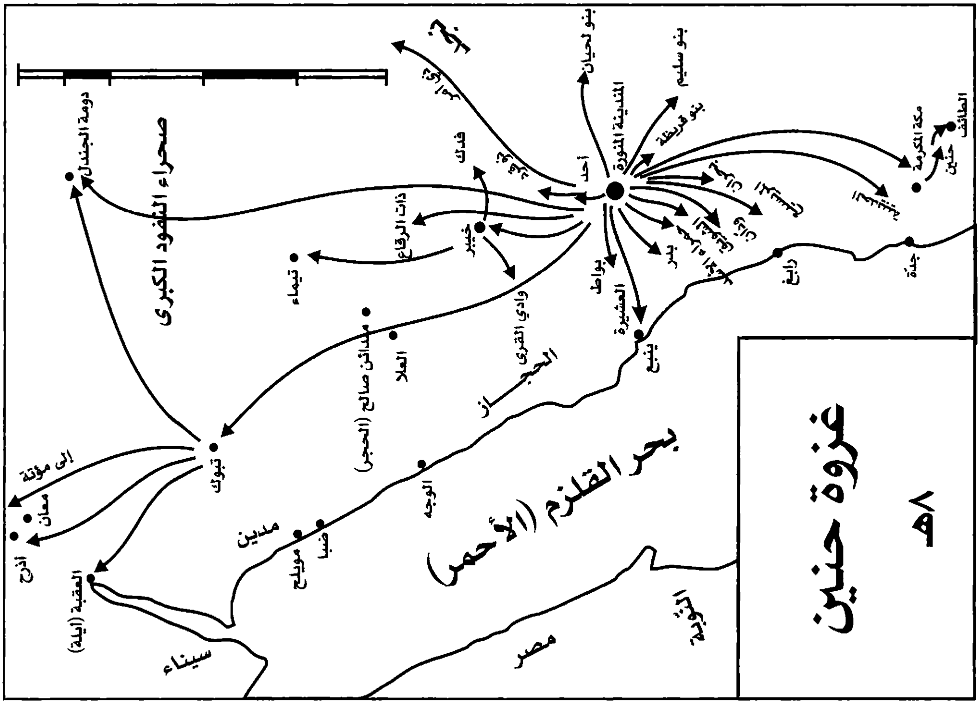
غزوة حنين
٨هـ
المدينة المنورة
بنو لحيان
بنو سليم
بنو قريظة
أحد
فدك
خيبر
ذات الرقاع
تيماء
وادي القرى
مدائن صالح (الحجر)
العلا
دومة الجندل
صحراء النفود الكبرى
تبوك
إلى مؤتة
معان
أذرح
العقبة (أيلة)
سيناء
مدين
مويلح
ضبا
الوجه
الحجاز
بحر القلزم (الأحمر)
مصر
النوبة
ينبع
العشيرة
بواط
بدر
رابغ
جدة
مكة المكرمة
الطائف
حنين

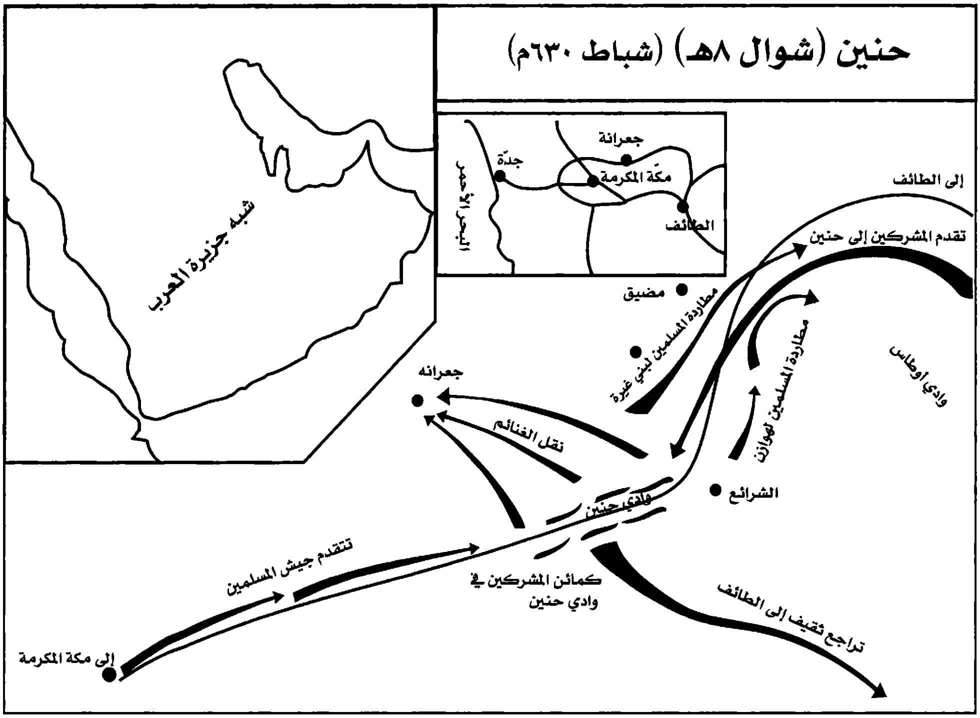
حنين (شوال ٨هـ) (شباط ٦٣٠م)
شبه جزيرة العرب
جعرانة
جدّة
مكّة المكرمة
الطائف
إلى الطائف
تقدم المشركين إلى حنين
مضيق
مطاردة المسلمين لبني غيرة
مطاردة المسلمين لهوازن
وادي أوطاس
جعرانه
نقل الغنائم
الشرائع
وادي حنين
تقدم جيش المسلمين
كمائن المشركين في
وادي حنين
تراجع ثقيف إلى الطائف
إلى مكة المكرمة

غزوة حنين[١] (شوال سنة ٨هـ)

دفاع عن هجوم هوازن وثقيف

وبعد فتح مكة فكرت هوازن[٢] وثقيف -وكانت حدودهما متصلة بمكة- فيما لو أنهم هزموا المسلمين، لعادت إليهم بساتين أهل مكة وأراضيهم بالطائف[٣]، ولأمكنهم الانتقام من المسلمين على كسرهم أوثانهم وأصنامهم.

فجمعوا معهم قبائل بني نصر وبني هلال، وخرجوا إلى مكة في أربعة آلاف من الشجعان، ونزلوا بوادي حنين، وأشار عليهم رئيسهم مالك بن عوف، فأتوا بنسائهم وصبيانهم وأموالهم، وذلك كي لا يفرّ منهم أحد.

ولما سمع النبي ﷺ بهم، وكان لا يحب القتال في الحرم، خرج من مكة، ومعه ألفان من أهل مكّة وعشرة آلاف من أصحابه، الذين خرجوا معه، ففتح الله بهم مكة، فكانوا اثنى عشر ألفا، وقد أعجبتهم هذه الكثرة، فابتعدوا من الحزم والحيطة والحذر[٤].

اشتداد المعركة وقوله ﷺ: «أنا النبيّ لا كذب»:

يقول جابر بن عبد الله: لما استقبلنا وادي حنين، انحدرنا في واد من أودية تهامة أجوف حطوط، إنما ننحدر فيه انحدارا.

---

(١) (حنين): وادٍ إلى جنب ذي المجاز، قريب من الطائف، بينه وبين مكة بضعة عشر ميلا من جهة عرفات. في «معجم البلدان» للحموي (٢/ ٣١٣): «بينه وبين مكة ثلاث ليال». (صلاح)

(٢) هوازن قبيلة معروفة من العرب، فيها عدّة بطون، ينسبون إلى هوازن بن منصور. (فتح الباري: ٨/ ٢٩). (صلاح)

(٣) فتوح البلدان للبلاذري (ص٦٣).

(٤) وقد نزل فيه قوله تعالى:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝٢٥﴾ [التوبة: ٢٥]. (صلاح)

قال: وفي عماية الصبح، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي، فكمنوا لنا في شعابه وأحنائه ومضايقه، وقد أجمعوا وتهيّأوا وأعدّوا، فوالله ما راعنا، ونحن منحطون، إلا الكتائب، قد شدّوا علينا شدّة رجل واحد، وانشمر الناس راجعين، لا يلوي أحد منهم على أحد، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين، ثم قال:

«إليّ أيّها الناس؟ هلمُّوا إليّ، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله، وبقي مع رسول الله ﷺ نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته.

وفيمن ثبت معه من المهاجرين أبوبكر وعمر.

وكان أبو سفيان بن الحارث يقود بالنبي ﷺ بغلته يوم حنين، فلما غشي المشركون النبي ﷺ، نزل فجعل يرتجز، ويقول:

أنا النبيّ لا كذب أنا ابن عبد المطّلب(١)

معناه: أن معيار صدقي لا ينحصر على انتصار جيش أو انهزامه، بل صدقي نابع من ذاتي بأني عبد الله ورسوله.

هتاف العباس بالصحابة للعودة:

ثم بدأ العبّاس -عمّ النبيّ ﷺ- ينادي الصحابة، ويقول: يا معشر الأنصار!(٢) ويا معشر المهاجرين!

فأجابوا: لبيك، لبيك!

قال: فيذهب الرجل ليثني بعيره فلا يقدر على ذلك، حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا الناس، فنظّم الجيش من جديد، وتقدّم الأنصار والمهاجرون، فهرب العدوّ،

---

(١) البخاري (٥/ ٩٨ [رقم٢٨٦٤، ٤٣١٦، ٤٣١٧])، ومسلم (٢/ ١٤٠٠-١٤٠١ [رقم ١٧٧٦] عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. [وفيه: ما روئي من الناس أشدّ منه]

(لا كذب): فيه إشارة إلى أن صفة النبوة يستحيل معها الكذب، فكأنه قال: أنا النبيّ، والنبي لا يكذب، فلست بكاذب فيما أقول حتى أنهزم، وأنا متيقن بأن الذي وعدني الله به من النصر حق فلا يجوز عليّ الفرار.

وقيل: معنى قوله: (لا كذب): أي أنا النبيّ حقًّا، لا كذب في ذلك. (فتح الباري: ٨/ ٣١). (صلاح)

(٢) صحيح مسلم (١٧٧٥) بنحوه عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وانقسموا في قسمين:

(١) **قال الطبري**: ولما انهزم المشركون، أتوا الطائف، ومعهم مالك بن عوف[١].

(٢) **وعسكر بعضهم** بأوطاس، وتوجّه بعضهم نحو نخلة، ولم يكن فيمن توجّه نحو نخلة إلا بنو غيرة من ثقيف.

ثم أمر رسول الله ﷺ بمحاصرة الطائف، وبعث في آثار من توجّه قبل أوطاس[٢] أبا عامر الأشعري، فأدرك من الناس بعض من انهزم، فناوشوه القتال فرمي بسهم فقتل، فأخذ الراية أبو موسى الأشعري، وهو ابن أخيه، فقاتلهم، ففتح الله عليه، فهزمهم الله، وقتل قاتل أبي عامر[٣].

غنائم حنين:

ومضى مالك بن عوف حتى تحصّن بحصن ثقيف[٤]، وأمر رسول الله ﷺ بالسبي والغنائم أن تجمع، فجمع ذلك كلّه، ووجّهوه إلى الجعرانة، وكان السبي ستة آلاف رأس، والإبل أربعة وعشرين ألفا، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية فضّة، فاستأنى بهم رسول الله ﷺ أن يقدموا عليه مسلمين بضع عشرة ليلة[٥].

---

(١) هذا هو النصري الذي جمع القبائل من هوازن، ووافقه على ذلك الثقفيون، وقصدوا محاربة المسلمين فبلغ ذلك النبي ﷺ، فخرج إليهم. هذا هو سبب هذه الغزوة.(فتح الباري: ٨/ ٢٧) (صلاح).

(٢) الراجح: أن وادي أوطاس غير وادي حنين، ولما انهزمت هوازن تفرّقوا في الطائف، ونخلة وأوطاس. (فتح الباري: ٨/ ٤٢) (صلاح).

(٣) [البخاري رقم ٤٣٢٣، عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ] زاد المعاد (٣/ ٤٧٣).

(٤) أرسل إليه رسول الله ﷺ: إن جاءه مسلمًا، ردّ عليه أهله وماله. (صلاح)

(٥) زاد المعاد (٣/ ٤٧٣).

وقد ورد في كتاب إرمياه (الإصحاح ٤٩: ٢٨، ٢٩ ص١١٥٦) ذكر فتح مكة وغزوة حنين وغنائمها: «قوموا اصعدوا إلى قيدار، اخربوا بني المشرق، يأخذون خيامهم وغنمهم، ويأخذون لأنفسهم شققهم وكل آنيتهم وجمالهم».

وليعلم أن المراد بالصعود إلى قيدار هو غزوة مكّة، حيث سكن أبناء قيدار. والمراد ببني المشرق: أهل حنين والطائف، إذ أن حنينا تقع شرقيّ مكة.

مجيء وفد هوازن بعد إسلامهم، وإعادة السبي لهم:

وقدم وفد هوازن على رسول الله ﷺ، وهم أربعة عشر رجلا، وفيهم من أمطر على رسول الله الحجارة حينما ذهب ﷺ إلى الطائف، حتى أن زيد بن حارثة حمله وهو مغشّي عليه، فسألوه، أن يمنّ عليهم بالسبي والأموال.

فقال: إن معي من ترون، وإن أحبّ الحديث أصدقه، فأبناؤكم ونساؤكم أحبّ إليكم، أو أموالكم؟

قالوا: ما كنّا نعدل بالأحساب شيئا.

فقال: إذا صليتُ الغداة فقوموا، فقولوا: إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المؤمنين، ونستشفع بالمؤمنين إلى رسول الله ﷺ، أن يردّوا علينا سبينا.

فلما صلّى الغداة، قاموا فقالوا ذلك.

فقال رسول الله ﷺ: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب، فهو لكم. وسأسأل لكم الناس.

فقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ.

فقال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا.

وقال عيينة بن حصن: أما أنا وبنو فزارة فلا.

وقال العباس بن مرداس: أما أنا وبنو سليم فلا.

فقالت بنو سليم: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ.

فقال رسول الله ﷺ: إن هؤلاء القوم قد جاءوا مسلمين، وقد كنت استأنيت سبيهم، وقد خيّرتهم، فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئا، فمن كان عنده منهنّ شيء فطابت نفسه بأن يردّه، فسبيل ذلك.

ومن أحبّ أن يستمسك بحقّه فليردّ عليهم، وله بكل فريضةٍ ستُّ فرائض من أول ما يفيء الله علينا.

فقال الناس: قد طبنا لرسول الله ﷺ.

فقال: إنا لا نعرف من رضي منكم ممن لم يرض، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم.

فردّوا عليهم نساءهم وأبناءهم، وكسا رسول الله ﷺ السبي قبطية قبطية[1].

تكريم النبي ﷺ الشيماء بنت الحارث: أخته من الرضاعة:

وكانت في السبي الشيماء بنت الحارث بن عبد العزّى: أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة، فلما انتهى بها إلى رسول الله ﷺ.

قالت: يا رسول الله! إني أختك من الرضاعة.

قال: وما علامة ذلك؟

قالت: عضّة عضضتنيها في ظهري، وأنا متوركتك.

قال: فعرف رسول الله ﷺ العلامة، فبسط لها رداءه، وأجلسها عليه وخيّرها، **وقال:** إن أحببتِ الإقامة فعندي محببة مكرمة، وإن أحببت أن أمتّعكِ، فترجعي إلى قومك ففعلتُ.

فقالت: بل تمتعني وتردّني إلى قومي، فمتعها رسول الله ﷺ وردّها إلى قومها[2].

تقسيم الغنائم في المؤلفة قلوبهم دون الأنصار: ونموذج إخلاصهم:

وأعطى رسول الله ﷺ المؤلّفة قلوبهم، وكانوا أشراف الناس يتألفهم، ويتألف بهم قومهم. ما جاء في نصيب الأنصار من هذه العطايا شيء، وجد هذا الحيّ من الأنصار في أنفسهم، حتى كثرت فيهم القالة.

فقال ﷺ: يا معشر الأنصار! ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار.

---

(١) [راجع مقتطقات هذه الواقعة في صحيح البخاري (رقم ٤٣١٨، ٤٣١٩)، وأحمد في المسند (٢/ ١٨٤، ٤/ ٣٢٦، ٣٢٧)، وأبو داود (رقم٢٦٩٣، ٢٦٩٤)، والبيهقي في الدلائل (٥/ ١٩٤- ١٩٦)، وفتح الباري (٨/ ٣٤)، و «صحيح السيرة النبوية» للعلي (٤٥١-٤٥٣، رقم ٧١٣-٧١٤) من حديث مروان بن الحكم، والمسور بن مخرمة، وعمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه. (صلاح)] وزاد المعاد (٣/ ٤٧٦).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٤٧٥). [راجع ترجمة الشيماء بنت الحارث في «الإصابة» (٨/ ١٢٣-١٢٤ رقم ٦٣٠) (صلاح)]

قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قسماً وحظاً[١].

(١) لقد جاءت هذه المقولة من حديث عبد الله بن زيد، وأنس بن مالك، وأبي سعيد الخدري، وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ورواياتهم بعضها فيها طول، وبعضها فيها اختصار. [راجع: البخاري رقم (٤٣٣١) عن عبد الله بن زيد، ورقم (٤٣٣٤) عن أنس بن مالك، ومسلم رقم (١٠٦١) عن عبد الله بن زيد، ورقم (٢٥٩) عن أنس بن مالك. («صحيح السيرة النبوية للعليّ»: ٤٥٣-٤٥٥) (صلاح)]. زاد المعاد (٣/ ٤٧٤).

فصل

كيد اليهود، ونقضهم للعهود، وهجومهم على المسلمين، ودفاع المسلمين عن أنفسهم

فصل

كيد اليهود، ونقضهم للعهود، وهجومهم على المسلمين ودفاع المسلمين عن أنفسهم[١]

إن كلمة «اليهود»، وإن دلّت على تلك القبيلة الواحدة خاصّة، التي انحدرت من نسل يهودا بن يعقوب، ولكن أسباط بني إسرائيل الاثنا عشر كلهم سمّوا بهذا الاسم نفسه اصطلاحًا. وكان بنو إسرائيل في بداية أيامهم مكرمين ومقبولين عند الله تعالى، ولكنّهم بدأوا يبتعدون من الله أخيرا حتى استحقّوا غضبه وسخطه.

التشهير بالنبي ﷺ وعداء اليهود:

ولذلك نرى أن رجلا رحيما مثل المسيح، قد وصفهم بالحيّات وأولاد الحيّات، كما تنبأ بأن مملكة الربّ سوف تنتقل من أيديهم إلى قوم آخرين، يأتون بأحسن منهم.[٢]

ولما حان وقت ظهور هذه البشرى، وبدأ محمد رسول الله ﷺ يبلّغ رسالته السامية، استشاطت اليهود غضبا، حتى قرّروا إيذاءه، مثلما آذوا المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ من قبل.

مكائد اليهود:

ومع أن اليهود كانوا قد دخلوا في معاهدة السلام مع النبي ﷺ في السنه الأولى من الهجرة، ولكنّ خبثهم الطبيعي لم يرض أن يلبث في الخفاء طويلًا، فبدأت مكائدهم تظهر بعد مضي سنة ونصف سنة فقط، على توقيع المعاهدة.

---

(١) إن الكيان السياسيّ للمشركين قد ولّى من غير رجعة، بعد فتح مكّة وحنين، ثمّ توجّه النبي ﷺ إلى تصفية الكيان اليهودي الذي كان يطفح بأساليب شتى من المؤامرة ضدّ الإسلام والمسلمين بكل قوّة وتأكيد بدءًا ببني قينقاع ثمّ بني النضير تم بني قريظة. (صلاح)

(٢) متى ٢١ (باب ٤٤،٤٣، ص٣٩).

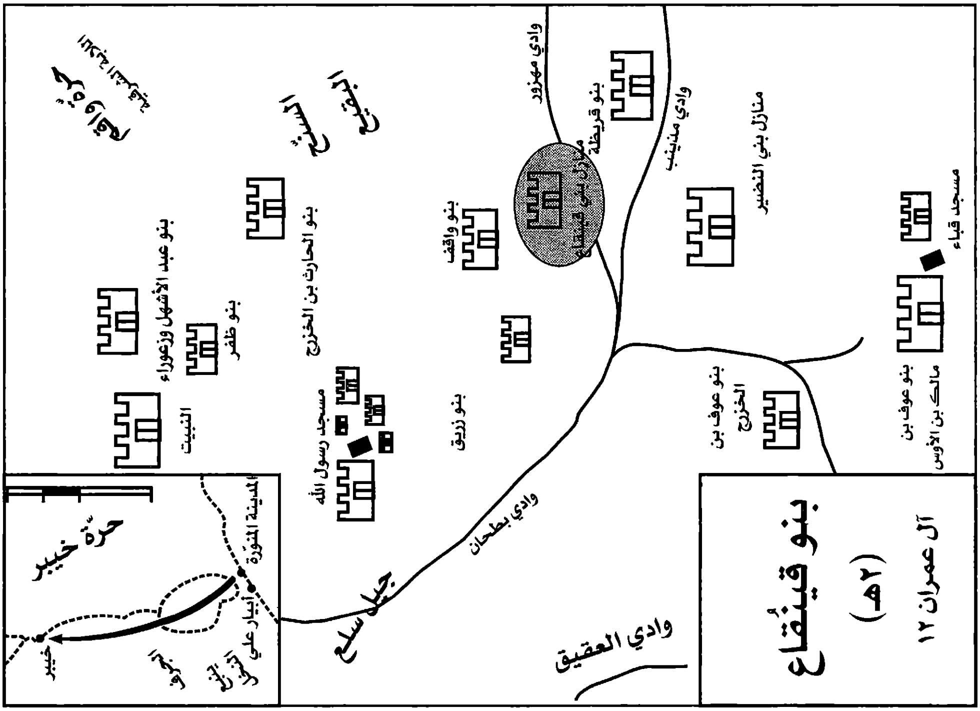

المؤامرة الأولى وإخراج بني قينقاع

إن بني قينقاع كانوا أوائل اليهود، الذين نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد، وحاربوه فيما بين بدر وأحد.

وكان من أمر بني قينقاع: أن امرأة من العرب، قدمت بجلب[1] لها فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها، فعقده إلى ظهرها، فلمّا قامت انكشفت سوءتها، فضحكوا، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهوديا، وشدّت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، فوقع الشرّ بينهم وبين بني قينقاع.[2]

(١) الجلب: الرحل بما فيه أو عطاؤه وخشبه بلا أنساع وأداة (ترتيب القاموس).

(٢) ضعفه الألباني في تخريج «فقه السيرة» (٢٤١)، وراجع «السيرة النبوية الصحيحة» (١/ ٣٠١)، =

لما عاد النبي ﷺ من بدر، استدعاهم للتحقيق في هذه الفوضى، فردّوا إليه ورقة المعاهدة وتهيأوا بأنفسهم للقتال.

نزولهم على حكم رسول الله ﷺ[(١)]:

وسارت إليهم جنود الله، ويقدمهم عبد الله ورسوله يوم السبت للنصف من شوال على رأس عشرين شهرًا من مهاجره، وحاصرهم رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة إلى هلال ذي القعدة أشدّ الحصار، وكانوا أشجع يهود المدينة، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ في رقابهم وأموالهم، ونسائهم وذرّيتهم[(٢)]، فأمر بهم فكُتِّفوا.

موقف عبدالله بن أبيّ (زعيم المنافقين) من أوليائه اليهود:

وكلم عبدالله بن أبيّ فيهم رسول الله ﷺ، وألحّ عليه، فوهبهم له[(٣)]، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة، ولا يجاوروه بها، فخرجوا إلى أذرعات من أرض الشام، فقلّ أن لبثوا فيها حتى هلك أكثرهم، وكانوا صاغة وتجّارا، وكانوا نحو ستمائة مقاتل[(٤)].

=

و«التعليق على الرحيق» للملّاح (١٤٣-١٤٤). (صلاح)

(١) راجع للتفصيل «السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٤٨-٥٠)، ودلائل النبوة للبيهقي (٣/ ١٧٤-١٧٥)، وصحيح السيرة النبوية (١٩٧-١٩٨) من طريق ابن إسحاق، وقد صرّح بالتحديث، ولكنه مرسل. (صلاح)

(٢) قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الفتح (٩/ ٢٦٧): «...فكان أول من نقض العهد من اليهود بنو قينقاع، فحاربهم في شوال بعد وقعة بدر، فنزلوا على حكمه.» (صلاح)

(٣) كان ابن سلول ذا مكانة في المدينة، فرأى النبي ﷺ في تنازله له مصلحة للدعوة والدولة حتى لايتسبب هذا المنافق لإخلال الأمن في الداخل، ولم يكن هذا التنازل على مجرّد الظن، والتخمين، بل هو الذي أرجع ثلث الناس معه في غزوة أحد.

وعلى العكس من ذلك كان موقف عبادة بن الصامت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من بني قينقاع، فإنه بينه وبينهم كان الحلف مثل الذي كان بينهم وبين ابن سلول. ولكن عبادة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ تبرّأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم، بمجرّد ما رأى النبي ﷺ يتوجّه إليهم.

وهذا يدل على إيمانه الصادق بالله تعالى ورسوله ﷺ.

(٤) زاد المعاد (٣/ ١٢٦) وفيه: «كانت دارهم طرف المدينة، فقبض منهم أموالهم».

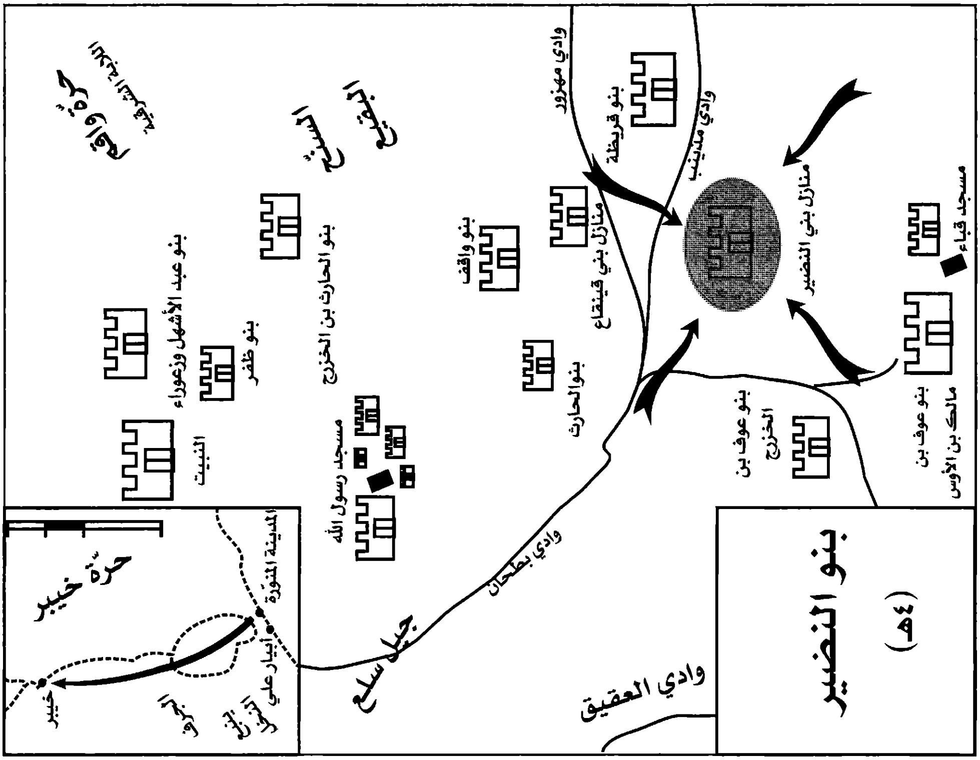

المؤامرة الثانية: محاولة قتل النبي ﷺ، وإجلاء بني النضير(١)

---

(١) بعد ما صفّى الرسول ﷺ الحيّ من اليهود -وهم بنو قينقاع- اتجه إلى تصفية الحيّ الثاني منهم، وهم بنو النضير.

واختلفوا في وقت إجلاء بني النضير، هل كان بعد بدر بستة أشهر، كما في البخاري تعليقًا، قبل الحديث (رقم ٤٠٢٨) قال الزهري عن عروة. وجعله ابن اسحاق بعد بئر معونة وأحد، كما في الفتح (٧/ ٣٣٠-٣٣١)، وقال: «قد وافق ابنَ إسحاق جلُّ أهل المغازي».

وقد ذهب إلى تأييد الرأي الثاني ابن القيم في «زاد المعاد» (٣/ ٢٤٩)، و قبله ابن حزم في «جوامع السير» (ص: ١٨١)، و«صحيح السيرة النبوية» (ص٢٤٣-٢٤٤).

وقال محققا تأريخ الطبري»: والذي نراه أقرب إلى الصحّة -والله أعلم- هو ترتيب البخاري في صحيحه بهذه الغزوة بعد الكبرى، وهذا يؤيده ما رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٨٣) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بسند صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

وقال الألباني في تحقيقه في «فقه السيرة»: «وإنما هو صحيح فقط، وهذا حديث موصول صحيح =

سبق أن ذكرنا أن قريشا كتبوا قبل وقعة بدر إلى أبيّ ومن كان معه ممن يعبد الأوثان من الأوس والخزرج بالمدينة، في شأن قتال النبي ﷺ، ولكن فشلت خطتهم هذه بحكمة النبي ﷺ وفراسته.

ثم لما انهزمت قريش ببدر، كتبوا إلى اليهود مرة أخرى: «إنكم أهل الحلقة والحصون، وإنكم لتقاتلُنّ صاحبنا أو لنفعلنّ كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خدم نسائكم شيء -وهي الخلاخيل- فلما بلغ كتابهم النبي ﷺ، أجمعت بنو النضير بالغدر.»(١)

ثم خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير، يستعينهم في دية الكلابيَّين، اللذين قتلهما عمرو بن أميّة الضمري.

فقالوا: نفعل يا أبا القاسم، اجلس هاهنا حتى نقضي حاجتك! وخلا بعضهم ببعض، وسوّل لهم الشيطان الشقاء الذي كتب عليهم، فتآمروا بقتله ﷺ، وقالوا: أيّكم يأخذ هذه الرحى، ويصعد، فيلقيها على رأسه يشدخه بها؟

فقال: أشقاهم عمرو بن جحاش: أنا لذلك، فصعد ليلقي عليه الرحى. فأتى رسول الله الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعا إلى المدينة، ولحقه أصحابه.

فقالوا: نهضت ولم نشعر بك، فأخبرهم بما همّت يهود به، وأمر ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم.(٢)

=

وبه يؤخذ، وأما توهيم ابن القيم وغيره للزهري ففيه نظر، وكذلك اتفاق جلّ أهل المغازي لايقاوم حديثا صحيحا.» (صحيح الطبري: ٢/ ١٥٤-١٥٦ تعليقًا على خبر بئر معونة).

وسياق المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضا يدل على ترجيح هذا القول، والله أعلم. (صلاح)

(١) أبوداود باب في خبر بني النضير (٣/ ٤٠٤) [ذكره الألباني في «صحيح أبي داود (رقم ٣٠٠٤)» وقال إسناده صحيح. (صلاح)]

(٢) تبين من هذين الأمرين أن غزوة بني النضير، إما كان لأجل غدرهم ونقضهم للمعاهدة، أو لأجل تآمرهم بقتل النبي ﷺ أو للأمرين معا.

فالأوّل: هو السبب الحقيقي. والثاني: هو السبب المباشر. (صلاح)

إجلاء بني النضير[١]:

فحاصرهم ﷺ، وقطع نخلهم وحرّق، فأرسلوا إليه: نحن نخرج عن المدينة، فأنزلوا على أن يخرجوا عنها بنفوسهم، فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام.[٢]

---

(١) نزلت فيهم سورة الحشر، وتسمّى «سورة بني النضير» (تفسير السعدي: الحشر).

(٢) ابن هشام (٣/ ١٩٩)، زاد المعاد (٣/ ١٢٧)، والطبري (٣/ ٣٦).

وقد ورد الإخبار بذلك في كتاب أشعياء (الأصحاح ٣٠/ ٦، ص١٠٢٦): «يحملون (الأبناء المتمرّدون) على أكتاف الحمير ثروتهم، وعلى أسنمة الجمال كنوزهم إلى شعب لاينفع».

وقد ظهر عدم النفع هذا في غزوة خيبر.

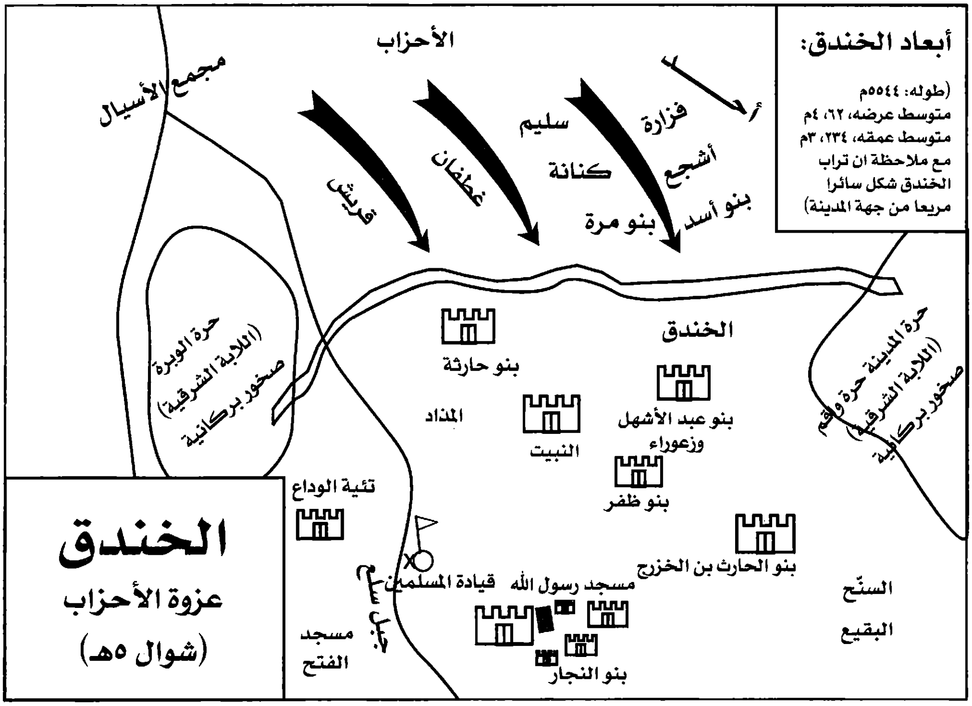

مؤامرة اليهود الثالثة بالعصيان العام، وما نتج عنها من غزوة الأحزاب أو الخندق

إن غزوة الأحزاب[1] من أشهر أحداث العام الخامس الهجري[1]. وقد جرّت هذه

---

(١) (الصحيح (٥/ ٤٥).

ونحن قد أدرجنا هذه الغزوة ضمن غزوات اليهود، فإن اليهود هم الذين ألّبوا القبائل، وأتوا بهم إلى المدينة، مع أن هذا الجيش قد ضمّ قريشًا ووثنيين أيضا، بل كان عددهم أكثر.

[وقال ابن حجر: «أما تسميتها الأحزاب فلاجتماع طوائف من المشركين على حرب المسلمين، وهم قريش، وغطفان، واليهود ومن تبعهم، وقد أنزل الله تعالى في هذه القصة صدر سورة الأحزاب.» (فتح الباري: ٧/ ٣٩٣)

كان الذين حزبوا الأحزاب نفرًا من اليهود، وكان منهم سلام بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب النضري، وكنانة بن أبي الحقيق النضري، وهوذة بن قيس الوائلي، وأبو عمار الوائلي، في نفر من =

الغزوة إلى إجلاء بني النضير[٢]، فإنهم في خيبر لم يجلسوا مسالمين، بل حزّبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ حتى يستأصلوا المسلمين، وقد حاولوا أن تتكاتف الجهود حول هذا الهدف الخبيث، وتجتمع قبائل العرب كلّها على حرب المسلمين[٣].

تحريض القبائل على المسلمين:

إنهم اختاروا عشرين رئيسًا لتحريض جميع القبائل العربية على الهجوم ضدّ

=

بني النضير، فلما قدموا على قريش، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وقالوا: إنا سنكون معكم عليه، حتى نستأصله.» (سيرة ابن هشام: ٢/ ٢١٤-٢١٥، بإسناده، ورجاله ثقات وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث، ولكنه مرسل. (صحيح السيرة النبوية للعليّ: ص٣٦٥ ضمن الرقم ٤٢٣ مع التعليق (صلاح)]

(١) **وهو على أصحّ القولين**: وقد اختلفوا في وقت هذه الغزوة. قال ابن كثير: «وقد كانت غزوة الخندق في شوال سنة خمس من الهجرة، نصّ على ذلك ابن إسحاق، وعروة بن الزبير، وقتادة والبيهقي وغير واحد من العلماء سلفًا وخلفًا.

وقد صرح الزهريّ بأن الخندق قد كانت بعد أحد بسنتين، ولا خلاف أن أحدًا في شوال سنة ثلاث.» (سيرة ابن كثير: ٣/ ١٨٠)

والقول الآخر: أنها كانت في شوال سنة أربع للهجرة، قال بذلك موسى بن عقبة في مغازيه، وتابعه على ذلك مالك بن أنس، ومال البخاري إلى ذلك، وقد ردّ ابن حجر في فتح الباري على القائلين بهذا القول، وبين ضعفه، وبأنه غير معتمد، وناقش ذلك حجة بحجة، ودليلًا بدليل.(صحيح السيرة النبوية: ص٢٦٥).

لا يقال: إن البخاري مال إليه، بل إنه ذكر قول موسى بن عقبة، لأنه معتمد عليه في رواية السيرة. (صلاح)

(٢) صحيح تأريخ الطبري: (٢/ ١٦٣ رقم ١٤٧) (صلاح).

(٣) قال الدكتور ضياء العمري:

«**تعتبر غزوة الأحزاب للمدينة حلقة من حلقات الصراع العسكري بين المسلمين وقريش، فالحرب معلنة بين الطرفين، ولا حاجة لتلمس الأسباب الرئيسية لوقوع القتال، ولكن ثمة عوامل مباشرة في التأثير يمكن بيانها.**» (السيرة النبوية الصحيحة: ٢/ ٤١٨). (صلاح)

المسلمين، وكان من وافى الخندق[١] من الكفار واليهود وغيرهم عشرة آلاف، هاجموا جميعا على المدينة. وذلك في شوال سنة خمس من الهجرة.

(١) **فخرجت قريش،** وقائدها أبو سفيان بن حرب.

(٢) **وخرجت غطفان،** وقائدها عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر في بني فزارة.

(٣) والحارث بن عوف المرّي في بني مرّة.

(٤) ومسعر بن رُخيلة بن نويرة بن طريف فيمن تابعه من قومه من أشجع.

حفر الخندق:

فلما سمع بهم رسول الله ﷺ، وبما أجمعوا له من الأمر، ضرب الخندق[٢] على المدينة، فعمل فيه رسول الله ﷺ ترغيبا للمسلمين في الأجر، وكان كل عشرة من المسلمين حفروا أربعين ذراعا[٣]. وكان الصحابة يرتجزون أثناء حفر الخندق:

---

(١) كان مكان تجمع جيش قريش وحلفائها في مرّ الظهران، التي تبعد أربعين كيلًا عن مكة، حيث وافاهم حلفاؤهم من بني سليم وكنانة وأهل تهامة والأحابيش، ثم تحركوا نحو المدينة حتى نزلوا بمجتمع الأسيال من رومة بين الجرف وزغابة. («السيرة النبوية الصحيحة للعمري»: ٢/ ٤١٩-٤٢٠). (صلاح)

(٢) أقدم من أشار إلى أن حفر الخندق كان بإشارة سلمان الفارسي رضي الله عنه أبو معشر السندي (-١٧١هـ) بدون إسناد كما في الفتح (٧/ ٣٩٣)، وذكرها الواقدي بدون إسناد. (التعليق على الرحيق للملاّح: ١٥٨) وكان الخندق في المنطقة الشمالية من المدينة، ليربط بين طرفي حرّة واقم وحرة الوبرة، وهي المنطقة الوحيدة المكشوفة أمام الغزاة، أما الجهات الأخرى فكان يصعب على الإبل والمشاة السير فيها. (الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢/ ٦٦ - ٦٧، «السيرة النبوية الصحيحة»: ٢/ ٤٢٠). (صلاح)

(٣) ابن هشام (٢/ ٢١٦) [وفتح الباري: ٧/ ٤٠٠. «وكان يمتدّ من أم الشيخين طرف بني حارثة شرقاً حتى المذاد غربًا، وكان طوله خمسة آلاف ذراع، وعرضه تسعة أذرع، وعمقه من سبعة أذرع إلى عشرة.» «السيرة النبوية الصحيحة»: ٢/ ٤٢١)
وقال تعليقًا: « لم تثبت في ذلك رواية صحيحة من الناحية الحديثية، ولكن وردت آثار ضعيفة يمكن الإفادة منها في مثل هذه الموضوعات.» (صلاح)]

نحــن الــذين بــايعوا محمــدا
عــلى الإســلام مــا بقينــا[١] أبــدا

وكان النبي ﷺ يساعد الصحابة في حفر الخندق، وكسر الحجارة، ورفع التراب، الذي غطّى شعر صدره المبارك، وهو ينشد أبياتا لعبد الله بن رواحة:

اللهــم لــولا أنــت مــا اهتــدينا ... ولا تصـــدّقنا ولا صـــلّينا
فـــأنزلنْ ســـكينة علينـــا ... وثبّـــت الأقـــدام إن لاقينـــا
إن الألى قـــد بغـــوا علينـــا ... إذا أرادوا فتنـــة[٢] أبينـــا

كان المسلمون ثلاثة آلاف فقط، ونزلوا حيث كان جبل[٣] سلع خلفهم، والخندق أمامهم.

نقض العهد:

وبنو قريظة من اليهود، كانوا مقيمين بالمدينة، وكان عليهم نصرة المسلمين، حسب العقد الذي تم بينهم وبين رسول الله ﷺ.

وانطلق حيي بن أخطب إلى بني قريظة، فدنا من حصنهم، وقابل رئيسهم كعب ابن أسد القرظيّ، فلم يزل به حتى نقض العهد، الذي بينه وبين رسول الله ﷺ، ودخل مع المشركين في محاربته، فسرّ بذلك المشركون.

ولما بلغ رسول الله ﷺ خبر نقض بني قريظة، أرسل إليهم عديدا من أصحابه ليعرفوا عنهم، فوجدوهم على أخبث ما يكون، وجاهروهم بالسبّ والعداوة، ونالوا من رسول الله ﷺ، وقالوا: لا عقد بيننا وبين محمد[٤].

---

(١) صحيح البخاري (٥/ ٤٥) [رقم ٤٠٩٩-٤١٠٠، ومسلم رقم ١٨٠٥، عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. (صلاح)]

(٢) صحيح البخاري (٥/ ٤٦-٤٧) [رقم ٤١٠٤،٤١٠١، ومسلم رقم ١٨٠٣، عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال: ثم يمدّ الصوت بآخرها. (صلاح)]

(٣) زاد المعاد (٣/ ٢٧١)، الطبري (٢/ ٥٧٠)، ابن هشام (٢/ ٢٢٠).

(٤) الطبري (٢/ ٥٧١).

إخلال الأمن في المدينة:

وحاول بنو قريظة الإخلال بأمن المدينة، فعرضوا أولاد المسلمين ونساءهم للخطر، ولذا خُصّص عدد من جيش المسلمين لحراستهم، وقد ظنّ بنو قريظة أن عشرة آلاف من الجيش حينما يهاجمون على المدينة، ويختلّ أمنها داخليا، ليمكن التضييق على المسلمين، ثم يسهل القضاء عليهم(١).

موقف السعدين الباسل من الصلح مع غطفان:

وأقام المشركون محاصرين رسول الله ﷺ نحو شهر، لم تكن بينهم حرب إلا الرمي على الناس بالنبال، وبعث رسول الله ﷺ إلى عيينة بن حصن بن حذيفة وإلى الحارث بن عوف المرّي -وهما قائدا غطفان-، وأراد أن يصالحهما على ثلث ثمار المدينة، على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه.

فلما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل، بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة واستشارهما فيه.

فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا تمرة إلا قرى أو بيعا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وأعزّنا بك وبه، نعطيهم أموالنا؟

---

(١) قد بين الله سبحانه وتعالى ما كان في غزوة الأحزاب من شدّة البلاء على المسلمين، وتزلزل إيمان المؤمنين، لما رأوا من هول الموقف، فقال تعالى:
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۝١٣ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ۝١٤ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ۝١٥﴾ [الأحزاب: ٩ – ١٥]. (صلاح)

والله ما لنا بهذا حاجة، والله لانعطيهم إلا السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

قال رسول الله ﷺ: فأنت وذاك. فتناول سعد بن معاذ «الصحيفة»، فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال: ليجهدوا علينا[(١)].

المبارزة بين الفريقين أثناء المحاصرة:

وأثناء المحاصرة، أقبل فوارس من قريش، منهم: عمرو بن عبد ودّ، وجماعة معه، نحو الخندق، ثم تيمّموا مكانا ضيّقا منه، فاقتحموه، ودعوا إلى البراز.

فانتدب لعمرو عليّ بن أبي طالب فبارزه، فقتله الله على يديه، وكان من شجعان المسلمين وأبطالهم، وقُتل مع عمرو رجلان: منبّه بن عثمان بن عبيد، ونوفل بن عبد الله ابن المغيرة.

وقدّم أهل مكّة عشرة آلاف درهم للحصول على جسد نوفل، ولكن قال رسول الله ﷺ: لاحاجة لنا بجسده ولاثمنه فشأنكم به[(٢)]، فخلّى بينهم وبينه[(١)].

---

(١) **دور نعيم بن مسعود الغطفاني** في الإيقاع بين الأحزاب، وبني قريظة: «في هذا الوقت الحرج جاء إلى النبي ﷺ مسلمًا، وقومه لم يعلموا بإسلامه حتى الآن، فقام بزرع الشكّ بين الأطراف المتحالفة بأمر من رسول الله ﷺ.

فأغرى اليهود بطلب رهائن من قريش، لئلا تدعهم، وتنصرف عن الحصار.

وقال لقريش: إن يهود إنما تطلب الرهائن لتسليمها للمسلمين، ثمنًا لعودتها إلى صلحهم.

ثم ذهب إلى قومه: غطفان، وقال لهم: إن قريشًا ترجع إلى مكة، وبنو قريظة يتصالحون مع المسلمين، فما الفائدة من مشاركتكم في قتال المسلمين؟

هكذا أوقع نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بين الأحزاب، ودبت الفرقة بينهم، واضمحلت عزائمهم وخارت قواهم، وانهارت معنوياتهم. («السيرة النبوية الصحيحة» للعمري: ٢/ ٤٣٠، نقلًا عن ابن إسحق، وموسى بن عقبة والواقدي، **وقال تعليقًا: «هذه الروايات لا تثبت من الناحية الحديثية، ولكنها اشتهرت في كتب السيرة. وهي لاتتنافى مع القواعد** السياسيّة الشرعية فـ«الحرب خدعة».(البخاري: ٣٠٣٠، ومسلم: ١٧٣٩، عن جابر ابن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) (صلاح)

(٢) أخرج الترمذي مرفوعا في جامعه، عن ابن عباس: «أن المشركين أرادوا أن يشتروا جسد =

الريح جند من جنود الله:

وأرسل الله على المشركين جندا من الريح، فجعلت تقوض خيامهم، ولا تدع لهم قدرا إلا كفأتها، ولا طنبًا إلا قلعته، ولا يقرّ لهم قرار، وجند الله من الملائكة يزلزلونهم، ويلقون في قلوبهم الرعب والخوف، فأصبح رسول الله ﷺ، وقد ردّ الله عدوّه بغيظه، لم ينالوا خيرا، وكفاه الله قتالهم، فصدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده(٢).

=

رجل...» وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الحكم. قال الألباني: ضعيف الإسناد (ضعيف الترمذي رقم ١٧١٥)، وأخرجه أحمد (١/ ٢٤٨) من طريقين ضعيفين والله أعلم. (ضعيف الطبري: ٧/ ١٥١ تعليقا) (صلاح)

(١) الطبري (٢/ ٥٧٤). [ذكره الطبري مفصلا عن ابن حميد، قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق، قال كان أهل الخندق...» القصة بطولها، بإسناده إلى ابن إسحاق ضعيف، وذكره ابن إسحاق بلاغا، وكذلك أخرجه ابن هشام من كلام ابن إسحاق دون أن يسنده. (ضعيف الطبري: ٧/ ١٤٨-١٥١ رقم ٢١٩-٢٢٠) (صلاح)]

(٢) زاد المعاد (٣/ ٢٧٤).

[وراجع هول الموقف في حديث حذيفة بن اليمان، الذي أرسله النبي ﷺ ليتحسّس أخبار الأحزاب في ريح شديدة وقرّها في صحيح مسلم. (١٧٨٨).

هكذا انفضت الأحزاب عن المدينة، وتنفس المسلمون الصعداء: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ٢٥﴾ [الأحزاب: ٢٥]. واستجاب الله لدعاء نبيه خلال الحصار: «أللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم». (مسلم: ١٤٧٢). عن عبد الله بن أبي أوفى وقد عبّر النبي ﷺ عن الآثار الخطيرة التي ترتبت على فشل الأحزاب، بقوله: «**الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم**». (البخاري: ٤١١٠، عن سليمان بن صرد)

وهذا يدل على تغير الاستراتيجية الإسلامية من مرحلة الدفاع عن المدينة إلى مرحلة الهجوم، وأن مسرح الأحداث انتقل من المدينة إلى مكة، والطائف، ثم تبوك بعيدًا عن عاصمة الإسلام: «المدينة المنورة.» (السيرة النبوية الصحيحة: ٢/ ٤٣١-٤٣٢) (صلاح)

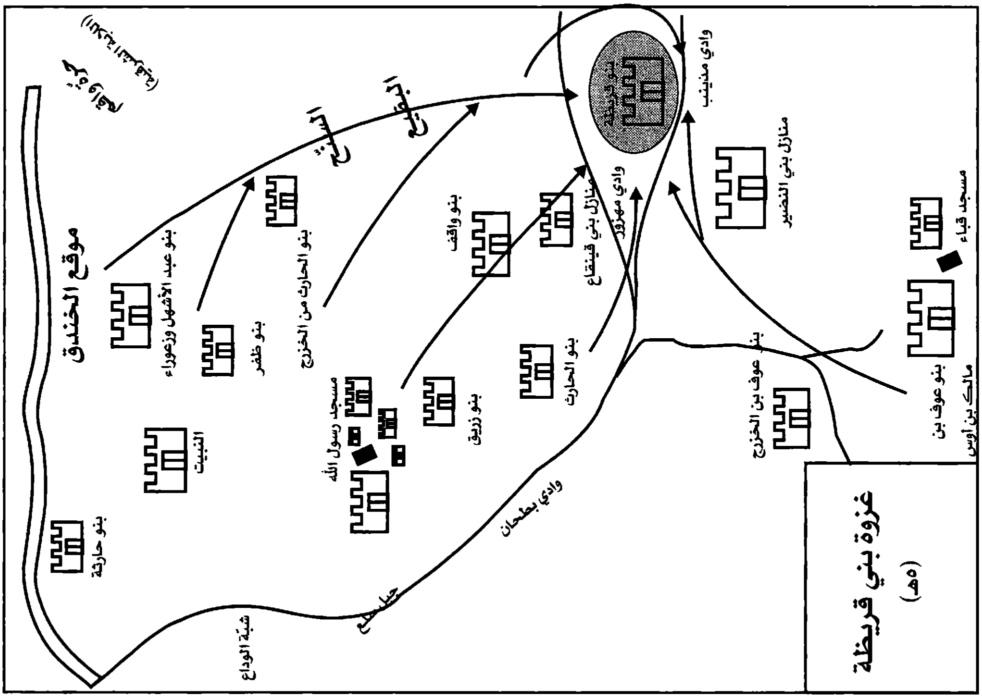

مصير بني قريظة

أمر جبريل بالخروج إلى بني قريظة:

فلما انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة[١]، لم يكن إلا أن وضع سلاحه، فجاءه جبريل فقال: أوضعتَ السلاح والله إن الملائكة لم تضع أسلحتها؟ فانهض بمن معك إلى بني قريظة[٢].

فسار رسول الله ﷺ في موكبه من المهاجرين والأنصار، وأرسل إليهم، يسألهم عن موقفهم من غزوة الأحزاب، فتحصّنوا واستعدّوا للقتال، وهناك عرف المسلمون أن رئيس بني النضير: حيي بن أخطب، الذي جاء يحرّض بني قريظة على المسلمين داخل حصنهم.

---

(١) أي من غزوة الخندق (الأحزاب). (صلاح)

(٢) راجع البخاري: كتاب المغازي/ باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب (رقم ٤١١٧) ومسلم (رقم ١٧٦٩) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

سبب هذه الغزوة: نقض اليهود للعهد، وتصفية كيانهم الفاسد:

ولم يكن هذا أوّل غدر من بني قريظة، بل كانوا قد ساعدوا قريشا بالأسلحة في وقعة بدر، ولكنّ النبي ﷺ كان قد عفا عنهم هذا الغدر.

نجاح حصار بني قريظة:

ولما تحصّن بنو قريظة، حصرهم رسول الله ﷺ خمسا وعشرين ليلة، فلما اشتدّ عليهم الحصار، نزلوا على حكم رسول الله.

فقامت إليه الأوس، فقالوا: يا رسول الله، هؤلاء موالينا، فأحسن فيهم.

فقال: ألا ترضون أن يحكم فيكم رجل منكم؟

قالوا: بلى!

قال: فذاك إلى سعد بن معاذ.

قالوا: قد رضينا.

حكم سعد بن معاذ في بني قريظة كان موافقا لما في العهد القديم:

ثم خرجت بنو قريظة من الحصن[1]، وعرضت القضية على سعد بن معاذ، ومن يدري عن الآمال التي علّقها بسعد يهودُ بني قريظة ومسلمو الأوس.

وبعد تدقيق النظر في الأمر، أصدر سعد قضاءه بأن:

(١) يقتل الرجال[2].

---

(١) قال عزّ وجل من قائل: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب: ٢٦ - ٢٧] (صلاح)

(٢) لم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة، تلك التي طرحت الرحى على خلّاد بن سويد، فقتلته. واختلفوا في عدد قتلى بني قريظة بين (أربع مئة، وست مئة، وسبع مئة، وثمان مئة وتسع مئة)، ويمكن الجمع بين هذا الأقوال بأن يقال: إنهم كانوا أربع مئة مقاتل، والباقون كانوا أتباعًا، وقد حكى ابن إسحاق أنه قيل: إنهم كانوا تسع مئة. (فتح الباري: ٧/ ٤١٤)

وكذلك غنم المسلمون كل ما كان في ديار بني قريظة من سلاح وأثاث ومتاع، وقد قسم النبي =

(٢) وتسبى الذرّية.

(٣) وتقسم الأموال.

فقال رسول الله ﷺ: لقد حكمتَ فيهم بحكم الله (من فوق سبع سماوات).(١)

وأما الحديث الذي أورده البخاري عن أبي سعيد الخدري فيما يتعلّق بتنفيذ قضاء سعد، ففيه ذكر قتل مقاتلهم، ولكنّه لم يذكر سبي الذراري(٢).

وينبغي أن نعلم أنّ العقاب، الذي أنزله على بني قريظة حَكَمه، الذي اختاروه أنفسهم، هو العقاب نفسه، الذي يعاقب به اليهود أعداءهم تقريبا، وهو الذي يوجد في شريعتهم(٣).

=

ﷺ نساءهم وذراريهم على المسلمين وهذا كله كان جزاء وفاقا للخيانة العظمى، التي ارتكبها بنو قريظة، التي لونجحت، لجعلت أهل المدينة عرضة للخطر الداهم، الذي مؤدّاة: الإبادة الكاملة لهم.

وبهذا الإجراء الحاسم، انقرضت اليهود من المدينة، وأمن جانبها منهم، ووصلت بهذا رسالة حاسمة إلى المنافقين كذلك، فخفتت أصواتهم، وقلّت مكائدهم. (صلاح)

(١) هذه الزيادة ضعيفة. (تخريج «فقه السيرة» للألباني: ص٣٣٧، و«التعليق على الرحيق» للملّاح: ص١٦١). (صلاح)

(٢) **ليس الأمر كذلك** بل فيه ذكر «سبي الذراري». راجع «البخاري» أرقام (٣٠٤٣، ٣٨٠٤، ٤١٢١، ٦٢٦٢)، ومسلم (١٧٦٨) عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وفي حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: ذكر سبي الذرّية والنساء، وتقسيم الأموال أيضًا. (البخاري رقم ٤١٢٢، ومسلم رقم ١٧٦٩) (صلاح).

(٣) **بل كان اليهود يعاقبون أسراهم أشدّ من ذلك**، كما ورد في العهد القديم، (سفر العدد الأصحاح الحادي والثلاثين ٦-٣٥)

«وسبى بنو إسرائيل نساء مديان وأطفالهم، ونهبوا جميع بهائمهم، وجميع مواشيهم، وكلّ أملاكهم، وأحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار، وسخط موسى، وقال: هل أبقيتم كل أنثى حية؟ فالآن اقتلعوا كل ذكر من الأطفال، وكل امرأة عرفت رجلا بمضاجعة ذكر اقتلوها. لكن جميع النساء اللواتي لم يعرفن مضاجعة ذكر، أبقوهن لكم حيّات.» (ص٢٦٦)

وكذلك ورد في [كتاب الهندوس]: «رغ ويد» (مندل ٤، منتر ١٦، رچا ١٠): «أنه أهلك ودمّر خمسين ألفًا من الأعداء السود في الحرب» (ص ٣٤ «قديم هندوستان» أي: «الهند القديمة»).

=

ويوجد عندنا من الوجوه والنظائر، ما يؤكّد أن بني قريظة، لو سلّموا أمرهم إلى النبي ﷺ، لما حكم فيهم إلّا بالخروج إلى خيبر، ويدلّ على ذلك ما فعله مع بني قينقاع وبني النضير، وخاصة إذا ما رأينا أنه ﷺ قد استثنى برحمته بعض بني قريظة من هذا العقاب.

فقد أمر بالإفراج عن الزبير بن باطا مع الأهل والولد(١).

واستمحت سلمى بنت قيس، رفاعة بن شمويل(٢) فخلّى عنه(٣).

=

وورد في (مندل ١٠، منتر ٤٩، رجا٧): «نحن قطعنا العبيد في قطعتين، وقد خلقهم القدر لذلك.» (ص٣٨).

وورد في (مندل ٢، منتر ٢٠، رجا ٦،٧): «إندر الذي قتل ورترا ودمّر بلدة بلدة وقرية قرية، والذي يدمّر جيش العبيد السود.» (ص٣٧، من كتاب «حضارة الهند القديمة» للأستاذ آر، سي، دت).

[هذا، وقال الأستاذ محمد الغزالي: «إن موقف اليهود من الإسلام بالأمس هو موقفهم من المسلمين اليوم.

فألوف من إخواننا ذبحهم اليهود في صمت، وهم يحتلّون فلسطين.

والغريب أن اليهود تركوا من نصب لهم المجازر في أقطار أوربا، وجبنوا عن مواجهتهم بشرّ!! واستضعفوا المسلمين الذين لم يسيئوا إليهم من اثني عشر قرنا، فنكّلوا بهم على النحو المخزي الفاضح، الذي لا يزال قائما في فلسطين ... تشهده وتؤيده وتسانده دول الغرب.» (فقه السيرة: ص٣١٧) صلاح)]

(١) وذلك لأنه منّ على ثابت بن قيس بن شماس يوم بعاث في الجاهلية، وخلّى سبيله، فراجع ثابت النبي ﷺ للمنّ عليه، وعلى أولاده، ليجزيه على ما فعل معه في الجاهلية، فوافق على طلبه باستثنائه من العقاب.(ضعيف الطبري: ٧/ ١٥٨ رقم ٢٢٨ وهو مرسل ضعيف) وراجع ترجمة ثابت بن قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في «الإصابة» (١/ ٢٠٣ رقم ٩٠٠). (صلاح)

(٢) سلْمى بنت قيس أمّ المنذر (أخت سَلِيط بن قيس) -وكانت إحدى خالات رسول الله ﷺ، قد صَلَّتْ معه القبلتين، وبايعَتْه بيعة النساء-سأَلَتْه ﷺ رفاعةَ بن شمويل القرظيّ- وكان رجلًا قد بلغ، ولاذَ بها، وكان يعرفهم قبل ذلك-.

فقالت: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي! هبْ لي رفاعةَ بن شمويل؛ فإنَّه قد زعم أنه سيُصَلِّي، ويأكل لحم الجمل؛ فوهبه لها؛ فاستَحْيَتْه. (ضعيف الطبري: ٧/ ١٥٩ رقم ٢٢٩ وهو منقطع مع ضعفه) وراجع ترجمة سلمى بنت قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في «الإصابة» (٨/ ١١١ رقم ٥٦٤). (صلاح)

(٣) الطبري (٢/ ٥٩١)، ابن هشام (٢/ ٢٤٤).

=

=

[هل إثبات عقاب بني قريظة يخدم الدعاية الصهيونيّة]:

- **قال الدكتور أكرم ضياء العمري:**

«وقد جنح بعض المؤرّخين المعاصرين [وهو الدكتور وليد عرفات ضمن بحوث مؤتمر السيرة العالمي بقطر] إلى نفي الروايات المتعلقة بالعقوبات، التي واجهتها بنو قريظة وتضعيفها، بزعم أن إثباتها يجرح المشاعر الإنسانية، ويخدم الدعاية الصهيونية، وليس الأمر كذلك، فإن أوثق المصادر الإسلامية، قد أثبتت وقوع ذلك، ولم تكن العقوبة الشديدة إلا جزاء للخيانة العظمى، التي ارتكبها بنو قريظة، عندما غدرت بالمسلمين، وتبرأت من حلفهم، بدل أن تشترك معهم في الدفاع عن المدينة المنورة، بموجب نصوص المعاهدة بين الطرفين.

وما زالت الدول تحكم بقتل الخونة المتواطئين مع الأعداء حتى في الوقت الحاضر.

وكان جزاء بني قريظة من جنس عملهم، حين عرضوا بخيانتهم أرواح المسلمين للقتل، وأموالهم للنهب، ونساءهم وذراريهم للسبي، فكان أن عوقبوا بذلك جزاء وفاقًا، وليس من داع للتنصل من حقائق التأريخ، وتكذيب الروايات الصحيحة.» («السيرة النبوية الصحيحة»: ١/ ٣١٧)

- **وقال الدكتور محمد لقمان السلفي:**

«إن هذا النوع من الكتاب والسنة النبوية دليل على انهزامية أولئك الكتاب وجهلهم بالسنة وأهميتها في الإسلام، وينبئ عن عدم ثقتهم بالله، وسطحيتهم في دراستهم للقرآن الكريم والسنة النبوية. إنها أحاديث صحيحة ثابتة وإن البالغين من بني قريظة قتلوا للخيانة العظمى التي ارتكبوها...» (الصادق الأمين: ص ٤٨٥)

- **قال الأستاذ الغزالي:**

«**أجل! هو القتل!** وإنّما تقع تبعات الحكم به على من تعرّض له بسوء صنيعه، وبما أسلف من نيّات خبيثة، لم يسعفها الحظ فتحقق، ولو قد تحققت لكان ألوف المسلمين هلكى تحت أقدام الأحزاب المنسابة من كل ناحية، يحرضهم ويؤازرهم أولئك اليهود.

وربّما كانت مغامرات نفر من طلاب الزعامة سببا في هذه الكارثة، التي حلّت ببني قريظة، ولو أنّ حييّ بن أخطب وأضرابه، سكنوا في جوار الإسلام، وعاشوا على ما أوتوا من مغانم، ما تعرّضوا ولا تعرّض قومهم لهذا القصاص الخطير.

لكنّ الشعوب تدفع من دمها ثمنا فادحا لأخطاء قادتها.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۝٢٨ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ۝٢٩﴾ [إبراهيم: ٢٨ - ٢٩]»

هذا، وقد كان اليهود يعذّب أعداءهم أشدّ من هذا، كما تقدّم آنفًا تعليقًا. (صلاح)

فصل

فتح جبهة القتال ضدّ الناصاری

فصل

فتح جبهة القتال ضدّ النصارى[١]

كان تعامل النبي ﷺ مع النصارى تعاملًا طيبا، وقد عاداه واحد أو اثنان من حكامهم، ولكن جمهورهم كانوا بمعزل عن ذلك، وتوضّحه الأحداث أن حربا واحدة فقط وقعت[٢] مع حاكم نصرانيّ، وكذلك وقع سفر واحد[٣] فقط، حين انتشر نبأ أفاد بهجومهم على المسلمين.

(١) بعد تصفية كيان المشركين، وكيان اليهود، وجيوب المقاومة الأخرى في الجزيرة العربية، آن الأوان لفتح الجهة ضدّ الروم من النصارى، ومن دان لها بالولاء من متنصّرة العرب، التي تتمثل في غزوة مؤتة، والسفر إلى تبوك.
وبهذا تم سلطان الدولة الإسلامية على نصارى الشمال، الموالين للرومان. (قراءة جديدة: ٣٧٦) (صلاح)

(٢) وهي غزوة مؤتة مع شرحبيل بن عمرو الغسّاني النصراني، كما سيأتي. (صلاح)

(٣) هو السفر إلى «تبوك»، سمّاه مؤلفنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ سفرًا ، لأنه لم يقع فيه قتال، كما سيأتي. (صلاح)

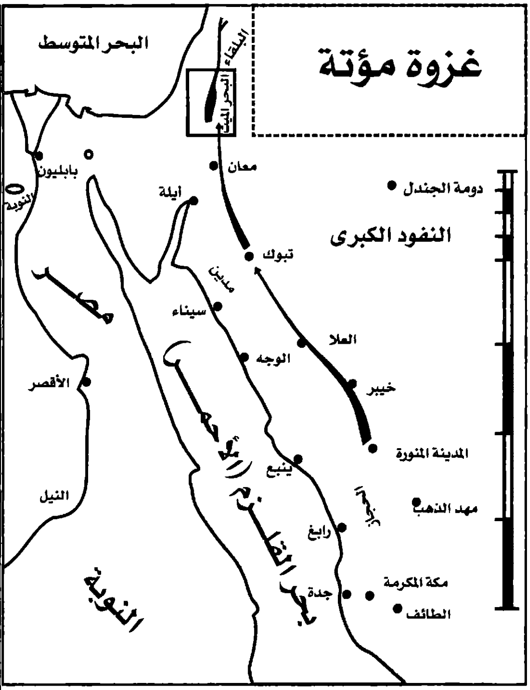

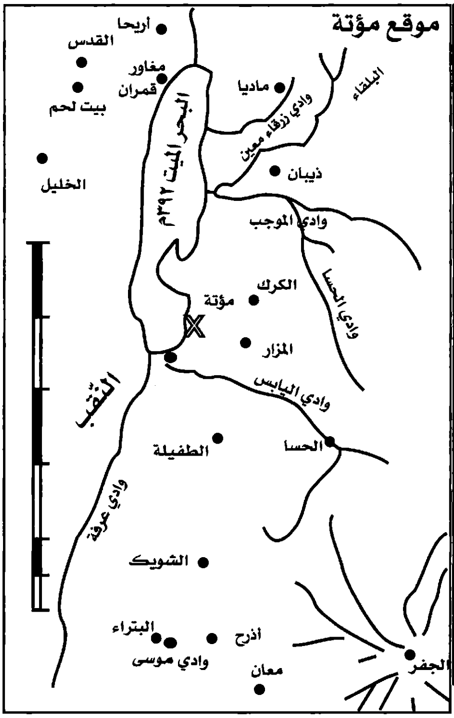

غزوة(١) مؤتة عام ٨ هـ
(الثأر لداعية الإسلام)

سبب هذه الغزوة:

«مؤتة»: قرية بأرض البلقاء من أرض الشام(٢)، وكانت في جمادى الأولى سنة

---

(١) الغزوة: هي المعركة التي شارك فيها النبي ﷺ، وسميت «غزوة مؤتة» مع أنه ﷺ لم يشارك فيها، وذلك لأهميتها في تأريخ الحروب الإسلامية، ولكثرة من حضرها من الصحابة، ولكون جيشها أكبر جيش حتى الآن بعد غزوة الخندق. (صلاح)

(٢) مؤتة بضمّ الميم وبعدها همزة، أو بضمّ الميم وسكون الواو، وهي الآن قرية عامرة بالسكان، في الأردن، على مسيرة أحد عشر كيلًا من جنوب الكرك. (الصادق الأمين: ٥٨٣)

ثمان[١].

وكان سببها: أن رسول الله ﷺ بعث الحارث بن عمير الأزدي بكتابه إلى الشام إلى ملك الروم أو بصرى، فعرض له شرحبيل بن عمرو الغسّاني، فأوثقه رباطا، ثم قدّمه فضرب عنقه، ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره، فاشتدّ ذلك عليه حين بلغه الخبر[٢].

وهذا القتل قد عرض نفوس الرسل للخطر، فأرسل رسول الله ﷺ جيشا قوامه ثلاثة آلاف، ولم يبد حاكم غسّان الندم على فعله هذا، بل استعدّ للقتال[٣].

مصير هذه الغزوة:

ومضى المسلمون حتى نزلوا «معان»[٤]، فبلغ الناس أن هرقل بالبلقاء[٥] في مائة ألف من الروم، وانضمّ إليهم من نصارى العرب: لخم وجذام و (قبائل قضاعة) من بلقين وبهرام وبلي مائة ألف، فلمّا بلغ ذلك المسلمين أقاموا بـ«معان» ليلتين[٦]، ثم قرّروا القتال.

---

(١) إلا ما ذكر خليفة بن خياط في تأريخه أنها كانت سنة سبع. (فتح الباري: ٧/ ٥١١، صحيح السيرة: ٣٨٨) (صلاح)

(٢) «عزّ على المسلمين مصرع رسولهم إلى أمير بصرى، والطريقة الشائنة التي عومل بها...، لذلك كان وقع هذه الإهانة شديدا على المسلمين، فعزموا على الاقتصاص لرجلهم، وعلى زلزلة الوالي الأثيم، الذي صنع ما صنع لحساب الرومان.» (فقه السيرة: ص٣٦٥) (صلاح)

(٣) انفرد الواقدي [٢/ ٧٥٥-٧٥٦] بذكر السبب المباشر لهذه الغزوة، وهو ضعيف، لا يعتمد عليه، خاصة إذا انفرد بالخبر. ولكن تشريع الجهاد يقتضي الاستمرار في إخضاع القبائل العربية، وتوسيع رقعة الدولة الإسلامية بصرف النظر عن الأسباب المباشرة. فكان لابدّ من إخضاع الدويلات العربية النصرانية الموالية للروم، وبالتالي سبق الروم بالتحرك في المنطقة قبل قيامهم بعمل ضد الدولة الإسلامية الفتية. (السيرة النبوية الصحيحة: ٢/ ٤٦٧) (صلاح)

(٤) مدينة في بادية الشام من نواحي البلقاء، تلقاء الحجاز، وهي الآن من المدن الأردنية. (صلاح)

(٥) وهي أرض مآب.

(٦) يتدبرون في أمر هذا العدد الهائل من جيش العدو، ثم زالت مشاعر التردد وقرّروا القتال مهما كانت النتائج. (فقه السيرة: ٣٦٦) (صلاح)

وقد قتل فيها زيد بن حارثة(١)، وجعفر بن أبي طالب(٢)، وعبد الله بن رواحة من حملة راية المسلمين(٣)، ولما أخذ الراية خالد بن الوليد دافع القوم وحاش بهم، ثم انحاز بالمسلمين وانصرف بالناس، وقد انكسرت في يده تسعة سيوف(٤)، وقد حدّث رسول الله ﷺ وهو بالمدينة عن قتل هؤلاء الناس، وعن مصير الحرب، ويومئذ سمّي خالد سيف الله(٥).

---

(١) **أصيب زيد بن حارثة** في صدره بالرماح وسقط مصروعا، وكانت الراية في يده، **فأخذها جعفر الطيار** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فعقر المهاجمون فرسه، فصار ماشيا، فضرب رجل بالسيف يمينه، فأخذ الراية بيساره، فضربت يساره أيضا، ولهذا يقال له «ذو الجناحين». [ووجد جعفر، وفي جسده بضع وتسعون من طعنة ورمية، وليس منها شيء في دبره -أي في ظهره-. (البخاري ٤٢٦٠، ٤٢٦١ عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا).

وقاتل ابن رواحة بعد صاحبيه بكل شجاعة حتى قتل. وقد نعى رسول الله ﷺ زيدا، وجعفرا، وابن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قبل أن يأتيه خبرهم. كما في البخاري (٤٢٦٢، عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) (صلاح)]

(٢) البخاري في باب غزوة مؤتة (٥/ ٨٦) [رقم ٤٢٦١، ٤٢٦٢] عن ابن عمر، وفي المغازي (٥/ ٨٦).

(٣) هذه هي المرة الأولى، التي يتخذ فيها النبي ﷺ مثل هذا الاحتياط في تولية عدة أمراء بالترتيب. (السيرة النبوية الصحيحة: ٢/ ٤٦٧) وكان هذا من أعلام النبوّة، وكانت شهادتهم في هذه الغزوة بالترتيب نفسه. (صلاح)

(٤) في البخاري رقم (٤٢٦٥، ٤٢٦٦) من حديث خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية». (صلاح)

(٥) البخاري [رقم ٤٢٦٢، ١٢٤٦ عن أنس، أحمد رقم ٢٢٥٦٦، وذكره الألباني في أحكام الجنائز (رقم ٤٦) وقال: إسناده حسن. (صلاح)]

(فائدة): من معجزات النبي ﷺ أنه أخبر أصحابه باستشهاد القادة الثلاثة، وعيناه تذرفان بالدموع، قبل أن يأتيه الرسول بالخبر، وأخبرهم باستلام خالد للراية، وبشّرهم بالفتح على يديه. (السيرة النبوية الصحيحة: ٢/ ٤٦٩)

هذا، واختلفوا فيما كان عليه الجيش الإسلامي بين نصر و هزيمة، على ثلاثة أقوال:

(١) **إن المسلمين قد انتصروا**. (هذا الصواب)

(٢) **إن المسلمين هزموا شر هزيمة**، عرفوها في تأريخهم عقب استشهاد القادة الثلاثة. (هذا خطأ

=

=

فادح)

(٣) **كل فئة انحازت عن الأخرى.** (هذا تعبير عما حصل في المعركة حسب ظاهر تفاصيلها) **والراجح هو الرأي الأول لقوله ﷺ:** «... حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم.» (البخاري ٤٢٦٢ عن أنس). فيه دلالة على أن النصر والفتح كان بجانب المسلمين. (صحيح السيرة للعلي: ٣٩٢-٣٩٣ رقم ٦٢٢، والصادق الأمين: ٥٩٨) (صلاح)

(فائدة): كان قوام جيش المسلمين ثلاثة آلاف في مقابل الروم، وعددهم مائة ألف، وأعوانهم من متنصّرة العرب، عددهم أيضًا مائة ألف، وصمود المسلمين الباسل في وجه قوّة عظمى في ذلك العصر، ألقى الرعب في قلوبهم، وقلوب أعوانهم في المناطق المجاورة أيضًا، فصارت هذه الغزوة إرهاصًا لما بعدها من غزو الروم، وإرهابًا لأعداء الإسلام والمسلمين. وكذا خارت عزائم الجيوب المقاوِمة في أرض العرب أيضًا. (صلاح)

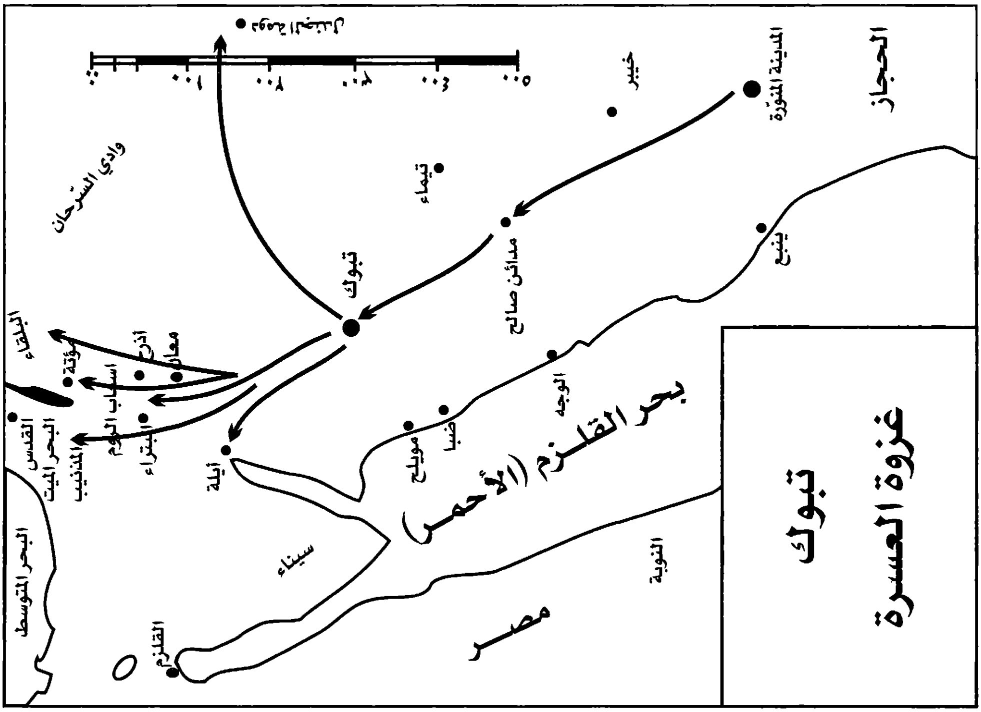

جيش العسرة
أو المسير إلى التبوك رجب سنة ٩هـ(١)

---

(١) سميتُها سفرًا أو مسيرًا، لأنه لم يحدث فيه قتال، وقد ذكر المؤرخون تلك الغزوة، باسم غزوة تبوك. [و«تبوك» موضع شمال الحجاز بين وادي القرى والشام، تبعد عن المدينة نحو ٧٧٨ كيلًا بالطريق المعبد.

وسميت «غزوة العسرة» أيضا، لما كان أصاب المسلمين من الضيق الاقتصادي وقتها، والذي تدل عليه أيضا الآية الكريمة: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ...﴾ [التوبة: ١١٧].

وقد بين كل من قتادة ومجاهد أن الرجلين كانا يشقّان التمرة بينهما، وكان النفر يتناولون التمرة بينهم، يمصّها هذا، ثم يشرب عليها، ثم يمصّها هذا، ثم يشرب عليها. (تفسير الطبري: ١١/ ٥٥)

ولا يعرف إن كانت الأزمة الاقتصادية وقت هذه الغزوة، ترجع إلى توقيت الحملة قبل جني ثمار التمر وبيعه، أم أنها ترجع لعوامل أخرى أبعد. (فتح الباري: ٣/ ٣٤٣-٣٤٤، والسيرة النبوية =

من أسباب المسير إلى تبوك:

وكان في رجب سنة تسع من الهجرة[١]، قد جاء ركب من الشام، فأخبر أن جيش قيصر يتجمّع، ويستعدّ للهجوم على المدينة، ومعهم من قبائل العرب النصرانية: لخم، وجذام، وعاملة، وغسان، كأنهم يريدون أن يشفوا نفوسهم من الهزيمة التي لحقتهم في مؤتة[٢].

القرار النبويّ لمواجهة القوّة العظمى في ساعة العسرة:

واستحسن النبي ﷺ لقاء الجيش المهاجم خارج أرض العرب، حتى لايختلّ الأمن في داخل البلاد[٣].

=

الصحيحة: ٢/ ٥٢٤).

عندي ترجع الأزمة إلى توقيت الحملة لأنه كان في حال العسرة كما تقدم في قوله تعالى. (صلاح)].

(١) أي قبل حجة الوداع بلا خلاف، وقبل غزو الطائف بستة أشهر. (صلاح)

(٢) «الكنيسة لاتطيق أن يعيش بجانبها رأي من يخالف في الفروع التافهة، فكيف تسمح بالبقاء لدين منكر سلطة رحاها؟

لذلك رأى الروم أن يعيدوا الكرّة، فيضربوا الإسلام في شمال الجزيرة ضربة تردّه من حيث جاء، وتوصد عليه أبواب الحدود، فلا يستطيع التسرّب منها.

وترامت إلى النبي ﷺ في المدينة أنباء هذا الإعداد الماكر، فجاء قرار النبي ﷺ للمسير إلى تبوك.» (فقه السيرة: ٤٠٢-٤٠٣)

(٣) وقد كان لهذا الحزم أطيب النتائج، فخرج المسلمون في تعبئة، لم يخرجوا من قبل في مثلها. (فقه السيرة: ٤٠٤)

بذلك دخل المسلمون مرحلة جديدة، بعد قضائهم على الوثنية في جزيرة العرب، وإجلائهم أهل الكتاب من يهود، إلى قتال أهل الكتاب من النصارى. هذا التحول الذي يتسق مع طبيعة الإسلام وأهدافه في الحياة، والذي تعتبر غزوة تبوك أحد شواهده. (السيرة النبوية الصحيحة: ٢/ ٥٢٣-٥٢٤ تعليقًا)

«وبهذا يكون قد آن الأوان لفتح جبهة الروم ومن دان لها بالولاء من متنصّرة العرب، حيث أعدّ العدّة للمسير إلى تبوك، لبسط سلطان الدولة الإسلامية على نصارى الشمال، الموالين للرومان.» (قراءة جديدة: ٣٧٦)

وكانت هذه المواجهة مع دولة، اكتسحت نصف العالم، وكان جيشه قد هزم إيران قريبا[١].

كانت غزوة تبوك في زمن عسرة الناس: شدّة من الحرّ، وجدب من البلاد، وحين طابت الثمار والناس يحبّون المقام في حدائق ثمارهم وظلالها[٢].

تبرعات سخيّة لتجهيز الجيش:

ثم إن رسول الله ﷺ جدّ في سفره، وأمر الناس بالجهاز والاستعداد، وحضّ أهل الغنى على النفقة والحملان في سبيل الله، فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا.

- **وأنفق عثمان بن عفان في ذلك نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها**[٣]. أنفق ثلاث مائة (أو تسع مائة) بعير بأحلاسها وأقتابها وعدتها، وألف دينار عينًا، فسمي «مجهز جيش العسرة.»[٤]
- **وأعطى عبد الرحمن بن عوف** أربعين ألف درهم[٥].

---

(١) قتال الروم ليس صدامًا مع قبيلة محدودة العدد والعدّة، بل هو كفاح مرير مع دولة تبسط سلطانها على جملة قارّات، وتملك موارد ثرّة من الرجال والأموال. ولكن أصحاب العقيدة لا ينكصون أمام الصعاب. (فقه السيرة: ٤٠٣) (صلاح)

(٢) غزوة تبوك تشبه غزوة الأحزاب، فإنّ بلاء المسلمين أولها كان شديدًا، ثم جاء ختامها طمأنينة وعزّة. فلمّا رأى النبي ﷺ القوم قابعين مستكينين، قرّر أن يقفل عائدًا إلى المدينة موفورًا منصورًا. (فقه السيرة: ٤٠٩) (صلاح)

(٣) الطبري (٣/ ١٠٢) [فقد ضرب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الرقم القياسي في البذل والسخاء استجابة لنداء النبي ﷺ]

(٤) عن عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: «من جهز جيش العسرة فله الجنة، فجهزتهم». (البخاري رقم ٢٧٧٨)

وعن عبد الرحمن بن سمرة جاء عثمان بن عفان إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حين جهّز النبي ﷺ جيش العسرة، قال: فصبّها في حجر النبي ﷺ فجعل النبي ﷺ يقلبها بيده ويقول: ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم، يردّها مرارا. (الترمذي (٣٧٠١)، حسّن الألباني إسناده في تخريج المشكاة (٦٠١٨)، وأحمد (٢٠٦٣٠) وحسنه الأرنؤوط في تخريجه) (صلاح)

(٥) وفي رواية: «مائة أوقية من الذهب.» (صلاح)

• وجاء عمر بن الخطاب بنصف ما عنده في البيت من الأثاث والمال والطعام، وثمنها عدة آلاف.

• وجاء أبوبكر الصديق بجميع ما يملك[١]، ولما سئل عما تركه فيه قال: «حبّ الله والرسول.»

• وقدم أبو عقيل الأنصاري نصف صاع[٢] من تمر، وقال: سقيت زرعًا بصاعين من تمر، فتركت صاعا للعيال، وأتيت بصاع في سبيل الله، فقال رسول ﷺ: انثروه على جميع الأمتعة الثمينة.

وهكذا قد قدّم كل صحابيّ بإخلاص وسعة قلب، ما عنده من المال[٣].

المعذّرون من الأعراب:

وجاء المعذّرون من الأعراب، وهم اثنان وثمانون رجلا، تخلّفوا عن رسول الله ﷺ[٤]، وقد أكّد لهم عبد الله بن أبيّ: أن محمدا وأصحابه لن يستطيعوا العودة من تبوك، فإن قيصر يفرّقهم في بلاد مختلفة بعد أسرهم[٥].

وسار[٦] رسول الله ﷺ في ثلاثين ألفا إلى تبوك. واستخلف على المدينة محمد بن

---

(١) وهو نحو أربعة آلاف درهم. (صلاح)

(٢) البخاري (٤٦٦٨)، ومسلم (١٠١٨) عن أبي مسعود الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. (صلاح)

(٣) قد كان هناك عدد من الصحابة لم يكن عندهم من المال والمركوب ما يتجهزون به للسفر مع النبي ﷺ إلى تبوك. (راجع البخاري: ٤٤٣٣، ومسلم: ٢٨٣٩، فيهما بيان لحاجة الأشعريين إلى ما يحملهم النبي ﷺ، ليخرجوا معه للجهاد). (صلاح)

(٤) قال كعب بن مالك في قصته: «إذا خرجت في الناس، بعد خروج رسول الله ﷺ، يحزنني أني لا أرى لي أسوة، إلا رجلًا مغموصًا، أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء. (البخاري ٤٤١٨، ومسلم ٢٧٦٩) (صلاح)

(٥) هكذا كان ابن أبيّ يثبّط همم المسلمين، ويرجف في المدينة. وكان هذا ديدنه في المدينة من وقت هجرة النبي ﷺ إلى المدينة وما فعله من رجوعه في غزوة أحد بثلث جيشه إلى المدينة غير خاف عليكم. وكل ذلك كان يحصل بمساعدة حلفائه من المنافقين واليهود. (صلاح)

(٦) عن كعب بن مالك أن النبي ﷺ خرج يوم الخميس في غزوة تبوك، وكان يحبّ أن يخرج يوم الخميس. (البخاري: ٢٩٥٠) (صلاح)

مسلمة الأنصاريّ.

وقال الطبري: سباع بن عُرفطة[١].

والأول أثبت.

وعهد إلى عليّ بن أبي طالب[٢] القيام على أمور أهل بيته من النساء والصبيان.

وكان الجيش يواجه قلّة الظهر، حتى أن ثمانية عشر شخصًا، كانوا يتناوبون بعيرا واحدا، وقلة الطعام، اضطرّوا لأكل أوراق الأشجار، فتورّمت شفاههم، ولم يجدوا في بعض المنازل ماء فذبحوا الإبل وشربوا من ماء الأمعاء[٣].

وهكذا صبروا وثبتوا إلى أن وصلوا تبوك.

وهم في طريقهم إلى تبوك، لحقهم علي بن أبي طالب وهم نازلون في الجرف[٤].

فقال: يا نبي الله، زعم المنافقون أنك إنما خلفتني لأنك استثقلتني وتخفّفت مني.

فقال: كذبوا، ولكنّي إنما خلّفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلُفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبي بعدي[٥]، فرجع عليّ إلى المدينة فرحًا.

---

(١) الطبري (٣/ ١٠٣).

(٢) الطبري (٣/ ١٠٣)، البخاري (٥/ ١٢٩) [رقم ٤٤١٦، ومسلم رقم ٢٤٠٤، عن مصعب بن سعد عن أبيه سعد بن وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

(٣) مدارج النبوة للشيخ عبد الحق الدهلوي. (٢/ ٤٠٦).

(٤) الجرف: موضع على ثلاثة أميال من المدينة.

(٥) البخاري في باب غزوة تبوك (٥/ ١٢٩) [رقم ٤٤١٦] عن مصعب بن سعد بن وقاص عن أبيه، [ومسلم ٢٤٠٤]، وزاد المعاد (٣/ ٥٣٠).

كان موسى قد استخلف هارون على بني إسرائيل، حين أتمّ ميقات ربّه أربعين يوما في جبل الطور، وقد وردت هذه القصة مفصّلة في القرآن الكريم، والنبيّ الذي استخلفه موسى بعد وفاته هو يوشع بن النون.

مدة إقامة النبي ﷺ في تبوك[١]:

وفي تبوك أقام رسول الله ﷺ شهرا، وقد أحدثت هذه الخطوة الجريئة آثارًا بالغة في أهل الشام، فإنهم تخلّوا بعد ذلك عن فكرة الهجوم على العرب، وتحينوا له فرصة مناسبة بعد وفاة النبي ﷺ.

خطبة النبي ﷺ يوم تبوك[٢]:

وقد ألقى رسول الله ﷺ في تبوك[٣] بعد صلاة الصبح مرة خطبة وجيزة بليغة، حمد

---

(١) عن جابر، قال: «أقام رسول الله ﷺ بتبوك عشرين يوما يقصر الصلاة». (أبو داود (١٢٣٥) إسناده صحيح. (صلاح)

(٢) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن النبي ﷺ خطب يوم تبوك، فقال: «ما في الناس مثل رجل آخذ بعنان فرسه، فيجاهد في سبيل الله، ويجتنب شرور الناس، ومثل رجل باد في غنمه، يقري ضيفه، ويؤدي حقه». (أحمد: ١٩٨٧، ٢٨٣٧، بإسناد صحيح. وراجع «سيرة المصطفى» (٢/ ٨٠٦، رقم ٧٩٥). **أما الخطبة الآتية**، فحديثها غريب، وفيه نكارة وفي إسناده ضعف كما سيأتي تخريجه في آخره. (صلاح)

(٣) وكنيسة فيلا دلفيا القديمة، التي ورد ذكرها في رؤيا يوحنا اللاهوتي (٣/ ٧) كانت مجاورة لتبوك، وكان العرب يسمّونها «القصر». وقد عثر على أنقاضها في طريق سكة حديد الحجاز. وفي العصر النبوي سكن في هذا الموضع النصارى، وأثناء إقامة النبي ﷺ في تبوك تم نشر الدعوة الإسلامية بينهم، وأبرمت معهم معاهدات أيضًا، فمن بقي منهم على النصرانية منحوا حريته الدينية، وتحمّل المسلمون مسئولية الحفاظ على أموالهم وأنفسهم.

وكانت في هذه المنطقة إمارات صغيرة للنصارى، مثل إمارة أكيدر في دومة الجندل، وإمارة يوحنا في أبله، فبقيتا على حكمهما.

وكان أهل أذرح على النصرانية، وكانت أيضًا قبائل حرّة، فبقوا على ما كانوا عليه. والمعاهدات التي أبرمت معهم تدلّ على التسامح والمودّة والكرم. وقد سمع النصارى اسم أورشليم الجديد والاسم الجديد للإله في هذا المكان، كما جاء في رؤيا يوحنا (٣/ ١٢).

وأكيدر: صاحب دومة الجندل، أسره خالد بن الوليد وهو يصطاد، فحضر إلى النبي ﷺ وعقد معه معاهدة، ثم أسلم.

فيها الله، وأثنى عليه، ثم قال:

أما بعد:

«فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأوثق العرى كلمة التقوى، وخير الملل ملّة إبراهيم، وخير السنن سنة محمد ﷺ، وأشرف الحديث ذكر الله، وأحسن القصص هذا القرآن، وخير الأمور عوازمها، وشرّ الأمور محدثاتها، وأحسن الهدي هدي الأنبياء، وأشرف الموت قتل الشهداء، وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى، وخير الأعمال ما نفع، وخير الهدى ما اتّبع، وشرّ العمى عمى القلب، واليد العليا خير من اليد السفلى، وما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى، وشرّ المعذرة حين يحضر الموت، وشرّ الندامة يوم القيامة، ومن النّاس من لا يأتي الجمعة إلا دبرا، ومنهم من لا يذكر الله إلا هجرا، ومن أعظم الخطايا: اللسان الكذّاب، وخير الغنى غنى النفس، وخير الزاد التقوى، ورأس الحكم مخافة الله عزّ وجل، وخير ما وقر في القلوب: اليقين، والارتياب من الكفر، والنياحة من عمل الجاهلية، والغلول من جثا جهنم، والسّكر كيّ من النار، والشعر من إبليس، والخمر جماع الإثم، وشر المأكل مال اليتيم، والسعيد من وعظ بغيره، والشقيّ من شقي في بطن أمّه، وإنما يصير أحدكم إلى موضع أربعة أذرع، والأمر إلى الآخرة، وملاك العمل خواتمه، وشرّ الرؤيا: رؤيا الكذب، وكل ما هو آتٍ قريب، وسباب المؤمن فسوق، وقتاله كفر، وأكل لحمه من معصية الله، وحرمة ماله كحرمة دمه، ومن يتأل على الله يكذّبه، ومن يغفر يغفر له، ومن يعفّ يعفّ الله عنه، ومن يكظم الغيظ يأجره الله، ومن يصبر على الرزيّة يعوّضه الله، ومن يبتغ السمعة يسمع الله به، ومن يتصبّر يضعف الله له، ومن يعص الله يعذّبه الله، ثم استغفر ثلاثا».(١)

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٥٤١-٥٤٢).

[أخرجه البيهقي (-٥٥٨هـ) في الدلائل: «من طريق يعقوب بن محمد الزهري، عن عبد العزيز بن عمران، حدثنا مصعب بن عبد الله، عن منظور بن سيار، أخبرني أبي، سمعت عقبة بن عامر الجهني...» وهذا إسناد ضعيف جدا، يعقوب بن محمد الزهري كثير الوهم والرواية عن الضعفاء، وعبدالعزيز بن عمران متروك، احترقت كتبه، فحدّث من حفظه، فاشتدّ غلطه، منظور =

وفاة ذي البجادين، الذي ضحّى بكل ما عنده لأجل اللحوق بالنبي ﷺ:

وتوفّي ذوالبجادين(١) أثناء إقامته في تبوك، وأمر هذا المخلص يوضّح مدى لطف النبي ﷺ به، وبغيره من المخلصين من فقراء الصحابة رضي الله عنهم.

اسم ذي البجادين: عبد الله [بن عبد نهم المزني]، توفي والده -وهو طفل- فربّاه عمّه ولما شبّ، أصلح حاله بمنحه الإبل والشياه والعبيد، وسمع عبدالله عن الإسلام فتشوّق إلى التوحيد، ولكنّه لم يظهر الإسلام خوفا من عمّه، فلما رجع النبي ﷺ من فتح مكة، **قال عبد الله لعمّه:**

يا عمّي! مضت سنوات، وأنا أنتظر أن منك الرغبة في الإسلام، ولكنّ حالك لم تتغير، وإني لا أثق بحياتي كثيرا، فائذن لي أسلم.

قال عمّه: إنك لو أسلمتَ لأخذتُ منك كل ما عندك، حتى الإزار والرداء.

قال عبد الله: لأسلمنّ وأتبعنّ محمدا ﷺ، فقد تنفرت من الشرك والوثنية، فافعل بي ما بدا لك، فخذ منّي مالي، فإني أعلم أني تاركه جميعا يوما، ولكنّي لا أترك له دين الحق.

ثم خلع عبد الله ثيابه، وذهب إلى أمه عاريا، فتحيرت أمّه، وسألت عما جرى. **فأجاب عبد الله:** إني صرت مؤمنا وموحّدا، وأريد الذهاب إلى رسول الله ﷺ فأعطيني ما أستر به عورتي، فأعطته بجادا، فشقّه عبد الله إلى شقّين(٢)، واتّزر بواحد، واشتمل بالآخر، ثم أتى رسول الله ﷺ إلى المسجد صباحًا، فأسند إلى جدار المسجد ينتظر.

ولما أتى رسول الله ﷺ سأله عنه، فقال: اسمي عبد العزّى، فقير مسافر، جئت محبّا

=

ابن سيار لا يعرف، وكذا أبوه.

وقال ابن كثير ٤/ ٣٥: وهذا حديث غريب، وفيه نكارة، وفي إسناده ضعيف. (زاد المعاد: ٣/ ٥٤٢ تعليقًا) (صلاح)]

(١) عاش يتيمًا، ولكن كان عيشه عيشة المترفين في كنف عمّه، حتى وقع الإسلام في قلبه وعمره ست عشرة سنة، فسلب منه عمّه كل ما عنده، فلحق بالنبي ﷺ بالمدينة. راجع ترجمته في «الإصابة» (٤/ ٩٨-٩٩ رقم ٤٧٩٥)، وهو عمّ عبد الله بن مغفل بن عبد نهم المزني. (صلاح)

(٢) «البجاد»: كساء غليظ مخطّط. [وبهذا اشتهر بذى البجادين كما سيأتي]

جمال النبوّة وطالبًا الهداية.

قال النبي ﷺ: اسمك عبد الله، ولقبك «ذو البجادين»، انزل قريبا منّا، واسكن المسجد.

فانضمّ عبد الله إلى أصحاب الصفة(١)، يتعلّم القرآن من النبي ﷺ، ويتلوه بشوق ورغبة وحماس. حتى أن عمر قال مرة للنبي ﷺ: إن الناس يصلّون، وهذا الأعرابي يرفع صوته بالقرآن فيشوّش عليهم.

قال النبي ﷺ: يا عمر! لاتقل له شيئا، فإنه ترك كل شيء لله و لرسوله.

ولما بدأ الاستعداد لغزوة تبوك، جاء عبد الله إلى رسول الله ﷺ، وقال: ادع لي يا رسول الله بالشهادة.

قال رسول الله ﷺ: اذهب! فأت بقشرة من شجر، فلما أتى بها ربطها النبي ﷺ على عضده، وقال:

«اللهم أحرم دمه على الكفّار».

قال عبد الله: يا رسول الله إني أطلب الشهادة.

قال ﷺ: «لما خرجت ناويا الغزوة، وأصبت بالحمى فمتَّ فإنك شهيد.

وهكذا وقع بعد الوصول إلى تبوك، أصابته الحمى فانتقل إلى رحمة الله.

قال بلال بن الحارث المزني: رأيت دفن عبد الله، كان الوقت ليلا، وفي يد بلال سراج، ورسول الله ﷺ في حفرته، وأبو بكر وعمر يدليانه إليه، وهو يقول:

«أدّبا إلى أخيكما، ثم وضع اللبنة على القبر، ودعا له، فقال: «**اللهم إني أمسيت راضيا**

---

(١) **الصُفة** هي: المقعد المظلّ خارج البيت. وكان في فناء المسجد النبوي، يقيم فيه المسلمون الذين تخلّوا عن متاع الدنيا وراحتها، وآثروا الإسلام وتعلّم أحكام الشريعة، وهم الذين عرفوا بأهل الصفّة في الإسلام. ومحبّو الحق هؤلاء تحمّلوا آلام الجوع والظمأ والحرّ والبرد، ولكنهم لم ينصرفوا عن دروس القرآن الكريم وتعليم دين الله تعالى. وكان يستعد منهم من يذهب لنشر الإسلام في مختلف البلاد. ومنهم أبو هريرة الذي حفظ نحو خمسة آلاف من الأحاديث النبوية، وبلّغ الإسلام. راجع تفصيل ذلك في كتابنا «سبيل الرشاد» (وهو «الرحلة إلى الحج» للمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ).

عنه، فارض عنه»[١].

عفو النبي ﷺ عن المتخلفين إلا عن ثلاثة منهم[٢]:

ورجع النبي ﷺ من تبوك سالما إلى المدينة[٣]، وهنا ندم المنافقون الذين زعموا أن المسلمين يؤسرون في هذه الغزوة، ثم ينفون إلى مكان بعيد، فجاءوا إلى رسول الله ﷺ يعتذرون، فعفا عنهم ﷺ، ولكن ثلاثة[٤] من الصحابة، تخلّفوا عن الغزوة تكاسلا منهم، وكانوا صادقين فتعرّضوا لمحنة عجيبة[٥].

---

(١) ابن هشام (٢/ ٥٢٧)، ومدارج النبوة (٢/ ٤٢٣). [قال الحافظ ابن حجر: رواه البغوي بطوله من هذا الوجه، ورجاله ثقات، إلا أن فيه انقطاعًا، وهو كذلك في «السيرة النبوية» (أي لابن هشام)، وكذلك رواه ابن منده بإسناد جيد عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. «الإصابة» (٤/ ٩٩)
قال ابن مسعود: «يا ليتني كنت صاحب الحفرة»، ولما رأى من اهتمام النبي ﷺ بذي البجادين، ونزوله في قبره، ووجود أبي بكر و عمر وقت دفنه. (صلاح)]

(٢) راجع تخريجه في الإصابة (٤/ ٩٩) (صلاح).

(٣) كان رجوعه من هذه الغزوة في رمضان سنة تسع، وأنزل الله فيها عامة سورة التوبة، وعاتب الله -عزّ وجلّ- من تخلف عنه ﷺ؛ فقال -عزّ وجلّ-: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ...﴾ الآية والتي تليها، ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة: ١٢٠ - ١٢٢]
فبان لك من هذا، واتضح ما اختلف فيه؛ وهو: أن الطائفة النافرة هم الذين يتفقهون في الدين؛ لصحبتهم رسول الله ﷺ في هذه الغزوة، وإذا رجعوا أنذروا قومهم؛ ليحذروا مما جدّ بعدهم من الدين، والله -سبحانه وتعالى- أعلم. («الصحيح المصفّى من سيرة النبي المصطفى ﷺ» للشيخ سليم الهلالي: ٣٣٨-٣٣٩). (صلاح)

(٤) **وهم: مرارة بن الربيع العامري، وهلال بن أمية الواقفي، وكعب بن مالك كلهم من الأنصار** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.(صلاح)

(٥) ممن تأخر من المسير إلى تبوك مع النبي ﷺ أبو ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأجل بعيره الهزيل، وأبو خيثمة، ولكنهما لحقا بالنبي متأخرين. ومن عذره الله من الرجال؛ ممن لا يجد ظهرًا يركبه، أو نفقة تكفيه؛ فمنهم البكاؤون، وكانوا سبعة: سالم بن عمير، وعلبة بن زيد، وأبو ليلى عبدالرحمن =

كعب بن مالك يتحدّث عن محنة تخلّفه عن غزوة تبوك:

وقد بين واحد منهم هذه المحنة بلسانه، ألا وهو: الصحابي كعب بن مالك الأنصاري من السابقين الثلاثة والسبعين، الذين حضروا العقبة الثانية.

قال كعب بن مالك: ما تخلّفت عن رسول الله ﷺ في غزوة غير بدر، وحين تخلّفت عنه ﷺ في تبوك، لم أكن أنوي ذلك، ولم يكن لي عذر، ولكن ابتليت به ابتلاء، ووالله ما اجتمعت لي راحلتان قط سوى هذه الغزوة، فتجهّز رسول الله ﷺ وتجهّز المسلمون معه، وجعلت أغدو لأتجهّز معهم، فأرجع، ولم أقض حاجة، فأقول نفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردتُ.

فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى شمّر بالناس الجدّ، فأصبح رسول الله ﷺ غاديا، والمسلمون معه، ولم أتجهز شيئا.

فقلت: أتجهّز بعده بيوم أو يومين، ثم ألحق بهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئا، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا، وتفرط الغزو، فهممت أن أرتحل، فلم أفعل.

وجعلت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ، يحزنني أني لا أرى إلا رجلا مغموصا عليه في النفاق، أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء.

فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجّه قافلًا من تبوك، حضرني بثّي، فجعلتُ أتذكّر الكذبَ، وأقول:

=

بن كعب، وعمرو بن الحمام، وعبد الله أبو المغفل المزني، وهرمي بن عبد الله، وعرباض بن سارية الفزاريّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وقد أخبر عنهم رسول الله ﷺ: أنهم شاركوا إخوانهم، الذين نفروا في سبيل الله في الأجر:

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ رجع من غزوة تبوك، فدنا من المدينة، فقال: «**إن بالمدينة أقواما، ما سرتم مسيرا، ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم**»، قالوا: يا رسول الله! وهم بالمدينة؟ قال: «**وهم بالمدينة، حبسهم العذر**». (البخاري ٤٤٢٣، عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. راجع «الصحيح المصفّى من سيرة النبي المصطفى ﷺ»: ٣٣٤). (صلاح)

بماذا أخرج من سخطة رسول الله ﷺ غدا؟

فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظلّ قادمًا، زاح عنّي الباطل، وعرفت أني لا أنجو منه إلا بالصدق، فأجمعتُ أن أصدقه، وصبّح رسول الله ﷺ المدينة، ولما جلس في المسجد جئته، فسلّمت عليه، فتبسّم تبسّم المغضب.

ثم قال لي: ما خلفك؟ ألم تكن ابتعت ظهرك؟

قلت: والله ما كان لي عذر، والله ما كنتُ قط أقوى، ولا أيسر مني حين تخلّفت عنك، إن الشيطان أضلّني، وأوقعني في ورطة الحرمان.

قال رسول الله ﷺ: أما هذا فقد صدقت فيه، فقم حتى يقضي الله فيك.

فقمت، وثار معي رجال من بني سلمة فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا، ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به إليه المخلّفون.

ثم قلت: هل لقي هذا أحد غيري؟

قالوا: نعم، رجلان قالا مثل مقالتك.

قلت: من هما؟

قالوا: مرارة بن الربيع العامري، وهلال بن أمية. فذكروا لي رجلين صالحين، لي فيهما أسوة.

ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة، فاجتنبنا الناس، وتغيّروا لنا، حتى تنكّرت لي نفسي والأرض، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة.

فأما صاحباي فاستكانا، وقعدا في بيوتهما.

وأمّا أنا فكنتُ أشبّ القوم وأجلدهم، فكنت أخرج، وأشهد الصلوات مع المسلمين، وأطوف بالأسواق، ولايكلّمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ، فأسلّم عليه، وهو في مجلسه بعد الصلاة، ثم أصلّي قريبا منه، فأسارقه النظر، فإذا أقبلتُ على صلاتي نظر إلي، وإذا التفتُ نحوه أعرض عنّي، حتى إذا طال ذلك عليّ من جفوة المسلمين، مشيتُ حتى تسوّرت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمّي، فسلمت عليه، فو الله ما ردّ عليّ السلام.

فقلت: يا أبا قتادة! أنشدك بالله، هل تعلم أني أحبّ الله ورسوله؟

فسكتَ، فعدت فناشدته، فسكت عنّي، فعدتُ فناشدته، فسكت عني، فعدت فناشدته، فقال: الله ورسوله أعلم.

ففاضت عيناي، ثم غدوتُ إلى السوق، فبينا أنا أمشي بالسوق، إذا نبطي[١] يسأل عنّي، فجعل النّاس يشيرون له إليّ، حتى جاءني، فدفع إليّ كتابًا من ملك غسّان، فإذا فيه:

«أما بعد: فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوانٍ ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك».

قلت حين قرأتها:

وهذا من البلاء أيضا، قد بلغ بي ما وقعت فيه أن طمع فيّ رجل من أهل الشرك.

قال: فعمدت بها إلى تنّور، فسجرته بها.

وقلت للرسول: اذهب وقل لمن أرسلك: إن سخط صاحبي أحبّ إليّ من رضاك.

ولما رجعت إلى البيت، فإذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني، يقول: **إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزلَ امرأتك.**

قلت: أطلّقها أم ماذا؟

قال: لا، بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبيّ بمثل ذلك.

فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك، فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ما هو قاض.

وجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله ﷺ! إن هلال بن أمية شيخ كبير، ضائع لا خادم له، أفتكره أن أخدمه؟

قال: لا، ولكن لا يقربنّك.

قالت: والله يا رسول الله ما به من حركة إليّ.

فقال لي بعض أهلي: لو استأذنتَ رسول الله ﷺ لامرأتك.

فقلت: والله لا أستأذنه فيها، ما أدري ما يقول رسول الله ﷺ في ذلك إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شابّ.

---

(١) النبطيّ: الفلاح، سمّي به، لأنه يستنبط الماء، أي يستخرجه. (صلاح)

قال: فلبثنا بعد ذلك عشر ليال، فكمل لنا خمسون ليلة[١]، وقد كنت ابتنيت خيمةً في ظهر سلع[٢]، فكنت أكون فيها، إذ سمعت صوت صارخ -أو فى على ظهر سلع- **يقول بأعلى صوته:**

يا كعب بن مالك، أبشر.

قال: فخررت ساجدا، وعرفت أن قد جاء الفرج.

وجاء الناس يبشّروننا، ويقولون: ليهنكم توبة الله عليكم.

وانطلقت أتيمّم رسول الله ﷺ، وهو جالس حوله الناس،فلما سلّمت عليه، قال لي، ووجهه يبرق من السرور: **أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمّك.**

---

(١) استغرق سفر النبي ﷺ إلى تبوك نحو خمسين يوما، ولذا عُزِل المتخلّفون عن غزوة تبوك من أهاليهم وإخوانهم والمسلمين للمدّة نفسها. [راجع «البخاري» (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩) من حديث كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا].

(٢) ورد ذكر «سلع» في حديث البخاري، و به نعلم أنها تقع داخل المدينة، وكان بيت كعب بن مالك على مقربة منها. وقد أورد الطبري عن ابن إسحاق عند ذكر غزوة الأحزاب: «وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى «سلع» في ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب هناك عسكره والخندق بينه و بين القوم.»

وهذا يدلّ على أن الجيش الإسلامي في غزوة الخندق، حيث واجه المسلمون عدوّهم، كان قد نزل قرب «سلع»، وكان ظهرهم إلى سلع. ولحسان بن ثابت شعر عن غزوة الخندق، وقد ذكر فيه موت عمرو بن عبد ودّ، يقول:

أمسى الفتى عمرو بن عبد ثاويا
بجنوب سلع ثارة لم ينظر

وقد جاء في قصيدة كعب بن مالك عن غزوة الخندق:

ألا أبلغ قريشا إن سلعا
وما بين العريض إلى الصماد

ومع هاتين الروايتين، ينظر ما ورد في كتاب النبي أشعياء (٤٢/ ١١-١٢) من ذكر «سلع» وسكّانها، فإنه يدلّ بوضوح على أن اسم «المدينة» في كتب الأنبياء هو «سلع».

قال: قلت: أمن عندك يا رسول ﷺ أم من عند الله؟

قال ﷺ: بل من عند الله[١]، وكان رسول الله ﷺ إذا استبشر كأن وجهه قطعة قمر.

قال: فلما جلستُ بين يديه، قلت: يا رسول الله ﷺ! إنّ من توبتي إلى الله عز وجل، أن أنخلع من مالي، صدقةً إلى الله وإلى رسوله.

قال ﷺ: أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك.

قلت: إني ممسك سهمي الذي بخيبر[٢].

انتهاء الشرّ المستطير الذي أثاره الأعداء لسنوات:

والحمد لله على أن الشر الذي أثاره الأعداء منذ سنوات، والذي سمّم جوّ القبائل العربية كلها بالبغي والفساد قد انتهى، وقد ظهر من تعامل النبي ﷺ الفياض، ورأفته البالغة التي لا نظير لها خلال هذه الحروب، ما أثبت أنه رحمة للعالمين، بحيث تعرّف العالم منه على الأصول الحضارية والقواعد الحربية الباسلة أثناء القتال[٣].

---

(١) هو قوله تعالى الذي أنزل في المتخلفين: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ...﴾ [التوبة: ١١٨]

(٢) زاد المعاد (٣/ ٥٥). [راجع لمزيد التفصيل «صحيح البخاري» في المغازي/ باب حديث كعب بن مالك (رقم ٤٤١٨)، ومسلم رقم (٢٧٦٩) في التوبة، في قصة كعب بن مالك وصاحبيه.
وفي قصة كعب بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فوائد جمّة ذكرها الحافظ رَحِمَهُ اللهُ في «فتح الباري» (٨/ ١٢٣-١٢٤) (صلاح)]

(٣) أقام النبي ﷺ في تبوك عشرين يومًا، يقصر الصلاة، ولم يحصل قتال. ووفد ملك إيلة [يحنة بن رؤبة] على النبي ﷺ وهو في «تبوك»، فأهدى إلى رسول الله ﷺ بغلة بيضاء، وكساه بردًا، وكتب له بجيرهم. (راجع البخاري (١٤٨١)، مفصلًا، ومسلم (١٣٩٢) مختصرًا عن أبي حميد الساعدي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ)
وقد صالح النبي ﷺ متنصرة العرب الضاربين في هذه الأرجاء، فدخل في عهده «أيلة»، و«أذرع» و«تيماء» و«دومة الجندل»، وأيقنت القبائل التي تعمل لحساب الرومان أن اعتمادها على سادتها الأقدمين قد فات أوانها. (فقه السيرة: ٤٠٩)

حروب كانت لا بدّ منها:

وهذه الحروب كانت لا بدّ منها، لأن رسول الله ﷺ مع أصحابه اضطرّ لخوض غمارها، ولذا لم نر في أي حرب أن المسلمين ابتدؤوها، بل كانت كلّها للدفاع عن حوزة المسلمين، وصدّ هجوم الأعداء، أو لاتقاء شرّهم.

لا إكراه في الدين:

ولم يقتل طوال العصر النبويّ رجل واحد لأجل أنه وثنيّ، أو مجوسيّ، أو نصرانيّ، أو يهوديّ.

وقد أوضح الله تعالى في القرآن الكريم بجلاء، أن الاختلاف في الدين والعقيدة قديم قدم العالم، وهو يظلّ كذلك، ولذا لايجوز لأحد أن يكره أحدًا في شأن دينه، والآيات التالية توضّح هذا الأمر جيدًا:

١ - ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦]

٢ - ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩﴾ [يونس: ٩٩]

٣ - ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةًۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ﴾ [هود: ١١٨ — ١١٩]

٤ - ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]

٥ - ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ٤٥﴾ [ق: ٤٥]

٦ - ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢﴾ [الغاشية: ٢١ — ٢٢]

تعامل الإسلام الحضاريّ مع أسرى الحرب

وقبل الانتهاء من ذكر الحرب، من المناسب أن نلقي ضوءًا على تعامل النبي ﷺ مع أسرى الحرب.

كانت الأمم والحكومات قبل الإسلام تتعامل مع أسرى الحرب بوحشية بشعة، تقشعرّ منها الجلود، وتشمئز منها النفوس.

وكان تعامل النبي ﷺ بالأسرى على نوعين[(١)]:

- إطلاق سراحهم بعد دفع الفدية[(٢)].
- إطلاق سراحهم منًّا عليهم، من غير الفدية.

رأي أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في أسرى بدر:

وقع الأسرى في أيدي المسلمين أوّل مرّة في غزوةِ بدر، وهم أهل مكة، ألدّ أعداء المسلمين، وقد عرض النبي ﷺ أمرهم أوّلا على الصحابة، يستشيرهم فيه.

فقال أبو بكر الصديق ومن معه من الصحابة: أن يؤخذ منهم فدية لأمرين:

---

(١) هذا الحكم كان في أول الإسلام، ثم جعل الخيار للإمام بين القتل والمفاداة والمن عليهم دون فداء، (ما عدا الأطفال والنساء إذ لا يجوز قتلهم) كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٤﴾ [محمد: ٤]. (صلاح)

(٢) قد تباين فداء الأسرى، في بدر [وهو يتراوح بين الألف درهم وأربعة آلاف درهم] فمن كان ذا مال، فقد أخذ فداؤه أربعة آلاف درهم... ومن لم يكن لهم فداء من الأسرى، جعل فداؤهم أن يعلّموا أولاد الأنصار الكتابة.

ولم يكن هم المسلمين أخذ المال من هؤلاء، قدر إضعافهم معنويا، فقد قال الرسول ﷺ: «لو كان مطعم بن عدي حيّا، ثمّ كلّمني في هؤلاء النتنى لأطلقتهم له.» (فتح الباري: ٧/ ٣٢٣، وصحيح أبي داود للألباني، رقم: ٢٦٨٩، راجع سيرة النبوية الصحيحة: ٢/ ٣٦٨-٣٦٩) (صلاح)

١- تكون لنا قوة على عدونا، في إصلاح عتادنا وعدّتنا.

٢- عسى الله أن يهديهم إلى الإسلام.

وقال عمر ومن معه من الصحابة: هم أعداء الله، كذّبوك، وقاتلوك، وأخرجوك، اضرب رقابهم، وذلك لأمرين:

١- هم رؤوس الكفر وأئمة الضلال، وصناديد الشرك.

٢- يعزّ الله به الإسلام، ويذلّ به أهل الشرك.

ميل النبي ﷺ إلى رأي أبي بكر:

فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبوبكر، ولم يهو ما قال عمر، ثم أمر الأسرى الذين لايستطيعون أداء الفدية، أن يعلّموا أولاد الأنصار الكتابة، أو صناعة أخرى.

ولا يزال بعض الناس يظنّون حتى الآن أن رأي عمر الفاروق كان أصوب، مستدلّا بالحديث الذي يذكر، أنه لما كان من الغد، رأى عمرُ رسول الله ﷺ وأبا بكر يبكيان.

ولكن طائفة من العلماء ترجّح رأي أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما يأتي:

١- سبق كتاب الله بإحلال ذلك[1].

٢- رأيه يتضمّن الرحمة التي هي أوسع من كل شيء.

٣- شبّه النبي ﷺ في الحديث المذكور أبا بكر بإبراهيم وعيسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وشبّه عمر بنوح وموسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

٤- رأيُ النبي ﷺ كان مع أبي بكر.

٥- أقرّ ربُّ العالمين رأي أبي بكر.

٦- صحّ ظنُّ أبي بكر، فقد أسلم كثير من هؤلاء الأسرى برغبة أنفسهم، وحصلت للمسلمين قوة بالمال الذي حصل لهم بالفداء، وأصلحوا به حالهم[2].

---

(١) قال تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٦٨﴾ [الأنفال: ٦٨]. (صلاح)

(٢) وزد إلى ذلك أن الله تعالى بعد تنبيهه النبي ﷺ في هذا الأمر، وأحلّ لهم الغنيمة فقال: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٦٩﴾ [الأنفال: ٦٩].(صلاح)

إطلاق سراح الأسرى في الغزوات(١):

(١) أطلق النبي ﷺ سبعين من أسرى بدر بالفدية، وقتل منهم اثنان، وهما(٢) عقبة ابن أبي معيط، والنضر بن الحارث، وكان سبب قتلهما، ما ارتكبا من الجرائم الموجبة للقتل فيما قبل(٣).

ومع قبول الفدية أو خدمة التعليم، كان المسلمون يُكرمون هؤلاء الأسرى الذي كانوا ألدّ أعداء الإسلام ونبيّه ﷺ، ويعاملونهم معاملة الضيف، فقد اعترف كثير منهم بأن المسلمين كانوا يهتمّون بهم أكثر من أولادهم.(٤)

(٢) بعد بدر وقع في أيدي المسلمين من الأسرى أكثر من مائة رجل وامرأة في غزوة بني المصطلق، ولكن أطلقوا جميعا دون عوض، وقد أكرم النبي ﷺ امرأة منهم -وهي جويرية- بإدخالها في أمهات المؤمنين.

(٣) في الحديبية أسر ثمانون رجلا من جبل التنعيم، الذين جاءوا للهجوم على المسلمين، فأطلق النبيّ ﷺ سراحهم أيضًا دون شرط وفدية.

---

(١) وردت نصوص في الكتاب والسنّة توصي برعاية الأسرى وإطعامهم، وتشرّع القوانين الرحيمة في معاملتهم. هذا ينطبق على جماهير الأسرى من الأتباع والعامة.
أمّا الذين تاجروا بالحروب، لإشباع مطامعهم الخاصة، فيجب استئصال شأفتهم، وذلك هو الإثخان في الأرض: ﴿... حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنفال: ٦٧] (فقه السيرة: ٢٣٧) (صلاح)

(٢) وحيث قال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنفال: ٦٧] حتى إذا وعوا هذا الدرس، عفا عنهم.(صلاح)

(٣) كانا من ألدّ أعداء الإسلام، الذين كانوا يحرّضون على المسلمين ويؤذونهم. (صلاح)

(٤) عن أبي عزيز بن عمير: أخي مصعب بن عمير قال: كنت في أسارى يوم بدر، فقال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالأسارى خيرا» وكنت في نفر من الأنصار، وكانوا إذا قدّموا غداءهم وعشاءهم أكلوا التمر، وأطعموني الخبز بوصية رسول الله ﷺ إياهم. (الطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٩٣)، حسنه الهيثمي في المجمع (٦/ ٨٦)، وكذا الأعظمي في «سيرة المصطفى الصحيحة» (١/ ٣٣٩)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٨٣٢)). (صلاح)

(٤) في حنين أطلِق ستة آلاف رجل وامرأة دون مقابل، وأعطى النبي ﷺ، أصحابه على تحريرهم لبعض الأسرى مالا من عند نفسه، وودّع أغلب الأسرى، بعد منحه إياهم حلّة أو جائزة إكرامًا لهم.

يتبيّن من هذه الوقائع والأمثلة أن رسول الرحمة ﷺ كم كان يعامل مع أعدائه المهاجمين عليه معاملة الرحمة والرأفة واللين، بعد القدرة عليهم والتمكن منهم[١].

تبادل الأسرى:

تذكر كتب الحديث واقعة تفيد تبادل الأسرى بالأسرى أيضًا[٢].

المصلحة الربّانية في القتال:

قد كان من أثر التربية النبوية الزكيّة، أنه في عهد الخلفاء الراشدين فُتحت مئات المدن من العراق، والشام، ومصر، والجزيرة العربية، وإيران، وخراسان، ولكن لايذكر في التأريخ أنهم استرقّوا أحدا من المهاجمين والمقاتلين، أو أحدًا من الرعيّة، أو أخذوا فدية

---

(١) وقد أطلق النبي ﷺ سراح الفقراء من أسرى بدر بغير شيء، وهم الذين أرادوا استيصال شافة المسلمين، منهم: أبو العاص بن الربيع، والمطلب بن حنطب، وصيفيّ بن أبي رفاعة، وأبا عزّة ، وعمرو بن عبد الله بن عثمان بن أهيب بن حذافة بن جمح. كان محتاجًا ذا بنات فكلم رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، لقد عرفت مالي من مال، وإني لذو حاجة وذو عيال، فامنن علي، فمن عليه رسول الله ﷺ وأخذ عليه ألا يظاهر عليه أحدًا، فقال أبو عزّة في ذلك يمدح رسول الله ويذكر فضله في قومه:

مـن مبلّـغ عنـي الرسـول محمـدًا — بأنــك حــقّ والمليــك حميــدُ
وأنت امرؤ تدعو إلى الحق والهدى — عليـك مـن الله العظـيم شـهيد
وأنــت امــرؤ بُوِّئْــتَ فينــا مَبــاءة — لــه درجــات ســهلة وصــعود
فإنــك مــن حاربتــه لمحــارب — شــقي ومــن ســالمته لســعيد

(قراءة جديدة: ١٨٦-١٨٧)(صلاح)

(٢) حصل الفداء بالأسرى في سرية عبد الله بن جحش، حيث استبدل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بأسير قريش. (نيل الأوطار: ٧/ ٣٧) (صلاح)

الحرب[١].

وإن كانت هذه الحروب محنة عظيمة وابتلاء شديدًا للمسلمين، ولكن الله تعالى جعل فيها من الحكمة أن قدّم الإسلام أمام العالم نموذجا مثاليًا حتى في الحرب أيضًا، يتضمن الرحمة بالبشرية والرأفة بها[٢].

(١) نعم: ومن كانت من السبايا في بعض هذه الحروب، أعتقن، فتزوّجهن الصحابة رضي الله عنهم. (صلاح)

(٢) يتبين من هذا العرض الموجز لتعامل الإسلام الحضاري مع أسرى الحرب، أن الإسلام أعدل الأديان، وأحكمها، وأرحمها، مقارنة مع معاملة غير المسلمين للأسرى.
قال المستشرق الفرنسي جوستاف لوبون: «الحق أنّ الأمم لم تعرف فاتحين رحماء متسامحين مثل العرب، وإذا حدث أن انتحل بعض الشعوب النصرانية الإسلام، واتخذ العربية لغة لهم، فذلك لما كان يتصف به العرب من ضروب العدل، الذي لم يكن للناس عهد به.» («العلاقات الدولية في الإسلام» لأبي زهرة، وعنه الأستاذ محمد فقها في مقالة له في الشبكة العنكبوتية) (صلاح)

الباب الثاني

إرسال الرسل مع الكتب إلى أصحاب الديانات الأخرى من الملوك في بلاد مختلفة، وموقفهم من دعوة الإسلام ومصيرهم

الباب الثاني

إرسال الرسل مع الكتب إلى أصحاب الديانات الأخرى[(١)]
من الملوك في بلاد مختلفة، وموقفهم من دعوة الإسلام ومصيرهم

عالمية الإسلام من أبرز خصائصه:

من خصائص نبوّة النبي ﷺ، التي لا توجد في رسالات الأنبياء السابقين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ خصوصية بارزة وهي أنه ﷺ قدّم الإسلام كدين أوحد للعالم أجمع.

ولذلك رأيناه ﷺ بدأ يوجّه دعوة الإسلام إلى أتباع الديانات والأمم الأخرى[(٢)] من بداية أمره في الدّعوة، في حين لم يكن فيه حتى أهل مكّة قد عرفوا الإسلام معرفة تامة[(٣)].

---

(١) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن نبي الله ﷺ كتب إلى كسرى، وإلى قيصر، وإلى النجاشي، وإلى كلّ جبّار، يدعوهم إلى الله تعالى، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ، وزاد في رواية: «وأكيدر دومة.» (مسلم: ١٧٧٤، وابن حبان: ٦٥٣-٦٥٤، والزيادة منه، وإسناده صحيح «سيرة المصطفى»: ١/ ٥٦٣-٥٦٤، رقم: ٥٣٧) (صلاح)

(٢) كان الفرس يحتلون أجزاء كبيرة من جنوب الجزيرة، فسادت فيها المجوسية، وكان الرومان يحتلون أجزاء أخرى من شمالها، فسادت فيها النصرانية، وكان أمراء هذه الأقاليم يعيّنون من قبل الدول الحاكمة، وينصاعون لأوامرها.

وقد رأى النبي ﷺ أن يرسل بكتبه إلى رؤساء الدول الكبرى، وإلى أمراء الولايات المحتلة على سواء، يدعوهم إلى الله، ويعرض عليهم الإسلام. (صلاح)

(٣) لا شك أن مكاتبة الملوك خارج جزيرة العرب تعبير عملي عن عالمية الرسالة الإسلامية، تلك العالمية، التي أوضحتها آيات نزلت في العهد المكي مثل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧] مما يوضّح خطأ النظرة القائلة بالتدرّج في نطاق الدعوة من الإقليمية إلى العالمية، تبعًا لاتساع النفوذ السياسي للرسول ﷺ. فإن صفة العالمية تقررت والمسلمون مستضعفون بمكة، يخافون أن يتخطفهم الناس. (السيرة النبوية الصحيحة: ٢/ ٢٥٥-٢٥٦) (صلاح)

ويعدّ بلال وصهيب وسلمان وعدّاس بواكير للدعوة، الذين دخلوا في الإسلام وهم من بلاد مختلفة، من الحبشة واليونان وإيران ووسط آسيا.

وآيات القرآن الكريم واضحة جدّا في بيان عالمَية رسالته ﷺ:

١- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: ٢٨]

٢- ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الصف: ٩]

٣- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]

٤- ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]

إرسال الكتب لتحقيق عالميّة الإسلام:

وانطلاقاً من هذا التوجيه الربّاني الوارد في هذه الآيات، أرسل النبي ﷺ الكتب التالية إلى رؤساء الأمم وهم من الأديان المختلفة، وأوضح لهم أن إثم رفض الإسلام لا يقع عليهم وحدهم فقط، بل سيقع وزر رفض قومهم إياه أيضًا عليهم، فإنّهم لم يخاطَبوا في هذه الكتب كأفراد، بل خوطبوا بصفتهم رءوساء أقوامهم.

لا نظير لمثل هذا الإجراء في تأريخ الديانات:

لقد اتّخذ النبي ﷺ في سبيل الدّعوة إلى الإسلام مثل هذا الإجراء، الذي لا يوجد له نظير في تأريخ الديانات السابقة، فلم يسبق لأحد من أتباعها أن يتخّذ مثل هذا القرار، ولم يقف أتباع هذه الديانات هذا الموقف من نشر دينهم.

شذوذ الأتباع عن صنيع متبوعيهم ليس بحجّة:

وبما أننا نحترم ونعظّم داعي كل ديانة صادقة، ولذلك نستنتج من صمتهم وسكوتهم في هذا الجانب، أنّهم كانوا يرون ديانتهم أنّها خاصّة بأقوامهم التي أرسلوا إليها(١).

فلو خالف اليوم أتباع الدّعاة صنيعهم، فإن ذلك فعلهم هم، وإنه ليس بحجّة من الناحية الدينية(٢).

(١) قال المسيح عَلَيهِ السَّلَامُ: «أرسلت إلى الخراف بني إسرائيل الضالّة.»

(٢) **يريد المؤلف بقوله هذا**، أن النصرانية -على سبيل المثال- ليس لدعاتها حجّة شرعية لدعوة الأمم =

بداية إرسال الكتب إلى الملوك[١]:

في غرّة محرّم من السنّة السابعة[٢] للهجرة، أرسل النبي ﷺ كتب الدّعوة إلى الإسلام مع رسله وسفرائه، إلى ملوك العالم، وكان كل سفير منهم يعرف لغة القوم، الذين أرسل إليهم، حتى يتمكّن من القيام بالدعوة على الوجه المطلوب [٣].

اتخاذ النبي ﷺ خاتمًا لختم الكتب والرسائل:

ولم يكن ﷺ اتخذ خاتما بعد، فلما أراد إرسال الكتب إلى الملوك صنع له خاتم[٤] من فضة نقش عليه «**محمد رسول الله ﷺ**»[٥].

=

الأخرى إليها، لأن نبيّها عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يرسل إلّا لهداية قومه بني إسرائيل. (صلاح)

(١) أتاح صلح الحديبية الفرصة لتوسيع نطاق الدعوة إلى الإسلام داخل الجزيرة العربية وخارجها، حيث أرسل النبي ﷺ رسله مع كتبه ورسائله إلى الملوك والأمراء. (راجع «السيرة النبوية»: ٢/ ٤٥٤) وستأتي آنفًا نصوص هذه الرسائل والكتب، مع أسماء الرسل، الذين أرسلوا إلى الملوك والأمراء. (فائدة): أول الوثائق السياسية الإسلامية للعهد النبوي: «كان عمرو بن حزم الأنصاري من كتاب رسول الله ﷺ، وقد بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل اليمن بكتاب فيه الفرائض والسنن والديات، فحفظ عمرو بن حزم هذه الوثيقة، ثم جمع واحدًا وعشرين كتابًا كتبها رسول الله ﷺ إلى قبائل شتى، فضمها في تأليف، فكانت أول مجموعة للوثائق السياسية الإسلامية للعهد النبوي، وقد حفظ لنا هذا التأليف كذيل في «إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين» لابن طولون، وقد طبع في دمشق. (انظر مقدمة سيرة ابن إسحاق)». (سيرة المصطفى الصحيحة: ١/ ٥٨٢-٥٨٣) (صلاح)

(٢) وقد أرّخ الواقدي والطبري إرسال هؤلاء الرسل في ذي الحجة سنة ستّ من الهجرة، وأرخ ابن سعد ذلك في محرّم من العام السابع، وتابعه ابن القيم. (السيرة النبوية الصحيحة: ٢/ ٤٥٤)

(٣) الخصائص الكبرى (٢/ ١) برواية عن أبي شيبة.

(٤) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لما أراد النبي ﷺ أن يكتب إلى الروم، قيل له: إنهم لا يقرؤون كتابًا إلا أن يكون مختومًا، فاتخذ خاتما من فضّة، فكأني أنظر إلى بياضه في يده، ونقش فيه: «محمد رسول الله.» (البخاري: ٢٩٣٨، ومسلم: ٢٠٩١) (صلاح)

(٥) عن عبد الله بن عمر: «اتخذ النبي ﷺ خاتمًا من ورق، وكان في يده، ثم في يد أبي بكر، ثم كان في بيد عمر، فلما كان عثمان جلس على بئر أريس، فأخرج الخاتم، فجعل يعبث به فسقط، فاختلفنا ثلاثة

=

المحتوى العام للكتب الموجهة إلى ملوك النصارى:

وبالاطلاع على هذه الكتب نعرف أن الكتب الموجهة إلى ملوك النصارى(١)، كانت تكتب فيها خاصة هذه الآية المباركة:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

=

أيام مع عثمان، فنزح البئر، فلم يجده.» (البخاري: (٧/ ٥٤) [رقم ٥٨٧٢]، ومسلم [رقم ٢٠٩١].

(١) وكذلك ساق النبي ﷺ مبعوثيه إلى رؤساء المجوسيّة، يدعونهم إلى الله تعالى، ويحدّثونهم عن الدين الذي لو تبعوه نقلهم من الغيّ إلى الرشاد. وقد تفاوتت ردودهم، بين العنف واللطف، والإيمان والكفر. كما يأتي. (فقه السيرة: ٣٥٨) (صلاح)

أحوال هذه السفارات وأسماء سفرائها[١] بإيجاز

(١) إلى ملك الحبشة:

بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمرى إلى أصحم بن أبجر النجاشي ملك الحبشة وكان نصرانيًا، الكتابَ الآتي:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله ﷺ، إلى النجاشي ملك الحبشة.

أسلِم أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدّوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله، وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى، فخلقه الله من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله ﷺ، وقد بعثت إليك ابن عمّي جعفرا ونفرا معه من المسلمين، فإذا جاءك فاقرهم ودع التجبّر؛ فإني أدعوك وجنودك إلى الله، فقد بلّغت ونصحت، فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتّبع الهدى»[٢].

---

(١) لاجرم أنّ المرسلين المؤيّدين بالوحي يكاتبون الملوك والأمراء، ويخاطبون، وهم موقنون بأنّ ما لديهم من حقّ سيعلو ما عداه، وذلك ما كان يجول في نفس الرسول الكريم ﷺ، وهو يعالج هداية الأعراب الشاردين في الصحراء، طورًا باللين، وطورًا بالشدّة، ثم هو-في الوقت نفسه- ينصح لقادة الشعوب الأخرى أن يفكّروا في هذا الدين الجديد، وأن يعتنقوه وافرين. (فقه السيرة: ٣٦١) كما يظهر جليا من إرسال هذه الرسائل إلى الملوك والرؤساء العرب وغير العرب عالمية دعوة محمدﷺ، وقد نص الله سبحانه وتعالى على ذلك، وهو لايزال في مكة مع المستضعفين من المسلمين: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. (سيرة المصطفى: ١/ ٥٨٢) (صلاح)

(٢) هناك كتاب آخر موجّه إلى النجاشي أصحم عظيم الحبشة.

يبدأ «سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، وأن محمدا عبده ورسوله، أدعوك بدعاء الله، فإني أنا رسول الله، فأسلم
=

- **وقد أسلم النجاشي بعد قراءة هذا الكتاب، وبعث إلى النبي ﷺ الجواب التالي:**

«**بسم الله الرحمن الرحيم**، إلى محمد رسول الله، من النجاشي الأصحم بن أبجر: سلام عليك يا نبيَ الله ورحمة الله وبركاته، من الله الذي لا إله إلا هو، الذي هداني إلى الإسلام.

أمّا بعد: فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فو ربّ السماء والأرض أن عيسى ما يزيد على ما ذكرتَ ثُفْرُوقًا[1]؛ إنه كما قلتَ؛ وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قرينا ابن عمّك وأصحابه، فأشهد أنّك رسول الله ﷺ صادقًا ومصدّقًا، وقد بايعتُك وبايعتُ ابن عمّك، وأسلمتُ على يديه لله رب العالمين، وقد بعثت إليك ابني أرها بن الأصحم بن أبجر، فإني لا أملك إلا نفسي؛ وإن شئت أن آتيك فعلتُ يا رسول الله ﷺ، فإني أشهد أنّ ما تقول حقّ، والسلام عليك يا رسول الله ﷺ»[2].

= تسلم ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤] الآية، فإن أبيت فعليك إثم النصارى من قومك.» (أخرجه الحاكم (٢/ ٦٢٣)، وعنه البيهقي في الدلائل (٢/ ٣٠٨)).

وروي عن سعيد بن المسيب أنه قال: كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى وقيصر والنجاشي كتابًا واحدًا. (ذكره أبو عبيد في الأموال (٦٠)، وسعيد بن منصور (٢٤٨٠) وهو مرسل. راجع للتفصيل «سيرة المصطفى الصحيحة» (١/ ٥٧٦-٥٧٧، الكتاب رقم: ٧)) (صلاح)

(١) الثفروق: علّاقة ما بين النواة والقِمع.

(٢) الطبري (٢/ ٦٥٢) [وزاد: قال ابن إسحاق: وذكر لي أن النجاشي بعث ابنه في ستين من الحبشة في سفينة، فإذا كانوا في وسط من البحر، غرقت بهم سفينتهم، فهلكوا. (٢/ ٦٥٣) وقالوا في «ضعيف الطبري» (٧/ ١٨١): إسناده إلى ابن إسحاق ضعيف، وذكره ابن إسحاق بلاغًا.

(فائدة): عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أن نبي الله ﷺ كتب إلى كسرى، وإلى قيصر، وإلى النجاشي، وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى»، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ. (مسلم رقم ١٧٧٤) كما تقدّم تعليقًا آنفًا. (صلاح)

(٢) إلى ملك البحرين

وبعث رسول الله ﷺ العلاء بن الحضرميّ إلى المنذر بن ساوى، ملك البحرين، وكتب إليه كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام، فأسلم، وأسلم معه كثير من قومه.

• **وكتب المنذر إلى رسول الله ﷺ:**

أما بعد، يا رسول الله فإني قرأت كتابك على أهل البحرين، فمنهم من أحبّ الإسلام وأعجبه ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وبأرضي مجوس ويهود، فأحدِث إليّ في ذلك أمرك.

فكتب إليه رسول الله ﷺ:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله ﷺ إلى المنذر بن ساوى، سلام عليك! فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، **أما بعد:**

فإني أذكّرك الله عز وجل، فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه، وأنّه من يطع رسلي ويتّبع أمرهم فقد أطاعني، ومن نصح لهم فقد نصح لي، وإن رسلي قد أثنوا عليك خيرا، وإني قد شفعتك في قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوتُ عن أهل الذنوب، فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلن نَعزلك عن عملك، ومن أقام على يهوديةٍ أو مجوسيّة فعليه الجزية»[١].

---

(١) نصب الراية للزيلعي (٤/ ٤١٩-٤٢٠) عن الواقدي، وفيه: «بعث رسول الله ﷺ العلاء إلى المنذر بالبحرين، لليال بقين من رجب، سنة تسع، منصرفه عَلَيْهِ السَّلَامُ من تبوك، وكتب إليه كتابًا». وزاد المعاد (٣/ ٦٩٢) ذكره الواقدي إلى عكرمة قال: وجدت هذا الكتاب في كتب ابن عباس بعد موته فنسخته، فإذا فيه: «بعث رسول الله ﷺ ..» (الطبقات: ١/ ٢٦٣) عن الواقدي وهو متروك. وراجع «الإصابة» (٦/ ١٦٩-١٧٠ رقم ٨٢٣٤ ط. دارالكتب)، **وقال الحافظ:** «كتب إليه النبي ﷺ مع العلاء بن الحضرمي قبل الفتح فأسلم... ثم استقدم النبي ﷺ العلاء، فاستخلف المنذر بن ساوى مكانه». و راجع «سيرة المصطفى الصحيحة» (١/ ٥٨١، الكتاب رقم: ١١) (صلاح)

(٣) إلى ملك عمان

وكتب إلى ملك عمان كتابا، وبعثه مع عمرو بن العاص:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله إلى جيفرٍ وعبدٍ ابني الجُلندي، سلام على من اتبع الهدى. **أما بعد:**

فإني أدعوكما بدعاية الإسلام، أسلما تسلما، فإني رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حيّا ويحقّ القول على الكافرين، فإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيتما أن تقرّا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما، وخيلي تحلّ بساحتكما، وتظهر نبوّتي على ملككما».[(١)]

قال عمرو: فخرجتُ حتى انتهيت إلى عمان، فلما قدمتها عمدت إلى عبدٍ، وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خلقًا.

فقلت: إني رسول رسول الله ﷺ إليك وإلى أخيك.

فقال: أخي المقدّم عليّ بالسنّ والملك، وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك.

ثم قال: وما تدعو إليه؟

قلت: أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، وتخلع ما عبد من دونه، وتشهد أنّ محمدا عبده ورسوله.

قال: يا عمرو! إنك ابن سيّد قومك، فكيف صنع أبوك، فإن لنا فيه قدوة؟

قلت: مات ولم يؤمن محمّد ﷺ، ووددت أنه كان أسلم وصدّق به، وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هداني الله للإسلام.

قال: فمتى تبعتَه؟

قلت: قريبًا.

---

(١) ذكر الزيلعي في «نصب الرأية» (٤/ ٤٢٣) نص هذه الرسالة، وفي آخرها: «وكتب أبي بن كعب وختم الكتاب.» (صلاح)

فسألني: أين كان إسلامك؟

قلت: عند النجاشيّ، وأخبرته أن النجاشيّ، قد أسلم.

قال: فكيف صنع قومه بملكه؟

فقلت: أقرّوه واتّبعوه.

قال: والأساقفة والرهبان تبعوه؟.

قلت: نعم!

قال: انظر يا عمرو ما تقول، إنه ليس من خصلة في رجل أفضح له من الكذب.

قلت: ما كذبتُ وما نستحلّه في ديننا.

ثم قال: ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشيّ.

قلت: بلى!

قال: بأي شيء علمتَ ذلك؟.

قلت: كان النجاشي يخرج له خرجًا، فلمّا أسلم وصدق بمحمد، قال: لا والله، لو سألني درهما واحدا ما أعطيته. فبلغ هرقل قوله، فقال له بناق أخوه: أتدع عبدك لا يخرج لك خرجا ويدين دينا محدثا؟.

قال هرقل: رجل رغب في دين، فاختاره لنفسه ما أصنع به؟ والله لو لا الضن بملكي لصنعتُ كما صنع.

قال: انظر ما تقول يا عمرو!

قلت: والله صدقتُك.

قال عبد: فأخبرني ما الذي يأمر به وينهى عنه؟

قلت: يأمر بطاعة الله عزّ وجلّ، وينهى عن معصيته، ويأمر بالبرّ وصلة الرحم، وينهى عن الظلم والعدوان، وعن الزنا، وعن الخمر، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب.

قال: ما أحسن هذا الذي يدعو إليه، لو كان أخي يتابعني عليه لركبنا حتى نؤمن بمحمّد ونصدّق به، ولكن أخي أضَنّ بملكه من أن يدعه ويصير ذمّيا.

قلت: إنه إن أسلم ملّكه رسول الله ﷺ على قومه، فأخذ الصدقة من غنيّهم، فردّها على فقيرهم.

قال: إن هذا الخلق حسن. وما الصدقة؟.

فأخبرته بما فرض رسول الله ﷺ من الصدقات في الأموال حتى انتهيت إلى الإبل.

قال: يا عمرو! وتؤخذ من سوائم مواشينا، التي ترعى الشجر وترد المياه؟

فقلت: نعم!

فقال: والله ما أرى قومي في بُعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون بهذا.

قال: فمكثت ببابه أياما، وهو يصل إلى أخيه فيخبره كل خبري، ثم إنه دعاني يوما فدخلت عليه، فأخذ أعوانه بضبعي.

فقال: دعوه، فأرسلت، فذهبت لأجلس فأبوا أن يدعوني أجلس، فنظرت إليه.

فقال: تكلّم بحاجتك، فدفعت إليه الكتاب مختومًا، ففضّ خاتمه، وقرأ حتى انتهى إلى آخره، ثم دفعه إلى أخيه، فقرأه مثل قراءته، إلّا أني رأيتُ أخاه أرقّ منه.

قال: ألا تخبرني عن قريش كيف صنعت؟

فقلت: تبعوه إما راغب في الدين، وإما مقهور بالسيف.

قال: ومن معه؟

قلت: النّاس قد رغبوا في الإسلام، واختاروه على غيره، وعرفوا بعقولهم مع هدي الله إياهم، أنهم كانوا في ضلال، فما أعلم أحدا بقي غيرك في هذه الحرجة، وأنت إن لم تسلم اليوم وتتبعه، يوطئك الخيل، ويبيد خضراك، فأسلم تسلم، ويستعملك على قومك، ولا تدخل عليك الخيل والرجال.

قال: دعني يومي هذا، وارجع إليّ غدا، فرجعت إلى أخيه فقال: يا عمرو، إني لأرجو أن يسلم إن لم يضنّ بملكه.

حتى إذا كان الغد أتيت إليه، فأبى أن يأذن لي، فانصرفت إلى أخيه، فأخبرتُه أني لم أصل إليه، فأوصلني إليه.

فقال: إني فكّرت فيما دعوتني إليه، فإذا أنا أضعف العرب إن ملّكتُ رجلا ما في

يديّ، وهو لا تبلغ خيله ههنا، وإن بلغت خيله ألفت قتالا ليس كقتال من لاقى.

قلت: وأنا خارج غدا، فلما أيقن بمخرجي، خلا به أخوه، فقال: ما نحن فيما قد ظهر عليه، وكلّ من أرسل إليه قد أجابه، فأصبح فأرسل إليّ فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعًا.

وصدّقا النبي ﷺ، وخلّيا بيني وبين الصدقة، وبين الحكم فيما بينهم، وكانا لي عونا على من خالفني[1].

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٦٩٣-٦٩٦)، وعيون الأثر لابن سيّد الناس (٢/ ٢٦٧-٢٦٩)، وشرح المواهب (٣/ ٣٥٢)، ونصب الراية (٤/ ٤٢٣-٤٢٤)، والطبقات (١/ ٢٦٢-٢٦٣ مختصرًا) وفي آخر كلام عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فأخذت الصدقة من أغنيائهم فرددتها في فقرائهم فلم أزل مقيمًا فيهم حتى بلغنا وفاة رسول الله ﷺ». (صلاح)

(٤) إلى صاحب غوطة بدمشق

وكتب إلى الحارث بن أبي شِمر الغسّاني، وكان بدمشق بغوطتها، فبعث كتابه مع شجاع بن وهب الأسدي، مرجعه من الحديبيّة:

«**بسم الله الرحمن الرحيم**، من محمّد رسول الله إلى الحارث بن أبي شِمر، سلامٌ على اتّبع الهدى، وآمن بالله وصدّق، وإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبقى لك ملكك».

فقرأ الكتاب وغضب كثيرا، وقال:

إني أهاجم على المدينة بنفسي، ثم أعاد السفير بتكريمٍ، ولم يُسلم.[1]

(١) زاد المعاد (٣/ ٦٩٧) [والطبقات: ١/ ٢٦١، والطبري: ٢/ ٦٥٢، وسيرة المصطفى (٢/ ٥٧٨ الكتاب رقم ٨)].

(٥) إلى صاحب اليمامة

وكتب النبي ﷺ إلى صاحب اليمامة هوذة بن علي، وكان نصرانيًا، وبعثه مع سليط ابن عمرو العامريّ، فأنزله وحيّاه واقترأ عليه الكتاب، فردّ ردًّا دون ردّ، وكتب إلى النبي ﷺ: ما أحسن ما تدعو إليه وأجملَه، والعرب تهاب مكاني، فاجعل إليّ بعض الأمر أتّبعك، وأجاز سليطا بجائزة، فلما انصرف رسول الله ﷺ من الفتح، جاءه جبريل عليه السلام بأن هوذة قد مات[(١)].

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٦٩٦) [ابن سيّد الناس (٢/ ٢٦٩)، وشرح المواهب (٣/ ٣٥٥-٣٥٦)، وقد ذكر الزيلعي في «نصب الراية» (٤/ ٥٢٥) نصّ كتاب النبي ﷺ كما يلي:
«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هوذة بن علي. سلام على من اتبع الهدى، اعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر، فأسلم تسلم، وأجعل لك ما تحت يديك.» (سيرة المصطفى: ١/ ٥٧٩ الكتاب رقم: ٩) (صلاح)]

(٦) إلى ملك مصر والإسكندرية:

وكتب إلى المقوقس[١] (جريج بن متى) ملك مصر والإسكندرية -وكان نصرانيّا- فجاء في كتابه:

«أدعوكَ بدعاية الإسلام، أسلِم تسلَم، فإن تولّيتَ فإنّ عليك إثمَ القبط».

وبعث مع حاطب بن أبي بلتعة، فلما دخل عليه قال له: إنه كان قبلَك رجلٌ يزعم أنه الربُّ الأعلى، فأخذه الله نكالَ الآخرة والأولى، فانتقم به ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر غيرك بك.

قال: إن لنا ديناً، لن ندعه إلا لما هو خير منه.

فقال حاطب: ندعوك إلى دين الله، وهو الإسلام الكافي به الله فَقدَ ما سواه، إن هذا النبي دعا الناس، فكان أشدّهم عليه قريش، وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصارى.

ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمّد، وما دعاؤنا إيّاك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، وكل نبيّ أدرك قومًا فهم من أمته، فالحقّ عليهم أن يطيعوه، وأنت ممن أدركه هذا النبيّ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنّا نأمرك به.[٢]

فقال المقوقس: إنّي قد نظرتُ في أمر هذا النبيّ، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضالّ، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت

---

(١) اختلف علماء مصر والعرب وأوربا في أصل كلمة «المقوقس» ولعلّها من لغة الحبشة، وقد وصف بعض علماء أوربا جريج بن متى بـ(جورج بن مينا) أيضا، كان روميّ الأصل، ولكنّ أمّه لعلّها كانت قبطيّة.

(٢) جدير بنا أن نذكر كلام حاطب للمقوقس حتى يعرف القارئ أنّ هذه البعوث بلغت حدًا من الفقه والحصافة يستحقّ الإعجاب البالغ. (فقه السيرة: ٣٥٧) (صلاح)

معه آية النبوّة بإخراج الخبء[١]، والإخبار بالنجوى، وسأنظر. وأخذ كتاب النبي ﷺ فجعله في حُقٍّ من عاجٍ وختم عليه، ودفعه إلى جارية له، **ثم دعا كاتبًا له يكتب بالعربيّة، فكتب إلى رسول الله ﷺ، وجاء فيه:**

«قد علمت أن نبيًّا بقي، وكنت أظنّ أنّه يخرج بالشام».

وهو الذي أهدى[٢] البغلة المعروفة بـ«دلدل»[٣].

(١) الخبء: هو الغائب المستور، يشير إلى إخباره بالمغيبات، التي أطلعه الله تعالى عليها.

(٢) ردّ «المقوقس» على النبيّ ﷺ ردًّا حسنا، فلم يؤمن به، ولم يتهجّم عليه... ولقد قبل الهدية تقديرًا للعاطفة التي أملت بها، وإن كان يرى أنّ الإيمان بالله وحده أفضل ما يهدى إليه، وخير ما ينتظره ويهش له. (فقه السيرة: ٣٥٧) (صلاح)

(٣) [وكذلك أهدى جاريتين: إحداهما أم إبراهيم بن النبي ﷺ، وأما الأخرى فوهبها لجهم بن قيس العبدري، وهي أم زكريا بن جهم، الذي كان خليفة عمرو بن العاص على مصر.] زاد المعاد (٣/ ٦٩١-٦٩٢). [ابن سيّد الناس (٢/ ٢٦٥-٢٦٦)، و«شرح المواهب» (٣/ ٣٤٨-٣٥٠) و«نصب الراية (٤/ ٤٢١-٤٢٢)].

[رواه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٧٥٠، ٤٣٤٩ مختصرًا) عن عبد الرحمن بن عبد القاري والبيهقي في دلائل النبوّة (٤/ ٣٩٥) وإسناده صحيح إلى عبد الرحمن وهو مختلف في صحبته.

وقد ذكر ابن حجر في «الإصابة» أنه أتي به إلى النبي ﷺ وهو صغير فمسح على رأسه.

وقال الطحاوي عقب هذا الحديث: إنما أدخلنا هذا الحديث في هذا الباب، لأن عبد الرحمن بن عبد القاري ممن ولد في زمن النبي ﷺ، ويقال: إنه قد رآه، فدخل بذلك في صحابته ﷺ». (راجع للتفصيل «سيرة المصطفى ﷺ»: ١/ ٥٧٣-٥٧٤ الكتاب رقم ٤) (صلاح)]

(٧) إلى هرقل عظيم الروم

كان هرقل ملك القسطنطينية، أو الفرع الشرقي لدولة الروم، وكان نصرانيًّا، وقد بعث إليه رسول الله ﷺ دحية بن خليفة الكلبي[(١)]، فذهب إليه في بيت المقدس، فقابله بإكرام، وجمع رجال بلاطه، وسأل دحية كثيرا عن النبيّ ﷺ، ثم رأى أن يعرف مزيدا في الأمر، فأمر بإحضار من قدم من مكة، واتّفق أن أبا سفيان كان قدم من مكّة إلى الشام مع التجّار في تلك الأيام[(٢)]، فطلبوهم إلى بيت المقدس، وأحضروهم أمام هرقل.

قال أبو سفيان: فقال قيصر: أدنوه، وأمر بأصحابي فجعلوا خلف ظهرى عند كتفي.

ثم قال لترجمانه: قل لأصحابه: إني سائل هذا الرجل عن الذي يزعم أنه نبيّ، فإن كذب، فكذّبوه.

قال أبو سفيان: والله لو لا الحياء يومئذ من أن يأثر أصحابي عنّي الكذب، لكذّبتُه حين سألني عنه، ولكنّي استحييتُ أن يأثروا الكذب عنّي فصدَقته.

ثم قال لترجمانه: قل له كيف نسب هذا الرجل فيكم؟

قلت: هو فينا ذو نسب.

قال: فهل قال هذا القول أحد منكم قبله؟.

قلت: لا.

فقال: كنتم تتّهمونه على الكذب، قبل أن يقول ما قال؟

---

(١) ينتهي نسب دحية إلى ثور بن كلب، الذي هو فرع كبير من قضاعة، هو من كبار الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، شهد المشاهد. [وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وسيمًا جميلًا، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ: «... ورأيت جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإذا أقرب من رأيت به شبها دحية». (مسلم: ١٦٧، والبخاري: ٣٦٣٤، عن أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا)]

(٢) البخاري في كتاب الجهاد (٤/ ٢-٣).

قلت: لا.

قال: فهل كان من آبائه من ملك؟

قلت: لا.

قال: فأشراف القوم يتّبعونه أم ضعفاؤهم؟.

قلت: بل ضعفاؤهم.

قال: فيز يدون أم ينقصون؟.

قلت: بل يزيدون.

قال: فهل يرتدّ أحد سخطة لدينه، بعد أن يدخل فيه؟.

قلت: لا.

قال: فهل يغدر؟.

قلت: لا.

قال: فهل قاتلتموه أو قاتلكم؟ قلت: نعم.

قال: فكيف كانت حربه وحربكم؟.

قلت: دولا وسجالا، يدال علينا المرّة، وندال عليه الأخرى.

قال: فماذا يأمركم به؟.

قال: يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة، والصدقة، والعفاف، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة.

فقال لترجمانه حين قلتُ ذلك له: قل له: أن سألتُك عن نسبه فيكم، فزعمت، أنه ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها.

وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول قبله، فزعمت أن لا.

فقلتُ: لو كان أحد منكم قال هذا القول قبله قلت: رجل يأتمّ بقول قد قيل قبله.

وسألتك: هل كنتم تتّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فزعمت أن لا، فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على النّاس ويكذب على الله.

وسألتُك: هل كان من آبائه من ملك، فزعمت أن لا.

فقلت: لو كان من آبائه ملك.

قلت: يطلب ملك آبائه.

وسألتك: أشراف الناس يتّبعونه أم ضعفاؤهم؟ فزعمتَ أن ضعفاءهم اتّبعوه، وهم أتباع الرسل.

وسألتُك: هل يزيدون أو ينقضون؟ فزعمَت أنهم يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتمّ.

وسألتُك: هل يرتدّ أحد، فزعمت أن لا، فكذلك الإيمان حين تخلط بشاشته القلوب لا يسخطه أحد.

وسألتُك: هل يغدر، فزعمتَ أن لا، وكذلك الرسل لا يغدرون.

وسألتُك عن الحرب معه فقلتَ: يدال عليكم وتدالون عليه، وكذلك الرسل تبتلى، وتكون لها العاقبة.

وقد كنت أعلم أنه خارج، ولكن لم أعلم أنّه منكم، وإن يك ما قلتَ حقًّا، فيوشِكُ أن يملك موضع قدمّي هاتين، ولو أرجو أن أخلص إليه، لتجشّمت لقاءه، ولو كنتُ عنده لغسلتُ قدميه.(١)

ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ، فقرئ(٢) فلم يعجب من كان عنده، فعلَتْ أصواتُهم

---

(١) ربّما تألقت في نفسه لوقت محدود فكرة الخروج من عقيدة التثليث إلى بساطة التوحيد، ثم انطفأت؛ لما ستجرّه على الدولة من خلاف أشقّ في وهمه، وأمر المملكة عنده أهمّ من أي شيء آخر. (فقه السيرة: ٣٥٦) (صلاح)

(٢) «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت، فعليك إثم الأريسيين و: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤﴾ [آل عمران: ٦٤]. (البخاري: ٢٩٤١ عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) (صلاح)

وكثر لغطُهم(١)، فلا أدري ماذا قالوا: وأمر بنا فأخرجنا.(٢)

قال أبو سفيان: والله ما زلتُ ذليلا مستيقنًا بأن أمره سيظهر، حتى أدخل الله قلبي الإسلام وأنا كاره(٣)».

---

(١) «فلما رأى هرقل نفرتهم، وأيس من الإيمان، قال: ردّوهم عليّ. وقال: إني قلت مقالتي آنفًا أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه». (البخاري: رقم ٧، عن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)

وفي صحيح ابن حبان بإسناد صحيح: «وكتب قيصر إلى رسول الله ﷺ: إني مسلم وبعث إليه بدنانير، فقال رسول الله ﷺ حين قرأ الكتاب: «كذب عدو الله ليس بمسلم، وهو على النصرانية»، وقسم الدنانير». (سيرة المصطفى: ١/ ٥٧٠-٥٧١، رقم ٥٤٢) (صلاح)

(٢) وفي البخاري (٢٩٧٨) عن أبي سفيان قال: «فقلت لأصحابي حين أخرجنا قد أمر أمر ابن أبي كبشة إنه يخافه ملك بني الأصفر». (صلاح)

(٣) البخاري في كتاب الجهاد (٤/ ٢-٥) [عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وكذلك في كتاب بدء الوحي، باب حديث أبي سفيان عند هرقل (رقم ٧). وله أيضًا في صحيح البخاري بأرقام (١٥، ٢٦٨١، ٨٠٤، ٢٩٤١، ٢٩٧٨، ٣١٧٤، ٤٥٥٣، ٥٩٨٠، ٦٢٦٠، ٧١٩٦، ٧٥٤١)، وصحيح مسلم رقم (١٧٧٣)].

(٨) إلى كسرى عظيم فارس

«خسرو برويز كسرى إيران»: كان يملك نصف العالم الشرقي، وكان على دين زرادشت، بعث إليه رسول الله ﷺ كتابه مع عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي السهمي، وكتب فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله ﷺ، إلى كسرى عظيم فارس.

سلام على من اتّبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسول الله ﷺ إلى النّاس كافة لأنذر من كان حيّا، ويحقّ القول على الكافرين، فأسلِم تَسلم[1]، فإن أبيتَ فإن إثم المجوس عليك».

فلما قرأه مزّقه وقال: يكتب لي هذا، وهو عبدي ويضع اسمه قبل اسمي!

ثم كتب إلى عامله على اليمن باذان وكانت منطقة العرب كلها تحت نفوذه وسيطرته، أن ابتعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز، رجلين من عندك جلدين، فليأتياني به.

فبعث باذان قهرمانه، وهو بابويه، وكتب معهما إلى رسول الله ﷺ، يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى.

وقال لبابويه: ائت بلد هذا الرجل، وكلّمه وائتني بخبره.

فلما وصلا إلى الطائف، استبشر بهما أهلها وفرحوا وقال بعضهم لبعض: أبشروا فقد نصب له كسرى ملك الملوك، كفيتم الرجل، فلما قدما على رسول الله ﷺ كلّمه بابويه.

فقال لهما رسول الله ﷺ: ارجعا حتى تأتياني غدا، وأتى رسول الله ﷺ الخبرُ من

---

(١) على القرّاء أن يتدبروا في عبارة «أسلِم تسلَم» الواردة في كتاب النبي ﷺ هذا المبارك، بأن معناها: «إن تُسلم تسلَم».

ولم يكن هذا تهديدًا، بل إخبار عن الغيب. [ولم يَسلم، بل قُتِلَ، لأنه لم يُسلِم (صلاح)]

السماء: **إن الله قد سلّط على كسرى ابنه شيرويه، فقتله في شهر كذا وكذا، ليلة كذا وكذا ثم دعاهما فأخبرهما.**

فقالا: هل تدري ما تقول؟ إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا، أفنكتب هذا عنك ونخبره الملك؟.

قال: نعم، أخبراه ذلك عنّي وقولا له: إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ ملك كسرى، ثم أعطى خرخسرو منطقة فيها ذهب وفضة، فخرجا من عنده حتى قدما على باذان فأخبراه الخبر.

فقال: والله ما هذا بكلام ملك، وإني لأرى الرجل نبيًّا، ثم أتاه كتاب شيرويه يخبر بما أخبره به النبي ﷺ، فأسلم وأسلمت معه الأبناء من فارس(١)، من كان منهم باليمن(٢).

ولما رجع عبد الله إلى النبي ﷺ، وأخبره بأن كسرى مزّق كتابه، قال النبي ﷺ: مزّق ملكه(٣).

وعلى القارئ أن يفكّر في هذه الجملة المختصرة المهيبة، ويبحث في تأريخ العالم على مدى ثلاثة عشر قرنا وربع قرن من الزمان(٤) هل يوجد هناك أيّ أثر لإمبراطورية

---

(١) «قد وقع الإسلام في قلب والي اليمن ورجاله بعد هذه القصة، وانتشر انتشارا عظيمًا في الجنوب بين الطائفتين جميعا من نصارى ومجوس». (فقه السيرة: ٣٦٠) (صلاح)

(٢) الطبري (٢/ ٦٥٥-٦٥٧) [عن يزيد بن أبي حبيب مرسلًا، وابن سعد في الطبقات: ١/ ٢/ ١٤٧، عن عبيد الله بن عبد الله مرسلًا أيضًا، وسنده صحيح، وحسّنه الألباني بهذين الشاهدين في تعليقه على «فقه السيرة» للغزالي: (ص ٣٨٥)] (صلاح)

(٣) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وفيه: «أن رسول الله ﷺ: بعث بكتابه إلى كسرى، مع عبد الله بن حذافة السهمي»، فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه مزّقه، فحسبت (أي الزهري) أن ابن المسيب، قال: «فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن يمزّقوا كل ممزق.» (راجع البخاري (٤٤٢٤) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا). (صلاح)

(٤) يتضح من تحديد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ لهذه المدّة، أنه كتب هذا الجزء من كتابه «**رحمة للعالمين**» ما بين (١٣٢٠ - ١٣٣٠هـ) والله أعلم. (صلاح)

هذه الأمة في أيّ مكان، مع أنها كانت تحكم قبل هذا الحادث على نصف الدنيا منذ أربعة أو خمسة آلاف سنة، وكانت فتوحاتها قد اكتسحت مرارًا اليونان والروم؟ كلا، لايوجد لها أيّ أثر.[١]

(١) قد كتب النبي ﷺ إلى غير هؤلاء الملوك والأمراء أيضًا، منهم: بنو زهير بن أقيش حيّ من عكل، وبكر بن وائل.

قال شيخنا الدكتور محمد عبد الله الأعظمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد ذكر عشرة من كتب النبي ﷺ: «والذي وصل إلينا منها بإسناد صحيح قليلٌ وهو ما ذكرته ولكن لا يعني هذا أن بقية الرسائل لم تكتب، بل الصحيح أنها كُتبَتْ، ولكن لم يرد إلينا بإسناد صحيح على شروط المحدثين، لأن المؤرخين قصروا في هذا الجانب كما بينت ذلك مرارًا.» (سيرة المصطفى: ١/ ٥٨٢) (صلاح)

إسلام بعض الأمراء والحكّام

ويناسب المقام ذكر أسماء بعض الولاة والحكّام، الذين هداهم الله إلى الإسلام بدعوة الرسول ﷺ بعد أن عرفوا حقيقته:

١- **كان ثمامة حاكم نجد،** أسلم سنة ستٍّ من الهجرة(١).

٢- **كان جبلة حاكمًا** لدولة غسّان العربية الشهيرة القديمة، أسلم في السابعة من الهجرة(٢).

٣- **فروة بن عمرو الجذاميّ:** كان والي قيصر على الشام، فلما أسلم دعاه قيصر وأمره بترك الإسلام فأبى، فحبسه قيصر ثم قتله. وهكذا ضحّى هذا العبد الصالح بالحكومة والجاه والنفس كلّها، ولم يرض بترك الإسلام(٣).

٤- **كان أكيدر حاكم دومة الجندل،** أسلم عام تسعة من الهجرة(٤).

٥- **كان ذو الكلاع الحميري حاكمًا** على بعض مناطق اليمن والطائف، وكان ملكًا لقبيلة حمير القويّة، يدّعي أنه إله ويأمر الناس بالسجود له، ولما أسلَمَ أعتق في يوم واحد ثمانية عشر ألفًا من العبيد.

---

(١) هو: ثمامة بن أثال، أبو أمامة اليماني، الذي أسر وربط بسارية المسجد النبوي، ثم أسلم، وقصّته مذكورة في صحيح البخاري. راجع لترجمته «الإصابة» (١/ ٢١١ رقم ٩٥٧) (صلاح).

(٢) لعلّه جبلة بن أيهم الغسّاني، الذي كان والي الشام لهرقل، كما ذكره الإمام الذهبي في «تأريخ الإسلام» (السيرة النبوية: ٥٢٨-٥٣٣) والله أعلم. (صلاح)

(٣) راجع «زاد المعاد» (٣/ ٦٤٦ وسمّاه ملك عرب الروم) وسيأتي ذكره في الباب الثالث في الوفود (الوفد رقم ٩) إن شاء الله. (صلاح)

(٤) **أكيدر هو:** ابن عبد الملك صاحب دومة الجندل. اختلف أهل السير في إسلامه وكفره، وقتله. والله أعلم. راجع للتفصيل «الإصابة» : ١/ ١٢٩-١٣١، رقم ٥٤٦) وذكره الحافظ في القسم الرابع، الذي يذكر فيه من قيل فيه: إنه صحابي على سبيل الوهم والغلط.

وفي عهد عمر الفاروق تخلى بنفسه عن الحكومة، وجاء إلى المدينة حيث عاش فيها حياة الزهد والتقوى والتقلّل من الدنيا[١].

(١) **قال أبو عمر**: لا أعلم له صحبة، إلا إنه أسلم واتبع في حياة النبي ﷺ، وقدم في زمن عمر، فروى عنه وشهد صفين مع معاوية، وقتل بها... وروى يعقوب بن شبّة بإسناد صحيح عن أبي وائل، عن أبي مسيرة أنه رأى الكلاع وعمارا في ثياب بيض في فناء الجنة، فقال: ألم يقتل بعضكم بعضا، قالوا: بلى! ولكن وجدنا الله واسع المغفرة. راجع للتفصيل الإصابة (٢/ ١٨٣، رقم ٢٥٠١).
ذكره الحافظ في القسم الثالث، فهو من المخضرمين، الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، ولم يرد في خبر قط أنهم اجتمعوا بالنبي ﷺ. (صلاح)

الباب الثالث

قدوم وفود العرب وغيرهم على النبي ﷺ

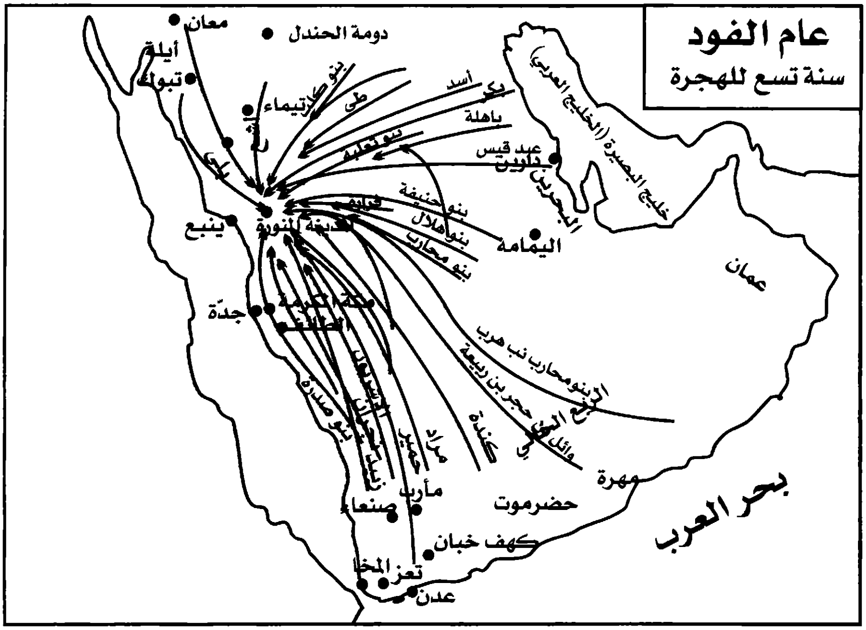

الباب الثالث

قدوم وفود العرب وغيرهم على النبي ﷺ(١).

إن الطريقة المثلى التي اختيرت لنشر الإسلام في عهد النبي ﷺ، يمكن اتخاذ فكرة موجزة عنها بالاطلاع على أحوال الوفود، التي كانت تتوافد إلى النبي ﷺ من أصقاع بعيدة بين حين لآخر.

إن قدوم الوفود وعودتها، واتصالها بمختلف الأمم والقبائل في طريقها، و إبلاغ دعوة الإسلام إلى أسماع الناس، كل هذا كان يتمّ في غاية الروعة والحسن والتنسيق والترتيب.

والحروب التي خاضها رسول الله ﷺ بالاضطرار قد وقعت في منطقة محدودة من البلاد، ولكن الوفود كانت تتوافد إليه ﷺ من كل حدب وصوب من البلاد، وما فجرّه

(١) سمّي العام التاسع من الهجرة بعام الوفود، وقد بلغ مجموع ما ذكرته المصادر أكثر من ستين وفدًا. وقد كانت العرب تتربص بالإسلام أمر هذا الحيّ من قريش ، فلما دانت له قريش بعد فتح مكّة ودوّخها الإسلام، عرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته، فتدفقت على المدينة سيول الراغبين في الإسلام أوالراغبين في مسالمة، ورسم سياسة تقوم على التعاون معه. (السيرة لابن هشام ٦١٩-٦٢٠، والسيرة النبوية الصحيحة: ٢/ ٥٤١، وفقه السيرة: ٤٢٢). (صلاح)

النبي ﷺ في صحراء الجزيرة من ينابيع الإسلام والهداية، كان يجذب إليه الظمأى من كل ناحية من نواحي الأرض العربيّة وغيرها.(١)

قدوم الوفود دليل على عالميّة الدعوة:

وقدوم هذه الوفود يعدّ دليلًا قويًا على عالمَيّة الدعوة الإسلامية، بعد مكاتبته ﷺ مع الحكّام والملوك.

وفيما يلي أسماء القبائل، التي أرسلت وفودها إلى النبي ﷺ، بغضّ الطرف عن أسماء القبائل التي أتت وفودها إليه ﷺ لأغراض سياسيّة أو لتحقيق فوائد شخصيّة:

وفد دوس، وفد صرد الأزد، وفد فروة الجذاميّ، وفد همدان، وفد طارق بن عبد الله، وفد تجيب، وفد بني سعد هذيم، وفد بني أسد، ووفد بهراء، ووفد بني عبس، وفد بني حنيفة، وفد عبد القيس، وفد طيء، وفد الأشعريين، وفد صداء، وفد عذرة، وفد ثقيف، وفد بني فزارة، وفد غامد، و فد بني محارب، وفد خوان، وفد غسّان، وفد بني الحارث، وفد سلامان، وفد نجران، وفد نخع.(٢)

---

(١) «لاشك إذًا في قدوم الوفود في العام التاسع إلى المدينة لإعلان إسلام قبائلهم، وبعده ساد الإسلام الجزيرة العربية التي توحّدت سياسيًا لأوّل مرّة في تأريخها تحت رايته». (السيرة النبوية الصحيحة: ٢/ ٥٤٤) (صلاح)

(٢) وكذلك وفد تميم، ووفد بني عامر، ووفد كندة، وفد ملوك حمير، وفد عدي بن حاتم، ووفد فروة ابن مسيك المرادي، ووفد بني سعد بن بكر، ووفد مزنية. هذا مما ساقه ابن إسحاق.

أما ابن سعد فقد فصّل كثيرًا، واستقصى في جمع المعلومات عن الوفود، ولكن معظم رواياته من طريق الواقدي، وهشام الكلبي، وكلاهما متروك، وبقيتها إلا القليل جدا من طريق علي بن محمد المدائني وهو صدوق، ولكن سائر الأسانيد، التي أوردها ابن سعد، لا تخلو من مطعن في ضعف الرواة أو الإرسال. والقليل جدا (بضع روايات) عن عفان بن مسلم وعارم بن الفضل السدوسي. وهما ثقتان من شيوخ البخاري.

ورغم عدم ثبوت هذه الأخبار المفصلة، التي ساقها المؤرخون عن الوفود بالنقل الصحيح المعتمد عند المحدثين، فإن خبر قدوم بعض هذه الوفود ثابت بالروايات الصحيحة. (فتح الباري ٨/ ٨٣-١٠٣، والبداية والنهاية ٥/ ٤٠-٩٨، «السيرة النبوية الصحيحة»: ٢/ ٥٤١-٥٤٢). (صلاح)

أحوال هذه الوفود

١ - وفد دوس

سبق أن ذكرنا قصة إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي، وبعد إسلامه قال: يا نبي الله، إني امرؤ مُطاع في قومي، وإني راجع إليهم فداعيهم إلى الإسلام، فادع الله لي أن يجعل لي آية، تكون عونا لي عليهم فيما أدعوهم إليه.

فقال: اللهم اجعل له آية. فجعل الله نورا في رأس سوطه كالقنديل المعلق. فلما وصل إلى قومه أتاه أبوه، وكان شيخا كبيرا.

قال: فقلت: إليك عني يا أبتِ، فلستَ منيّ ولستُ منك.

قال: لِمَ يا بنيّ؟

قلت: قد أسلمت وتابعت دين محمدٍ.

قال: يا بنيّ فديني دينك.

قال: قلت: اذهب فاغتسل، وطهّر ثيابك، ثم تعال أعلّمك ما علمتُ.

ثم أتتني صاحبتي، فقلت لها كذلك فأسلمت.

ثم دعوت دوسا إلى الإسلام، فأبطئوا عليّ، فجئت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله! إنه قد غلبني على دوس الزنا، فادع الله عليهم.

فقال: اللهم اهدِ دوسًا.(١)

توجيه نبويّ لدعاة الإسلام:

ثم قال: ارجع إلى قومك فادعهم إلى الله، وارفق بهم.

قال: فرجعت إليهم، فلم أزل بأرض دوس أدعوهم إلى الله، ثم قدمتُ على رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ بخيبر، فنزلتُ المدينة بسبعين أو ثمانين بيتا من دوس، ثم

---

(١) البخاري (٤٣٩٢) بزيادة: «...وائت بهم» ومسلم (٢٥٢٤). (صلاح)

لحقنا برسول الله ﷺ بخيبر، فأسهم لنا مع المسلمين[١].

وكان وصول جعفر ابن عمّ النبي ﷺ مع قبائل الحبشة، التي آمنت، ووصول الطفيل مع دوس من اليمن إلى خيبر، كأنّه كان إيذانًا من الله تعالى لليهود، بأن تعليم النبي ﷺ، الذي يفتح قلاع القلوب في تلك البلاد البعيدة بهذه السهولة، لا يعقل معارضته، اتكالا على قلاع الحجارة والطوب.

(١) راجع شرح المواهب (٤/ ٣٧-٤١)، والطبقات (١/ ٣٥٣)، وزاد المعاد (٣/ ٢٤) وذكره البخاري في «قصة دوس والطفيل» (رقم: ٤٣٩٢) (البخاري: ٨/ ١٠١ مع الفتح). (صلاح)

٢- وفد صُداء

قدم عليه ﷺ وفد صداء في سنة ثمان، قدم منهم أوّلا زياد بن الحارث الصدامّي، ثم قدم في خمسة عشر رجلا منهم، فنزلوا على سعد بن عبادة، فحيّاهم وأكرمهم وكساهم، ثم راح بهم إلى رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام، ثم رجعوا إلى قومهم ففشا فيهم الإسلام.

قال زياد: يا رسول الله، إن لنا بئرًا، إذا كان الشتاء كفانا ماؤها، وإذا كان الصيف قلّ علينا فتفرقنا على المياه، والإسلام اليوم فينا قليل، ونحن نخاف، فادع الله عز وجل لنا في بئرنا.

فقال رسول الله ﷺ: «ناولني سبع حصيات»، فناولته، فعركهن بيده، ثم دفعهن إليّ، وقال: «إذا انتهيت إليها فألقِ فيها حصاةً حصاةً، وسمّ الله».

قال: ففعلت، فما أدركنا لها قعرا حتى السّاعة.[1]

---

(١) عيون الأثر(٢/ ٢٥٥-٢٥٦)، وشرح المواهب (٤/ ٥٠١-٦٠)، ابن سعد (١/ ٣٢٦-٣٢٧)، وفتوح مصر (ص:٢١٢)، وزاد المعاد (٣/ ٦٦٤-٦٦٦)، والإصابة (٣/ ١٨ (رقم: ٢٨٤٤). (صلاح)

٣- وفد ثقيف(١)

وأوّل من جاء إلى النبي ﷺ من ثقيف، لتعلّم الإسلام بعد غزوة هوازن وثقيف: هو عروة بن مسعود الثقفي، وكان رئيس قومه، وسفير قريشٍ إلى رسول الله ﷺ في الحديبيّة، ولما انصرف رسول الله ﷺ بعد غزوة ثقيف إلى المدينة، اتّبع أثره عروة حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة، فأسلم، وكانت تحته عشر نساء، فأمره النبيّ ﷺ أن يمسكَ منهن أربعًا(٢)

---

(١) **قال ابن إسحاق:** قدم وفد ثقيف إلى المدينة في رمضان سنة تسع، بعد مرجع النبي ﷺ من تبوك. (سيرة ابن كثير: ٤/ ٥٣)
وقال: موسى بن عقبة: كان قدوم ثقيف بعد حجة أبي بكر الصديق واستبعده ابن كثير، وقال: الصحيح أن ذلك كان قبل حجة أبي بكر، كما ذكره ابن إسحاق (سيرة ابن كثير: ٤/ ٥٤)، والصحيح أن ذلك كان قبل حجة أبي بكر كما ذكره ابن إسحاق، والله أعلم. (صحيح السيرة النبوية: ص ٤٩٤) (صلاح)

(٢) **سيعلم القراء من هذه الواقعة أن تعدّد الزوجات كان رائجا في العرب منذ قديم،** ولم يكن هناك حدّ يقف عنده الرجل في التعدّد، فقضى الإسلام على هذه الحرّيّة المطلقة، وحدّ ما لم يكن محدودًا، وجعل الأربع آخر حدّ الكثرة.
يعترض كثير من الناس اليوم لماذا أجاز الإسلام أربع نسوة، وأكثر هؤلاء المعترضين هم النصارى.
فنسألهم: هل كان المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ أصلح نوعا من الإصلاح، في ما كان عليه اليهود من تعدّد الزوجات؟
• **فإن لم يكن كذلك:** فمن ميزة الإسلام بين سائر الأديان العالميّة، أنه جعل حدًا معينا في هذه المسألة. اقرأوا الإصحاح الخامس والعشرين من إنجيل متّى من بدايته، جاء فيه ذكر نكاح رجل واحد مع عشر جوارٍ، ذهبت خمس منهن وراء العريس، وتخلفت خمس لجهلهن.
يعتبر هذا التمثيل دليلا على تعدّد الزوجات.
• **أما القرآن:** فقد أجاز إلى اثنتين وثلاث ورباع، ثم قال ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: ٣]
وقال أيضا: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩].
=

ويطلّق بقيتهن، ففعل[1].

=

فهذا هو الإسلام الذي سبق كتابه سائر الكتب الدينية، بقوله «فواحدة»، وجعله قانونا صارمًا وحكمًا دائما، وكفاه ذلك فخرا وفضلا.

• وليس من موضوع هذا الكتاب، أن نذكر هنا أدلة عقليّة ونقلية على جواز أكثر من واحدة، مع ذلك لا بدّ هنا من موجز القول: أنه لو كانت العزّة والكرامة القومية متوقفة على كثرة السكّان، لوجب نكاح أكثر من واحدة للعزة والكرامة حينئذ، وإن لم تحصل الراحة الشخصية فيه. ولكن عقلاء العالم، يعلمون أن السعداء هم الذين يضحّون بأنفسهم لأمتهم. [راجع مبحث «تعدد الزوجات: موانعه ومحاسنه في حق الرجال والنساء على سواء» في كتابي «المرأة بين هداية الإسلام وغواية الإعلام» (٢٤٧-٢٦٢). (صلاح)

(١) **ويسخط الكتّاب الغربيّون من لفظ «الطلاق» أيضا**، ولعلّهم يتناسون أن قانونهم Justice Code (جستيس كود) يمنحهم حرية كاملة بهذا الصدد، وأن قارّة أوربا هي التي يكثر فيها الطلاق اليوم بين قارّات العالم، وهي التي توجد فيها المحاكم الخاصة بالموافقة على هذا الطلاق.

أما الإسلام فقد فرض قيودا عديدة على الطلاق، وكان هو المطلق عند اليهود والنصارى والمشركين العرب، وبذلك بطلت هذه العادة إلى حدّ كبير، وذلك مثل:

١- أن مهر الزوجة يمنع الزوج من الطلاق.

٢- الطلاق الشرعي ثلاث طلقات، كل منها بعد حيضة، وهذه المدة الممتدة إلى ثلاثة أشهر تمنع أيضا من الطلاق خلالها.

٣- يسكن الزوجان في بيت واحد إلى الطلقة الثالثة، وهذا التوجيه يمنع أيضا من الطلاق.

٤- يجب الشاهدان على الطلاق. وهذا أيضا يدفع أهل الغيرة، الذين لا يحبّون كشف أسرارهم لدى الآخرين، إلى الامتناع من الطلاق.

٥- لا يجوز أن ترجع المطلقة إلى الزوج الأوّل إلّا بعد أن ينكحها رجل آخر، ثم يطلقها بصدفة من غير طواطؤ. وهذا الشرط الشديد بل المتعذر تقريبا يمنع أيضا من الطلاق.

٦- وأكثر من ذلك كلّه قوله ﷺ: «إن أبغض الحلال عند الله الطلاق». [ضعفه الألباني من قبل إسناده، وأعلّوه بالإرسال، وقالوا: مرسل صحيح].

٧- نجد في القرآن أن النبيّ ﷺ أمر زيدًا بالامتناع من الطلاق، في قوله: ﴿أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، ولكن لم يرد في القرآن كله أن أمر أحدًا بأن يطلّق.

=

ولما تعلّم الإسلام، سأل رسول الله ﷺ ليذهب إلى قومه بالإسلام، حتى أقوم فيهم بالدعوة.

فقال له رسول الله ﷺ: إنهم يقاتلونك، وعرف رسول الله ﷺ أن فيهم نخوة الامتناع الذي كان منهم.

فقال عروة: يا رسول الله أنا أحبّ إليهم من أبكارهم.

فخرج يدعو إلى الإسلام، رجاء أن لا يخالفوه لمنزلته فيهم، فلما أشرف لهم على عُلِّيَّةٍ له، وقد دعاهم إلى الإسلام، وأظهر لهم دينه، رموه بالنبل من كل وجه، فأصابه سهم فقتله.

ولا شكّ أن الفرصة لم تسنح لعروة للاستمرار في عمل الدعوة، ولكن النداء الذي أوصله إلى الآذان قد أثّر تأثيره.

يقول ابن هشام: ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهرًا، ثم إنهم ائتمروا بينهم، ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب، وقد بايعوا وأسلموا، فأجمعوا أن

=

٨- ألغى القرآن الكريم الظهار [المجادلة:٢]، مع أنه كان نوعًا من الطلاق عند العرب، وهذا أيضا مما يسدّ طريق الطلاق.

٩- أصلح القرآن طريقة الإيلاء [البقرة: ٢٢٦-٢٢٧]، مع أن العرب كانوا يستعملونه بمعنى الطلاق، وهذا من موانع الطلاق أيضا.

١٠- أوجب القرآن في صورة التنافر والنشوز بين الزوجين، أن يعيّن حكم من أهل الزوج وحكم من أهل الزوجة، حتى يستمعا إلى شكاويهما ثم يصلحا بينهما، وهذا أيضا يمنع الطلاق.

فإن كانت مثل هذه الخطوات قد وجدت لمنع الزوج من الطلاق في أيّ دين من الأديان، فعلى أتباعه أن يخبرونا بذلك.

ومن آثار هذه الخطوات الإصلاحيّة والأحكام العائلية وقوع الطلاق بين المسلمين نادر جدًا. أما أوربا التي تفخر بعدم إباحتها للطلاق، فلم توجد فيها مدينة أو قرية بل حيّ إلّا وفيه حوادث كثيرة للطلاق. [راجع مبحث «الطلاق بين الحظر والإباحة، وتضييق باب الطلاق» في كتابي «المرأة بين هداية الإسلام وغواية الإعلام» (٢٣٠-٢٣٥) (صلاح)]

يرسلوا ستة من رؤسائهم إلى النبي ﷺ حتى يتعلّموا الإسلام جيّدا، فأرسلوهم.

وصل هذا الوفد إلى النبيّ ﷺ سنة تسع من الهجرة، يرأسه عبد ياليل بن عمرو ابن عمير، وهو الذي ذهب رسول الله ﷺ لتفهيمه إلى جبل الطائف، فأبى أن يسمع منه، وسلّط عليه ﷺ أشرار الناس وأوباشهم، يضحكون عليه، ويحقّرونه ويرمونه بالحجارة، ويلقون عليه الوحل.

وكان النبيّ ﷺ قد قال في مرجعه من هناك: إني لا أدعو عليهم بالهلاك، فإنهم لو لم يسلموا، فإنّ الله تعالى يكرم نسلهم بالإيمان. وحقًّا وجد الإيمان سبيله إلى قلوبهم، فجاءوا إلى رسول الله ﷺ والشوق يدفعهم، والطلب يحثّهم.

ولما وصلوا إلى المدينة أبدى المغيرة بن شعبة رغبته في استضافتهم، لأنهم من قومه، فقال النبيّ ﷺ: لا أمنعك أن تكرم قومك، ولكن أنزلهم حيث يسمعون القرآن، فضرب عليهم قبّة في ناحية مسجده، وهذا الأمر أثر فيهم فعرفوا صدق الإسلام، وبايعوا النبيّ ﷺ.

وقد كان فيما سألوا رسول الله ﷺ أن يدع لهم الطاغية، وهي اللّات، لا يهدمها ثلاث سنين، فأبى رسول الله ﷺ أن يدعها شيئا مسمّى.

وقد كانوا سألوه مع ترك الطاغية، أن يعفيهم من الصلاة، وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم.

فقال رسول الله ﷺ: أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه، وأما الصلاة فلا خير في دين لا صلاة فيه.

وسألوه ﷺ الإعفاء من الصدقة والجهاد، فأعفاهم.

وقال: سيتصدّقون ويجاهدون إذا أسلموا(١).

---

(١) عون المعبود (٨/ ٢٦٦)، [سنده حسن، أبوداود رقم: ٣٠٢٥، الصحيحة للألباني: ١٨٨٨، أحمد: ٤/ ٢١٨]

هنا ينبغي أن نفكر في هدي النبي ﷺ في تكليف الناس بشرائع الإسلام، وقد ورد في «دعوة الإسلام» (ص ٤٦٢): **أن قيصر روسيا (وال ويمبر) كان مستعدًا للدخول في الإسلام، على أن لا يترك شرب الخمر، ولكن لم يقبل أيّ عالم ذلك الوقت شرطه هذا، وكان قيصر كارهًا للوثنية،**
=

وتكلّم رئيسهم عبد ياليل مع النبي ﷺ حول عدّة أمور، فقد سأله عن الزنا.

فقال: أفرأيت الزنا، فإنا قوم نغترب، ولا بدّ لنا منه؟

وقال رسول الله ﷺ: إن الزنا حرام وقد ورد في القرآن:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء: ٣٢].

وسأله ﷺ عن الربا، فإننا لا نأخذ فيه إلّا مالنا؟

قال النبي ﷺ: لكم رؤوس أموالكم، فقد قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ [البقرة: ٢٧٨].

وسأله ﷺ عن الخمر، فإنه عصير بلادنا، ولا نستطيع أن نعيش بغيرها؟

قال النبي ﷺ: إن الله قد حرّم الخمر، كما قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة: ٩٠].

فسأله عن الرَّبَّة، قال ﷺ: اهدمها، قال: هيهات لو تعلم الرَّبَّةُ أنك تريد أن تهدمها، قتلت أهلك.

قال عمر بن الخطاب: ويحك يا ابن عبد ياليل، ما أجهلك! إنما الربّة حجر.

فقال: إنا لم نأتك يا ابن الخطاب. **ثم قالوا**: يا رسول الله تَوَلَّ أنت هدمها، أما نحن فإننا لن نهدمها أبدا. فقال: سأبعث إليكم مَن يكفيكم هدمها.

وقال أحدهم: أرسله بعد انصرافنا، ولا يذهب معنا[1].

فلما أسلموا، وكتب لهم رسول الله ﷺ كتابهم، أَمّر عليهم عثمان بن أبي العاص، وكان من أحدثهم سنًّا، وذلك أنه كان أحرصهم على التفقّه في الإسلام وتعلّم القرآن،

= **فدخل في النصرانية بعد اليأس من الإسلام. فلو علم ذلك العالم هَديَ محمد ﷺ، لدخل في الإسلام قيصر روسيا ورعيته جميعًا.**

(١) يبدو أن عبد ياليل، الذي كان حاكما ورئيسا للطائف، كان رجلا ذكيًّا، فلذلك كان يوجّه الأسئلة والاعتراضات إلى النبي ﷺ، اتقاءً من أن يكون غرضا لسهام قومه الجاهلين، وحتى لا يقولون: إنه أسلم من غير مناقشة ومباحثة، هذا أحسن حيلة لتفهيم الجهلة من الناس.

يتعلّم من النبيّ ﷺ حينًا، ومن أبي بكر حينًا آخر[١].

وقد تشاور الوفد في الطريق، فرأوا إخفاء إسلام حتى ييئس القوم، فلما جاءوا قومهم تلقّوهم، فسألوهم ما وراءكم، فأظهروا الحزن، وأنهم إنما جاءوا من عند رجل فظٍّ غليظٍ، قد ظهر بالسيف، يحكم ما يريد، وقد دوّخ العرب، قد حرّم الزنا والربا والخمر، وأمر بهدم الربّة، فنفرت ثقيف، وقالوا: لا نطيع لهذا أبدًا.

قال: فتأهّبوا للقتال وأعدّوا السلاح، فمكثوا على ذلك يومين، أو ثلاثة، ثم ألقى الله في قلوبهم الرعب، فرجعوا، وأنابوا. وقالوا: ارجعوا إليه، فشارطوه على ذلك وصالحوه عليه.

قالو: فإنا قد فعلنا ذلك، ووجدنا أتقى الناس وأوفاهم وأرحمهم وأصدقهم، وقد بورك لنا ولكم في مسيرنا إليه، وفيما قاضيناه، فافهموا القضية واقبلوا عافية الله.

قالوا: فلِمَ كتمتمونا هذا أولا؟

قالوا: أردنا أن ينزع الله عن قلوبكم نخوة الشيطان، فأسلموا مكانهم ومكثوا أيامًا.

ثم قدم عليهم رسل رسول الله ﷺ تحت إمرة خالد بن الوليد، فعمدوا إلى اللّات، وقد استكفت ثقيف رجالها ونساءها والصبيان حتى خرج العواتق من الحجال، ولا يرى عامة ثقيف أنها مهدومة، ويظنّون أنها ممتنعة.

فقام المغيرة بن شعبة فأخذ المعول وقال لأصحابه: والله لأضحكنكم من ثقيف، فضرب بالمعول ثم سقط يركض برجله، فارتجّ أهل الطائف بصيحة واحدة، وفرحوا، وقالوا: أبعد الله المغيرة، قتلته الربّة.

وقالوا لأولئك: من شاء منكم فليقترب.

فقام المغيرة فقال: والله يا معشر ثقيف، إنما هي لكاع حجارة ومدر، فاقبلوا عافية الله واعبدوه، ثم إنه ضرب الباب، فكسره ثم علا سورها وعلا الرجال معه، فما زالوا يهدمونها حجرا حجرا حتى سوّوها بالأرض، وجعل سادتها يقول: ليغضبن الأساس

---

(١) صحيح الطبري(٢/ ٣١٣). راجع تعيين النبي ﷺ عثمان بن أبي العاص إمام قومه في كتب السنن، ذكره الألباني في «صحيح أبي داود» (٥٣١) عن عثمان بن أبي العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. (صلاح)

وليخسفن بهم.

فلما سمع المغيرة، قال لخالد: دعني أحفر أساسها فحفروه حتى أخرجوا ترابها وانتزعها حليّها ولباسها، وبهتت عند ذلك ثقيف، وهكذا رسخ في قلوبهم أساس الإسلام[١].

(١) راجع للتفصيل زاد المعاد (٣/ ٥٩٥-٥٩٩) [والطبري: ٣/ ٩٧-١٠٠].

٤ - وفد عبد القيس(١)

أورد الشيخان عن ابن عباس: أن وفد عبد القيس قدموا على النبيّ ﷺ فقال: من القوم؟

فقالوا: من ربيعة.

فقال: مرحبًا بالوفد غير خزايا ولا ندامى.

فقالوا: يا رسول الله، إن بيننا وبينك هذا الحيّ من كفّار مضر، وأنا لا نصل إليك إلا في شهر حرام، فمرنا بأمر فصل، نأخذ به ونأمر مَن وراءنا وندخل به الجنة.

فقال: آمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع.

آمركم بالإيمان بالله وحده، أتدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تعطوا الخمس من المغنم.

وأنهاكم عن أربع؛ عن الدبّاء، والحنتم، والنقير، والمزفّت، فاحفظوهن، وادعوا إليهن مَن وراءكم(٢).

---

(١) **تبيّن من النصوص أنه كان لعبد القيس وفادتان:**

إحداهما: قبل الفتح، سنة خمس أو قبلها، وكان عدد الوفد الأول ثلاثة عشر رجلًا، ففيها سألوا عن الإيمان، و عن الأشربة، وكان فيهم الأشجّ.

والثانية: كانت في سنة الوفود، وكان عددهم حينئذ أربعين رجلًا، وكان فيهم الجارود العبدي، وكان نصرانيًّا، فأسلم وحسن إسلامه (فتح الباري: ٨/ ٨٥-٨٦) رقم الحديث (٤٣٦٨) ومن شرف عبد القيس أن أول جمعة جمعت بعد جمعة في مسجد رسول الله ﷺ، في مسجد عبد القيس بجواثى من البحرين (رقم: ٨٥٢-٤٣١٦) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. (صلاح)

(٢) البخاري (١/ ١٩) [برقم: ٥٣، وأرقام آخرى، ومسلم رقم: ١٧] عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

كانوا يشربون منها الخمر، ويدّخرونها فيها، فحين نهى النبي ﷺ عن شرب الخمر، نهى أيضا عن استعمال الآنية التي كانت تشرب منها الخمر، أو تصنع فيها، ولما انتهى الناس عن شربها، نسخ =

قالوا: يا رسول الله، ما عِلمُكَ بالنقير؟

قال: بلى، جذع تنقرونه، ثم تلقون فيه من التمر، ثم تصبّون عليه المـاء حتى يغلي، فإذا سَكَنَ شربتموه، فعسى أحدكم أن يضرب ابنَ عمّه بالسيف، وفي القوم رجل به ضربة كذلك، قال: وكنت أخبؤها حياء من رسول الله.

قالوا: ففيم نشرب يا رسول الله؟

قال: اشربوا في أسقية الأدم، التي يلاث على أفواهها.

قالوا: يا رسول الله! إنّ أرضنا كثيرة الجرذان، لا تبقى فيها أسقية الأدم.

قال: وإن أكلها الجرذان، مرتين أو ثلاثًا(١).

ومع هذا الوفد قدم الجارود بن بشر بن المعلّى، وكان نصرانيًّا، فقال: يا رسول الله! إني على دين، وإني تارك ديني لدينك، فتضمن لي بما فيه؟

قال: نعم أنا ضامن لذلك، إنّ الذي أدعوك إليه خيرٌ من الذي كنت عليه، فأسلَمَ، وأسلَمَ أصحابه(٢).

النهي أيضا عن استعمال هذه الأواني، وبذلك يستطيع أن يفهم المسلمون: كيف كان النبي ﷺ يعلّم الناس بالحكمة والموعظة الحسنة.

(١) مسلم (١٨، ٤٥، ١٩٥٦).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٦٠٦)، ابن هشام (٢/ ٥٧٥) [أحمد: ٥/ ٨٠، والدارمي (٢٠/ ٢٦٦)، والترمذي (١٨٨٢) عن الجارود العبدي، يرفعه إلى النبي ﷺ، إسناده صحيح (زاد المعاد: ٣/ ٦٠٦ تعليقا) (صلاح)].

٥- وفد بني حنيفة

قدم وفد بني حنيفة على رسول الله ﷺ، وقد انتشر الإسلام بأرضهم بجهود ثمامة بن أثال[١]، وأسلم هذا الوفد بعد قدومه إلى المدينة، وكان فيهم مسيلمة الكذاب.

فجعل يقول: إن جَعَلَ لي محمد الأمرَ من بعده تَبِعتُه.

فأقبل النبي ﷺ وفي يده قطعة جريد، فقال: إن سألتني هذه القطعة ما أعطيتُكها، ولن تَعدُوَ أمرَ الله فيك، ولئن أدبرت ليعقِرنّك الله، وإني أراك الذي أريت فيه ما أريت.

فلمّا سأل ابن عباس عن ذلك، قال: بينا أنا نائم رأيتُ في يديّ سِوارَين من ذهب، فأهمّني شأنهما، فأُوحي إليّ في المنام أن أنفخهما، فنفختهما، فطارا، فأوّلتهما كذّابَين يخرجان من بعدي. فهذان هما. أحدهما: العنسي صاحب صنعاء. والآخر: مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة[٢].

وإن ادّعى مسيلمة الكذّاب النبوّة، ولكنه كان يعترف برسالة محمد ﷺ أيضًا، ولعلّ ذلك كان استمالة لمسلمي تلك المنطقة.

وفي سنة عشر كتب إلى رسول الله ﷺ:

من مسيلمة رسول الله، إلى محمد رسول الله.

أما بعد، فإني أشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأمر، ولقريشٍ نصف الأمر،

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٦١٠) [راجع ترجمته في «الإصابة» (١/ ٢١١ رقم: ٩٥٧)] وقصّة إسلامه قبل وفد بني حنيفة بزمان، بل قبل فتح مكّة.

(٢) البخاري (٤/ ١٨٢)، [٤٣٧٣،٤٣٧٤] مسلم في الرؤيا (٢/ ١٧٨٠ رقم: ٢٢٨٤،٢٢٧٣)، كان مسيلمة والعنسي رجلين كذّابين، ادّعيا النبوة محاكاة للنبي ﷺ فأهلكهما الله، ولم يحالف التوفيق والصدق إلا من كان رسولا من الله صادقا. وقد تنبأ القرآن الكريم بانتصاره حيث قال:

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٣٣﴾ [التوبة: ٣٣].

[أما مسيلمة فقتله وحشي بن حرب، وأما العنسي فقتله فيروز بن الديلمي].

وليس قريش قوما يعدلون.[١]

فكتب إليه رسول الله ﷺ:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذّاب، سلام على من اتّبع الهدى.

أما بعد: فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين والسلام على من اتّبع الهدى».

وكان رسول الله ﷺ بعث حبيب بن زيد بن عاصم وعبد الله بن وهب الأسلمي إلى مسيلمة، فلم يعرض لعبد الله، وقطع يدي حبيبٍ ورجليه[٢].

(١) حين جاء النبيّ ﷺ رسولا مسيلمة الكذاب بكتابه هذا، فقال لهما: وأنتما تقولان بمثل ما يقول؟
قالا: نعم!
فقال: «أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما». (صحيح سنن أبي داود: ٢٣٩٩). (صلاح)

(٢) فتوح البلدان للبلاذري (ص: ٩٩). من الضروري في هذا المقام أن أذكر باختصار، أن خالد بن الوليد قاتل مسيلمة في عهد أبي بكر، فقُتِل مسيلمة بيد الوحشيّ قاتل حمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان يقول: إني قتلت في الكفر عظيمًا من المسلمين، وأهلكتُ في الإسلام كافرا عظيما أيضًا، فلعلّ الله يذهب بهذا ذاك.

٦- وفد طيء

وقدم على رسول الله ﷺ وفد طيء، وفيهم زيد الخيل، وهو سيّدُهم، فلما انتهوا إليه، كلّمهم وعرض عليهم الإسلام، فأسلموا وحسن إسلامهم، وقال رسول الله ﷺ:

«ما ذكر لي رجل من العرب بفضل، ثم جاءني إلّا رأيته دون ما يقال لي فيه، إلا زيد الخيل، فإنه لم يُبلغ كلّ ما كان فيه»، ثم سمّاه: زَيد الخير، وقطع له فيدًا[١].

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٦١٦)، ابن هشام (٢/ ٥٧٧) [فيد: اسم مكان بشرقي سلمى أحد جبال طيء كان زيد الخير شاعرا وخطيبا شجاعا سليط اللسان، مات في آخر خلافة عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وهو الذي ينسب إليه حمّى فيد] وله ابنان مُكنف وحريث كلاهما من الصحابة، وشهدا قتال أهل الردّة مع خالد بن الوليد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ.

[وورد أن عدي بن حاتم الطائي فرّ، وأخذ خيل رسول الله ﷺ أخته (سفانة)، وقدموا بها على رسول الله ﷺ، فمن عليها النبي ﷺ وكساها وأعطاها النفقة، فخرجت مع ركب حتى قدمت الشام، وأشارت على أخيها (عدي) بالقدوم على رسول الله ﷺ، وأنه قدم عليه وأسلم. (زاد المعاد: ٣/ ٤٩٤، والصادق الأمين: ٦٩٢)]

٧- وفد الأشعريين

وقدم وفد الأشعريين من أهل اليمن[١]، وحين مقدمهم قال رسول الله ﷺ:

جاء أهل اليمن، وهم أرقّ أفئدةً، وأضعف قلوبًا، والإيمان يمانٍ والحكمة يمانيّة، والسكينة في أهل الغنم، والفخر والخُيَلاء في الفدّادين من أهل الوبر قِبَلَ مطلع الشمس[٢].

ولما قدموا المدينة جعلوا يرتجزون:

غدا نلقى الأحِبَّة محمَّدا وحزبه.[٣]

---

(١) قدومهم كان سنة سبع عند فتح خيبر، كان فيهم أبو موسى الأشعري وفيه: لما أن قدموا تصافحوا، فكانوا هم أوّل من أحدث المصافحة. (أحمد: ١٢٥٨٢، وإسناده صحيح) (صلاح)

(٢) البخاري رقم (٤٣٨٨، ومسلم رقم (٥٢) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، بشيء من الاختلاف في الألفاظ. وفيه مدح النبي ﷺ لهم، وراجع «قبولهم البشرى، ورفض بني تميم لها» في البخاري (٣١٩٠-٣١٩١) عن عمران بن الحصين رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. (صلاح)

(٣) زاد المعاد (٣/ ٦١٨) [أحمد: ٣/ ١٠٥، ١٥٥ رقم ١٢٠٢٦، ١٢٥٨٢ وغيرهما من المواضع عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وإسناده صحيح].

٨- وفد الأزد

قال سويد بن الحارث الأزدي: وفدت سابع سبعة من قومي على رسول الله ﷺ، فلما دخلنا عليه وكلّمناه فأعجبه ما رأى من سمتنا وزيّنا.

فقال: ما أنتم؟

قلنا: مؤمنين.

فتبسم رسول الله ﷺ وقال: إن لكل قول حقيقة، فما حقيقة قولكم وإيمانكم قلنا: خمس عشرة خصلة:

خمس منها، أمرتنا بها رسلك أن نؤمن بها.

وخمس أمرتنا أن نعمل بها.

وخمس تخلقنا بها في الجاهلية، فنحن عليها إلا أن تكره منها شيئا.

فقال رسول الله ﷺ: «ما الخمسة التي أمرتكم بها رسلي أن تؤمنوا بها؟».

قلنا: أمرتنا: أن نؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت.

قال: «وما الخمسة التي أمرتكم أن تعملوا بها؟».

قلنا: أمرتنا أن نقول: لا إله إلا الله، ونقيم الصلاة، ونؤتي الزكاة، ونصوم رمضان، ونحجّ البيت من استطاع إليه سبيلا.

قال: «وما الخمسة التي تخلقتم بها في الجاهلية؟».

قالوا: الشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء، والرضى بمرّ القضاء، والصدق في مواطن اللقاء، وترك الشماتة بالأعداء.

فقال رسول الله ﷺ: «حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء».

ثم قال: «وأنا أزيدكم خمسا فيتمّ لكم عشرون خصلة، إن كنتم كما تقولون: فلا تجمعوا ما لا تأكلون، ولا تبنوا ما لا تسكنون، ولا تنافسوا في شيء أنتم عنه غدًا تزولون، واتقوا الله الذي إليه ترجعون وعليه تعرضون، وارغبوا فيما عليه تقدمون وفيه تخلدون».

فانصرف القوم من عند رسول الله ﷺ وحفظوا وصيته وعملوا بها[١].

(١) زاد المعاد (٣/ ٦٧٢-٦٧٣) سنده ضعيف، لأن علقمة بن يزيد بن سويد لا يعرف، وأتى بخبر منكر فلا يحتجّ به. ذكره الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ترجمة سويد بن الحارث الأزدي في «الإصابة» (٣/ ١٥١ رقم ٣٥٧٧) وقال: ساقه الرشاطي، وابن عساكر من وجهين آخرين عن أحمد بن أبي الحواري، ورواه أبو سعيد النيسابوري في شرف المصطفى من وجه آخر عن أحمد بن أبي الحواري.... والأوّل أشهر. (صلاح)

٩- قدوم رسول فروة بن عمرو الجذاميّ

كان فروة بن عمرو حاكم منطقة العرب الشمالية التي كانت تحت دولة القسطنطينية، وكان منزله مَعَان، وما حوله من أرض الشام.

وقد بعث إليه رسول الله ﷺ كتابه، فأسلم، وأهدى له ﷺ بغلة بيضاء ثمينة، فلما بلغ الروم إسلامُه، طلبوه حتى أخذوه، فحبسوه عندهم، فلما اجتمعت الروم لصلبه على ماءٍ لهم، يقال له عفراء بفلسطين، قال:

ألا هل أتى سلمى بأنَّ حليلها ... على ماءِ عفراء فوقَ إحدى الرواحل

على ناقةٍ لم يضرب الفحلُ أمّها ... مُشَذَّبةً أطرافها بالمناجِل

وزعم الزهريّ أنهم لما قدَّموه ليقتلوه، قال:

بلِّغ سراة المسلمين بأنّني

سلمٌ لربّي أعظمي ومقامي

ثم ضربوا عنقه، وصلبوه على ذلك الماء، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.(١)

(١) معرفة الصحابة لأبي نعيم (-٤٣٠هـ) (٤/ ٢٢٨٨، الترجمة رقم (٢٤٠٥)، زاد المعاد (٣/ ٦٤٦)، [سمّاه **ملك عرب الروم**] وابن هشام (٢/ ٥٩٢). ودلائل البيهقي (٥/ ٤٠٩) [الحليل: الزوج، والرواحل في الأصل: الإبل، ويريد بإحدى الرواحل: الخشبة التي صلبوه عليها].

١٠- وفد همدان

كانت قبيلة همدان باليمن، وقد بعث إليهم النبي ﷺ خالد بن الوليد، يدعوهم إلى الإسلام، فأقام فيهم ستة أشهر، فلم يجيبوه، ثم أن النبي ﷺ بعث عليّ بن أبي طالب، فقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ: فأسلمت همدان جميعا، فكتب عليٌّ إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم، فلما قرأ رسول الله ﷺ الكتاب، خرّ ساجدًا، ثم رفع رأسه فقال: «السلام على همدان، السلام على همدان»[١].

وكان هذا الوفد[٢] يضمّ الذين أسلموا على يد عليٍّ، وتشرّفوا برؤية النبي ﷺ، وقد أنشد أحدهم بحضرة النبي ﷺ الشعر الآتي متذوّقا:

إليك جاوزن سواد الرّيف　　في هبوات الصّيف والخريف

مُخطّمات بجبال الليف.[٣]

---

(١) البخاري في المغازي باب بعث على بن أبي طالب، وخالد بن الوليد إلى اليمن قبل حجّة الوداع. (رقم ٤٣٤٩) (صلاح)

(٢) هذا الوفد قدم على رسول الله ﷺ سنة تسع من الهجرة بعد عودته من تبوك. (صلاح)

(٣) راجع سيرة ابن هشام (ص: ١٥٨). ومن وفد همدان كان مالك بن نمط ورجل آخر، يرتجزان بالقوم، يقول أحدهما: «همدان خيرسوقة وأقيال»، ويرتجز الآخر، فيقول هذا المذكور من الشعر. (صلاح)

١١- وفد طارق بن عبد الله

قال طارق بن عبد الله[١]: كنت قائما بسوق المجاز، إذ أقبل رجل عليه جبّة له، وهو يقول: «يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا».

ورجل يتبعه يرميه بالحجارة، **يقول**: يا أيّها الناس، لا تصدّقوه فإنه كذّاب.

فقلت: من هذا؟ فقالوا: هذا غلام من بني هاشم، الذي يزعم أنه رسول الله.

قال: **قلت**: من هذا الذي يفعل به هذا؟

قالوا: هذا عمّه عبد العزّى (وكان اسم أبي لهب عبد العزّى)[٢].

قال: فلما أسلم الناس وهاجروا، خرجنا من الربذة، نريد المدينة، نمتار من تمرها، فلما دنونا من حيطانها ونخلها، فإذا رجل في طمرين[٣] له فسلّم، وقال: من أين أقبل القوم؟

قلنا: من الربذة.

قال: وأين تريدون؟

قلنا: نريد هذه المدينة نمتار من تمرها، قال: ومعنا جمل أحمر مخطوم.

فقال: أتبيعون جملكم هذا؟

قالوا: نعم بكذا وكذا صاعا من تمر، فما استوضعنا مما قلنا شيئا، فأخذ بخطام الجمل فانطلق، فلما توارى عنّا بحيطان المدينة ونخلها قلنا: ما صنعنا، والله ما بعنا جملنا ممن

---

(١) هوا المحاربي، راجع ترجته في «الإصابة» (٣/ ٢٨٢) رقم (٤٢٢٠). (صلاح)

(٢) البدر المنير لابن الملقن (١/ ٦٨)، والصحيح المسند للوادعي: (٥١٦) وكلاهما صحّحه، وزاد المعاد (٣/ ٦٦٣)، وابن هشام (٢/ ٥٩٦).

قدّروا من هذه القصة مدى الجهود التي بذلها رسول الله ﷺ بكل همة وصبر في دعوة الأمم إلى التوحيد، مع هذا يقول الأعداء إن الإسلام انتشر بالسيف.

(٣) الطِمران: واحدهما: طمر -بالكسر-: الثوب الخَلَق، والكساء البالي من غير الصوف. (ترتيب القاموس).

نعرف، ولا أخذنا له ثمنا.

قال: فقالت المرأة التي معنا: والله لقد رأيت رجلا كأن وجهه شقّة القمر ليلة البدر، أنا ضامنة لثمن جملكم.

فبينماهم كذلك، إذ أقبل رجل فقال: أنا رسولُ رسولِ الله إليكم، هذا تمركم، فكلوا واشبعوا، واكتالوا واستوفوا، فأكلنا حتى شبعنا، واكتلنا واستوفينا، ثم دخلنا المدينة فدخلنا المسجد، فإذا هو قائم على المنبر يخطب الناس، فأدركنا من خطبته **وهويقول:**

«تصدّقوا فإن الصدقة خيرٌ لكم، اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى، أمّك وأباك وأختك وأخاك وأدناك أدناك»(١).

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٦٤٨)، البداية والنهاية (٥/ ٨٥) والبيهقي عن جامع بن شداد [أخرجه الحاكم في المستدرك(٢/ ٦١١)، وسنده قابل للتحسين، وصحّحه ووافقه الذهبي: (زاد المعاد تعليقاً) (صلاح)].

كان طارق تلقّى درس التوحيد في مكّة، ودرس الأخلاق الحسنة في المدينة، وأسلم هو وقومه في آخر الأمر.

١٢- وفد تُجيب(١)

وقدم عليه ﷺ وفد تجيب، وهم من السّكُونِ(٢)، ثلاثة عشر رجلا، قد ساقوا معهم صدقات أموالهم، التي فرض الله عليهم، فسرَّ رسول الله ﷺ بهم، وأكرم منزلهم، **وقالوا:** يا رسول الله ﷺ سقنا إليك حقّ الله في أموالنا.

فقال رسول الله ﷺ: ردّوها فاقسموها على فقرائكم.

قالوا: يا رسول الله ﷺ، ما قدمنا عليك إلا بما فضل عن فقرائنا.

فقال أبو بكر: يا رسول الله ﷺ! ما وفد من العرب بمثل ما وفد به هذا الحيّ من تجيب.

فقال رسول الله ﷺ: إن الهدى بيد الله عزوجل، فمن أراد به خيرا، شرح صدره للإيمان.

وسألوا رسول الله ﷺ أشياء فكتب لهم بها(٣).

وجعلوا يسألونه عن القرآن والسنن، فازداد رسول الله ﷺ بهم رغبة، وأمر بلالًا أن يحسن ضيافتهم، فأقاموا أياما ولم يطيلوا اللبث.

فقيل لهم: مايعجبكم؟

فقالوا: نرجع إلى من وراءنا، فنخبرهم برؤيتنا رسول الله ﷺ، وكلامنا إيّاه، وما ردّ علينا.

ثم جاءوا إلى رسول الله ﷺ يُودّعونه، فأرسل إليهم بلالا فأجازهم، بأرفع ما كان يجيز به الوفود.

قال: هل بقي منكم أحد؟

قالوا: نعم، غلام خلفناه على رحالنا، هو أحدثنا سنًّا.

---

(١) بضمّ التاء وفتحها: بطن من كندة.

(٢) السّكون: بفتح السين وضمّ الكاف: بطن من كندة باليمن.

(٣) إن الذين يظنّون أن الأحاديث لم تكتب في زمن الرسول ﷺ، عليهم أن يتدبّروا هذا الواقع. [راجع للردّ على هذا الاعتراض رسالة «حجية الحديث النبوي والسنة المشرفة» لأبي محمد حافظ عبد الستار الحماد (٦٠-٦٨) تعريب كاتب هذه السطور صلاح الدين مقبول أحمد، وفيها ذكر الصحائف التى كتبت في عهد النبي ﷺ].

قال: أرسلوه إلينا، فلما رجعوا إلى رحالهم، قالوا للغلام: انطلق إلى رسول الله ﷺ، فاقض حاجتك منه، فإنا قد قضينا حوائجنا منه وودّعناه.

فأقبل الغلام حتى أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! إني امرؤ من بني أبذى، يقول: من الرهط الذين أتوك آنفا، فقضيت حوائجهم، فاقض حاجتي يا رسول الله ﷺ.

فقال: وما حاجتك؟

قال: إن حاجتي ليست كحاجة أصحابي، وإن كانوا قدموا راغبين في الإسلام، وساقوا ما ساقوا من صدقاتهم، وإني والله ما أعملني من بلادي إلا أن أسأل الله عز وجل أن يغفر لي ويرحمني، وأن يجعل غناي في قلبي.

فقال رسول الله ﷺ وأقبل إلى الغلام: اللهم اغفر له، وارحمه، واجعل غناه في قلبه، ثم أمر له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه، فانطلقوا راجعين إلى أهليهم.

ثم وافوا رسول الله ﷺ في الموسم بمنى سنة عشر، فقالوا: نحن بنو أبذى.

فقال رسول الله ﷺ: ما فعل الغلام الذي أتاني معكم؟

قالوا: يا رسول الله! ما رأينا مثله قط، ولا حدّثنا بأقنع منه ما رزقه الله، لو أن النّاس اقتسموا الدنيا ما نظر نحوها، ولا التفت إليها.

فقال رسول الله ﷺ: الحمد لله إني لأرجو أن يموت جميعا.[1]

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٦٥٠-٦٥٢) [شرح المواهب: ٤/ ٥، عيون الأثر ٢٠/ ٢٤٦، وابن سعد: ٣٢٣] على الدعاة الذين يتحمّلون مسئولية الدعوة، عليهم أن يجعلوا مثل هذا الشابّ نموذجًا لهم في الدعوة إلى الله.

١٣- وفد بني سعد هذيم

بنو سعد بطن من قضاعة، يقول أبو النعمان عن أبيه من بني سعد هذيم:

قدمت على رسول الله ﷺ وافدا في نفر من قومي، فنزلنا ناحية من المدينة، ثم خرجنا نؤمّ المسجد حتى انتهينا إلى بابه، فنجد رسول الله ﷺ يصلّي على جنازة في المسجد، فقمنا ناحية، ولم ندخل مع الناس في صلاتهم.

ثم انصرف رسول الله ﷺ، فنظر إلينا فدعانا. فقال: أمسلمون أنتم؟

قلنا: نعم.

قال: فهلا صلّيتم على أخيكم؟

قلنا: يا رسول الله ظننّا أن ذلك لا يجوز لنا حتى نبايعك.

فقال رسول الله ﷺ: أينما أسلمتم، فأنتم مسلمون.

قالوا: فأسلمنا وبايعنا رسول الله ﷺ على الإسلام، ثم انصرفنا إلى رحالنا، قد خلفنا عليها أصغرنا، فبعث رسول الله ﷺ في طلبنا، فأتي بنا إليه، فتقدّم صاحبنا إليه، فبايعه على الإسلام.

فقلنا: يا رسول الله ﷺ إنه أصغرنا، وإنه خادمنا.

فقال: أصغر القوم خادمهم، بارك الله عليه.

قال: فكان والله خيرنا، وأقرأنا للقرآن لدعاء رسول الله ﷺ له، ثم أمّره رسول الله ﷺ علينا، فكان يؤمّنا، ثم رجعنا إلى قومنا، فرزقهم الله الإسلام[1].

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٦٥٢). [شرح المواهب: ٤/ ٥١، عيون الأثر: ٢/ ٢٤٨، وابن سعد: ١/ ٣٢٩].

١٤ - وفد بني أسد

وقدم عليه ﷺ وفد بني أسد عشرة رهط، فيهم وابصة بن معبد، وطلحة بن خويلد، ورسول الله ﷺ جالس مع أصحابه في المسجد، فتكلّموا.

فقال متكلمهم: يا رسول الله ﷺ! إنا شهدنا أن الله وحده لا شريك له، وأنك عبده ورسوله، وجئناك يا رسول الله ﷺ، ولم تبعث إلينا بعثا نحن ولمن وراءنا، فأنزل الله على رسوله:

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات: ١٧].

وكان مما سألوا رسول الله ﷺ عنه يومئذ العيافة(١)، والكهانة، وضرب الحصى، فنهاهم رسول الله ﷺ عن ذلك كلّه.

فقالوا: يا رسول الله! أرأيت خصلة بقيت؟

قال: وما هي؟

قالوا: الخطّ.

قال: عُلّمه نبيٌّ من الأنبياء، فمن صادف مثل علمه علم(٢).

---

(١) (العيافة): زجر الطير. (الكهانة): تعاطي خبر الكائنات في المستقبل. (الخطّ): خط الوصل (الزاد تعليقًا). (صلاح)

(٢) زاد المعاد (٣/ ٦٥٢-٦٥٥) [رواه مسلم (رقم ٥٣٧) وغيره عن معاوية بن الحكم السلمي: وفيه (من وافقه خطه فذاك) أي: فهو مباح، ولكن لا طريق لنا إلى العلم على التحقيق بالموافقة لأن الإباحة تكون تبين الموافقة ولا سبيل إليها، ولذا اتفق العلماء على النهي عن هذا الصنيع، وعدّوه حراما، صرّح بذلك غير واحد من الأئمة. (زاد المعاد: ٣/ ٦٥٥ تعليقًا) (صلاح)]

١٥- وفد بهراء

ذكر الواقدي: [عن كريمة بنت المقداد، قالت: سمعت أمي ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب، تقول:]

قدم وفد بهراء من اليمن على رسول الله ﷺ، وهم ثلاثة عشر رجلا، فأقبلوا يقودون رواحلهم حتى انتهوا إلى باب المقداد بن عمرو(١)، فخرج إليهم المقداد فرحّب بهم، فأنزلهم، وجاءهم بجفنة من حيس، قد كنا هيأناها قبل أن يحلّوا لنجلس عليها، فحملها لنا المقداد، وكان كريما على الطعام، فأكلوا منها حتى نهلوا، ورُدّت إلينا القصعة وفيها أكل.

ثم بعثنا بها إلى رسول الله ﷺ، فأصاب منها رسول الله ﷺ أكلا هو ومن معه في البيت حتى نهلوا، ثم ردّها إلى المقداد، قال: فأكل منها الضيف ما أقاموا، وما تغيض حتى جعل القوم يقولون: يا أبا معبد، إنك لتنهلنا من أحبّ الطعام إلينا، ما كنا نقدر على مثل هذا إلا في الحين، وقد ذكر لنا أن الطعام ببلادكم، إنما هو العلقة(٢) أو نحوه، ونحن عندك في الشبع.

فأخبرهم أبو معبد بخبر رسول الله ﷺ، أنه أكل منها أكلا وردّها، فهذه بركة أصابع رسول الله ﷺ، فجعل القوم يقولون: نشهد أنه رسول الله ﷺ، وازدادوا يقينًا. وذلك الّذي أراد رسول الله ﷺ، وأقاموا أيّامًا، فتعلّموا الفرائض والقرآن، وأمر لهم رسول الله ﷺ بجوائزهم، فانصرفوا، إلى أهليهم.(٣)

(١) المقداد بن عمرو بن ثعلبة من كندة، وهو الذي يقال له: القرشي الزهري، لأجل التبنّي، كان من نجباء الرسول وفضلاء الصحابة، مات سنة خمس وثلاثين، عن سبعين سنة ودفن بالمدينة.

(٢) العلقة: كل ما يتبلّغ به من العيش فهو علقة.

(٣) زاد المعاد (٣/ ٦٥٥-٦٥٦) وشرح المواهب (٤/ ٥٦)، وابن سعد(١/ ٣٣١).

١٦- وفد عُذرة

قدم على رسول الله ﷺ وفد عذرة[١] في صفر سنة تسع، اثنا عشر رجلا، فيهم جمرة ابن النعمان، **فقال رسول الله ﷺ**: من القوم؟

فقال متكلمهم: نحن بنوعذرة إخوة قصيّ لأمه، نحن الذين عضدوا قصيًا، وأزاحوا من بطن مكّة خزاعة و بني بكر، ولنا قرابات وأرحام.

قال رسول الله ﷺ: مرحبًا بكم وأهلًا، ما أعرفني بكم، فأسلموا، وبشّرهم رسول الله ﷺ بفتح الشام، وهرب هرقل إلى ممتنع من بلاده، ونهاهم رسول الله ﷺ عن سؤال الكاهنة، وعن الذبائح التي كانوا يذبحونها، وأخبرهم أن ليس عليهم إلا الأضحية، فأقاموا أيامًا بدار رملة،ثم انصرفوا وقد أجيزوا.[٢]

---

(١) عذرة: قبيلة من اليمن، من قضاعة. (صلاح)

(٢) زاد المعاد (٣/ ٦٥٧) [ابن سيد الناس (٢/ ٢٥١)، شرح المواهب (٤/ ٥٦) وابن سعد (٣٣)].

١٧- وفد خولان

قدم عليه ﷺ في شهر شعبان سنة عشر وفد خولان، وهم عشرة، فقالوا: يا رسول الله! نحن على مَن وراءنا من قومنا، ونحن مؤمنون بالله عز وجل، ومصدّقون برسوله، وقد ضربنا إليك آباط الإبل، والمنّة لله ولرسوله علينا، وقدمنا زائرين لك.

قال رسول الله ﷺ: « من زارني بالمدينة كان في جواري يوم القيامة».[1]

ثم قال رسول الله ﷺ: «ما فعل عمّ أنس[2]» -وهو صنم خولان الذي كانوا يعبدونه-.

قالوا: أبشر! بدّلنا الله به ماجئت به، وقد بقيت منا بقايا -من شيخ كبير وعجوز كبيرة- متمسّكون به، ولو قدمنا عليه، لهدمناه إن شاء الله، فقد كنّا منه في غرور وفتنة.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «وما أعظم ما رأيتم من فتنة؟

قالوا: لقد رأيتنا أستَنا حتى أكلنا الرِّمة، فجمعنا ما قدرنا عليه، وابتعنا به مائة ثور، ونحرناها لعمّ أنس قربانا في غداة واحدة، وتركناها تردها السباع، ونحن أحوج إليها من السباع.

وذكروا لرسول الله ﷺ ما كانوا يقسمون لصنمهم هذا من أنعامهم وحروثهم.

قالوا: كنا نزرع الزرع فنجعل له وسطه، ونسمّي زرعا آخر حجرة لله، فإذا مالت الريح فالذي سمّيناه لله جعلناه لعمّ أنس، أما الذي جعلناه لعمّ أنس لم نجعله لله.

وسألوه عن فرائض الدين، فأخبرهم، وأمرهم بالوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وحسن الجوار لمن جاروا، وأن لا يظلموا أحدا. وقال: «إن الظلم ظلمات القيامة»، وودّعوه بعد أن أجازهم، ولما رجعوا إلى قومهم هدموا عم أنس[3]».

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤١٥٨)، والمنذري في «الترغيب والترهيب» (٢/ ٢١٣)، كلاهما باختلاف يسير عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ذكره الألباني في ضعيف الترهيب (٧٦٨) (صلاح)

(٢) في كتاب الأصنام «عِميانُس» بكسر العين وضمّ النون (الزاد (٣/ ٦٦٢ تعليقاً) (صلاح).

(٣) زاد المعاد (٣/ ٦٦٢-٦٦٣) [ابن سيّد الناس: ٢/ ٢٥٣-٢٥٤، وشرح المواهب: ٤/ ٥٨-٥٩، وابن سعد: ١/ ٣٢٤).]

١٨- وفد محارب

قدم على رسول الله ﷺ وفد محارب عام حجّة الوداع، جاء منهم عشرة نائبين عمن وراءهم من قومهم فأسلموا، وكان بلال يأتيهم بغداءٍ وعشاء إلى أن جلسوا مع رسول الله ﷺ يومًا من الظهر إلى العصر، فعرف رجلا منهم فأمدّه النظر، فلما رآه المحاربي يديم النظر إليه، قال: كأنك يا رسول الله ﷺ توهمني؟

قال: لقد رأيتُك.

قال المحاربي: إي والله! لقد رأيتني وكلّمتني، وكلّمتك بأقبح الكلام، ورددتُك بأقبح الردّ بعكاظ، وأنت تطوف على الناس، فقال رسول الله ﷺ: نعم!

ثم قال المحاربي: يا رسول الله ﷺ، ما كان في أصحابي أشدّ عليك يومئذ، ولا أبعد عن الإسلام منّي، فأحمد الله الذي أبقاني حتى صدقتُ بك، ولقد مات أولئك النفر الذين كانوا معي على دينهم.

فقال رسول الله ﷺ: إن هذه القلوب بيد الله عزّ وجل.

فقال المحاربي: يا رسول الله استغفرلي من مراجعتي إياك.

فقال رسول الله ﷺ: «إن الإسلام يجبّ ما كان قبله من الكفر». ثم انصرفوا إلى أهليهم.(١)

---

(١) زاد المعاد(٣/ ٦٦٣-٦٦٤)، وابن سيّد الناس (٢/ ٢٥٤)، وشرح المواهب (٤/ ٥٩٠) وابن سعد (١/ ٢٩٩).

١٩- وفد غسّان

قدم على النبي ﷺ في شهر رمضان سنة عشر، ثلاثة نفر من غسّان، فأسلموا، ورجعوا لنشر الدعوة في قومهم، ولكنّهم لم يستجيبوا لهم، وكتموا إسلامهم حتى مات منهم رجلان على الإسلام، وأدرك الثالث منهم عمر بن الخطاب عام اليرموك، فلقي أبا عبيدة، فأخبره بإسلامه، فكان يكرمه(١).

(١) زاد المعاد (٣/ ٦٦٩). [ابن سيد الناس (٢/ ٢٥٦)، وشرح المواهب (٤/ ٦١)، وابن سعد (١/ ٣٣٠)].

٢٠- وفد بني الحارث

بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد سنة عشر إلى بني الحارث بن كعب بنجران، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام، قبل أن يقاتلهم ثلاثًا، فدعاهم فأسلموا، فأقام فيهم خالد يعلّمهم الإسلام، وكتب إلى رسول الله ﷺ بذلك، فكتب له رسول الله ﷺ أن يُقبِلَ ويُقبِلَ معه وفدهم، فأقبلَ وأقبلَ معه وفدهم، فيهم: قيس بن الحصين ذي الغصّة، وعبد الله بن قراد وغيرهما.

وقال لهم رسول الله ﷺ: «بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية»؟

قالوا: لم نكن نغلب أحدا، قال: بلى!

قالوا: كنا نجتمع ولا نتفرّق، ولا نبدأ أحدا بظلم.

قال: صدقتم.

فلم يمكثوا إلا أربعة أشهرٍ حتى توفي رسول الله ﷺ[١].

(١) زاد المعاد (٣/ ٦٢١-٦٢٢) [ابن هشام (٢/ ٥٩٢-٥٩٤)، شرح المواهب (٤/ ٣٣) ابن سعد (١/ ٣٣٩)].

٢١- وفد بني عبس

وفد عليه ﷺ وفد بني عبس بعد إسلامهم، فقالوا: يا رسول الله ﷺ، قدم علينا قراؤنا، فأخبرونا أنه لا إسلام لمن لا هجرة له، ولنا أموال ومواش وهي معايشنا، فإن كان لا إسلام لمن لا هجرة له، فلا خير في أموالنا، بعناها وهاجرنا من آخرنا.

فقال رسول الله ﷺ: «اتّقوا الله حيث كنتم، فلن يلتكم الله من أعمالكم شيئا»[(١)].

وقد دلّ النبي ﷺ بهذا الجواب على أنه لا ينبغي أن يجتمع المسلمون كلّهم في مكان واحد بهجر أوطانهم فيضيقوا به نطاق الأرض الإسلامية، بل يستحسن أن ينتشروا في البلاد البعيدة، و يبلّغوا فيها دعوة الإسلام.

والذين يستحسنون الآن الهجرة إلى البلاد الإسلامية، والإقامة فيها، عليهم أن يعرفوا أن ذلك يتعارض مع توجيه النبي ﷺ، ويخالف مقتضى الدين الإسلامي الحنيف.[(٢)]

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٦٧٠) [ابن سيد الناس (٢/ ٥٧)، وشرح المواهب (٤/ ٦٣) وابن سعد (١/ ٢٩٥)].

(٢) لاشك أن الإقامة في البلاد نظرًا إلى نشر التوحيد والدعوة إلى الله في المجتمعات غير الإسلامية إن كانت ظروفها مواتية، ففيها الخير كل الخير، ولكن إن كان هناك تضييق على المسلمين بحيث لا تسمح لهم إقامة الشعائر الدينيّة، فالهجرة مطلوبة حفاظًا على دينهم وعقيدتهم ليجدوا في الأرض مراغما كثيرة وسعة من الله تعالى. (صلاح)

٢٢- وفد غامد

قدم على رسول الله ﷺ وفد غامد سنة عشر، وهم عشرة، فنزلوا ببقيع الغرقد، ثم انطلقوا إلى رسول الله ﷺ، وقد خلَّفوا عند رحلهم أحدثهم سنًّا، وانتهى القوم إلى رسول الله ﷺ، فسلّموا عليه وأقرّوا له بالإسلام، وكتب لهم كتابا فيه شرائع من شرائع الإسلام.

وقال لهم: من خلَّفتم في رحالكم؟

فقالوا: أحدثنا يا رسول الله ﷺ.

قال: فإنه قد نام عن متاعكم حتى أتى آتٍ فأخذ عيبة أحدكم.

فقال أحد القوم: ما لأحد من القوم عيبة غيري.

فقال رسول الله ﷺ: «فقد أُخِذَت ورُدَّت إلى موضعها». فخرج القوم سراعا، فسألوه عما أخبرهم رسول الله ﷺ.

قال: فزعتُ من نومي، ففقدتُ العيبة، فقمت في طلبها، فإذا رجل قد كان قاعدا، فلما رآني، فثار يعدو منّي، فانتهيت إلى حيث انتهى؛ فإذا أثر حفر، وإذا هو قد غيّب العيبة، فاستخرجتُها.

فقالوا: نشهد أنه رسول الله ﷺ؛ ثم رجعوا إلى النبي ﷺ فأخبروه، وجاء الغلام فأسلم.

وأمر النبي ﷺ أبي بن كعب، فعلّمهم قرآنا، وأجازهم كما كان يجيز الوفود وانصرفوا[١].

(١) زاد المعاد (٣/ ٦٧١) [ابن سيد الناس (٢/ ٢٥٧)، وشرح المواهب (٤/ ٦٢)، وابن سعد (١/ ٣٤٥)].

٢٣- وفد بني فزارة

لما رجع رسول الله ﷺ من تبوك، قدم عليه وفد بني فزارة وهم بضعة عشر رجلا، وجاءوا إلى رسول الله ﷺ مقرّين بالإسلام، وهم مُسنتُون على ركاب عجاف، فسألهم رسول الله ﷺ عن بلادهم.

فقال أحدهم: يا رسول الله ﷺ! أسنتت بلادنا، وهلكت مواشينا، وأجدب جنابنا، وغرث عيالنا، فادع لنا ربّك يغيثنا، واشفع لنا إلى ربّك، وليشفع لنا ربّك إليك.

فقال رسول الله ﷺ: سبحان الله، ويلك هذا، إنما شفعت إلى ربّي عز وجلّ، فمن الذي يشفع ربنا إليه؟ لا إله إلا هو العظيم، وسع كرسيّه السماوات والأرض، فهي تئطّ من عظمته وجلاله كما يئطّ الرّحلُ الجديد.

ثم دعا لهم بالماء، وكان مما حفظ من دعائه: «اللهم اسق عبادك وبهائمك، وانشر رحمتك، وأحي بلدك الميّت[1]».

«اللهم اسقِنا غيثًا مغيثًا مريئا مريعا طبقا واسعا، عاجلا غير آجل، نافعا غير ضارّ[2]».

«اللهم سقيا رحمةٍ، لا سقيا عذاب ولا هدم ولاغرق ولا محق، اللهم اسقِنا الغيث وانصرنا على الأعداء[3]».

---

(١) أخرجه أبو داود (١١٧٦) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال: كان رسول الله ﷺ إذا استسقى قال: «اللهم اسق عبادك..» (سنده حسن). (الزاد ٣/ ٦٥٤ تعليقًا) (صلاح)

(٢) روى أبو داود (١١٦٩) عن جابر بن عبد الله قال: قال النبي ﷺ: «اللهم اسقنا...» (باختلاف بعض الكلمات). (وسنده صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، الزاد ٣٠/ ٦٥٤، وصححه الألباني في «صحيح الكلم الطيب»: ١٥٢) (صلاح)

(٣) زاد المعاد (٣/ ٦٥٣-٣٥٤)، وابن سعد (١/ ٢٩٧) [وابن سيد الناس (٢/ ٢٤٩)، وشرح المواهب (٤/ ٥٧). ذكره الحافظ في الفتح (٢/ ٥٨٦) مجموعًا، عن عبيد بن خالد السلمي، وحكم عليه بالإرسال. وذكره ابن كثير (٦/ ٩٤) في حديث طويل، وقال: لبعضه شواهد. ومن المفردات الواردة في هذا الموضوع: (مسنتون): أي مجدبون، و (تئط): أي تصوّت].

٢٤- وفد سلامان

وقدم عليه ﷺ وفد سلامان وهم سبعة نفر، فيهم حبيب بن عمرو، فأسلموا.

قال حبيب: أي رسول الله ﷺ! ما أفضل الأعمال؟

قال: «الصلاة في وقتها».

ثم شكوا إليه جدب بلادهم، فقال رسول الله ﷺ بيده: «اللهم اسقِهم الغيث في دارهم».

قال حبيب: يا رسول الله ﷺ! ارفع يديك، فإنه أكثر وأطيب، فتبسّم رسول الله ﷺ، ورفع يديه، حتى رأيت بياض إبطيه.

قال: ثم رحلنا إلى بلادنا، فوجدناها قد مطرت في اليوم، الذي دعا فيه رسول الله ﷺ في تلك الساعة. وكان مقدمهم في شوال سنة عشر[١].

(١) زاد المعاد (٣/ ٦٦٩)، ابن سعد (١/ ٣٣٢) [ابن سيد الناس (٢/ ٢٥٧)، وشرح المواهب (٤/ ٦٧)].

٢٥- وفد نجران

نعلم بعد تدبّر الروايات التي وردت في مجاميع الحديث؛ تحت عنوان «وفد نجران» أن كبار نصارى نجران قدموا على النبي ﷺ مرّتين، ونحن نورده ههنا بذلك الترتيب.

ففي رواية أبي عبد الله الحاكم عن يونس بن بكير: أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل نجران كتابًا، فلما أتى الأسقف الكتاب، فقرأه ففظع به، وذعر به ذعرًا شديدًا، فبعث إلى شرحبيل بن وداعة، وكان من همدان، ولم يكن أحد يُدعى إذا نزلت معضلة قبله، لا الأيهم ولا السيّد ولا العاقب، فدفع الكتاب إليه فقرأه.

فقال الأسقف: يا أبا مريم، ما رأيك؟

فقال شرحبيل: قد علمتُ ما وعد الله إبراهيم في ذرّيّة[1] إسماعيل من النبوّة، فما

---

(١) **نجد إحالات كثيرة في أسفار العهد القديم عن وجود النبوة في بني إسماعيل:**

فأولا: كان الله وعد إسحاق وإسماعيل على السواء.

وثانيا: كثير من الأنبياء أخبروا عن نبي يظهر في العرب، وحيث أن العرب هم بنو إسماعيل، فإخبارهم يعني أن النبي الموعود يكون إسماعيليًا.

وثالثا: إخبار موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ واضح جدا في هذا الباب، فقد جاء في سفر التثنية (١٨/ ١٨): «أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه فيكلّمهم بكل ما أوصيه به».

والظاهر أن إخوة بني إسرائيل هم بنو إسماعيل، ونبي مثل موسى هو محمد رسول الله ﷺ، فهو ﷺ صاحب كتاب، وصاحب شريعة، وصاحب جهاد، و مهاجر، وغازٍ مثل موسى، ومعنى «جعل الكلام في الفم» هو حفظ أصل كلمات الوحي، وهذه الخصيصة مختصة بالقرآن الكريم، ولم تحصل هذه المنزلة لسفر من أسفار العهد القديم والعهد الجديد.

ومع هذا الإخبار ينبغي قراءة إخبار آخر لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقد جاء في سفر التثنية (٣٣/ ٢): «جاء الربّ من سيناء، وأشرق لهم من سعير، وتلألأ من جبل فاران، وعن يمينه نار شريعة لهم، جاء مع جنود الملائكة».

وفي هذه العبارة ذكر «فاران» وهو اسم مكّة، ولعل شرحبيل لاحظ هذه الإحالات، فقال قولته المذكورة.

يؤمن أن يكون هذا هو ذلك الرجل، ليس لي في النبوّة رأي، لو كان أمر من أمور الدنيا لنظرت فيه، وأبديت رائي فتنحّى شرحبيل وجلس ناحية.

فبعث الأسقف إلى رجل من حمير، يقال له عبد الله بن شرحبيل، فأقرأه الكتاب، وسأله عن الرأي فيه، فقال له مثل قول شرحبيل، ثم تنحّى وجلس ناحية.

فبعث الأسقف إلى جبّار بن فيض من بني الحارث بن كعب، فأقرأه الكتاب وسأله عن الرأي فيه، فقال له مثل قول شرحبيل وعبد الله، فأمره الأسقف فتنحّى.

فلما اجتمع الرأي منهم على تلك المقالة جميعا، أمر الأسقف بالناقوس فضُرب به، ورُفعت المسوحُ في الصوامع، وكذلك كانوا يفعلون إذا فزعوا بالنهار. وإذا كان فزعهم بالليل ضرب الناقوس، ورفعت النيران في الصوامع، فاجتمع -حين ضرب بالناقوس ورفعت المسوح- أهل الوادي أعلاه وأسفله، وطول الوادي مسيرة يوم للراكب السريع، وفيه ثلاث وسبعون قرية، وعشرون ومائة ألف مقاتل، فقرأ عليهم كتابَ رسول الله ﷺ وسألهم عن الرأي فيه، فاجتمع رأيُ أهل الوادي منهم على أن يبعثوا شرحبيل بن وداعة الهمداني، وعبد الله بن شرحبيل، وجبّار بن فيض الحارثي، فيأتوهم بخبر رسول الله ﷺ.

فانطلق الوفد حتى إذا كانوا بالمدينة، وضعوا ثياب السفر عنهم، ولبسوا حُللا لهم يجرّونها من الحَبرة، وخواتيم الذهب، ثم انطلقوا حتى أتوا رسول الله ﷺ، فسلّموا عليه، فلم يَرُدّ عليهم السلام، وتصدّوا لكلامه نهارا طويلا، فلم يكلّمهم، وعليهم تلك الحُلل وخواتيم الذهب، ثم وضعوا حللهم وخواتيمهم، ثم عادوا إلى رسول الله ﷺ. فسلّموا عليه فردّ سلامهم.

ثم قالوا له: ما تقول في عيسى عليه السلام؟

فأنزل الله عز وجل:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى

ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾[(1)] [آل عمران: ٥٩ - ٦١]

فأبوا أن يقرّوا بذلك، فلمّا أصبح رسول الله ﷺ الغد بعد ما أخبرهم الخبر، أقبل مشتملا على الحسن والحسين في خميلٍ له، وفاطمةُ تمشي عند ظهره للمباهلة، وله يومئذٍ عدّة نسوة[(2)].

فانعزل النصارى متشاورين، فقال شرحبيل لصاحبيه: قد علمتما أن الوادي إذا اجتمع أعلاه وأسفله، لم يردوا ولم يصدروا إلا عن رأيي، وإني والله أرى أمرا مقبلا، وأرى والله إن كان هذا الرجل ملكا مبعوثا، فكنّا أوّل العرب طعن في عينه، وردّ عليه أمره، لا يذهب لنا من صدره، ولا من صدور قومه حتى يصيبونا بجائحة.

وإن كان هذا الرجل نبيًّا مرسلا فلاعنّاه، فلا يبقى على وجه الأرض منا شعرة ولا ظفر إلا هلك.

فقالا له: أنت وذاك.

فلقي شرحبيل رسول الله ﷺ، فقال: قد رأيت خيرا من ملاعنتك.

فقال: وما هو؟

قال شرحبيل: حُكمك اليوم إلى الليل وليلتك إلى الصباح، فمهما حكمت فينا،

---

(١) **من أقوال النصارى وتعاليمهم:** ينبغي الإيمان بالتثليث دون دليل، ولكن القرآن الكريم ذكر أولا دليله، فقال: إن عيسى لو ولد بلا أب، فليس معنى ذلك أنه إله أو ابن الله، كما نرى في أمر آدم الذي ولد دون أب وأم.

وبما أنه ﷺ كان على يقينٍ أن هذا الدليل لن ينفع، فقد أظهر جانبا بديعًا طريفًا للبحث، وهو دعاء الله تعالى ولعن الكاذب. فلو كان المسيح إلها أو ابن الله فإنه يُعين كلّ من يبرز منزلته الأصلية للناس، ولو كان هذا خطأ وكذبا، فإن الله تعالى يحكم ويميّز بنفسه، وقد دعا النبي ﷺ إلى هذه المباهلة لإثبات التوحيد دعمه فقط حينما كان باب الاستدلال منسدًا، فلا يلزم أن نركن إلى المباهلة لحلّ الخلافات البسيطة.

(٢) ورد في الروايات الأخرى وجود علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضا، وكان الغرض من جمع هؤلاء، إخبار النصارى بأنهم مستعدّون للمباهلة في الساعة، مع أن أولاد النصارى وأزواجهم لم يكونوا موجودين في المدينة في ذلك الوقت.

فهو جائز.

فلما كان من الغد أتوه، فضرب رسول الله ﷺ عليهم الجزية، وكتب لهم في الكتاب الذي كتبه المغيرة، وشهد عليه أبو سفيان بن حرب، وغيلان بن عمرو، ومالك بن عوف، والأقرع بن حابس الحنظلي.

وفيما يلي من المعاهدة ما يوضح أن النبي ﷺ كم كان رحيمًا وكريمًا مع النصارى في توفير التسهيلات لهم، ومراعاة حقوقهم.

معاهدة النبي ﷺ مع أهل نجران:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما كتب محمد النبيّ رسول الله ﷺ لنجران، إذ كان عليهم حكمه في كل ثمرة، وفي كل صفراء وبيضاء وسوداء ورقيق، فأفضلَ عليهم، وترك ذلك كلّه على ألفي حلّة، في كل رجب ألف حلّة، وفي كل صفر ألف حلّة، وفي كل حلّة أوقية، ما زادت على الخراج أو نقصت على الأواقي فبحساب.

ولنجرانَ جوار الله وذمة محمد النبي ﷺ على أنفسهم، وملّتهم، وأرضهم وأموالهم، وغائبهم، وشاهدهم، وعشيرتهم، وتبعتهم، وأن لا يغيِّروا مما كانوا عليه، ولا يغيَّر حق من حقوقهم ولا ملّتهم، ولا يغيَّر كل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، وليس عليهم ريبة، ولادم جاهلية، ولا يُحشَرُون ولا يُعشَّرُون ولا يطأ أرضهم الجيش».

حتى إذا قبضوا كتابهم، انصرفوا إلى نجران، فتلقّاهم الأسقف ووجوُه نجران على مسيرة ليلة، فدفع الوفد كتاب رسول الله إلى الأسقف، فبينا هو يقرؤه، وأبوعلقمة [بشر بن معاوية ابن عمّه] معه، وهما يسيران إذ كبت ببشرٍ ناقتُه، فتعّس بشرٌ، غير أنه لا يكني عن رسول الله ﷺ.

فقال له الأسقف عند ذلك: قد تعست -والله- نبيا مرسلا.

فقال بشر: لاجرم، والله لا أحلُّ عنها عقدا حتى آتيه، فضرب وجه ناقته نحو المدينة، وثنّى الأسقف ناقته عليه.

فقال له: افهم عنّي، إنما قلت هذا لتُبلغَ عنّي العرب مخافة أن يقولوا: إنا أخذنا حمقة، أو نخعنا لهذا الرجل بما لم تنخع به العرب، ونحن أعزُّهم وأجمعهم دارًا.

فقال له بشر: لا والله لا أقيلك ما خرج من رأسك أبدا، فضرب بشرٌ ناقته وهو مُولّ ظهره للأسقف، وهو يقول:

إليك تعدُو قلقا وضينُها   معترضًا في بطنها جنينُها

مخالفًا دين النصارى دينُها

حتى أتى بشر النبيّ ﷺ، ولم يزل مع النبيّ ﷺ حتى استشهد بعد ذلك.

بقيّة أحوال هذا الوفد:

(١) **ودخل الوفد نجران،** فأتى الراهب ابن أبي شمر الزبيدي، وهو في رأس صومعة له، فقال له: إن نبيًّا قد بعث بتهامة، وإنه كتب إلى الأسقف، فأجمع أهلُ الوادي أن يسيّروا إليه شرحبيل بن وداعة وعبد الله بن شرحبيل، وجبار بن فيض، فيأتُونهم بخبره، فساروا حتى أتوه، فدعاهم إلى المباهلة، فكرهوا ملاعنته، وحكّمه شرحبيل. فحكم عليهم حكما، وكتب لهم كتابا، ثم أقبل الوفد بالكتاب حتى دفعوه إلى الأسقف.

فبينا الأسقف يقرؤه وبشر معه حتى كبت ببشر ناقته فتعَّسه، فشهد الأسقف أنه نبيّ مرسل، فانصرف أبو علقمة [بشر] نحوه يريد الإسلام.

فقال الراهب: أنزلوني وإلا رميتُ بنفسي من هذه الصومعة؛ فأنزلوه، فانطلق الراهب بهدية إلى رسول الله ﷺ، منها هذا البُرد[1] الذي يلبسه الخلفاء والقعب والعصاء.

وأقام الراهب بعد ذلك يسمع كيف ينزل الوحي، والسنن، والفرائض، والحدود، وأبى الله للراهب الإسلام، فلم يسلم، واستأذن رسول الله ﷺ في الرجعة إلى قومه، وقال: إن لي حاجة ومعادا إن شاء الله تعالى، فرجع إلى قومه، فلم يعد حتى قبض رسول الله ﷺ.

(٢) **وكان الأسقف أبو الحارث** (رئيس كنيسة، وكان موضع احترام وتقدير عند ملك الروم في القسطنطينية وكان عامّة الناس ينسبون إليه كثيرا من الكرامات وغيرها، وكان يعدّ من المجتهدين في دينه) قد وصل إلى النبي ﷺ بعد الوفد المذكور، وكان معهم

---

(١) هذا البرد ظلّ محفوظًا إلى عهد الخلفاء العباسيين.

الأيم قاضي القوم، ويقال له السيّد، والعاقبُ واسمه عبد المسيح، وكان أميرا للمنطقة كلّها. وكان في هذا الوفد ستون راكبا، منهم أربعة وعشرون من أشرافهم، وقد وصلوا إلى المسجد النبوي وقت العصر، وكان ذلك وقت صلاتهم (ولعلّه كان يوم الأحد)، فأذن لهم رسول الله ﷺ بالصلاة في مسجده، فصلّوا متجهين إلى المشرق، وقد حاول بعض المسلمين منعهم من الصلاة النصرانية، ولكن النبيّ منع المسلمين من ذلك.

وكان اليهود أيضا يأتونهم لرؤيتهم، ويتكلّمون معهم في بعض الأمور، ومرة قال اليهود للنبي ﷺ: إن إبراهيم كان يهوديًا، وقال النصارى: إنه كان نصرانيًا، فنزلت في ذلك قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٨﴾ [آل عمران: ٦٥ – ٦٨][1].

ذات مرة قالت اليهود -وهم أرادوا الردّ على المسلمين والنصارى معًا-: أتريد يا محمد أن نعبدك، كما تعبد النصارى عيسى بن مريم؟

فقال نصراني من أهل نجران يقال له الرئيس: أو ذاك تريد منّا يا محمد، وإليه تدعونا؟ أو كما قال.

فقال رسول الله ﷺ: معاذ الله أن نعبد غير الله، أو أن نأمر بعبادة غير الله، ما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني، فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين الكريمتين:

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ٧٩

---

(١) إن مشركي العرب الذين كانوا يعبدون الأوثان والأصنام، كانوا يقولون: إن ديننا على دين إبراهيم فردّ الله عليهم أيضًا في هذه الآية. [حيث قال سبحانه: ﴿...وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧﴾ [آل عمران: ٦٧] آية صغيرة تحمل معاني كبيرة للردّ على اليهود والنصارى والمشركين معًا.]

وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًاۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾
[آل عمران: ٧٩ - ٨٠]

وفي رواية محمد بن سهل قال: لما قدم أهل نجران على رسول الله ﷺ يسألونه عن عيسى بن مريم، نزلت فيهم فاتحة آل عمران إلى رأس الثمانين منها.

ولما أرادوا الانصراف كتب لهم النبيّ كتابا جاء فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبيّ إلى الأسقف أبي الحارث، وأساقفة نجران، وكهنتهم، ورهبانهم، وأهل بيعهم، ورقيقهم، وملّتهم، وسوقتهم، وعلى كلّ ما تحت أيديهم من قليل وكثير، جوار الله ورسوله، لا يُغيّر أسقف من أسقفته، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته، ولا يُغيّر حقّ من حقوقهم، ولاسلطانهم، ولا مما كانوا عليه. على ذلك جوار الله ورسوله أبدًا ما نصحوا وأصلحوا عليهم، غير منقلبين بظالم ولاظالمين»، كتبه المغيرة بن شعبة[1].

ووقت الانصراف قالوا للنبي ﷺ: نعطيك ما سألت (من الجزية)[2] فابعث معنا

---

(١) فتوح البلدان (ص ٩٩) [زاد المعاد (٣/ ٦٣٧)، وسنده ضعيف لجهاله سلمة بن يسوع فمن فوقه فلم نقف لهم على ترجمة، وذكره ابن كثير في السيرة (٤/ ١٠١، ١٠٦)، وفي تفسيره (١/ ٣٦٩-٣٧٠)، ونسبه للبيهقي في «دلائل النبوّة» وفيه غرابة. (زاد المعاد: ٣/ ٦٣٧ تعليقًا) (صلاح)].

(٢) لفظ «الجزية» معرب (گزية) بالفارسية، ومع انتقال هذا اللفظ إلى العربية، انتقلت أيضًا عادة فرض الجزية من فارس إلى العرب، حينما كان جزء من العرب تحت النفود الفارسي قبل الإسلام، وكانت فارس تعمل في هذا الباب بقانون روما. وكثير من الاعتراضات تورد على فرض الإسلام الجزية على غير المسلمين، وكذلك كثر ردّ المسلمين عليها. وإني أحيل هنا إلى رواية واحدة باختصار، توضح الأساس الذي بنى الإسلام عليه قانونه بخصوص الجزية. وكيف أن حقوق الفاتحين يحصل عليها المفتوحون أيضا سواء بسواء بعد دفع الجزية؛ وقد ورد في كتاب موثوق به للفقه: «فإن بذلوها فلهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، لقول عليّ: إنما بذلوا الجزية لتكون دماؤهم كدمائنا، وأموالهم كأموالنا (الهداية ٢/ ٥٤٠)، وترجمته الإنجليزية لتشارلزهاسن. (٢/ ١٤٢)
فليت الآسويين في ترانسقال بجنوب إفريقيا، عرفوا جزية يدفعها آسويّ، فينال حقوق الدم الإنجليزي!

رجلا أمينا.

فقال ﷺ: «لأبعثنّ معكم رجلا أمينًا حقّ أمين، فاستشرف لها أصحابه فقال: قم يا أبا عبيدة بن الجرّاح ، فلما قام، قال: هذا أمين هذه الأمة[١]».

وبجهوده انتشر هناك الإسلام[٢].

(١) البخاري (٣٧٤٢)، ومسلم رقم (٢٤٢٠) عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) زاد المعاد (٣/ ٦٣٧) [راجع المصدر المذكور: ٣/ ٦٢٩-٦٣٧) للتفصيل فيما يتعلّق بوفد نجران].

٢٦- وفد النخع

وقدم عليه ﷺ وفد النخع، وهم آخر الوفود قدومًا عليه، في نصف المحرم سنة إحدى عشرة في مائتي رجل، فنزلوا دار الأضياف، ثم جاءوا رسولَ الله ﷺ مُقرّين بالإسلام، وقد كانوا بايعوا معاذ بن جبل.

فقال رجل منهم يقال له زُرارة بن عمرو: يا رسول الله ﷺ! إني رأيت في سفري هذا عجبًا.

قال: وما رأيت؟

قال: رأيت أتانا تركتها في الحيّ، كأنها ولدت جديا أسفع أحوى.

فقال له رسول الله ﷺ: هل تركت أمة لك مصرّة على حمل؟

قال: نعم !

قال: فإنها قد ولدت غلاما وهو ابنك.

قال: يا رسول الله ﷺ! فما باله أسفع وأحوى؟

فقال: ادن منّي، فدنا منه، فقال: هل بك من برص تكتمه؟

قال: والذي بعثك بالحقّ ما علم به أحد، ولا اطلع عليه غيرك.

قال: فهو ذلك.

قال: يا رسول الله ﷺ، ورأيتُ النعمان بن المنذر، عليه قرطان مدملجان ومسكتان.

قال: ذلك ملك العرب، رجع إلى أحسن زِيّه وبَهجته.

قال: ورأيت نارًا خرجت من الأرض، فحالت بيني وبين ابن لي يقال له عمرو، وهي تقول: لظى لظى بصير وأعمى، وأطعموني آكلكم أهلكم ومالكم.

قال رسول الله ﷺ: تلك فتنة تكون في آخر الزمان.

قال: يا رسول الله ﷺ، وما الفتنة؟

قال: يقتل الناس إمامهم، ويشتجرون اشتجار أطباق الرأس -وخالف رسول الله ﷺ بين أصابعه، يحسب المسيئ فيها أنه محسن- ويكون دم المؤمن عند المؤمن فيها أحلى

من شرب الماء.

إن ماتَ ابنُك أدركتَ الفتنة؛ وإن مِتَّ أنت أدركها ابنُك.

فقال: يا رسول الله، ادع الله أن لا أدركها.

فقال له رسول الله ﷺ: «اللهم لا يدركها، فمات وبقي ابنه، وكان ممن خلع عثمان»[1].

---

(١) ابن سيّد الناس (٢/ ٢٥٨-٢٥٩)، وشرح المواهب (٤/ ٦٧-٦٩)، وابن سعد (١/ ٣٤٦)، وزاد المعاد (٣/ ٦٨٦-٦٨٧).

(فائدة): قد بلغ النبيّ ﷺ بعد اثنتين وعشرين سنة إلى هذه المرحلة، بعد ما دانت له قريش ودوّخها الإسلام، وعرفت العرب أنها لا طاقة لهم بحرب رسول الله، ولاعداوته، فدخلوا في دين الله أفواجًا من كل وجه.

يقول سبحانه وتعالى لنبيه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ [النصر: ١ - ٣] («فقه السيرة»: ص٤١٨) (صلاح)

الباب الرابع
أهم أحداث العهد المدني
خلال عشر سنوات
ووفاة النبي ﷺ

الباب الرابع

أهم أحداث العهد المدنيّ خلال عشر سنوات وو فاة النبي ﷺ

لما هاجر النبي ﷺ من مكّة إلى المدينة، لم يطب له المقام فيها، حتى بدأ أعداؤه في مكّة، بحبك المؤامرات، وشنّ الهجوم، وتدبير الحروب ضده، ما أقلق المسلمين الذين بايعوه ﷺ.

وبما أني سجّلت هذه الأحداث بعد ذكر الهجرة مباشرة، اختلّ ترتيب الموضوعات ههنا قليلًا.

ونذكر في هذا الباب أهم الأحداث التي وقعت في العهد المدني، وقد اخترت إيراد حادثة واحدة على الأقلّ من كل سنة رومًا للاختصار.

إن مطالعة هذا الباب، تجعل القارئ يطلع على كثير من الأمور المتعلّقة بالسيرة النبوية الشريفة، التي يجب أن تكون نصب عين كل فرد من الأمة، ليصلح أخلاقه وأحواله في ضوئها: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝١٧﴾ [فاطر: ١٧].

بناء المسجد النبوي[١]

بني المسجد في الموضع الذي بركت فيه ناقة النبي ﷺ بالمدينة، حينما وصل إليها من مكّة، وكان مربدا لسهل وسهيل غلامين يتيمين من الأنصار، كانا في حجر أسعد بن زرارة، فساوم رسول الله ﷺ الغلامين بالمربد، ليتّخذه مسجدا، فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى رسول الله ﷺ، فابتاعه منهما بعشرة دنانير، واستأذن لدفع الثمن، ولكنّ النبي ﷺ لم يأذن، فدفع الثمن أبو بكر، ثم سوّيت الأرض فبني المسجد، وكان طوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع، وجانباه مثل ذلك أو دونه، وجعل رسول الله ﷺ يبني معهم، وينقل اللبن والحجارة بنفسه، ويقول:

---

(١) إن مكانة المسجد في المجتمع الإسلامي، تجعله مصدر التوجيه الروحي والمادّي؛ فهو ساحة للعبادة، ومدرسة للعلم، وندوة للأدب، وقد ارتبطت بفريضة الصلاة وصفوفها أخلاق وتقاليد هي لباب الإسلام.
فالمسجد ليس أرضًا تحتكر العبادة فوقها؛ فالأرض كلّها مسجد، إنما هو رمز لما يكترث له الإسلام أعظم اكتراث، ويتشبث به أشد تشبّث؛ وهو وصل العباد بربهم وصلًا يتجدّد مع الزمن، ويتكرّر مع آناء الليل والنهار، فلا قيمة لحضارة تذهل عن الإله الواحد، وتجهل اليوم الآخر، وتخلط المعروف بالمنكر! (فقه السيرة: ١٧٨)
«والذي نلاحظه أن رسول الله ما أن نزل قباء حتى بنى بها مسجدًا، ولما قدم المدينة كان أول عمل قام به هو بناء المسجد، فلماذا هذا الإصرار من رسول الله على بناء المسجد أينما حلّ؟ ألّا إن المسجد هو المكان الذي ترفع فيه الأيدي إلى السماء تستمطر الرحمات، أم لأنه المكان الذي تربى فيه النفوس على تقوى الله وطاعته، أم لأنه المكان الذي يلتقي فيه المسلمون فيتعارفون ويتآلفون، أم لأنه المدرسة، أم لأنه مقرّ القيادة، أم لأنه المكان الذي ينطلق منه المجتمع الجديد، وترسم فيه معالم الحضارة الجديدة.
الحقيقة إنه لهذا كله كان الرسول ﷺ مصرًا على بناء المسجد أينما حلّ، ولهذا أيضًا شارك فيه الرسول بنفسه، ومشاركته فيه مشاركة فعالة في بناء المجتمع الجديد، الذي يعمل رسول الله جاهدًا على إقامته». (قراءة جديدة: ١٣٩-١٤٠) (صلاح)

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة
فـاغفر للأنصـار والمهـاجرة[١]

وجعلوا يرتجزون وهم ينقلون اللبن، ويقول بعضهم في رجزه:

لـئن قعـدنا والرسـول يعمـل
لـذاك منـا العمـل المضـلّل

وكان أساسه قريبا من ثلاثة أذرع، وجعل عمده الجذوع، وسقفه بالجريد. وقيل له: ألا تسقّفه؟

فقال: «لا، عريش كعريش موسى»[٢].

وكان هذا السقف يتقطّر من المطر، ويسقط التراب فينشأ الوحل[٣] ويسجدون فيه المؤمنون[٤].

---

(١) البخاري (١/ ١١٠-١١١) [رقم ٣٦٩٥، ومسلم (١٨٠٥)] عن أنس، كتاب الصلاة، باب هل تنبش قبور المشركين، وزاد المعاد (٣/ ٦٢)

(٢) زاد المعاد (٣/ ٦٣) [الطبقات: ١/ ٢٤٠ وراجع عن شراء أرض المسجد وبنائه «البخاري» (٣٩٣٢، مسلم (٥٢٤) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

(٣) تمّ بناء المسجد بهذه البساطة،... هذا البناء المتواضع، هو الذي ربّى ملائكة البشر، ومؤدبي الجبابرة، وملوك الدار الآخرة، في هذا المسجد أذن الرحمن لنبيّ يؤمّ بالقرآن خيرة من آمن به، أن يتعهدهم بأدب السماء من غبش الفجر إلى غسق الليل.
في بساطة بناء المسجد النبويّ الشريف دليل للأسلاف على انصرافهم عن زخرفة المساجد وتشييدها إلى تزكية أنفسهم وتقويمها، فكانوا أمثلة صحيحة للإسلام. (فقه السيرة: ١٧٨) (صلاح)

(٤) **[تأريخ بناء المسجد النبوي وتوسعته:]**
«لما استخلف أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يحدث فيه شيئا، واستخلف عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فوسّعه وكلم العباس بن عبد المطلب في بيع داره ليزيدها فيه، فوهبها العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فزادها عمر في المسجد.
ثم إن عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بناه في خلافته بالحجارة والقصة، وجعل عمده حجارة وسقفه بالساج، وزاد فيه، ونقل إليه الحصباء من العقيق.
وكان أوّل من اتّخذ فيه المقصورة مروان بن الحكم، بناها بحجارة منقوشة، ثم لم يحدث فيه شيء =

=

إلى أن ولي الوليد بن عبد الملك بن مروان بعد أبيه، فكتب إلى عمر بن عبد العزيز، وهو عامله على المدينة، يأمره بهدم المسجد وبنائه، وبعث إليه بمال وفسيفساء ورخام وثمانين صانعا من الروم والقبط من أهل الشام ومصر، فبناه وزاد فيه، وولي القيام بأمره والنفقة عليه صالح بن كيسان مولى سعد مولاه آل معيقيب بن أبي فاطمة الدوسيّ، وذلك في سنة ٨٧هـ، ويقال في سنة ٨٨هـ. ثم بناه المهديّ، وزاد في مؤخره مائة ذراع، فصار طوله ثلاثمائة ذراع، وعرضه مائتي ذراع. وكان ذلك سنة ١٦٢هـ. وأمر الخليفة المتوكل بمرمة هذا المسجد سنة ٢٤٦هـ. (فتوح البلدان ص١٦-١٧)

والبناء الحالي للمسجد النبوي من بناء السلطان عبد المجيد خان والد السلطان الحالي محمد الخامس، راجع كتابنا «سبيل الرشاد» وهو رحلتي للحج. (المؤلف)

[لقد مرّ المسجد النبويّ الشريف خلال أربعة عشر قرنًا بعدّة توسعات، أدّت إلى زيادة مساحة لتصبح نحو (١٦٥٠٠) متر مربع تستر عن نحو (٢٨٠٠٠) ميل.

ولكن الزيادة المتنامية في أعداد ضيوف الرحمن، جعلت فكرة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد ابن عبد الغزيز آل سعود أساس توسعته في شهر صفر ١٤٠٥هـ، الموافق لتشرين الثاني من عام ١٩٨٤م.

ويشتمل مشروع توسعة المسجد النبوي الشريف على إضافة مبنى جديد بمساحة ٨٢٠٠٠ متر مربع، يحيط ويتصل بمبنى التوسعة السعودية الأولى من المسجد النبوي الشريف من الناحية الشمالية والشرقية والغربية.

وباستخدام ساحات المسجد النبوي الشريف الخارجية المحيطة به كمناطق للصلاة يكون المسجد قادرا على استيعاب ما يزيد عن ٦٥٠٠٠٠ مصل في الفترات العادية.

أما في أوقات الذروة كموسم الحج وشهر رمضان المبارك، فإن المسجد النبوي الشريف يكون قادرًا على استيعاب ما يزيد عن المليون مصل.

ومن الجدير بالذكر، أن المساحة التي تتضمن مبنى المسجد النبوي الشريف بتوسعته الجديدة والساحة المحيطة به والتي تبلغ حوالي ٣٠٥٠٠٠ متر مربع شاملة المسجد والساحات، تعادل مساحة طيبة الطيبة أيام عهد الرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام.» (راجع للتفصيل الملحق «خادم الحرمين الشريفين لتوسعة المسجد النبوي الشريف في كتاب «السيرة النبوية في فتح الباري للشنقيطي» (٢/ ١٩٩)) (صلاح)]

إسلام عبد الله بن سلام الحبر الإسرائيلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]

كان عبد الله من أحبار اليهود، يرتبط بيوسف الصدّيق في نسبه، وإنه سمع النبيّ ﷺ يقول:

«أيها الناس، أفشوا السّلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلّوا بالليل والناس نيام»[٢].

فأخذت هذه الكلمات موقعها من قلبه، فأعجب بها، ثم إنه فكّر في أحوال النبيﷺ، فرأى أن نبوءات كتب الأنبياء السابقين تنطبق عليهﷺ، فأتى النبيﷺ وعرض عليه أسئلة، ظنّ أن الإجابة عليها لاتتيسّر إلا للنبيّ.

فلما ذكر له جواب مسائله، قال: أشهد أنك رسول الله، ثم قال:

يا رسول الله، إن اليهود قوم بهت، وإني أحبّ أن تغيّبني عنهم، ثم تسألهم عنّي.

فسألهم ﷺ فقال: أيّ رجل فيكم عبد الله بن سلام؟

قالوا: ذلك سيّدنا وابن سيّدنا[٣]، وأعلمنا وابن أعلمنا. فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم، فقلت لهم: يا معشر اليهود، اتقوا الله، واقبلوا ما جاءكم به، فو الله إنكم لتعلمون إنه لرسول الله، وإني أشهد أنه رسول الله وأؤمن به.

فقالوا: كذبتَ، أنت أجهلنا وابن أجهلنا، وأذلّنا وابن أذلّنا.

وبإسلام عبد الله أقام الله تعالى الحجّة على اليهود جميعًا.

---

(١) أسلم عبد الله بن سلام أوّل ما قدم النبي ﷺ إلى المدينة على الصحيح. ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ إسلام عبدالله بن سلام بالخصوص، لأن اليهود كانت لهم قوّة ونفوذ في المدينة، وهو كان من أحبار اليهود، **فإسلامه كان حجة على اليهود جميعًا، وفتحًا للإسلام، ونصرًا للمسلمين.** راجع ترجمته في «الإصابة» (٤/ ٨٠-٨١)، قال فيه: إنه كان حليف النوافل من الخزرج، الإسرائيلي ثم الأنصاري، مات بالمدينة سنة ثلاث وأربعين. (صلاح)

(٢) ذكره الألباني في صحيح ابن ماجة (١١٠٥). (صلاح)

(٣) البخاري في باب هجرة النبي ﷺ (٤/ ٣٦٠) [رقم ٣٣٢٩] عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إسلام أبي قيس الراهب النصراني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

وبعد إسلام عبد الله بن سلام، أسلم أبو قيس صرمة بن أبي أنس، وكان راهبا نصرانيًّا، فصيح اللسان، شاعرا واعظا عارفا باللاهوت، وبإسلامه أقام الله تعالى الحجّة على النصارى كلهم.[١]

(١) راجع ترجمته في «الإصابة» (٣/ ٢٤٢) قال: وهو مشهور بكنيته أبي قيس... ترهّب في الجاهلية، واغتسل من الجنابة، وهمّ بالنّصرانية، ثم أمسك، ثم لما قدم النّبي ﷺ المدينة أسلم، هو وأصحابه، وكان قوّالا بالحق، وله شعر حسن، وكان لا يدخل بيتا فيه جنب ولا حائض، وكان معظّما في قومه إلى أن أدرك الإسلام شيخًا كبيرا، عاش نحوا من عشرين ومائة سنة.
هذا، وإسلام مثله كان حجّة على النصارى ونصرا للإسلام والمسلمين، ولهذا ذكره المؤلف ضمن أهم الأحداث في العهد المدنيّ. (صلاح)

الصلاة[١]

وفي السنة الأولى من الهجرة زيدت ركعتان في الصلاة المفروضة. فأقرت الركعتان في السفر، وجعلت صلاة الظهر والعصر والعشاء أربع ركعات مفروضة، وفي مكة كانت الصلاة المفروضة ركعتين.

ولو فكر الإنسان، كيف كان المسلم يصير غريبا في مكة بمجرّد إسلامه، وكيف أن أحبته وذوي قرباه كانوا يتعاملون معه معاملة الغريب، وكيف كان كل مسلم على استعداد لترك مكة كل وقت؟

لقلنا: إن حياة المسلمين في مكّة كانت حياة الغربة والسفر، ولذا لم يعدهم تعالى مقيمين إلا بعد الوصول إلى المدينة.

والصلاة ركن الإسلام الذي يفترض على المسلم قبل غيره، فيستحب للطفل أن يصلّي وهو ابن سبع، وتفرض عليه الصلاة إذا كان ابن عشر[٢]، وتستمر فريضته إلى الأخير، أي إلى الموت، ولا تسقط فرضية الصلاة في أي حال من الصحة، والمرض، والسراء، والضراء، والسفر، والحضر، والخوف والأمن، ومهما كان في بلد بارد أو حار،

---

(١) فرضت الصلوات الخمس في المعراج، البخاري (رقم ٣٨٨٧)، ومسلم (رقم ١٦٤). قال ولي الله الدهلوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعْلَم أَن الصَّلَاة أعظم الْعِبَادَات شَأْنًا وأوضحها برهانا وأشهرها فِي النَّاس وأنفعها فِي النَّفس، وَلذَلِك اعتنى الشَّارِع بِبَيَان فَضلهَا وَتَعْيِين أَوْقَاتهَا وشروطها وأركانها وآدابها ورخصها ونوافلها اعتناء عَظِيم لم يفعل فِي سَائِر أَنْوَاع الطَّاعَات، وَجعلهَا من أعظم شَعَائِر الدّين....» (حجة الله البالغة: ١/ ٣٤٥)

وكذلك راجع كل ما يتعلق بالصلاة وأسرارها وحكمها في المصدر المذكور (١/ ٣٤٥-٣٦٢، ٢/ ٣-٦٨). (صلاح)

(٢) كما في حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر وفرقوا بينهم في المضاجع.» (رواه أبو داود وغيره، ذكره الألباني في «صحيح أبي داود» (٤٩٥) وقال: حسن صحيح.) (صلاح)

وذلك لأنّ أي مكان أو مناخ أو طارئ، لايسقط الصلاة عن المسلم وذلك لأمور، منها:

(١) **المداومة على عبادة الله** طوال الحياة مظهر لكمال الاستقلال.

والمحافظة على الصلوات الخمس بأوقاتها يوميًا، يُرشد المسلم إلى المحافظة على الوقت، وتطهير الجسم، واللباس، والمكان من النجاسة، خير وسيلة إلى صحّة الجسم وسلامته. وجعل القلب واللسان والجوارح والفكر متأدبة خاشعة أمام عظمة الله وجلال كبريائه تنوير روحي عظيم.

(٢) **والالتزام بالصّلاة يعلم** الإنسان المبادرة في النوم والاستيقاظ، ويخضعه لجدول زمنيّ، وهذا يدلّ على أن الإسلام يهدف إلى القضاء على أهواء النفس وشهواتها.

(٣) **وحضور المسجد للصلاة بالجماعة** لها روح المدنية والرقي، ووسيلة قويّة للاجتماع وتبادل الآراء، ويسهل جدّا أن يتعلّم الناس أمورًا كثيرة بالنموذج والنظير، ويتطبع عالم أن يقوم بالدعوة والإرشاد، ويتلقى غنيّ بوقوفه بجانب الفقير درس المساواة والإنسانية، ويرضي فقير روحه بعدالة الإسلام، بجلوسه بجانب الغنيّ.

(٤) **والذين يتركون الصلاة أو يتكاسلون** في حضور الجماعة في المسجد يحرمون من هذه الفضائل الخلقية، ولا يخفى مصير أمة يتجرد أفرادها من هذه الأخلاق العالية، يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

المؤاخاة(١)

إن الله قد جعل المسلم أخا المسلم فقال:

﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣]

(١) ومن آثار هذه الأخوة أن مسلما لو عقد حلفا مع قوم معادين فإن المسلمين كانوا ملتزمين بهذا الحلف.

ولو ذهب مسلم إلى بلاد بعيدة تطلع القوم كلّهم إلى سلامته، ولو تعرّض لظلم ظالم، التزم القوم كلّهم بردّ هذا الظلم عنه.

وكان كل مسلم يرى من واجبه القضاء بحاجة اليتيم والأرملة، وطالب علم، مثلما كان ملتزما بجميع ذلك نحو أولاده، وأولاد شقيقه وأرملته.

(٢) وكانت هناك أخوّة فوق هذه الأخوة، أرسى قواعدها النبي ﷺ في مكة بين

---

(١) «لمّا حل المهاجرون المدينة، وليس لهم فيها بيت يأويهم، ولا مال ينهض بحوائجهم، فلا بدّ أن يتخذ الرسول تدبيرًا اقتصاديا يحل مشكلتهم إلى جانب التدابير السياسية والاجتماعية، ولذلك آخى الرسول بينهم وبين الأنصار». (قراءة جديدة: ١٤٨)

«اعتبر الإسلام المؤمنين كلّهم إخوة، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وأوجب عليهم الموالاة لبعضهم، والتناصر في الحق بينهم، لكن موضوع هذا البحث هو المؤاخاة الخاصة، التي شرعت، وترتبت عليها حقوق وواجبات أخصّ من الحقوق والواجبات العامّة بين المؤمنين كافّة.

وقد واجه المهاجرون من مكة إلى المدينة مشاكل متنوّعة: اقتصادية واجتماعية وصحية...، وكان وضعهم بحاجة إلى علاج سريع، وحلّ مؤقت واستثنائي.

فكان إعلان تشريع نظام المؤاخاة في دار أنس بن مالك رضي الله عنه. ووقعت المؤاخاة بين طرفين هما المهاجرون والأنصار، فآخى الرسول ﷺ بين كل مهاجري وأنصاري اثنين اثنين.» («السيرة النبوية الصحيحة»: ١/ ١٤٠-٢٤٣) (صلاح)

أهل مكة، وفي المدينة بين المهاجرين والأنصار، وكذلك في المدينة بين أهلها فيما بينهم بالتوارث بين المتآخين(١).

وبمقتضى هذه المؤاخاة كانوا يتوارثون(٢) فيما بينهم، ففي اللحظة التي تنعقد فيها المؤاخاة، كان الأخ الغنيّ يعطي نصف ماله وممتلكاته أخاه الفقير(٣).

---

(١) قد جعل الرسول ﷺ هذه الأخوة عقدًا نافذًا؛ لا لفظًا فارغا، وعملًا يرتبط بالدماء والأموال؛ لا تحية تثرثر بها الألسنة، ولا يقوم لها أثر. (فقه السيرة: ١٧٩) (صلاح)

(٢) بقي التوارث فيهم ما لم يشمل الغنى والثراء القوم أجمعين وبعد ما تم ذلك انتقل الإرث إلى الورثة.

[«اختلفوا في ابتداء المؤاخاة، فقيل: بعد الهجرة بخمسة أشهر، وقيل: بتسعة، وقيل: وهو يبني المسجد.» (فتح الباري: ٧/ ٢٧٠)

وقد ظلّت عقود الإخاء مقدّمة على حقوق القرابة في توارث التركات إلى موقعة «بدر»، حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ ٧٥﴾ [الأنفال: ٧٥]. (فقه السيرة: ١٨١)

«ولقد كان هذا التوارث بين المتآخين لمعالجة ظروف استثنائية، مرّت بها الدولة الناشئة، فلمّا ألف المهاجرون جوّ المدينة، وعرفوا مسالك الرزق فيها، وأصابوا من غنائم بدر الكبرى ما كفاهم، رجع التوارث إلى وضعه الطبيعي المنسجم مع الفطرة البشرية، على أساس صلة الرحم، وأبطل التوارث بين المتآخين، وذلك بنص القرآن الكريم.» («السيرة النبوية الصحيحة»: ١/ ٢٤٥). (صلاح)]

(٣) **من النماذج الفريدة لهذه المؤاخاة**: ما حدث بين سعد بن الربيع الأنصاري، وعبد الرحمن بن عوف المهاجر: «**قدم عبد الرحمن بن عوف المدينة فآخى النبي ﷺ، بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري، وكان سعد ذا غنى، فقال لعبد الرحمن: أقاسمك مالي نصفين وأزوجك، قال: بارك الله لك في أهلك ومالك، دلوني على السوق، فما رجع حتى استفضل أقطا وسمنا**، فأتى به أهل منزله، فمكثنا يسيرا أو ما شاء الله، فجاء وعليه وضر من صفرة، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «مهيم»، قال: يا رسول الله تزوجت امرأة من الأنصار، قال: «ما سقت إليها؟» قال: نواة من ذهب، - أو وزن نواة من ذهب- قال: «أولم ولو بشاة». (البخاري: ٢٠٤٩، ٥٠٧٢، ومسلم ١٤٢٧) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. (صلاح)

وقد سجل المؤرخون أسماء أولئك الأبرار[(١)] أيضًا، الذين توثّقت بينهم صلة المؤاخاة، ونذكر فيما يلي بعض هذه الأسماء تيمنا:

محمد رسول الله ﷺ	مع	علي المرتضى
أبو بكر الصديق	مع	خارجة بن زيد
عمر الفاروق	مع	عتبان بن مالك
عثمان بن عفّان	مع	أوس بن ثابت
جعفر بن أبي طالب	مع	معاذ بن جبل
أبو عبيدة بن الجراح	مع	سعد بن معاذ
عبد الرحمن بن عوف	مع	سعد بن الربيع
الزبير بن العوّام	مع	سلمة بن سلامة
طلحة بن عبيد الله	مع	كعب بن مالك
سعيد بن زيد	مع	أبيّ بن كعب
مصعب بن عمير	مع	أبي أيوب
أبو حذيفة بن عتبة	مع	عبّاد بن بشر
عمّار بن ياسر	مع	حذيفة بن اليمان
سلمان الفارسيّ	مع	أبي الدرداء حكيم الأمة
منذر بن عمرو	مع	أبي ذر الغفاريّ

رضي الله عنهم أجمعين[(٢)].

---

(١) ذكر البلاذري وابن سعد أن المؤاخاة شملت خمسة وأربعين من المهاجرين، وخمسة وأربعين من الأنصار، ويقال: إنه لم يبق من المهاجرين أحد إلا آخى بينه وبين أنصاري. (السيرة النبوية الصحيحة: ١/ ٢٤٤)

(٢) واختار ابن تيمية وابن القيم أن المؤاخاة كانت بين مهاجر وأنصاري، ولذا قالوا: لايصحّ القول بأن النبيّ ﷺ عقد المؤاخاة بينه وبين عليّ، لأن عليّا أيضًا كان من المهاجرين.

ولكن العلماء الآخرين لم يقبلوا هذا الرأي، وذكروا أمثلة للعقد الواقع بين المهاجرين الاثنين، =

ولا يوجد في العالم كلّه نموذج أمثل لمثل هذه المؤاخاة فيما سوى الإسلام(١).

=

وهذا المذهب هو الراجح.

وقد جعل النبي ﷺ عليّا أخاه في المؤاخاة التي عقدها لأمرين:

(أوّلا): إن عليّا كان أخاه في القرابة.

(ثانيا): ولو آخى ﷺ بينه وبين رجل، ليس أخا له في القرابة، لأحدث ذلك مشكلاتٍ جديدة فيما بعد.

[ومما يلاحظ على هذه القائمة أن ذكر المؤلّف فيها المؤاخاة بين أبي الدرداء وسلمان الفارسي، مع أن سلمان أسلم بين أحد، والخندق. وكذلك ذكر فيها المؤاخاة بين جعفر بن أبي طالب ومعاذ بن جبل، مع أن جعفرًا قدم من الحبشة في فتح خيبر سنة سبع من الهجرة.

وإذا اعتبرنا أن المؤاخاة مستمرة إلا ما يتعلق بحق التوارث، الذي أبطل بعد «بدر»، فلا موجب لهذا الاعتراض والإنكار الذي أبداه المؤرخون تجاه هذه الروايات...

وأخيرًا: فإن المؤاخاة التي شرعت بين المؤمنين باقية، لم تنسخ سوى ما يترتب عليها من توارث، فإنه منسوخ، وبوسع المؤمنين في كل عصر، أن يتآخوا بينهم على المواساة، والارتفاق والنصيحة، ويترتب على مؤاخاتهم حقوق أخصّ من المؤاخاة العامة بين المؤمنين. (السيرة النبوية الصحيحة: ١/ ٢٤٧-٢٤٨) (صلاح)]

(١) لا شك أن المرء يقف مبهورًا أمام هذه الصور الرائعة من الأخوة المتينة والإيثار المتبادل، الذي لا نشهد له مثيلا من تواريخ الأمم الأخرى. (السيرة الصحيحة: ١/ ٢٤٥)

وبهذه المؤاخاة المثلى قد فرغ الرسول من إصلاح الأوضاع الداخلية، ونشر الأمن والسلام في ربوع الدولة الإسلامية الناشئة. (قراءة جديدة: ١٤٩) (صلاح)

الأذان

بدأ الأذان في السنة الثانية من الهجرة، وقد شعروا بضرورته حتّى يصلّي الناس بجماعة، واستشار رسول الله ﷺ الناس حتى يدلّوه على طريقه.

فذكر بعضهم «البوق»، فكرهه من أجل اليهود.

ثم ذكروا «الناقوس»، فكرهه من أجل النصارى.

وذكروا النار فكرهه من أجل المجوس.

ثم أري النداء تلك الليلة رجل من الأنصار، يقال له: عبد الله بن زيد وعمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فجاء كلّ منهما، وذكر كلمات الأذان التي يؤذّن بها الآن.(١)

فقال النبي ﷺ: إنها لرؤيا حق إن شاء الله.(٢)

وكلمات الأذان هذا تحقق رغبة النبي ﷺ، التي يستهدفها دائما في تشريع الأحكام.(٣)

---

(١) كلمات الأذان كلّها تنصّ على كبرياء الله تعالى والشهادة برسالة نبيه ﷺ، والانضواء تحت لواء الصلاة والفلاح، وإعلان السيادة لله تعالى وحده في دولة الإسلام. (صلاح)

(٢) راجع تفصيل واقعة الأذان في السنن وغيرها.

وقد رواه أبوداود وابن ماجة عن عبد الله بن زيد بن عبد ربه، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٤٩٩)، وحسنه في صحيح ابن ماجة (٥٨٦).

وفي آخر الحديث قال عبدالله بن زيد: فقمت مع بلال، فجعلتُ ألقيه عليه، ويؤذن به. قال: فسمع ذلك عمر بن الخطاب، وهو في بيته، فخرج يجر رداءه، ويقول: والذي بعثك بالحق يا رسول الله! لقد رأيت مثل ما رأى، فقال رسول الله ﷺ: «فلله الحمد». (واللفظ لأبي داود) (صلاح)

(٣) **قال ولي الله الدهلوي (-١١٧٦هـ):**

«هذه القصة دليل واضح على أن الْأَحكَام إنما شرعت لأجل الْمَصالح، وأَن للاجتهاد فيها مدخلًا، وأَن التيسير أصل أصيل، وأَن مُخالفَة أَقوام تمادَوْا في ضلالتهم فِيمَا يكون من شعائر الدّين مطلوب، وأَن غير النَّبِي ﷺ قد يطلع بالمنام أَو النفث في الروع على مراد الحق، لكن لا يكلف الناس به ولا تنقطع الشبهة حتى يقرره النَّبِي ﷺ». (حجة الله البالغة: ١/ ٣٥٣). (صلاح)

والأذان هو طريق الإعلام السهل الساذج، الذي كان لا بدّ منه للدين العالميّ أن يكون كذلك، وهو في الحقيقة إعلان لمبادئ الإسلام وإذاعتها، وبذلك يوصل المسلمون أصولهم إلى كل قرية وسكانها، ويخبرونهم بطريق الفلاح والنجاة.

ولا يبلغ هذا المبلغ في الإعلان توزيع النشرات، وكلمات الترنيمات والأناشيد الدينية في الاجتماع المنعقد في المدن. والأذان يبرهن على أنّ الإسلام فضّل الصوت الإنسانيّ على الناقوس والمعدن، وذلك أيضا من أساليب القضاء على الوثنية، وتأييد التوحيد ودعمه.(١)

---

(١) «اقتضت الحكمة الإلهية ألا يكون الأذان صرف إعلام وتنبيه، بل يضم مع ذلك من شعائر الدين بحيث يكون النداء به على رءوس الخامل والنبيه تنويها بالدين، ويكون قبوله من القوم آية انقيادهم لدين الله، فوجب أن يكون مركبا من ذكر الله ومن الشهادتين والدعوة إلى الصلاة ليكون مصرحا بما أريد به». («حجة الله البالغة»: ١/ ٣٥٣). (صلاح)

إسلام سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١)

أسلم سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في السنة الثانية من الهجرة، وكان من أهل أصفهان، وكانت ديانته القديمة تأمر بعبادة الفرس الأبلق.

خرج يلتمس الدين الحق، ووصل إلى أرض العرب، فأخذه أحد تجّار العرب، وباعه عبدًا من رجل يهوديّ، فدخل بعد بحث وتفكر في اليهودية، وعاش مع صاحبه اليهودي فترة من الزمن، وأنه ذكر له صفات نبيّ قرب ظهوره.

ولما رأى سلمان النبيّ ﷺ في المدينة، عرفه بنعوته التي سمعها من سيّده، فأسلم، وله (٢٢٧) سنة، وسُمّي باكورة ثمار فارس.

---

(١) هو: أبو عبد الله الفارسي، سلمان الإسلام وسلمان الخير.

خصّه المؤلف بالذكر، لأنه نموذج نادر في البحث عن الحق، حتى وصل إليه بعد جهد جهيد. وفي سياق قصته في إسلامه اختلاف يتعسّر الجمع فيه. وكذلك هناك اختلاف كثير في سنه، حتى قال أهل العلم: «عاش سلمان ثلاث مئة سنة، وأما مئتان وخمسون فلا يشكون فيها». (راجع ترجمته في الإصابة: ٣/ ١١٣ رقم ٣٣٣٠) (صلاح)

تحويل القبلة

كان من طريقة النبي ﷺ موافقة أهل الكتاب في الأمور، التي لم يؤمر فيها بأمر من الله تعالى.[١]

وكانت الصلاة فرضت عليه أوّل النبوّة، ولكن لم يرد حكم في القبلة، فاتّخذ ﷺ بيت المقدس قبلة أثناء إقامته بمكة ثلاثة عشر عامًا، وبعد وصوله إلى المدينة أيضًا.

وفي السنة الثانية من الهجرة (أو بعد سبعة عشر شهرا)[٢] أنزل الله تعالى في ذلك، ووافق ذلك الحكم رغبة النبي ﷺ، فإنه ﷺ كان يعجبه[٣] التوجّه إلى القبلة، التي بناها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهي تسمّى بالكعبة لكعبها، وببيت الله لاختصاصها بعبادة الله، وبالمسجد الحرام لعظمتها وحرمتها.[٤]

ما يستفاد من تحويل القبلة:

والحكم الذي أنزله الله تعالى في القرآن بالنسبة لتحويل القبلة، يتضمّن ما يأتي:

١ - إن لله نسبة إلى جميع الجهات على السواء، قال تعالى:

---

(١) تيسير الأصول ج ١ في باب السلم والفرق، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) ابن خلدون (٢/ ١٩). [أخرج البخاري عن حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ كان أوّل ما قدم المدينة، نزل على أجداده، أو قال: أخواله من الأنصار، وأنه صلى قبل بيت المقدس ستة عشر شهرًا، أو سبعة عشر شهرًا، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت.... (البخاري بأرقام ٤٠، ٣٩٩، ٤٤٨٦، ٧٢٥٢) (صلاح)]

(٣) كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ...﴾ [البقرة: ١٤٤] (صلاح).

(٤) «اقتضت الحكمة الإلهية أن يجعل استقبال قبلة ما شرطا في الصلاة في جميع الشرائع. وكان إبراهيم وإسمعيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، ومن تدين بدينهما يستقبلون الكعبة، وكان إسرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ وبنوه يستقبلون بيت المقدّس. هذا هو الأصل المسلم في الشرائع». («حجة الله البالغة»: ١/ ٣٦٢). (صلاح)

﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]

وقال ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: ١١٥]

وقال ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٤٨]

٢- وإن اتخاذ الجهة للعبادة معروف عند الناس، قال تعالى:

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: ١٤٨]

٣- وإن التوجّه إلى جهة، لا صلة له بأصل العبادة، قال تعالى:

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ١٧٧]

٤- وإن تحديد القبلة يعني جعل علامة مميزة لأتباع الرسول ﷺ، قال تعالى:

﴿لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]

من أسباب بقاء بيت المقدس قبلة طيلة إقامته بمكّة:

من أسباب توجه النبي ﷺ إلى بيت المقدس طيلة إقامته بمكة، أن مشركي مكّة، ما كانوا يحترمون بيت المقدس، وقد اتخذوا الكعبة معبدهم الأكبر، ولذا كانت العلامة المميّزة لقبول الإسلام، وترك الشرك في مكّة، هي: التوجّه إلى بيت المقدس في الصلاة.

من أسباب تحويل القبلة إلى مكة:

ولما أتى النبي ﷺ المدينة، رأى أن معظم سكّانه من اليهود والنصارى، ولم يكن المسجد الحرام معظّما لديهم، بل كانوا يرون بيت المقدس بيت إيل أو كليسيا، ولذا كانت العلامة المميّزة لقبول الإسلام في المدينة وترك الدين الموروث، هي: التوجّه إلى المسجد الحرام بمكة.(١)

---

(١) ذكر ولي الله الدهلوي: أن استقبال بيت المقدس بعد هجرته ﷺ إلى المدينة أيضًا كان لتأليف الأوس والخزرج واليهود، مع أن هذا الحي من الأنصار كانوا أهل وثن، ولكنهم كانوا أخضع شيء لعلوم اليهود، كما بينه ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ...﴾ [البقرة: ٢٢٣]. ثم أحكم الله آياته وأطلع نبيه على ما هو أوفق للمصلحة، فحصل تحويل القبلة. («حجة الله البالغة»: ١/ ٣٦٢ بإختصار). (صلاح)

الكعبة قبلة المسلمين إلى أبد الآباد، لسبقها الزمني وعظمتها التأريخية:

وبالأمر الإلهي صار هذا المسجد قبلة المسلمين إلى الأبد، وقد بين الله تعالى سبب جعل هذا المسجد قبلة، فقال:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران: ٩٦]

أي جعل هذا البيت قبلة لسبقه الزمني، وعظمته التأريخية، وقال:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

أي: بناه إبراهيم، وهو الجدّ الأعلى لليهود والنصارى والمسلمين، وإذ جعل مسجد جدّ هذه الأمم العظيمة قبلة، فكأن ذلك دعوة للوحدة الروحيّة بين هذه الأمم الثلاث، بتذكيرها الوحدة النسبية والجسدية، وإبلاغ لرسالة الوحدة والانسجام بينها:

﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨].

أدلّة السبق الزمني للكعبة، وعظمتها

- **بناء ها قبل يروشليم:**

وإني على يقينٍ أن لا يستطيع دين من الأديان إنكار السبق الزمني والعظمة التأريخية للكعبة. وقد اتفق اليهود والنصارى على أن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ أقام أساس يروشليم، وبناه سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وعلى هذا سبق بناء الكعبة بناء يروشليم بنحو تسع مئة وإحدى وعشرين سنة، وأنها بنيت قبل المسيح بنحو ألف وتسع مائة وإحدى وعشرين سنة.

- **بناءها قبل أي معبد من المعابد الهندوسية:**

وقد جمع المستر آر، سي، دت (R. C. Datt) في كتابه (Civilization of Ancient India) (حضارة الهند القديمة) شهادات عدد من العلماء، ثم استنتج منها أن الدور الأوّل لحضارة الهند -وهو بداية عصر الفيد- يسبق المسيح بنحو ما بين ألف وأربعمائة سنة، أو ألفي سنة.

وكذلك يثبت أنه لم يكن هناك معبد للديانة الآرية في ذلك الحين[١].

• الأناجيل تتحدّث عن سبق بناء الكعبة وفضلها وعظمتها:

يظهر من مجموعة الأناجيل، أن الله تعالى كان قد أخبر أهل الكتاب بداية بأن المسجد الذي يتّخذ قبلة في آخر الأمر، يكون أرفع شأنًا من الأوّل.

وإليكم بعض الإحالات على سبيل المثال:

أولا: يراجع الباب الستّون من كتاب أشعياء، فكل ما ورد فيه هو كلمات ثناء على مكّة، وخاصة ما يلي من الآيات:

٥- «حينئذ تنظرين وتنيرين ويخفق قلبك ويتّسع، لأنه تتحوّل إليك ثروة البحر، ويأتي إليك غنى الأمم.

٦- تغطيك كثرة الجمال، بكران مديان وعيفة كلّها تأتي من شبا، تحمل ذهبا ولبانا، وتبشّر بتسابيح الربّ.

٧- كل غنم قيدار تجتمع إليك، كباش نبايوت تخدمك، تصعد مقبولة على مذبحي، وأزين بيت جمالي».

وينبغي أن يعلم أن «بيت جمال» ترجمة لفظيّة عن «البيت الحرام»، واسم «الكعبة» هذا، ورد في القرآن الكريم، وهذا يُصدّق الصحف السابقة، ومعنى تزين هذا البيت، جعله قبلة.

ومما يوضّح أن المراد ببيت جمال هو «الكعبة» لا موضعا آخر، هو أن الآيتان: السادسة والسابعة تذكران اجتماع أهل مديان وعيفا وسبا وقيدار وبنايوت، وتقديمهم القرابين، وهؤلاء الخمسة أبناء إبراهيم أو أحفاده، وهم سكنوا في الجزيرة العربيّة، ولم تدخل قبائل من نسلهم إلا في دين محمد ﷺ، ولم يكونوا هودًا ولا نصارى، وهم قدّموا قرابينهم مجتمعين في مذبح واحد، هو «منى».

فأسماء الأمم، وعنوان منى، ودخول العرب قاطبة في الإسلام، وحضورهم

---

(١) الترجمة الأردية إي. دي. أحمد الجيفوري (A.D. Ahmad) (ص٧-٨).

جميعا إلى النبي ﷺ في حجة الوداع، أحداث تأريخية تصدّق معنى الآيات السابقة يقينًا.

ثانيا: ورد في كتاب النبيّ حجي (٥٢٠ ق. م.) الإصحاح الثاني (٢/ ٩)، ما يلي:

«مجد هذا البيت الأخير يكون أعظم من مجد الأوّل، قال ربّ الجنود: وفي هذا المكان أعطي السلام، (الأمن أو السلم أو الإسلام)»[1].

ثالثا: ورد في رؤيا يوحنّا اللاهوتي في الإصحاح الثالث، ما يلي:

«من يغلب فسأجعله عمودا في هيكل إلهي، ولا يعود يخرج إلى خارج، وأكتب عليه اسم إلهي، واسم مدينة إلهي «أورشليم» الجديدة النازلة من السماء من عند إلهي واسمي الجديد، من له أذن فليسمع ما يقوله الروح للكنائس».

ذكر «يوحنا» ههنا «أورشليم الجديدة» و «الاسم الجديد».

فالأول هو «الكعبة»، واسم الله الجديد، الذي جعله العرب أيضا، مع كونهم أهل العربية هو «الرحمن»[2]. وقد أبرزه الإسلام.

ونزول أورشليم من السماء: يعني أن حكم اتخاذ الكعبة قبلة ينزل من السماء، ويشير إلى ذلك قوله تعالى:

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ﴾ [البقرة: ١٤٤]

---

(١) وردت في الطبعة العربية للعهد القديم (ص١٣٣٩) طبعة أكسفورد عام (١٨٧١م) كلمة «السلام» وفي الأردية (طبعة مرزافور عام١٨٧٠م) «سلامتي» وهو «السلام»، ولذا من حقّ المسلمين أن يترجموها بالإسلام، فإنهم يردّدون لفظ «السلام» بعد كل صلاة: في هذا الدعاء: «اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام». [رواه أحمد و مسلم وأهل السنن عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ: «كان إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا، ثم قال: «اللهم أنت السلام...». وهو صحيح (صحيح الجامع الصغير للألباني رقم: ٤٦٨) (صلاح)]

(٢) كان العرب يتسخطون كثيرا من اسم «الرحمن»، الذي نزل به القرآن، فقد جاء في القرآن: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠]، وقال: ﴿وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنبياء: ٣٦]، وكان سهيل قال يوم صلح الحديبية: «وأما الرحمن فو الله لا نعرفه».

رابعا: ورد في سفر المزامير (٨٤) ما يلي:

(٤) «طوبى للساكنين في بيتك أبدا يسبحونك».

(٥) «طوبى لأناس عزّهم بك، طرق بيتك في قلوبهم».

(٦) «عابرين في وادي البكاء يصيّرونه ينبوعًا» أيضا «ببركات يغطون مورة».

(الكتاب المقدّس (الطبعة العربية) على نفقة الجمعية البريطانية والأجنبيّة، آكسفورد ١٨٧١م)

(وذكر المصنّف الترجمة العربية ثم الأرديّة، ثم الإنجليزية للعبارات المذكورة، ثم قال):

بهذه العبارة المذكورة باللغات الثلاث، وهي من طبعات نشرتها جمعية تبشيرية واحدة، يثبت ما يأتي دون أيّ خلاف:

(١) الآية الرابعة توضح أن لله بيتا، وأهله مباركون وعلامتهم أنهم يسبّحون الله دائما.

(٢) وتقول الآية الخامسة: إن مصدر عزّتهم وقوّتهم هو الله تعالى، لا غيره من الأسباب الدنيوية.

(٣) وحسب الآية السادسة وجدت كلمة «بكا» في اللغات الثلاث (العربية، والإنجليزية، والأردية)، وهذا يدلّ على أنها معرفة لم تتغير في أي من اللغات.

(٤) وردت كلمة «الوادي» بالعربيّة والأردية، وكلمة «Valley» بالإنجليزية، قبل كلمة «البكا»، وقد كتبت بالإنجليزية بحرف «B» الكبيرة.

(٥) ويظهر من هذه العبارة باللغات الثلاث، أنهم إذ يعبرون وادي[1] البكا، يصيّرون فيه ينبوعا. (أي يبنون فيه بئرا).

و إليكم الآن الأدلّة على ما أسلفنا من الأمور:

١- ساكنو البيت المذكورون في الآية الرابعة هم إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ وأبناؤه، وقد

---

(١) ورد في سيرة ابن هشام (١/ ١١٤): أن «بكة» اسم لبطن مكّة؛ لأنهم يتباكون فيها. وقيل: إنها ما سمّيت ببكة إلا أنها كانت تبك أعناق الجبابرة، إذا أحدثوا فيها شيئًا.

ورد في القرآن الكريم دعاء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

٢- هذا الوادي الذي وصف في الآية السابقة، بأنها غير ذي زرع، قد ورد اسمه في القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ [آل عمران: ٩٦]

وهكذا اتفق القرآن والزبور على أن اسم مكّة عند الله «بكة».

٣- وبقي الآن إثبات بناء البئر في «بكا»:

قد ورد في صحيح البخاريّ (كتاب الأنبياء) حديث ابن عباس عن مجيء إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ ووالدته إلى هذا المكان، وإقامتها فيه، وقد جاء في فقرته(٢٠):

«فلما بلغت الوادي سعت».

ثم جاء في الفقرة (٢٩):

«فإذا جبريل، قال بعقبه هكذا، وغمز عقبه على الأرض، قال: فانبثق الماء، فدهشت أم إسماعيل، فجعلت تحفز»(١).

وهكذا يرى القارئ أن عبارة «زبور» أيضًا، قد تضمنت اسم بكّة، واتّضح أيضًا أن اسم مسجده بيت الله، وتحقّق وجود «بئر» هناك، وثبت كون سكانها مباركين ذاكرين الله دائمًا.

وهذا دليل كاف على ما ذكرناه من أمر تحويل القبلة.

وأودّ بعد ذلك أن أشير إلى أنّ معنى الآية الخامسة بالعربية أوضح وأبين من معناها بالأردية والإنجليزية.

- فقد ورد بالعربية «طُرق بيتك في قلوبهم»، ولكن قال بالأردية ما معناه: «في قلوبهم طريقك»، وكذلك بالإنجليزية: ما معناه «طريقهم في قلوبهم أي أنهم في الترجمتين حذفوا كلمة «البيت» (In Whose Heart Are The Ways Of Them)»

---

(١) راجع القصّة بأكملها في البخاري رقم (٣٣٦٥) مفصّلا. (صلاح)

وجاء في القرآن الكريم:

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: ٣٧]

- **والأمر الثاني**: أن الجزء الأوّل من الآية الخامسة بالعربية ورد كما يلي:

«طوبى لأناس عزّهم بك»: أي وردت كلمة «أناس» بالجمع، وكذلك ضمير «هم» في «عزّهم». ولكن ورد بالأرديّة كلمة «إنسان» مفردًا، وأعاد عليه ضمير الفرد، ونفس التعبير جاء في الإنجليزية فاستخدم (Man)، واستخدم ضمير (Whose) للمفرد. وهذا يثبت صحة الترجمة العربيّة، وخطأ الترجمتين: الأردية والإنجليزية.

وجملة «**طوبى لأناس عزّهم بك**» في التوراة العربية هي في الأصل صفة للفقرة الرابعة: «طوبى للساكنين في بيتك».

والحاصل: أن الموضع المذكور من «التوراة» تحقق به إثبات بكة، وبيت الله، وزمزم، وأبناء إسماعيل بوضوح، فلله الحمد.

الكعبة هي التي كانت تستحق أن تكون قبلة للمسلمين:

والحقيقة أن الله تعالى قد أنعم علينا، إذ جعل بيته في وادي بكة قبلة لنا، دون أورشليم، فإن الدين (الإسلام) الذي قال الله تعالى في حقّه: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الفتح: ٢٨]، يناسب أن تكون قبلته هذا البيت، لا البيت الذي حطمه كلّ فاتح كافر، وخرّبه ثم حوّله إلى مبرز، واسترقّ سكانه مرّة بعد مرّة، وأسرهم ونفاهم.

وفي الآيتين السابقتين: (٤،٥) من «الزبور»: قد بارك الله سكّان بيت الله بوادي بكّة، وقد ظل أثر هذه المباركة باقيا منذ آلاف السنين، أن هذه الأمة بقيت حرّة، وهذا البيت في هذا الوادي لم تسيطر عليه أمة أخرى.

الزكاة

من أصعب المسائل أعقدها في علم الاقتصاد أو التمدّن أو الاقتصاد السياسي هو: كيف يقام التوازن بين أفراد الأمة من ناحية الفقر والغنى، ومنذ عهد الحكيم «سولون»(١) إلى اليوم لم يوفّق أيّ عقل بشريّ لحلّ هذه المعضلة.

فرق ومناهج نشأت لحلّ المعضلات الاقتصادية:

وقد نشأت في أوربا فرقة العدمية (Nihilist)، وهي تهدف إلى تحقيق المساواة بين أفراد الشعب للتصرف في جميع الممتلكات والاستحقاقات سواء بسواء.

ونشأت فرقة الشيوعية (Socialist)، وهي تهدف إلى القضاء على الملكية الفردية في وسائل المعيشة والاقتصاد، وتحويلها إلى ملكية الشعب.

ونشأت فرقة الوطنيين (Nationalist)، وهي تهدف إلى تحرير الأراضي السكنية والزراعية، وتملكها وإنتاجها، من السيطرة الفردية.

وقد نشأت هذه الفرق كلّها لحلّ هذه المعضلة الاقتصادية. ورفع حقّ التمليك عن الممتلكات مستحيل بحيث لم يطبق في الدنيا إلى اليوم، ولذا أصدر القرآن قراره في ذلك مسبقا.

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٧١﴾ [النحل: ٧١]

---

(١) سولون أو صولن (Solon): الشاعر والمشرّع اليوناني، الذي عاش بين القرنين السادس والسابع قبل الميلاد (٥٦٠-٦٤٠ ق.م). وهو من حكماء اليونان السبعة، وقد انتخبه أهل «أثينا» حاكمًا لهم. وقام بإصلاحات كثيرة، منها: ألغى نظام الرقّ...، وكسر شوكة النبلاء وتعامل معهم كما يتعامل مع الفقراء سواء بسواء. (صلاح)

الحلّ الإسلامي هو المطروح لحلّ هذه المعضلة:

إن الإسلام، الذي يريد أن يكون المسلمون في أعلى قائمة الأمم المتحضرة في العالم، قد أولى هذه المسألة عناية بالغة، وحلّها حلّا نهائيًا إلى الأبد، وهذا الحلّ يعرف بفرض «الزكاة».

فرضت الزكاة في الثانية من الهجرة، وكان قلب النبي ﷺ الرحيم مواسيا للمساكين ومتعاطفًا مع الفقراء البائسين رحيمًا بالمتألمين، وقد حثّ الإسلام من بداية أمره، على مؤازرة هذه الطبقة الكادحة، حيث إن مؤاساتهم أنيس الفقراء.

وانطلاقا من هذه التوجيهات كان المسلمون يقومون بالشيء الكثير نحو الفقراء والمساكين، ومع ذلك لم يكن هناك قانون وأصل يجب العمل به في هذا الموضوع، وما كان الأغنياء يعملون في هذا الجانب، كان نابعًا بمقتضى جودهم وسخائهم.

ثم جعل الله تعالى زكاة الأموال فرضًا، وركنا ثالثا من أركان الإسلام (بعد الشهادة والصلاة). والزكاة في الحقيقة عبارة عن توظيف صفة المؤاساة والرأفة والرحمة، التي أودعها الله تعالى في فطرة الإنسان تجاه أبناء جنسه.

من فوائد الزكاة التي تعود على المزكّي:

وفائدة الزكاة للمزكي أن لايطغى حبّ المال على خلق الإنسان، وينجو الإنسان من غوائل البخل والإمساك.

وأنه يعتبر الفقراء والمساكين جزءا وفردًا لأمته، ولذا لا تحمله كثرة المال الكاثرة على الكبر والتعالي والغرور.

ومن فوائدها أيضا: أن طبقة الفقراء تستأنس به، وتنصح له، وينشأ فيها الإخلاص بالنسبة لثروته وماله، لأنهم يرون أن جزءا من هذا المال لهم، وهكذا تصبح ثروة الغنيّ المسلم بمثابة ثروة الشركة، التي يشترك فيها المساهمون بمستويات مختلفة.[1]

---

(١) يتبين من فرض الزكاة، أن الإسلام لم يجعل آصرة العقيدة وحدها أساس الارتباط بين الناس، بل جعل الحب المتبادل أيضًا أساس بنية المجتمع المدني، ودعم هذا الحبّ بالصلة والصدقة كما في =

من فوائد الزكاة التي تعود على الأمة:

وفائدة الزكاة للأمة أن تنعدم من وسطها ظاهرة التسوّل كلّيا.

وقد جعل الإسلام حقّ الفقراء في ثروة الأغنياء في الأموال النامية فقط، فلا يشقّ ذلك على الأغنياء، والأموال النامية هي التجارة، والزراعة، والمواشي من الغنم والضأن والإبل والبقر، والنقود، والمعادن والركاز.(١)

مصارف الزكاة الثمانية:

أما المستحقون لهذه الأموال فهم مذكورون في التنزيل:

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾ [التوبة: ٦٠]

ويظهر من مصارف الزكاة الثمانية: كم عنى الإسلام بقضاء حاجات الدولة والأمة والفرد، بأسلوب أمثل.(٢)

= الحديث: «تهادوا تحابّوا» (البخاري في «الأدب المفرد» وحسنه الألباني في «صحيح الأدب» (٤٦٢) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)

وهكذا يضع الغني أمواله في خدمة المجتمع، وسدّ الثغرات التي تظهر في بنائه الاقتصادي بسبب التفاوت في توزيع الثروة، فيخرج زكاة أمواله فريضة من الله، ويواسي المحتاجين بأمواله حتى إنهم ليفرحون إذا كثرت ثروته إذ تعود عليهم بالخير والمواساة. (السيرة النبوية الصحيحة: ١/ ٢٥٣ باختصار). (صلاح)

(١) الركاز: هو الدفين من الذهب والفضة الذي يوجد في بعض الخربات أو الصحارى، وفيه الخمس حالًا، يصرف في مصارف الزكاة، كما في حديث النبي ﷺ: «في الركاز الخمس» (البخاري ٢٣٥٥، ومسلم ١٧١٠ مطولًا عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ).

أما الأجناس الأخرى ومقادير الزكاة فيها فمحل تفصيلها كتب الفقه، فليراجع هناك لأنه خارج عن موضوع الكتاب. (صلاح)

(٢) لقد راعى الإسلام حاجات الناس على كل المستويات: فردا وأمة، ودولة، والحاجات كثيرة، ولكن العمدة فيها ثلاث: والمحتاجون: ضبطهم الشّارع بالفقراء والمساكِين وأبناء السبيل =

مصرف تحرير الرقاب:

وينبغي أن نفكّر في المصرف الخامس من هذه المصارف، حتى نعرف أن الدخل المجموعي للدولة الإسلامية قد وزّع بين ثمانية أصناف، وخصّ منها صنف لتحرير العبد المملوك.

والمطلعون على التأريخ يعرفون جيّدا، أن الرقّ قد عُرف في جميع الأمم والبلدان المتحضرة، كالصين، والهند، ومصر، وروما وإيران منذ آلاف السنين، ولم ينطق المسيح الرحيم بحرف ضدّ الرق، ولكن بولوس قد أكّد على دعم الرقّ، فهو يقول:

«أيها العبيد! أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة في بساطة قلوبكم كما للمسيح.»(١)

الإسلام ينادي لتحرير العبيد:

فالإسلام هو أوّل دين نادى لتحرير العبيد ونصرتهم، واتخذ لذلك عدة خطوات:

فأوّلا: جعل تحرير الرقبة من أصول البرّ:

﴿وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وثانيا: جعل تحرير الرقبة وسيلة للنجاة:

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣﴾ [البلد: ١١ – ١٣].

=

والغارمين في مصلحة أنفسهم.

والحفظة: وضبطهم بالغزاة والعاملين على الجبايات.

والثالث: مال يصرف إلى دفع الفتن الواقعة بين المسلمين أو الموقعة عليهم من غيرهم وذلك إما أن يكون بمواطأة ضعيف النية في الإسلام بالكفار أو برد الكافر عما يريد من المكيدة بالمال، ويجمع ذلك اسم المؤلفة قلوبهم، أو المشاجرات بين المسلمين، وهو الغارم في حمالة يتحملها. («حجة الله البالغة»: ٢/ ٨٠). (صلاح)

(١) **العهد الجديد:** رسالة بولس إلى أهل أفسس (٦/ ٥)، ويراجع الإصحاح السادس من رسالته إلى طيموتاوس [الرسالة الأولى (٦/ ١)]، والإصحاح الثاني من رسالته إلى طيطس (٢/ ٩)، والإصحاح الثاني من رسالته إلى بطرس الرسول [الرسالة الأولى].

وثالثا: جعل كفارة بعض الأخطاء والذنوب تحرير الرقبة، مثل قتل الخطأ، وهو يسمّيه القانون الإنجليزي قتلًا يستوجب العقاب، وله ثلاثة أحوال:

مواضع تحرير الرقبة في الكفّارات:

(أ) أن يكون القتيل مسلمًا.

(ب) أن يكون القتيل مسلمًا من قبيلة محاربة.

(ج) أن يكون القتيل غير مسلم من أهل العهد. [النساء: ٩٢]

وفي جميع هذه الأحوال يجب تحرير رقبة. [النساء: ٩٢]

(د) وكذلك تحرير الرقبة في كفارة اليمين. [المائدة: ٩٥]

(هـ) وفي كفارة الظهار. [المجادلة: ٣]

(و) وفي الإفطار في شهر رمضان تحرير رقبة.[١]

(ز) في ضرب السيد المبرح لخادمه تحرير رقبة.[٢]

وبعد هذا كله قد خصّ الإسلام ثُمن دخل الدولة الإسلامية بصفة دائمة لتحرير العبيد كما ذكر.

وقد أنفقت إنجلترا في القرن التاسع عشر الميلادي مئات الألوف من الروبيات على تحرير العبيد، وهذه مفخرة لاتجاريها فيها أية دولة أوربية أخرى، ولكنّ حكم الإسلام الربّاني قد خصّص لذلك قبل أربعة عشر قرنًا ثمن الدخل الكلّي للدولة، فهل لأحد من العقلاء أن ينكر هذا الفضل للإسلام؟!.

المصرف السادس: الغارمون والمدينون:

والمصرف السادس للزكاة أيضًا جدير بالتفكير، فنرى في هذا العصر أن كثيرا من البنوك قد أدّى إلى تحول مئات من الممتلكات من أيدي الفقراء إلى البنوك نفسها، وانتشر الفقر والبؤس في عامة الناس، سوى فئة مخصوصة منهم، وتعسّر الحصول على قرض غير

(١) البخاري (٧/ ٢٣٦).

(٢) البخاري (٧/ ٢٣٦)، مسلم (١/ ٧٨٢).

ربويّ، ولهذه الصعوبات احتال بعض الناس لتحليل الربا بشكل أو بآخر.

ولننظر إلى فضل الإسلام، كيف أنقذ المرهقين بالدَّين بوسيلة سليمة ناجحة!

سنّ قانون تحريم الربا من حقّ الإسلام وحده:

والحق أن الإسلام هو الذي يحقّ له سنّ قانون تحريم الربا، وذلك لأنه هو الذي اتخذ خطوات حكيمة لإنقاذ المدينين.(١)

ولنتذكر في الزكاة هذا الحديث أيضًا: يقول رسول الله ﷺ:

«إن هذه الصدقات من أوساخ الناس(٢)، وإنها لا تحلّ لمحمّد ولآل محمّد.»(٣)

ويعم حكم التحريم هذا، أسرة النبي ﷺ وأعمامه، وعماته، وأبناء الأعمام، وأبنائهم، ومواليهم، وذلك حتى لا يوجد أي نوع من شائبة الشكّ في ذات النبي ﷺ العالية.

---

(١) زد إلى ذلك أن النبي ﷺ شدّد أشد التشديد في بيان بشاعة أكل الربا، ليتنفر منه الناس فقال: «درهم ربًا يأكله الرجل -وهو يعلم- أشد عند الله من ستة وعشرين زنية». (أحمد: ٢٢٠٠٧) وغيره عن عبد الله بن حنظلة، ذكره الألباني في «صحيح الجامع» (٣٣٧٥)، وقال في «الصحيحة» (١٠٣٣) إسناده صحيح موقوفًا. (صلاح)

(٢) «إنما كانت أوساخًا لأنها تكفر الخطايا وتدفع البلاء، وتقع فداء عن ذلك». («حجة الله البالغة»: ٢/ ٨١). (صلاح)

(٣) مسلم (١/ ٧٥٤) [رقم ١٠٧٢] عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(فائدة): «إن المال الذي يأخذه الإنسان من غيره مبادلة عين أو نفع ولا يراد به احترام وجهه، فيه ذلّة ومهانة، ويكون لصاحب المال عليه فضل ومنة، وهو قوله ﷺ: «اليد العليا خير من اليد السفلى».

فلا جرم أن التكسب بهذا النوع شرّ وجوه المكاسب لا يليق بالمطهرين والمنوه بهم في الملة.

وفي هذا الحكم سر آخر وهو أنه ﷺ إن أخذها لنفسه، وجوز أخذها لخاصته والذين يكون نفعهم بمنزلة نفعه، كان مَظَنَّة أن يظن الظانون، ويقول القائلون في حقه ما ليس بحق. فأراد أن يسد هذا الباب بالكلية». («حجة الله البالغة»: ٢/ ٨١). (صلاح)

صوم رمضان (سنة ٢هـ)

كُتب صوم رمضان[١] في السنة الثانية من الهجرة، فصار صوم هذا الشهر كاملًا[٢] ركنًا رابعا من أركان الإسلام الخمسة.

من فوائد الصيام:

(١) وهذا الصوم يزيد الصائم صحة.

(٢) ويشعر الأغنياء بحالة الفقراء في صورة عملية.

(٣) ويقوّي مبدأ المساواة بين أفراد الأمة حيث يُساوي الأغنياء والفقراء في تحمّل آلام الجوع والعطش.

- ويقوّي القوّة الملكية، ويضعف القوّة الحيوانية.

- وبتصريح من القرآن الكريم، يرسخ في الإنسان قوّة التقوى، يقول تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البقرة: ١٨٣]

---

(١) من حكمة اختيار الشهر المعين للصيام أنه: إذا وقع التصدي لتشريع عام وإصلاح جماهير النَّاس وطوائف العرب والعجم وجب ألا يخير في ذلك الشَّهر ليختار كل واحد شهرا يسهل عليه صومه، لأن في ذلك فتحا لباب الاعتذار والتسلل، وسدا لباب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإخمالا لما هو من أعظم طاعات الإسلام، وأيضًا فإن اجتماع طوائف عظيمة من المسلمين على شيء واحد في زمان واحد يرى بعضهم بعضا، معونة لهم على الفعل، ميسر عليهم، ومشجع إياهم، وأيضًا فإن اجتماعهم هذا معد لنزول البركات الملكية على خاصتهم وعامتهم وأدنى أن ينعكس أنوار كملهم على من دونهم، وتحيط دعوتهم من وراءهم. («حجة الله البالغة»: ٢/ ٨٨). (صلاح)

(٢) من حكمة اختيار الشهر الكامل للصائم: ضبط الصوم بالإمساك عن الطعام والشراب والجماع يوما كاملا إلى شهر كامل فإن ما دون اليوم هو من باب تأخير الغداء، وإمساك الليل معتاد لا يجدون له بالا، والأسبوع والأسبوعان مدة يسيرة لا تؤثر، والشهران تغور فيهما الأعين، وتنفه النفس، وقد شاهدنا ذلك مرات لا تحصى. («حجة الله البالغة»: ٢/ ٨٨). (صلاح)

استشعار الصائم بعظمة الله في السرّ والعلن:

ومظهر هذه الصفة، أن الصائم لا يشرب الماء، ولو اشتدّ به العطش، وخلا في بيت ليس فيه أحد، ومعه ماء بارد عذب.

ولا يتناول طعاما مع اشتداد الجوع به، وشعور الضعف من أجله، وليس هناك أحد يطلع عليه.

وزوجته الحبيبة معه، وعواطف الحبّ تحمله على الاستمتاع بجمالها، وكلاهما معجب بالآخر، ولكن الصوم منعه من إتيانها فامتنع.(١)

والسبب هو: أن احترام حكم الله تعالى وعظمته، قد تمكنت من قلبه بحيث لاتغلبه عاطفت ما، والصوم هو السبب في استشعار الصائم بعظمة الله وجلاله وكبريائه.(٢)

ومن الظاهر: أن مؤمنا لو ترك الحلال الطيب لأجل حكم الله تعالى، وتعوّد على التخلّي عن الأهواء، فإنه يترك الحرام والفواحش بنصّ الحكم بطريق أولى، وهذا هو السمو الخلقي الذي يريد الإسلام إنشاءه وترسيخه في الصائم، ولذلك ورد في الحديث الشريف:

«من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه.»(٣)

وورد في حديث آخر:

«إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابّه أحد أو قاتله فليقل إني

---

(١) على هذا جعل الصائم صومه خالصًا لله تعالى، فجزاه الله تعالى على إخلاصه جزاء موفورًا كما في الحديث القدسي: «... الصوم لي وأنا أجزي به يدع شهوته وطعامه لأجلي.» (البخاري: ٧٤٩٢، ومسلم: ١١٥١ مطولًا باختلاف يسير). (صلاح)

(٢) وكذلك يستشعر بما سيحصل له من الفرحة، كما في الحديث: «للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحه عند لقاء ربه لخلوف فيه أطيب عند الله من ريح المسك.» (البخاري: ٧٤٩٢، ومسلم: ١١٥١ واللفظ له عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ). (صلاح)

(٣) البخاري (٢/ ٢٢٨). [رقم ١٩٠٣ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

امرؤ صائم.»[١]

حكمة اختيار صوم رمضان بالتوقيت القمريّ:

وشرع صوم رمضان بالتوقيت القمريّ، فإن نصف العالم إذا كان فيه الشتاء، كان في النصف الآخر صيف، والشهر القمريّ إذ يتغير فإنه يساوي بين مسلمي العالم جميعًا.

ولو جعل الصوم بالتوقيت الشمسي، لكان مسلمو نصف العالم دائمًا في راحة في الشتاء، ومسلمو النصف الآخر دائما في نصب وتعب لأجل الصيف، ولكان هذا منافيا، لمبادئ الدين العالمي.

إن الصوم ليس عسيرا، ولكن صاحب العاطفة الشهوانية، ومن تربّى في دعة وترف ورفاهية ويظنّ ذلك غاية الحياة، فإنه يستصعب الصوم يستعسره.[٢]

وفرضية الصوم في الإسلام، وجعله ركنا من أركانه، يدلّ على مدى عناية الإسلام بتقوية القوة الملكية والإيمانية، وإضعاف العواطف الشهوانية والجسمية.[٣]

---

(١) البخاري. [رقم ١٩٠٤، ومسلم رقم ١١٥١ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

(٢) قال المسيح: وأما أنت فمتى صمت، فادّهن رأسك واغسل وجهك لكي لاتظهر للناس صائما، بل لأبيك الذي في الخفاء، فأبوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانية. (إنجيل متى ٦/ ١٧-١٨).

(٣) «لما كانت البهيمة الشديدة مانعة عن ظهور أحكام الملكية، وجب الاعتناء بقهرها، ولما كان سبب شدّتها هو الأكل، والشرب والانهماك في اللذات الشهوانية، وجب أن يكون طريق القهر تقليل هذه الأسباب.» («حجة الله البالغة»: ٢/ ٨٦). (صلاح)

تحريم الخمر[١] (سنة ٤هـ)

من بركات السنة الرابعة للهجرة: إعلان تحريم الخمر فيها، يقول أنس:

بينما أنا أدير الكأس على أبي طلحة وأبي عبيدة بن الجراح وأبي دجانة ومعاذ بن جبل وسهيل بن بيضاء حتى مالت رؤوسهم من خليط بسر وتمر، فسمعت مناديًا ينادي: ألا إن الخمر قد حرمت.

قال: فقال أبو طلحة: اخرج، فأهرقها، فأهرقتها، فجرت في سكك المدينة.[٢]

وقد نشطت اليوم في مختلف دول العالم جمعيات لمكافحة المخدرات والخمر، فتبذل أقصى جهودها في ذلك، وهذه الأمم جميعها مدينة للإسلام، فإنه هو الدين الذي حرّم قليلًا من الخمر وكثيرها.[٣]

---

(١) «لا ريب أن إزالة العقل بتناول المسكر فيه تردّى النفس في ورطة البهيمية، وتغيير خلق الله حيث أفسد عقله الذي خص الله به نوع الإنسان، وإضاعة المال، والتعرض لهيئات منكرة يضحك منها الصبيان. قد جمع الله تعالى كل هذه المعاني تصريحا أو تلويحا في قوله تعالى:
﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝﴾ [المائدة: ٩١].
ومساوىء الخمر تفوق منافعها بمراحل، وقد علمنا الله تعالى ذلك حيث قال:
﴿...فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾ [البقرة: ٢١٩].
وشريعتنا القويمة التي هي الغاية في سياسة الأمة، وسد الذرائع نظرت إلى أن قليل الخمر يدعو إلى كثيرها، وإن فتح باب الرخصة في بعضها لم تنتظم السياسة الملية أصلًا، فنزل التحريم إلى نوع الخمر قليلها وكثيرها.» («حجة الله البالغة»: ٢/ ٣٤٤-٣٤٥ باختصار). (صلاح)

(٢) راجع صحيح البخاري رقم (٢٤٦٤)، ومسلم رقم (١٩٨٠) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. (صلاح)

(٣) هذا تحت القاعدة المثلى التي ذكرها النبي ﷺ، فقال: «ما أسكر كثيره فقليله حرام.» (رواه أبو داود وغيره من أهل السنن، وذكره الألباني في صحيح أبي داود (٣٦٨١) عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا). (صلاح)

إن النبي ﷺ سمّى الخمرة «أم الخبائث».[(١)] والآثار السيئة التي تترتب بها على جسم الإنسان وسلوكه وأخلاقه، وعلى نظام البلاد وأمنه وعادات القبائل، وطاعة الجيش وقوّته، توضّح جيدا صحّة هذه التسمية، ومدى البلاغة فيها.

وغمطا للحق وإخفاء لمصداقية الإسلام يقول البعض: إن الإسلام يُغري النّاس بالدخول فيه بتحريك العواطف والنزعات الشهوانية.

وعلى هذا القائل، وأمثاله، أن يفكّروا، أن الدين الذي يحرّم الخمر، كم يكون شديدا في محاربته للميول الشهوانية:

والدين الذي تحرّم فيه الخمر نفسها، كم تتحرّج الطبائع المترفة للدخول فيه؟!

(١) قال ﷺ: «الخمر أم الخبائث، فمن شربها لم تقبل صلاته أربعين يومًا، فإن مات وهي في بطنه مات ميتة جاهلية.» (الطبراني في الأوسط: ٣٦٦٧) وغيره عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، حسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٣٤٤)، والصحيحة (١٨٥٤). (صلاح)

ولادة الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (سنة ٤هـ)[(١)]

وفي شهر شعبان من السنة الرابعة ولد الإمام الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واستشهد في العاشر من محرّم عام ٦١هـ، في كربلا، مظلوما غاية الظلم[(٢)]، وقد برهنت شهادته على أن المسلمين المخلصين يجب عليهم أن لا يبالوا بالمال والنفس والجاه في سبيل حماية الصدق.

وقد ضرب الإمام الحسين في لقائه مع العدو نموذجا رائعا للصبر والثبات والرضا والتوكل، وإحقاق الحق واتباع الصدق، يصعب أن نجد له نظيرًا في تأريخ العالم، ولم يكن ذلك إلا بتربية النبي ﷺ وتوجيهه إياه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) سبط رسول الله ﷺ وريحانته (٤-٦١هـ). راجع ترجمته في «الإصابة» (٢/ ١٤) (صلاح).

(٢) لما أراد الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (وقال النبي ﷺ فيه وفي الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «هما ريحانتاي من الدنيا» كما في البخاري ٣٧٥٣) الخروج إلى العراق، على دعوة من أهله، منعه ابن عمر وابن عباس وجابر وأبو واقد الليثي.

وقال ابن المسيب: لو أنه لم يخرج لكان خيرا له رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولكنه لم يطع أحدا منهم وصمم السير إلى العراق وخذله أهله، هو استشهد مظلومًا في خلافة يزيد بن معاوية (٦٠-٦٣هـ) (و في ولاية عبيد الله بن زياد على العراق) بـ«كربلاء»، يوم عاشوراء سنة ٦١هـ. و في قتاله قصة فيها طول، لا يحتمل القلب ذكرها. واستشهد معه ستة عشر رجلا من آل بيته. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ورحمهم.(سير أعلام النبلاء للذهبي: ٣/ ٢٨٠-٢٩٧، تأريخ الخلفاء للسيوطي: ٣٤٠-٣٤٤)، و«التذكرة» لأبى الكلام آزاد (ص: ٣١٠) تعريب كاتب هذه السطور. (صلاح)

إسلام ثُمامة بن أُثال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (سنة ٥ هـ)[١]

روى البخاريّ عن أبي هريرة قال: «بعث النبي ﷺ خيلا قبل نجد، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال: له ثمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي ﷺ، فقال ما عندك يا ثمامة؟

فقال: عندي خير يا محمد، إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم، تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال، فسل منه ما شئت.

فترك حتى كان الغد، ثم قال له: ما عندك يا ثمامة؟

فقال: ما قلت لك، إن تنعم تنعم على شاكر.

فتركه حتى كان بعد الغد، فقال: ما عندك يا ثمامة؟

فقال: عندي ما قلت لك.

فقال: أطلقوا ثمامة.

فانطلق إلى نخل قريب من المسجد، فاغتسل، ثم دخل المسجد، فقال:

أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله، يا محمد! والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحبّ الوجوه إليّ، والله ما كان من دين أبغض إليّ من دينك، فأصبح دينُك أحبّ الدين إليّ، والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك، فأصبح بلدك أحبّ البلاد إليّ.

وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟

فبشّره رسول الله ﷺ، وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكّة قال له قائل: صبوتَ.

قال: لا، ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ﷺ، ولا والله! لا يأتيكم من اليمامة

---

(١) راجع ترجمته في «الإصابة» (١/ ٢١١). ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ إسلام ثمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ضمن أهم الأحداث، لأنه كان ذا نفوذ وسطوة، وأمر و نهي في قومه، وكان إسلامه نصرًا للمسلمين، وصدمة لكفّار مكّة. (صلاح)

حبّة حنطة، حتى يأذن فيها النبي ﷺ.[١]

ولما وصل ثمامة إلى بلده منع فورًا الحبوب، التي كانت تأتي إلى مكة، وأقلق امتناع الطعام أهل مكة جميعا، فالتجأوا إلى النبي ﷺ فكتب إلى ثمامة، فسمح بنقل الطعام. (وكان أهل مكة في هذه الأيام أشدّ الناس عداوة للنبي ﷺ).

وقد دلّت هذه القصّة على أن النبي ﷺ عفا عن الشخص الذي كان يرى هو نفسه بأنه واجب القتل[٢].

وإن النبيّ ﷺ كيف كان يؤثّر في الناس بأحواله الطيبة وأخلاقه العالية، حيث إن رجلا مثل ثمامة معاديا للنبي ﷺ ولمدينته ودينه يدخل في الإسلام بعد ثلاثة أيام برضاه ورغبته.

بل قد بلغت رأفته وملاطفته مع الناس مبلغًا، جعله لايمنع الطعام من الكفار، الذين أخرجوه من مكة، وبذلوا كل طاقاتهم في القضاء على الإسلام والمسلمين بغزوات بدر وأحد والأحزاب، ولم يحبّ النبي ﷺ أن يضيق عليهم حتى يضطرّهم للدخول في الإسلام، وما ذلك إلا دليل على أنه رحمة للعالمين كافةً.

---

(١) البخاري (٥/ ١١٧-١١٨) [رقم ٤٣٧٢ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

(٢) إن هذه الرواية لم تبين سبب أسر ثمامة رئيس نجد، ولكن المتيقن أن أسره جاء إثر جريمة ارتكبها، فإن ثمامة نفسه كان يرى أنه قد استوجب القتل، والنبي ﷺ حينما أفرج عنه دون شرط وعوض، ولم يأمره بتبديل الدين، فقد تأثر ثمامة بخلق النبي ﷺ، وإحسانه إليه، وتشرف بالهداية بعد ذلك برضاه ورغبته.

صلح الحديبية (سنة٦هـ)[١]

وفي ذي القعده سنة ست من الهجرة قصّ النبي ﷺ على الصحابة رؤياه التي رآها، فقال: رأيت أني دخلت الكعبة مع المسلمين فطفنا بالبيت.

ولما سمع المسلمون المهاجرون هذه الرؤيا، اشتاقوا إلى طواف البيت، وحملوا النبي ﷺ على السفر إلى مكة في ذلك العام، ولم يأخذ المسلمون أسلحتهم[٢] من المدينة، بل ساقوا معهم الهدي، وسافروا في ذي القعدة -وهو من الأشهر الحرم التي حرمت العرب القتال فيها- حتى أن أعداءهم كانوا يتمكنون من إتيان مكة فيها دون خوف.[٣]

ولما كانوا على بُعد تسعة أميال من مكة، أخبر النبي ﷺ قريشا من الحديبية عن وصوله، وسألهم الإذن لمواصلة السير إلى مكة.

---

(١) الحديبية اسم بئر، تقع على بعد اثنين وعشرين كيلًا إلى الشمال الغربي من مكة، وتعرف الآن بالشميسي، وكان خروجه ﷺ إلى الحديبية في يوم الاثنين مستهل ذي القعدة سنة ست من الهجرة. (السيرة النبوية الصحيحة:٢/ ٤٣٤) (صلاح)

(٢) هذا الذي ذكره الواقدي في (المغازي: ٢/ ٤٣٥)

أنهم لم يحملوا السلاح، ولكن الصحيح أن المسلمين أخذوا معهم سلاحهم، نظرًا لتوقع الشرّ من قريش، وكانوا مستعدين للقتال، كما في البخاري (٤١٧٩) (السير النبوية الصحيحة: ٢/ ٤٣٥) (صلاح)

(٣) من أسباب توجّهه إلى مكة أن بلغ النبي ﷺ أن تحالفًا عسكريا عقد بين قريش في جنوب المدينة، وخيبر في شمالها، والغاية من هذا التحالف جعل الدولة الإسلامية في المدينة بين طرفي الكماشة، ثم إطباق فكيها عليها، وإنهاء الوجود الإسلامي فيها.

ولما لم يكن في مقدور الرسول ﷺ كسر ذلك التحالف عسكريا بالمواجهة المسلّحة، ففكر ﷺ أن يكسره سياسيًا. فتحوّلت قريش إلى الهدنة، وبدأت فعلًا مفاوضتها. كما سيأتي. (قراءة جديدة: ٢٩٦-٢٩٩) (صلاح)

وعثمان بن عفان، الذي عرف في التأريخ الإسلامي بذي النورين(١)، كان سفير رسول الله ﷺ إلى قريش(٢)، وبعد ذهابه إليهم انتشر في الجيش الإسلامي خبر قتل عثمان(٣)، فدعا رسول الله ﷺ المسلمين إلى البيعة، وهو تحت الشجرة، فبايعوه(٤) على أن لا يفرّوا(٥). وكان عدد الذين شهدوا بيعة الرضوان أربع عشرة مائة(٦)، وقد ذكر ذلك في قوله تعالى:

﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].

وقد بايع ﷺ عن عثمان، فوضع يده اليسرى على يده اليمنى، وقال هذه عن عثمان.

ولما بلغ قريشًا خبر البيعة خافوا، وجاء رؤساؤهم، واحد بعد الآخر، الحديبية.

---

(١) عرف بذي النورين لكون بنتين من بنات النبي ﷺ تحته، وهما: رقية و أم كلثوم رضي الله عنهما، تزوّج رقية أوّلا، وبعد وفاتها تزوّج أم كلثوم.(صلاح)

(٢) أولا أرسل النبي ﷺ خراش بن أمية الخزاعي إلى قريش فأرادوا قتله، فخلصته الأحابيش، فخلوا سبيله، حتى أتى رسول الله ﷺ.

ثم دعا النبي ﷺ عمر بن الخطاب ليبعثه إلى قريش، فقال: إني أخاف قريشًا على نفسي، وليس بمكة من بني عديّ بن كعب أحد يمنعني، ولكني أدلك على رجل أعزّ بها مني: عثمان بن عفان.

إنما أشار عمر على النبي ﷺ بإرسال عثمان لأنه من بني أميّة، وزعامة قريش كانت متمثلة بشخص أبي سفيان الأموي، فهو لن يتخلّى عن قريبه عثمان، وعندئذ سيجد عثمان حاميًا يعينه على أداء مهمته. (قراءة جديدة: ٣٠٢) (صلاح)

(٣) أخرته قريش، فحسب المسلمون أنها قتلته. (أحمد: ٤/ ٣٢٤ بإسناده حسن) (صلاح)

(٤) أخرجه البخاري (٧/ ٤٩،٤٨)، وأحمد (١/ ٥٩)، وفيه: أن النبي ﷺ أشار بيده اليمنى فقال: «هذه يد عثمان».

(٥) نفس المصدر.

(٦) البخاري (٦/ ٦٣) عن براء وجابر بن عبد الله، ابن هشام (٢/ ٣١٥)، أي: ألف وأربع مئة رجل.

[هذا هو العدد الأصح، لما اتفق عليه خمسة من شهود العيان: جابر بن عبد الله، والبراء بن عازب، ومعقل بن يسار، وسلمة بن الأكوع، والمسيب بن حزن رضي الله عنهم.

وكان رسول الله ﷺ بتوقع أن تصدّه قريش، وقد تقاتله ولذلك أراد أن يخرج بأكبر عدد من المسلمين ولا يخفى أن هذه التظاهرة الإسلامية أبرزت قوة المسلمين في أرجاء الجزيرة العربية، وخاصة بعد فشل غزوة الأحزاب.(السيرة النبوية الصحيحة: ٢/ ٤٣٥) (صلاح)]

وكان منهم عروة بن مسعود الثقفي(١)، ولما رجع إلى قريش، قال لهم:

يا معشر قريش! إنّي قد جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشيّ في ملكه. وإني والله ما رأيت ملكًا في قوم قطّ مثل محمد في أصحابه، لا يبصق بصاقا إلا وقع في كفّ رجل منهم فدلك بها وجهه، وإذا أمرهم بأمر ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلّم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدّون إليه النظر تعظيمًا له، وقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها.(٢)

استعدّت قريش للصلح بعد تفكير ورويّة، وكان من شروط الصلح ما يلي:

١- وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيها الناس ويكفّ بعضهم عن بعض.

٢- من أحبّ من القبائل دخل في عقد قريش وعهدهم، ومن أحبّ دخل في عقد محمد وعهده.

٣- يطوف المسلمون بالبيت في العام المقبل، على ألا تكون الأسلحة معهم وقت الطواف.

٤- من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه، رده عليهم(٣)، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردّوه عليه.(٤)

---

(١) جاء إلى النبي ﷺ بديل بن ورقاء الخزاعي، ثم مكرز بن حفص بن الأخيف، ثمّ الحليس بن علقمة. ثم عروة وهو الذي جاء سفيرًا من قريش أسلم بعد عدة سنوات، وذهب إلى قومه ليبلغ الإسلام إليهم. [راجع ترجمته في «الإصابة»: ٤/ ٢٣٨ رقم ٥٥١٨] (صلاح)

(٢) البخاري (٣/ ١٧٨) [رقم ٢٧٣١-٢٧٣٢ عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم].

(٣) قد اقتصر الرسول ﷺ على ردّ الرجال من المسلمين الفارّين من قريش بموجب الصلح، وعدم ردّ المؤمنات، إما لعدم دخولهن في العهد أصلًا، وإما لأن القرآن نسخ ما ورد بحقهن بالآية: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ...﴾ [الممتحنة: ١٠]
وهذه الآية هي التي حرّمت المسلمات على المشركين. وكذلك أمر المسلمون بفسخ نكاح المشركات ﴿... وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠] (البخاري: ٢٧١١-٢٧١٢، راجع «السيرة النبوية الصحيحة»: ٢/ ٤٥٢-٤٥٣) (صلاح)

(٤) ثم شهد على هذا الكتاب طائفة من المسلمين وطائفة من المشركين، ودخلت خزاعة مع رسول الله ﷺ، ودخل بنو بكر مع قريش. (صلاح)

الشرط الأخير أقلق المسلمين جدًا:

وهذا الشرط الأخير أقلق جميع المسلمين سوى أبي بكر، وكان عمر بن الخطاب أكثرهم قلقا، ولكن النبي ﷺ قبله أيضًا، وهو يبتسم.

وكان عليّ كتب الكتاب، فكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم».

فقال سهيل: أما الرحمن، فوالله ما أدري ما هي: ولكن اكتب، «باسمك اللهم».

فقال النبي ﷺ: اكتب فكتب، ثم كتب: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله[١]، فاعترض سهيل[٢] على ذلك.

فقال رسول الله ﷺ: اكتب: «محمد بن عبد الله.»

خاب ظنّ قريش فيها في الشرط الأخير:

وظنت قريش عن الشرط الأخير من الصلح، أنه يمنع الناس من الدخول في الإسلام. ولكن ما أن تمّ هذا الشرط وكتاب الصلح يكتب، ولم يتم التوقيع عليه، إذ دخل أبو جندل[٣] بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده[٤]، وكان قد أسلم في مكة، فحبسه المشركون فخرج من أسفل مكّة، ووصل إلى جيش المسلمين.

ولما رآه سهيل، قال: هذا يا محمد أوّل من أقاضيك عليه أن تردّه إليّ.

---

(١) البخاري (٣/ ١٧٨). [٢٦٩٩، ٣١٨٤، ومسلم ١٧٨٣، عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

(٢) البخاري (٣/ ١٧٨-١٨٤).

هو: سهيل بن عمرو: أخو بني عامر بن لؤي، وسهيل هذا، الذي اعترض اليوم على كتابة «رسول الله» مع اسم محمد(ﷺ)، قد أسلم طوعا بعد سنوات، وألقى بعد وفاة النبي ﷺ بمكة خطبة بليغة، منحت ألوفا من المسلمين قوة في إيمانهم وطمأنية في قلوبهم. وليس ذلك إلا من أثر الإسلام البديع، فإنه يحوّل الأعداء الموغلين في العداوة إلي المخلصين في لحظة. [راجع ترجمة سهيل بن عمرو العامري خطيب قريش في «الإصابة»: ٣/ ١٤٦ رقم ٣٥٦٦].

(٣) راجع قصته في البخاري: ٢٧٠٠ تعليقًا، ومسلم ١٧٨٣، موصولا عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ باختلاف يسير. (صلاح)

(٤) لمّا رآه عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أدنى إلى أبي جندل قائم السيف منه، يقول عمر: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه (أي سهيل بن عمرو). (صلاح)

فقال النبي ﷺ: إنا لم نقض الكتاب بعد.

قال: فو الله! إذ لم أصالحك على شيء أبدا.

فردّ النبي ﷺ أبا جندل إلى المشركين، فربطوا يديه وقيدوا رجليه، ثم ذهبوا به إلى مكة.

وقال له النبيّ ﷺ: يا أبا جندل! اصبر واحتسب، فإنّ الله جاعل لك، ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا[(١)].

وقد أثار ذلّ أبي جندل في المسلمين حماسهم وغضبهم، ولكنهم صبروا على أنه أمر من النبي ﷺ.

ولم يزل النبي ﷺ بالحديبية حتى نزل ثمانون رجلًا من جبل التنعيم صباحا، حتى يقتلوا المسلمين وهم في الصلاة، فأخذوا أخذا، وأتي بهم إلى رسول الله ﷺ، وعفا عنهم رحمة بهم[(٢)]، وقد نزل في ذلك من القرآن:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤][(٣)].

معاهدة الحديبية من بواعث الخيرات والبركات:

والحاصل أن سفر الحديبية كان سفر خير وبركة، فقد أظهر النبي ﷺ في عهده مع الأعداء سعة القلب، وعمق النظر، والعفو عن المهاجمين.

ومن الحديبية رجع ﷺ إلى المدينة، وبعد هذا الصلح نزلت سورة الفتح، فقال عمر: أي رسول الله أوفتح هو؟ قال ﷺ: إي والذي نفس محمد بيده إنه لفتح[(٤)].

---

(١) البخاري (٣/ ١٧٨)، ابن هشام (٢/ ٣٢٣،٣١٨).

(٢) مسلم رقم (١٣٣).

(٣) مسلم رقم (١٣٢).

(٤) البخاري (٣/ ١٧٨). [والحق أن المسلمين كسبوا الموقف سياسيًّا، سواء دخلوا مكّة، أو لم يدخلوا فتحدّثت عن صدّ قريش لمن قصدوا تعظيم البيت العتيق، بعد أن كانت قريش تدعي أن المسلمين لا يحترمون المقدسات. (السيرة النبوية الصحيحة: ٢/ ٤٣٩) (صلاح)]

أبو جندل يقوم بالدعوة في محبسه:

أما أبوجندل فقد بدأ ينشر دعو الحق في محبسه بمكّة، فكان يذكر محاسن التوحيد لكل من يعيّن على حراسته، ويبين له عظمة الله وجلاله، ثم يدعوه إلى الإيمان، وبتوفيق من الله تعالى ثم عزيمة أبي جندل الراسخة وسعيه الصادق أسلم من دعاهم، وكانت قريش تحبس المسلم الجديد أيضًا معه، فيقوم أبو جندل بالدعوة إلى الله مع أخيه الجديد في الدين. وهكذا نتج عن حبس أبي جندل في مكة أن أسلم نحو ثلاث مائة شخص بجهوده في سنة واحدة.

محاولة قريش لإلغاء الشرط الأخير بحيث إنه صار في صالح المسلمين:

عندئذ ندمت قريش على اشتراطهم في المعاهدة لردّ المؤمنين إليهم، فبعثوا منهم رجالا إلى النبي ﷺ يستعفونه من هذا الشرط، ويرجونه أن يستقدم هؤلاء المسلمين الجدد إليه، ولكنه ﷺ أبى أن يخالف العهد[1]. وهنا تبيّن للمسلمين أن الشرط الذي

---

(١) وكان مثل أبي جندل رجل اسمه «أبو بصير»، أسلم وأتى المدينة فأرسلت قريش رجلين لردّه، فرده النبي ﷺ إليهما فانطلقا معه إلى مكة، حتى إذا كانوا بذي الحليفة، قتل أبو بصير أحدهما، ورجع أحدهما إلى النبي ﷺ فوصل أبو بصير وراءه، فغضب النبي ﷺ عليه، فقال للنبي ﷺ: يا رسول الله! وفيت ذمتك، وأدّى الله عنك، أسلمتني بيد القوم، وقد امتنعت بديني أن أفتن فيه أو يعبث بي.

ثم خرج أبو بصير حتى نزل العيص على ساحل البحر في طريق قريش إلى الشام، وسمع المسلمون المقيمون بمكة بأمره، فلحق به منهم سبعون رجلا، اتخذوه لهم إماما، وجعلوا وإياه يقطعون على قريش طريقها، وكانوا لا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه، ولا تمر بهم عير إلا اقتطعوها.

وذات مرة مر بهم قافلة أبي العاص بن ربيع (زوج زينب بنت رسول الله ﷺ)، فنهبوها ولم يقتلوا أحدا، فجاء أبوالعاص إلى المدينة وأبلغ أمره النبي ﷺ بواسطة زينب، فاستشار النبي ﷺ أصحابه في الأمر وأعادوا إلى أبي العاص كل ما أخذوا من المال والمتاع حتى الحبال وأزمة البعير.

عاد أبوالعاص إلى المكة، وسلّم إلى الناس أموالهم وأمتعتهم، ثم أعلن بين الناس أن من له عليه شيء فليأخذ، قالوا: إنك أمين، قال أبوالعاص: أذهب الآن لأسلم، إني كنت خشيت أن أسلم =

كرهوه في الصلح قد كان في صالحهم.

في قصة أبي جندل عبرة لمن يعتبر:

كل من في رأسه مخّ وفي مخّه مادّة الفهم يستطيع أن يدرك من خلال قصة أبي جندل: كيف كان صدق الإسلام ينتشر بالقوة الإلهية، وكيف كان يتمكن من قلوب الباحثين عن الحق، بحيث لم يستطع أي شيء أن يمنعهم من الدخول في الإسلام، رغم الغربة، والابتعاد عن الوطن، وفراق الأقارب والأحبّة، والحبس، والذلّ، والجوع، والعطش، والخوف، والطمع، والسيف، والصلب.

الفائدة الحقيقية للصلح:

يقول الإمام الزهري: «فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه. إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب، وآمن الناس بعضهم بعضا، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلّم أحد بالإسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك»[(١)].

=

قبل ذلك، فيقول الناس: غصبت أموالهم.

ثم دعا النبي ﷺ أبا جندل وأصحابه إلى المدينة، حتى لايسلبوا قوافل الكفّار فعاد طريق الشام آمنا.

(١) سيرة ابن هشام (٣/ ٣٢٢)، وقال: «والدليل على قول الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة، ثم خرج في عام الفتح بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف.» (السيرة النبوية الصحيحة: ٢/ ٤٥١)

النتائج السياسية لصلح الحديبيّة:

١ - معاهدة الحديبية صارت اعترافًا بالدولة الإسلامية، واعتراف محمد ﷺ رئيسًا لهذه الدولة.

٢- إيقاف القتال بين قريش والمسلمين أعطى الدولة الإسلامية حرية التحرك السياسي والعسكري دون أية مخاوف.

أما التحرك العسكري فقد تمثل في أمرين اثنين:

أولهما: أن الرسول ﷺ جعل يبثّ سراياه هنا وهناك في أنحاء الجزيرة.

=

=

وثانيهما: أن الدولة الإسلامية استطاعت أن تصفّي يهود خيبر، تنفيذا للمخطط الذي وضعه الرسول ﷺ في تصفية أعداء الدولة.

أما التحرك السياسي فقد تمثل بإرسال الدولة الإسلامية رسلها إلى ملوك الأرض طالبة منهم الاعتراف بالدولة، ونظامها القائم.

٣- أما نتائج شرط ردّ الدولة كل من جاءها مسلمًا من قريش: فهي تكوين جماعة تؤمن ولاءها للدولة الإسلامية في المدينة، وتهاجم المشركين وقوافلهم وتجاراتهم، والدولة لاتحمل مسؤلية تصرفهم... مما اضطر قريشًا أن ترسل لرسول الله ﷺ وفدًا خاصًا، تطلب منه الموافقة على إلغاء هذا البند من المعاهدة، وقبول المسلمين القادمين إليه من مكة. (قراءة جديدة: ٣٠٧-٣٠٨ مختصرًا) (صلاح)

طواف المسلمين بالكعبة وأثره في أهل مكة (سنة٧هـ)

إن الشرط الثاني[١] من صلح الحديبية كان ينصّ على حقّ المسلمين في الوصول إلى مكة للاعتمار من العام المقبل، ولذا خرج النبي ﷺ مع ألفين من المسلمين، فوصلوا مكّة، ولما سمع المشركون عن قدومهم لم يمنعوهم، ولكن أغلقوا أبواب بيوتهم وخرجوا بأنفسهم إلى جبل أبي قبيس، الذي تقع مكة تحته، راحوا يشاهدون ما يفعله المسلمون من هناك.

ومكث النبيّ ﷺ في مكة ثلاثة أيام للعمرة، ثم رجع بمن معه من أصحابه إلى المدينة.

وقد أثر المسلمون تأثيرا عجيبا في الكفار بعاطفتهم الصادقة الجياشة، وبطريقة تعبدهم البسيطة الجذّابة، وبأمانتهم وديانتهم في المال، (حيث لم يفقد أحد من أهل مكة شيئا من ممتلكاته رغم خلوها من أهلها)، وقد أدّى ذلك إلى جذب مئات من الناس إلى الدخول في الإسلام.[٢]

---

(١) رقم له المؤلف بالشرط الثالث، كما تقدّم آنفًا. (صلاح)

(٢) استمرت هدنة الحديبية نحو السبعة عشر أو الثمانية عشر شهرًا، ثم نقضت قريش الهدنة حيث أعانت حلفاءها بني بكر ضدّ خزاعة: حلفاء المسلمين على ماء الوتير قريبًا من مكّة، فاستنصرت خزاعة بالمسلمين، وبذلك بطلت المعاهدة، وكان ذلك سببًا مباشرًا لفتح مكة (كما تقدّم في هذا الجزء من كتابنا تحت عنوان (٥) هجوم قريش الخامس ونقض العهد أو فتح مكة). (راجع السيرة النبوية الصحيحة: ٢/ ٤٥٣) (صلاح)

غزوة خيبر (عام ٧هـ)[١]

المؤامرة الرابعة لليهود: الاستعداد للهجوم على المدينة، والاستباق في دحرهم:

تقع خيبر[٢] على ثلاث مراحل من المدينة نحو الشام، وكانت مختصة بسكن اليهود، تحيط بها حصون منيعة.

ولما قدم النبي ﷺ المدينة[٣] من الحديبية، مكث بها عشرين ليلة أو قريبا منها، فسمع أن يهود خيبر يريدون الهجوم على المدينة[٤]، حتى ينتقموا لانهزامهم في غزوة الأحزاب، ويعيدوا إليهم مجدهم السابق، وفي سبيل ذلك يستعدّون لحرب ضارية ضد المسلمين.

وإنهم قد ضمّوا معهم أربعة آلاف من المقاتلين من غطفان، على أن يكون لهم نصف محصول خيبر، إن فتحت المدينة.[٥]

---

(١) اختلف أهل السير في وقتها على قولين:
قول مالك بأنها كانت في السنة السادسة، وأيده ابن حزم في ذلك.
وقال ابن قيم الجوزية: والجمهور على أنها في السابعة، وأيده أيضًا الحافظ ابن حجر في الفتح (٧/ ٤٦٤، زاد المعاد: ٣/ ٣١٧) (صلاح)

(٢) خيبر اسم ولاية تقع إلى الشمال من مدينة النبي ﷺ، على نحو ١٦٥ كيلًا بالطريق المزفت. تمتاز بخصوبة أرضها، ووفرة مياهها، وكثرة نخيلها، وما تنتج من الحبوب والفواكه، وكان فيها في عهد النبي ﷺ حصون عظيمة لليهود. (الصادق الأمين: ٥٤٩) (صلاح)

(٣) كان قدوم النبي ﷺ المدينة في شهر ذي الحجة، فأقام بها حتى سار إلى خيبر في المحرّم. (زاد المعاد: ٣/ ٣١٧) (صلاح)

(٤) طبقات ابن سعد، وزاد المعاد (٣/ ٣١٦).

(٥) كانت غزوة الأحزاب من تدبير اليهود للقضاء على المسلمين، كما تقدّم. (صلاح)

الاستعداد للهجوم الاستباقي على خيبر:

ولم يكن المسلمون نسوا صعوبة الحصار، التي واجهتهم في الأحزاب، ولذا اتفقوا جميعا على أن يصدّوا هجوم اليهود خارج المدينة.

وقد أذن النبي ﷺ للمشاركة في هذه الغزوة أولئك الذين تشرفوا ببشرى الآية الكريمة[١]:

﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١٨]

وبالوعد الربّاني:

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ...﴾ [الفتح: ٢٠] خيبر.[٢]

وكانوا ألفا وأربع مائة، منهم مائتا فارس.

عكاشة على مقدمة الجيش، وعمر على ميمنته:

كان عكاشة بن محصن الأسديّ[٣] على مقدمة الجيش، وعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

---

(١) وهم أهل الحديبيّة. (صلاح)

(٢) زاد المعاد (٣/ ٣١٧) ورجاله ثقات. (تعليقا). [لاشك أن فتح خيبر عاد على المسلمين بالخير الكثير، وعزّز إمكانياتهم الاقتصادية بدخل سنوي دائم، حتى قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا معقبة على فتح خيبر: (الآن نشبع من التمر)، وقال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (ما شبعنا حتى فتحنا خيبر). (السيرة النبوية الصحيحة: ٢/ ٣٢٩) [البخاري: ٤٢٤٢، ٤٢٤٣ عن عكرمة مولى ابن عباس، وعبد الله ابن دينار على الترتيب] (صلاح)]

(٣) كان عكاشة بن محصن من السابقين الأولين، بشّره النبي ﷺ بأنه يدخل الجنة بغير حساب، شهد بدرًا وأحدا والخندق، والمشاهد كلها، واستشهد في خلافة أبي بكر الصديق عن خمس وأربعين سنة. [حديث دخول الجنّة مع السبعين ألفًا أيضًا في الصحيحين، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال عكاشة للنبي ﷺ: ادع الله أن يجعلني منهم، قال: أنت منهم، فقام آخر، فقال: «سبقك بها عكّاشة».

وقد ضرب بها المثل، يقال للسابق في الأمر: «سبقك بها عكاشة». راجع ترجمته في «الإصابة» (٤/ ٢٥٦ رقم ٥٦٢٦) (صلاح).

على ميمنته، وصحابيٌّ آخر على ميسرته، وكانت معهم عشرون صحابية للعناية بالمرضى والجرحى ولسقياهم وتمريضهم.

سياسة حربية ناجحة:

وصل جيش المسلمين إلى مقربة من خيبر ليلًا، وكان رسول الله ﷺ إذا غزا قوما لم يغر عليهم حتى يصبح[١]، فبات جيش المسلمين هناك. وكانت هذه الرحبة بين أهل خيبر وبين غطفان[٢]. وكانت فائدة اختيارها، أن غطفان حينما خرجوا لمساعدة أهل خيبر، وجدوا جيش المسلمين قد حال دون مرادهم، فرجعوا إلى بيوتهم.

بناء المسجد جنب المقرّ الرئيسي للجيش:

وقد قرّر النبي ﷺ أن المقر الرئيسي للجيش يكون في هذه الساحة، وتخرج منه الفرق المهاجمة إلى العدوّ، ولذا تم فيها بناء المسجد[٣]، حتى يستمرّ أمر الدعوة مع القتال، وكان رئيس المقرّ عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

حصون خيبر الرئيسيّة، ولواحقها:

وكان عدد حصون منطقة خيبر الواقعة على يمينها ويسارها، عشرة، وكان عدد المقاتلين فيها نحو عشرة آلاف[٤].

ويمكن تقسم هذه الحصون على النحو التالي[٥]:

١ - **حصون نطاة**، وكانت تضمن: حصن ناعم، وحصن نطاة، وحصن صعب بن معاذ، وحصن قلعة الزبير.

---

(١) مدارج النبوة (ص٢٩٠)، والبخاري (٥/ ٧٣). [رقم ٢٩٤٣، ٤١٩٧ عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

(٢) البخاري (٥/ ٧٣)، ابن هشام (٢/ ٣٣٠).

(٣) البخاري عن سويد بن نعمان.

(٤) فتح الباري، وفي بعض الكتب أن عدد الحصون كان ستة أو سبعة.

(٥) السيرة المحمدية للشيخ كرامت علي.

٢- **حصون الشقّ**، وكانت تضمن: حصن الشقّ، وحصن البر، وحصن أبيّ.

٣- **حصون الكتيبة**، وكانت تتضمن: حصن القموص الطبري، وحصن الوطيح، وحصن السلالم، وهو حصن بني الحقيق.

النبي ﷺ مع الجيش المهاجم، وبقية الجيش تحت إمرة عثمان بن عفان:

وكان محمود بن مسلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قائد الجيش المهاجم، فبدأ الحرب بالهجوم على حصن نطاة، وكان النبي ﷺ بنفسه مع الجيش المهاجم، وبقية الجيش كانت تحت إمرة عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

استشهاد قائد الجيش المهاجم محمود بن مسلمة، فحمل لواءه أخوه محمد:

وقد استمرّ محمود بن مسلمة في هجومه خمسة أيام، ولكنّ الحصن لم يفتح، وفي اليوم الخامس أو السادس استظلّ محمود بظل جدار من جدران الحصن، واستلقى هناك، فضربه كنانة بن أبي الحقيق بحجر على رأسه فاستشهد، رحمه الله.

فحمل اللواء أخوه محمد بن مسلمة، فقاتل ببسالة وشجاعة إلى المساء.

أبو بكر يحول دون قطع النخيل في خيبر:

وكان محمد يرى أن يقطع نخيل اليهود، فإنها غالية لديهم مثل أبنائهم، وهكذا يشتدّ عليهم الضغط، وقد بدأ المسلمون ينفذّون هذه الخطة، ولكن أبا بكر الصديق جاء إلى النبي ﷺ، وقال له: إن أرض خيبر هذه، لا بد أن يفتحها المسلمون، فليس من الرأي أن نخرّبها بأيدينا، فأعجب النبي ﷺ بهذا الرأي، ومنع ابن مسلمة من قطع النخيل.

«لأعطين الراية رجلا يحبه الله ورسوله»: فأعطاها علي بن أبي طالب:

وفي المساء ذكر ابن مسلمة للنبيّ ﷺ قصة شهادة أخيه، فقال النبي ﷺ: لأعطينّ الراية غدًا رجلا يحبّه الله ورسوله، يفتح الله على يديه. ولما سمع شجعان الصحابة هذه المقالة، تمنّى كل منهم أن يعطى الراية غدًا[١].

(١) جاء في الصحيحين من حديث سهل بن سعد وغيره رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «...فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها، فلما أصبح الناس، غدوا على رسول الله ﷺ، كلّهم يرجو أن يعطاها؟ فقال: =

يهوديّ مقبوض عليه يفشي من أسرار اليهود تحت حراسة عمر بن الخطاب:

وكانت الحراسة في تلك الليلة إلى عمر بن الخطاب، فقبض على يهوديّ وأتى به إلى رسول الله ﷺ، وكان ﷺ يتهجّد في ذلك الوقت، فلما فرغ من صلاته، تحدّث إلى اليهوديّ.

فقال اليهودي للنبيّ ﷺ: إن يهود نطاة يرسلون الليلة نساءهم وذرّيتهم إلى حصن الشقّ، ويدفنون أموالهم داخل حصن نطاة، وإني أعرف ذلك الموضع، وإني أدلّ المسلمين عليه بعد فتح الحصن.

وقال: إن في حصن الشقّ توجد آلات حربية لهدم الحصن، ويوجد المنجنيق، وإني أخبركم بمواضعها حين تفتحون حصن الشقّ.

تتابع فتح الحصون بعد قتل عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرحبًا:

ولما أصبح رسول الله ﷺ قال: أين علي بن أبي طالب؟

فقالوا: يشتكي عينيه.

قال: فأرسلوا إليه، فأتى به، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية. وقال: انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أبوا فقاتِلهم، فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير من أن يكون لك حمر النعم(١).

وبدأ علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قتال أهل حصن ناعم، فخرج مرحب رئيس الحصن الذي يدّعي أنه يساوي ألف فارس، وكان يرتجز:

قــد علمــت خيــبر أني مَرحــب   شــاكي الســلاح بطــل مجــرّب

=

«أين علي بن أبي طالب؟» الحديث بطوله. (البخاري ٤٢١٠، ومسلم ٢٤٠٦) (صلاح)

(١) البخاري رقم (٣٠٠٩، ٣٧٠١، ٤٢١٠)، ومسلم رقم (٢٤٠٦) عن سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. (صلاح)

أطعـــن أحيانـــا وحينـــا أضرب إذا الليـــوث أقبلـــت تلهّـــب[١]

فخرج إليه عامر بن الأكوع لمبارزته، وهو يرتجز:

قـــد علمـــت خيـــبر أني عـــامر شـــاكي الســـلاح بطـــل مغـــامر

فهاجم عليه مرحب بسيفه، فوقع سيفه في ترس عامر، فذهب عامر يسفل له، وكان سيف عامر فيه قصر، فرجع عليه ذباب سيفه، فأصاب عين ركبته، فمات منه[٢].

ثم خرج إلى مرحب علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يرتجز:

أنا الذي سمّتني أمّي حيدره أكيلكم بالسيف كيل السندره

كليث غابات شديد قسورة[٣].

فضرب مرحبا ففلق هامته فسقط[٤].

الزبير يقتل ياسرًا أخا مرحب:

ثم خرج أخوه ياسر، فبرز إليه الزبير بن العوّام[٥] فقتله، ثم كانت هجمة شاملة ففتح حصن ناعم.

وبعد حصن ناعم فتح المسلمون حصن الصعب بن معاذ، وحصلت لهم منه غنائم كثيرة، من الشعير، والزبيب، والزبد، والزيتون، والشحم، والثياب، وهكذا قلّت حاجتهم، فقد وجدوا في هذا الحصن من الطعام، ما مكّنهم من متابعة قتال اليهود

---

(١) في الأصل: «تحرّب»، والصحيح ما أثبتناه من تأريخ الطبري (٣/ ١١-١٢).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٣١٨) وفيه: فقال سلمة للنبي ﷺ: زعموا أن عامرًا حبط عمله. فقال: «كذب من قاله، إن له أجرين، وجمع بين أصبعيه، إنه لجاهد مجاهد، قلّ عربي مشى بها مثله»، وفي رواية: «نشأ بها». (البخاري: ٧/ ٣٥٦-٣٥٨ [٤١٩٦، ٦١٤٨]، ومسلم (١٨٠٢) عن سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.) (صلاح)

(٣) الطبري (٣/ ١٠٠).

(٤) وكان الفتح. (زاد المعاد: ٣/ ٣٢١)، وهكذا في صحيح مسلم (١٨٠٦) من حديث سلمة بن الأكوع، أن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو الذي قتل مرحبًا. (صلاح)

(٥) أحد العشرة المبشرين بالجنة. (صلاح)

وحصارهم في سائر حصونهم، وكذلك وجدوا من آلات الحرب، ما سهل لهم مهمتهم الحربية. وكان فتح هذا الحصن تحت قيادة الحباب بن المنذر[١].

ثم تتابع المسلمون إلى حصن الزبير، وكان على تلّ من جبل، وعرف ببانيه الزبير.

يهوديّ يشير للنبيّ لقطع مائهم للضغط عليهم:

وبعد يومين جاء يهوديّ إلى المسلمين وقال: يا أبا القاسم: إنك لو أقمت شهرا ما يبالون، إن لهم شرابا وعيونا تحت الأرض، يخرجون بالليل فيشربون منها، ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمتنعون، فإن قطعت مشربهم عليهم، أصحروا لك، فسار رسول الله ﷺ إلى مائهم فقطعه عليهم، وبعد ذلك خرجوا، فقاتلوا أشدّ القتال، وقتل من المسلمين نفر، وأصيب نحو العشرة من اليهود، وافتتحه رسول الله ﷺ.

دور الحباب بن المنذر في الهجوم على حصن أبيّ:

ثم كان الهجوم على حصن أبيّ، وقد دافع أهل هذا الحصن دفاعا مستميتا، خرج منهم رجل يقال له: غزوان، يبارز جيش المسلمين، فبرز له الحباب بن المنذر، ولما اشتبكا ضربه الحباب فقطع عضده اليمنى، ففر إلى الحصن، فتبعه الحباب وقتله، قبل أن يدخل الحصن.

وجاء دور أبي دجانة:

ثم خرج من الحصن آخر يبارز، فبرز إليه رجل من المسلمين، فاستشهد في قتال معه، وهنا برز لليهودي أبو دجانة[٢] فقاتله، فقطع رجله ثم قتله.

---

(١) الحباب بن المنذر الأنصاري الأسلمي، وكان يكنى أبا عمرو، ولقبه ذو الرأي، كان في غزوة بدر ابن ثلاث وثلاثين سنة، قبل النبي ﷺ رأيه في نزول منزل مناسب في غزوة بدر، مات في خلافة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. [وزاد على الخمسين، وهو الذي قال يوم السقيفة: أنا جذيلها المحكّك وعذيقها المرجّب. راجع ترجمته في «الإصابة» (١/ ٣١٦ رقم ١٥٤٧) (صلاح)]

(٢) هو: سماك بن خرشة، متفق على شهوده بدرًا، وقد ذبّ عن النبي ﷺ يوم أحد فكثرت فيه الجراحة. وعن أنس أنّ النبي ﷺ أخذ سيفًا يوم أحد، فقال: «من يأخذ هذا السّيف بحقّه»؟، فأخذه أبو دجانة ففلق به هام المشركين (مسلم: ٢٧٤٠)، وقال عليّ: إنه استشهد باليمامة. =

وقد خيّم الرعب على قلوب اليهود، فامتنعوا عن الخروج، فتقدّم أبو دجانة وتبعه المسلمون، فصعدوا على جدار القلعة مكبّرين وفتحوه، ففرّ أهل الحصن، وظفر المسلمون بغنم وثياب في الغنيمة.

ثم هاجم المسلمون على حصن البرّ، وقد بالغ أهله في ضرب المسلمين بالسهام، حتى اضطرّوا إلى نصب المنجنيق، الذي غنموه من حصن الصعب، وبالمنجنيق تمكّن المسلمون من هدم جدران القلعة وفتحها.(١)

=

(الإصابة: ٤/ ٥٨، رقم ١٧٣) (صلاح)

(١) **من النماذج النادرة من المجاهدين في خيبر:**

«وقد صح أن أعرابيًا شهد فتح خيبر أراد النبي ﷺ أثناء المعركة أن يقسم له قسمًا وكان غائبًا، فلما حضر أعطوه ما قسم له فجاء به إلى النبي ﷺ، فقال: ما على هذا اتبعتك، ولكني اتبعتك على أن أرمي هاهنا -وأشار إلى حلقه- بسهم فأدخل الجنة. قال: إن تصدق الله يصدقك. فلبثوا قليلًا. ثم نهضوا في قتال العدو فأتي به يحمل قد أصابه سهم حيث أشار، فكفنه النبي ﷺ بجبته وصلى عليه ودعا له، فكان مما قال: «اللهم هذا عبدك خرج مهاجرًا في سبيلك فقتل شهيدًا، وأنا عليه شهيد». (مصنف عبد الرزاق: ٥/ ٢٧٦، راجع السيرة النبوية الصحيحة: ٢/ ٣٣١) (صلاح)

إسلام خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (سنة ٨هـ)

ومن هؤلاء المؤمنين خالد بن الوليد(١)، وهو الذي قاد جيش الكفّار في غزوة أحد، فألحق بالمسلمين أضرارًا بالغة، وهو الذي قاد بعد إسلامه جيوش المسلمين، فهزم مسيلمة الكذّاب، وفتح بلاد العراق ونصف الشام.

وإسلام مثل هذا العدو اللدود للمسلمين والجنديّ الباسل لجيش الكفار طواعية لَهو معجزة ظاهرة، تشهد على صدق الإسلام(٢).

---

(١) هو: أبو سليمان خالد بن الوليد القرشي المخزومي «سيف الله»، وأمه لبابة الصغرى بنت الحارث: أخت ميمونة بنت الحارث (زوج النبي ﷺ). وكان أحد أشراف قريش في الجاهليّة، وكان إليه أعنّة الخيل في الجاهلية، وشهد مع كفّار قريش الحروب إلى عمرة الحديبيّة. كما ثبت في الصّحيح أنه كان على خيل قريش طليعة، ثم أسلم في سنة سبع بعد خيبر، وقيل قبلها، ووهم من زعم أنه أسلم سنة خمس. ثم شهد الغزوات كلّها، ومات سنة إحدى وعشرين بمدينة حمص وقيل: توفي في المدينة النبوية. (الإصابة: ٢/ ٩٨-١٠٠) (صلاح)

(٢) «يبدو أن إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة (الآتي ذكرهما) وهم من رجالات مكّة، وهجرتهم تمّت بعد تنازل قريش عن شرط إعادة المسلمين الجدد، الذين يلتحقون من مكة بالمدينة، حيث لا توجد إشارة لمطالبة قريش بهم.» (السيرة النبوية الصحيحة: ٢/ ٤٥٣) (صلاح)

إسلام عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)] سنة ٨هـ

ومنهم عمرو بن العاص، وكان رئيس وفد المشركين إلى ملك الحبشة، ليُسلِّم المهاجريَّ من المسلمين إلى قريش، وذلك لمبالغته في عداء المسلمين، ولمواهبه وكفاءاته العالية في الشئون الخارجية.

وعمرو هذا هو الذي فتح مصر في عهد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وإسلام مثل هذا الفاتح العظيم والسياسيّ المحنّك أيضا من معجزات الإسلام.

(١) عمرو بن العاص القرشي السهمي، أمير مصر، أسلم قبل الفتح في صفر سنة ثمان، (وقيل: بين الحديبيّة وخيبر)، وهو الّذي افتتح قنسرين، وصالح أهل حلب، ومنبج، وأنطاكية، وولّاه عمر فلسطين. ورآه عمر يمشي: فقال: ما ينبغي لأبي عبد الله أن يمشي على الأرض إلا أميرًا.
قال الشعبي: دهاة العرب أربعة، فعدّ منهم عمرًا، وقال: فأما عمرو فللمعضلات. («الإصابة»: ٤/ ٥٣٧-٥٤١ رقم ٥٨٩٧ ط. دارالكتب) (صلاح)

إسلام عثمان بن طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (سنة ٨هـ)

ومنهم عثمان بن طلحة[١]، حاجب الكعبة، وحامل مفتاحها، وحين وصل هؤلاء القادة المعروفون بشرف حسبهم ونسبهم إلى النبي ﷺ بالمدينة، قال ﷺ: «اليوم أخرجت مكة إلينا أفلاذ أكبادها»[٢].

(١) هو: عثمان بن طلحة بن أبي طلحة العبدري، قتل أبوه وعمّه عثمان بن أبي طلحة بأحد، ثمّ أسلم عثمان بن طلحة في هدنة الحديبيّة، وهاجر مع خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص إلى المدينة، وشهد الفتح مع النبيّ ﷺ، فأعطاه مفتاح الكعبة. (الإصابة: ٢/ ٤٦٠، رقم ٥٤٤٠) (صلاح)

(٢) لم يثبت قوله ﷺ هذا بهذه المناسبة، بل قاله ﷺ حين سمع عمّن شهد بدرًا من أشراف قريش: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها». قال الألباني تعليقا على «فقه السيرة» (ص٢٢٢) هذا إسناده صحيح، لكنه مرسل. وأحمد (رقم٩٤٨)، وسنده صحيح، ورواه مسلم (٥/ ١٧٠)، مختصرًا من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. (صلاح)

إسلام عديّ بن حاتم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[1] (سنة ٩هـ)

ممّا مهّد لإسلام هذا الرئيس أن قبيلة طيء باليمن قد ثارت، وكان عليّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حاكم تلك المنطقة حينذاك، فقبض على الثائرين، وأرسلهم إلى المدينة، وكانت فيهم ابنة حاتم الطائي الشهير، فقالت لرسول الله ﷺ:نأى الوافد، وهلك الوالد، وأنا عجوز كبيرة، ما بي من خدمة، فمنّ عليّ، من الله عليك.

قال النبي ﷺ: كانت في أبيك صفات المؤمنين، ثم أفرج ﷺ عنها، ومن معها وكساهم وأجازهم.

قال عديّ: ما من رجل من العرب، كان أشدّ كراهيةً لرسول الله ﷺ حين سمع به مني، أما أنا فكنت امرأ شريفا وكنت نصرانيًّا، وكنت أسيرًا في قومي بالمرباع، فكنت في نفسي على دين، وكنت ملكا في قومي، لما كان يصنع بي.

فلما سمعت برسول الله ﷺ كرهته، فقلت لغلام كان لي، وكان راعيا لإبلي: أعد لي من إبلي أجمالا ذليلا سمانا، فاحتبسها قريبا مني، فإذا سمعت بجيش لمحمد قد وطئ هذه البلاد فآذني، ففعل.

ثم إنه أتاني ذات غداة فقال: يا عديّ! ما كنت مانعا إذا غشيتك خيل محمد فاصنعه الآن، فإني قد رأيت رايات، فسألت عنها، فقالوا هذه جيوش محمد.

قلت: قرّب إليّ جمالي فقرّبها، فاحتملت بأهلي وولدي، ثم قلت: ألحق بأهل دين من النصارى بالشام، فلما قدمت الشام، أقمت بها.

قال عديّ: فوالله! إني لقاعد في أهلي، إذ جاءتني أختي، فقلت لها -وكانت امرأة حازمة-. ماذا ترين في أمر هذا الرجل؟

---

(١) عدي بن حاتم الطائي: ولد الجواد المشهور، أبو طريف، وكان نصرانيًا قبل ذلك، وثبت على إسلامه في الردّة، وأحضر صدقة قومه إلى أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. راجع ترجمته في «الإصابة»: ٤/ ٢٢٨- ٢٢٩، رقم ٥٤٦٤) (صلاح)

قالت: أرى والله أن تلحق به سريعا، فإن يكن الرجل نبيًّا، فللسابق إليه فضله، وإن يكن ملكا فلن تذلّ في عزّ اليمن، وأنت أنت.

قال: فخرجت إلى المدينة، فدخلت على رسول الله ﷺ، وهو في مسجده، فسلّمت عليه.

فقال: من الرجل؟

فقلت: عديّ بن حاتم.

فقام رسول الله ﷺ، فانطلق بي إلى بيته، فوالله إنه لعامد بي إليه، إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة، فاستوقفته، فوقف لها طويلا، تكلّم في حاجتها، قال:

قلت في نفسي: والله ما هذا بملك.

ثم مضى بي رسول الله ﷺ حتى إذا دخل في بيته، تناول وسادة من أدم محشوة ليفًا، فقذفها إليّ.

فقال: اجلس على هذه.

قال: قلت: بل أنت فاجلس عليها.

فقال: بل أنت، فجلست عليها، وجلس رسول الله ﷺ بالأرض، فقلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملك.

ثم قال: إيه يا عديّ بن حاتم! ألم تك ركوسيا(١)؟

قلت: بلى!

قال: أولم تكن تسير في قومك بالمرباع(٢)؟

قلت: بلى!

قال: فإن ذلك لم يكن يحلّ لك في دينك.

قلت: أجل والله!

قال: وعرفتُ أنه نبيّ مرسل، يعلم ما يجهل.

ثم قال: لعلّك يا عديّ! إنما يمنعك من دخول هذا الدين ما ترى من حاجتهم،

---

(١) من الركوسية: وهي فرقة قديمة من النصارى، ودينها بين دين النصارى والصابئين.

(٢) المرباع: ربع الغنيمة، الذي كان يأخذه الرئيس في الجاهلية.

فوالله ليوشكنّ المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه.

ولعلّك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوّهم وقلّة عددهم، فوالله ليوشكنّ أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسيّة على بعيرها حتى تزور هذا البيت، لا تخاف.

ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه، أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وأيم الله ليوشك أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم.

قال: فأسلمت.

وكان عديّ يقول: قد مضت اثنتان وبقيت الثالثة، والله لتكونن.

قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فُتحت، وقد رأيتُ المرأة تخرج من القادسيّة على بعيرها، لا تخاف حتى تحجّ هذا البيت.

وأيم الله لتكوننّ الثالثة، ليفيضنّ المال حتى لا يوجد من يأخذه.(١)

(١) ابن هشام (٢/ ٥٨٠-٥٨١)، مات عدي بن حاتم في سنة سبع وستين بالكوفة، وهو ابن مائة وعشرين سنة. [وتأريخ الطبري: ٣/ ١١٢-١١٥. في هذه الرواية الطويلة، أجزاء ضعيفة، ذكروها في «ضعيف الطبري (٧/ ٢٣٥)، وما صحّ منها ذكروه في «صحيح الطبري» (٢/ ٣٢٧ تعليقًا)، نقلا عن صحيح البخاري رقم (٤٣٥٤). وما في «الصحيح» يخالف مسألة فرار عديّ بن حاتم بعد سماعه بخروج رسول الله ﷺ ثم عودته إليه، وما في الصحيح حجّة لنا وعلينا. (صلاح)]

الحجّ

الحجّ هو الركن الخامس للإسلام.[١]

والجدير بالذكر أن الإسلام هو رسالة الحبّ والودّ، التي تقرّب بين المتباعدين، وتوصل الغرباء، وتجعل المتعارفين أحبة وأصدقاء ومن هدف شرائع الإسلام أيضًا أن تجمع الأفراد من الأمم، فيُجعلوا ملة واحدة، تجمعها كلمة واحدة.

(أ) فقد شرعت الصلاة بالجماعة حتى يجتمع أهل الحيّ الواحد في المسجد خمس مرات يوميًّا كي يتحقق بينهم الحبّ والمودة، وينشأ الشعور بالوفاق والاتحاد.

(ب) ولتحقيق المحبة وتقوية الصلات بين أهل المدينة الواحدة أوجب عليهم الاجتماع في مسجد جامع مرة في الأسبوع، حتى يؤدّوا صلاة الجمعة مجتمعين.

(ج) ولإنشاء صلة التعارف والمحبّة بين أهل المدينة وضواحيها والمناطق الريفيّة شرع صلاة العيد، مرتين في السنّة كسنن الهدى. وفي المناسبتين يأتي أهل الريف إلى المدينة حيث يجتمع الناس فيلاقون بعضهم البعض، ويعبدون ربهم مجتمعين.

من أهداف الحج وميزاته:

(١) ولتدعيم الصلة الدينية بين مسلمي العالم، ولإذابة فوارق الأمم، والأجناس، والألسنة، والألوان، والأقطار في وحدة الإسلام الواحدة أوجب الله تعالى الحج مرة في العمر، على من يستطيع إليه سبيلا.

(٢) وقد أوجب على الناس في الحجّ لباسًا أبيض غير مخيط، مثل لباس أبينا آدم، حتى يظهر المؤمنون برسول واحد، وقرآن واحد، وكعبة واحدة، بمظهر واحد، ولباس

---

(١) راجع ما يتعلّق بالحج ومصالحه المرعيّة، وأسرار مناسكه ومشاعره في «حجة الله البالغة» للشاه أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي (٢/ ١٠٠-١٢٠). (صلاح)

واحد، في صعيد واحد، فلا يرى أهل العيون أيضًا أي اختلاف شكليّ بين المتّحدين معنويا.

(٣) وقد تمّ للحجّ اختيار مكان بنى فيه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: الجدّ الأعلى للصابئين واليهود والنصارى والمسلمين، أوّل بيتٍ لعبادة الله تعالى. وبما أن مجموعة الأمم المذكورة أكبر من أمم العالم الأخرى. فبهذا يتأيد اختيار هذا المكان بكثرة الآراء وبالسبق الزمني معًا.

(٤) ويقصد بالحجّ إعلان شوكة الإسلام وقوّته أيضًا.

- وتدخل في ذلك، الفوائد التي تحصل للمسلمين بسفرهم برّا وبحرا.[١]
- وكذلك يقصد بالحجّ ما يقصده ملك من الملوك لعقد مجالسه العظيمة، في بلاطه الرسمي.
- وما يقصده القائد بجمع جيوشه الجرّارة.
- وما يقصده المؤتمرون باجتماع وفودهم، وجلساتهم السنويّة.
- وما تقصده الغرفة التجارية بمعارضها الدولية.
- وكذلك يتمّ بالحجّ كل ما يبحث عنه علماء الآثار القديمة، وعلماء طبقات الأرض (الجيولوجيا)، وباحثو صناديد العالم ودهاته، وخبراء علم الألسنة، ومحققو تأريخ الأمم، ومهرة جغرافية العالم من الأمور.

---

(١) ذكر المؤلف ههنا السفر برّا وبحرًا، ولم يذكر السفر جوًّا، لأن هذا الكتاب أُلّف في أوائل القرن العشرين أي ما يقارب قبل قرن وربع قرن، ولم تكن الرحلات الجوّية قد بدأت من الهند إلى المملكة العربية السعودية حينذاك. والله أعلم. (صلاح)

فرض الحج[(١)]

فرض الحجّ في الإسلام سنة تسع من الهجرة، وفي ذلك العام جعل رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق أمير الحج، وأرسل معه ثلاث مائة من الصحابة حتى يحجّوا بالناس.

وأرسل النبي ﷺ بعد ذلك علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتى يعلن سورة البراءة فحجّ أبوبكر بالنّاس، وتلا عليّ أربعين آيةً من أول سورة البراءة على الناس. وكذلك بيّن لهم ألّا يدخل بعد هذا العام بيت الله مشرك[(٢)]، ولا يطوف بالبيت عريان.[(٣)]

(١) اختلفوا في فرض الحج، هل كان في العام العاشر أو التاسع أو السادس للهجرة على اختلاف الروايات. (البداية والنهاية (٥/ ١٠٩) والسيرة الصحيحة (٢/ ٥٤٩) (صلاح)

(٢) ورد في سفر أشعياء (٣٥/ ٨): لا يعبر فيها نجس، بل هي لهم.

(٣) البخاري (٢/ ١٦٤) [رقم ٤٦٥٥، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بلفظ «...أن لا يحجّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان» ومسلم (رقم ١٣٤٧) (صلاح)]

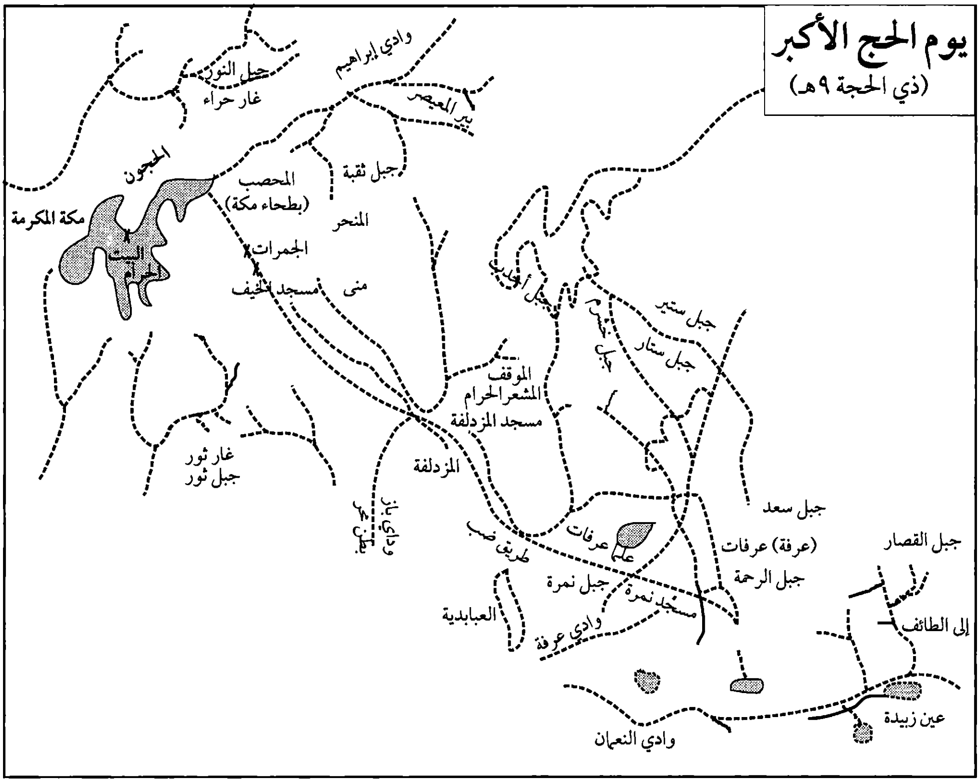

حجة النبي ﷺ(١)

تجهّز النبي ﷺ هذا العام للحجّ، أمر الناس أيضًا بالجهاز له، فأسرع النّاس إلى المدينة من كل صوب، فتجمّع منهم عدد كبير من جميع الطبقات والمنازل(٢).

---

(١) سُمّي حج النبي ﷺ بـ«حجة الوداع» و «الحج الأكبر». (ابن ماجة رقم ٣٠٥٨)، وعلقه البخاري (٣/ ٤٥٩)، وإسناده صحيح (صحيح السيرة للعلي: ص٥٤٣).

والأصل في حجة الوداع حديث جابر، وعائشة وابن عمر وغيرهم رَضِيَ اللهُ عَنْهُم. («حجة الله البالغة» للعلّامة الشاه أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي: ٢/ ١١٠)

وراجع التفصيل عن حج النبي ﷺ في ما رواه مسلم (١٢١٨) عن جابر بن عبد الله مفصلا، وأضاف الشيخ الألباني إلى هذه الرواية زيادات يسيرة من كتب الحديث الأخرى. (صلاح)

(٢) لقد ظلّ النبي ﷺ ثلاثا وعشرين سنة، يدعو إلى الله تعالى، ومكث في المدينة تسع سنوات لم يحجّ، =

• وأحرم ﷺ من ذي الحليفة[١]، فجعل يرفع ويردّد نشيد الحجّ المبارك:

«لبيك اللهمّ لبّيك، لبّيك لا شريك لك لبّيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك».

ثم توجّه إلى مكة محرمًا.

وقد انضمّ الناس إلى هذا الركب المبارك من كل مكان أفواجا[٢]، وكلما مرّ النبيﷺ بأكمة أو تلٍّ كبّر ثلاثا ورفع صوته[٣].

• ولما قرب من مكة، لبث بذي طوى[٤] قليلا، ثم دخل بجماعته مكة من أعلاها، فطاف بالبيت نهارًا، و أعلن جلال الله تعالى[٥].

=

ثم أذن بالحج في العاشرة وها هو الآن يقود المسلمين إلى حج بيت الله، ويعلن لنهاية عهد الشرك، ولإخلاص العبادة لله الواحد القهار. (صلاح)

(١) خرج النبي ﷺ من المدينة يوم الخميس لخمس بقين من ذي القعدة في السنة العاشرة. (صلاح)

(٢) حجة الله البالغة للدهلوي (٢/ ١١٠).

(٣) البخاري في كتاب الجهاد والسير (٤/ ١٦) عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ولينظر هنا سفر أشعياء (٤٢/ ١١-١٢): «لترفع البرية ومدنها صوتها الديار التي سكنها قيدار، لتترنّم سكّان سالع من رؤوس الجبال ليهتفوا.»

(٤) وكان حينئذ شأن قائد هذا الركب مثلما ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾ [طه: ١٢]. [لما دنا من مكة نزل بذي طوى، ودخل مكّة من أعلاها نهارا، وخرج من أسفلها...، وإنما خالف في الطريق ليظهر شوكة المسلمين في كلتا الطريقين، ونظيره: العيد. («حجة الله البالغة»: ٢/ ١١٢). (صلاح)]

(٥) وعن هذا الموقع جاء في سفر أشعيا(٦٠/ ١-٦)، يقول الله تعالى مخاطبا بيت الله: «قومي استنيري، لأنه قد جاء نورك، ومجد الربّ أشرق عليك. لأنه ها هي الظلمة تغطي الأرض والظلام الدامس الأمم، أما عليك فيشرق الربّ ومجده عليك يرى. فتسير الأمم في نورك، والملوك في ضياء إشراقك. ارفعي عينيك حواليك، وانظري قد اجتمعوا كلّهم، جاءوا إليك، يأتي بنوك من بعيد، وتحمل بناتك على الأيدي. حينئذ تنظرين وتنيرين، ويخفق قلبك ويتّسع، لأنه تتحوّل إليك ثروة البحر، ويأتي إليك غنى الأمم. تغطيك كثرة الجمال بكران مديان وعيفة كلها تأتي من شبا تحمل ذهبا ولبانا، تبشر بتسابيح الرب».

=

• وبعد طواف الكعبة توجّه إلى الصفا والمروة، فصعد على قممها فوحّد الله وكبّره متوجّها إلى البيت: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.»(١)

= كانت هجرة النبي ﷺ من مكّة، جالب حسرة للكعبة، إلا أن دخوله الآن مكة بعظمة وجلال، معلنا راية التوحيد الخالص وطوافه بالبيت كان -ولا شك- جالب فرح وسرور لبيت الله، لأن المفترقين من المسلمين اجتمعوا بذلك، وصار الدين عزيزا.

وليعلم أن (مديان) اسم لابن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من زوجته قطورة، و(عيفة) اسم لابن مديان، وشبا بن يقشان حفيد إبراهيم (سفر التكوين ٢٥/ ١-٤)، وهؤلاء كلهم سكنوا في الجزيرة العربية، وحضر هذا الحجّ قبائل من نسل مديان وعيفة وشبا، ولذا قد تحقّقت النبوءة وعلاماتها صريحًا [انظر قاموس الكتاب المقدس مادة قطورة (٧٣٩) ومدان (٨٤٨)].

(١) [مسلم: ١٢١٨ عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ] حجة الله البالغة (٢/ ١١٣).

[قمم الجبال ترتج بكلمة التوحيد بعد الحروب والمؤامرات] وهذه الكلمات تتضمّن تحميد الله وتقديسه، وكذلك فيها تصوير ملموس للنصر الإلهي للهادّيين، وذلك أن هذا النبي ﷺ قبل عدة سنوات، كان وحيدا في مكة هذه، ثم تبعه على دعوته واحد بعد الآخر، وكانوا يجتمعون في دار أرقم في الصفا، مختفين من الناس، ثم ازدادوا قليلا، فواجهوا معارضة من أهل مكة، فمنهم من هاجر إلى الحبشة، ومنهم من بقي في مكة فزجّ به في السجن، حتى أن محمدا ﷺ كان محصورا في الشعب ثلاثة أعوام.

ولما صعب على المسلمين الإقامة بمكة، هاجروا إلى المدينة في حين لآخر، وهاجر النبي ﷺ بالليل، ولم يكن معه أحد سوى صاحبه، وقد أحزن الكفار خروجهم سالمين، فواصلوا غزوهم، والهجوم عليهم طيلة تسع سنوات، ثم عجزوا وسكتوا.

والآن ها هو محمد، وها هي مكة، وها هي العرب، لم يتغير شيء، ولكن قمم الجبال ترتج بكلمة التوحيد، وتغنّي أناشيد فتح الله ونصره. شخص واحد بمفرده يلاقي هذا النجاح الباهر بعد العداوات والمخاصمات والحروب والمؤامرات! فالتعبير عن هذا النجاح لا يتأتى إلا بقول النبي الكريم ﷺ: «أنجز وعده، ونصر عبده.» [مسلم: ١٢١٨ عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

وفي سفر أشعيا (٤٢/ ١١-١٢) لتترنّم سكان «سلع» من رؤوس الجبال ليهتفوا، ليعطوا الربّ مجدا.

• وفي التاسع من ذي الحجّة نزل النبي ﷺ وادي النمرة بعد طلوع الشمس، ويقع هذا الوادي بين عرفات ومزدلفة، وأتى بعد زوال الشمس عرفة، وكانت عرفة كلها ممتلئة بالنّاس، وكان كل منهم يكبّر ويهلّل ويمجّد ويقدّس[١] وقد بلغ عدد العابدين لله في هذه الأرض مائة وأربعة وأربعين، أو أربعة وعشرين ألفا.

(١) في سفر أشعيا(٤٢/ ١٠) «غنوا للربّ أغنية جديدة تسبيحة من أقصى الأرض.»

خطبة حجّة الوداع

وقد صعد النبي ﷺ الجبل راكبا على القصواء[١] فألقى خطبته[٢]:

(١) في صحيح مسلم (رقم ١٢١٨) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء، فرحلت له، فأتى بطن الوادي، فخطب الناس...»
(بطن الوادي): وادي عرنة. و(القصواء): اسم ناقة النبي ﷺ. (صلاح)

(٢) انظروا رؤيا يوحنّا اللاهوتي (١٤/ ١-٥). وينبغي أن نتذكر عن هذه الرؤيا الآية الأولى من الإصحاح الأول التي تقول:
«إعلان يسوع المسيح الذي أعطاه إياه الله ليُري عبيده ما لابد أن يكون عن قريب، وبيّنه مرسلا بيد ملاكه لعبده يوحنا».
وبهذا ظهر أن هذه الرؤيا التي وقعت بعد ذهاب المسيح من هذه الدنيا، تتعلّق بعصر ما بعد المسيح، وهذا هو معتقد النصارى أيضا.

ورد في الإصحاح الرابع عشر من هذه الرؤيا:

(أ) ثم نظرت وإذا خروف واقف على جبل صهيون، ومعه مائة وأربعة وأربعون ألفا.

(ب) لهم اسم أبيه مكتوبا على جباههم.

(ج) وسمعت صوتا من السماء كصوت مياه كثيرة، وكصوت رعد عظيم، وسمعت صوتا كصوت ضاربين بالقيثارة يضربون بقيثاراتهم.

(د) وهم يترنمون كترنيمة جديدة أمام العرش، وأمام الأربعة الحيوانات والشيوخ.

(هـ) ولم يستطع أحد أن يتعلّم الترنيمة إلا المائة والأربعة والأربعون ألفا، الذين اشتروا من الأرض.

(و) هؤلاء هم الذين لم يتنجسوا مع النساء لأنهم أطهار.

(ز) هؤلاء هم الذين يتبعون الخروف حيثما ذهب.

(ح) هؤلاء اشتروا من بين الناس باكورة لله وللخروف.

(ط) وفي أفواههم لم يوجد غش لأنهم بلا عيب قدّام عرش الله.

شرح موجز عن هذه الآيات:

(أ) المراد بمصطلح الخروف في الرؤيا، ذلك الكائن العظيم الذي هو أكرم الجميع بعد الله =

١- يا أيها الناس[١] إني لا أراني وإياكم نجتمع في هذا المجلس أبدا[٢].

٢- إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في بلدكم

=

تعالى، وهو هنا رسول الله ﷺ.

والمراد بصهيون الجبل المقدّس، وهو هنا جبل «عرفة». وعدد مائة وأربعة وأربعون ألفا، هو عدد الصحابة، الذين كانوا مع النبي ﷺ في الحجّ، وهو مذكور في الأحاديث.

(ب) هذا الدرس ترجمة لقوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩].

(ج) في ذلك ذكر التسبيح والتحميد، لأن بني إسرائيل كانوا يقرؤون أدعيتهم مع البربط وآلات الغناء.

(د) والمراد بالأغنية الجديدة: اللغة العربية التي هي جديدة بالنسبة لأهل الكتاب. وقوله «كترنيمة» يدل على أنه ليس بغناء، بل التغنّي والترنّم.

(هـ) كان عدد الذين تشرّفوا بسماع الخطبة من لسان النبي ﷺ هو المائة والأربعون ألفا. وذكر الاشتراء في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ [التوبة: ١١١].

(و) وصف المؤمنون في القرآن بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥﴾ [المؤمنون: ٥].

(ز) وصف الصحابة هذا، ورد في القرآن هكذا: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الفتح: ٢٩]، وبقوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

(ح) وبيان هذه الصفة في القرآن هكذا:

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠]. وجاء في الحديث هكذا: «اختارهم الله لرسوله».

(ط) وردت هذه الصفة في القرآن بهذه الكلمات:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾ [الحجرات: ٣].

(١) هذه المقاطع المرقمة من المؤلف مأخوذة من الأحاديث المتفرقة كما يأتي. (صلاح)

(٢) [في مسند أحمد بلفظ: ألا لعلكم لا تروني بعد عامكم هذا (ثلاث مرّات) وصححه الأرنؤوط في تخريج المسند (٢٢٢٦٠)] معدن الأعمال رقم الحديث (١١٠٨) عن وابصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رواه ابن عساكر [ذكره على المتقي الهندي في كنز العمال من حديث وابصة أن النبي ﷺ خطبهم يوم عرفة فقال: يا أيها الناس، ورمز لابن عساكر في تهذيب تأريخ ابن عساكر].

هذا، في شهركم هذا، وستلقون ربّكم فيسألكم عن أعمالكم. ألا فلا ترجعوا بعدي ضلالا، يضرب بعضكم رقاب بعض[١].

٣- ألا كلّ شيء من أمر الجاهليّة تحت قدميّ موضوع. ودماء الجاهلية موضوعة. وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث، كان مسترضعًا في بني سعد، فقتله هذيل. وربا الجاهليةِ موضوعة، وأوّل ربا أضع ربانا، ربا عباس ابن عبد المطلب، فإنه موضوع كلّه.

٤- فاتّقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح. ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف.

٥- وقد تركت فيكم ما لن تضلّوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله [وسنة نبيه][٢].

٦- أيها الناس! إنه لا نبيّ بعدي، ولا أمة بعدكم، ألا فاعبدوا ربّكم، وصلّوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم طيبة بها أنفسكم، وتحجّون بيت ربّكم، وأطيعوا ولاة أمركم، تدخلوا جنة ربكم[٣].

٧- وأنتم تسألون عنّي، فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فقال بأصبعه السبابة، يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد، ثلاث مرات[٤].

---

(١) البخاري (٢/ ١٩١) عن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) زيادة ما بين المعقوفتين لا توجد في صحيح مسلم (١٢١٨) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) معدن الأعمال رقم الحديث (١١٠٨، ١١٠٩) عن أبي أمامة، رواه ابن جرير وابن عساكر [ورواه الترمذي (رقم ٦١٦)، وقال: حديث حسن صحيح، والحاكم في المستدرك (١/ ٣٨٩)، وصححه ووافقه الذهبي، عن أبي أمامة الباهلي، وذكره الألباني في صحيح الجامع (رقم ١٠٩) وقال صحيح. (صلاح)].

(٤) مسلم (١/ ٨٩٠) [رقم١٢١٨ بطوله من طريق جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن علي بن الحسين] عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

٨- ألا ليبلّغ الشاهد الغائب، فلعلّ بعض من يبلغه أن يكون أوعى له، من بعض من سمعه[(١)].

مبادئ العزّ والنجاح في الدنيا والآخرة:

وليطالع القراء هذه الخطبة النبوية، وليقرءوها بروِيّة وتفكر وإمعان، حتى يعرفوا:

- كيف أن النبيّ ﷺ أكّد في خطبته الأخيرة للعمل بالقرآن، وكيف أنه وعد العامل به أنه لن يضلّ أبدًا؟!
- وكيف أنه أكد للحفاظ على حقوق المسلمين فيما بينهم، وعلى أموالهم، وأنفسهم، وأعراضهم!.
- وكيف لفت أنظار الأزواج على حقوق زوجاتهم بعبارة بليغة محكمة!
- وكيف أشهد آباءنا وأجدادنا على ما قدّم من أعمال ومآثر وسنن طوال حياته!
- وكيف حمّل المسلمين جميعا مسئولية دعوة الإسلام ونشر الدين!

هذه هي المبادئ والأصول، التي يضمن العمل بها العزّ والنجاح والعلوّ في الدنيا والآخرة، وترك العمل بها يؤدّي إلى الخسران المبين فيهما.

نزول الآية: (اليوم أكملتُ لكم دينكم):

ولما فرغ النبيّ ﷺ من خطبته، نزلت هناك الآية الكريمة:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣][(٢)]

---

(١) البخاري (٢/ ١٩١) [بأرقام ٦٧، ١٠٥، ١٧٤١ وغيرها] عن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) البخاري (٥/ ١٢٧) [رقم ٧٢٦٨] عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثم اقرءوا رؤيا يوحنّا (الإصحاح الرابع عشر)، وقد سبق أن ذكر منه خمسة دروس، وهنا نذكر الدرس السادس:

«ثم رأيت ملاكا آخر، طائرا في وسط السماء، معه بشارة أبدية ليبشّر الساكنين على الأرض، وكل أمة وقبيلة ولسان وشعب».

[ما هي البشارة الأبدية أو الإنجيل الأبدي؟!]

وقد كتب الأسقف ((W. Hoper (Mb))، وهو الذي فسّر هذه الرؤيا لطلّاب علم الإلهيات، =

ولعامّة النّاس بالكنائس، وقام بنشر تفسيره «لجنة بنجاب للمعرفة النصرانية» عام١٨٨٥م، في صفحة (١٤٠):

«فرقة النصارى المسماة بفرانسسكي كانت تخرج بهذا الدرس تنبؤ عن إنجيل أبدي. وكانت هذه الفرقة تقول: الإنجيل الذي بين أيدينا ينسخ بذلك الإنجيل الأبدي مثل العهد القديم، ويخرج إنجيل أحسن منه، وهو الذي يُسمّى بالإنجيل الأبدي. وكانوا يركزون حول كلمة «الأبدي». وكان معلّمهم «نيوياقيم».

[البشارة الأبدية هي القرآن الكريم]:

والغرض هنا من ذكر رأي (هوبر) أن النصارى فهموا من كلمة «البشارة الأبدية» نزول كتاب آخر، وبحمد الله تعالى أنه القرآن الكريم، وبما أنّ الآية الكريمة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ...﴾ [المائدة: ٣]، نزلت يوم الحج، فإن يوحنا رآها عند رؤيا ميدان الحجّ. ومعنى «طيران الملك وسط السماء» أن هداية القرآن الكريم تصل سريعا إلى جميع البلدان، التي تقع تحت الخطوط المستقيمة لمنطقة البروج، أي بلدان العالم المتحضرة والمعمورة بالسكان، والبلدان الواقعة قرب القطبين يصل إليها هذا النداء متأخرا.

[اليوم أكملت لكم دينكم]:

لفظ «اليوم» في هذه الآية لا يشير إلى العصر النبويّ الممتدّ إلى ثلاث وعشرين سنة فحسب، بل إشارته تشمل آلاف السنين، ولفهم معنى «اليوم» هذا ينبغي الرجوع إلى أسفار العهد القديم والعهد الجديد. فسفر موسى الخامس، هو سفر التثنية، وبابه الثالث والثلاثون يبدأ هكذا:

«وهذه هي البركة التي بارك بها موسى رجل الله بني إسرائيل قبل موته. فقال: جاء الربّ من سيناء وأشرق لهم من سعير، وتلألأ من جبل فاران، وأتى من ربوات القدس، وعن يمينه نار شريعة لهم». (التثنية ٣٣/ ١-٣)

[اتفاق النصارى على أن هذا التنبؤ عن المستقبل]:

اتّفق علماء النصارى على أن ذلك تنبؤ وإخبار عن المستقبل، وهكذا يقول المسلمون، والنتيجة أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ارتحل من الدنيا بعد أن شوق أهل الدنيا إلى من يأتي بعده.

وآخر كتب العهد القديم سفر النبي ملاخي، وإنه كان بعد موسى بأربع وخمسين وألف سنة (١٠٥٤)، ويبدأ الباب الثالث من هذا السفر هكذا:

- «هأنذا أرسل ملاكي فيهيء الطريق أمامي، ويأتي بغتة إلى هيكله السيّد الذي تطلبونه، وملاك العهد الذي تسرّون به، هو ذا يأتي قال رب الجنود». ملاخي (٣/ ١-٢)

وعلم بذلك أن آخر أسفار العهد القديم يتركنا منتظرين.

ثم يبدأ العهد الجديد من الكتاب المقدس، ويقال له الإنجيل أيضًا، انظروا إلى الإنجيل، قال المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ في آخر وعظه الذي لم يعظ قومه بعده، الكلمات التالية:

- «**إن لي أمورا كثيرة أيضا لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلّم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلّم به، ويخبركم بأمور آتية ذاك يمجدني**». (إنجيل يوحنا ١٦/ ١٢-١٤).

[القرآن الكريم هو المصداق الوحيد لنصوص الانتظار في التوراة والإنجيل]:

وهذه النصوص والإحالات تدلّ بوضوح على أن التوراة والإنجيل كليهما، يتركاننا والعالم كلّه في انتظار الإكمال والإتمام، والقرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي يقضي على هذا الانتظار، يعلن النداء الملكي الأخير بقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، فلفظ «اليوم» يبشر الذين ينتظرون منذ آلاف السنين، ويقدّم لهم بشرى الإكمال والإتمام، حتى يفرحهم ويسرّهم.

- إن علماء طبقات الأرض (الجيولوجيا) وخبراء العلوم الكونية حينما يبدون آراءهم عن خلق الكون يقولون: «إن العالم الموجود الحاضر وصل إلى ما عليه الآن بعد آلاف التطورات وآلاف السنين. **فكأن حالة العالم الحاضرة الكاملة التي لا نستطيع أن نتصور أحسن منها، جاءت نتيجة تنسيق وتهذيب وتطوير استمر آلاف السنين**».

فهكذا نقول بيقين تام، أن لفظ «اليوم» في القرآن الكريم، يدلّ على أن هذه الصورة الكاملة لأحسن دين مختار للجنس البشري، قد برزت بعد مئات من الشرائع التي اختصت بأماكنها وأممها وأحوالها، وبعد آلاف السنين.

[من حقّ الإسلام أن يبشّر العالم أجمع]:

والآن من حق هذا الدين وصورته الكاملة أن يبشر كل أمة وجنس في أيّ بلد، وكذا كل فرد في كل بقعة بالبشارة الأبدية، ويقدّم إلى العصاة الذين تكسرت قلوبهم بشرى رحمة أرحم الراحمين، وبشرى غفران الغفور ومحبة الودود، ويفتح باب السلام والبركة للجميع، ويهيئ لهم نزول السرور الأبدي والرضوان الربانيّ، وبعد توفر هذه الأسباب، يعلن أن الدين أكملَ اليوم، وأتم الله نعمه السابغة على بني آدم اليوم.

[المناظرة مع النصارى في مصداق هذه البشارة]:

أيها القراء! أريد أن أقول هنا شيئا عن تنبؤ المسيح السابق. إني ناقشت عديدًا من الأساقفة الأفاضل حول الموضوع. ومنهم من يرفض ورود هذا التنبؤ في النبي محمد ﷺ، ويقول: إن هذه

=

التنبؤ قد تحقّق بحواريّ المسيح الاثني عشر يوم الخميس الذي ورد ذكره في أعمال الرسل (٢/ ١-٤) حيث يقول:

- «ولما حضر يوم الخميس كان الجميع معا بنفس واحدة، وصار بغتة من السماء صوت كما من هبوب ريح عاصفة وملأ كل البيت حيث كانوا جالسين، وظهرت لهم ألسنة منقسمة كأنها من نار واستقرت على كل واحد منهم، وامتلأ الجميع من روح القدس وابتدؤوا يتكلّمون بألسنة أخرى، كما أعطاهم الروح أن ينطقوا». (ص ١٩٠)
- **وأجبتُهم بأن ما وقع يوم الخميس قد بيّنه سانت بطرس قبلنا وقبلكم.** حيثما كانت روح القدس مع الحواريين جميعا ومع بطرس، كما ورد في سفر الأعمال نفسه (٢/ ١٤-١٦):

«فوقف بطرس مع الأحد عشر ورفع صوته وقال لهم: أيها الرجال: اليهود والساكنون في أورشليم أجمعون، ليكن هذا معلوما عندكم وأصغوا إلى كلامي، لأن هؤلاء ليسوا سكارى كما أنتم تظنّون، لأنها الساعة الثالثة من النهار. بل هذا ما قيل بيوئيل (يونس) النبيّ». (ص١٩١)

فلما أخبر سانت بطرس عن النصر من روح القدس بأن يوم الخميس يتعلّق بتنبؤ يوئيل النبي، لا بتنبؤ المسيح، فلا يحقّ لأسقف أن يدّعي بأنه يتعلق بتنبؤ المسيح.

وهذه شهادة خارجية قويّة.

والآن نقدّم شهادة داخلية، بكلمات المسيح نفسه:

١ - **يفيد الدرس الثاني عشر** للإصحاح السادس عشر من إنجيل يوحنّا، أن الأمور التي لم يبينها المسيح سيبينها روح الحقّ القادم. ولكن لم يظهر للحواريين يوم الخميس أي شيء جديد.

٢- **وفي الدرس الثالث عشر**، أن روح الحقّ يخبر بأمور قادمة. ولكن لم يخبر روح القدس ولا الحواريون يوم الخميس أي تعليم جديد.

٣- **وفي الدرس الرابع عشر** أن روح الحقّ يمجّد المسيح، ولكن الروح لم ينطق يوم الخميس بحرف عن المسيح.

[تنبؤ المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ في حق نبينا ﷺ جليّ واضح]:

والحق أن تنبؤ المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ جليّ واضح، في حق نبينا محمد ﷺ، ولمزيد من الإيضاح نورد ما يلي:

فأولا: قال المسيح في الدرس (١٢): «إن لي أمورا كثيرة أيضا لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن».

والأمور التي لم يبينها المسيح وبينها النبي ﷺ كثيرة لا تعدّ، وهي في الأغلب تتعلق

=

=

بالاحسانيات: مثل التفكر في ذات الله، والتفكر في صفات الله، والتفكر في أفعال الله، والتفكر في أيام الله، والتفكر في الموت وما بعده، وتوحيد العبادة، والتوحيد في الاستعانة، وتنزيه الحقّ، وتقديس الربّ، والصديقية، والمحدثية، والشهادة، والفناء عن النفس، والبقاء بالحقّ، وغير ذلك.

ثم بعد ذلك: أحوال القبر، وأحوال الحشر، وأبواب النجاة.

ثم بعد ذلك أبواب المصالح والارتفاقات وما إلى ذلك.

والإنجيل لم يتطرق إلى هذه الأمور، وإن تطرق إلى بعض منها فبطريقة التشبيه والتمثيل، وبشكل غير واضح.

وثانيا: قال المسيح في الدرس (١٣): «**فهو يرشدكم إلى جميع الحقّ**».

ويوافق ذلك ما ورد في القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ [الزمر: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢].

والظاهر أن المعلم الذي يعلّم الشريعة والحكمة والدين والعقل يتجمّع عنده الصدق الكامل كلّه.

وقال المسيح المذكور: «لأنه لا يتكلّم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به».

وقد وصف الله تعالى النبي ﷺ في القرآن الكريم بهذا الوصف فقال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝﴾ [النجم: ٣ - ٥].

وثالثا: قال المسيح في الدرس (١٤): «**ذاك يمجدني**».

والقرآن الكريم وكذلك كتب الحديث مملوءة بالكلمات التي خرجت من فم النبي ﷺ عن كرامة المسيح. وكان كثير من اليهود يأتون النبي ﷺ ويقولون: نحن مستعدّون للإيمان بك، ولكن لا يمكن أن نصدق المسيح.

فكان ﷺ يقول لهم: «من لم يؤمن بالمسيح لم يؤمن بي.»

وكان من نتيجة هذا التوجيه النبوي، أن المسلمين كلّهم يعترفون اليوم بعظمة المسيح وكرامته من أعماق قلوبهم، ويؤمنون به، ويعدّونه من أولي العزم من الرسل الخمسة.

وهكذا نحو (٩٠٠) مليون مسلم يشهدون للمسيح كل وقت، مع أنه لم يكن للنصارى شاهد خارجي واحد قبل الإسلام، والآن أيضًا لا يشهد لهم أحد سوى المسلمين بعفة مريم وولادة المسيح فوق العادة. وهكذا يحصل بهم التأييد لمعجزات المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

فعلى النصارى أن يفكروا في أنه كيف تحقق معنى قول المسيح «ذاك يمجدني» وأيّ تمجيد

=

وتصديق يكون أكبر من الذي ذكرناه؟

[إخبار النبي ﷺ ببعض الغيب الماضي والغيب المستقبل]:

وبقيت عبارته من الدرس (١٣)، وهي تقول: «**ويخبركم بأمور آتية**». وبصددها نقول: إن علماء النصارى الذين لم يدرسوا الكتاب والسنة، يقولون: إن نبينا محمدا ﷺ لم يخبر عن الغيب، ولم يخبر عن المستقبل.

وإني أتأسف حينما أسمع هذا الكلام منهم على قلة علمهم بكتبنا، ثم أتعجب من اجترائهم على ادعائهم هذا مع جهلهم بالأمور. إني لو فصلت الكلام عن أخبار النبي ﷺ وتنبؤاته في هذا التعليق لصار هذا التعليق كتابًا، ولذا أؤجّل الكلام على ذلك إلى فرصة أخرى.

ولكن أودّ إلقاء الضوء على الموضوع هنا بإيجاز إتماما لشرح الدرس (١٣)، وتصديقًا لقول المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(التنبؤ الأول):

كان أهل مكة من ألدّ أعداء النبي ﷺ ومن معه من المسلمين، وبذلوا أقصى جهودهم في سبيل القضاء على الإسلام وأهله. وكان عداؤهم شديدا ومستمرا بحيث لم يكن أحد يتصوّر أن يتحوّل هؤلاء أنفسهم في يوم من الأيام خدّاما للإسلام وإخوة للمسلمين، يفدون النبي ﷺ بأرواحهم وأنفسهم.

ولكن القرآن الكريم كان قد أخبر عن ذلك سابقا، فقال: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ ۝٨٨﴾ [ص: ٨٨]. وقد تحقق هذا التنبؤ في حياة النبي ﷺ نفسها، فأسلم أهل مكة جميعا، وكان فيهم أمثال خالد بن الوليد، الذي أنزل الهزيمة بالمسلمين في غزوة أحد، وعمرو بن العاص، الذي وفد على ملك الحبشة لأسر المسلمين، وعثمان بن أبي طلحة الذي كان يمنع النبي ﷺ من الدخول في الكعبة للعبادة [وقد تقدّمت ترجمتهم آنفًا].

(التنبؤ الثاني):

إن القبائل العربية، وأهل الديانات كلّهم كانوا اتفقوا على تكذيب الإسلام. وكان هناك بين الوثنيين والمجوس والصابئين واليهود والنصارى والملحدين فيما بينهم خلاف كبير، ولكنهم جميعًا كانوا متفقين على تكذيب النبي ﷺ وتدمير الإسلام. ولم تكن علامة تدلّ على أن أصحاب هذه الدعاوي والأهواء المختلفة يخضعون لصدق الإسلام وحقّانيته.

ولكن القرآن كان قد أخبر: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]. وهذا التنبؤ قد تحقّق بكل قوّة ووضوح، حتى اعترف أهل كل دين وقبيلة

=

بصدق الإسلام في حياة النبي ﷺ نفسه، وآمنوا به.

(التنبؤ الثالث):

كانت دولة الفرس تحارب دولة الروم فانهزمت الروم، وكان الفرس عبّاد النار، والروم أهل الكتاب النصارى. وكان أهل مكّة يتعاطفون بحكم الفطرة مع الفرس، والمسلمون مع الروم.

فلما انهزمت الدولة النصرانية فرح الوثنيون من أهل مكة كثيرا، وتفاءلوا بانتصار الفرس على الروم، بأنهم ينتصرون هكذا على المسلمين.

وفي الناحية الأخرى حزن المسلمون على هزيمة الروم. وقد أخبر القرآن بعد ذلك فقال: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ [الروم: ٢ – ٤].

ولم يكن أحد يصدّق هذا التنبؤ بالنظر إلى العقل الإنساني، وتجربته، والقرائن المتوفرة آنذاك، فإن النصارى لحقتهم هزيمة، قد كسرت شوكتهم لسنوات. وكان [أبي بن خلف] أبو جهل قد أعلن بجراءة واستخفاف أن هذا التنبؤ لو تحقق فإنه يتخلّى عن ثلاثمائة بعير له، وقد راهنه أبوبكر الصديق على ذلك، حتى يتحقق صدق الإسلام.

وفي العام الثامن من نزول هذه الآية، قد وقع ما أخبر به القرآن الكريم.

ويؤيد هذا التنبؤ أن كلمة «بضع» في اللغة العربية تطلق على الآحاد من الواحد إلى تسع.

(التنبؤ الرابع):

في بداية عهد النبوّة، كان الوحي قد انقطع، فبدأ الكفار يعيّرون النبي ﷺ، ويطعنون فيه بأن ربه قد قلاه وودّعه. والكلام الذي أنزله الله تعالى بهذه المناسبة قد تضمن تنبؤا أيضًا، يقول تعالى: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤﴾ [الضحى: ٤]. أي الزمن اللاحق يكون أحسن من السابق.

وحتى نعرف صدق هذا التنبؤ، علينا أن ننظر إلى السور المدنية، مثل: البقرة، وآل عمران، والمائدة، والأنعام، فإنها تفضل السور المكية من ناحية الأحكام والأسرار والتشريع والتفصيل، فالسور المكية تحتوي على العقائد والأحكام المجملة فقط.

والآية الكريمة تفيد أن النبي ﷺ يتدرّج إلى الرقي، ويظهر نجاحه باستمرار، فحياته ﷺ كلّها تصدّق ذلك التنبؤ.

ومن الظاهر أن أحدا لا يتنبأ عن حياته بمثل هذا التنبؤ الصريح أيام العداوة والمعارضة مع الأعداء إلا أن يكون مؤيدا من الله تعالى.

وبما أن كلمة «الآخرة» تطلق على الحياة المقبلة أيضا، التي تبدأ بيوم الحساب، فإن المسلمين

=

يؤمنون بأن فضل النبي ﷺ يظهر في ذلك العالم أيضًا على العالمين جميعا. وبما أن التنبؤ المذكور يظهر صدقه في هذه الدنيا لحظة بعد لحظة، فإن إيمان المسلمين هذا مبنيّ على أساس صحيح قويّ.

(التنبؤ الخامس):

توفّي ابن النبي ﷺ، فجعل الأعداء يفرحون، ويستبشرون بأن محمدا (ﷺ) لم يبق له من يرثه ويحيى اسمه. فتنبأ القرآن الكريم بهذا الصدد وقال: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر: ١ – ٣].

والكوثر مبالغة من الكثرة، وتدخل فيه جميع العطايا والنعم الظاهرة والباطنة، التي أعطيها النبي ﷺ، أو سيعطاها في الجنة.

منها: حوض الكوثر، ويدخل فيه كذلك عدد أمة محمد ﷺ الكثير، الذي يصلي ويسلم على النبي ﷺ عشرات المرات في اليوم الواحد، ويشهد له بالصدق، ويرفع اسمه الميمون في العالم، ولا تخلو منه قارة أو دولة أو ولاية من المسلمين.

أما أعداء الله ورسوله فاندثرت أسماؤهم بحيث لايعرفها أحد، وهكذا يسلّط هذا التنبؤ نوره على العالم بتمام الصدق إلى اليوم.

(التنبؤ السادس):

كان المسلمون يُطردون من مكّة، وكانوا مشرّدين لا يملكون شيئا، يعاديهم أهل بلدهم، حتى كأنهم مهدّدون بالانقراض والفناء قريبا.

وفي مثل هذه الأحوال، أعلن القرآن مخبرا عن المستقبل، فقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [النور: ٥٥].

والأمة التي اصطفاها الله تعالى قبل أمة محمد ﷺ كانت أمة بني إسرائيل، والأرض التي وعدها الله بها إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وداود عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ هي أرض الميعاد وهي حتى الأبد أعطيت أولاد إبراهيم (سفر التكوين ٢٤/ ٧).

وقد استمر تحقق هذا الوعد بعد إبراهيم في حقّ بني إسرائيل، فملكوا هذه الأرض لمدة آلاف السنين وحكموا عليها. وأخبر القرآن الكريم في الآية السابقة، أن الوعد المذكور سوف يتحقّق في حق الفرع الآخر لإبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ (أي مع المسلمين).

وهذا التنبؤ قد غيّر تأريخ آلاف السنين، فقد آلت أرض الشام إلى المسلمين في خلافة أبي بكر وعمر، وتحقق هذا الوعد الذي مرّ ذكره في الآية المذكورة. والآن يشهد تأريخ ثلاثة عشر

قرنا بصدق هذا التنبؤ، فعلى كل جاحد ومنكر أن يفكر في هذا الدليل البين، حتى يعرف تلك الأمة التي تملك أرض الشام، والتي تحقق فيها وعد الله تعالى الأبدي المحتم.

(التنبؤ السابع):

إن الأعداء هجموا على المسلمين، والقبائل المتحالفة مع المسلمين لما رأوا كثرة الأعداء وشوكتهم تخاذلوا عن نصر المسلمين، ولكن الله تعالى أنقذ المسلمين بنصره المؤزّر من هجمات الأعداء، فجاءت القبائل المتحالفة إلى النبي ﷺ، وطلبت منه العفو عن التقصير، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية في القرآن: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح: ١٦]. أي أنكم لو نصرتم في ذلك الوقت لعفونا عن هذا التقصير.

وبعد وفاة النبي ﷺ حاولت دولة فارس إعادة سيطرتها على جنوب الجزيرة العربية، ودولة الروم على شمالها، فرأى أبو بكر خليفة الرسول ﷺ إضعاف الدولتين للحفاظ على كيان المسلمين، فقاتل أولا مع دولة الروم في العراق والشام، ثم مع دولة فارس في فارس وخراسان. وقد اشتركت مع المسلمين في هذه الحروب جميع القبائل العربية، التي سبق أن عُرفت بعدائها للإسلام، وأجلّ القرآن عفو تقصيرها إلى نصرهم للإسلام فيما بعد.

والآن ينبغي أن نقرأ مع الآية المذكورة قوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ [الفتح: ٢٠ – ٢١]. وقد تحققت للمسلمين فتوحات عظيمة في البلدان المذكورة (بلاد فارس والروم).

وتحقق تنبؤ القرآن الكريم من وجوه عدّة:

١- حصلت فرصة لاختبار المقصّرين في نصرة الإسلام.

٢- إن الدول التي اصطدمت مع المسلمين كانت، ولاشك، قوية مهيبة.

٣- إن هذه المبارزة قد أدّت إلى ما تنبأ به القرآن الكريم، فالذين باشروا القتال هلكوا، وحصلت للمسلمين فتوحات عظيمة ومغانم كثيرة، والذين أظهروا المودّة أولا، أسلموا بعد التحقيق.

ويتبين صدق هذا التنبؤ بتأريخ الجزيرة العربية والشام وإيران وخراسان. ويمكن أن ندرج في هذه القائمة بلاد مصر وإفريقيا والنوبة والأندلس أيضًا.

[لماذا التفريق في الاستدلال بالأحاديث والأناجيل عند النصارى]:

والآن أقدّم كنموذج تنبؤات واردة في كتب الحديث، مع تذكير قرّائنا بأن إخواننا النصارى

=

لايقبلون الإحالة إلى الأحاديث، بل يقولون: **إن هذه الكتب جمعت بعد وفاة النبي ﷺ!**

وليتهم تعلّموا من موقف المسلمين من الأناجيل الأربعة، فإنهم يسمعون الإحالات إليها، ويسلّمون بها، ويحيلون إليها، وذلك أن النصارى يصدّقونها ويسلّمون بها.

وإلا فقد صرّحت كتب النصارى بأن الأناجيل الأربعة ألفت بعد المسيح بمدّة، وعلماء النصارى يختلفون اختلافا شديدا حول مؤلفيها، وزمن تأليفها، وبعض عباراتها، وهم يتناقضون فيما بينهم حول هذه الأمور بحيث يصعب أخذ فكرة سليمة بأقوالهم عن النصرانية وعن كتبها.

هذا، وفيما يلي الحديث الذي أشرت إليه:

«عن المستورد القرشي أنه قال عند عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: تقوم الساعة والروم أكثر النّاس.

فقال له عمرو: أبصر ما تقول.

قال: أقول ما سمعت من رسول الله ﷺ.

قال: لئن قلت ذاك، إن فيهم لخصالا أربعا: إنهم لأحلم النّاس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرّة بعد فرّة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف. وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك».

وهذا الحديث مخرّج في صحيح مسلم [رقم ٢٨٩٨]، والإمام مسلم توفّي في القرن الثالث [سنة ٢٦١هـ]. ولذا على كل معارض أن يعترف بانتشار هذا التنبؤ بين المسلمين في القرن الثالث، وهذا هو العصر الذي رفرفت فيه راية الإسلام على الدنيا كلّها، والمسلمون قد برزوا في مجال العلم والحكمة والقوّة والحضارة والتمدّن والسياسة وما إلى ذلك. والتنبؤ في مثل هذه الظروف بانتهاء هذه السيطرة والسيادة وذهاب شوكة المسلمين وسيطرة أمم أوربا المسيحية كان أمرا خارجا عن نطاق العقل والفكر، بل كان فألّا سيئا للمسلمين.

ولكنّ الإمام مسلما رَحِمَهُ اللهُ ذكر هذا الحديث في صحيحه، لأنه تأكد لديه أنه من كلام النبي ﷺ.

والآن ظهر صدقه بعد القرون العديدة، فلا توجد اليوم دولة خارج نفوذ الدول النصرانية وتأثيرها وتخطيطها. ولذا لا يشك في صحة الأخبار المذكورة، وإذا صحّ هذا، فإن العلامة التي ذكرها المسيح في إنجيل يوحنا (١٦/ ١٣) قد صحّت أيضا.

وهدفنا مما كتبنا، أن يعمل الإخوة النصارى بأقوال المسيح، ويتّبعوا محمدا ﷺ الذي ورد خبره في الإنجيل مع علامات جلية واضحة.

النحر:

ونحر النبي ﷺ يوم النحر ثلاثا وستين بدنة بيده[١]، ونحر علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ سبعا وثلاثين بدنة، وكان ذلك بمنى، وهي منحر منذ عهد إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ.

طواف الإفاضة:

وبعد النحر بادر النبي ﷺ إلى بيت الله، وطافه طواف الإفاضة[٢]، وقد اقتدى الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ كلّهم بالنبيّ ﷺ في الأضحية والطواف. وقد تمّ في هذا اليوم ذبح ألوف من الإبل والغنم والضأن والبقر[٣].

---

(١) قال ولي الله الدهلوي: «أقول: إنما نحر بيده هذا العدد، ليشكر ما أولاه الله في كل سنة من عمره ببدنة...». («حجة الله البالغة»: ٢/ ١١٦). (صلاح)

(٢) قال ولي الله الدهلوي: «إنما بادر إلى البيت لتكون الطاعة في أول وقتها، ولأنه لا يأمن الإنسان أن يكون له مانع....» («حجة الله البالغة»: ٢/ ١١٦). (صلاح)

(٣) راجعوا سفر أشعياء (٦٠/ ٧) فقد ورد فيه: «**كلّ غنم قيدار تجتمع إليك، كباش نبايوت تخدمك، تصعد مقبولة على مذبحي، وأزين بيت جمالي**».

ونبايوت وقيدار: اسمان لابني إسماعيل (التكوين ٢٥/ ١٣)، وقبائل قريش من أولاد قيدار، ومعظم القبائل الأخرى من نسل نبايوت (أو نبيط أو نبيت أو نبايوت).

وقد أخبر الله تعالى في هذه الفقرة أن جميع القبائل العربية تضحّي وتنحر في ذلك الوقت، وجعل الله تعالى في هذا الدرس المنحر مذبحه، وبهذا علم أن هذا المنحر هو المنحر الذي يتقبل الله تعالى قرابينه، وهذا الموضع تشرف بكونه منحرا مقبولا عند الله تعالى.

وتأتي بعد ذلك جملة: وأزين «بيت جمالي». وليعلم أن «بيت الجمال» ترجمة «البيت الحرام»، وقد أطلق الله تعالى هذا الاسم على الكعبة في القرآن الكريم، حيث قال: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧]. وأسماء القبائل العربية، وعنوان منى، وذكر منى وبيت الله معا، أمور تجعل التنبؤ ههنا مختصًا بالنبي ﷺ وبحجّه.

وقد سبق أن ذكرنا من سفر أشعيا (٦٠/ ١-٦) في بداية هذا المقال، فاقرءوا الآن بداية الإصحاح، فإن الدرس الخامس يتضمّن أسماء مديان وعيفة وشبا، وهذه القبائل كلّها كانت حاضرة في ذلك الحجّ.

=

من أهداف الحجّ: إعلان التوحيد الخالص وتعظيم شعائر الله:

وكان النبي ﷺ قصد بالحج تعظيم شعائر الله، وإحياء سنن الهدى لإبراهيم وإسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ[(١)]، وإبطال عادات الكفار الشركية، وإعلان التوحيد الخالص ونشر تعاليم الإسلام بصفة عامة.

تسمية حجّة البلاغ وحجة الوداع:

وبما أن النبي ﷺ بلّغ الأمة في هذا الحجّ البلاغ الأخير، سمّي «حجة البلاغ»، وبما أنه ﷺ قال فيها للأمة كلمات التوديع[(٢)] سُمّي «حجّة الوداع».

تحقق النجاح العظيم في أداء رسالة الإسلام:

وبعد إعلان التوحيد والعمل به، وبعد البلاغ والوداع، في جمع بلغ عددهم مئة وأربعة وأربعين ألفا، أي بعد تحقق هذا النجاح العظيم في أداء رسالة الإسلام، رجع النبي ﷺ إلى المدينة فرحا ومسرورا.

=

وفي نفس الدرس ذكر أن شبا تحمل ذهبا ولبانا، وشبا اسم لبلد اليمن أيضا، لأن شبا عمّره، والعام الذي حج فيه الرسول ﷺ كان عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حاكما وداعيا فيه على اليمن، وكان قد جاء من اليمن إلى مكة للحجّ مباشرة، وقدّم إلى النبي ﷺ بمكة ما حصّله من محصول اليمن وخيراته.

فهذا تنبؤ واضح جدا، يعجز زملاءنا النصارى أن يجدوا له تأويلا صحيحًا آخر غير ما ذكرنا.

(١) في الحج موافقة ما توارث النَّاس عن سيدنَا إبْرَاهِيم وإسمعيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فإنهما إماما المِلَّة الحنيفية ومشرعاها للْعرب، والنبي ﷺ بعث لتظهر بِهِ الملّة الحنيفية وتَعْلُو بها كلمتها، وهو قوله تعالى: ﴿...مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ...﴾ [الحج: ٧٨]

فمن الْواجِب المحَافظَة على مَا استفاض عَن إماميها كخصال الْفطْرَة ومناسك الحج؛ وهُوَ قَوْله ﷺ: «قفوا على مشاعركم فإنكم على إرث من إرث أبيكم إبراهيم.» (راجع «حجة الله البالغة»: ٢/ ١٠٠). (صلاح)

(٢) ودّع النبي ﷺ الناس فيها وقال لهم: «خذوا عني مناسككم، لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا». (مسلم رقم ١٢٩٧ عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)

حديث غدير خم[١] أثناء عودة النبي ﷺ، من مكة:

ولما رجع رسول الله ﷺ من حجة الوداع، جاءه بريدة الأسلمي، وشكا للنبي ﷺ بعض أعمال عليّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الخاصة بتقسيم الغنائم، حينما كان أميرًا في اليمن[٢].

وكانت هذه الشكوى ناشئة عن قصور الفهم، فخطب النبيّ ﷺ خطبته البليغة، وبين فيها مكانة أهل البيت، ورفع شأنهم، وأخذ بيد عليّ وقال: «**من كنت مولاه فعلي**

---

(١) (غدير خم) يقع قريبًا من الجحفة ما بين مكة والمدينة. وسمي بذلك لوجود المياه فيه، وخطب النبي ﷺ هذه الخطبة فيه، في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة، عند عودته من حجة الوداع. (السيرة الصحيحة: ٢/ ٥٥٠) (صلاح).

(٢) ذكر ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ لبيان أهل القصة رواية أحمد (٥/ ٣٤٧) بإسناده قال: اشتكى الناس عن بريدة قال: غزوتُ مع عليّ اليمن، فرأيت منه جفوة، فلما قدمت على رسول الله ﷺ ذكرت عليّا فتنقصته، فرأيت وجه رسول الله يتغير.

فقال: «يا بريدة، ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟».

قلت: بلى يا رسول الله!

قال: «مَن كنتُ مولاه فعليّ مولاه».

وكذا رواه النسائي [في السنن الكبرى برقم ٨٤٦٧]، عن أبي داود الحرّاني، عن أبي نعيم الفضل ابن دُكين، عن عبد الملك بن أبي غنية بإسناده نحوه».

قال ابن كثير: «هذا إسناد جيّد قوي، رجاله كلّهم ثقات».

وأورد عن النسائي في سننه (٨٤٦٤) بإسناده عن زيد بن أرقم. قال: لما رجع رسول الله ﷺ من حجة الوداع، ونزل «غدير خم» -ذكر نحوه-. ثم قال: قال شيخنا أبو عبد الله الذهبي: هذا حديث صحيح.

وكذلك ذكر رواية ابن ماجة (١١٦) بإسناده عن البراء بن عازب. نحوه، (وهو أيضًا صحيح كما في صحيح سنن ابن ماجة للألباني: ٩٤).

قبل ذكر هذه الروايات وغيرها، قال ابن كثير:

«**نحن نورد عيون ما روي في ذلك، مع إعلامنا أنه لا حظّ للشيعة في ذلك، ولا متمسك لهم ولا دليل، لما سنبينه وننبه عليه**». (راجع البداية والنهاية: ٧/ ٦٦٦-٦٦٩. ط. د. التركي) (صلاح)

مولاه»(١).

وبعد هذه الخطبة قال عمر لعليّ: بخ بخ لك يا ابن أبي طالب! أصبحتَ مولاي ومولى كلّ مسلم(٢).

وقد بقي بريدة على حبّه لعليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ طول حياته، واستشهد في وقعة جمل(٣).

(١) صحيح «الترمذي» للألباني (رقم ٣٧١٣) عن أبي سريحة أو زيد بن أرقم، وذكره في صحيح الجامع (٦٥٢٣) عن البراء بن عازب، وبريدة بن الحصيب الأسلمي وزيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(٢) ذكره ابن كثير نحوه في البداية والنهاية: (٧/ ٦٦٩-٦٧٠) عن أبي يعلى، وابن جرير، وقال: «ضعيف جدًّا والله أعلم». (صلاح)

(٣) راجع ترجمته في «الإصابة» (١/ ١٤٦ رقم ٦٣٢)، وفيه: أخبار بريدة كثيرة، ومناقبه مشهورة، كان غز خراسان في زمن عثمان، ثمّ تحوّل إلى مرو، مسكنها إلى أن مات في خلافة يزيد بن معاوية. قال ابن سعد: مات سنة ثلاث وستين. (صلاح)

السنة الحادية عشرة

هذا هو العام الذي لحق فيه رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى بعد أن أدّى الرسالة، التي كلّف بها. وقبل وفاته بسته أشهر نزلت هذه السورة:

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾ [النصر: ١ - ٣][١].

الإصابة المؤلمة بوفاته ﷺ:

- وبعد نزول هذه السورة عرف النبي ﷺ أنه الوداع.
- وكان ﷺ اعتكف في رمضان الأخير عشرين يومًا، بينما كان يعتكف كل عام عشرة أيام.
- وذكر لابنته فاطمة البتول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن أجله قد اقترب[٢].

استعداده ﷺ ليوم الرحيل:

- **وفي بداية شهر صفر سنة إحدى عشرة للهجرة،** بدأ ﷺ يستعدّ لرحيله من الدنيا، فذات يوم أتى جبل أحد، وصلّى على من كان به من الشهداء بعد ثماني سنين، كالمودّع للأحياء والأموات، ثم طلع المنبر، فقال:

«إني بين أيديكم فرط، وأنا عليكم شهيد، وإن موعدكم الحوض، وإني لأنظر إليه من مقامي هذا، وإني لستُ أخشى عليكم أن تشركوا، ولكني أخشى عليكم من الدنيا أن

---

(١) راجع تأويل عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لهذه الآيات بفتح مكة، وأجل النبي ﷺ في «صحيح البخاري» (٤٢٩٤) (صلاح)

(٢) البخاري (٢/ ٢٦٠). [وكذلك برقم ٤٤٣٣، ومسلم (٢٤٥٠) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وفيه: ذكر بكاء فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ثم ضحكها. (صلاح)]

تنافسوها»(١).

• ثم انطلق إلى البقيع في نصف الليل، ودعا لأهله وقال: «إنا بكم للاحقون»(٢). كأنه بشّرهم بقدومه.

وجمع المسلمين وخطب أمامهم فقال:

«مرحبا بكم، حيّاكم الله بالسلامة، رحمكم الله، حفظكم الله، جبركم الله، رفعكم الله، آواكم الله، وقاكم الله، أوصيكم بتقوى الله، وأوصي الله بكم وأستخلفه عليكم، وأحذركم الله، إني لكم منه نذير مبين، أن لا تعلوا على الله في عباده وبلاده، فإنه قال لي ولكم:

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣].

ثم تلا هذه الآية: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزمر: ٦٠].

وقال ﷺ في الأخير:

«سلام عليكم وعلى من يدخل بيعتي بالسّلام إلى يوم القيامة»(٣).

---

(١) البخاري (٤/ ٢١٠) [رقم ١٣٤٤]، ومسلم (٢/ ١٩٠٤) [رقم ٢٢٩٦، وكلاهما عن عقبة بن عامر الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

(٢) البخاري (٥/ ٢٩). [ومسلم (٩٧٤، ٩٧٥) عن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا]

(٣) الزرقاني (الجزء الثامن)، نقلًا عن الواحدي. [رواه الطبراني نحوه في الأوسط (٥/ ٩-١٠ رقم ٤٠٠٨) عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **ولم يجوّد أحد إسناد هذا الحديث إلا عمر بن محمد العنقري**، ورواه المحاربي عن عبد الملك بن الأصبهاني عن مرّة عن عبد الله: ولم يذكر خلّادا الصفار، ولا الأشعث بن طليق ولا الحسن العرني. أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢١٩٣)، والبزّار (٢٠٢٨)، والطبري في التأريخ (٢/ ٢٢٧). (صلاح)]

ابتداء مرضه ﷺ[1]

وبعد أيام (أي يوم الاثنين، التاسع والعشرين من شهر صفر سنة إحدى عشرة للهجرة[2]) بدأ مرضه بوجع الرأس والحمّى الشديدين[3].

قال أبو سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وضعت يدي على النبيّ ﷺ، فقلت: والله ما أطيق أن أضع يدي عليك من شدة حمّاك.

فقال النبي ﷺ:

«إنا معشر الأنبياء يضاعف لنا البلاء، كما يضاعف لنا الأجر»[4].

وما زال يصلّي بالنّاس بنفسه إلى أحد عشر يومًا، وهو مريض، وكانت أيام مرضه ثلاثة عشر[5] أو أربعة عشر يومًا.

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «قضى النبيّ ﷺ آخر أسبوعه في بيت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، كان النبي ﷺ إذا اشتكى قرأ هذا الدعاء، ومسح جسده بيده.

---

(١) لما قفل النبي ﷺ من حجة الوداع، أقام بالمدينة ذا الحجة، والمحرم، وصفرًا، وضرب على الناس بعثًا أميره: أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -وهو آخر بعوثه-. فبينا الناس على ذلك، ابتدأ صلوات الله عليه وسلامه بشكواه، الذي قبضه الله فيه إلى ما أراد من رحمته وكرامته، في ليال بقين من صفر -أو في أول شهر ربيع الأول-. (عيون الأثر: ٢/ ٤٤٥) (صلاح)

(٢) على هذا، بقي النبي ﷺ وجعًا اثني عشر يومًا. («الصحيح المصفّى» للشيخ الهلالي:٣٥٨) (صلاح)

(٣) رواه البخاري (رقم ٤٤٢٨) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: «كان النبي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه: "يا عائشة! ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر"». (صلاح)

(٤) أخرج نحوه ابن ماجة (٤٠٢٤) وابن سعد (٢/ ٢٠٨)، والحاكم (٤/ ٣٠٧) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي، قال الألباني: «وهو كما قالا». (راجع السلسلة الصحيحة للألباني، رقم ١٤٤). (صلاح)

(٥) قال ابن سيّد الناس: دفن في وسط الليل، ليلة الأربعاء، وكانت مدة شكواه ثلاث عشرة ليلة. (عيون الأثر: ٢/ ٤٥١) (صلاح)

«أذهب البأس ربّ الناس، واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لايغادر سقما»[١].

قالت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ولما أغمي على رسول الله ﷺ -وهو في حجري- جعلت أمسح وجهه، وأدعو له بالشفاء، فقال: لا، بل أسأل الله: **«اللهم اغفر لي وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى»**.[٢]

قبل الوفاة بخمسة أيام:

- **(يوم الأربعاء):**

وقبل الوفاة بخمسة أيام (أي يوم الأربعاء) اشتدّ به وجعه.

فقالﷺ: أهريقوا عليّ سبع قرب من آبار شتى[٣]، فأفيق منه قليلا، فدخل في المسجد، وقال:

«ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتّخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتّخذوا القبور مساجد، إني أنهاكم عن ذلك».

وقال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[٤].

وقال: «اللهم لا تجعل قبري بعدي وثنا يعبد: اشتدّ غضب الله على قوم اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد[٥]، وإني أنهاكم عن ذلك، اللهم هل بلغت، ثلاث مرات».

ثم صلّى رسول الله ﷺ بالنّاس، وطلع على المنبر بعد الصلاة، وكان هذا آخر جلوس له على المنبر[٦]، ثم قال:

«استوصوا بالأنصار خيرا، فإن الناس يزيدون وإن الأنصار على هيئتها لا تزيد،

---

(١) البخاري (٧/ ٢٦) [رقم ٥٦٧٥، ومسلم (٢١٩١) عن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا]

(٢) البخاري (٥/ ١٣٨) [رقم ٥٦٧٤، ومسلم (٢٤٤٤) عن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا]

(٣) سيرة ابن هشام (٢/ ٦٤٩) [والبخاري رقم ٥٧١٤ وغيره، ومسلم (٤١٨) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا]

(٤) البخاري (٥/ ١٤٠) [رقم ١٣٩٠، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ومسلم (٥٣٠) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

(٥) موطأ مالك [١/ ١٧٢] عن عطاء بن يسار. [صححه الألباني في تخريج المشكاة رقم ٧١٥]

(٦) البخاري (٥/ ١٣٧) [رقم ٩٢٧، ٣٦٢٨ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا]

وإنهم كانوا عيبتي التي أويت إليها، فأحسنوا إلى محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم».[١]

ثم قال:

«**إن عبدًا من عباد الله خيّره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله**».

فلم يفهمه إلا أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال: «بل نحن نفديك بأنفسنا وأموالنا وأبنائنا.[٢]»

- **(يوم الخميس):**

وفي يوم الخميس اشتدّ وجعه ﷺ[٣]، وفي البيت رجال، فقال النبي ﷺ: «هلمّوا، أكتب لكم كتابا لا تضلّوا بعده».

فقال بعضهم[٤]: إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع. وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت[٥] واختصموا، فمنهم من يقول: قرّبوا يكتب لكم كتابا

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٦٤٩) [روى البخاري (٣٨٠٠) هذا المعنى بألفاظ مختلفة في مناقب الأنصار، باب قول النبي: اقبلوا محسنهم].

(٢) البخاري [٥/ ٤٤٣] عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، والدارمي [١/ ٣٦] ومسلم [٢٣٨٢] عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) روى البخاري (رقم ٤٤٣١-٤٤٣٢) عن سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: يوم الخميس وما يوم الخميس، اشتدّ برسول الله ﷺ وجعه. (صلاح)

(٤) أي عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وقال النووي: اتفق قول العلماء على أن قول عمر (حسبنا كتاب الله) من قوّة فقهه، ودقيق نظره، لأنه خشي أن يكتب أمورا ربما عجزوا عنها، فاستحقّوا العقوبة، لكونها منصوصة.

وأراد أن لا ينسدّ باب الاجتهاد على العلماء. وفي تركه ﷺ الإنكار على عمر إشارة إلى تصويبه رأيه. (شرح صحيح مسلم: ١١/ ٩٠)

ويحتمل أن يكون قصد التخفيف عن رسول الله ﷺ، لما رأى ما هو فيه من شدة الكرب، وقامت عنده قرينة بأن الذي أراد كتابته، ليس مما لا يستغنون عنه، إذ لو كان من هذا القبيل، لم يتركه ﷺ لأجل اختلافهم، ولا يعارض ذلك قول ابن عباس: إن الرزية كل الرزية. (البخاري (٤٤٣٢)

وهذا كان سبب توقّف عمر، لا أنه تعمد مخالفة قول النبي ﷺ، ولا جواز وقوع الغلط عليه حاشا وكلا. (الخطابي: ١/ ٢٢٣-٢٢٦) (صلاح)

(٥) المراد به «من كان في البيت من الصحابة، وليس المراد أهل بيت النبي ﷺ.» (الفتح: ٨/ ١٣٢)

لا تضلّوا بعده، ومنهم من يقول غير ذلك، فلما أكثروا اللغو والاختلاف، قال رسول الله ﷺ: قوموا[١].

وبعد ذلك (أي في يوم الخميس) أمر النبي ﷺ بثلاث[٢]:

١- أخرجوا اليهود من جزيرة العرب.

٢- أجيزوا[٣] الوفد بنحو ما كنت أجيزهم.

٣- والوصية الثالثة لم يرد ذكرها في رواية سليمان الأحول[٤]، إلا أنّ البخاري أخرج في كتاب الوصايا عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان أوصى بالقرآن[٥].

صلاة المغرب يوم الخميس:

كان النبي ﷺ صلّى بالناس في هذا اليوم جميع الصلوات إلى المغرب، وتلا في المغرب

---

(١) وفي البخاري [رقم ١١٤] عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «يوم حُضِر رسول الله ﷺ: هلموا أكتب لكم كتابا لا تضلّوا بعده».

(٢) **(أوصاهم بثلاث): قال الحافظ**: هذا يدلّ على أن الذي أراد أن يكتبه، لم يكن أمرا متحتما، لأنه لو كان مما أمر بتبليغه، لم يكن يتركه لوقوع اختلافهم، ولعاقب الله من حال بينه وبين تبليغه، ولبلّغه لهم لفظا، كما أوصاهم بإخراج المشركين وغير ذلك، وقد عاش بعد هذه المقالة أياما، وحفظوا عنه أشياء لفظا، فيحتمل أن يكون مجموعها ما أراد أن يكتبه ﷺ. (راجع مجموع هذه الأقوال في «السيرة النبوية في فتح الباري» للدكتور محمد الأمين الشنقيطي: ٣٤٨-٣٥٣) (صلاح)

(٣) (أجيزوا الوفد) أي: أعطوهم الجوائز والعطايا.

(٤) البخاري (٥/ ١٤٤) [رقم ١١٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما]

(٥) عن طلحة بن مصرّف قال: سألت عبد الله بن أبي أوفى: هل أوصى رسول الله ﷺ؟ فقال: لا! قلت: فلم كتب على المسلمين الوصية؟ أو فلم أمروا بالوصية؟

قال: «أوصى بكتاب الله عز وجل». (البخاري ٤٤٦٠، ومسلم في الوصية: ١٦٣٤).

وعن أبي عبيدة بن الجرّاح رضي الله عنه: «آخر ما تكلّم به النبي ﷺ: أخرجوا يهود أهل الحجاز، وأهل نجران من جزيرة العرب. واعلموا أن شرار الناس الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. (البخاري: رقم ٤٣٥١، ومسلم: رقم ٥٣١). (صلاح)

«سورة المرسلات». إن الآية الأخيرة من هذه السورة، تدلّ على عظم شأن القرآن الكريم، وهي:

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠﴾ [المرسلات: ٥٠][١].

صلاة العشاء يوم الخميس:

أراد النبيّ ﷺ ثلاث مرات، أن يذهب إلى المسجد لصلاة العشاء، ولكنّه كلّما جلس يتوضأ غشي عليه، فأمر أبا بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن يؤمّ بالنّاس فصلّى أبوبكر بالناس سبع عشرة[٢] صلاة في حياة النبيّ ﷺ امتثالا لأمره ﷺ.

قبل وفاته ﷺ بيوم أو يومين:

يوم السبت أو يوم الأحد، كانت صلاة الظهر قد قامت في إمامة أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، إذ تشرّف النبيّ ﷺ متحاملًا على كتفي العباس وعليّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، فأخذ أبوبكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ينكص، فأومأ إليه أن لا ينكص، ثم جلس للصلاة في جنب أبي بكر، فكان أبو بكر يقتدي بالنبي ﷺ، والناس يقتدون بأبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[٣].

قبل وفاته بيوم:

أطلق يوم الأحد جميع العبيد، ويبلغ عددهم أربعين عبدا، حسب ما ورد في بعض الروايات.[٤]

(١) البخاري (٥/ ١٣٧) [رقم ٧٣٦ عن أم الفضل بنت الحارث، قالت: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب «والمرسلات عرفا»، ثم ما صلّى لنا بعدها حتى قبضه الله. ومسلم رقم ٤٦٢ عن عبد الله بن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا]

(٢) راجع «عيون الأثر» (ص٤٤٧)

(٣) البخاري (١/ ١٦٦) [بأرقام ٦٦٤، ٧١٢، ٧١٣، ومسلم (٤١٨، ٩٥، ٩٦) عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا]

(٤) هذا خلاف الروايات الصحيحة، كما في التعليق الآتي. وكذلك عن عمرو بن الحارث بلفظ:

«ما ترك رسول الله ﷺ دينارًا، ولا درهما، ولا عبدًا، ولا أمة، إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها، وسلاحه». (البخاري رقم ٤٤٦١)

وكان في بيته سبعة دنانير، فأنفقها على الفقراء، وفي مساء ذلك اليوم (أي: الليلة الأخيرة) كانت استعارت عائشة زيت المصباح من إحدى جاراتها[١]، وأعطى المسلمين سلاحه[٢]، وكان درعه رهنا عند يهوديّ بثلاثين صاعا من شعير.[٣]

يوم الاثنين: اليوم الأخير من حياة النبي ﷺ:

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يصلّي بهم في وجع النبي ﷺ، الذي توفّي فيه، حتى إذا كان فجر يوم الاثنين، وهم صفوف في الصلاة، فكشف النبيّ ﷺ ستر الحجرة، ينظر إلينا، وهو قائم، كأن وجهه ورقة مصحف[٤]. ثم تبسّم يضحك، فهممنا أن نفتتن من الفرح برؤية النبي ﷺ.

فنكص أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على عقبيه، ليصل الصفّ، وظنّ أن النبيّ خارج إلى الصلاة، فأشار إلينا النبي ﷺ: أن أتمّوا صلاتكم[٥].

ولم يأت على النبي ﷺ بعد ذلك وقت لصلاة أخرى.

نعيه ﷺ نفسه إلى بنته فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ومسارّته لها:

ولما ارتفع النهار دعا النبي ﷺ فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فسارّها بشيء فبكت، ثم دعاها فسارّها بشيء، فضحكت.

---

(١) مدارج النبوّة (٢/ ٤٩٣).

(٢) البخاري (٢٩١٢، ٣٠٨٩) عن عمرو بن الحارث (هو أخو أم المؤمنين جويرية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا)

(٣) البخاري (٥/ ١٤٥) عن الأسود عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا [وأحمد (رقم ٢٧٤٣) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بإسناد صحيح]

(٤) هذا التشبيه في حديث أنس تشبيه نادر نزيه، فإن ورقة المصحف تكون مكتوبة بالذهب، وكان وجه النبي ﷺ قد غلبته صفرة المرض فشبه وجهه في اللون والإشراق بالذهب، وفي القداسة بالقرآن الكريم. [ورقة مصحف: عبارة عن الجمال البارع، وحسن البشرة، وصفاء الوجه، واستنارته (صلاح)].

(٥) البخاري (١/ ١٦٥، ١٦٦) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [بأرقام ٦٨١،٦٨٠، ٧٥٤، ١٢٠٥، ٤٤٤٨، ومسلم (٤١٩)]

فسألنا عن ذلك فقالت: سارّني النبي ﷺ فأخبرني أني أوّل أهله يتبعه فضحكت[١].

وفي ذلك اليوم[٢] بشّر النبي ﷺ فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بكونها سيّدة نساء العالمين[٣].

وقالت فاطمة البتول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في مصابها هذا:

و اكرب أباه!

فقال لها: ليس على أبيك كرب بعد اليوم[٤].

ثم طلب الحسن والحسين (سيّدي شباب أهل الجنة) فقبلهما وأوصى فيهما.

ثم طلب الأزواج، ونصحهن.

ثم طلب عليًّا فوضع رأسه في حجره، وأوصى له، وكان ﷺ يتكلّم فيقع بصاقه على وجه علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٥].

وفي تلك المناسبة قال: «الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم»[٦].

---

(١) البخاري (٥/ ١٣٨) عن عروة عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا [بأرقام ٣٦٢٣، ٣٦٢٥، ٣٧١٥، ٤٤٣٣ وغيرها، ومسلم: ٢٤٥٠، ٩٧، ٩٨، ٩٩]

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «في الحديث إخباره ﷺ بما سيقع، فوقع كما قال، فإنهم اتفقوا على أن فاطمة عليها السلام كانت أول من مات من أهل بيت النبي ﷺ بعده، حتى من أزواجه.» (الفتح: ٨/ ١٣٦) (صلاح)

(٢) يفهم من بعض الروايات، أن هذه الواقعة لم تكن في اليوم الأخير، بل كانت في الأسبوع الأخير.

(٣) البخاري (٤/ ١٨٣) [رقم ٣٧٤٥، ٦٢٨٥، ٦٢٨٦، ومسلم (٩٩) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وفيه من قول فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ثم إنه سارّني، فقال: «ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمة، فضحكت لذلك».]

(٤) البخاري [٤٤٦٢] عن أنس، باب مرض النبي ﷺ [وفيه: «فلما مات ﷺ، قالت: يا أبتاه، أجاب ربًّا دعاه، يا أبتاه، من جنة الفردوس، مأواه. يا أبتاه! إلى جبريل ننعاه، فلمّا دفن، **قالت فاطمة** عَلَيْهَا السَّلَامُ: يا أنس! أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب؟»]

(٥) الزرقانيّ نقلا عن ابن سعد، وفي سنده: الواقدي وحرام بن عثمان: متروكان [الفتح: ٨/ ١٣٩].

(٦) أبو داود (٥١٥٦) عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلفظ: كان آخر كلام النبي ﷺ: «الصلاة الصلاة، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم». وابن ماجة (٢٦٩٨)، وهو صحيح لشواهده، فقد جاء عن أنس وأم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وذكره الألباني في «صحيح الجامع» (٤٦١٦). (صلاح)

قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:
هذه كانت آخر وصيّة أوصى بها رسول الله ﷺ[١].
وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ردّد النبيّ ﷺ هذا الكلام عدة مرات[٢].

احتضاره ﷺ:

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: رأيت رسول الله ﷺ يموت، وأنا مسندته إلى صدري، وعنده قدح فيه ماء، يدخل يده في القدح، ثم يمسح وجهه بالماء، يقول:
«لا إله إلا الله، إن للموت سكرات.»

ودخل عبد الرحمن[٣]، وبيده السواك، فنظر إليه النبيّ ﷺ، وعرفت أنه يحبّ السواك، فقلت: آخذه لك، فأشار برأسه، «أن نعم!». فتناولتُه، فاشتدّ عليه، وقلت: أليّنه لك؟ فأشار برأسه: أن نعم![٤] فليّنته، فاستاك به، ثم نصب يده، فجعل يقول: **«اللهم الرفيق الأعلى»**.[٥]

---

(١) ابن ماجة (٢٦٩٧) صحيح لغيره من حديث عليّ، كما تقدّم، وحديث أم سلمة في ابن ماجة في الجنائز (رقم ١٦٢٥). (صلاح)

(٢) البخاري عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والخصائص الكبرى. (الجزء الثاني)

(٣) **هو:** عبد الرحمن بن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخو عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. (صلاح)

(٤) **قال ابن حجر:** ويؤخذ منه العمل بالإشارة عند الحاجة إليها، وقوّة فطنة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. (الفتح: ٨/ ١٤٤)

(٥) البخاري (٥/ ١٤٢) [٤٤٤٩، ٦٥١٠، عن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا].
(فائدة): نقل عن الجوهري قوله (الرفيق الأعلى) الجنة. وقيل: المراد «الأنبياء»، ومن ذكر في الآية ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾ [النساء: ٦٩]. (الفتح: ٨/ ١٣٧)
«لما مرض ﷺ لم يزل يذكر الرفيق الأعلى، ويحنّ إليهم حتى توفاه الله، ثم تكفل أمر ملته، فنصب قوما لا يخافون لومة لائم، فقاتلوا المتنبئين والروم والعجم حتى تم أمر الله ووقع وعده. فصلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم.» («حجة الله البالغة»: ٢/ ٣٨٩) (صلاح)

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ثم أُغمضتْ عيناه، وتغيّرت حدقته ومالت يده[١].

لحوقه ﷺ: بالرفيق الأعلى

وكانت وفاته ﷺ ضحى يوم الاثنين[٢] لاثنتي عشرة ليلة، خلت من ربيع الأول عام أحد عشر من الهجرة، وكان عمره إذ ذاك ثلاثا وستين سنة[٣]، وأربعة أيام بالتوقيت القمري:

﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ١٥٦﴾ [البقرة: ١٥٦]

﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ٣٤﴾ [الأنبياء: ٣٤]

مصيبة الأولين والآخرين بوفاة النبي ﷺ:

- قالت فاطمة البتول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في مصابها هذا:

«يا أبتاه أجاب ربًا دعاه! يا أبتاه إلى جنة الفردوس مأواه! يا أبتاه إلى جبريل ننعاه.»[٤]

---

(١) البخاري [رقم ٤٤٤٩، ٦٥١٠] بلفظ: «حتى قبض ومالت يده». عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(فائدة): نبه الحافظ ابن حجر في الفتح (٨/ ١٣٩) إلى أن هذا الحديث يعارض ما أخرجه الحاكم وابن سعد (الطبقات: ٢/ ٢٦٢-٢٦٣) من طرق، (أن النبي ﷺ مات ورأسه في حجر عليّ) كل طريق منها لا يخلو من شيعيّ، فلا يلتفت إليهم، وتقدّم آنفًا أن في سنده الواقدي وحزام بن عثمان، وهما متروكان. (صلاح)

(٢) البخاري [رقم ١٣٨٧ عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا]. وأما وقت وفاته ﷺ في تأريخ أبي الفداء «**ضحوة النهار**». وفي بعض الروايات: هو الوقت الذي نبئ فيه، وفي بعضها: هو الوقت الذي وصل فيه إلى المدينة (قباء).

(٣) البخاري (٣٥٣٦) عن عائشة، و(٣٩٠٢) عن ابن عباس، ومسلم (٢٣٤٩) عن عائشة، و(٢٣٥١) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. (صلاح)

(٤) البخاري (رقم ٤٤٦٢) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وتكملته: «فلما دفن النبي ﷺ، قالت فاطمة:

يا أنس: أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب.»

فقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: إنها (أي فاطمة) عليها السلام أشارت بذلك إلى عتابهم على إقدامهم على ذلك، لأنه يدلّ على خلاف ما عرفته منهم من رقّة قلوبهم عليه ﷺ لشدّة محبتهم له. وقد سكت أنس عن جوابها رعايةً لها ولسان حاله يقول: لم تطب أنفسنا بذلك، إلا أنا قهرناها =

ثم قالت: اللهم ألحق روح فاطمة بروح محمّد! اللهم قرّ عيني برؤية رسول الله ﷺ! اللهم لا تحرمني ثواب هذه المصيبة، وشفاعة محمّد يوم القيامة!

وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

يا أسفا! على النبي ﷺ الذي آثر الفقر على الغنى، والمسكنة على الثروة!

آه! من النبي ﷺ الذي لم ينم ليلة كاملة لأجل تفكّره في عصاة أمته!

والذي قاوم نوازع النفس باستقامة واحتساب.

والذي لم يلتفت شيئًا إلى المنهيات.

والذي لم يتغيّر خميره، ولم ينكدر ضميره، بكثرة ما أصابه الأعداء من الإيذاء والإهانة.

والذي لم تغلق أبواب برّه وجوده يومًا على البائسين والمحتاجين.

والذي كسرت بالحجر رباعيته المماثلة للؤلؤ.

والذي جرحت جبينه الغراء.

والذي لم يشبع يومين متتابعين، ولو من خبز شعير.

يا أسفا! إنه ارتحل اليوم من الدنيا[1].

- **وقد أقلق نبأ وفاة النبيّ ﷺ** الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جميعا، فاندهشوا، وخرج بعضهم إلى البرّ، ووقف بعضهم حيث كان متحيرا، **ولم يكن عمر الفاروق ليصدّق خبر**

=

على فعله امتثالا لأمره. (الفتح: ٨/ ١٤٩)

وروى ابن ماجة عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة، أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم، الذي مات فيه النبي ﷺ أظلم منها كل شيء، وما نفضنا عن النبي ﷺ الأيدي، حتى أنكرنا قلوبنا.» (صحيح سنن ابن ماجة للألباني رقم ١٣٢٢). (صلاح)

(١) مدارج النبوة للشاه عبد الحق المحدث الدهلوي. [لم أجده في «المدارج» وهذا الكلام صحيح في وصف النبي ﷺ، ولكن نسبته إلى فاطمة وكذلك إلى عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عند وفاة النبي ﷺ، بلا إسناد]

وفاته ﷺ[١].

وجاء أبو بكر فدخل على عائشة فتيمم رسول الله ﷺ، وهو مغشّى بثوب حبرة، فكشف عن وجهه، ثم أكبّ عليه فقبّله، وبكى ثم قال:

«بأبي أنت وأمّي، والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متّها![٢]

خطبة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد وفاة النبي ﷺ:

ثم جاء أبوبكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى المسجد وأعلن وفاته ﷺ، وألقى خطبته فقال:

أما بعد! من كان منكم يعبد محمدا، فإنّ محمدا قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإنّ الله حيّ لايموت. قال الله تعالى:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤٤][٣].

---

(١) لشدة وطأة وفاة النبي ﷺ، خرج عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى المسجد ويخطب، يقول: «إن رسول الله ﷺ لايموت حتى يفني الله عز وجل المنافقين، فتكلم أبو بكر... » (أحمد: ٦/ ٣١/ ٢١٩-٢٢، بإسناد حسن عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) (صلاح)

(٢) البخاري (٥/ ١٤٣) [١٢٤١، وأطرافه: ٣٦٦٧، ٣٦٦٩، ٤٤٥٢، ٤٤٥٥، ٥٧١٠، عن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا]

(٣) البخاري (٥/ ١٤٣) [١٢٤٢، وأطرافه: ٣٦٦٨، ٣٦٧٠، ٤٤٥٣، ٤٤٥٤، ٤٤٥٧، ٥٧١١، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وفيه: **قال عمر [بعد ما سمع الآية من أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]**: «والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعقرت حتى ما أقلتني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن النبي ﷺ مات».

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في الحديث: قوّة جاش أبي بكر وكثرة علمه. (الفتح: ٨/ ١٤٦) (صلاح)]

تغسيله ﷺ:

وكان عليّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يغسل النبيّ ﷺ(١)**، ويقول:**

بأبي أنت وأمي! لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوّة والإنباء وأخبار السماء، خصّصتَ حتى صرت مسليا عمن سواك، وعمّمت حتى صار النّاس فيك سواء، ولولا أنك أمرت بالصبر، ونهيت عن الجزع، لأنفدنا عليك ماء الشئون، ولكان الداء مماطلا، والكبد مخالفا، وقلا لك ولكنه ما نملك ردّه، ولا يستطاع دفعه، بأبي أنت وأمّي اذكرنا عند ربّك، واجعلنا من بالك(٢).

---

(١) **قال علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ**: «غسلت رسول الله ﷺ، فذهبت أنظر ما يكون من الميت، فلم أر شيئا، وكان طيبا ﷺ حيا وميتًا، ولي دفنه، وإجنانه دون الناس أربعة: عليّ، والعباس، والفضل، وصالح مولى رسول الله ﷺ، ولحد رسول الله ﷺ لحدا، ونصب عليه اللبن نصبا». (أخرجه الحاكم (١/ ٣٦٢) والبيهقي (٤/ ٥٣) وإسناده صحيح)

قالت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: غسلوه وعليه قميصه، يصبّون الماء فوق القميص، ويدلكونه بالقميص دون أيديهم.

وكانت تقول: لو استقبلت من أمري ما استدبرت، ما غسله إلا نساؤه. (أبوداود: ٣١٤١)، وابن ماجة (١٤٦٤)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٥٩) وصححه وأقرّه الذهبي) (صلاح)

(٢) نهج البلاغة (١/ ٥٦٩) [**وهو لمحمد بن حسين الموسوي، المعروف بالشريف الرضي من علماء الإمامية: متهم بالوضع**. وأما هذا الكتاب المنسوب إلى أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، الذي يحتوي على خطبه وحكمه وأسراره، فهو من وضع مؤلّفه، إلا كلمات يسيرة، وقد نصّ على عدم صحة نسبته إلى أميرالمؤمنين من كبار أئمة السنة: شيخ الإسلام ابن تيمية، والذهبي وابن كثير، وابن حجر وغيرهم رَحِمَهُمُٱللَّهُ. والله أعلم].

صفة كفنه ﷺ:

وكفن ﷺ في ثلاثة أثواب.(١)

كيفية الصلاة عليه ﷺ:

وصلّى عليه أولا أهل بيته، ثم الرجال، ثم النساء، ثم الصبيان، ولم يكن يؤمّهم أحد. والصلاة عليه فرادى أمر مجمع عليه لاخلاف فيه.(٢).

وكانت حجرة ضيقة فيدخل عشرة عشرة(٣)، وقد استمرّ ذلك فتأخر دفنه إلى ليلة الأربعاء(٤)، أي دفن بعد الوفاة باثنتين وثلاثين ساعة(٥). إنا لله وإنا إليه راجعون!

---

(١) شرح مسلم للنووي، وكتاب الأم للشافعي [عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «كفن رسول الله ﷺ في ثلاثة أثواب يمانية بيض، سحولية من كرسف ليس فيها قميص ولا عمامة...». (البخاري في الجنائز (١٢٦٤)، ومسلم (٩٤١)). **(سحولية)**: نسبة إلى «سحول»: موضع باليمن معروف بنسج الثياب].

(٢) راجع شيئًا من التفصيل في «الصحيح المصفّى في سيرة المصطفى ﷺ» للشيخ سليم الهلالي: (٣٦٠-٣٦١). (صلاح)

(٣) يظهر من رواية الترمذي أن طريقة أداء الصلاة عليه ﷺ كان اقترحها أبو بكر، ووافق عليها عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. [أخرجه الترمذي في الشمائل (رقم ٣٧٨) وصححه الألباني في مختصر الشمائل (رقم ٣٣٣)].

(٤) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قال: «توفي رسول الله ﷺ يوم الاثنين، ودفن ليلة الأربعاء». (رواه أحمد كما في الفتح الرباني (٢١/ ٢٥٧)، والسيرة النبوية لابن كثير (٤/ ٥٣٩) حيث عزاه للإمام أحمد). وقال: «وقد تقدّم مثله في غير ما حديث. «وهو الذي نصّ عليه غير واحد من الأئمة سلفًا وخلفًا...». («صحيح السيرة النبوية» للعلي: ص٥٨٣، تعليقًا)

(ملاحظة): قال الزرقاني: «لا غرابة فيه (أي في تأخير الدفن) وقد جاء عن عليّ، وابن المسيب، وأبي سلمة: إنما أخروا دفنه لاختلافهم في موته، أو في محل دفنه، أو لاشتغالهم في أمر البيعة بالخلافة، حتى استقر الأمر على الصدّيق، ولدهشتهم من ذلك الأمر الهائل الذي ما وقع قبله ولا بعده مثله، فصار بعضهم كجسد بلا روح، وبعضهم عاجزا على النطق، وبعضهم عن المشي، أو لخوف هجوم عدوّ، أو لصلاة جم غفير عليه». (شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك (٢/ ٦٦ دار الفكر ١٤٠١هـ) (صلاح)

(٥) كتبت «ليلة الأربعاء»، لأن التأريخ العربي يبدأ من بعد الغروب، ثم عدّت الساعات =

وكان الناس يقرأون في الصلاة عليه ما يأتي:

«إن الله وملائكته يصلّون على النبيّ، يا أيها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليما.

اللهم ربنا لبيك وسعديك، صلاة الله البرّ الرحيم، والملائكة المقربين، والنبيين والصدّيقين والصالحين وما سبّح لك من شيء يا ربّ العالمين، على محمد بن عبد الله خاتم النبيين وسيّد المرسلين، وإمام المتقين، ورسول ربّ العالمين، الشاهد البشير الداعي بإذنك، السراج المنير وبارك عليه وسلم».(١)

= لتعيين الوقت الصحيح. (المؤلف)

(١) الزرقاني (٨٢٩٢) الطبعة الأزهرية المصرية سنة (١٣٢٨هـ) [نقل الزرقاني عن ابن سعد عن عليّ، قال: «هو إمامكم حيا وميتا، ... فيصلّون صفا صفا ليس لهم إمام، ويكبّرون، وعليّ قائم بحيال رسول الله ﷺ، يقول: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته! اللهم إنا نشهد أن قد بلّغ ما أنزل إليه، ونصح لأمته، وجاهد في سبيل الله حتى أعزّ الله دينه، وتمت كلمته. اللهم اجعلنا ممن يتبع ما أنزل إليه، وثبتنا بعده، واجمع بيننا وبينه. فيقول الناس: آمين...». (شرح الزرقاني على الموطأ: ٢/ ٦٦).

وابن سعد أكثر ما يروى عن الواقدي، وهو متروك، وكذا في إسناده انقطاع. ونُسب مثل هذا إلى أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ذكره الذهبي في تأريخ الإسلام. (صحيح السيرة النبوية: ص ٥٧٩) وقال: مرسل ضعيف، ولكنه حسن المتن. كذا ذكره الشيخ عبد الحق الدهلوي في«مدارج النبوّة» (٢/ ٥١٢ ط. أرديّة) عن الشيخ زين العابدين المراعي في كتابه: «النضرة». (صلاح)

الباب الخامس

أخلاق النبي ﷺ

الباب الخامس

أخلاق النبي ﷺ

تلقي الأحداث التي ذكرتها إلى الآن الضوء جيّدا على المشكلات، التي واجهت النبي ﷺ، وهو يعلن نبوته، وينشر تعاليمه ويحافظ أتباعه.

ولم يكن سهلا نشر دعوة الإسلام، التي كانت أجنبية عن الناس، وحاملة لهم العداوة والبغضاء في بلد، لم يعرف حكما ولا قانونا، بل رأى القتل وسفك الدماء أمرًا هيّنا، وكان أهله أشباه السباع في الوحشية والهمجية، وكالأنعام في الجهل وعدم الإدراك.

ثم انتشار هذه الدعوة في ظروف شمّر فيها مئات الألوف من الناس عن ساعد الجدّ لمقاومتها، تواطؤوا على بذل أموالهم وأرواحهم سنوات طويلة على القضاء عليها، لم يكن إلا برهانا جليا للتأييد الربّاني لها.

ويتلألأ بريق محاسن النبي ﷺ وأخلاقه، ومحامده ومآثره في وسط هذه الأحداث المذكورة، تلألؤ الذهب بين الرمال. وهذه الأحداث نفسها تدلّ على أن الذي قضى حياته بين حالتي الضعف والقوّة، والاضطهاد والانتصار، على نمط واحد ووتيرة واحدة من البساطة والتواضع، إنما هو فقط إنسان سيطر على قلبه الناموس الإلهي، فطهّره من علائق الدنيا وملذّاتها.

(لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة):

ووقائع حياة الرسول ﷺ المباركة، إنما هي أسوة حسنة ومُثل عليا للفرد والجماعة في كل قطر من أقطار العالم، ولكل طبقة من طبقات المجتمع الإنساني.

ومن هذا المنطلق أذكر في هذا الباب بإيجاز خلق النبي ﷺ الذي يتمثل في قوله:

«علّمني ربي فأحسن تأديبي»[(١)].

الخلق المحمديّ مشبّه به لدى الصالحين:

وهذا «الخلق المحمدي» قد صار الآن مشبها به ومحبّبًا لدى الجميع، لبيان أخلاق الصالحين، وعاداتهم وخصائلهم وشمائلهم.

وإني لا أذكر ههنا كمالات النبوة وخصائص النبي ﷺ، بل أكتفي بذكر الأحوال البسيطة التي يستطيع أيّ سعيد من السعداء أن يجعلها أسوة له ومثالا يحتذي به في حياته فقد قال جل وعلا:

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

كان ﷺ أميّا:

كان سيّدنا محمد رسول الله ﷺ أميّا لا يعرف القراءة والكتابة، ولم تتيسر له مصاحبة أي عالمٍ من العلماء إلى زمن البعثة.

كان الرمي والفروسية والطعن، وقول السجع والشعر، ومعرفة الأنساب من فنون ذلك العصر، التي كان يتعلّمها كل من شباب الأشراف لحيازة الشهرة والشرف، ولم يكن يتأتى الشرف والامتياز في القبيلة والبلد بدون تعلّم هذه الفنون. ولكن النبيّ ﷺ لم يكتسب شيئا من هذه الفنون بجهده، ولا أبدى اهتمامه بأيّ منها.

الإشادة بذكر النبي ﷺ:

- **يقول المستشرق الفرنسي الأستاذ سيديو عن النبي ﷺ:**

«كان محمد (ﷺ) طلق الوجه، لين الجانب، صامتا في الأغلب، ذاكرًا لله كثيرًا، معرضا عن اللغو، نفورا من سفاسف الأمور، حصيفا، عاقلا».

«كان القريب والبعيد سواء عنده في العدل، يحبّ المساكين، ويستأنس بالفقراء،

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: المعنى صحيح، ولكن لا يعرف له إسناد ثابت (مجموع فتاواه: ١٨/ ٣٧٥)، ضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (رقم ٧٢) عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لا يحقر فقيرا لفقره، ولا يعظّم ملكا لملكه وسلطانه، يؤنّس من جالسه، ويصبر على تصرّف الجهلة، لا ينعزل عن أحد إلا أن يفترق هو، ويحبّ الصحابة كثيرا، ويجلس على الأرض (دون فرش أو متكأ)، ويخصف نعله بنفسه، ويرقع ثوبه بيديه(١).

وكان يقابل العدوّ والكافر بوجه طلق».(٢)

- **ويقول الإمام الغزالي:**

كان النبي ﷺ يعلف دابته، ويعقل بعيره، وينظف بيته، ويحلب شاته، ويأكل مع الخادم، ويعينه على عمله، ويشتري من السوق حاجته، ويحمله على ظهره، ويبادر في التسليم على الأدنى والأعلى والصغير والكبير.

من صحبه، مشى معه آخذا بيده، ولا يفرّق بين العبد والمولى، والحبشي والتركي، ولا يغاير بين لباس الليل والنهار، ويجيب دعوة الرجل أيًّا كان، ويأكل ما يقدّم له برغبة، ولا يدّخر من أكل الليل للصبح، ولا من أكل الصبح للمساء، كان طيب الخلق، كريم الطبع، طلق الوجه غير ضحّاك، متفكرا غير عابس، متواضعا غير دنيء، مهيبا غير فظّ، سخيّا غير مسرف، يرحم كلّ واحد، ولا يطمع في شيء عند أحد، ويطأطئ رأسه(٣).

- **ويقول الشاه ولي الله الدهلوي:**

«من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفةً أحبّه».

«كان رؤوفا مع أسرته وخدمه، خدمه أنس عشر سنين، فما قال له قطّ أفّ، ولم يكن فاحشا ولا متفحّشا، ولا لعّانا، صبورًا على أذى غيره، رحيما بالخلق، ولايصيب أحدا بيده ولسانه شرا، يعتني بإصلاح الأسرة وخير القوم، يعرف منزلة كل شخص وكل

(١) خلاصة تأريخ العرب للأستاذ سيديو (ص٤٢). [راجع «شهادة المعاصرين من علماء الغرب ومفكريه» على صدق النبي ﷺ في «الصحيح المصفى في سيرة المصطفى» للهلالي (٥٢٨-٥٥٧)، وفي كتابي «الإيمان بالرسل ودوره في نباء شخصيته المسلم» (ص: ١٥٧). (صلاح)]

(٢) الشفا للقاضي عياض (١/ ٦٠).

(٣) «كيميائي سعادت» للإمام الغزالي (ص:٢٨٠) (ط. نول كشور١٨٨٢ م).

شيء، وينظر دائما إلى ملكوت السماء»[(١)].

- **جاء في صحيح البخاري:**

عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشّرا ونذيرا وحرزا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سمّيتك المتوكّل، ليس بفظّ ولا غليظ ولا سخّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملّة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح بها أعينًا عميًا وآذانا صمّا وقلوبا غلفا.[(٢)]

وكان النبي ﷺ جامعا لجميع المحاسن، متّصفا بجميع الأخلاق الفاضلة: لباسه سكينة، شعاره حسنة، ضميره تقوى الله، كلامه حكمة، سيرته عدل، شريعته صدق، ملّته إسلام، هادي الهداية، قامع الضلالة، رافع الخاملين، مبرّز المجهولين، مغيّر القلة إلى الكثرة، والفقر إلى الغنى[(٣)].

---

(١) حجة الله البالغة (ص٣٨٥). [مقاطع هذا الكلام ومعناها متفرّقة توجد في الأحاديث، وأما قوله المنسوب إلى علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ومن خالطه» فعن إبراهيم بن محمد عن علي بن أبي طالب، وإبراهيم لم يسمع من جدّه عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قاله المباركفوري في التحفة (٩١٥٧). رواه الترمذي، وقال حسن غريب ليس إسناده بمتصل، وذكره الألباني في «ضعيف الترمذي» (٣٦٣٨)، وقال في مختصر الشمائل (٥) ضعيف. (صلاح)]

(٢) البخاري (٢١٢٥) عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. (صلاح)

(٣) وليراجع هنا سفر أشعيا (٤٢/ ١-٧). «هو ذا عبدي الذي أعضده، مختاري الذي سرت به نفسي، وضعت روحي عليه فخرج الحق للأمم، لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع في الشارع صوته، قصبة مرضوضة لا يقصف، وفتيلة خادمة لا تطفىء، إلى الأمان يخرج الحق، لا يكلّ ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض. وتنتظر الجزائر شريعته، هكذا يقول الله الربّ خالق السماوات وناشرها، باسط الأرض ونتائجها، معطي الشعب عليها نسمة، والساكنين فيها روحا، أنا الربّ قد دعوتك بالبر فأمسك بيدك واحفظك وأجعلك عهدا للشعب ونورا للأمم، لتفتح عيون العمى لتخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن الجالسين في الظلمة».

إن الإصحاح كلّه عن النبي ﷺ، وإنه جدير بالتفكير، أن الأساقفة يقولون: إن هذه النعوت =

سكوته وكلامه:

كان النبي ﷺ كثير السكوت، فلا يتكلم بغير حاجة، وكان حلو المنطق، فصيح الكلام، غير متكلّف فيه، وكان منطقه يختلب لبّ السامع، وكان أعداؤه يشهدون له بذلك، ويسمّيه الجاهلون منهم سحرًا.

وكان كلامه منتظما غير مختلّ لفظا ومعنى. وكان مفصّلا مبينا يعدّه العاد، ليس بهذّ مسرع لا يحفظ، ولا منقطع تخلله السكتات بين أفراد الكلام(١).

=

تخص المسيح، ولكنها لمن قال له الله له «عبدي»، والأساقفة لا يعترفون بعبدية المسيح بل يرفضون ذلك.

ثم إن الدرس (١١) يذكر البرية، وفيه اسم قيدار، جدّ نبينا ﷺ.

[وكذلك فيه ذكر «سلع»، وهو اسم المدينة الطيبة، ولايزال فيها جبل يسمّى بهذا الاسم إلى الآن. راجع «جموع ما جاء من البشارات بمجيء نبي الله المختار ﷺ، في كتب الأديان الكبرى» (العهد القديم، والعهد الجديد، وكتب الهندوس، والبوذية، والزرادشتيّة) كتاب شيخنا الدكتور محمد عبد الله الأعظمي المعروف بالضياء: (٢/ ١٣١٣-١٣٦٨) وفي كتابي «الإيمان بالرسل» (ص: ١٢٨) (صلاح)]

وفي الدرس (١٣) وصف ذلك الموعود بأنه رجل حرب.

وفي الدرس (١٧) أن الوثنيين يلحقهم منه الخزي والندم.

وجميع هذه العلامات لا تصدق على المسيح، بل إنها خاصّة بمحمد رسول الله ﷺ. وكان كعب الأحبار يجعل هذا الموضع خاصا بالنبي ﷺ. [وكذلك راجع ما ورد في صفات النبي ﷺ وشمائله عن وهب بن منبّه نحو ما ورد في الكتاب مفصلًا، ذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٤/ ١١). وقال: لم أجده إلا من قول وهب بن منبّه.]

(١) زاد المعاد (١/ ١٨٢) [وفيه: «كان ﷺ أفصح خلق الله، وأعذبهم كلامًا، وأسرعهم أداء، وأحلاهم منطقا، حتى إن كلامه ليأخذ بمجامع القلوب، ويسبي الأرواح، ويشهد له بذلك أعداؤه. وكان إذا تكلم تكلم بكلام مفصل مبين يعدّه العاد، ليس بهذّ مسرع لا يحفظ، ولا منقطع تخلله السكتات بين أفراد الكلام، بل هديه فيه أكمل الهدي.»]

ضحكه وبكاؤه:

كان جلّ ضحكه التبسّم، بل كلّه التبسّم[١].

- وأما بكاؤه فكان من جنس ضحكه، وكان يبكي في صلاة الليل، ويبكي رحمة للميّت.
- ولما مات ابنه إبراهيم دمعت عيناه، وبكى رحمة له، وقال: «تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون».[٢]
- وبكى لما شاهد ابن إحدى بناته ونفسه تفيض.

فقد روى البخاري عن أسامة أن ابنة لرسول الله ﷺ أرسلت إليه أن ابني قد احتضر فاشهدنا، فأرسل يقرأ السلام ويقول: «إن لله ما أخذ وما أعطى، وكل شيء عنده مسمّى، فلتصبر وتحتسب.

فأرسلت إليه تقسم عليه، فلما قعد رُفع إليه، فأقعده في حجره، ونفس الصبي تقعقع، ففاضت عينا رسول الله ﷺ، فقال سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال:

«هذه رحمة يضعها الله في قلوب من يشاء من عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»[٣].

- وبكى لما قرأ عليه ابن مسعود سورة النساء، وانتهى فيها إلى قوله تعالى:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١].

وقال ﷺ: كفى، فلما رفع ابن مسعود بصره، رأى النبيّ ﷺ وعيناه تدمعان[٤].

---

(١) زاد المعاد (١/ ١٨٢) وزاد: «فكان نهاية ضحكه أن تبدو نواجذه.» (صلاح)

(٢) البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥)، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. (صلاح)

(٣) البخاري في الأيمان والنذور (٧/ ٢٢٣-٢٢٤) [رقم ١٢٨٤، ٦٦٥٥، ٧٣٧٧، ومسلم ٩٢٣. عن أسامة بن زيد، وهذه الابنة هي: أميمة بنت زينب بنت رسول الله ﷺ، و(سعد) هو: سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.]

(٤) البخاري (٤٥٨٢)، ومسلم (٨٠٠)، و«صحيح سنن ابن ماجة» للألباني (٣٤٠١). (صلاح)

توجيهه في الأكل:

كان ﷺ ينهى عن النوم جائعا، ويقول: «ترك العشاء مهرمة[١]»، وكان ينهى عن النوم على الأكل[٢]. وكان يرغب في تقليل الغذاء، ويقول: «فإن كان لا بدّ فاعلًا فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه[٣]».

وكان يستخدم الفواكه والخضروات بما يصلحها[٤].

المرض والمريض:

وكان يتحرّز من الأمراض المعدية، ويأمر بأن «لا يورد ممرض على مصح»[٥].

الطبيب الجاهل:

وكان يرشد إلى معالجة أحذق الأطباء[٦]. ويأمر بالحمية[٧]. ويمنع الطبيب الجاهل

---

(١) أخرجه الترمذي (١٨٥٧) عن أنس، وفي سنده ضعيف ومجهول، وأخرجه ابن ماجة (٣٣٥٥) وفي سنده إبراهيم بن عبد السلام المخزومي وهو ضعيف [تعليقا على الزاد (٤/ ٢٢٣)] (صلاح).

(٢) زاد المعاد (٤/ ٢٢٢) [ذكر أبو نعيم عنه، وزاد: «ويذكر أنه يقسي القلب...».]

(٣) زاد المعاد (٤/ ١٧-١٨) [أخرجه أحمد (٤/ ١٣٢)، والترمذي (١٣٨١)، وابن ماجة (٣٣٤٩) وإسناده صحيح عن المقدام بن معدي كرب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

(٤) زاد المعاد (٤/ ١٠٢) [كما ثبت في الصحيحين من حديث عبدالله بن جعفر، قال: «رأيت رسول الله ﷺ يأكل الرطب بالقثّاء». (البخاري: ٥٤٤٠، ٥٤٤٧، ومسلم: ٢٠٤٣)].

(٥) [البخاري رقم ٥٧٧١، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وفيه: وأنكر أبو هريرة حديث الأوّل، قلنا: ألم تحدث أنه: «لا عدوى»، فرطن بالحبشية، قال أبو سلمة: فما رأيته نسي حديثا غيره». ومسلم (٢٢٢١) وراجع التفصيل في صحيح ابن حبان (٦١١٥)]

واعلم أن ابن القيم قال في حديث الترمذي عن جابر «أخذ ﷺ بيد مجذوم»: لم تثبت صحته وورد حديث أبي هريرة «لا عدوى ولا طيرة» في الصحيح، ولكن تردّد فيه أبو هريرة، ولذا ترك رواية هذا الحديث. [زاد المعاد: ٤/١٥٣-١٥٤، وفيه: رجع أبوهريرة عن التحديث به وأنكره كما تقدم في رواية البخاري راجع هذا المبحث مفصلا في الزاد: ٤/ ١٤٧-١٥٤)].

(٦) زاد المعاد (٤/ ١٣٢-١٣٥) [فصل في هديه ﷺ في الإرشاد إلى معالجة أحذق الطبيبين.]

(٧) زاد المعاد (٤/ ١٠٣) [في هديه ﷺ في الحمية.]

من المعالجة، ويضمّنه تلف المريض[١].

ويمنع التداوي بالمحرّمات، ويقول: «إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم»[٢].

عيادة المريض:

كان ﷺ يعود من مرض من أصحابه، وكان يدنو من المريض، ويجلس عند رأسه، ويطمّنه، ويقول: «لا بأس طهور إن شاء الله». وربما كان يقول: «كفارة وطهور». وذكر أنه كان يسأل المريض عما يشتهيه، فإن اشتهى شيئا وعلم أنه لا يضرّه، أمر له به، وعاد غلاما كان يخدمه من أهل الكتاب[٣].

العلاج والتداوي:

كان من هديه ﷺ فعل التداوي في نفسه، والأمر به لمن أصابه مرض من أهله وأصحابه، قال: «يا عباد الله! تداووا، فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له شفاء غير داء واحد، قالوا: ما هو؟ قال: الهرم»[٤].

إلقاء الخطبة:

خطب ﷺ وهو واقف على الأرض، وكذا خطب وهو على المنبر، وعلى البعير وعلى الناقة، كان يفتتح الخطبة بحمد الله، ويتشهد فيها بكلمتي الشهادة، ويختمها بالاستغفار، وكان كثيرا ما يخطب بالقرآن، ويعلّم قواعد الإسلام.

«وكان يخطب في كل وقت بما تقتضيه حاجة المخاطبين ومصلحتهم».

ولم تكن مثل هذه الخطب تتوقف على الجمعة، بل كلما رأى فرصة لذلك وعظهم بالقرآن الكريم.

---

(١) زاد المعاد (٤/ ١٣٥) [فصل في هديه ﷺ في تضمين من طبّ الناس، وهو جاهل بالطبّ.]

(٢) زاد المعاد (٤/ ١٥٤) [فصل في هديه ﷺ في المنع من التداوي بالمحرمات.]

(٣) زاد المعاد (١/ ٤٩٤) [فصل في هديه ﷺ في عيادة المرضى]

(٤) زاد المعاد (٤/ ١٠-١٣) [فصل في هديه ﷺ في التداوي، والحديث أخرجه أحمد ٤/ ٢٧٨، وابن ماجة (٣٤٣٦)، وأبوداود (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٩) عن أسامة بن شريك وغيره رضي الله عنهم. راجع الزاد ٤/ ١٣ تعليقا].

وكان إذا قام يخطب أخذ عصًا، فتوكأ عليها وهو على المنبر، وأحيانا يتوكأ على قوس. ولم يحفظ عنه أنه توكأ على سيف.

وكثير من الجهلة يظنّ أنه كان يمسك بالسيف على المنبر، إشارة إلى أن الدين إنما قام بالسيف، **وهذا جهل قبيح من وجهين:**

أحدهما: أن المحفوظ أنه ﷺ توكأ على العصا وعلى القوس.

الثاني: أن الدين إنما قام بالوحي، وأما السيف فلمحق أهل الضلال والشرك، ومدينة النبي ﷺ التي كان يخطب فيها، إنما فتحت بالقرآن، ولم تفتح بالسيف[١].

الصدقة والهدية:

لم يكن ﷺ يستعمل شيئا من الصدقة أبدًا. أما الهدية فكان يهدي إليه صحابته المخلصون، والنصارى واليهود الطعام وغيره، فيقبل منهم، ويكافئهم أضعافها، إلا أنه لم يقبل هدية مشرك.

وأهدى إليه المقوقس ملك مصر بغلة فقبلها وركبها، وكانت هذه البغلة تحته يوم حنين، ولكن ردّ فرس عامر بن مالك[٢]، وقال:

«إنا لا نقبل هدية مشرك»[٣].

وكانت تأتيه من الهدايا الثمينة، فربما يوزّعها على الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ[٤].

---

(١) زاد المعاد (١/ ١٨٦-١٩٠) [فصل في هديه ﷺ في خطبته]

(٢) عامر بن مالك، هو: ملاعب الأسنة، الذي قدم على النبي ﷺ وطلب منه أن يبعث أصحابه للدعوة إلى أهل نجد، فوقعت حادثة بئر معونة، وقتل فيه أصحاب النبي ﷺ وكانوا سبعين ولم ينج منهم إلا كعب بن زيد بن النجار. (راجع للتفصيل «زاد المعاد»: ٣/ ٢٤٦-٢٤٨). (صلاح)

(٣) أخرجه موسى بن عقبة في المغازي من حديث عبد الرحمن بن كعب بن مالك، قال في «الفتح» (٥/ ١٦٨): «رجاله ثقات إلا أنه مرسل، وقد وصله بعضهم، ولا يصحّ.» (الزاد: ٥/ ٧٨ تعليقا). (صلاح)

(٤) زاد المعاد (٥/ ٦٧-٧٩) [فصل في حكمه ﷺ فيما كان يهدى إليه]

كراهية المدح والغلوّ:

لم يكن ﷺ يحب من مدحه ما ينتقص من غيره من الأنبياء، وكان يقول: لا تخيّروا بين الأنبياء(١).

وذهب النبي ﷺ إلى عرس، فجعلت جويريات يضربن بالدف ويندبن من قتل يوم بدر، إذ قالت إحداهن:

«وفينا نبيّ يعلم ما في غد».

فقال ﷺ: «دعي هذه، وقولي بالذي كنتِ تقولين»(٢).

إبانة الحقيقة وإصلاح الزعم الخاطئ:

كسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ يوم مات إبراهيم، فقال الناس كسفت الشمس لموت إبراهيم.

فقال رسول الله ﷺ: إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكنّهما آيتان من آيات الله، فإذا رأيتموهما فصلّوا(٣).

مراعاة المصلحة العامة:

لما بنت قريش الكعبة قبل الإسلام، أخرجوا بعض ما كان داخل البيت في بناء إبراهيم من الأرض، وجعلوا للبيت بابًا واحدًا وأعلوه حتى يحتاج الداخل إلى السلّم. فقال النبي ﷺ يوما لعائشة: لولا قومك حديث عهدهم بكفر، لنقضت الكعبة فجعلت لها بابين، باب يدخل منه النّاس، وباب يخرجون(٤).

ولما تمادى المنافقون في سعيهم ضد الإسلام، قال عمر بن الخطاب للنبي ﷺ:

---

(١) البخاري في الخصومات (٣/ ٨٩) [رقم ٦٩١٦ عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

(٢) البخاري في النكاح (٦/ ١٣٧) [رقم ٥١٤٧ عن الربيع بنت معوذ بن عفراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا]

(٣) البخاري في الكسوف (٢/ ٢٦) [رقم ١٠٦٠ عن المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

(٤) البخاري في العلم (١/ ٤٠) [رقم ١٢٦ عن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس.]

لنقتلهم يا رسول الله ﷺ!

قال ﷺ: لا، فإن الناس يقولون: إنّ محمدا يقتل أصحابه[١].

بين البشريّة والرسالة[٢]:

كان ﷺ يميز بين أحكامه وأعماله كرسول، وبين أفعاله وأقواله كبشر.

١- **قال مرّة**: إنما أنا بشر، وإنّه يأتيني الخصم، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض، فأحسب أنه صدق فأقضي له بذلك، فمن قضيت له بحقّ مسلم فإنما هي قطعة من النار، فليأخذها أو ليتركها[٣].

٢- وشفع النبي ﷺ عند بريرة لزوجها، الذي أعتقت منه بسبب الحرية، فقال: لو راجعته، قالت: يا رسول الله! تأمرني؟ قال: إنما أشفع، قالت: لا حاجة لي فيه[٤].

٣- وكان أهل المدينة يلقّحون النخل، فقال: ما تصنعون؟ قالوا: كنا نصنعه، قال: لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرا، فتركوه فنقصت، قال: فذكروا ذلك له فقال: إنما أنا بشر، إذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر، وقال: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»[٥].

العطف على الصبيان:

مرّ النبي ﷺ على صبيان فسلّم عليهم[٦]، وكان يمسح على رؤوسهم ويأخذهم في

---

(١) قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مثل هذا في عدّة مناسبات، فردّ عليه النبي ﷺ بمثل قوله هذا. راجع على سبيل المثال: البخاري (رقم ٤٩٠٧) ومسلم (رقم ٢٥٨٤) عن جابر بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. (صلاح)

(٢) ومما لاشك فيه أن الأنبياء هم أوعى البشر بحقيقة الألوهية، ومعرفة استحقاق الإله وحده للعبادة، وهكذا اتضحت طبيعة العلاقة بين «الإله» و«النبي» و«البشر»، لقد أعلن محمد ﷺ للمسلمين جميعا أنه بشر مثلهم كما ورد في القرآن الكريم ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠]. (السيرة النبوية الصحيحة: ٢/ ٥٨٢) (صلاح)

(٣) البخاري في المظالم (٣/ ١٠١) [رقم ٧١٨١ عن أم سلمة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا]

(٤) البخاري في الطلاق (٦/ ١٧١) [رقم ٥٢٨٣ عن عبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا]

(٥) مسلم (رقم ٢٣٦٣) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. (صلاح)

(٦) البخاري في الاستئذان (٧/ ١٣١) [رقم ٦٢٤٧ عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

حجره.

الشفقة على العجزة:

وبعد فتح مكة أتى أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بوالده -وهو عجوز ضعيف فاقد البصر- إلى النبي ﷺ ليبايعه على الإسلام، فقال النبي ﷺ: هلا تركت الشيخ في بيته حتى آتيه ...»[١].

تكريم أهل الفضل:

- كان يهود بني قريظة حكّموا سعد بن معاذ، وبه جرح شديد جرح به في الخندق، فدعوه، فلما وصل إلى المسجد قال النبي ﷺ لأصحابه من الأوس: قوموا إلى سيّدكم، فذهبوا وأتوا به[٢].
- كان حسان بن ثابت ينظم الشعر تأييدا للإسلام ردًا على المعارضين فكان ﷺ يضع له منبرا في المسجد النبوي، فيصعد عليه وينشد شعره[٣].

الدعاء للخادم:

- قال أنس قالت أمي: يا رسول الله ﷺ! خادمك أنس ادع الله له، قال: «اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته»[٤].

الأدب والتواضع:

- لم يكن رسول الله ﷺ يمدّ رجله في مجلس.
- وكان يسلّم على من لقيه.
- ويمد يده للمصافحة قبل غيره.

---

(١) راجع «الإصابة» (٤/ ٢٢١ رقم ٥٤٣٤) هو: أبو قحافة عثمان بن عامر التميمي. (صلاح)

(٢) البخاري (رقم ٣٠٤٣)، ومسلم (١٧٦٨) في أمكنة متعددة وأرقام مختلفة عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. (صلاح)

(٣) راجع «صحيح الترمذي» للألباني (رقم ٢٨٤٦) وقال: حسن. (صلاح)

(٤) البخاري (رقم ٦٣٧٨)، ومسلم (٢٤٨٠) عن أم سليم بنت ملحان: أم أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. (صلاح)

- ويدعو أصحابه بكناهم (وهذا مقتضى التكريم عند العرب).
- ولا يقطع على أحد حديثًا أبدا.
- وإذا صلّى متطوّعا وجاءه أحد تجوّز في الصلاة، وقضى حاجته ثم صلّى.
- وكان كثير التبسم[١].
- وكانت ناقة العضباء لم تسبقها دابة، فجاء أعرابيّ فسبقها، فشقّ ذلك على المسلمين، فقال النبي ﷺ:

«إن حقّا على الله عزّ وجلّ أن لا يرفع شيئا من الدنيا إلا وضعه»[٢].

- وجاء رجل فناداه يا خير البريّـة، فقال ﷺ: «**ذاك إبراهيم**»[٣].
- وجاء رجل فارتعد هيبة منه، فقال: «هوّن عليك، فإني لستُ بملك، إنّما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد»[٤].

الشفقة والرأفة:

١- **تقول عائشة:** لم يكن أحد يساوي النبي ﷺ في الخلق الحسن، فإذا دعاه أحد من أهل بيته أو من الصحابة قال له: لبيك[٥].

٢- وكان ﷺ يتنفل مختفيا حتى لا يشقّ على الأمّـة.

٣- ولم يخير بين أمرين إلا اختار أيسرهما[٦].

٤- ودعا ربّـه فقال: أيما رجل شتمته أو لعنته فاجعله له كفارة لذنوبه ورحمة ومغفرة وقربة.

---

(١) الشفاء (ص:٥٤).

(٢) البخاري في الرقاق (٧/ ١٩٠) [رقم ٢٨٧٢ عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

(٣) مسلم في الفضائل (٢/ ١٨٣٩) [رقم ٢٣٦٩ عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

(٤) صحيح سنن ابن ماجه (٢٦٩٣) عن أبي مسعود عقبة بن عمرو، وكذا في صحيح الجامع للألباني (رقم ٧٠٥٢) عن أبي مسعود البدري وجرير وقيس بن أبي حازم. (صلاح)

(٥) الشفا للقاضي عياض (ص:٥٣).

(٦) البخاري (٨/ ١٦) [رقم ٣٥٦٠] عن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

٥- وقال: لا تسمعوني أحاديثكم فيما بينكم، فإني أريد أن أرحل من الدنيا، وقلبي نقيّ، ليس فيه عن أحد شيء[١].

٦- وكان يتخولهم بالوعظ مخافة السآمة[٢].

٧- وكسفت الشمس مرّة فصلى فكان يبكي ويقول في دعائه: رب ألم تعدني أن لا تعذّبهم، وأنا فيهم، وهم يستغفرون، ونحن نستغفرك[٣]؟.

٨- لكل نبيّ دعوة يدعو بها فاستجيب لها، فجعلت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة[٤].

العدل والرحمة:

١- لو تخاصم إليه رجلان، عدل بينهما.

٢- ولو كان لأحد معه شيء رحمه.

٣- سرقت بمكة امرأة اسمها فاطمة، فاستشفع الناس لها أسامة بن زيد لدى النبي ﷺ، فقال ﷺ:

«أتشفع في حدّ من حدود الله، لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها»[٥].

٤- ورأى ﷺ سواد بن عمرو يلبس ثوبا مصبوغا بالورس، فقال به: حط حط، وغمز بعصاه في بطنه.

فقال سواد: أقتص منك يا رسول الله! فكشف عن بطنه وقال اقتص[٦].

---

(١) الشفا (ص:٥٥).

(٢) البخاري (٧/ ١٦٩) [رقم ٧٠، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه].

(٣) زاد المعاد [١/ ١٨٣ وإسناده صحيح من حديث عبد الله بن عمرو، كما رواه أبو داود وغيره (رقم ١١٩٤)].

(٤) البخاري كتاب الدعوات عن أنس رضي الله عنه [رقم ٦٣٠٥، ومسلم (٢٠٠)].

(٥) البخاري (٨/ ١٦) [رقم ٣٤٧٥] عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها.

(٦) الشفا [السنن الكبرى للبيهقي (٨/ ٤٩) عن سواد بن عمرو والسلسلة الصحيحة للألباني (٦/ ٨٠٨) وقال: إسناده حسن، إن شاء الله تعالى].

الرحمة بالأعداء:

• عن ابن مسعود قال: إن قريشا أبطئوا عن الإسلام، فدعا عليهم النبيّ ﷺ، فأخذتهم سنة حتى هلكوا فيها، وأكلوا الميتة والعظام.

فجاءه أبو سفيان، فقال: يا محمدّ! جئت تأمر بصلة الرحم، وإن قومك هلكوا، فادع الله، فدعا رسول الله ﷺ، فسقوا الغيث، فأطبقت عليهم سبعا(١).

• منع ثمامة بن أُثال طعام أهل مكّة لعدائهم للنبي، ولكن النبي ﷺ منعه من ذلك(٢).

• وفي الحديبية كان النبي ﷺ يصلّي الفجر مع المسلمين، فنزل سبعون أو ثمانون رجلا من جبل التنعيم، يريدون الفتك بالمسلمين، فأخذوا فأعتقهم رسول الله ﷺ دون عوض عقاب(٣).

الجود والكرم:

١- ما كان النبي ﷺ يردّ السائل، ولا يقول «لا»، وإن لم يكن عنده شيء يعطيه اعتذر كأنه يطلب العفو.

٢- وجاء رجل رسول الله ﷺ فسأله، فقال: ما عندي شيء ولكن اتبع فإذا جاءنا شيء قضيناه.

فقال له عمر: ما كلّفك الله ما لا تقدر عليه، فكره النبي ﷺ ذلك، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالا، فتبسّم رسول الله ﷺ وعرف البشر في وجهه. وقال: بهذا أمرتُ، ذكره الترمذي(٤).

---

(١) البخاري (رقم ١٠٢٠) عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.(صلاح)

(٢) البخاري (٤٣٧٢) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وفيه: ...لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة، حتى يأذن فيها النبي ﷺ. (صلاح)

(٣) البخاري (٢/ ١٩) [ومسلم رقم (١٨٠٨) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ].

(٤) الشفا (١/ ٦١) [نقلا عن الترمذي في الشمائل، ضعفه الألباني في مختصر الشمائل (٣٠٥)، وابن جرير في مسند عمر (١/ ٨٨) وإسناده صحيح].

٣- وروى أبو هريرة أن رجلا أتى النبيّ ﷺ يسأله، فاستسلف له رسول الله ﷺ نصف وسق، فجاء الرجل يتقاضاه، فأعطاه وسقا وقال: نصف قضاء ونصفه نائل[١].

٤- وكان ﷺ يقول: من مات وعليه دَين ولم يترك وفاء، فعلينا قضاؤه، ومن ترك مالا فلورثته[٢].

الحياء:

١- **قال أبوسعيد الخدري:** كان النبي ﷺ أشدّ حياء من العذراء في خدرها. وكان إذا كره شيئا عرفناه في وجهه[٣].

٢- عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ إذا بلغه عن أحد ما يكرهه، لم يقل: «ما بال فلان يقول كذا، ولكن يقول: «ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا، يكني عنه ولا يسمّي فاعله»[٤].

٣- وكان ﷺ يتحمّل التعب بنفسه في العادات والمعاملات، ولا يأمر أحدا بفعله حياء منه.

٤- وإذا جاءه معتذر يطلب منه العفو، لا يثبت بصره في وجهه، بل طأطأ رأسه[٥].

٥- وقالت عائشة: ما رأيت فرح رسول الله ﷺ قط[٦].

---

(١) الشفا (١/ ٦١) [نائل: أي جود منه ﷺ، رواه البزار (٨٩٢٢) مطوّلًا نحوه، وحسّنه الألباني في صحيح الترغيب (١٧٥٥)]

(٢) البخاري في الفرائض (٨/ ٥) [٢٣٩٨، ومسلم (١٦١٩) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

(٣) البخاري في الأدب (٨/ ١٠٠) [٦١٠٢، ٦١١٩].

(٤) الشفا (١/ ٦٩) [أبو داود (٤٧٨٨)، ذكره الألباني في «صحيح الجامع» (٤٦٩٢)].

(٥) الشفا (١/ ٦٩).

(٦) ضعفه الألباني في مختصر الشمائل المحمدية للترمذي (رقم ٣٠٨) (صلاح).

الصبر والحلم:

١- جاء زيد بن سعنة اليهودي قبل إسلامه، يتقاضاه دينا عليه. فجذب ثوبه عن منكبه، وأخذ بمجامع ثيابه وأغلظ له، ثم قال: إنكم يا بني عبد المطلب مطل، فانتهره عمر وشدّد له في القول والنبي ﷺ يتبسّم.

فقال رسول الله ﷺ: أنا وهو كنّا إلى غير هذا منك أحوج يا عمر، تأمرني بحسن القضاء، وتأمره بحسن التقاضي، ثم قال: لقد بقي من أجله ثلاثة، وأمر عمر يقضيه ماله ويزيده عشرين صاعا لما روّعه فكان سبب إسلامه(١).

٢- **قال أنس:** كنت مع النبي ﷺ، وعليه برد غليظ الحاشية، فجبذه أعرابي بردائه جبذة شديدة حتى أثرت حاشية البرد في صفحة عاتقه، ثم قال: يا محمد! احمل لي على بعيريّ هذين من مال الله الذي عندك، فإنك لا تحمل لي من مالك ولا من مال أبيك.

فسكت النبيّ ﷺ ثم قال: المال مال الله، وأنا عبده، ثم قال: ويقاد منك يا أعرابيّ ما فعلت بي.

قال: لا.

قال: لم؟

قال: لأنك لا تكافئ بالسيئة السيئة، فضحك النبي ﷺ ثم أمر أن يُحمل له على بعير شعير، وعلى الآخر تمر.(٢)

٣- ذهب النبي ﷺ إلى الطائف يدعو الناس إلى الإسلام، فقابله ﷺ أهلها بالوحل والسبّ والحجارة حتى ابتل ﷺ بالدم وغشي عليه، ومع ذلك قال ﷺ: لا أريد هلاكهم فإنهم لو لم يؤمنوا أرجو أن يؤمن أولادهم(٣).

---

(١) الشفا (ص٤٨) رواه البيهقي [ذكره ابن حجر في الإصابة (١/ ٥٦٦)، رجال الإسناد موثقون، وله شاهد من وجه آخر، ولكن لم يسمّ فيه. وأما زيد بن سعنة فأسلم فيما بعد].

(٢) رواه الشيخان عن أنس [البخاري (٥٨٠٩)، ومسلم (١٠٥٧)] والشفا (ص ٤٨).

(٣) صحيح البخاري [رقم (٣٧٣١) عن عائشة أم المؤمنين، وفيه: فناداني ملك الجبال فسلّم عليّ، ثم =

العفو والرحم:

١- قالت عائشة رَضِوَاللَّهُعَنْهَا: ما رأيت رسول الله ﷺ منتصرا من مظلمة ظلمها قطّ[١].

٢- لما كسرت رباعيته ﷺ، وشجّ وجهه، وجرح رأسه حتى أنه وقع في حفرة يوم أحد، شقّ ذلك على أصحابه شقّا شديدا، وقالوا: لو دعوت عليهم، فقال: إني لم أبعث لعّانًا، ولكني بعثت داعيا ورحمة، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون[٢].

٣- انتبذ رسول الله ﷺ وحده تحت شجرة قائلا، والناس قائلون، فجاء غورث بن الحارث والسيف صلتا في يده، فقال: من يمنعك منّي؟

فقال: الله!

فسقط السيف من يده فأخذه النبي ﷺ وقال: من يمنعك مني؟

قال: كن خير آخذ، فتركه وعفا عنه، فجاء إلى قومه فقال: جئتكم من عند خير الناس[٣].

٤- وقد تعرّض هبّار بن الأسود لزينب بنت رسول الله ﷺ حين هاجرت، فنخس بها حتى سقطت على صخرة، وأسقطت جنينها، ففرّ، ثم جاءه ﷺ طالبًا عفوه، فعفا عنه[٤].

٥- وقال ﷺ: ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدّعى فهو تحت قدميّ هاتين، وأوّل دم

=

قال: إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟

قال النبي ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئا».

ومسلم (١٧٩٥) والأخشب من الجبال: الخشن الغليظ. (صلاح)]

(١) صححه الألباني في مختصر الشمائل (٣٠٠) وفيه زيادة: ...ما لم ينتهك من محارم الله شيء. (صلاح)

(٢) الشفا [مسلم (٢٥٩٩) عن أبي هريرة رَضِوَاللَّهُعَنْهُ من غير ذكر «يوم أحد»، وذكره الألباني في السلسة الصحيحة (٧/ ٥٣٢) عن سهل بن سعد الساعدي رَضِوَاللَّهُعَنْهُ، بلفظ «اللهم اغفر لي بقومي...»]

(٣) البخاري (٥/ ٥٣، ٥٤) [رقم (٤١٣٦)، ومسلم (٨٤٣)، وأحمد (١٤٩٢٩) عن جابر بن عبد الله رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا من غير ذكر ابن الحارث] الشفا (١/ ٦٨).

(٤) زاد المعاد (٣/ ٤١١) [وزاد: ثمّ أسلم، وحسن إسلامه والإصابة (٣/ ٥٩٧)، والقصة مشهورة].

أضع من دمائنا دم ابن ربيعة، وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا: ربا عباس بن عبد المطلب[١].

الصدق والأمانة:

١- وكان ﷺ آمن الناس وأصدقهم، اعترف له بذلك محادّوه وأعداؤه، وكان يسمّى قبل نبوته «الأمين». وكان يتحاكم إليه ﷺ في الجاهلية قبل الإسلام[٢].

٢- إن أبا جهل قال للنبي ﷺ يومًا: «إنّا لا نكذّبك ولكن نكذّب بما جئت به»[٣].

٣- وفي ليلة الهجرة أجمع كفار قريش على قتله، أما النبي ﷺ، فإنه خلف عليًا وراءه حتى يؤدّي أمانات الناس إليهم، ثم يلحق بهم.

العفّة والعصمة:

١- **قال النبي ﷺ**: ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك. ثم ما هممت بسوء حتى أكرمني الله برسالته.

٢- قلت ليلة لغلام كان يرعى معي: لو أبصرتَ لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الشباب، فخرجت لذلك حتى جئت أوّل دار من مكّة سمعت عزفا بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم، فجلست أنظر فضرب على أذني فنمت فما أيقظني إلا مسّ الشمس، فرجعت ولم أقض شيئا.

ثم عراني مرة أخرى مثل ذلك ثم لم أهمّ بعد ذلك بسوء[٤].

---

(١) مسلم (١/ ٨٨٩) [رقم ١٢١٨ مطوّلا، و «صحيح ابن ماجة» للألباني (٢٥١٢) عن جابر بن عبدالله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ]

(٢) الشفا (١/ ٧٨) [عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: كان النبي ﷺ يسمّى الأمين، قال الزيلعي في تخريج الكشاف (١/ ٤٣٧): غريب من حديث ابن عباس. (صلاح)]

(٣) الشفا (١/ ٧٩) [ذكره العلّامة المعلمي في التنكيل (٢/ ٢٧٢). ورجاله رجال الصحيح].

(٤) الشفا (١/ ٨٠) [قال الشيخ شعيب الأرنؤط في تخريج «صحيح ابن حبان» (٦٢٧٢): إسناده حسن]

٣- حديث عبد الله عن رسول الله ﷺ أنه لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح، وذاك قبل أن ينزل على رسول الله ﷺ الوحي، فقدّم إلى رسول الله سفرة لحم، فأبى أن يأكل منها، ثم قال: **إني لا آكل مما تذبحون على أنصابكم ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه.**(١)

الزهد:

١- كان من دعائه ﷺ: يا ربّ أجوع يوما، وأشبع يوما، فأما اليوم الذي أجوع فيه فأتضرّع إليك وأدعوك، وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمدك وأثني عليك(٢).

٢- وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إنا كنا آل محمد لنمكث شهرا ما نستوقد نارًا، إن هو إلا التمر والماء(٣).

٣- وقالت: ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام تباعا من خبز مضى لسبيله(٤).

٤- وتوفي النبيّ ﷺ، ودرعه مرهونة عند يهودي في نفقة عياله(٥).

٥- ولما احتضر النبي ﷺ، استعارت عائشة زيت السراج من إحدى جاراتها(٦).

٦- وكان ﷺ يدعو: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا».(٧)

والجدير بالذكر أن مظاهر الزهد هذه كانت اختيارية، غير اضطرارية، ولم يكن ﷺ يقصد من هذا الزهد أيّ تضييق على الناس في الانتفاع بالطيبات.

نعم! قد حدث فقط مرة حين ترك تناول العسل، لما كرهت إحدى أزواجه

---

(١) البخاري (٦/ ٢٢٥) [٣٨٢٦، ٥٤٩٩ عن عبد الله عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا]

(٢) الشفا (١/ ٨٢) [ذكره الألباني في «ضعيف الجامع» (٣٧٠٤) عن أبي أمامة الباهلي: وقال: ضعيف جدّا.]

(٣) الشفا (١/ ٨٣) [ذكره الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٤٧١)].

(٤) الشفا (١/ ٨٢) [والبخاري (رقم ٥٤١٦) بنحوه، ومسلم (٢٩٧٠) عن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا]

(٥) البخاري (٥/ ١٤٥) [رقم ٢٦١٩ عن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بنحوه].

(٦) البخاري عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا (٣٧٧٣) [ذكره الدهلوي في مدارج النبوّة: (٢/ ٤٩٣)]

(٧) البخاري رقم (٦٤٦٠)، ومسلم (١٠٥٥) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. (صلاح).

رائحته، فقال الله عز وجل لرسوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١﴾ [التحريم: ١].

مراعاة راحة النساء[١]:

١- كانت صفية أم المؤمنين مع النبي ﷺ في سفر، وكانت تجلس في المقعد الخلفي من الإبل متلفقة برداء، فلما أرادت أن تركب يحوي بها رسول الله ﷺ بعباءة، ثم يجلس عند بعيره، فيضع ركبته، فتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب[٢].

٢- وقد عثرت مرة ناقته فصرعا جميعا، فاقتحم أبو طلحة، وقال جعلني الله فداءك يا رسول الله، قال ﷺ: «عليك بالمرأة»[٣].

٣- كان رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، وغلام أسود يقال له أنجشة يحدو، **فقال له رسول الله ﷺ**: يا أنجشة! رويدك سوقا بالقوارير[٤].

وقد شبّه النبي ﷺ النساء بالقوارير، إشارة إلى ما فيهن من الصفاء والنعومة، وإلى ضعفهن وقلّة تحمّلهن، ولذا يحتجن إلى مزيد من الراحة والهدوء.

اهتمامه بالأسارى:

كان ﷺ يهتم بالأسارى اهتمامه بالضيوف، والذين أسروا في غزوة بدر، وأقاموا لدى المسلمين بالمدينة لمدة أيام، يقول أحدهم: رحم الله المسلمين كانوا يطعموننا أحسن من طعام أولادهم، ويوفرون لنا الراحة أكثر من أسرتهم وعيالهم.

---

(١) راجع مكانة المرأة في الإسلام في كتابي «المرأة بين هداية الإسلام وغواية الإعلام» ط. ثانية دار إيلاف الدولية بالكويت. (صلاح)

(٢) البخاري (٣/ ٢٢٥) [رقم ٤٢١١، ومسلم (١٣٦٥) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

(٣) البخاري (٤/ ١٣٥) [رقم ٣٠٨٥، ومسلم (١٣٤٥) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وفيه: كنا مع النبي ﷺ مقفله من عسفان ورسول الله ﷺ على راحلته، وقد أردف صفية بنت حيي فعثرت ناقته...»].

(٤) البخاري (٧/ ٦٠٨) [رقم ٦١٤٩، ومسلم (٢٣٢٣) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. معناه كما في رواية البخاري (٦٢١٠): قال له النبي ﷺ: «يا أنجشة: لا تكسر القوارير» قال قتادة: يعني ضعفة النساء». (أي لا تشتدّ بالسياقة)»].

ولما كان الأسارى يأتون إلى النبي ﷺ كان يفكر أولا في كسوتهم[١].

التدريب على الرياضة والرجولة:

كان ﷺ يرغب في التدريب على الرياضة والرجولة والشجاعة، وقد صارع أبا ركانة فصرعه، وكان شديدا، وقد اشترط لإسلامه أن يتغلّب[٢].

الرمي:

كان ﷺ يحثّ على الرمي، ويوزع الناس لذلك في قسمين:

فقال مرة: «ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان راميا، ارموا وأنا مع بني فلان.»

قال: فأمسك أحد الفريقين بأيديهم، فقال رسول الله ﷺ:

«**ما لكم لا ترمون؟**». قالوا: كيف نرمي وأنت معهم؟

فقال النبي ﷺ: «**ارموا فأنا معكم كلّكم**»[٣].

سباق الخيل:

كان السبق بين الخيل بأمر من النبي ﷺ قال ابن عمر: أجرى النبي ﷺ ما ضمر من الخيل من الحفيا إلى ثنية الوداع، وكان بينهما خمسة أميال أو ستة[٤].

الإحصاء السكّاني:

قال النبي ﷺ: اكتبوا لي من تلفظ بالإسلام من الناس.

قال: فكتبنا له ألفا وخمسمائة رجل.

فقلنا: نخاف ونحن ألف وخمسمائة؟ فلقد رأيتنا ابتلينا حتى إن الرجل ليصلّي وحده،

---

(١) البخاري في المغازي (٤/ ١١).

(٢) الشفا (١/ ٤٤) [قال الحافظ ابن حجر في «التلخيص الحبير» (٤/ ١٥٢٣) فيه: «يزيد» فيه ضعف والصواب «ركانة»].

(٣) البخاري في الجهاد والسير (٣/ ٢٢٦) [رقم ٣٣٧٣ عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه]

(٤) البخاري (٣/ ٢١٩) [رقم ٢٨٦٨ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما]

وهو خائف[1].

والأسف أن الرواية لا تدلّنا على السنة التي وقع فيها هذا الإحصاء، ونعرف بروايات البخاري الأخرى، أن هذا الإحصاء الثالث للمسلمين، فكان عدد المسلمين في الإحصاء الأول خمسمائة، وفي الثاني بين ستمائة وسبعمائة.

(١) البخاري (٤/ ٣٤) [رقم ٣٠٦٠ عن حذيفة بن اليمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. وفيه أيضًا: حدثنا عبدان، عن أبي حمزة، عن الأعمش: فوجدناهم خمس مائة. قال أبو معاوية: ما بين ست مائة إلى سبع مائة. وقوله: قال أبو معاوية... معلّق].

توجيهات الرسالة

توجيهات النبي ﷺ المباركة، الخاصة بالعقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق والعادات والمهلكات والمنجيات والإحسانيات وغيرها بحر لا ساحل له. وأساس فضل النبي ﷺ، وسمو الإسلام وعلوّه على هذه التوجيهات.

وأودّ أن أعرض هنا نماذج من هذه التوجيهات الرشيدة بإيجاز، أما تفصيل الكلام فيها، فموعدنا له هو الجزء الثاني من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

حق الله على العباد:

«حق الله على عباده: أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئا، وحق العباد على الله إذا فعلوه أن لا يعذّبهم(١).»

الرحمة الإلهية:

قال النبيّ ﷺ: لما قضى الله الخلق كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي(٢).

برّ الوالدين:

قال رجل للنبي ﷺ: أجاهد.

قال: لك أبوان؟

فقال: نعم.

قال: ففيهما فجاهد(٣).

---

(١) البخاري في الرقاق (٧/ ١٨٩) [رقم ٢٨٥٦، ومسلم (٣٠) عن معاذ بن جبل. والحديث في البخاري في مواضع متعددة].

(٢) البخاري في بدء الخلق (٤/ ٧٣) [رقم ٣١٩٤، ومسلم (٢٧٥١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

(٣) البخاري في الأدب (٧/ ٦٩) [رقم ٥٩٧٢، ومسلم ٢٥٤٩، عن عبد الله عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا].

التناصر بين المسلمين:

قال النبي ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضا وشبك بين أصابعه ﷺ»[١].

علامة المسلم:

وقال النبي ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»[٢].

كمال الإيمان:

«لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحب لنفسه»[٣].

حلاوة الإيمان:

وقال النبي ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان:
أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما.
وأن يحبّ المرء لا يحبّه إلا لله.
وأن يكره أن يعود في الكفر، كما يكره أن يقذف في النار»[٤].

أحبّ الأعمال:

سأل الصحابة عن أحبّ الأعمال إلى الله، فقال ﷺ: أدومها وإن قل، ثم قال: اكلفوا من العمل ما تطيقون[٥].

النهي عن الغلوّ في العبادة:

١- دخل النبي ﷺ، فإذا حبل ممدود بين الساريتين، فقال: ما هذا الحبل؟
قالوا: هذا حبل لزينب، فإذا فترت تعلّقت، فقال النبي ﷺ: لا، حلّوه، ليصلّ

---

(١) البخاري في المظالم (٣/ ٩٨) [رقم ٦٠٢٦، ومسلم (٢٥٨٥) عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].
(٢) البخاري في الإيمان (١/ ٨) [رقم ١٠، ومسلم ٤٠، مطوّلا، عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا].
(٣) البخاري في الإيمان (١/ ٩) [رقم ١٣، ومسلم (٤٥) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].
(٤) البخاري في الإيمان (١/ ٩) [رقم ١٦، ومسلم (٤٣) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].
(٥) البخاري في الرقاق (٧/ ١٧٢) [رقم ٦٤٦٥، ومسلم (٧٨٢) عن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا].

أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليقعد[١].

٢- **وعن عائشة، قالت:** كانت عندي امرأة من بني أسد، فدخل عليّ رسول الله ﷺ فقال: «من هذه؟»

قلت: فلانة، لا تنام الليل، تذكر من صلاتها.

فقال: «مه، عليكم ماتطيقون من الأعمال، فإن الله لا يملّ حتى تملّوا[٢].»

٣- **وسأل رسول الله ﷺ** عبد الله بن عمرو فقال: يا عبد الله ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟

قال: بلى يا رسول الله!

قال: فلا تفعل، صم وأفطر، وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقّا، وإن لعينك عليك حقّا، وإن لزوجك عليك حقّا[٣].

فضل الكسب وذمّ التسوّل:

قال رسول الله ﷺ: لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحدا يعطيه أو يمنعه[٤].

رجلان يُغتبط بهما:

قال النبي ﷺ: لاحسد إلا في اثنتين:

- رجل آتاه الله مالا فسلّطه على هلكته في الحق.
- ورجل آتاه الله حكمته فهو يقضي بها ويعلّمها[٥].

(١) البخاري في التهجد (٢/ ٤٨) برقم ١١٥٠، ومسلم (٧٨٤) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

(٢) البخاري في التهجد (٢/ ٤٨) [رقم ٤٣، ومسلم (٧٨٢) عن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا].

(٣) البخاري في النكاح (٦/ ١٥٢) [رقم ٦١٣٤، ومسلم (١١٥٩) عن عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا].

(٤) البخاري في البيوع (٣/ ٨) [رقم ٢٠٧٤، ومسلم (١٠٤٢) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

(٥) البخاري في الزكاة (٢/ ١١٣) [رقم ٧٣، ومسلم (٨١٦) عن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

توجيه إلى الخلق الحسن للدخول في الجنة:

قال النبي ﷺ: سدّدوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لا يدخل أحدا الجنة عمله[(١)].

النهي عن سفاسف الأخلاق والأمر بالتآخي:

وقال النبي ﷺ: إياكم والظنّ، فإن الظنّ أكذب الحديث، ولا تجسّسوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا»[(٢)].

حقّ الجار والضيف:

وقال النبي ﷺ: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه[(٣)].

فضل الكلام والصمت:

وقال النبي ﷺ: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت[(٤)].

ضمان الرسول:

وقال ﷺ: من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه، أضمن له الجنة[(٥)].

الحثّ على الصبر والشكر:

وقال ﷺ: إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال والخلق، فلينظر إلى من هو أسفل منه[(٦)].

---

(١) البخاري في الرقاق (٧/ ١٨٢) [رقم ٦٤٦٧، ومسلم (٢٨١٨) عن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا].

(٢) البخاري في الفرائض (٨/ ٣) [رقم ٦٧٢٣، ومسلم (٢٥٦٣) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

(٣) البخاري في الرقاق (٧، ١٨٤) [رقم ٦١٣٨، ومسلم (٤٧) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

(٤) البخاري في الأدب(٧/ ١٥٤) [رقم ٦٠١٨، ومسلم (٤٧) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

(٥) البخاري في الرقاق (٧/ ١٨٤) [رقم ٦٤٧٤، عن سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

(٦) البخاري في الرقاق (٧/ ١٨٧) [رقم ٦٤٩٠، ومسلم (٢٩٦٣) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

مقياس القوّة:

وقال ﷺ: ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب[(١)].

أدب الدعوة:

وقال ﷺ لأبي موسى ومعاذ رضي الله عنهما: يسّرا ولا تعسرا، وبشّرا ولا تنفرا، وتطاوعا.[(٢)]

أثر المحبة:

وقال ﷺ: المرء مع من أحبّ[(٣)].

معاملة الأسارى والمساكين والمرضى:

وقال ﷺ: فكّوا العاني، وأطعموا الجائع، وعودوا المريض[(٤)].

فضل غرس الأشجار:

وقال ﷺ: ما من مسلم غرس غرسا، فأكل منه إنسان أو دابة إلا كان له صدقة[(٥)].

الرحمة بالبهائم:

وقال ﷺ: بينما رجل يمشي بطريق اشتدّ عليه العطش، فوجد بئرا فنزل فيها فشرب. ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ بي، فنزل البئر فملأ خفّه، ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له.

قالوا: يا رسول الله ﷺ! وإن لنا في البهائم أجرا؟

---

(١) البخاري في الأدب (٧/ ٩٩) [رقم ٦١١٤، ومسلم (٢٦٠٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه].

(٢) البخاري في الأدب (٧/ ١٠١) [رقم ٣٠٣٨، ومسلم (١٧٣٣) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه. **قاله ﷺ حين بعث أبا موسى ومعاذا رضي الله عنهما إلى اليمن**].

(٣) البخاري (٧/ ١١٢) [رقم ٦١٦٨، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه].

(٤) البخاري في الجهاد والسير (٤/ ٣٠) [رقم ٣٠٤٦، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه].

(٥) البخاري في الأدب (٧/ ٧٨) [رقم ٦٠١٢، عن أنس بن مالك رضي الله عنه].

فقال: في كل ذات كبد رطبة أجر.[١]

فضل تعليم الجارية:

وقال ﷺ: من كانت له جارية فعلّمها وأحسن إليها، ثم أعتقها وتزوّجها كان له أجران[٢].

فضل تعليم البنات:

قال جابر للنبي ﷺ: أصيب عبد الله وترك جواري صغارا فتزوّجت ثيبا تعلّمهن وتؤدّبهن.[٣]

علامة المنافق:

وقال ﷺ: أربع من كنّ فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر[٤].

مَن المهاجر؟:

وقال ﷺ: المهاجر من هجر ما نهى الله عز وجل عنه[٥].

من يظله الله في ظلّه:

وقال ﷺ: سبعة يظلّهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه: الإمام العادل، وشابّ نشأ في عبادة ربّه، ورجل قلبه معلّق في المساجد، ورجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدّق أخفى حتى

---

(١) البخاري في الأدب (٧/ ٧٧) [رقم ٢٣٦٣، ٢٤٦٦، ومسلم ٢٢٤٤، مطوّلًا، عن أبي هريرة رضي الله عنه].

(٢) البخاري في العتق (٣/ ١٢٣) [رقم ٢٥٤٤، ٣٠١١ عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه].

(٣) البخاري في الجهاد والسير (٤/ ١٠) [رقم ٢٤٠٥، ٢٤٠٦ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما].

(٤) البخاري في الإيمان (١/ ١٤) [رقم ٣٤ عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما].

(٥) البخاري في الرقاق (٧/ ١٨٦) [رقم ١٠، ٦٤٨٤ عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما].

لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه[١].

الأمر بطاعة الأمير:

وقال ﷺ: من كره من أميره شيئا فليصبر عليه، فإنه من خرج من طاعة السلطان شبرا مات ميتة الجاهلية[٢].

وقال ﷺ: إنكم سترون بعدي أثرة وأمورا تنكرونها، قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: **أدّوا إليهم حقّهم، وسلوا الله حقّكم؟**.[٣]

إنزال الكبار منازلهم:

وقال ﷺ: فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم[٤].

مسئولية الكبار:

ونيابة عن القوم أخبر الكبارُ النبي ﷺ أن الناس قد طيّبوا وأذنوا[٥].

حماية المعاهد:

وقال ﷺ: من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاما[٦].

---

(١) البخاري في الأذان (٧/ ١٦١) [رقم ٦٦٠ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

(٢) البخاري في الأحكام (٨/ ١٠٥) والفتن (٨٨٧) [رقم ٧٠٥٣، ٧١٤٣ عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا].

(٣) البخاري في الفتن (٨/ ٨٧) [رقم ٧٠٥٢ عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

(٤) قال ﷺ حين عتق سبي هوازن: إني لا أدري من أذن منكم ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم، فرجع الناس فكلّمهم عرفاؤهم فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أن الناس قد طيبوا وأذنوا. رواه البخاري في الأحكام (٨/ ١١٥) [رقم ٧١٧٦ عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا] وزاد المعاد (٣/ ٤٧٦).

(٥) البخاري في الأحكام (٨/ ١١٥) [رقم ٧١٧٦].

(٦) البخاري في الجزية والموادعة (٤/ ٦٥) [رقم ٣١٦٦ مطوّلا، عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا].

منزلة الحياة وعدم تمنّي الموت:

وقال ﷺ: لا يتمنّين أحدكم الموت، إما محسنا فلعلّه أن يزداد خيرا، وإما مسيئا فلعله أن يستعتب[١].

مكانة الصحّة والفراغ في حياة الناس:

وقال ﷺ: نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ[٢].

فضل أداء الدين:

وقال (ﷺ): إن خياركم أحسنكم قضاء[٣].

حقيقة الغنى:

وقال ﷺ: ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس[٤].

المساواة بين عامّة الناس:

وقال ﷺ: لا فضل لعربيّ على عجميّ، ولا لعجميّ على عربيّ، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى[٥].

الرحمة العامّة:

وقال ﷺ: من لا يرحم لا يُرحم[٦].

---

(١) البخاري في التمني (٨/ ١٣٠) وكتاب المرضى (٧/ ١٠) [رقم ٧٢٣٥ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

(٢) البخاري في الرقاق (٧/ ١٧٠) [رقم ٦٤١٢ عن عبدالله بن العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا].

(٣) البخاري في الوكالة (٣/ ٦١)، والاستقراض (٣/ ٨٤) [رقم ٢٣٠٥ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

(٤) البخاري في الرقاق (٧/ ١٧٨) [رقم ٦٤٤٦ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

(٥) مسند أحمد (٥/ ٤١١) [رقم ٢٣٤٨٩، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وذكره الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٢٧٠٠)].

(٦) البخاري في الأدب (٧/ ٧٥) [رقم ٦٠١٣ عن جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

الحثّ على ترك المال للورثة:

وقال ﷺ: أن تدع أنت ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس ما في أيديهم[(١)].

الوصيّة في حقّ المرأة:

وقال ﷺ: المرأة كالضلع إن أقمتها كسرتها، وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج[(٢)].

منزلة المرأة:

وقال ﷺ: المرأة راعية على بيت زوجها وولده.[(٣)]

مكانة عالم القرآن:

وقال ﷺ: الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة.[(٤)]

الكلام المحبوب عند الله تعالى:

وقال ﷺ: كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم.[(٥)]

---

(١) البخاري في الوصايا (٣/ ١٨٦) [رقم ٥٣٥٤ عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

(٢) البخاري في النكاح (٦/ ١٤٥) [رقم ٥١٨٤ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

(٣) البخاري في الأحكام (٨/ ١٠٤) [رقم ٥٢٠٠ عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا].

(٤) البخاري في التوحيد (٨/ ٢١٤) [رقم ٤٩٣٧ عن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا].

(٥) البخاري في التوحيد (٨/ ٢١٩) [رقم ٧٥٦٣ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

القرآن الكريم[1]

القرآن الكريم والسيرة النبوية:

إذا أراد أحد من الأفاضل أن يكتب سيرة النبي المصطفى ﷺ مفصلا، فلا بد له أن يتناول فيها علوم القرآن بحثا ودراسة.

وأما من يكتب سيرته ﷺ مختصرا بأسلوب سهل، مثل كتابي هذا، فيلزمه أيضا أن يعرض فيه نموذجا من تعاليم القرآن، وإن ترك مباحث أسرار التنزيل وحِكَمه وخصائص القرآن الكريم، فإن الكتاب الذي يتناول السيرة النبوية دون عرض النماذج من القرآن الكريم يكون في غاية النقص والحور.

سأل رجل أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن خلق النبيّ ﷺ، فقالت: «**كان خلقه القرآن الكريم**».[2]

إننا نؤمن بأن كلّ كلمة من كلمات القرآن كلام ربّ العالمين، إلا أنّ النبي ﷺ هو الذي عرّف أهل الدنيا بهذا الكلام الرباني، وأطلعهم على أحكامه وتشريعاته.

نزول القرآن وتلاوته:

نزل هذا الكلام المبارك على النبيّ ﷺ منجّما في ثلاث وعشرين سنة، وحفظ بألفاظه نفسها، واشتهر بكلماته ذاتها في العالم بتلاوة رسول الله ﷺ إياه. ثم جرت به ألسنة الناس، وتملكت قلوبهم، وسيطرت على عقولهم وأذهانهم.

ويوجد هذا الكلام الرباني عند كل طبقة من المجتمع في كل ركن من أركان العالم،

---

(١) القرآن هو كتاب الله المنزل على نبيّه لفظا ومعنى، وهو قطعي الثبوت لتواتر نقله، ولوعد الله بحفظه، وهو معجزة الرسول الخالدة. (السيرة النبوية الصحيحة: ٢/ ٦٠٤) راجع فصل «القرآن العظيم» من نواح متعددة في كتابي «الإيمان بالكتب ودوره في بناء شخصية المسلم». (صلاح)

(٢) أحمد في مسنده (٢٤٦٠١) صحيح، والبخاري في الأدب المفرد (٣٠٨)، وذكره الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٢٣٤) وقال: صحيح لغيره. (صلاح)

ويقرأ جزء منه كل يوم في الصلوات الخمس الملايين المملينة من الناس.

القرآن والإيمان به في تزايد مستمر من نزوله حتى الآن:

ومنذ أن نزل على النبي ﷺ ما زال في تقدم وظهور، ومنذ أن سمعته أم المؤمنين خديجة الكبرى أوّلا وحدها، يكثر عدد المؤمنين به باستمرار لحظة بلحظة يوما بعد يوم. ولم تستطع أن تحول دون تقدمه وانتشاره أيّ دولة وسلطة وبيئة، ولا موافقة المؤمنين به ولامعارضة الكافرين به.(١)

التحريف في ترجمة معاني القرآن الكريم:

وقد أدخل التحريف في ترجمة معانيه إلى مختلف اللغات في بلاد شتى، وعلّقت الهوامش الخاطئة على تعليمه النقيّ الطاهر، ولكن لم تحل أي حيلة من الحيل دون نفوذه وشيوعه، ولم تحدّ من انتشاره الواسع في العالم.

القرآن غضّ طريّ بلغته التي نزل بها أولا:

إن اللغة التي نزل بها القرآن الكريم أوّل مرّة، لم يزل ينوّر العالم باللغة نفسها، في حين تخلت عن جميع الكتب المقدسة الأخرى من التوراة، والزبور، والإنجيل، والصحف، والفيدا وزند وبازند، فاللغة التي نزلت بها هذه الكتب لا يوجد لها ولا لأهلها أثر ولا دثر في الدنيا الآن.

الاعتراض على القرآن الكريم:

والقرآن المجيد نفسه يحكي عن الاعتراضات، التي وجّهت إليه أو إلى النبيّ ﷺ إثر نزوله. وهكذا صار هذا الكتاب تأريخا موثّقًا صادقًا مصدّقا في نفسه، وتم فيه عرض

---

(١) إنَّ هذه الجهود التي سخّرها الله تعالى لحفظ القرآن تحقيقا لوعده قد أفلحت في إيصال النص القرآن كاملا إلى الأجيال المتعاقبة حتى اليوم، في الوقت الذي وقع التحريف على سائر الكتب السماوية الأخرى والتي كتبت بعد أزمان طويلة من حياة أنبيائها. (السيرة النبوية الصحيحة: ٢/ ٦٠٠) (صلاح)

الناحيتين من الصورة، والذي لم يظهر من كتاب آخر في الدنيا.(١)

وجود تعليمات القرآن في ما مضى من الكتب:

وأحكام القرآن تتضمن الصدق الصارخ على مدى أوسع بحيث إن الأمم والأديان والملل التي لم تؤمن به علانية، ادّعوا أيضًا وجود تعاليمه وأحكامه في كتبهم، التي سبقته بمئات السنين، أو ظهرت بعده كذلك، وصدق الله تعالى:

﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢].

مثال من الواقع:

ويتضح لك معنى كلامي حين تدرس أحوال اليهودية، والنصرانية، والموبدية، والبوذية، والهندوسية، بفرقتيها («آريه دهرم»، و «سناتن دهرم») قبل نزول القرآن، ثم تفكّر في التطورات التي دخلت فيها إلى الآن بعد نزول القرآن، وتلقي نظرة أيضًا مع هذه التطوّرات على أنه هل انتشرت في ذلك البلد تعليمات القرآن قبل هذا الانقلاب أم لا؟

وسواء اعترف أحد الآن بفيوض القرآن وفوائده كما هي حال مؤسسي فرقة (برهمو سماج)، وكما اتّهمت الكاثوليك الزعيم النصراني «لوثر» بأن مبادئه مستخرجة من القرآن، أو لم يعترف كما هي حال كثير من الفرق والملل، ولكنهم في الواقع استفادوا عملا، من كثير من أحكامه، وإرشاداته، وتوجيهاته، ولا يزالون وكل أمة متطوّرة سائرة إلى طريق التقدّم، مضطرّة على رغم أنفها أن تقتبس بهذا القبس الرباني.(٢)

---

(١) تجد في القرآن اعتراض المعترضين والردّ عليه بكل قوّة ووثوق، ما يبخر اعتراضهم. وأما التعارض في القرآن فقد خلا منه كتاب الله تعالى حيث قال سبحانه ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]، لأن علم الله تعالى محيط، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض والسماء فمحال في حقه التناقض والاختلاف. (صلاح)

(٢) لا ريب أن القرآن الكريم يهدي للتي هي أقوم، فالطبائع السليمة تقبل هداياته وتوجيهاته بصدر رحب، لأنه يفتح آفاقًا بعيدة لاستشراف الحق والخير، فهي تستفيد منه على اختلاف مللها ومذاهبها ومناطقها. (صلاح)

وعلى حدّ علمي أن القرآن الكريم، هو الكتاب الوحيد الذي يبشّر بقوله:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وفي هذا الكتاب السهل المسهّل أريد أن أعرض آيات من القرآن الكريم دون شرح وتفسير حتى يأخذ القارئ عن هذا الكتاب العظيم وعن منزلة النبي ﷺ، ويفكّر في النموذج الذي يريد القرآن إعداده في زمرة المسلمين. وما توفيقي إلا بالله عليه توكّلت وإليه أنيب.

الإلهيات(١)

معرفة ذات الله سبحانه وتعالى:

١ - ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١﴾ [الفاتحة: ١].

٢ - ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

٣ - ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى: ١١].

٤ - ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

٥ - ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝٢٥٥﴾ [البقرة: ٢٥٥].

٦ - ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

٧ - ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١-٤].

وصف الدين الحق:

١ - ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ [الروم: ٣٠].

٢ - ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨].

٣ - ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

(١) يريد المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالإلهيات: العقائد، والإلهيات (في الإنجليزية: (Theology) هي الدراسة المنهجية للذات الإلهية، وعلى نطاق واسع للعقيدة الدينية. (صلاح)

التقوى: المطلوب في العمل:

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

غاية الشريعة:

١- ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦﴾ [المائدة: ٦].

٢- ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وظيفة الرسول ﷺ:

١- ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ۝١٥١﴾ [البقرة: ١٥١].

٢- ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

جزاء الأعمال في الدنيا والآخرة:

١- ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٩٦﴾ [الأعراف: ٩٦].

٢- ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦].

٣- ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾ [الشورى: ٣٠]

٤- ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾ [السجدة: ١٧].

سنن الله لا تتغير:

١- ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

٢- ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ۝٤٣﴾ [فاطر: ٤٣].

٣- ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ [الملك: ٣ – ٤].

مناط النجاح:

١- ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩].

٢- ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢].

٣- ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: ١٤١].

مكانة الصبر والتقوى:

﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

منزلة الحكمة:

﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

جزاء الصبر:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤].

قطع الطمع:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ [طه: ١٣١].

تذكّر الآخرة:

﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧].

تجنّب المهالك:

﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

مغبّة الافتراء والكذب:

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [النحل: ١٠٥].

المحرّمات القطعية:

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

عبادة الله هو التعميد:

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨].

تنويه بالكتابة:

﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾ [القلم: ١].

آيات الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٦٤﴾ [البقرة: ١٦٤].

منع الحلف:

١- ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠﴾ [القلم: ١٠].

٢- ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤].

٣- ﴿وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

دعوة إلى السلم والصلح:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٢٠٨﴾ [البقرة: ٢٠٨].

الإصلاح بين الناس:

١- ﴿وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٢٤].

٢- ﴿وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١].

الأمر بالعفو:

﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢].

الصدق يتضح بنفسه:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

أصول الحكم

توفر العلم:

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨- ٧٩].

منع الفساد:

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

عاقبة الظلم:

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنبياء: ١١].

ثمرة الصلاح:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١٧].

الاستعداد للحرب خير وسيلة للوقاية منها:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

أهمية المشورة:

١- ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

٢- ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

٣- ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾ [النمل: ٣٢].

التعليم والتعلّم

استماع القول:

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ۝١٨﴾ [الزمر: ١٧ – ١٨].

تلقّي العلم:

﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

نظام الدعوة

لا بدّ من طائفة الدعاة:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤].

الداعية من كل فرقة:

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة: ١٢٢].

تربية الخَلْق

تعريف الأنثى:

﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ١٨﴾ [الزخرف: ١٨].

تعريف الزوجين:

١ - ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧].

واللباس يقي الإنسان الحرّ والبرد، ويعطيه الحسن والجمال وهو ينمّ عن مدى تأدب صاحبه وتثقفه، ويستر عيوبه.

وهكذا ينبغي أن تكون العلاقة بين الزوجين، فيكون كل منهما وقاية لصاحبة من الحرّ والبرد، وينمو جمالهما بالمودة المتبادلة، ويعرف مدى ثقافة الزوج وتأدبه برؤية الزوجة، وبالعكس، ويكون كل منهما أمينا لسر الآخر.

٢ - ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

حقوق الزوجين:

١ - ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤].

٢ - ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

الإيمان هو الحبّ البالغ:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

الإيمان والعلم سببان لارتفاع الدرجة:

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

فضل الإنسان:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ٧٠﴾ [الإسراء: ٧٠].

مكانة الإنسان أرفع أن يشرك بالله:

﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأعراف: ١٤٠].

الاعتبار بكلّ صغير وكبير:

﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة: ٣١].

آية في كلّ شيء:

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف: ١٠٥].

أثر السياحة:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦].

العمى الحقيقي:

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦].

الحلال والحرام:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: ١٦٨].

منع ترك الطيّبات:

﴿كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [البقرة: ١٦٨].

تحقّق الهدى:

﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ [الإسراء: ٧٢].

العلوّ بالإيمان:

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩].

المدنيّة والتحضّر

التمدن في الخلائق:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: ٣٨].

الكون مسخّر للإنسان:

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

اختلاف في الكفاءات:

١- ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤].

٢- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨].

٣- ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل: ٥ – ١٠].

مسئوليات متنوعة وكفاءات مختلفة:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: ١٦٥].

المساواة والعدل:

﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِي ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ [الرحمن: ٧ – ٩].

مقياس الخيرية:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

أساس الأخوّة:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

أهمّية المال:

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء: ٥].

ذمّ الفقر:

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ۖ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ [البقرة: ٢٦٨].

ذمّ البخل:

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التغابن: ١٦].

مدح الاقتصاد:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧].

الانتفاع بالتجارة البحرية:

﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

المستحقّون للنعم الدائمة:

﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ
وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ
وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ
عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن

سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى: ٣٦ - ٤٣].

سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم.

تمّ بالخير.(١)

* * *

كتبه راجي الشفاعة والغفران:

القاضي محمد سليمان سلمان بن الشيخ القاضي أحمد شاه المنصور فوري رحمه الله وغفر له.

(إمارة «بتياله» بالهند المتحدة)(٢)

(١) جدير بالذكر أن مؤلف الكتاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان شاعرًا مفلقا باللغتين: الأردية والفارسية، ففي آخر الجزء الأوّل بعد فهرس الكتاب، نشر قصيدة طويلة بالفارسية في مدح النبي ﷺ، تحتوي على ستة وأربعين بيتًا. وهي في غاية الروعة والجمال. (صلاح)

(٢) أنهيت مراجعة «الجزء الأوّل من هذا الكتاب» بعد فجر الأحد، الرابع من ربيع الأوّل ١٤٤٣هـ الموافق (١٠/ ١٠/ ٢٠٢١م)
فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. (صلاح)

فهرس الموضوعات

الجزء الأول

مقدمة التحقيق

المؤلّف وكتابه في نظر معاصريه من الأعلام ٧
بين يدي الكتاب ٩
عملي في هذه الطبعة العربيّة المنقّحة ١٦
شكر وتقدير ١٧

العلامة المؤرّخ النّسابة القاضي محمد سليمان المنصورفوري
الحالة السياسيّة والدينية في عصره
(١٩-٥٢)

الحالة السياسيّة ١٩
الحالة الدينيّة ٢٠
طريقتان للدعوة إلى الديانة ٢٠
رغبة علماء الديانات في المناظرات والمباحثات ٢١
الحركة الإسلامية الأولى في الهند التي سمّيت بالحركة الوهابية ٢١
دور السيّد محمد نذير حسين المحدث في تأييد هذه الحركة ٢٢
إقامة خمس قضايا في المحاكم ضدّ المجاهدين ٢٣
بقاء هذه الحركة فعالة إلى استقلال الهند ١٩٤٧م ٢٤
صلة أسرة القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الحركة ٢٤
أسرته الكريمة ٢٥
مولده ونشأته العلميّة ٢٦
من شيوخه: المحدث عبد العزيز الكوموي (تلميذ المحدث نذير حسين الدهلوي) ٢٧
من وظائفه الرسميّة ٢٨
في إدارة التعليم والتربية ٢٩
في محكمة القضاء ٣١
قصّة نقله من إدارة التعليم إلى القضاء ٣١
تزكية القاضي من قبل المفتش العام للشرطة ٣٢

جدّية القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في القضاء ٣٢
نماذج من روعة أساليبه في القضاء........ ٣٣
من تأثير قضائه العادل، وأخلاقه الفاضلة ٣٥
احترامه وتقديره لدى والي الإمارة الملك، وغيره من الملوك، والأمراء، وكبار المسئولين من الإنجليز وغيرهم ٣٧
مع والي الإمارة الملك ٣٧
زيارة أمير ويلز لإمارة «بتياله»، ودور القاضي في ترتيبها وتنظيمها........ ٤١
زيارة الأمير حبيب الله خان للهند، وعلاقته بالقاضي ٤٢
تحفة قطعة من غلاف الكعبة من قبل حكومة الشريف بمكّة ٤٣
علاقاته بكبار الشخصيات السياسيّة على مستوى الهند........ ٤٣
الشهادات التذكاريّة الممنوحة للقاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ٤٤
القاضي مع الملك عبد العزيز آل سعود رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ ٤٥
أوّل تعارف بينهم ٤٥
من فائدة هذا التعارف ٤٦
تعيين السيّد إسماعيل الغزنوي مندوب الحجّ ٤٦
السيد إسماعيل مع القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الحجّ ٤٧
طلب الملك من القاضي تأليف كتاب في تأريخ نجد........ ٤٧
إشارة القاضي على الملك لتسقيف ما بين الصفا والمروة........ ٤٧
في مجال الدعوة والإرشاد ٤٩
أطول خطاب في محاسن الإسلام، لا مثيل له في تأريخ الهند ٥٠
البحث والمناظرة........ ٥١

من أساليب القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الدعوة إلى الله

عذوبة كلامه، وسرعة تأثيره على نحو لا يتصوّر

(٥٣-٦٨)

من إصلاحاته الاجتماعية........ ٦١
نماذج نادرة من محبّي القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ٦٢
واقعة عجيبة وغريبة ٦٢

نماذج من نوادر أموره ٦٤
قصّة دخول غازي محمود في الإسلام متأثرًا بالقاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ٦٥

بعض الأعلام المشاهير من معاصري القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ
(٦٩-٧٨)

العلامة شبلي النعماني (١٨٥٧-١٩١٤م) ٦٩
العلّامة الحافظ عبد الله الغازي فوري (-١٩١٨م) ٧٠
العلّامة الشيخ عبد العزيز الرحيم آبادي (١٢٧٠هـ-١٣٣٦هـ) ٧٠
الحكيم السيّد عبد الحيّ الحسني (-١٩٢٣م) ٧١
الشاه سليمان بن داود الفلواروي (١٨٦٠-١٩٦٥م) ٧١
الأمير السيّد علي حسن بن صديق حسن خان البوفالي (ت ١٣٥٥هـ =١٩٣٦م) ٧١
الشيخ إن شاء الله خان (توفّي بعد ١٩٣٦هـ) ٧١
السيّد سليمان أشرف (١٨٧٨-١٩٣٩م) ٧٢
العلّامة الأديب الشيخ محمد السورتي (-١٩٤٢م) ٧٢
الشيخ عبد القادر القصوري (-١٩٤٢م) ٧٢
الحكيم عبد الرءوف الدانافوري (-١٩٤٨م) ٧٣
العلّامة الشيخ ثناء الله الأمرتسري (١٨٦٨-١٩٤٨م) ٧٣
الشيخ محمد سليمان (من بلدة روري) (١٨٥٥-١٩٤٩م) ٧٤
العلّامة محمد أبو القاسم المعروف بـ«سيف» البنارسي (١٨٩٠-١٩٤٩م) ٧٥
العلّامة السيّد سليمان الندوي (١٨٨٤-١٩٥٣م) ٧٥
العلّامة الشيخ محمد إبراهيم السيالكوتي (-١٩٥٦م) ٧٥
- **أوقات التصنيف والتأليف** ٧٧
برنامجه أيّام وظيفته الرسميّة ٧٧
برنامجه بعد التقاعد عن الوظيفة ٧٨

مؤلّفات القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ
(٧٩-٨٤)

(١)الجمال والكمال ٧٩
(٢)المعارف الأسمى شرح أسماء الله الحسنى ٧٩

(٣)مهر النبوّة ٨٠
(٤)الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ ٨٠
(٥)سيّد البشر ﷺ........ ٨٠
(٦)أصحاب بدر ٨٠
(٧)غاية المرام ٨٠
(٨)تأييد الإسلام ٨٠
وقد تنبأ القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «غاية المرام» بعد دراسة أحوال القادياني بأمرين ٨١
(٩) خطب سليمان ٨١
(١٠) تأريخ المشاهير ٨١
(١١) المسح على الجوربين ٨٢
(١٢) الاستقامة ٨٢
(١٣) مكاتيب سليمان ٨٣
(١٤) البرهان ٨٣
(١٥) الرحلة إلى الحجاز (تأريخ الحرمين) ٨٣
(١٦) كتاب «رحمة للعالمين» ٨٤
- **من أخلاقه وآدابه وعوائده** ٨٥
- **إلى بيت الله الحرام** ٨٨
ووفاته عند رجوعه من الحج على متن الباخرة المتجهة إلى الهند ٨٨
توديعه الأخير لبيت الله الحرام ٨٨
وعظه الأخير داخل الباخرة ٨٨
اللحظات الأخيرة من حياته ٨٩
تكفينه وتجهيزه ٨٩
المشهد المحزن لإلقاء الجثمان في البحر ٩٠
هكذا كان القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ٩٠
- **وفاته رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقعت كالصاعقة على أهل الهند** ٩٢
رسائل التعازي والدعاء على مستوى الهند المتّحدة ٩٢
ذكر أهم هذه التعازي لتكون ذكرى للتأريخ ٩٣

كتاب «رحمة للعالمين»
وتلقّي العلماء والمثقّفين وغيرهم من فئات المجتمع إيّاه بالقبول
(٩٩-١٢٩)

إشادة العلماء بالكتاب ومؤلّفه ١٠٠
خلفيّة التأليف في السيرة في القرن العشرين الميلادي ١٠٣
أوّل كتابٍ معتمد عليه في السيرة في الأرديّة ١٠٤
من خصائص كتاب «رحمة للعالمين» ١٠٦
من معنويات كتاب «رحمة للعالمين» ١٠٩
- **الردّ على الشبهات المثارة ضدّ الإسلام ونبيّ الإسلام** ١١٠

هل القرآن مجموع أساطير الأوّلين ١١٠
جمع الله تعالى في النبي ﷺ خصائص الأنبياء كلّهم ١١١
اعترضوا على الإسلام بأنه دين العجز والكسل ليس دين العمل ١١١
ذكر تعدّد الزوجات ١١١
ذكر استياء النصارى من زواجه ﷺ من زينب بنت جحش رضي الله عنها ١١١
من أهم التحقيقات التي قلّما توجد في غيره من الكتب ١١٢
محتويات «رحمة للعالمين» ١١٤
كلمة الناشر للطبعة الأولى ١١٧
كلمة الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاريّ ١١٨
كلمة المترجم (للطبعة العربية الأولى) **حياة العلّامة المنصورفوريّ رحمه الله** ١٢١
الترجمة الثانية لكتاب «رحمة للعالمين»: ما لها وما عليها ١٢٣
كلمة ناشرها ١٢٣
كشف حقيقة الترجمة الثانية ١٢٤
مقدّمة المترجم الثاني ١٢٥
تساؤلات ١٢٦
عود على بدء ١٢٨

الجزء الأول

نبذة عن الكتاب ١٣٣
مقدمة الطبعة السادسة ١٣٥
تمهيد المؤلف ١٣٧
مملكة بابل ١٣٧
هجرة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من بابل إلى مصر ١٣٧
قصة إبراهيم وسارة مع ملك مصر، وخدمة هاجر........................ ١٣٨
تقسيم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ البلاد بين ولديه ومدى التعاون بينهما وبين ذرّيتهما........ ١٣٩
نبذة عن إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ ١٤١
أولاد إسماعيل وموقع انتشارهم المتميز في البلاد........................ ١٤٢
البارزون من أولاد إسماعيل ١٤٢
إقامة حكومة مشتركة في مكة وإنشاء المناصب فيها ١٤٣
نبذة عن الجزيرة العربية وأهاليها........................ ١٤٥
موقع الجزيرة العربية ١٤٥
مساحة الجزيرة وخصائص أقطارها........................ ١٤٥
حالة الجزيرة سياسيا واجتماعيًا وخلقيًا عند مولد النبيّ ﷺ ١٤٦
كون الجزيرة في وسط الكرة الأرضية، رشّحها لبعثة النبيّ الخاتم فيها........................ ١٤٨
كتاب «رحمة للعالمين» ومعرفة مهامّ النبي ﷺ بمطالعته........................ ١٥٠
تحوّل حاخامات الأديان وصناديد الجاهلية إلى الإسلام........................ ١٥٠
سبب هذا التحوّل المحيّر للعالم هو تعليم الإسلام ١٥٤
من واجبات المسلمين تجاه هذا الدين........................ ١٥٥
من عجائب ميزات السيرة النبويّة العطرة ١٥٥
محاسن الأنبياء كلّها تتجلّى في نبوته ﷺ ١٥٦

باب
محمد بن عبدالله ﷺ حياته وبعثته
(١٥٩ -٢٧٨)

من أسماء النبي ﷺ ١٦١
نسبه الشريف من جهة أبيه وأمه ١٦٢
مولد النبي ﷺ ١٦٤
جدّه عبدالمطلب ١٦٥
في أيام الرضاعة ١٦٦
وفاة أمّه وكفالة جدّه ١٦٦
كفالة أبي طالب ١٦٧
لقاؤه مع بحيرى الراهب ١٦٧
التفكير في التجارة ١٧٠
خديجة تخطبه لنفسها ١٧٠
انعقاد حلف الأمن والسلام ومراعاة الحقوق ١٧١
لقب الصادق الأمين ١٧٣
قرب زمن البعثة والعبادة في غار حراء ١٧٧
البعثة والنبوّة ١٧٨
شهادة خديجة على خلقه العظيم ١٧٨
شهادة ورقة على نبوة النبي ﷺ ١٧٩
بداية نزول القرآن ١٨٠
بداية الصلاة ١٨١
بداية الدعوة والسابقون الأوّلون إليها ١٨١
الصلاة في عقبة الجبل والدعوة سرّا ١٨٢
الأمر بالدعوة جهرًا ١٨٣
أهداف النبوة ومقاصدها ١٨٤
مراحل الدعوة ١٨٥
العالم وقت البعثة النبويّة (وحالته المزرية الداعية إلى المنقذ) ١٨٦
- الوضع المزري في الجزيرة العربية، صار موضع عطف من الله تعالى ١٨٨
- الدعوة في عشيرته ١٨٨

- دعوة أهل مكة وموعظة جبل الصفا ١٨٩
- نقاط مهمة، دعاهم إليها ١٩٠
- الدعوة في الأسواق والأعياد........ ١٩٠
- معارضة قريش للدعوة........ ١٩٠
- أساليب إيذاء المسلمين ١٩١
  - أولا: المستضعفون من المسلمين وطرق إيذائهم ١٩١
  - ثانيا: إساءتهم إلى النبي ﷺ........ ١٩٤
  - ثالثًا: لجان الإيذاء ١٩٥
- جماعة المستهزئين ١٩٥
- اتفاقهم على إيذائه هو وأصحابه من غير جريرة........ ١٩٦

الهجرة إلى الحبشة ١٩٧

- الهجرة الأولى ١٩٧
- فضل عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ١٩٨
- الهجرة الثانية........ ١٩٨
- قريش تتعاقب المسلمين حتى الحبشة ١٩٨
- خطبة جعفر بن أبي طالب عند النجاشي ١٩٩
- مفاوضة عتبة مع النبي ﷺ بعد خيبة سفارة قريش إلى النجاشي........ ٢٠١
- مفاوضة صناديد قريش مع عمّه أبي طالب ٢٠٣
- جهود مستمرّة بعد فشل المفاوضات ٢٠٤
- مطالبة قريش من النبي ﷺ بالآيات لإثبات نبوّته ٢٠٥
- عناد عبدالله بن أبي أميّة في مفاوضته مع النبي ﷺ........ ٢٠٧
- دعوة الأنبياء نفسها تصديق لدعواهم من غير ارتكان إلى المعجزات ٢٠٨

الإسلام يشق طريقه إلى قلوب الكبار في أحرج أوقاته ٢٠٩

- إسلام حمزة بن عبدالمطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوّة ومنعة للنبي ﷺ........ ٢٠٩
- إسلام عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعزّة المسلمين ٢٠٩

مقاطعة النبي ﷺ مع عشيرته في شعب أبي طالب ٢١٢

- تحيّن النبي موسم الحج للدعوة أيام المقاطعة ٢١٣
- مناقرة بين عتبة وأبي جهل في أمر النبي ﷺ........ ٢١٤

عام الحزن ٢١٥
- وفاة أبي طالب ٢١٥
- وفاة خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ٢١٦
- زيادة إيذاء قريش للنبي ﷺ بعد وفاتهما ٢١٦

خروج الرسول ﷺ إلى دعوة القبائل ٢١٧
- رحلة النبي ﷺ إلى الطائف وإيذاء سفهاء ثقيف له ٢١٨
- تحركت رحم عتبة وشيبة أنفه للنبي ﷺ ٢١٩
- غلامهما عدّاس في حوار مع النبي ﷺ ٢١٩
- التوجّه إلى الله بالشكوى ٢٢٠
- عرض النبي ﷺ نفسه على القبائل خارج مكّة طلبًا لنصرتهم ٢٢٢

بعض المشاهير الذين آمنوا من غير أهل مكة في هذه الفترة الدقيقة من تأريخ الإسلام ٢٢٤
(١) إيمان سويد بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٢٢٤
(٢) هداية إياس بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٢٢٥
(٣) إسلام ضماد الأزدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أهل اليمن ٢٢٦
(٤) إسلام طفيل بن عمرو الدوسيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٢٢٧
(٥) إسلام أبي ذرّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٢٢٨

الإسراء والمعراج ٢٣٠

أسباب الهجرة ٢٣٥
- الأوائل الستة الذين تشرّفوا بالإسلام من أهل يثرب ٢٣٥
- بيعة العقبة الأولى ٢٣٦
- بنود البيعة ٢٣٧
- مصعب بن عمير سفير النبي ﷺ إلى المدينة ٢٣٨
- بيعة العقبة الثانية ٢٣٨
- إسلام أسيد بن حضير بدعوة مصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ٢٣٩
- إسلام سعد بن معاذ وقبيلته عن بكرة أبيها في يوم واحد ٢٣٩
- وفد المدينة إلى العقبة ٢٤١
  - تنبيه العباس بن عبدالمطلب على خطورة بيعة العقبة ٢٤١
  - وعظ الرسول ﷺ في العقبة الثانية ٢٤٢
  - شيطان ينبه قريشا على هذه البيعة ٢٤٢

- نقباء النبي ﷺ ٢٤٣
- مطاردة قريش للمبايعين وسعد بن عبادة في قبضتها ٢٤٤
  - ○ نجاة سعد بتدخّل حلفائه في مكة ٢٤٥

تباشير الهجرة إلى المدينة ٢٤٦

- متاعب الهجرة ومصاعبها ٢٤٦

(١) ربح صهيب بالتخلّي عن ماله عند هجرته ٢٤٦

(٢) أصاب آل أبي سلمة عندالهجرة، مالم يصب أهل بيت في الإسلام ٢٤٧

(٣) افتتان عياش وهشام بن العاصي عندالهجرة ونجاة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ٢٤٨

الهجرة إلى المدينة الطيّبة ٢٥٠

- تشاور قريش «في دارالندوة» لاغتيال النبي ﷺ ٢٥٠
  - ○ أسماء المجتمعين في دار الندوة ٢٥٠
  - ○ مؤامرة عجيبة في اختيار من يقومون باغتياله ﷺ ٢٥٢
  - ○ التدبير الربّاني في مواجهة التدبير الإنساني (تخطيط دقيق للهجرة) ٢٥٢
  - ○ نوم عليّ في فراش النبي ﷺ ليلة الهجرة ٢٥٣

آل أبي بكر في إعداد العدّة للهجرة ٢٥٤

  - ○ خروج النبي ﷺ من بيته إلى أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٢٥٤
  - ○ من دارأبي بكر إلى غار ثور، وآله في إعداد العدّة للهجرة ٢٥٤
  - ○ القوّة الإيمانية العجيبة لابنة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ٢٥٦
- إذ هما في الغار ٢٥٦
- الخروج من الغار ٢٥٧
- تحقق النصر الإلهي للنبي ﷺ بعد الهجرة أسوة بالأنبياء السابقين ٢٥٧
- طريق الهجرة ٢٥٨
- سراقة في طلب النبي ﷺ ٢٥٨
- مرور هذا الركب الميمون بخيمة أم معبد ٢٥٨
  - ○ أم معبد تصف رسول الله ﷺ لزوجها ٢٥٩

ثلاث عشرة سنة للنبوّة في مكة ٢٦٢

- مكانة السابقين الأولين من المهاجرين ٢٦٢
- إسلام بريدة مع سبعين نفرًا من قومه ٢٦٣

- يكسو الزبير النبي وهو في طريقه إلى المدينة ٢٦٣
- وصول النبي ﷺ إلى قباء ٢٦٤
- تصوير حيّ لانتظار أهل يثرب قدومه ﷺ الميمون ٢٦٤
- صرخة يهوديّ يابني قيلة هذا جدّكم قد جاء ٢٦٤
- بناء مسجد قباء ٢٦٥
- لحوق عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالنبي ﷺ ٢٦٧
- خطبة رسول الله ﷺ في أوّل جمعة جمّعها بالمدينة ٢٦٧
- استقبال حافل للنبي ﷺ عند دخوله المدينة ٢٦٩

مقارنة بين أحوال مكة والمدينة ٢٧٣

- يهود المدينة في انتظار النبيّ الموعود ٢٧٤
- نصارى المدينة في انتظار النبي الموعود ٢٧٦
- نبذة عن عبدالله بن أبيّ بن سلول رأس المنافقين ٢٧٧

الباب الأول
معاهدة بين الأمم لاستتباب الأمن، ومؤامرات قريش وهجماتهم، ونقض اليهود للعهد، ونجاح المسلمين في الانطلاق للتبشير والإنذار، وانتشار الإسلام، وقيام الأمن والسلام
(٢٧٩-٣٨٦)

- المعاهدة بين أهل المدينة ٢٨١
- بنود المعاهدة ٢٨٢
- إدخال قبائل ضواحي المدينة في المعاهدة لفائدتين ٢٨٣

مؤامرات قريش ٢٨٥

١ - مؤامرة قريش الأولى ضدّ المسلمين ٢٨٥

- تهديد قريش بالهجوم على المدينة ٢٨٦

٢ - مؤامرة قريش الثانية ٢٨٧

(١) هجوم قريش الأوّل على المسلمين بتحريض من أبي جهل ٢٨٧

- عدد جيش قريش والتأكّد من اتجاهه وإرادته ٢٨٧
- استشارة النبي مع أصحابه في أمر القتال ٢٨٧
- عدم الإذن للمسلمين بالقتال ٢٨٨
- ضرورة الإذن بالجهاد ٢٨٩
- إذن الجهاد الأوّل ٢٨٩

(٢) هجوم قريش الثاني على المسلمين أو غزوة بدر الكبرى ٢٩٢
- عدد أهل بدر يساوي جيش طالوت ٢٩٢
- تحديد مصارع القوم ٢٩٣
- تعامل النبي ﷺ مع أسرى بدر خلاف ما كان يتوقّع منه ٢٩٤
- تكليف من لايجد فداء بتعليم أبناء المسلمين ٢٩٤

٣- مؤامرة قريش الثالثة ومحاولة قتل النبي ﷺ ٢٩٥
- إسلام عمير بن وهب ٢٩٦

(٣) هجوم قريش الثالث ٢٩٩
- غزوة السويق أو قرقرة الكدر ٢٩٩

(٤) هجوم قريش الرابع (أي غزوة أحد) ٣٠١
- دور النساء في ميدان المعركة ٣٠٣

من أعظم خسائر الحرب ٣٠٤
- شهادة مصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٣٠٤
- تمكّن حبّه في قلب زوجته حمنة ٣٠٤
- شهادة حمزة بن عبدالمطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٣٠٤
- تضحية أنس بن النضر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وشجاعته ٣٠٥
- وصيّة سعد بن الربيع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للمسلمين عند وفاته ٣٠٥
- استلذاذ الموت ٣٠٦
- شجاعة بالغة ٣٠٦
- مظهر قوّة إيمان صحابية في قولها: كل مصيبة بعدك جلل، وتسميتها تعليقًا ٣٠٧
- رحمة للعالمين وعفوه ٣٠٧

٤- مؤامرة قريش الرابعة وقتل عشرة دعاة من أصحاب النبي ﷺ ٣٠٨
- قتل عاصم، ووقوع خبيب وزيد في الأسر ٣٠٨
- خبيب أثبت أن الغدر ليس من شيمة المسلمين ٣٠٩
- مقارنة بين حبّ النفس وحبّ الرسول ﷺ ٣١٠
- مدى وقعة قتل خبيب بهذه الصورة البشعة على سعيد الجمحي ٣١١
- مؤامرة أخرى، وقتل سبعين من دعاة النبي ﷺ ٣١٢

(٥) هجوم قريش الخامس ونقض العهد أو فتح مكة ٣١٤
- خروج عمرو بن سالم الخزاعي إلى النبي ﷺ ومسيره لفتح مكّة ٣١٤

- مباغتة النبي ﷺ أهل مكة ٣١٧
- توجيهات نبوية صادرة للجيش عند دخوله في مكّة ٣١٨
- دخول النبي ﷺ في مكّة مطرقًا رأسه، متوجّها إلى الكعبة ٣١٩
- تحطيم النبي ﷺ الأصنام داخل الكعبة ٣٢٠
- صاحب مفتاح الكعبة عثمان بن أبي طلحة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ٣٢٠
- تجمّع صناديد مكة وعظمائها عند دخول النبي ﷺ الكعبة ٣٢١
- اليوم يوم برّ ووفاء، هاك مفتاحك ياعثمان ٣٢١
- خطبة النبي ﷺ أمام المفتوحين والأعداء ٣٢٢
- بيعة الرجال وبنودها ٣٢٢
- بيعة النساء ٣٢٣
  - طريقة البيعة ٣٢٤
- فضالة يريد قتل النبي في اليوم الثاني من الفتح ٣٢٤
- عفوه ﷺ يوم الفتح عن الناس إلا... .... ٣٢٤
- أما المرأتان ٣٢٥
- فتح مكة كان عنوة أم صلحًا؟ ٣٢٦
- تشابه بين يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ونبينا ﷺ في نبوءات سابقة ٣٢٧
- من نتائج الفتح: دخول الناس في دين الله أفواجا ٣٢٨

غزوة حنين (شوال سنة ٨هـ) دفاع عن هجوم هوازن وثقيف ٣٣٣

- اشتداد المعركة وقوله ﷺ «أنا النبيّ لا كذب» ٣٣٣
- هتاف العباس بالصحابة للعودة ٣٣٤
- غنائم حنين ٣٣٥
- مجيء وفد هوازن بعد إسلامهم، وإعادة السبي لهم ٣٣٦
- تكريم النبي ﷺ الشيما بنت الحارث أخته من الرضاعة ٣٣٧
- تقسيم الغنائم في المؤلفة قلوبهم دون الأنصار: ونموذج إخلاصهم ٣٣٧

فصل
كيد اليهود، ونقضهم للعهود، وهجومهم على المسلمين ودفاع المسلمين عن أنفسهم
(٣٣٩-٣٥٨)

التشهير بالنبي ﷺ وعداء اليهود ٣٤١

- مكائد اليهود ٣٤١

المؤامرة الأولى وإخراج بني قينقاع ٣٤٢

- نزولهم على حكم رسول الله ﷺ ٣٤٣
- موقف عبدالله بن أبيّ زعيم المنافقين، من أوليائه اليهود ٣٤٣

المؤامرة الثانية: مؤامرة قتل النبي ﷺ ٣٤٤

- إجلاء بني النضير ٣٤٦

مؤامرة اليهود الثالثة بالعصيان العام، وما نتج عنها من غزوة الأحزاب أو الخندق ٣٤٧

- تحريضهم القبائل على المسلمين ٣٤٨
- حفر الخندق ٣٤٩
- نقض العهد ٣٥٠
- إخلال الأمن في المدينة ٣٥١
- موقف سعد الباسل من الصلح مع غطفان ٣٥١
- المبارزة بين الفريقين أثناء المحاصرة ٣٥٢
- الريح جند من جنود الله ٣٥٣

مصير بني قريظة ٣٥٤

- أمر جبريل بالخروج إلى بني قريظة ٣٥٤
- سبب هذه الغزوة: نقض اليهود للعهد، وتصفية كيانهم الفاسد ٣٥٥
- نجاح حصار بني قريظة ٣٥٥
- حكم سعد في بني قريظة، كان موافقا لما في العهد القديم ٣٥٥

فصل:
فتح جبهة القتال ضدّ النصارى
(٣٥٩-٣٨٦)

فتح جبهة القتال ضدّ النصارى ٣٦١

غزوة مؤتة عام ٨ هـ (الثأر لداعية الإسلام) ٣٦٢

- سبب هذه الغزوة ٢٦٢
- مصير هذه الغزوة ٢٦٣

جيش العسرة أو المسير إلى التبوك رجب سنة ٩هـ ٣٦٦

- من أسباب المسير إلى تبوك ٣٦٧
- القرار النبوي لمواجهة القوّة العظمى في ساعة العسرة ٣٦٧

- تبرعات سخيّة لتجهيز الجيش ٣٦٨
- المعذّرون من الأعراب ٣٦٩
- مدة إقامة النبي ﷺ في تبوك ٣٧١
- خطبة النبي ﷺ يوم تبوك ٣٧١
- وفاة ذي البجادين، الذي ضحّى بكل ماعنده لأجل اللحوق بالنبي ﷺ ٣٧٣
- عفو النبي ﷺ عن المتخلفين إلا عن ثلاثة منهم ٣٧٥
- كعب بن مالك يتحدّث عن محنة تخلّفه عن غزوة تبوك ٣٧٦
- انتهاء الشرّ المستطير الذي أثاره الأعداء لسنوات ٣٨٠
- حروب كانت لابدّ منها ٣٨١
- لا إكراه في الدين ٣٨١

تعامل الإسلام الحضاريّ مع أسرى الحرب ٣٨٢
- رأى أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في أسرى بدر ٣٨٢
- ميل النبي ﷺ إلى رأي أبي بكر ٣٨٣
- إطلاق سراح الأسرى في الغزوات ٣٨٤
- تبادل الأسرى ٣٨٥
- المصلحة الربّانية في القتال ٣٨٥

الباب الثاني
إرسال الرسل مع الكتب إلى أصحاب الديانات الأخرى
من الملوك في بلاد مختلفة، وموقفهم من دعوة الإسلام ومصيرهم
(٣٨٧-٤١٢)

عالمية الإسلام من أبرز خصائصه ٣٨٩
- إرسال الكتب لتحقيق عالميّة الإسلام ٣٩٠
- لا نظير لمثل هذا الإجراء في تأريخ الديانات ٣٩٠
- شذوذ الأتباع عن صنيع متبوعيهم ليس بحجّة ٣٩٠
- بداية إرسال الكتب إلى الملوك ٣٩١
- اتخاذ النبي ﷺ خاتمًا لختم الكتب والرسائل ٣٩١
- المحتوى العام للكتب الموجهة إلى ملوك النصارى ٣٩٢

أحوال هذه السفارات وأسماء سفرائها بإيجاز ٣٩٣
(١) إلى ملك الحبشة ٣٩٣
(٢) إلى ملك البحرين ٣٩٥

(٣) إلى ملك عمان ٣٩٦
(٤) إلى صاحب غوطة بدمشق ٤٠٠
(٥) إلى صاحب اليمامة ٤٠١
(٦) إلى ملك مصر والإسكندرية ٤٠٢
(٧) إلى هرقل عظيم الروم ٤٠٤
(٨) إلى كسرى عظيم فارس ٤٠٨
إسلام بعض الأمراء والحكام ٤١١

الباب الثالث
قدوم وفود العرب وغيرهم على النبي ﷺ
(٤١٣-٤٦٢)

قدوم وفود العرب وغيرهم على النبي ﷺ ٤١٥
قدوم الوفود دليل على عالميّة الدعوة ٤١٦
أحوال هذه الوفود ٤١٧
١- وفد دوس ٤١٧
○ توجيه نبويّ لدعاة الإسلام ٤١٧
٢- وفد صُداء ٤١٩
٣- وفد ثقيف ٤٢٠
٤- وفد عبدالقيس ٤٢٧
٥- وفد بني حنيفة ٤٢٩
٦- وفد طيء ٤٣١
٧- وفد الأشعريين ٤٣٢
٨- وفد الأزد ٤٣٣
٩- قدوم رسول فروة بن عمرو الجذاميّ ٤٣٥
١٠- وفد همدان ٤٣٦
١١- وفد طارق بن عبدالله ٤٣٧
١٢- وفد تُجيب ٤٣٩
١٣- وفد بني سعد هذيم ٤٤١
١٤- وفد بني أسد ٤٤٢
١٥- وفد بهراء ٤٤٣

١٦- وفد عُذرة ٤٤٤
١٧- وفد خولان ٤٤٥
١٨- وفد محارب ٤٤٦
١٩- وفد غسّان ٤٤٧
٢٠- وفد بني الحارث ٤٤٨
٢١- وفد بني عبس ٤٤٩
٢٢- وفد غامد ٤٥٠
٢٣- وفد بني فزارة ٤٥١
٢٤- وفد سلامان ٤٥٢
٢٥- وفد نجران ٤٥٣
- معاهدة النبي ﷺ مع أهل نجران ٤٥٦
- بقيّة أحوال هذا الوفد ٤٥٧
٢٦- وفد النخع ٤٦١

الباب الرابع
أهم أحداث العهد المدنيّ خلال عشر سنوات ووفاة النبي ﷺ
(٤٦٣-٥٦٤)

بناء المسجد النبوي ٤٦٦
إسلام عبدالله بن سلام الحبر الإسرائيلي رضي الله عنه ٤٦٩
إسلام أبي قيس الراهب النصراني رضي الله عنه ٤٧٠
الصلاة ٤٧١
المؤاخاة ٤٧٣
الأذان ٤٧٧
إسلام سلمان الفارسي رضي الله عنه ٤٧٩
تحويل القبلة ٤٨٠
- ما يستفاد من تحويل القبلة ٤٨٠
- من أسباب بقاء بيت المقدس قبلة طيلة إقامته بمكّة ٤٨١
- من أسباب تحويل القبلة إلى مكة ٤٨١
- الكعبة قبلة المسلمين إلى أبد الآباد، لسبقها الزمني وعظمتها التأريخية ٤٨٢
- أدلّة السبق الزمني والعظمة للكعبة ٤٨٢

- بناؤها قبل يروشليم ٤٨٢
- بناؤها قبل أي معبد من المعابد الهندوسية ٤٨٢
- الأناجيل تتحدث عن سبق بناء الكعبة وفضلها وعظمتها ٤٨٣
- الكعبة هي التي كانت تستحقّ أن تكون قبلة للمسلمين ٤٨٧

الزكاة ٤٨٨

- فرق ومناهج نشأت لحلّ المعضلات الاقتصادية ٤٨٨
- الحلّ الإسلامي هو المطروح لحلّ هذه المعضلة ٤٨٩
- من فوائد الزكاة، التي تعود على المزكّي ٤٨٩
- من فوائد الزكاة، التي تعود على الأمة ٤٩٠
- مصارف الزكاة الثمانية ٤٩٠
- مصرف تحرير الرقاب ٤٩١
- الإسلام ينادي لتحرير العبيد ٤٩١
- مواضع تحرير الرقبة في الكفارات ٤٩٢
- المصرف السادس الغارمون والمدينون ٤٩٢
- سنّ قانون تحريم الربا من حقّ الإسلام وحده ٤٩٣

صوم رمضان (سنة ٢هـ) ٤٩٤

- استشعار الصائم بعظمة الله في السرّ والعلن ٤٩٥
- حكمة اختيار صوم رمضان بالتوقيت القمريّ ٤٩٦

تحريم الخمر (سنة ٤هـ) ٤٩٧

ولادة الحسين رَضِوَاللَّهُعَنْهُ (سنة ٤هـ) ٤٩٩

إسلام ثُمامة بن أُثال رَضِوَاللَّهُعَنْهُ (سنة٥هـ) ٥٠٠

صلح الحديبية (سنة٦هـ) ٥٠٢

- الشرط الأخير أقلق المسلمين جدًا ٥٠٥
- خاب ظنّ قريش فيما في الشرط الأخير ٥٠٥
- معاهدة الحديبية من بواعث الخيرات والبركات ٥٠٦
- أبو جندل يقوم بالدعوة في محبسه ٥٠٧
- محاولة قريش لإلغاء الشرط الأخير بحيث إنه صار في صالح المسلمين ٥٠٧
- في قصة أبي جندل عبرة لمن يعتبر ٥٠٨
- الفائدة الحقيقية للصلح ٥٠٨

طواف المسلمين بالكعبة وأثره في أهل مكة (سنة٧هـ) ٥١٠

غزوة خيبر(عام٧هـ) ٥١١

- المؤامرة الرابعة لليهود: الاستعداد للهجوم على المدينة، والاستباق في دحرهم... ٥١١
- الاستعداد للهجوم الاستباقي على خيبر ٥١٢
- عكاشة على مقدمة الجيش، وعمر على ميمنته ٥١٢
- سياسية حربية ناجحة ٥١٣
- بناء المسجد جنب المقرّ الرئيسي للجيش ٥١٣
- أبوبكر يحول دون قطع النخيل في خيبر ٥١٤
- تتابع فتح الحصون بعد قتل عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرحبًا ٥١٥
- الزبير يقتل ياسرًا أخا مرحب ٥١٦
- يهوديّ يشير النبيّ لقطع مائهم للضغط عليهم ٥١٧
- دور الحباب بن المنذر في الهجوم على حصن أبيّ ٥١٧
- وجاء دور أبي دجانة ٥١٧

إسلام خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (سنة٨هـ) ٥١٩

إسلام عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سنة٨هـ ٥٢٠

إسلام عثمان بن طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (سنة ٨هـ) ٥٢١

إسلام عديّ بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (سنة٩هـ) ٥٢٢

الحج ٥٢٥

- من أهداف الحج وميزاته ٥٢٥
- فرض الحج ٥٢٧

حجة النبي ﷺ ٥٢٨

خطبة حجة الوداع ٥٣٢

- مبادئ العزّ والنجاح في الدنيا والآخرة ٥٣٥
- نزول الآية (اليوم أكملت لكم دينكم) ٥٣٥
- النحر ٥٤٥
- طواف الإفاضة ٥٤٥
- من أهداف الحج إعلان التوحيد الخالص وتعظيم شعائرالله ٥٤٦
- تسمية حجة البلاغ وحجة الوداع ٥٤٦
- تحقق النجاح العظيم في أداء رسالة الإسلام ٥٤٦
- حديث غدير خم أثناء عودة النبي ﷺ، من مكة ٥٤٧

السنة الحادية عشرة ٥٤٩
- الإصابة المؤلمة بوفاته ﷺ ٥٤٩
- استعداده ﷺ ليوم الرحيل ٥٤٩
- ابتداء مرضه ﷺ ٥٥١
- قبل الوفاة بخمسة أيام ٥٥٢
- صلاة المغرب يوم الخميس ٥٥٤
- صلاة العشاء يوم الخميس ٥٥٥
- قبل وفاته ﷺ بيوم أو يومين ٥٥٥
- قبل وفاته بيوم ٥٥٥
- يوم الاثنين: اليوم الأخير من حياة النبي ﷺ ٥٥٦
- نعيه ﷺ نفسه إلى بنته فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ومسارّته لها ٥٥٦
- احتضاره ﷺ ٥٥٨
- لحوقه ﷺ بالرفيق الأعلى ٥٥٩
- مصيبة الأولين والآخرين بوفاة النبي ﷺ ٥٥٩
- خطبة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد وفاة النبي ﷺ ٥٦١
- تغسيله ﷺ ٥٦٢
- صفة كفنه ﷺ ٥٦٣
- كيفية الصلاة عليه ﷺ ٥٦٣

الباب الخامس
أخلاق النبي ﷺ
(٥٦٥-٦١٦)

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ ٥٦٧
- الخلق المحمدي مشبّه به لدى الصالحين ٥٦٨
- كان ﷺ أميًا ٥٦٨
- الإشادة بذكر النبي ﷺ ٥٦٨
- سكوته وكلامه ٥٧١
- ضحكه وبكاؤه ٥٧٢
- توجيهه في الأكل ٥٧٣
- المرض والمريض ٥٧٣

- الطبيب الجاهل ٥٧٣
- عيادة المريض ٥٧٤
- العلاج والتداوي ٥٧٤
- إلقاء الخطبة ٥٧٤
- الصدقة والهدية ٥٧٥
- كراهية المدح والغلوّ ٥٧٦
- إبانة الحقيقة وإصلاح الزعم الخاطئ ٥٧٦
- مراعاة المصلحة العامة ٥٧٦
- بين البشريّة والرسالة ٥٧٧
- العطف على الصبيان ٥٧٧
- الشفقة على العجزة ٥٧٨
- تكريم أهل الفضل ٥٧٨
- الدعاء للخادم ٥٧٨
- الأدب والتواضع ٥٧٨
- الشفقة والرأفة ٥٧٩
- العدل والرحمة ٥٨٠
- الرحمة بالأعداء ٥٨١
- الجود والكرم ٥٨١
- الحياء ٥٨٢
- الصبر والحلم ٥٨٣
- العفو والرحم ٥٨٤
- الصدق والأمانة ٥٨٥
- العفّة والعصمة ٥٨٥
- الزهد ٥٨٦
- مراعاة راحة النساء ٥٨٧
- اهتمامه بالأسرى ٥٨٧
- التدريب على الرياضة والرجولة ٥٨٨
- الرمي ٥٨٨
- سباق الخيل ٥٨٨
- الإحصاء السكّاني ٥٨٨

توجيهات الرسالة.......... ٥٩٠
- حق الله على العباد.......... ٥٩٠
- الرحمة الإلهية.......... ٥٩٠
- برّ الوالدين.......... ٥٩٠
- التناصر بين المسلمين.......... ٥٩١
- علامة المسلم.......... ٥٩١
- كمال الإيمان.......... ٥٩١
- حلاوة الإيمان.......... ٥٩١
- أحبّ الأعمال.......... ٥٩١
- النهي عن الغلوّ في العبادة.......... ٥٩١
- فضل الكسب وذمّ التسوّل.......... ٥٩٢
- رجلان يُغتبط بهما.......... ٥٩٢
- توجيه إلى الخلق الحسن للدخول في الجنة.......... ٥٩٣
- النهي عن سفاسف الأخلاق والأمر بالتآخي.......... ٥٩٣
- حقّ الجار والضيف.......... ٥٩٣
- فضل الكلام والصمت.......... ٥٩٣
- ضمان الرسول.......... ٥٩٣
- الحثّ على الصبر والشكر.......... ٥٩٣
- مقياس القوّة.......... ٥٩٤
- أدب الدعوة.......... ٥٩٤
- أثر المحبة.......... ٥٩٤
- معاملة الأسارى والمساكين والمرضى.......... ٥٩٤
- فضل غرس الأشجار.......... ٥٩٤
- الرحمة بالبهائم.......... ٥٩٤
- فضل تعليم الجارية.......... ٥٩٥
- فضل تعليم البنات.......... ٥٩٥
- علامة المنافق.......... ٥٩٥
- مَن المهاجر؟.......... ٥٩٥
- من يظله الله في ظلّه.......... ٥٩٥
- الأمر بطاعة الأمير.......... ٥٩٦
- إنزال الكبار منازلهم.......... ٥٩٦
- مسئولية الكبار.......... ٥٩٦

- حماية المعاهد ٥٩٦
- منزلة الحياة وعدم تمنّي الموت ٥٩٧
- مكانة الصحّة والفراغ في حياة الناس ٥٩٧
- فضل أداء الدين ٥٩٧
- حقيقة الغنى ٥٩٧
- المساواة بين عامّة الناس ٥٩٧
- الرحمة العامّة ٥٩٧
- الحثّ على ترك المال للورثة ٥٩٨
- الوصيّة في حقّ المرأة ٥٩٨
- منزلة المرأة ٥٩٨
- مكانة عالم القرآن ٥٩٨
- الكلام المحبوب عند الله تعالى ٥٩٨

القرآن الكريم ٥٩٩

- القرآن الكريم والسيرة النبوية ٥٩٩
- نزول القرآن وتلاوته ٥٩٩
- القرآن والإيمان به في تزايد مستمر من نزوله حتى الآن ٦٠٠
- التحريف في ترجمة معاني القرآن الكريم ٦٠٠
- القرآن غضّ طريّ بلغته التي نزل بها أولا ٦٠٠
- الاعتراض على القرآن الكريم ٦٠٠
- وجود تعليمات القرآن في ما مضى من الكتب ٦٠١
- مثال من الواقع ٦٠١

الإلهيات ٦٠٣

- معرفة ذات الله سبحانه وتعالى ٦٠٣
- وصف الدين الحق ٦٠٣
- التقوى المطلوب في العمل ٦٠٤
- غاية الشريعة ٦٠٤
- وظيفة الرسول ﷺ ٦٠٤
- جزاء الأعمال في الدنيا والآخرة ٦٠٤
- سنن الله لا تتغير ٦٠٤
- مناط النجاح ٦٠٥
- مكانة الصبر والتقوى ٦٠٥
- منزلة الحكمة ٦٠٥

- جزاء الصبر ٦٠٥
- قطع الطمع ٦٠٥
- تذكّر الآخرة ٦٠٥
- تجنّب المهالك ٦٠٥
- مغبّة الافتراء والكذب ٦٠٥
- المحرّمات القطعية ٦٠٥
- عبادة الله هو التعميد ٦٠٥
- تنويه بالكتابة ٦٠٦
- آيات الله عزّوجلّ ٦٠٦
- منع الحلف ٦٠٦
- دعوة إلى السلم والصلح ٦٠٦
- الإصلاح بين الناس ٦٠٦
- الأمر بالعفو ٦٠٦
- الصدق يتضح بنفسه ٦٠٦

أصول الحكم ٦٠٧
- توفر العلم ٦٠٧
- منع الفساد ٦٠٧
- عاقبة الظلم ٦٠٧
- ثمرة الصلاح ٦٠٧
- الاستعداد للحرب خير وسيلة للوقاية منها ٦٠٧
- أهمية المشورة ٦٠٧

التعليم والتعلّم ٦٠٨
- استماع القول ٦٠٨
- تلقّي العلم ٦٠٨

نظام الدعوة ٦٠٩
- لابد من طائفة الدعاة ٦٠٩
- الداعية من كل فرقة ٦٠٩

تربية الخَلْق ٦١٠

المدنيّة والتحضّر ٦١٢

فهرس الموضوعات (الجزء الأول) ٦١٥